

في نور
القرآن الكريم

د. محمد عبد الحليم

كتاب التحرير

١

فاتحَةُ الْكِتَابِ

تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

طبع في المطبع

١٣٨٢ هـ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ①
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ②
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ④
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

مقدمة

فهم القرآن بالتعقل والتدبر . التفسير وجوه شتى . القرآن حجة
لاحقة إلى يوم القيامة ولا بد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب
يقدر طاقته واستعداده . مراتب التفسير . ما الذي يجب على الناس
من التفسير . التفسير فرض كفاية . الحاجة الشديدة إلى التفسير
اليوم وفيما بعد . جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية
الأولى . تأثير القرآن العظيم واعتناء العلماء الأولين باللغة العربية

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب
الأمر وأهمها ؛ وما كل صعب يُترك ، ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس
عن طلبه . ووجوه الصعوبة كثيرة ، وأهمها أن القرآن كلامٌ سَوى تنزل
من حضرة الربوبية ، التي لا يُكْتَنه كنهها ، على قلب أكمل الأنبياء . وهو
يشتمل على معارف عالية ، ومطالب سامية ، لا يُشرف عليها إلا أصحاب
النفوس الزاكية والعقول الصافية . وإن الصالب له يجد أمامه من الهيبة
والجلال ، الفائضين من حضرة الكمال ، ما يأخذ بتلبسيه ، ويكاد يحول
دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل
لكلامه ، لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى ، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه ،
ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه .

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دينٌ يرشد الناس
إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد
الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحقيقه .

التفسير له وجوه شتى :

أحدها - النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليُعرف به علو الكلام وامتيازُه على غيره من القول . سلك هذا المسلك الزمخشري ، وقد أَلَمَّ بشيء من المقاصد الأخرى ، ونحا نحوه آخرون .
ثانيها - الإعراب . وقد اعتنى بهذا أقوامٌ توسَّعوا في بيان وجوهه وما تحمله الألفاظ منها .

ثالثها - تتبع القصص . وقد سلك هذا المسلك أقوامٌ زادوا في قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات ، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم ، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفریق بين غث وسمين ، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل .
رابعها - غريب القرآن .

خامسها - الأحكام الشرعية ، من عبادات ومعاملات ، والاستنباط منها .
سادسها - الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين ومحااجة المختلفين .
وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع .

سابعها - المواعظ والرقائق ، وقد مزجها الذين وليعوا بها بحكايات المنصوفة والعباد ، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن .

ثامنها - ما يسمونه بالإشارة . وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيي

الدين بن عري ، وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير ، وفيه من النزغات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز .

وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ويذهب به في مذاهب تنسيه معناه الحقيقي ، لهذا كان الذي نعتى به من التفسير هو ما سبق ذكره ، ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لاجبة إلى التفسير والنظر في القرآن لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منهما ، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ، ولو صحت هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضع به الوقت سدى ، وهو - على ما فيه من تعظيم شأن الفقه - مخالف لإجماع الأمة من النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين . ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم !

الأحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقها هي أقل ما جاء في القرآن . وإن فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ، وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية ، ما لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وما هو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي ، ولا يوجد هذا الإرشاد إلا في القرآن .

وفيا أخذ منه - كإحياء العلوم - حظ عظيم من علم التهذيب . ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه ، وتأثيره في قلوب الذين يتلونهُ

حقّ تِلَاوَتِهِ ، لا يساهمه فيه كلامٌ ، كما أن الكثير من جُكَيِّهِ ومعارفهِ لم يُكشَفْ عنها اللثام ، ولم يُفصِّح عنها عالمٌ ولا إمامٌ . ثُمَّ إن أئمةَ الدِّينِ قالوا إن القرآنَ سبَقَ حُجَّةً على كُلِّ فردٍ من أفرادِ البشرِ إلى يومِ القيامةِ لحديث « والقرآنُ حُجَّةٌ لكَّ أو عَلَيْكَ » . ولا يُعَقَّلُ هذا إلا بفهمِهِ والإصابةِ من حكمته وحكمِهِ .

خاطَبَ اللهُ بالقرآن مَنْ كان في زمنِ التنزيلِ . ولم يُوجِّه الخطابَ إليهم لخصوصيةٍ في أشخاصهم ، بل لأنهم من أفرادِ النوعِ الإنساني الذي أنزلَ القرآنَ لهدايتهِ . يقولُ اللهُ تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ، فهل يُعَقَّلُ أَنَّهُ يَرْضَى منا بالأ نَفهمَ قولَهُ هذا ونكتفي بالنظرِ في قولِ ناظرٍ نظرَ فيه لم يأتنا من اللهِ وحىٌ بوجوبِ اتباعِهِ لاجملةٍ ولا تفصيلاً ؟ كلا . إنه يجبُ على كُلِّ واحدٍ من الناسِ أن يفهمَ آياتِ الكتابِ بقدرِ طاقته ، لا فرقَ بين عالمٍ وجاهلٍ ، يكتفى العاى من فهمِ قولِهِ تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » ، ما يعطيه الظاهرُ من الآياتِ ، وأنَّ الذين جُمِعَتْ أوصافُهُم في الآياتِ الكريمةِ لهم الفوزُ والفلاحُ عندَ اللهِ تعالى . ويكتفى في معرفةِ الأوصافِ أن يعرفَ معنى الخشوعِ والإعراضِ عن اللَّغو وما لا خيرَ فيه ، والإقبالِ على ما فيه فائدةٌ له دُنْيويةٌ أو أُخْرويةٌ ، وبذلِ المالِ في الزكاةِ ، والوفاءِ بالعهدِ وصدقِ الوعدِ والعفةِ عن إتيانِ الفاحشةِ ، وأنَّ مَنْ فارقَ هذه الأوصافِ إلى أَضْدَادِهَا فهو المَتَعَلَّى حُلُودَ اللهِ المتعرضُ لغضبهِ ، وفهمُ

هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان ومن أهل أى لغة كان .
ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير
ويصرفها عن الشر ، فإن الله تعالى أنزله لإهدائنا ، وهو يعلم منا كل أنواع
الضعف الذى نحن عليه .

وهناك مرتبة تعلو على هذه ، وهى من فروض الكفاية .

• • •

وللتفسير مراتب ، أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله
تعالى وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير ؛ وهذه هى
التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

أحدها - فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق
المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكثف بقول فلان وفهم فلان ،
فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت
على غيرها بعد ذلك بزمان قريب أو بعيد . من ذلك لفظ « التأويل » ،
اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن
بمعان أخرى كقوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » ، فما هذا التأويل ؟
يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى
الجملة ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب ، فكثيراً ما يفسر المفسرون
كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الجملة بعد القرون الثلاثة الأولى
فعلى المدقق أن يفهم القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصره .

نَزُولِهِ ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يَفْهَمَ اللَّفْظَ مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ بِأَنْ يَجْمَعَ مَا تَكَرَّرَ فِي
مَوَاضِعَ مِنْهُ وَيَنْظُرَ فِيهِ - فَرَبَّمَا اسْتَعْمَلَ بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ كَلَفْظَ الْهُدَايَةِ وَغَيْرِهِ -
وَيُحَقِّقَ كَيْفَ يَتَّفَقُ مَعْنَاهُ مَعَ جُمْلَةٍ مَعْنَى الْآيَةِ ، فَيَعْرِفَ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبَ مِنْ
بَيْنِ مَعَانِيهِ . وَقَدْ قَالُوا إِنَّ الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَإِنْ أَفْضَلَ قَرِينَةً
تَقُومُ عَلَى حَقِيقَةٍ مَعْنَى اللَّفْظِ مُوَافَقَتُهُ لِمَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الْقَوْلِ ، وَاتِّفَاقُهُ مَعَ
جُمْلَةِ الْمَعْنَى ، وَاتِّلَافُهُ مَعَ الْقَصْدِ الَّذِي جَاءَ لَهُ الْكِتَابُ بِجُمْلَتِهِ .

ثَانِيهَا - الْأَسَالِيبُ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهَا مَا يَفْهَمُ بِهِ هَذِهِ
الْأَسَالِيبَ الرَّفِيعَةَ ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ الْكَلَامِ الْبَلِيجِ وَمَزَاوَلَتِهِ مَعَ التَّفَقُّنِ
لِتَكْنِيهِ وَمَحَاسِنِهِ ، وَالْعَنَائَةِ بِالْوُقُوفِ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْهُ . نَعَمْ إِنَّمَا لَا نَتَسَاءَى
إِلَى فَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّهُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ وَالْتِمَامِ ، وَلَكِنْ بِمَكْنُنَا فَهْمُ
مَا نَهْتَدِي بِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ . وَيُحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَى عِلْمِ الْإِعْرَابِ وَعِلْمِ الْأَسَالِيبِ
(الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ) ، وَلَكِنْ مُجَرَّدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْفُنُونِ وَفَهْمِ مَسَائِلِهَا وَحَفِظِ
أَحْكَامِهَا لَا يَفِيدُ الْمَطْلُوبَ . تَرَوْنَ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا مُسَدِّدِينَ
فِي النَّطْقِ ، يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يُوَافِقُ الْقَوَاعِدَ قَبْلَ أَنْ تُوضَعَ . أَتَحْسِبُونَ أَنَّ ذَلِكَ
كَانَ طَبِيعِيًّا لَهُمْ ؟ كَلَّا ، وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ مُكْتَسَبَةٌ بِالسَّمَاعِ وَالْمَحَاكَاةِ ، وَلِذَلِكَ
صَارَ أَبْنَاءُ الْعَرَبِ أَشَدَّ عُجْمَةً مِنَ الْعَجَمِ عِنْدَمَا اخْتَلَطُوا بِهِمْ ؛ وَلَوْ كَانَ طَبِيعِيًّا
ذَاتِيًّا لَهُمْ لَمَا فَقَلُّوهُ فِي مِلَّةٍ خَمْسِينَ سَنَةً مِنْ بَعْدِ الْهَجْرَةِ .

ثَالِثُهَا - عِلْمُ أَحْوَالِ الْبَشَرِ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ آخِرَ الْكِتَابِ ،
وَبَيَّنَ فِيهِ مَا لَمْ يُبَيِّنْهُ فِي غَيْرِهِ . بَيَّنَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْخَلْقِ وَطَبَائِعِهِ
وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْبَشَرِ ، وَقَصَّ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ عَنِ الْأُمَمِ وَسِيرَهَا
الْمُوَافِقَةَ لِسُنَنِهَا فِيهَا ؛ فَلَا بَدَّ لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ

البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ واختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وجل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويته وسفليته . وبحسب حاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه . وأنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً قَبْلَ أَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَجْزِيَكُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف أحبوا وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أو ضارة ، وماذا كان من آثار بغيه

النبيين فيهم .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والأنفيس ، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شيء علماً ، وأمرنا بالنظر والتفكير والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهريه لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة .

رابعاً - العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا القرض الكيفي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن يُنادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة

أوما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يُكْتَفَى من علماء القرآن - دُعاة الدين والمناضلين عنه - بالتقليد ، بأن يقولوا تقليداً لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وإن القرآن دَحْضُ آبَائِهِمْ في الجملة ؟ كلا .

خامسها - العلمُ بسميرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشئون دُنْيَوِيَّهَا وَآخِرَوِيَّهَا .
فَعَلِمَ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ التفسيرَ قسمان :

أحدهما جافٌ مُبْعَدٌ عن الله وكتابه ، وهو ما يُقْصَدُ به حُلُّ الألفاظ وإعراَبُ الجُمْلِ وبيان ما تَرَبَّى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية . وهذا لا ينبغي أن يُسَمَّى تفسيراً ، وإنما هو ضربٌ من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما .

وثانيهما - وهو التفسيرُ الذي قلنا إنه يجبُ على الناس على أنه قَرْضُ كفاية - هو الذي يَسْتَجْمِعُ تلك الشروط لأجل أن تُسْتَعْمَلَ لغابيتها ، وهو ذهابُ المفسر إلى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله «هُدًى وَرَحْمَةٌ» ونحوهما من الأوصاف . فالْمَقْصِدُ الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن ، وهذا هو الغرض الأول الذي أرى إليه في التفسير .

ومثلُ الناطقين بالعربية الآن - من العراق إلى نهاية بلاد مُرَاكُش - بالنسبة إلى العرب في لغتهم كمثل قوم من الأعاجم مهالطين للعرب وجَدَ في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية ، فهؤلاء

الأقوام أشد حاجة إلى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الأولين ، لاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بُدئ بكتابة التفسير وأحسن المسلمون شدة حاجتهم إليه . ولا شك أن من يأتي بعلمنا يكون أحوج منا إلى ذلك إذا بقينا على تفهقرنا ، ولكن إذا يسر الله لنا نهضة لإحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعلمنا أحسن حالا منا .

التفسير عند قومنا ، اليوم ومن قبل اليوم بقرون ، هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير ، على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب ، ثم يبحثونه في الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتقن فيها ويمارون فيها من يباريهم في طلبها ، ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل . إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه ، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل إلينا « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . يسألنا : هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتهم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن واهتديتم بهدي النبي واتبعتم سنته ؟

عجبا لنا ... نتنظر هذا السؤال ونحن في هذا الإعراض عن القرآن وهديه ! فيا للخفلة والغرور !

معرفةً بالقرآن كمعرفةًنا بالله تعالى ... أول ما يُلقَّن الوليدُ عندنا من معرفة الله تعالى هو اسمُ «الله» تبارك وتعالى ، يتعلَّمهُ بالإيمان الكاذبة كقوله : «والله لقد فعلتُ كذا وكذا ! والله ما فعلتُ كذا !» . وكذلك القرآن ، يَسْمَعُ الصبيُّ من يعيش معهم أنه كلامُ الله تعالى ، ولا يعقلُ معنى ذلك ، ثم لا يعرفُ من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائرُ المسلمين الذين يتربُّون بينهم ، وذلك بتأمرين :

أحدهما - اعتقادُ أن آيةَ كذا إذا كُتِبَتْ ومُحِيتْ بماءٍ وشرِبهُ صاحبُ مرضٍ كذا شُفِيَ . وأنَّ مَنْ حملَ القرآنَ لم يَقْرَبْهُ جنٌ ولا شيطان ، وبُورِكَ له في كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما هو مشهورٌ ومعروفٌ للعامةِ أكثرُ مما هو معروفٌ للخاصة . ومع صَرَفِ النظرِ عن صحةِ هذا وعدمِ صحتهِ نقولُ إنَّ فيه مبالغةً في التعظيمِ عظيمةً جداً ، ولكنها - وبِاللأسفِ ! - لا تزيدُ من تعظيمِ الترابِ الذي يُؤخَذُ من بعضِ الأضرحةِ ابتغاءَ هذه المنافعِ والفوائدِ نفسها . ونحوُ هذا ما يُعلَقُ على الأطفالِ من التعاويذِ والتنجيسِ ، كالخَرَقِ والعظامِ وألثامِ المشتَملةِ على الطُّلُسماتِ والكلماتِ الأعجميةِ المنقولةِ عن بعضِ الأممِ الوثنية . هذا الضربُ من تعظيمِ القرآنِ نُسَمِّيهِ - إذا جَرَيْنَا على سُنَّةِ القرآنِ - عبادةً للقرآن ، لا عبادةً لله به .

ثانيهما - الهزَّةُ والحركةُ المخصوصةُ ، والكلماتُ المعلومةُ التي تصدرُ ممن يسمعونَ القرآنَ إذا كانَ القارئُ رَخِمَ الصوتِ حسنَ الأداءِ عارفاً بالتطريبِ على أصولِ النغمِ . والسببُ في هذهِ اللذةِ والنشوةِ هو بحسْنِ الصوتِ والنغمِ ، بل أقوى سببٍ لذلك هو بُعدُ السامعِ عن فهمِ القرآنِ . وأعنى بالفهمِ ما يكونُ عن ذوقِ سليمٍ تصنيهِ أساليبِ القرآنِ يعجائياً ،

وتملكه مواظها ، فتشغلُهُ عما بينَ يديه مما سواه . لا أريدُ الفَهْمَ المأخوذَ بالتسليمِ الأعمى من الكُتُبِ أخذًا جافًا لم يَصْحَبْهُ ذلك الذوقُ وما يتبعهُ من رِقَّةِ الشعورِ ولُطْفِ الوجدانِ اللذين هما مدارُ التعقُّلِ والتأثيرِ والفَهْمِ والتدبُّرِ . لهذا كله عَمَكْنَا أَنْ نقولَ إن الجاهليَّةَ اليومَ أشدُّ مِنْ الجاهليَّةِ الأولى ، والضالِّينَ اليومَ أعمَنُ في الضلالِ مِنَ الضالِّينَ في زَمَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّ مِنْ أَوْلِيكَ مَنْ قالَ اللهُ تعالى فيهِمْ : « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ » ، ومعرفةُ الحقِّ أمرٌ عظيمٌ شريفٌ . نعم ، ربما كان لئِمُّ صاحبِها مع الجحودِ أشدُّ ، ولكنَّهُ يكونُ دائمًا مَلُومًا مِنْ نَفْسِهِ على الإعراضِ عن الحقِّ ، وهذا اللومُ يُزَكِّلُ ما في نَفْسِهِ من الإصرارِ على الباطلِ .

كان الهدى راعى الغمَّ يسمَعُ القرآنَ فَيَحْزَنُ له ساجدًا لما عندهُ من رِقَّةِ الإحساسِ ولُطْفِ الشعورِ ، فهل يُقاسُ هذا بِأَيِّ متعلِّمٍ اليومَ ؟ أَرَأَيْتَ أَهْلَ جزيرةِ العربِ كَيْفَ انْصَوَّوا إلى الإسلامِ بجاذبيَّةِ القرآنِ لما كان لهم من رِقَّةِ المداركِ التي كانت سببَ الانجذابِ إلى الحقِّ ؟ قالَ الأصمعيُّ : سَمِعْتُ بَنَاتًا مِنَ الْأَعْرَابِ ، حُمَاسِيَّةً أَوْ سُدَّاسِيَّةً ، تُنْشِدُ :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ قَتَلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ جُلَّةٍ

مثل غزالي ناعمٍ في ذلكَ وانتصفَ الليلُ ولم أَصَلْهُ

فقلتُ لها : قَاتَلَكِ اللهُ مَا أَفْصَحَكَ ! فقالت : وَيَحَكَ ! أَبْعَدُ هذا فصاحةٌ مع قولِهِ تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيَّةٌ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بينَ أَمْرَيْنِ وَهَيْئَتَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ ؟

لَمَّا رَأَى علماء المسلمين في الصدرِ الأوَّلِ تَأثيرَ القرآنِ في جذبِ قلوبِ
الناسِ إلى الإسلامِ ، وأنَّ الإسلامَ لا يُحفظُ إلا به ، ولما كان العربُ قد
اختلفوا بالعجمِ ، وفهمَ مَنْ دَخَلَ في الإسلامِ مِنَ الأعاجِمِ ما فهمه علماء
العربِ ، أَجْمَعَ كُلُّ عَلَى وجوبِ حِفْظِ اللغةِ العربيةِ ، ودَوَّنُوا لها الدواوينَ
ووضعوا لها الفُنُونُ .

نعم إنَّ الاشتغالَ بلغةِ الأُمَّةِ وآدابها فضيلةٌ في نفسه ومادةٌ من موادِّ
حياتها ، ولا حياةَ لأُمَّةٍ ماتتَ لغتها ، ولكنْ لم يكنْ هذا وحدهُ هو الحاملُ
لسلفِ الأُمَّةِ على حِفْظِ اللغةِ بمفرداتها وأساليبها وآدابها ، وإنما الحاملُ لهم
على ذلك ما ذكرنا .

أَلَفَ العلماءُ الاسفرائينيُّ كتاباً في الفِرَقِ خَتَمَهُ بِذِكْرِ أَهْلِ السُّنَةِ
ومزاياهم ، وعدَّ من فضائلهم التي امتازوا بها على سائرِ الفِرَقِ التبريزَ
في اللغةِ وآدابها ، وبَيَّنَ ذلكَ بآجلى بيان . فأينَ هذه المزايا وأين آثارُها
في فهمِ القرآنِ ، بل فهمِ ما دونه من الكلامِ البليغِ ؟ وقد بيَّنا وجهَ الحاجةِ
في التفسيرِ إلى تحصيلِ ملكةِ اللُّوقِ العَرَبِيِّ ، وإلى غيرِ ذلكَ من الأمورِ الَّتِي
يَتَوَقَّعُ عليها فهمُ القرآنِ .

الفاتحة

سُمِّيَتِ الْفَاتِحَةُ فَاتِحَةً لِأَنَّهَا أَوَّلُ الْقُرْآنِ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ . وَتُسَمَّى أُمُّ الْكِتَابِ . وَقَالُوا إِنَّ حَدِيثَ النَّهْيِ عَنْ تَسْمِيَّتِهَا هَذَا الْأِسْمَ مُوَضُّوعٌ .

وَيَتَكَلَّمُونَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنِ السُّورِ عَلَى الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ ، وَهُوَ يُفِيدُ فِي مَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ ، وَلَيْسَ فِي الْفَاتِحَةِ نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ . وَهِيَ مَكِّيَّةٌ خِلَافاً لِمُجَاهِدٍ ، فَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ بِالْفَاتِحَةِ لِأَوَّلِ فَرَضِيَّتِهَا . وَلَا رَيْبَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي مَكَّةَ .

وَقَالُوا هِيَ الْمُرَادُ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » . . . وَهُوَ مَكِّيٌّ بِالنَّصِّ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً بِمَكَّةَ عِنْدَ فَرَضِيَّةِ الصَّلَاةِ ، وَأُخْرَى بِالْمَدِينَةِ حِينَ حُوِّلَتْ الْقِبْلَةُ ، وَكَأَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْقَوْلِ أَرَادَ الْجَمْعَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ . وَقَالَ كَثِيرُونَ إِنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ أَنْزَلَتْ بِتَابِعِهَا .

وَالْأَرْجَحُ أَنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَا أَسْتثنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . وَمِنْ آيَةِ ذَلِكَ أَنَّ السَّنَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي هَذَا الْكَوْنِ - سِوَاهُ كَانَ كَوْنٌ لِإِبْجَادٍ أَوْ كَوْنٌ لِتَشْرِيعٍ - أَنَّ يُظْهَرَ سُبْحَانَهُ الشَّيْءُ مُجْمَلًا ثُمَّ يُتْبَعُهُ التَّفْصِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ تَلَدْرِجًا . وَمَا مَثَلُ الْهِدَايَاتِ الْإِلَهِيَّةِ إِلَّا مَثَلُ الْبَذَرَةِ وَالشَّجَرَةِ الْعَظِيمَةِ ، فَهِيَ فِي بَدَايَتِهَا مَادَّةٌ حَيَاةٍ تَحْتَوِي عَلَى جَمِيعِ أَصُولِهَا ، ثُمَّ تَنْمُو بِالتَّلَدْرِجِ حَتَّى تَبْشُقَ فَرْعُهَا بَعْدَ أَنْ تَعْظُمَ دَوْحَتُهَا ثُمَّ تَجُودَ عَلَيْكَ بِشَرَاهَا .

والفاتحةُ مشتملةٌ على مُجْمَلِ ما في القرآن ؛ وكل ما فيه تفصيلٌ للأصولِ التي وُضِعَتْ فيها . ولستُ أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف ، كقولهم إن أسرارَ القرآنِ في الفاتحةِ ، وأسرارَ الفاتحةِ في البسملةِ ، وأسرارَ البسملةِ في الباءِ ، وأسرارَ الباءِ في نقطتها ... فإن هذا لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم الرضوان ، ولا هو معقولٌ في نفسه ، وإنما هو من مخترعاتِ الفلاة الذين ذهبَ بهم القُلُوبُ إلى إعدامِ القرآنِ خاصَّتهُ ، وهي البيان .

وبيانُ ما أريدُ أنَّ ما نُزِّلَ القرآنُ لأجلِهِ أمورٌ :

أحدها - التوحيدُ ، لأنَّ الناسَ كانوا كلَّهم وثنيَّينَ وإن كان بعضهم يَدعى التوحيدَ .

ثانيها - وعْدُ من أخذَ به وتبشيرهُ بحُسْنِ الثبوتِ ، ووَعْدُ من لم يأخذْ به وإنذارُهُ بسوءِ العقوبةِ . والوَعْدُ يشملُ ما للأُمَّةِ وما للأفرادِ ، فيعمُ نِعَمَ الدنيا والآخرةِ وسعادَتَهُما . والوَعْدُ كذلك يشملُ نِقَمَهُما وشقاءَهُما ؛ فقد وعدَ اللهُ المؤمنينَ بالاستخلافِ في الأرضِ والعِزَّةِ والسُّلطانِ والسِّيادةِ ، وأوعَدَ المخالفينَ بالخِزْيِ والشقاءِ في الدنيا ، كما وعدَ في الآخرةِ بالجنةِ والنعيمِ ، وأوعَدَ بنارَ الجحيمِ .

ثالثها - العبادةُ التي تُحيي التوحيدَ في القلوبِ وتُثَبِّتُهُ في النفوسِ .

رابعها - بيانُ سبيلِ المعادةِ وكيفيةِ السيرِ فيه الموصلِ إلى نِعَمِ الدنيا والآخرةِ .

خامسها - قَصَصَ مَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُلُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَخَذَ بِأَحْكَامِ دِينِهِ ،
وَأَخْبَارَ الَّذِينَ تَعَدَّوْا حُلُودَهُ وَنَبَذُوا أَحْكَامَ دِينِهِ ظَهْرِيًّا ، لِأَجْلِ الْإِعْتِبَارِ وَاجْتِبَارِ
طَرِيقِ الْمُحْسِنِينَ .

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن ، وفيها حياة الناس وسعادتهم
الدنيوية والأخروية . والفتاحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شئت ولا ريب .
فأما التوحيد ففي قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ، لأنه ناطقٌ بآن
كلِّ حميدٍ وثناءٍ يَصُدُّرُ عن نعمةٍ ما فهو له تعالى ، ولا يصحُّ ذلك إلا إذا
كَانَ سُبْحَانَهُ مُضْطَرِّ كُلِّ نعمةٍ في الوجود تستوجبُ الحمدَ ، ومنها نعمةُ
الخلقِ والإيجادِ والتربيةِ والتنميةِ .

ولم يكتفِ باستلزامِ العبارة لهذا المعنى فصَّرَحَ بِهِ بقوله « رَبِّ الْعَالَمِينَ » .
ولفظ « رَبِّ » ليس بمنهائِ المالكِ والسيدِ فقط ، بل فيه معنى التربية والإتماء .
وهو صريحٌ بآن كلِّ نعمةٍ يراها الإنسانُ في نفسه وفي الآفاقِ منه عزَّ وجلَّ ،
فليس في الوجودِ متصرفٌ بالإيجادِ والإشقاء والإسعادِ سِوَاهُ .

التوحيدُ أهمُّ ما جاء لأجلِهِ الدِّينُ . ولذلك لم يكتفِ في الفتاحة بمجرّدِ
الإشارةِ إليه بل استكملَهُ بقوله : « إِنَّا نَعْبُدُكَ وَإِنَّا نَسْتَعِينُكَ » ، فاجتث
بذلك جُذُورَ الشُّرْكِ والوثنيةِ التي كانت فاشيةً في جميعِ الأممِ ، وهي اتِّخَاذُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تُعْتَقَدُ لَهُمُ السُّلْطَةُ الْعَيْنِيَّةُ ، وَيُدْعَوْنَ لَذَلِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَيُسْتَعَانُ بِهِمْ عَلَى قِضَاءِ الْحَوَائِجِ فِي الدُّنْيَا وَيَتَقَرَّبُ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . وجميعُ
ما في القرآنِ من آيَاتِ التوحيدِ ومقارعةِ المشركينَ هو تفصيلُ لهذا الإجمالِ .
وأما الوعدُ والوعيدُ فالأوَّلُ منهما مطوًى في « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .
فَذِكْرُ الرَّحْمَةِ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ - وهي التي وَصَّيَتْ كُلَّ شَيْءٍ - وَعِدُ الْإِحْسَانِ ،

لا سيما وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا على أَنَّ أمره إيانا بتوحيده وعبادته
رحمةً منه سبحانه بنا لأنَّه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى : «مَالِكِ يَوْمِ
الدِّينِ» يتضمَّن الوعد والوعيد معاً ، لأنَّ معنى الدِّين الخسوعُ ، أى إنَّ له
تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لا حقيقة
ولا ادعاء ، وأنَّ العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً برجو
رحمته ويخشى عذابه ، وهذا يتضمَّن الوعد والوعيد : أو معنى الدين الجزاء ،
وهو إما ثوابٌ للمحسن وإما عقابٌ للمسيء وذلك وعدٌ ووعيد . وزدَّ على
ذلك أنه ذكَّر بعد ذلك «الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ، وهو الذى مَنْ سَلَكَه فاز ،
وَمَنْ تَنَكَّبَهُ هَلَكَ ، وذلك يستلزم الوعد والوعيد .

وأما العبادة فبعد أن ذُكرت في مقام التوحيد بقوله : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ» أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى : «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ» ، أى إنه قد وضع لنا صراطاً سَيِّبَتُهُ ويحدُّه ويكون مناط
السَّعادة في الاستقامة عليه والشقاء في الانحراف عنه ، وهذه الاستقامة
عليه هي هداية العبادة ؛ ويشبه هذا قوله تعالى : «وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي
خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ» ، فالتَّوَاصَى بِالْحَقِّ والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد .

والفاتحة بجُمْلتها تنفع روح العبادة في المتَّبَرِّ لها . وروح العبادة هي
إشراق القلوب بخشية الله وهيبته والرجاء لفضله ، لا الأعمال المعروفة من
فعل وكفٍّ وحركاتٍ باللسان والأعضاء ؛ فقد ذُكرت العبادة في الفاتحة
قبل ذكر الصَّلَاة وأحكامها والصيام وأيامه ، وكانت هذه الروح في
المسلمين قبل أن يُكَلَّفُوا هذه الأعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي

فُصِّلَتْ فِي الْقُرْآنِ تَفْصِيلًا مَّا ، وَإِنَّمَا الْحَرَكَاتُ وَالْأَعْمَالُ مِمَّا يُتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ . وَمُنْجُ الْعِبَادَةِ الْفِكْرُ وَالْعِبْرَةُ .

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ وَالْقَصَصُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ »
تَصْرِيحٌ بِأَنَّ هُنَالِكَ قَوْمًا تَقَدَّمُوا ، وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ شَرَائِعَ لَهْدَايَتِهِمْ ، وَصَانَحُ
يَصِيحُ أَلَا فَانظُرُوا فِي الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَاعْتَبَرُوا بِهَا . كَمَا
قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ يَدْعُوهُ إِلَى الْاِقْتِدَاءِ بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ » ، حَيْثُ بَيَّنَّ أَنَّ الْقَصَصَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعِظَةِ وَالْاِعْتِبَارِ .
وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » تَصْرِيحٌ بِأَنَّ مَنْ دُونَ
الْمَنْعَمِ عَلَيْهِمْ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ ضَلَّ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ ، وَفَرِيقٌ جَاحَدَهُ وَعَانَدَ مَنْ
يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَكَانَ مُحْضَوْفًا بِالْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ وَالْخِزْيِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
وَبَاقِي الْقُرْآنِ يَفْصِّلُ لَنَا فِي أَخْبَارِ الْأُمَمِ هَذَا الْإِجْمَالَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفِيدُ
الْعِبْرَةَ ، فَيُشْرِحُ حَالَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ قَاوَمُوا الْحَقَّ ، وَحَالَ الَّذِينَ حَافَظُوا
عَلَيْهِ وَصَبَرُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِهِ .

فَتَبَيَّنَ مِنْ مَجْمُوعِ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَاتِحَةَ قَدْ اشْتَمَلَتْ إجمالاً عَلَى الْأَصُولِ
الَّتِي يُفْصِّلُهَا الْقُرْآنُ تَفْصِيلًا ، فَكَانَ لِإِنزَالِهَا أَوَّلًا مُوَافِقًا لِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي
الْإِبْدَاعِ . وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْفَاتِحَةُ جَدِيرَةً بِأَنْ تُسَمَّى « أُمُّ الْكِتَابِ » ، كَمَا
نَقُولُ إِنَّ النُّوَاةَ أُمُّ النُّخْلَةِ ، فَإِنَّ النُّوَاةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى شَجَرَةِ النُّخْلَةِ كُلِّهَا
حَقِيقَةً ، لَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأُمَّ تَكُونُ أَوَّلًا وَيَأْتِي
بَعْدَهَا الْأَوَّلَادُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القرآن إمامنا وقُدوتنا ، فافتتاحه بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتح أعمالنا بها . فما معنى هذا ؟

ليس معناه أن نفتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى لأن تذكُّره على سبيل التبرُّك أو الاستعانة به ، بل أن نقول هذه العبارة « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، فإنها مطلوبة لذاتها .

عندما نقول إنني أذكر اسم الله تعالى - العزيز والحكيم - لا تعني أنك تذكر لفظ « اسم » . فلو كان قولهم إن المراءاة من الابتداء بالكلمة « بِسْمِ اللَّهِ » التبرُّك باسم الله هو الصواب ، لكان ينبغي أن يكون قولك « بِاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » مثل « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » وقوله تعالى « بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » .. وقد قال بعضهم إن الإضافة ههنا للبيان ، أى أفصح كلامي باسم هو الله ، ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ الرحمن الرحيم وارداً على اللفظ ، وهو غير صحيح . وإرادة أن الأسماء الثلاثة هي المبينة للفظ الاسم تمحل ظاهر ، فما المقصود إذن من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مأثور عند جميع الأمم ، ومنهم العرب ، وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته إليه . ومُتَسَلِّحاً عنه يقول أعمله باسم فلان ، ويدكر اسم ذلك الأمير أو السلطان ، لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه .

فإذا كنتَ أَعْمَلُ عَمَلًا لَا يَكُونُ لَهُ وجودٌ وَلَا عَنْهُ أثرٌ ، لولا السلطانُ الذي بِهِ أثرٌ ، أقولُ إنَّ عَمَلِي هذا باسمِ السلطانِ ، أيْ أَنَّهُ مُعْتَوٍ بِاسْمِهِ ، ولولاهُ لَمَّا عَمِلْتُهُ . فمعنى أَتَبَدَّى عَمَلِي « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » أَنَّنِي أَعْمَلُ بِأَمْرِهِ ، وَلَهُ لَا لِي ، وَلَا أَعْمَلُهُ بِاسْمِي مُسْتَقِلًّا بِهِ عَلَى أَنَّنِي فُلَانٌ . فَكَأَنِّي أَقُولُ إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لِلَّهِ لَا لِحَظٍ نَفْسِي .

وفيه وجهٌ آخَرٌ ، وهو أَنَّ القُدْرَةَ الَّتِي أَنْشَأَتْ بِهَا الْعَمَلَ هِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَوْلَا مَا مَنَحَنِي مِنْهَا لَمْ أَعْمَلْ شَيْئًا . فَلَمْ يَصْلُرْ عَنِّي هَذَا الْعَمَلُ إِلَّا بِاسْمِ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ بِاسْمِي ، إِذْ لَوْلَا مَا آتَانِي مِنَ الْقُوَّةِ عَلَيْهِ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَهُ ، وَقَدْ تَمَّ هَذَا الْمَعْنَى بِلَفْظِ « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وحاصلُ الْمَعْنَى أَنَّنِي أَعْمَلُ عَمَلِي مُتَبَرِّئًا مِنْ أَنْ يَكُونَ بِاسْمِي ، بَلْ هُوَ بِاسْمِهِ تَعَالَى ، لِأَنَّنِي أَسْتَعِذُّ الْقُوَّةَ وَالْعِزَّةَ مِنْهُ ، وَأَرْجُو إِحْسَانَهُ عَلَيْهِ ، فَلَوْلَاهُ لَمْ أَقْبِرْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَعْمَلْهُ ، بَلْ مَا كُنْتُ عَامِلًا لَهُ عَلَى تَقْدِيرِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ لَوْلَا أَمْرُهُ وَرَجَاءُ فَضْلِهِ .

فلفظُ الاسمِ معناه مرادٌ ، ومعنى لفظِ الجلالةِ مرادٌ أَيضًا ، وكذلك كُلٌّ مِنْ لَفْظِ الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ .

وهذا الاستعمالُ معروفٌ مألوفٌ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ ، وَأَقْرَبُهُ إِلَيْكُمْ الْيَوْمَ مَا تَرَوْنَهُ فِي الْمَحَاكِِمِ النَّظَامِيَةِ حَيْثُ يَبْتَدِثُونَ الْأَحْكَامَ قَوْلًا وَكِتَابَةً بِاسْمِ السُّلْطَانِ فُلَانٍ أَوْ الْخَلِيْفِ فُلَانٍ^(١) .

ومعنى البِسْمَلَةِ فِي الْفَاتِحَةِ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُقَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْآيَاتِ وَغَيْرِهَا هُوَ لِلَّهِ وَمِنَهُ ، لَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ فِيهِ شَيْءٌ .

(مصدق الله العظيم)
(كتاب التحرير)

(١) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

وَالرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ مشتقان من الرحمة ، وهى معنى يُلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحيله على الإحسان إلى غيره ، وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر ، لأنه فى البشر أَلَم فى النفس شفاؤه الإحسان ، والله تعالى مُنزه عن الآلام والانفعالات . فالمعنى المقصود بالنسبة إليه من الرحمة أثرها وهو الإحسان . وقد مَثَّى الجلال فى تفسيره ، وَتَبَّعَهُ الصَّبَّانُ ، على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد ، وأن الثانى تأكيد للآول . ومن العجيب أن يصلى مثل هذا القول عن عالم مُسلم ، وما هى إلا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها .

وأنا لا أجيز لمُسلم أن يقول فى نفسه أو بلسانه إن فى القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتى لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها فى نفسها معنى تستقل به . نعم قد يكون فى معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريراً أو إيضاحاً ، ولكن الذى لا أجيزه أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ، ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لا غير ، بحيث تكون مما يُسمى بالمتراذف فى عرف أهل اللغة ، فإن ذلك لا يقع إلا فى كلام من يرى فى لفظه إلى مجرد التثنية والتزويج ، وفى العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها . وأما ما يُسمونه بالحرف الزائد الذى يأتى للتأكيد فهو حرف وُضِعَ لذلك ، ومعناه هو التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التى يؤكدها . فالباء فى قوله تعالى : « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » توكيد معنى اتصال الكيفية بجانب الله جل شأنه بذاتها ، ومعناها التى وُضِعَتْ لَهُ ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك فى الإعراب . وكذلك معنى من فى قوله : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » ونحو ذلك . أما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل

كتب كهذه... بعثت أوروبا من العدم

عندما كان يهر أوروبا مخاض النهضة ظهرت في مختلف بلادها ظاهرة تستوقف الأنظار، هي كتيبات سميت حيناً "Pamfletis"، وحيناً "Pamflets"، وحيناً "Pamphlets". ثم قر قرارها في الإنجليزية على لفظ "Pamphlets". ويعنون بها الكتيبات لا يزيد حجم الواحد منها على «كتاب التحرير»، ولا يزيد عدد صفحاتها على عدد صفحاته، ولا يضيق بثمنها الفنى ولا الفقير.

ملأت هذه الكتيبات ربوع أوروبا بعد اختراع فن الطباعة بما لا يزيد على ربع قرن من الزمان. فمما كاد جوتنبرج يضع حجر الأساس في صرح فن الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر حتى رأينا هذه الكتيبات تملأ أفاق ألمانيا والأراضي المنخفضة وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا، وغيرها من بلاد أوروبا. وقد حفظت لنا المكتبات والمتاحف ودور الآثار كثيراً من نسخ هذه الكتيبات، فرأى مجموعات، حتى يستطيع الباحث، إذا تبعتها، أن يرى على صفحاتها آثار أقدام تاريخ أوروبا الفكرى من منتصف القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر. وفي المتحف البريطاني مجموعة واحدة، من مجموعات كثيرة، تضم ٢٢٢٥٥ كتيباً، تقع في أكثر من ألفي مجلد، تؤرخ الحركة الفكرية في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٤٠ و ١٦٦١.

حملت هذه الكتيبات رسالة نشر الفكر الدينى والسياسى والعلمى والثقافى في جميع الطبقات، ودبج صفحاتها رجال الإصلاح الدينى من أمثال أرازمس ولوتر وكالفن وسير توماس مور (١).

وعلى هذه الصفحات لمع - أول ما لمع - مفكرون ومصلحون وكتاب اشتهروا فيما بعد، من أمثال هوتن وميلانشتون وفرجيوس وكيريووني وفرانكوئيل وجون ملتون ومونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وهلفتيوس وميرابو ودالمبير ودولباخ ومدمام دى ستابل وشاتوبريان وفكتور هيغو (٢).

هؤلاء الأعلام لم يستأثر بقراءة آثارهم الذهنية واقتناء انتاجهم الفكرى طبقة معينة، بل كان كل ما يكتبونه مشاعاً - مثل الماء والهواء ونور الشمس - بين أبناء الأمم الأوروبية. وقد لا يكون هناك سبب يجعل هذا السبب لما بلغته أوروبا من تقدم. فالعلم اذا شاع في أمة قرب بين أفرادها، وإذا اب الفروق بين طبقاتها، وأتاح فرصة العمل الثمر للجميع.

والديموقراطية الصادقة غاية لا تتحقق في مجتمع ارتفع فيه ثمن المعرفة.

(١) أرازمس، هولندى، ولد عام ١٤٦٧ وتوفى عام ١٥٢٦ - لوتر، ألماني، ولد عام ١٤٨٣ وتوفى عام ١٥٤٦ - كالفن، فرنسى، ولد عام ١٥٠٩ وتوفى عام ١٥٦٤ - سير توماس مور، انجليزى، ولد عام ١٧٧٩ وتوفى عام ١٨٥٢.

(٢) هوتن، ألماني، ولد عام ١٤٨٨ وتوفى عام ١٥٢٣ - ميلانشتون، ألماني، ولد عام ١٤٩٧ وتوفى عام ١٥٦٠ - فرجيوس، إيطالى تولى عام ١٤٩٨ وتوفى عام ١٥٦٥ - كيريووني، إيطالى، ولد عام ١٥٠٣ وتوفى عام ١٥٦١ - فرانكوئيل، ألماني، ولد عام ١٥٢٠ وتوفى عام ١٥٨٥ - جون ملتون، انجليزى، ولد عام ١٦٠٨ وتوفى عام ١٦٧٤ - مونتسكيو، فرنسى، ولد عام ١٦٨٩ وتوفى عام ١٧٥٥ - فولتير، فرنسى، ولد عام ١٦٩٤ وتوفى عام ١٧٧٨ - روسو، فرنسى، ولد عام ١٧١٢ وتوفى عام ١٧٧٨ - ديدرو، فرنسى، ولد عام ١٧١٣ وتوفى عام ١٧٨٤ - هلفتيوس، فرنسى، ولد عام ١٧١٥ وتوفى عام ١٧٧١ - ميرابو، فرنسى، ولد عام ١٧١٥ وتوفى عام ١٧٨١ - دالمبير، فرنسى، ولد عام ١٧١٧ وتوفى عام ١٧٨٣ - دولباخ، فرنسى، ولد عام ١٧٢٣ وتوفى عام ١٧٨١ - مدمام دى ستابل، فرنسية، ولدت عام ١٧٦٦ وتوفيت عام ١٨١٧ - شاتوبريان، فرنسى، ولد عام ١٧٦٨ وتوفى عام ١٨٤٨ - فيكتور هيغو، فرنسى، ولد عام ١٨٠٢ وتوفى عام ١٨٨٥.

البيانات الشخصية												البيانات المهنية												البيانات المالية												البيانات الاجتماعية											
الاسم				اللقب				الميلاد				الجنسية				الوظيفة				الراتب				المرتبة				الدرجة				الدرجة															
الاسم	اللقب	الميلاد	الجنسية	الوظيفة	الراتب	المرتبة	الدرجة	الاسم	اللقب	الميلاد	الجنسية	الوظيفة	الراتب	المرتبة	الدرجة	الاسم	اللقب	الميلاد	الجنسية	الوظيفة	الراتب	المرتبة	الدرجة	الاسم	اللقب	الميلاد	الجنسية	الوظيفة	الراتب	المرتبة	الدرجة																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ	أحمد	محمد	1980	مصري	مهندس	1500	1	أ																
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32																
أحمد	محمد	1980																																													

متلا العنيد الصّاعة ٦ والذبيحة ٥٩ أفرنجى صباخا..

القيم الثمين إلى كل يد ، وأن تفصل به لئلا نلحق حاسبا بين أن يكون الكتاب
في الخيص في لفته ، وخبصا في موضوعه . ولذلك سنترن أننا قد رسمنا طريقا
سويا قريباً أن نتعرف عنه ، فنتحق لا لبس كتاب التحوير ربما ولا تجارة ، بل لنا
نتوجه به إلى الله ، ونسبي به وجه العلم والثقافة والفرقة .

وكتب التتبع الأول في لحي عن الوصف ، حيث أنه حينها يكتب :
والكتب التالية التي ستمسح خلال شهر رمضان المبارك (١٣٨٦) هي أجرو
كتاب : أساليب التتبع ، سبيل ، جميع هذه هي قبل أن أسبيل
أما التتبع الثاني سورة سورة : ويلي ما يلي أساليب التتبع في أسبيل
أسبيل التتبع الثاني أسبيل : وما يلي أسبيل التتبع في أسبيل
الأسبيل : ما يلي أسبيل التتبع في أسبيل
والأول : ما يلي أسبيل التتبع في أسبيل
الأسبيل : ما يلي أسبيل التتبع في أسبيل
الأسبيل : ما يلي أسبيل التتبع في أسبيل
الأسبيل : ما يلي أسبيل التتبع في أسبيل

9. مايلي

وستنجم بعد ذلك « الأختى » لابن الفرج الأسفهلى . والأختى من أمهات الكتب العربية ، حمى ابن الفرج الأسفهلى لى خمسين سنة ، وأخذها إلى سيف

والتشاور الثلاثة بين المراد القاعدة الشعبية هو الشيطان الوحيد لاسر الامم
مطر حضاريا

وقد عرفت مصر بتجربة مريرة على عهد محمد علي ، حين أوفد إلى برزخ أوروبا أفرادا من أبناء الشعب لأخذهم كذلتهم علماء الغرب ، فلما عادوا إلى أرض الأمانة مرهم من القادة الشعبية ما استطاع ، وانتص رحيل ملهم وغيرهم في حناصير تتفق مع انراعه الشخصية . فلما أفسوا ذوي ملهم كما يملو الشوم .

وفي التاريخ الحدث تجربة أخرى تثبت أن سلامة القاعدة الشعبية كيلة بأن
تقبل الأمم من أمم الشرقات وأصق المياري . فالأمة التي ميت بهزيمتين ساحقتين
في أقل من ثلاثين عاماً ، استعادت سلامتها حتى لتساقط الأسمان اليوم : إلى أي
مدى كان يمكن أن يصل هذا الشعب لو أنه كان قد انتصر ؟

تحت إشراف: الدكتور محمد عبد الحليم

في الوطن العربي اليوم حركة ثقافية كبيرة ، أصبحت فيها « دار الفكر » للطبع والنشر « مثلها » ، بدأ تصدير من صحف ومجلات وكتب ومطبوعات ، وهي اليوم تصدر « كتاب التحرير » أدلة الأمانة التي أنعم الله عليها ، وتوفيرا بمراسلة النشور التي حلت فيها ،

وكتاب التحرير هو كتاب نسأل الله أن ينفعنا ، هذه الرسالة هي أن يصل الكتاب

الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة ، وأنه يستحق أضعاها ولقد اشتملت خزائني على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد ما فيها سميرى غيره .
وكان ابن عباد يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ، ولما وصل إليه هذا الكتاب لم يكن يعد ذلك يستصحب غيره لاستغناؤه به عنها .
وقال عنه ابن خلدون : لعمري أنه ديوان العرب ، وجامع أشعث المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والفناء وسائر الأحوال ، ولا يبدل به كتاب في ذلك فيما تعلمه ، وهو الفاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وإلى له بها !

العلم للجميع

أن لم تقتصر معرفته على اللغة العربية لصلوا إذا ظن أن مطابع الغرب لاقتصر إلا الكتب الأدبية ، من علوم السبائية إلى قصص ومسرحيات وما إلى ذلك ، لاقتصر حركة الترجمة المارمة في عصرنا هذا على أمثال تلك الموضوعات ، ولأسنا نود ، بطبيعة الحال ، أن نفرض من شأن هذه الفروع الجليلة من فروع المعرفة ، ولكننا نود أن ننوه كذلك بفرع افغلتناه حتى اليوم هو الثقافة العلمية أو « التكنولوجيا » .
ولو قومت مكتبات اللغات الحية في عصرنا هذا لفجئنا بنتيجة التقويم ، ذلك أن مكتبتنا العربية ستكون ، دون نزاع ، أفقر المكتبات إلى لون المعرفة الذي يمثل حضارة العصر ، وهو العلوم التطبيقية والصناعية .
وإذا كنا قد اقدمنا اليوم على الصناعة هذا الإقدام العظيم ، فإن ثبات أقدامنا في هذا الميدان يدعونا إلى السهر على نتائجه . والسهر على الحضارات لا يأتي ، كما قدمنا ، إلا من القاعدة الشعبية . فلو تركنا العلوم والصناعات للمتخصصين يتعلم الواحد منهم فرعاً من فروعها في ديار الغربة ، ثم يعود فيقتصر علمه على أداء وظيفته ، لعدنا إلى عهد محمد علي !

أما إذا انتشرت بيننا الثقافة العلمية والصناعية ، وتكونت في مجتمعنا بيئة علمية بالمعنى الحديث للعلم ، فأننا تكون قد اتخذنا للمستقبل عدته ، وضمان سلامة القاعدة الشعبية بروح العلم ، التي سيخرج منها العلماء والباحثون والمخترعون .
لمثل هذا سنصدر سلسلة « العلم للجميع » .

والعلم للجميع موسوعة علمية فنية تطبيقية اشترك في وضعها ما يزيد على مائة من رجال العلم والصناعة في العالم الغربي ، جمعوها فيها تاريخ جميع العلوم والصناعات منذ العصر الحجري حتى عصرنا الحالي .

والكتاب يشرك لك - شرح علم وخبرة - كيف يصنع كل ما يحيط بنا من مظاهر الحضارة . وهو لا يقفز إلى النتائج قفزا ، بل يسرد لك سردا تاريخيا كيف ضل اللهن البشرى وتخطى ، وكيف اهتدى ورشد ، حتى بلغنا اليوم ما نحن فيه من قدرة وسيطرة على كثير من فروع العلم والصناعة . ويزوي لك ، كذلك ، كيف أننا لا نزال نقف عاجزين أمام أمور تدعونا إلى بذل الجهود حتى نذلل ما صعبها . وعلمنا بالمنهج العلمي الذي ذلل عقبات الماضي ، هو السبيل الوحيد لقدرةنا على تدليل عقبات المستقبل .

أخى في الله وفي المعرفة ...

أحرص على هذه الكتب من البداية ... فمئتها قد بحث قارة من العلم ...

سكتا التحرير

فأتم سائق في أبلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه ، كتحكرار جملة «فَبَآئِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» ونحوها عُقِبَ ذكر كل نعمة . وهى عند التأمل ليست مكررة ، فإن معناها : أَفَبِهَذِهِ النِّعْمَةِ تَكْذِبَانِ ، وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو ،

والجمهور على أن معنى «الرَّحْمَنُ» المنعم بجلال النعم ، ومعنى «الرَّحِيمُ» المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول إن «الرَّحْمَنَ» هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ، و«الرَّحِيمَ» المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين . وكل هذا تحكُّم في اللغة مبنى على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً . فصفة الرحمن تدل على كثرة الإحسان الذى يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً ، وأما كون أفراد الإحسان التى يدل عليها اللفظ الأكثر حروفاً أعظم من أفراد الإحسان التى يدل عليها اللفظ الأقل حروفاً فهو غير معنى ولا مراد . وقد قارب من قال إن معنى «الرَّحْمَنُ» المحسن بالإحسان العام ، ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين . ولعل الذى حمل من قال إن الثانى مؤكِّد للأول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه .

والذى أقول : إن صيغة فَعْلَان تدل على وصف فعل فيه معنى المبالغة كفعَّال ، وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبَّان ، وأما صيغة فَعِيل فإنها تدل في الاستعمال على المعانى الثابتة كالأخلاق والسجاياء في الناس كعلم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربى البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التى تلو عن

مماثلة صفات المخلوقين . فلفظ الرحمن يدل على من تصلح عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهى إفاضة النعم والإحسان ؛ ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثانى مؤكداً للأول . فإذا سمع العربى وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلاً ، لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً ، لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيراً ، فعندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذى يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة ثابتة هى صفة الرحمة التى عنها يكون أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ، ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »

تعلمون أن معنى « الحمد » الثناء الجميل باللسان ، وقيلوه بالجميل لأن كلمة « ثناء » تستعمل فى المدح والثناء جميعاً . يقال أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « ال » التى فى « الحمد » هى للجنس فى أى فرد من أفرادها لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص ، لأنه لا يصح أن كل منهما فى فهم الكلام إلا بدليل وهو غير موجود فى الآية . ومعنى كون الحمد لله تعالى بآى نوع من أنواعه هو أن أى شئ يصح الحمد عليه ، فهو مصدره وإليه مرجعه ، فالحمد له على كل حال .

وهذه الجملة خبرية ، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد .

فَلَمَّا مَعْنَى الْخَبْرِيَّةِ فَهِيَ الْإِبْثَاتُ أَنَّ الْفَنَاءَ الْجَمِيلَ ، فِي أَيْ أَنْوَاعِهِ مُحَقَّقٌ ،
 فَهُوَ ثَابِتٌ لَهُ تَعَالَى وَرَاجِعٌ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِكُلِّ مَا يَحْمَدُ عَلَيْهِ الْحَامِدُونَ ،
 فَصِفَاتُهُ أَجْمَلُ الصِّفَاتِ ، وَلِحَسَانُهُ عَمُّ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، وَلِأَنَّ جَمِيعَ
 مَا يَصِحُّ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْحَمْدُ مِمَّا سِوَاهُ ، فَهُوَ مِنْهُ جَلٌّ ثَنَاءً ، إِذْ هُوَ مُضَرَّرُ
 الْكَوْنِ كُلِّهِ ، فَيَكُونُ لَهُ ذَلِكَ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ،

وَالْخِلَاصَةُ أَنَّ أَيْ حَمْدٍ يَتَوَجَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ مَا فَهُوَ لِلَّهِ تَعَالَى سِوَاهُ لَا حَظَّهُ
 الْحَامِدُ أَوْ لَمْ يَلَا حَظَّهُ .

وَأَمَّا مَعْنَى الْإِنْشَائِيَّةِ فَهُوَ أَنَّ الْحَامِدَ جَعَلَهَا عِبَارَةً عَمَّا وَجَّهَهُ مِنَ الثَّنَاءِ إِلَى
 اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَالِ ،

«رَبُّ الْعَالَمِينَ» . يُشِيرُ هَذَا الْوَصْفُ بَيَانُ وَجْهِ الثَّنَاءِ الْمُطْلَقِ . وَمَعْنَى
 الرَّبِّ السَّيِّدُ الْمَرَى الَّذِي يَسُوسُ مَسُودَةً وَيَرْبِّيهِ وَيَكْبِرُهُ . وَ «الْعَالَمِينَ» جَمْعُ
 عَالَمٍ ، جَمْعُهُ جَمْعُ الْمَذْكُورِ الْعَاقِلِ تَغْلِيْبًا وَأَرَادَ بِهِ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمُمْكِنَةِ ،
 أَيْ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ لَفْظِ الْعَالَمِ . وَمَا جَمَعَتْ الْعَرَبُ
 لَفْظَ الْعَالَمِ هَذَا الْجَمْعَ إِلَّا لِنَكْتَةِ تِلَاخُظِّهَا فِيهِ ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ
 لَا يُطْلَقُ عَنْدهُمْ عَلَى كُلِّ كَائِنٍ وَمَوْجُودٍ كَالْحَجَرِ وَالتُّرَابِ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُونَهُ
 عَلَى كُلِّ جَمْلَةٍ مُتَمَايِزَةٍ لِأَفْرَادِهَا صِفَاتٌ تَقْرُبُهَا مِنَ الْعَاقِلِ الَّذِي جُمِعَتْ
 جَمْعُهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ ، فَيُقَالُ عَالَمُ الْإِنْسَانِ وَعَالَمُ الْحَيَوَانِ وَعَالَمُ
 النَّبَاتِ . وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا مَعْنَى التَّرْبِيَةِ
 الَّتِي يُعْطِيهِ لَفْظُ رَبِّ ، لِأَنَّ فِيهَا مَبْدَأَهَا وَهُوَ الْحَيَاةُ وَالتَّغْلِيُّ وَالتَّوَالُدُ .
 وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي النَّبَاتِ لِأَسْبَابِ مَنْ يَقْرَأُ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي
 الْحَيَوَانِ . وَالْحَيَوَانُ شَجَرَةٌ قُطِيعَتْ رِجْلُهَا مِنَ الْأَرْضِ فَهِيَ تَمُتُّ ، وَالشَّجَرَةُ

حيوان سَاحَتْ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ قَائِمٌ فِي مَكَانِهِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَإِنْ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يَغْفُلُ .

«الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» تَقَدَّمَ مَعْنَاهُمَا وَبَقِيَ الْكَلَامُ فِي إِعَادَتِهِمَا . وَالنُّكْتَةُ فِيهَا ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ تَرْبِيَتَهُ لِلْعَالَمِينَ لَيْسَتْ لِحَاجَةٍ بِهِ إِلَيْهِمْ ، كَجَلْبِ مُنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مُضَرَّةٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِعُمُومِ رَحْمَتِهِ وَشُمُولِ إِحْسَانِهِ . وَثُمَّ نُكْتَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّ الْبَعْضَ يَفْهَمُ مِنْ مَعْنَى الرَّبِّ الْجَبْرُوتِ وَالْقَهْرَ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْكُرَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ لِيَجْمَعُوا بَيْنَ اعْتِقَادِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ ، فَذَكَرَ الرَّحْمَنَ وَهُوَ الْمُقْبِضُ لِلنَّعْمِ بِسَعَةٍ وَتَجَدُّدٍ لَا مُنْتَهَى لَهَا ، وَالرَّحِيمَ وَهُوَ الثَّابِتُ لَهُ وَصِفُ الرَّحْمَةِ لَا يُزِيلُهُ أَبَدًا . فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَتَجَبَّبَ إِلَى عِبَادِهِ فَعَرَّفَهُمْ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ لَهُمْ رُبُوبِيَّةٌ رَحْمَةٌ وَإِحْسَانٌ لِيَعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الَّتِي رُبَّمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مَعْنَى الصِّفَاتِ ، وَلِيَتَعَلَّقُوا بِهِ وَيُقْبِلُوا عَلَى اكْتِسَابِ مَرْضَاتِهِ مُنْشَرِحَةً صُدُورَهُمْ ، مُطْمَئِنَّةً قُلُوبَهُمْ . وَلَا يَنَاقِ عُمُومَ الرَّحْمَةِ وَسَبْقَهَا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا وَمَا أَعَدَّهُ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ لِلَّذِينَ يَتَعَدُّونَ الْحُدُودَ وَيَنْتَهِكُونَ الْحُرُمَاتِ ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ سُمِّيَ قَهْرًا بِالنِّسْبَةِ لِعَصَوِيَّتِهِ وَمُظْهَرِهِ فَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ وَغَايَتِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، لِأَنَّ فِيهِ تَرْبِيَةً لِلنَّاسِ وَزَجْرًا لَهُمْ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهَا يَخْرُجُ عَنْ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَفِي الْإِنْحِرَافِ عَنْهَا شَقَاؤُهُمْ وَبِلَاؤُهُمْ ، وَفِي الْوُقُوفِ عِنْدَهَا سَعَادَتُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، وَالْوَالِدُ الرَّحِيمُ يُرَبِّي وَلَدَهُ بِالْتَّرْغِيبِ فِيمَا يَنْفَعُهُ ، وَالْإِحْسَانُ عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهِ ، وَرُبَّمَا لَجَأً إِلَى التَّرْهيبِ وَالْعُقُوبَةِ إِذَا اقْتَضَتْ ذَلِكَ الْحَالُ ... وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

« مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ »

في الآيةِ قراءتان . فحينَ القراءةِ مَنْ قرأ « مَالِكُ » ، ومنهم مَنْ قرأ « مَلِكٌ » . وقالَ بعضهم إنَّ قراءةَ « مَلِكٌ » أبلغُ ، لأنَّ هذا اللفظَ يُفهمُ منه معنى السُّلْطَانِ والقُوَّةِ والتدبُّرِ ، وقال آخرون إنَّ القراءةَ الأخرى أبلغُ ، لأنَّ المَلِكَ هو الذي يدبِّرُ أعمالَ رعيَّته العامَّة ولا تصرَّفُ له بشيْءٍ من شُؤُونِهِم الخاصَّة . وإنما تظهرُ هذه التفرقة في عبدٍ مملوكٍ في مملكةٍ لها سُلْطَانٌ ، ولا ريبَ أنَّ مَالِكَهُ هو الذي يتولَّى جميعَ شُؤُونِهِ دونَ سُلْطَانِهِ .

و«الدِّين» يُطلقُ في اللغةِ على المكافأة ، وورد «كما تدينُ تُدانُ» ، وقالَ الشاعرُ :

ولم يبقَ مِوَى العُلُوِّ ن ، دِنًا هُمْ كما دَانُوا

ويُطلقُ «الدِّين» كذلك على الجزاء ، وهو قريبٌ من معنى المكافأة ، وعلى الطاعةِ وعلى الإخضاعِ وعلى السياسةِ ، يقال «دينَ فلانٌ فلانًا» ، أى تولى سياستَهُ ، وهو قريبٌ من معنى الإخضاعِ ، وعلى الشريعةِ وما يُؤخذُ العبادُ به من التكاليفِ . والمناسبُ هنا من هذه المعاني الجزاءُ والخضوعُ .

وإنما قال : «يَوْمِ الدِّينِ» ولم يقل «الدِّين» لتعريفنا بأنَّ للدِّينِ يومًا ممتازًا عن سائر الأيام ، وهو اليومُ الذي يلتقى فيه كلُّ عاملٍ عمله ويؤقِّعُ جزاءَهُ . ولسائل أن يسألَ : أليست كلُّ الأيامِ أيامَ جزاءٍ ، وكلُّ ما يلاقيه الناسُ في هذه الحياةِ من البؤسِ هو جزاءٌ على تفريطهم في أداءِ الحقوقِ والقيامِ بالواجباتِ التى عليهم ؟ والجوابُ : بلى ، إنَّ أيامنا التى نمرُّ فيها قد يَنعَمُ فيها الجزاءُ على أعمالنا ، ولكنَّ ربما لا يظهرُ لأربابِهِ إلا على بعضها دونَ جميعها . والجزاءُ على التفريطِ في العملِ الواجبِ إنما يظهرُ في الدنيا

ظهوراً تاماً بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الأفراد . فبما من أمة
انحرفت عن صراط الله المستقيم ، ولم تراعِ سُنتَه في خليقته ، إلا أحلَّ بها
العدلُ الإلهي ما تستحقُّ من الجزاء كالفقر والذلَّ وفقد العزة والسلطة . وأما
الأفرادُ فإننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين
في الشهوات والذات . نعم إن ضمايرهم توبُّخهم أحياناً ، وأنهم لا يسلمون
من المنخصات ، وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية أبدانهم وقوة
عقولهم ، ولكنَّ هذا كله لا يقابلُ بعض أعمالهم القبيحة ، لا سيما الملوك
والأمراء الذين تشقُّ بأعمالهم السيئة أُمم وشعوب ... كذلك نرى من
المُحسِنين في أنفسهم وللناس من يُبتلى بهضم الحقوق ولا ينالُ من الجزاء
على عمله شيئاً مما يستحقُّه وإن كان قديناً من الجزاء رضا نفسه وسلامة
أخلاقه وصحة ملكاته ، ولكن ذلك ليس كلُّ ما يستحقُّ . وفي ذلك اليوم
يوقى كلُّ فردٍ من أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا ينقصه شيء منه كما قال
الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ » .

عَلَّمَنا الله تعالى أنه رحيمٌ رحيمٌ ليجذبَ قلوبنا إليه ، ولكن هل يشعرُ
كلُّ عياده بهذه المنَّة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب ؟ كلا ، أليس فينا
من يسلك كلَّ سبيل لا يُبالى بمستقيم ومُعوَّج ؟ بلى ، ولهذا أعقبتُ مُبْحَثَانَهُ
ذكر الرحمة بذكر الدين ، فعرفنا أنه يلينُ العبادَ ويُجازيهم على أعمالهم ،
فكان من رحمته بعباده أن ربَّاهم بنوعى التربية كليهما : الترغيب والترهيب
كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ » . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»

ما هي العبادة ؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع . وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتُجَلِّيه ، للأفهام واضحاً لا يقبل التأويل ؛ فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة ، فإن فيها إجمالاً وتساهلاً . وإننا إذا تتبعنا آتى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبدة وما يماثلها ويقاربها في المعنى - كخضع وخنع وأطاع وذلك - وجدنا أنه لشيء من هذه الألفاظ يُصاهي «عبد» ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا إن لفظ «العبادة» مأخوذ من العبادة ، فتكرر إضافته إلى الله تعالى ، ولفظ «العبيد» تكرر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق ، وقرئ بين العبادة والعبودية بذلك المعنى . ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لا تكون في اللغة إلا لله تعالى ، ولكن استعمال القرآن يخالفه . يغلوا العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفنى هواه في هواه ، وتذوب إرادته في إرادته ، ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة . وببالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريمهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحشّنين للقائنين فضلاً عن سائر العابدین ، ولم يكن العرب يُسمّون شيئاً من هذا الخضوع عبادة ؛ فما هي العبادة إذن ؟ ندلّ الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصريح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حدّ النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطه له لا يدرك كنهها

وما هيئتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه .
 فمن ينتهى إلى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال إنه عبده وإن قبل مواعى
 أقدايه مادام سبب الذل والخضوع معروفاً ، وهو الخوف من ظلمه المعهود ،
 أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة للذين يعتقدون أن الملك
 قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء
 على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب عنصراً ، وأكثر جوهراً ، وهؤلاء هم
 الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة
 وأرباباً ، وعبدوهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان ، شرعت لتذكير الإنسان
 بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذى هو روح العبادة وشرها .
 ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها
 وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذى قلنا إنه
 منشأ التعظيم والخضوع . فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى
 لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً .

خذ إليك عبادة الصلاة مثلاً ، وانظر كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد
 الإتيان بها . وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن جلبه
 وتصدر عنه آثاره . وأثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها
 بقوله : « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » ، وقوله عز وجل :
 « إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعٌ . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً .
 إِلَّا الْمُصَلِّينَ » . وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ
 مع السهر عن معنى العبادة فيها وشرها المؤدى إلى غايتها بقوله :

«قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَسْمَعُونَ
 الْمَاعُونَ» ، فبما هم مُصَلِّينَ لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسَّهْوِ
 عن الصلاة الحقيقية التي هي توجُّه القلب إلى الله تعالى المذكَّر بخشيته
 والمُشْعِرُ للقلوبِ بعظيمِ سُلْطَانِهِ ، ثم وَصَفَهُمْ بِأَثَرِ هذا السَّهْوِ وهو الرِّياءُ
 ومنعُ الماعونِ . والرياءُ ضَرْبانِ : رِيَاءُ النِّفَاقِ وهو العملُ لِأَجْلِ رُؤْيَا النَّاسِ ،
 ورياءُ العادة وهو العملُ بِحُكْمِهَا من غيرِ ملاحظةٍ معنى العملِ وسرِّهِ وفائدتهِ ،
 ولا ملاحظةٍ من يَعْمَلُ له وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ به ، وهو ما عليه أَكْثَرُ النَّاسِ ، فإن
 صلاةَ أَحَدِهِمْ في طَوْرِ الرُّشْدِ والعقلِ هي عينُ ما كان يُحَاكِي به أَبَاهُ في
 طَوْرِ الطُّفُولِيَّةِ عندما يراه يُصَلِّي - يستمرُّ على ذلك بِحُكْمِ العادة من غيرِ
 فَهْمٍ ولا عَقْلِ ، وليسَ لله شيءٌ في هذه الصلاة . اوقد وردَ في أحاديثٍ
 كثيرةٍ أَنَّ مَنْ لَمْ تَنْتَه صَلَاتُهُ عن الفحشاءِ والمُنْكَرِ لم يَزِدْهُ من الله إِلَّا بُعْدًا ،
 وَأَنَّهَا تَلَفَتْ كَمَا يَلْفُ الثَّوبُ الْبَالِي وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُهُ . وَأما الماعونُ فهو
 المعونةُ والخيرُ الذي تَقَدَّمَ في الآيةِ الأخرى أَنَّ من شَأْنِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ
 مُنَوَّعًا له إِلَّا الْمُصَلِّينَ .

والاستعانةُ هي طلبُ المعونةِ ، والمعونةُ هي سُدُّ الْعَجْزِ والمساعدةُ على إتمامِ
 العملِ الذي يعجزُ عنه المستعينُ بِنَفْسِهِ .

وقد أَمَرَنَا اللهُ تعالى بِالْأَنْعَادِ غَيْرِهِ ، لِأَنَّ السُّلْطَةَ الْغَيْبِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَرَاءَ
 الْأَسْبَابِ لَيْسَتْ إِلَّا لَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، فَلَا يَشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ فَيُعْظَمُ تَعْظِيمُ
 الْعِبَادَةِ ، وَأَمَرَنَا بِالْأَنْعَادِ غَيْرِهِ أَيْضًا ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى الْبَيَانِ لِأَنَّهُ
 أَمَرَنَا أَيْضًا فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِالتَّعَاوُنِ «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى» -
 فما معنى الاستعانة بِهِ مع ذلك ؟

الجواب أن كلَّ عملٍ يعملُهُ الإنسانُ تتوقفُ ثمرتهُ ونجاحُهُ على حصولِ الأسبابِ التي اقتضتْ الحكمةُ الإلهيةُ أن تكونَ مُؤدِّيةً إليه ، وانثناءً الموانعِ التي مِنْ شأنِها بمقتضى الحكمةِ أن تحوِّلَ دونه . وقد مَكَّنَ اللهُ تعالى الإنسانَ بما أعطاهُ مِنَ العِلْمِ والقُوَّةِ مِنْ دفعِ بعضِ الموانعِ وكسبِ بعضِ الأسبابِ ، وَحَجَبَ عَنْهُ البعضَ الآخرَ ، فيجبُ علينا أن نقومَ بما في استطاعتِنَا مِنْ ذلك ، ونَبْذِلَ في إتقانِ أعمالِنَا كُلِّ ما نستطيعُ مِنْ حَوْلِ وقُوَّةِ ، وأن نتعاونَ ويساعدَ بعضُنَا بعضًا على ذلك ، ونفوضَ الأمرَ فيما وراءَ كسبِنَا إلى القادرِ على كُلِّ شيءٍ ، ونلجأُ إليه وَحْدَهُ ونطلبُ المعونةَ المتممةَ للعملِ والموصلةَ لثمرتهِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ دُونَ سِوَاهُ ، إذ لا يقلُّرُ على ما وراءَ الأسبابِ الممنوحةِ لكلِّ البَشَرِ على السَّوَاءِ إِلَّا مُسَبِّبُ الأسبابِ وربُّ الأربابِ ؛ فقوله تعالى : «وَلِيَاكَ نَسْتَعِينُ» متعمِّمٌ لمعنى قوله : «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» ، لأنَّ الاستعانةَ بهذا المعنى فَرَعَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ وتعلَّقَ مِنَ النَفْسِ بِهِ ، وذلك مِنْ مَخِ العبادَةِ ، فإذا توجَّهَ العبدُ بها إِلَى غيرِ اللهِ تعالى كانتْ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ العبادَةِ الْوَكْنِيَّةِ الَّتِي كانتْ ذائِعَةً فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ وَقَبْلَهُ ، وَخَصَّتْ بِالذِّكْرِ لثَلَا بَتَوَهُمَ الْجَهْلَاءُ أَنَّ الْإِسْتِعَانَةَ بِمَنْ اتَّخَلَوْهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ واستعانوا بِهِمْ فيما وراءَ الأسبابِ المكتسبةِ لعامةِ النَّاسِ هي كالاستعانةِ بِسَائِرِ النَّاسِ فِي الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ ، فَأَرَادَ الْحَقُّ جَلَّ شَأْنُهُ أَنْ يَرْفَعَ هَذَا اللَّبْسَ عَنْ عِبَادِهِ بِبَيَانِ أَنَّ الْإِسْتِعَانَةَ فيما هو في استطاعةِ النَّاسِ بِالنَّاسِ إِنَّمَا هي ضَرْبٌ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْأَسْبَابِ الْمَسْنُونَةِ ، وما متزَلَّتْهَا إِلَّا كَمُتَزَلَّةِ اسْتِعْمَالِ آلَاتٍ فيما هي آلَاتُ لَهُ .. بخلافِ الاستعانةِ فِي شُؤُونِ تَفَوُّتِ الْقَدَرِ والقُوَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي مُتَنَاوِلِ الْفَهْمِ ، كالاستعانةِ عَلَى شِفَاءِ الْمَرِيضِ بِمَا وَرَاءَ الدَّاءِ ، وَعَلَى غَلْبَةِ الْعَدُوِّ

ما وراء العدة والعدة ، فإن ذلك مما لا يجوز الفرع به لغير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم على ما لا يصل إليه سلطان أحد من العالمين .
فالزراع مثلاً يبدل جهده في الحرث والعزق وتسميد الأرض ورعيها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنح الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية . والتاجر يخلق اختيار الأصناف ويمهر في صناعة الترويج ، ثم يتكل على الله فيما بعد ذلك . ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والتبوير على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح ، عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون .

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيهة « وَإِنَّكَ تَسْتَعِينُ » إلى أمرين عظيمين هما : معراج السعادة في الدنيا والآخرة .

أحدهما - أن نعمل الأعمال النافعة ، ونجتهد في إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقة فلم يوفقه حصه ، أو يخشى ألا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وإكماله . ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة في الاستقلال به ، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الأخروية .

وثانيهما - ما أفادته الحضرة من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ، ويفتلك إرادتهم من أسر الرؤساء

الروحانيين والشيوخ الجالين ، ويطلق عزائهم من قيد المهينين الكاذبين من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيئدا كريماً ، ومع الله عبداً خاضعاً ، «وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ قَازَ قَوْزًا عَظِيمًا» .

«أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»

الهداية لغة هي الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب . وقد منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعاده :

أولها - هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري ، وتكون للأطفال منذ ولادتهم ، فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء ، فيصرخ طالباً له بفطريته ، وعند ما يصل الثدي إلى فيه يلهمه التقامه وامتصاصه .

الثانية - هداية الحواس والمشاعر ، وهي متممة للهداية الأولى في الحياة الحيوانية ، ويشارك الإنسان فيها الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكمل من الإنسان ، فإن حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل ، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج في زمن غير قصير . ألا تراه حقيب الولادة لا يظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ، ولكنه - ليقصر نظره - يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريباً فيمد يديه إليه ليتناولته وإن كان قمر السماء ، ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال ؟

الثالثة - هداية العقل . خلق الإنسان ليعيش مجتمعاً ، ولم يُعط من الإلهام والوجدان ما يكفي مع الجسم الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل ، فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش

مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ، ويؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد ، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مُشاهد .

أما الإنسان فلم يكن من خاصية نوعه أن يتوافق له مثل ذلك الإلهام ، فحباؤه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والإلهام ، وهى العقل الذى يصبح غلط الحواس والمشاعر ، ويبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ، ويرى العود المستقيم فى الماء مُعوجاً ، والصفراوى ينزوق الحلو مرّاً ، والعقل هو الذى يحكم بفساد هذا الإدراك .

الهداية الرابعة - الدين . يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس . وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه معادته الشخصية والنوعية ، ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مُسخرة لشهواته ولذائمه حتى تورده موارد الهلكة ، فاذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واشترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيداً ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده ، وما هو بعائش وحده ، وكثيراً ما تتناول به إلى ما فى يد غيره ، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفرادها على بعض فيتنازعوا ويتدافعوا ويتجادلوا ويتجادلوا ويتواثبوا ويتناهبوا حتى يفتنى بعضهم بعضاً ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئاً ، فاحتاجوا إلى هداية ترشدتهم فى ظلمات أهوائهم إذا غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويحكموا أيديهم عما وراءها . ثم إن ما أودع فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبباً ، لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده ، وبأن

له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بثلث الهدايا الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وموَّاه ووجهه هذه الهدايا وغيرها ، وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية ؟ كلا ، إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة - الدين - وقد منحه الله تعالى ليها .

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » أي طريقى السعادة والشقاوة ، والخير والشر . وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة ، وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » ، أي دَلَلْنَاهُمْ على طريقى الخير والشر فسلخوا سُبُل الشر المعبر عنه بالعمى .

ولكن بقي معنى هداية أخرى ، وهى المعبر عنها بقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ » ، فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية في الآيات السابقة بمعنى الدلالة ، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين ، المَهْلِكِ وَالْمُنْجِي ، مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما ، وهى مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . أما هذه الهداية فهى أخص من تلك ، والمراد بها إعادتهم وتوفيقهم للسير في طريق الخير والنجاح مع الدلالة ، وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقول وشرع الدين .

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين وفى استعمال الحواس والعقل على ما قلنا ، كان محتاجاً إلى المعونة الخاصة ، فأمرنا

الله بطلبها منه في قوله: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ، فمعنى «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» دللنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لَدُنْكَ تحفظنا بها من الضلال والخطأ . وما كان هذا أَوْلَ دعاء عَلِمْنَا اللهُ تعالى إياه إلا لَأَنَّ حاجَتَنَا إِلَيْهِ أَشَدُّ من حاجَتِنَا إِلَى كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ .

والصِّرَاطُ هُوَ الطَّرِيقُ ، ويُقْرَأُ أَيْضًا «السَّرَاطُ» بالسین المهملة ، والمستقيم ضدُّ المَعْوَجَّ . وليس المرادُ بِمُقَابِلِ المستقيمِ المَعْوَجَّ ذَا التَّمَعُّجِ والتعاريج ، بل المرادُ كُلُّ ما فِيهِ انحرافٌ عن الغاية التي يجبُ أَنْ يَنْتَهَى إِلَيْهَا . والمُسْتَقِيمُ فِي عَرَفِ الهندسةِ أَقْرَبُ مَوْضِعٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ ، وهذا المعنى لازِمٌ للمعنى اللغويِّ كما هو ظاهرُ بالبداهةِ ؛ ولَمَّا قلنا إنَّ المرادَ بِمُقَابِلِ المستقيمِ كُلُّ ما فِيهِ انحرافٌ لَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَمِيلُ وينحرفُ عن الجادةِ يَكُونُ أَضَلَّ عن الغايةِ مِنْ يَسِيرٍ عَلَيْهَا فِي خَطِّ ذِي تعاريجٍ ، لَأَنَّ هذا الأخيرَ قد يَصِلُ إِلَى الغايةِ بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا قَطُّ ، بَلْ يَزْدَادُ بُعْدًا كُلَّمَا أَوْغَلَ فِي السَّيْرِ وَانْهَمَكَ فِيهِ .

وقد قالوا إنَّ المرادَ بالصِّرَاطِ المستقيمِ ، الدِّينَ أَوِ الْحَقَّ أَوِ الْعَدْلَ وَالْحُدُودَ . وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّهُ جَمَلَةٌ مَا يُوصِّلُنَا إِلَى سَعَادَتِنَا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ عَقَائِدٍ وَأَدَابٍ وَأَحْكَامٍ وَتَعَالِيمٍ .

لِمَ سُمِّيَ الْمَوْضِلُّ إِلَى السَّعَادَةِ مِنْ ذَلِكَ صِرَاطًا وَطَرِيقًا ؟ خذِ الْحَقَّ مَثَلًا - وَهُوَ الْإِعْتِقَادُ الصَّحِيحُ بِاللَّهِ وَبِالنَّبِيِّ وَبِأَحْوَالِ الْكَوْنِ وَالنَّاسِ - تَرِ مَعْنَى الصِّرَاطِ فِيهِ وَاضِحًا ، لَأَنَّ السَّبِيلَ أَوِ الصِّرَاطَ هُوَ مَا أَسْلَكُهُ وَأَسِيرُ فِيهِ لِبُلُوغِ الْغَايَةِ الَّتِي أَقْصَدُهَا . كَذَلِكَ الْحَقُّ الَّذِي يَبِينُ لِي الْوَاقِعَ

في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة ؛ فالطريق الواضح للحس ، يشبهه الحق للعقل والنفس ، سِرٌّ حَسِّيٌّ وسِرٌّ معنوي . كذلك إذا اعتبرت المعنى في الحلود والأحكام وجدته واضحاً . قُسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومنلوب ومباح ومحرم ومكروه ، فكان هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا . فبيان الأحكام بالهداية الكبرى - وهي الدين - كالطريق الواضح يسلك بالعمل .

ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها ، كما بصرفت السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يُرذِّبهم ؛ وهذا التلاعب بالدين إما يصدر من علمائِهِ . وأضربُ لذلك مثلاً أحدَ الشيوخ المتفقيهِين سرق كتاباً من وقف أحد الأروقة في الأزهر مُستجلاً له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به ، وهو يحصل بوجود الكتاب عنده ، وقد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف !

واستحلال المحرمات بمثل هذا التلويل ليس بقليل ، ولذلك كان الإنسان محتاجاً أشد الاحتياج إلى العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات الأربع سيرة مستقيماً يوصل إلى السعادة . لهذا نبهنا الله جلَّ شأنه إلى أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصُرنا على أهوائنا وشهواتنا ، وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه ، بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهد في معرفة ما أنزل إلينا من الشريعة والأحكام ، وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك . وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جلَّ شأنه لاشتماله على خيرى الدنيا والآخرة ؛ فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله « وَإِلَيْهِ تَسْتَعِينُ » .

«صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»
 الصِّرَاطُ المستقيمُ هو الموصِلُ إلى الحقِّ ، وإنما بَيَّنَّهُ بإضافته إلى مَنْ
 سَلَكَ هذا الصِّرَاطَ كما قال : «فَبِهْدَاهُمْ اقْتَدِهْ» . والفتاحةُ مشتَمِلَةٌ على
 إجمالٍ ما فَصَّلَ في القرآنِ حتى من الأخبارِ التي هي مُثُلُ الذِّكْرِ والاعتبارِ ،
 وَيَتَّبِعُ العِظَةَ والاستبصارَ ، وأخبارُ القرآنِ كلها تنطوي في إجمالِ هذه
 الآيةِ

فَسَرَّ بَعْضُهُمُ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمُ بالمسلمينَ ، والمغضُوبَ عَلَيْهِمُ باليهودِ ،
 والضَّالِّينَ بالنصارَى . ونحن نقولُ إن الفتاحةَ أوَّلُ سورةٍ نزلتْ كما قال
 الإمامُ عليٌّ رضي الله عنه ، وهو أعلمُ بهذا من غيره ، لأنَّهُ تَرَبَّى في حجرِ
 النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ . وإن لم تكن أوَّلُ سورةٍ
 على الإطلاقِ فلا خِلَافَ في أنها من أوائلِ السُّورِ كما مرَّ في المقدمةِ .
 ولم يكن المسلمون في أوَّلِ نزولِ الوحيِ بحيث يُطَلَّبُ الاهتداءُ بهداهُمُ ،
 وما هُتِّدَ لهمُ إلَّا من الوحيِ ، ثم هم المأمُورون بأن يَسْأَلُوا اللهَ أن يَهْدِيَهُمْ
 هذا السَّبِيلَ ، سَبِيلَ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فأولئك غيرُهُمْ . وإنما المرادُ
 بهذا ما جاء في قولِهِ تعالى : «فَبِهْدَاهُمْ اقْتَدِهْ» ، وهم الذين أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ
 من النبيِّينَ والصَّديقينَ والشهداءِ والصالحينَ من الأئمِّ السالفةِ . فقد أحالَ
 على معلومٍ أَجْمَلُهُ في الفتاحَةِ وفَصَّلَهُ في سائرِ القرآنِ بقدرِ الحاجةِ ،
 فنلأثَةُ أرباعِ القرآنِ تقريباً قَصَصَ وتوجيهً لِلانْظَارِ إلى الاعتبارِ بأحوالِ
 الأئمِّ في كُفْرِهِم وإيمانِهِم ، وشقاوَتِهِم وسعادَتِهِم ؛ ولا شيءَ يَهْدِي
 الإنسانَ كَالْمَثَلاتِ والوقائعِ . فإذا امْتَثَلْنَا الأَمْرَ والإرشادَ ، ونظرنا في أحوالِ
 الأئمِّ السالفةِ ، وأسبابِ عليهم وجعلِهِمْ ، وقوتِهِمْ وضعفِهِمْ ، وعِزِّهِمْ

وَذَلِّهِمْ ، وغير ذلك مما يَعْرِضُ لِلْأَمَمِ ، كان لهذا النظر أثرٌ في نفوسنا
يُحِيلُنَا على حُسْنِ الْأُسُوةِ والافتدَاءِ بِأَخْيَارِ تِلْكَ الْأَمَمِ ، فيما كان سببَ السَّعَادَةِ
والتَّيَكُّنِ فِي الْأَرْضِ ، واجْتِنَابِ مَا كَانَ سببَ الشَّقَاوَةِ أَوِ الْهَلَاكِ وَالْمَمَارِ .

ومن هنا ينبغي للعَاقِلِ شَأْنُ عِلْمِ التَّارِيخِ وما فيه من القَوَائِدِ وَالثَّمَرَاتِ ،
وَتَأَخُّذِهِ الدَّهْشَةَ وَالْحَيْرَةَ إِذَا سَمِعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ الدِّينِ مِنْ أُمَّةٍ
هَذَا كَتَابُهَا بِعَادُونَ التَّارِيخِ بِاسْمِ الدِّينِ ، ويرغبون عنه ويقولون إنه
لا حاجةَ إِلَيْهِ ولا فائدةَ لَهُ . وكيف لا يَدْهَشُ وَيَحَارُ وَالْقُرْآنُ يُنَادِي بِأَنَّ
مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْأَمَمِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ هَذَا الدِّينُ « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالنَّبِيَّةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » .

وهنا سؤالٌ وهو : كيف يأمرنا اللهُ تعالى باتِّباعِ صراطٍ مَنْ تَقَدَّمَنا
وعندنا أحكامٌ وإرشاداتٌ لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكملَ
من شرائعهم وأصلحَ لزماننا وما بعده ؟ والقُرْآنُ يبيِّنُ لنا الجوابَ ، وهو
أنَّهُ يَصْرُحُ بِأَنَّ دِينَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ وَاحِدٌ ، وإنَّما تَخْتَلَفُ الْأَحْكَامُ
بِالْفُرُوعِ الَّتِي تَخْتَلَفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ ، وَأَمَّا الْأُصُولُ فَلَا خِلَافَ فِيهَا .

قال تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » . وقال تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا
دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا » . فالاعتقادُ بِاللَّهِ وَبِالنَّبِیَّةِ وَبِتَرْكِ الشَّرِّ وَبِعَمَلِ

الْبِرِّ وَالتَّحَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ مَمْتَوٍ فِي الْجَمِيعِ . وقد أَمَرَنَا اللَّهُ بِالنَّظَرِ
 فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ وَالْإِعْتِبَارِ بِمَا صَارُوا إِلَيْهِ ، فنقتدى بِهِمْ فِي الْقِيَامِ عَلَى
 أَصُولِ الْخَيْرِ ؛ وَهُوَ أَمْرٌ يَتَضَمَّنُ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ عَلَى
 حَسَبِ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي قَرْنِ الدَّلِيلِ بِالْمَذْلُولِ ، وَالْعَلَّةِ بِالْمَعْلُولِ ، وَالْجَمْعِ
 بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ . وَتَفْصِيلُ الْأَحْكَامِ الَّتِي هَذِهِ كَلِّمَاتُهَا بِالْإِجْمَالِ نَعْرِفُهُ
 مِنْ شَرْعِنَا وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » ، فَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ
 خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهِ ، وَالَّذِينَ بَلَغَهُمْ شَرْعُ اللَّهِ تَعَالَى وَدِينُهُ
 فَرَفَضُوهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ انْصِرَافًا عَنِ الدَّلِيلِ ، وَرَضًا بِمَا وَرَثُوهُ مِنَ الْقَبِيلِ ،
 وَوَقُوفًا عِنْدَ التَّقْلِيدِ ، وَعَكُوفًا عَلَى هَوَى غَيْرِ رَشِيدٍ . وَغَضَبُ اللَّهِ عِقَابُهُ
 وَانْتِقَامُهُ .

وَقَوْلُهُ « وَلَا الضَّالِّينَ » : قَرَنَ الْمَطُوفَ فِيهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي « غَيْرِ » مِنْ مَعْنَى
 النَّقْيِ ، أَيْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ ، فَفِيهِ تَأْكِيدٌ لِلنَّفْيِ . وَهُوَ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ الطَّوَائِفَ
 ثَلَاثٌ : الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَالضَّالُّونَ . وَلَا شَكَّ أَنَّ
 الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ ضَالُّونَ أَيْضًا ، لِأَنَّهُمْ يَنْبِذُهُمُ الْحَقُّ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ قَدْ
 اسْتَدْبَرُوا الْغَايَةَ وَاسْتَقْبَلُوا غَيْرَ وَجْهَتِهَا ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَى مَطْلُوبٍ ، وَلَا يَهْتَدُونَ
 إِلَى مَرْغُوبٍ . وَلَكِنْ فَرَقًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ فَأَعْرَضَ عَنْهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَبَيْنَ
 مَنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ الْحَقُّ فَهُوَ تَائِهٌ بَيْنَ الطَّرِيقِ لَا يَهْتَدِي إِلَى الْجَادَةِ فِيهَا ، وَهُمْ
 مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ الرِّسَالَةُ أَوْ بَلَّغَتْهُمْ عَلَى وَجْهِ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ فِيهِ الْحَقُّ ، فَهَؤُلَاءِ
 هُمْ أَحَقُّ بِاسْمِ الضَّالِّينَ ، فَإِنَّ الضَّالَّ حَقِيقَةٌ هِيَ النَّائِيَةُ الْوَاقِعُ فِي عَمَايَةِ

لَا يَهْتَدِيْ مَعَهَا إِلَى الْمَطْلُوبِ ، وَالْعَمَائِيَّةُ فِي الدِّينِ هِيَ الشَّبَهَاتُ الَّتِي تَلْبِسُ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتُشَبِّهُ الصَّوَابَ بِالخَطَا .

وَالضَّالُّونَ عَلَى أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ - مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ الدَّعْوَةُ إِلَى الرِّسَالَةِ ، أَوْ بَلَّغَتْهُمْ عَلَى وَجْهِ لَا يَسُوقُ
إِلَى النَّظَرِ ، فَهَؤُلَاءِ لَمْ يَتَوَافَرْ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْهَدَايَةِ سِوَى مَا يَحْصُلُ بِالْحِسِّ
وَالْعَقْلِ ، وَحُرِّمُوا رُشْدَ الدِّينِ ، فَإِنْ لَمْ يَضِلُّوا فِي شُؤْنِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ ضَلُّوا
لَا مُحَالَةَ فِيمَا تُطَلِّبُ بِهِ نَجَاةَ الْأَرْوَاحِ وَسَعَادَتِهَا فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى . عَلَى أَنَّ
مِنْ شَأْنِ الدِّينِ الصَّحِيحِ أَنْ يُفَيِّضَ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ مَا بِهِ يَسْمَعُونَ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا ، فَمَنْ حُرِّمَ الدِّينَ حُرْمَ السَّعَادَتَيْنِ ، وَظَهَرَ أَثَرُ
التَّخْبِطِ وَالْاضْطِرَابِ فِي أَعْمَالِهِ الْمَعَاشِيَّةِ ، وَحَلَّ بِهِ مِنَ الرِّزَايَا مَا يَتَّبِعُ
الضَّلَالَةَ وَالْخَبْطَ عَادَةً ... سَنَةِ اللَّهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَلَنْ تَجِدَ لَسَنَتِهِ تَبْدِيلًا .
أَمَّا أَمْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَعَلَى أَنَّهُمْ لَنْ يَسَاوُوا الْمُهْتَدِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَقَدْ يَعْنُو
اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُوَ الْفَعَالُ مَا يُرِيدُ .

الْقِسْمُ الثَّانِي - مَنْ بَلَّغَتْهُ الدَّعْوَةُ عَلَى وَجْهِ يَبْعَثُ عَلَى النَّظَرِ فَسَاقَ هِمَّتَهُ
إِلَيْهِ وَاسْتَفْرَغَ جَهْدَهُ فِيهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَوْفُقْ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِمَا دُعِيَ إِلَيْهِ وَانْقَضَى
حِمْمُهُ وَهُوَ فِي الطَّلَبِ . وَهَذَا الْقِسْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا أَفْرَادًا مُتَفَرِّقَةً فِي الْأَمَمِ ،
وَلَا يَعُمُّ حَالَهُ شَعْبًا مِنَ الشُّعُوبِ فَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ فِي أَحْوَالِهَا الْعَامَّةِ وَمَا يَكُونُ
لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ وَشِقَاءٍ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا . أَمَّا صَاحِبُ هَذِهِ الْحَالَةِ فَقَدْ ذَهَبَ
بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ إِلَى أَنَّهُ مِمَّنْ تُرَجَّى لَهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى . وَيُنْقَلُ صَاحِبُ هَذَا
الرَّأْيِ مَثَلُهُ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ . وَعَلَى رَأْيِ الْجُمْهُورِ فَلَا رَيْبَ أَنَّ

مُواخَذَتُهُ أَخَفَّ مِنْ مُواخَذَةِ الْجَاهِلِ الَّذِي اسْتَعَصَى عَلَى الدَّلِيلِ ، وَكَفَّرَ
بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ ، وَرَضِيَ بِحُظِّهِ مِنَ الْجَهْلِ ،

القسم الثالث - من بَلَّغَتْهُمْ الرِّسَالَةَ وَصَدَّقُوا بِهَا بِلَوْنِ نَظَرٍ فِي أُدْلِيِّهَا
وَلَا وَقُوفٍ عَلَى أَصُولِهَا ، فَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فِي فَهْمٍ مَا جَاءَتْ بِهِ فِي أَصُولِ
الْعَقَائِدِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُتَّبِعَةُ فِي كُلِّ دِينٍ ، وَمِنْهُمْ الْمُتَّبِعُونَ فِي دِينِ
الْإِسْلَامِ ، وَهُمْ الْمُتَحَرِّفُونَ فِي اعْتِقَادِهِمْ عَمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ جُمْلَةُ الْقُرْآنِ
وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَأَهْلُ الصِّدْقِ الْأَوَّلُ ، فَفَرَّقُوا الْأُمَّةَ إِلَى مَشَارِبَ
يَقْصُرُ بَاطِنُهَا الْوَارِدُ وَلَا يَرْتَوِي مِنْهَا الشَّارِبُ . وَإِنِّي أَشِيرُ إِلَى طَرَفٍ مِنْ
آثَارِهِمْ فِي النَّاسِ : يَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى دَوَائِرِ الْقَضَاءِ فَيَسْتَحْلِفُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ
الْعَظِيمِ أَوْ بِالْمَصْحَفِ الْكَرِيمِ - وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْقَدِيمِ - أَنَّهُ مَا فَعَلَ كَذَا
فِيحْلِفُ وَعَلَامَةُ الْكَلْبِ بَادِيَةٌ عَلَى وَجْهِهِ ، فَيَأْتِيهِ الْمُسْتَحْلِفُ مِنْ طَرِيقِ
آخَرٍ وَيَحْلِفُ عَلَى الْحَلْفِ بِشَيْخٍ مِنَ الْمَشَايخِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُ بِهِمْ فَيُتَغَيَّرُ لَوْنُهُ
وَتَضْطَرِبُ أَرْكَانُهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِي أَلْيَتِهِ وَيَقُولُ الْحَقَّ وَيُقِرُّ بِأَنَّهُ فَعَلَ مَا حَلَفَ
عَلَيْهِ أَوَّلًا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ تَكْرِيمًا لِاسْمِ ذَلِكَ الشَّيْخِ ، وَخَوْفًا مِنْهُ أَنْ يَسْلُبَ
عَنْهُ نِعْمَةً أَوْ يُحِلَّ بِهِ نِقْمَةً إِذَا حَلَفَ بِاسْمِهِ كَافِيًا ، فَهَذَا ضَلَالٌ فِي أَصُولِ
الْعَقِيدَةِ يَرْجِعُ إِلَى الضَّلَالِ فِي الْإِعْتِقَادِ بِاللَّهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ
فِي الْأَفْعَالِ . وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَسْرُدَ مَا وَقَعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الضَّلَالِ فِي الْعَقَائِدِ
الْأَصْلِيَّةِ بِسَبَبِ الْبِدْعِ الَّتِي عَرَضَتْ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ لَطَالَ الْمَقَالُ ، وَاجْتِيَاحُ
إِلَى وَضْعِ مَجْلَدَاتٍ فِي وَجْهِ الضَّلَالِ ،

ومن أشنعها أثراً وأشدّها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل
القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين
مخالفة الله على نفوس العبيد ،

إذا وزنا ما في أدبنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن
ندخلها فيه أولاً ، ظهر لنا كوثنا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا ما في
أدبنا في القرآن وحسرتها فيه أولاً فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال
لاختلاط الموزون بالميزان ، فلا يدري ما هو الموزون من الموزون به . أريد
أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمّل عليه المداهب والآراء في الدين ،
لا أن تكون المداهب أصلاً والقرآن هو الذي يحتمل عليها ويرجع بالتأويل
أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخلولون وقاه فيه الضالون .

القسم الرابع - ضلال في الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له ،
كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات ، والخطأ في فهم
الأحكام التي جاءت في المعاملات . ولنضرب لذلك مثلاً الاحتياط في الزكاة
بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ، ثم استرداده بعد مضي
قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه ، وظن المحتال أنه بجلبه
قد خلّص من أداء القريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ،
ولا يعلم أنه بذلك قد هدم دينا مهم أو كان دينه ، وجاء بعمل من
يعتقده أن الله قد فرس قرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به
ويحو أثره ، وهو محال عليه جل شأنه .

فلا تارة أقسام من هذا الضلال ، أولها وثالثها ورابعها ، يظهر أثرها في الأمم
فتدخل قوى الإدراك فيها ، وتفسد الأخلاق ، وتضطرب الأعمال ، ويحل

بها الشقاء عَقُوبَةً مِنَ اللَّهِ لَا بَدَّ مِنْ نَزُولِهَا بِهِمْ - سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِهِ تَحْوِيلًا .

وَيُعَدُّ حُلُولُ الضَّعْفِ وَنَزُولُ الْبَلَاءِ بِأَمَةٍ مِنَ الْأُمَمِ مِنَ الْعَلَامَاتِ وَالْدَّلَائِلِ عَلَى غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا ، لَمَّا أَخَذَتْهُ فِي عَقَائِدِهَا وَأَعْمَالِهَا مِمَّا يَخَالِفُ سُنَّتَهُ وَلَا يَتَّبِعُ فِيهِ سُنَّتَهُ . لِهَذَا عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ نَدْعُوهُ بِأَنْ يَهْدِيَنَا طَرِيقَ الَّذِينَ ظَهَرَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ ، بِالرُّقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ ، وَتَقْوِيمِ الْعُقُولِ وَالْأَعْمَالِ بِفَهْمِ مَا هَدَانَا إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا طَرِيقَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ ظَهَرَتْ فِيهِمْ آثَارُ نِعْمِهِ بِالْانْحِرَافِ عَنْ شَرَائِعِهِ ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا أَوْ غَوَايَةً وَضَلَالًا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأُمَّةَ إِذَا ضَلَّتْ سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَلَعِبَ الْبَاطِلُ بِأَهْوَانِهَا ، فَفَسَدَتْ أَخْلَاقُهَا ، وَاعْتَلَّتْ أَعْمَالُهَا ، وَقَعَتْ فِي الشَّقَاءِ لَا مَحَالَةَ ، وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهَا مَنْ يَسْتَدْلِيهَا وَيَسْتَأْثِرُ بِشَوْوْنِهَا ، وَلَا يُؤَخِّرُ لَهَا الْعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَإِنْ كَانَتْ سَتَلَقَى نَصِيبَهَا مِنْهُ أَيْضًا . فَلِذَا تَعَادَى بِهَا الْقِيَّ وَصَلَ بِهَا إِلَى الْهَلَاكِ وَمُجَى أَثَرُهَا مِنَ الْوُجُودِ . لِهَذَا عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ نَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ مَنْ سَبَقَنَا وَمَنْ بَقِيََتْ آثَارُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا مِنَ الْأُمَمِ لِنَعْتَبِرَ وَنُمَيِّزَ بَيْنَ مَا بِهِ تَمَعَّدُ الْأَقْوَامُ وَمَا بِهِ تَشَقَّى .

أَمَّا فِي الْأَفْرَادِ فَلَمْ تَخْرُ سُنَّةُ اللَّهِ بِلُزُومِ الْعُقُوبَةِ لِكُلِّ ضَالٍّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَقَدْ يُسْتَلْجِجُ الضَّالُّ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْلَمُ ، وَيُدْرِكُهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا يَلْقَى جَزَاءَهُ «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» .

تُطبع بالقاهرة
مركز الأملات الشريفة
مؤسسة الطباعة
لدار التحرير للطبع والنشر

كتاب الشعب

القرآن الكريم جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ شيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي دمشق ومفتي المجمع العلمي بالقاهرة سابقاً

طابع الشعب

صدرت هذه الطبعة ضمن سلسلة « كتاب الشعب » بأذن خاص من وزارة
التربية والتعليم . وقد أخذت من طبعة الطبعة الأسيرية (عام ١٣٦٦
هجريه - ١٩٤٩ ميلادية) التي قام بتصحيحها والتعليق عليها ، بتكليف
من الوزارة ، الأستاذ الشيخ علي محمد حسب الله ، أستاذ العلوم الشرعية
المساعد بكلية دار العلوم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فكنت أعتلو اليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ،
وقد الأداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر ، ولا
سيما أن تفسري لجزء « تبارك » لا ينظر اليه الناظرون
لذاته ، ومن حيث نسبتها الى صاحبه ، وإنما تعتمد
فيه الموازنة بينه وبين ما كتبه الأستاذ على جزء « عم »
فينحط قدره في ميون القراء ، وينسخ ظلامه
بالضيام ، وبضدها تميز الأشياء .

ثم ضرب الدهر شرباته ، فكان من أموره أن تولت
دمشق أول سنتي الحرب الأولى نزولا حسبته لما ،
فإذا هو قد استولى شهورا وأعواما . فتجددت لي
وأنا فيها دواعي حفرتي لتحقيق الأمل ، ومباشرة
ما كلفت من العمل . فوضعت هذا التفسير مستعينا
بحول الله وقوته ، وأكملته على مثال تفسير شيخنا
وطريقته .

بيد أنني رأيت أن التوسع قليلا في التعليق والتفسير ،
والاستشهاد والتنزيل — ولا سيما في المباحث الغريبة
— بأكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله في تفسير جزء
« عم » ، مراعيًا في ذلك حال قراء جزء « تبارك » ،
ومقترا في نفس أنفسهم سيكوتون أكبر سنا ، وأهم
استعدادا ، وأشد اهتماما بالتحصيل من قراء جزء
« عم » .

وقد قمت في تفسيرى هذا بفعل ما أطيق وأملك :
من تحرى الحق والصواب فيما أولت وفسرت ،
وبسط العسيرة وتلخيصها فيما انشأت وحررت ،
وتصحيح النية وجعلها خالصة لوجهه الكريم فيما
اخترت ورجحت .

أما قبوله تعالى لمعنى ، وعفوه من قصورى وزلى ،
ورواج تفسيرى بين القراء كما هو قصدى وأملى —
فإن هذا لا أملكه ولا أطيقه بقوتى ، ولا يدخل تحت
مقدورى ومكنتى ، وإنما أكل الأمر فيه الى الله ، فهو
المستول أن يتولا بمعناته ، ويجعله قرين التوفيق
بفضله وكفايته .

وقد فتيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ،
وأحالته على لجنة من خيرة رجالها المختصين ،
فراجحته ، وأشارت بطلبه ونشره ، تعميما لفائدته في
معاهد العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين في بقاع
الأرض .

والله المستول أن يجعله خالصا لوجهه ، وإن ينفع
به ، فإنه الموفق الى الخير ، والهادى الى سبيل
الرشاد ، وهو حبيبى ويؤم الوكيل .

عبد القادر المغربي

نحمدك ربنا منزل القرآن ، بحقائق الإيمان ،
وجليل العبر . ومعلم الأذهان ، نواصع البيان ،
ودقيق النظر . ونصلى ونسلم على سيدنا محمد
المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مضر .
صلاة وسلاما يتجددان ما يتجدد الزمان ، وتماقب
الموان ، ولاح قمر .

أما بعد ، فإن جزأ « عم » و « تبارك » من أكثر
الأجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداول بين عامة
المسلمين وأيدى صغارهم . وآياتهما أشد علوقا
بالنفس ، وترديدا في الأفواه من سائر آيات الكتاب .
فمن ثم كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيراً
حسب الوضع ، صحيح الأسلوب ، يقرب من أذهان
العامة ، ولا تتجافى منه مقول الخاصة . فيقتصر فيه
من القول على ما يكشف القموض عن الآيات من جهة
اللغة والإعراب ، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا
وسطا مجردا من التنطع بالمساغبات ، وإيراد الخلافات
والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه
الله — تفسيراً لجزء « عم » توخى فيه هذا النمط
والأسلوب ، فجاء من خير الكتب وقام بالفرض ،
وإصابة لواضع الحاجة . فلا غرو إذا تناولته الألسنة
بالثناء ، وتلقته القلوب بالقبول .

وقد رغب الى بعض الفضلاء في إتمام إقامتى بمصر
بين سنتي ١٣٢٢ و ١٣٢٧ هـ (١٩٠٥ — ١٩٠٨ م)
أن أضع تفسيراً لجزء « تبارك » اتوخى فيه طريقة
أستاذنا الجليل فيما علقه على جزء « عم » من جهتي
الصحة في التعبير ، والاقتصار على المفيد من القول ،
فقلت له : بلغنى أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزء
« تبارك » وهو مازال في تساويد مبشرة محفوظة منذ
صديقه المرحوم « حسن باشا عاصم » .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا أن الأستاذ
لم يشرع في تفسير جزء « تبارك » بالفعل ، وإنما كان
هياً صحائف يضا ركم في رموسها آيات ذلك الجزء ،
وتركها ففلا من الكتابة على أمل أن يسطحها معه في
بعض أسفاره ، ونملاها تفسيراً وتعليقا ، كما كان من
بعضه في تفسير جزء « عم » الذى ألفه في غضون سفره
الى البلاد المغربية ، لكنه اخترعته منيته ، قيل أن
تحقق أميته .

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارنى أو
صادفنى سألنى عن التفسير وألح عليّ بالشروع فيه .

(٦٧) مِوَرَةُ الْمَلِكِ مَكْتَبَةٌ

• تعالیٰ عن مشابہة المخلوقین تعالیا دائما لاستوره نقصه ولا انقطاع .

(إليابوكم) أي ليختبركم ويثبتكم .
استعمل الكلام بأن له تعالى التصرف في كل شيء
والقدرة على كل شيء . ثم ذكر مثالا من أمثلة تصرفه
وقدرته ، فقال : أنه تعالى قدر على البشر موتا وحياة .
والمراد بالوت الحالة التي يكون فيها الإنسان عناصر
متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك سطر
الله على تلك العناصر من نوايس قدرته ، المتطبقة على
سابق مشيئته ما يصحها كل مفكرة ذات إرادة
واختيار . ولذا هنا ما لا تعالى يريد أن يختبر
الإنسان : أي يعامله معاملة المختبر المجرب ، فيظهر
أمره ، ويعرف مقتدراته ويميله إلى التفسيه ،
ومبلغ عصبية ووجهه إلى الرذيلة . وإنما قلنا في
معنى ابتلاء هذا لأنه تعالى يعلم أمر الإنسان من دون
اختبار ، ولكن الإنسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ،
حتى إذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانتقلت
المآذير .

ثم ان الموت والحياة كلها يسحب تعقله على كل
مخاطبين ، وليس في طاقة معقلهم سهولة الانتقال منه
الى اثبات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحي الانه
الى ما فيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر في هذه
السמות الربية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال
(الذي خلق سبع سموات الخ) (١)
(طبارقا) مصدر طابق التعلل خضعها وجعل كل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لهم على وجود الله وكرام صفاته . وهذا هو جيل
القدس من ذكر السموات في القرآن . وليس التقصد
من ذكرها تقرير حقائق في علم الهيئة . وسكوت الوحي
عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفي وجود
الزيادة . والحكمة في هذا السكوت أن المخاطبين في
ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير في غير
السموات السبع أو السبعين السبع التي مر بها
الأوائل ، واشهر أمرها عند عامة الناس يومئذ . أما
النجوم الثوابت الآخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر
منهم أن يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت
أو احكام ، وذلك لعدمها الشاسع من متناول الحس ،
وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها
وأحوالها . وأما فلكا « أورانوس » و « نبتون » فلم
يكونا اكتشافا بعد في ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر
في قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والأحاطة علما
بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين - لكانت
أحالاته ميثا ، وتلكيفه محالا . وقدم إله سبحانه
وتعالى لنا ذلك في منزل الوحي ، ومعكم شره ، تغفلا
منه ورحمة . وسيأتي زيادة بيان لهذا البحث في سورة
نوح فانتظروه .

(الدنيا) تأتيث الأدنى ، وهي صفة السماء ، أي
السماء التي هي أقرب إلينا من سائر السموات .
(مصاصيح) جمع مصباح ، وهو السراج . وقد أراد بها
النجوم التي تغوي نواحي السماء على طريقة التمثيل .
وتكر المصاصيح تغفيا لشأنها ، وتعميها من أمرها ،
وأنها قد بلغت من الاشاعة والجفاح حداً دونه مصاصيح
الناس وصرجه المهود .

ولا يقال أن معظم النجوم التي نراها في السماء الدنيا
هي نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا
تقول : أن تلك النجوم الثوابت هي من كواكب السماء
الدنيا وزينتها في بديء النظر ، وأن كان مركزها حيث
ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها
زينة للسماء الدنيا .

(رجوما للشياطين) . الرج : في الأصل مصلول
ورجمه إذا رماه بنحو حجر ، ثم سمي الشيء الذي يرمي
به (رجما) تسمية بالمصطلح ، وجمع على (رجوم)
مثل ما مر في جمع فطر على فطور . و (الشياطين)
طائفة من المخلوقات الشريرة . لا تسمى بها مياطينها . وأما
نعرها بكالرها . ومن جملة تلك الأفكار خاطرات السوء ،
ونزوع أنفسنا إلى الشرور . وهذه المخلوقات الشيطانية
هي ما يفهم في الأعم والأفمن من الملائكة لفظ الشياطين .
والأفان الشيطان اسم لكل متمرد عات ، سواء كان
إنسانا أم جنانا أم دابة . ومن ذلك قوله تعالى : (وإذا
خولا إلى شياطينهم) أي رؤسائهم من الإنس . وفي
الحديث « لا تصلوا في مبارك الأبل » فإنها من الشياطين .
قال بعض شراحه : أنها من الشياطين حقيقة ، لأن
الشيطان اسم لكل متمرد عات كما قلنا . وقال آخرون
أن الأبل تشبه شياطين الجن في الشرور والتهورش على
المصلين .

(واعتننا لهم ملكا السجى) أي وأعدنا لآوئلك
الشياطين عذابا يسخر فيه النار ، أي توفد أشد إقادة .

طبق منها حلو الطبق الذي يليه ، أو هو جمع طبق
كجبل وجبال ، أو جمع طبقة مثل رجة بالتحريك وهي
الساحة إذ يقال في جمعها رحاب . (تفاوت) اختلاف
واضطراب وخلل في الخلقه (فاروج البصر) أي انظر
مرة أخرى نظرا متعمقا متاملا ، فقد تكون نظرتك
الأولى مجردة عن ذلك (فطور) جمع فطر ، وهو الشئ
والصاعد في الشئ . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين
أجزاء السموات (كرتين) مرتين . والمراد بالتثنية
التكثر : كأنه يقول : ثم رد بصره مرة بعد المرة ، بدليل
السياق ، إذ يقول تعالى : (ثم أوجع البصر كرتين ينقلب
إليك البصر خاسئا وهو حسبي) . والبصر لا بكل مجرد النظر
مرتين اثنتين ، وإنما بكل ويتمب بتزديد النظرات
الكثيرة . وهذا مثل قولهم : لييك مسعديك ، فإن
التثنية فيها لإفادة التكثر (خاسئا) اسم فاعل من
خسى ، بمعنى تباعد بذلة وصغار . ومنه قوله للكلب :
أخسأ ، فإذا تكررت النظرات ولم تجد خلا رجعت
بعيدة عن ليل غرضها ، وإصابة ملتصبا : كان عليها
آثار الدلة والصغار (حسبي) كاليل معني من كثرة
مابحت من النظر والتفاوت فلم يجدهما .

هذه الآية مثال ثان من أمثلة سعة ملكه ، وشمول
قدرته . ذكر في صدر السورة أنه تعالى بث الحياة في
البشر بعد أن كانوا عنامي ميتة لا شعور فيها . ثم
ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات
يعلو بعضها بعضا ، وأتاك لا ترى عند التأمل خلا فيها ،
ولا تشاخص (١) بين أجزائها . فحقق النظر إليها
وتأمل تأمل متعمق حل تجد فيها خلا لا تذا لم
تعلمن للنظرة الأولى التي رجا كانت جملة فاصد
نظراتك مرارا . فلا جرم أن بكل إذ ذلك بصره ، ويغيب
بعثك . ولا تفكر بمثلوك من وجود الخلل والقطر .
والخطاب في قوله (ماري) (فاروج) (ثم أوجع) لكل
أمرى يتألى منه الرب والشك في مبلغ القدرة الإلهية ،
لا لواحد بعينه . وقد أبدت تجارب العلماء الباحثين في
المادة ونواميسها ، والكتائنت وسننها - مضمون هذه
الآية ، فإنهم قدروا - بعد النظر الدقيق - أن الصالم
جميعه - من أصغر ذرة في فضائه - إلى أكبر جرم في
صائه - خاضع لناموس واحد ، ومتناسك بنظام عام
شامل : لا يمكن حصول خلل فيه ، ولا طرود شلود
عليه إلا أن يشاء الله . فتبارك الله أحسن الخالقين .

والسموات السبع هي طرائق التسبيرات
ومداراتها (٢) . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات :
طبقة أدنى من طبقة وفلك فوق تلك . وأما اقتصر
الوحي من ذكر السموات على سبع - مع أن العلم
البت أنها أكثر من ذلك - لأنه تعالى أنما يخاطب القوم
وقفت البشة بما مروا من أسر الافلاك وكواكبها . وقد
أحاطهم على النظر والتأمل في تكوينها وأوضاعها ،
ليتنبهوا إلى كمالات احكامها ، وليحدث الخطاب في
نفوسهم هيرة والفتا . وفصل ثائر ، وليكون ذلك آية

(١) شخص الأمر كمنع والشمس : اضطرب وتفرق ، فبر شخص
(٢) قال ابن سيده الأندلسي في مستدركه (ج ١٦ ص ١٨١)
ما لعله (والسماء والسفلى مدار النجوم) الخلف .

جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّيِّئِ ۝ إِذَا التُّوَابُ فِيهَا مِمَّا لَهَا
شَيْئًا وَمِنْ تَفُورٍ ۝ تَكَادُ كُمُذٌ مِنَ الْفَيْظِ كَمَا أَلْفَى
فِيهَا فَوْجٌ سَاهَمَ حَزَنُهَا الرِّيَاسُ نَدِيرٌ ۝ قَالُوا بَلْ
قَدْ جَاءَنَا نَدِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَأَعْرَضُوا عَنْ نَذِيرِهِمْ
فَسُحْقًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ مِنْهُمْ
بِالنِّفْيِ لَهُمْ غُفْرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ

ذكر في الآية السابقة السموات وأحكام صنمها
وذكر هنا ما فيها من النجوم الثلاثة ، وقال أن تلك
النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين . ولا
ينافي هذا أن تكون النجوم خلقت لمصالح آخر ؛ كونها
علامات يهتدي بها المسافرون في ظلمات البر والبحر ،
اذ ليس في الآية ما يستلزم المحرم .

ومعنى جعل النجوم رجوما أنها سبب الرجوم ،
ومصدر لها . والا فان النجوم أجرام كبيرة ثابتة في
مراكزها وتسمى لوابيتها أو متحركة في الألفاظ وتسمى
مسيارات . ولا يمكن حسبي عرف من السنين
والنواميس التي قيدها بها خالقها ومبدعها أن تدع
مراكزها أو تخرج من مداراتها وهي بحيث وصفنا من
كبر الخمج فتتمتع وراء الشياطين . وإنما تكون تلك
النجوم منشأ للرجوم ومصدرا لها . فالرجوم ، وهي
الشهب ، أجرام صغيرة مضطربة منفصلة عن النجوم
وسابحة في الفضاء ، حتى اذا اقترب منها واحد من تلك
النجوم الشديدة السيرة المسماة شياطين - انقضت عليه
بشملة شعله نارية وأحرقته . ولا يقتصر في التكتيل به
على ذلك بل قد هيء له في الآخرة (عذاب السعير)
جزاء تصديه لاستراق خيبر السماء .

ويقول العلماء المتأخرون في سبب انقراض هذه
الرجوم المسماة في اصطلاحهم « نيازك » أنها بعد
انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى
سابحة في الفضاء ، حتى اذا اتفق اقترابها من كوكب
آخر أو من كوكبنا الأرضي ودخلت في منطقة نفوذها -
جلبها إليه بسرعة هائلة ، فاحترق وتلاشى هياء
منثورا ، أو تفتت منها بقية تسقط على سطح الأرض ،
وهي مايسمونه « الحجر النيزكي » .

وما قلناه من أن الرجوم شهب منفصلة من النجوم
لا النجوم نفسها صرح به في الكشف قال : « ومعنى

كون النجوم مراجع الشياطين أن الشهب التي تنقض
لرعي المسترقة من الشياطين منفصلة عن نار الكواكب
لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة في الفلك على
حالتها . وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة
كلمة لا تنقض » اهـ

أو يقال : ليس المراد بالمصاييح التي زين الله بها
السماء الدنيا النجوم أنفسها ، بل المراد بها كل ما استنار
في أفق السماء بحيث تراه العين في الليل الناس
مثلاثا مضيا كمنصباح ، فيدخل في ذلك النجوم كما
تدخل الشهب التي هي الرجوم ، فقوله تعالى
(وجعلناهم) أي وجعلنا بعض تلك المصاييح أو نوعا
منها ، وهو الشهب التي ترى في السماء كمنصاييح ،
رجوما للشياطين .

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظواهر ما ورد في
القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل منها رجوم
تتبع الشياطين . وإذا لم يفهم العلم الطبيعي هذه
القضية ، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم .
ونكتفي في صحة الإيمان بها على ظاهرها أن العقل
لا يضلها من الحالات العقلية .

ولبعضهم في تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين
كلام جليلير بالقبول وهو : أن الرجوم واحدا الرجوم
مصدر رجم وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين . ومنه
قوله تعالى (رجما بالفتية) فالرجوم هنا بمعنى الظنون ،
أما الشياطين فهم شياطين الإنس ، أمضى التنجيم الذين
انضلوا من النظر في نجوم السماء والتسكين من أمور
المستقبل مما يبدو لهم من طوافها وقرائنها - مناصفة
لحمتها الرجوم ، وسدائها الزهر ، فالله تعالى يقول : أنه
خلق النجوم فكانت زينة للسماء ، أما الشياطين من
الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم واضلال الناس ،
فلا بدع اذا ادعت لهم الكثر بصلون معمرها .

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمتنجيم أن ذلك
كان من نتائج خلق النجوم ، وقد حصل بلزاده ، لا أنه
تعالى شرعه ورضي به كما رضى بأن تكون النجوم زينة
ومصاييح للسماء .

ومستزيد هذا البحث انفساحا في سورة الجن عند
قوله تعالى : (وأنا لمننا السماء فوجدناها ملئت حرسا
شديدا وشهبا) .

وبما أوهم قوله في الآية السابقة (واعتدنا لهم النج)
أن عذاب السعير ما عهد الا للشياطين خاصة ، فنفي
ذلك هنا بقوله (وللذين كفروا يريهم النج) أي أن عذاب
جَهَنَّمَ للكافرين جميعهم . شياطين كانوا أو غير شياطين ،
و (السعير) المرجع والمآل : من صار أمره الى كذا :
آل إليه ورجع ، والمخصوص بالذم محذوف . كان يقول
ويؤس المصير عذاب جهنم ، و (الشهب) الصوت الذي
يتردد في صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف
بشدته ، ولذلك يسمى نقيق الخمار شهيقا أيضا ، (فقول)
تغلي كما تغلي القند (تميت) أصله تميت أي تفرق
أجزاؤها وتتقطع من شدة غيظها وحقتها على أولئك
الكافرين الذين أقروا فيها ، وهذا كما يقال في وصف
الحزين : « يكاد ينظر قلبه من شدة الحزن » والشهب
الفتيط جمع في آية واحدة في سورة الفرقان في وصف

جَهَنَّمَ ايضاً) اذا رآتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيهاً وزفيراً) و (الزفير) هو الشهيق أو قريب المعنى منه .

ومعنى الآيات ان اولئك الكافرين حينما يلقون في جهنم يسمعون لها صوتاً شديداً وهي تلهي ، ويكاد الرائي لها من شدة غليتها وحسبها المنكر بصحتها غضبي على الكافرين بحيث يوشك ان تقطع اوصالها من فرط غليتها عليهم ، وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى ان المواد التي تلهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ او هو صوت اهله الذين اقوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين احد الأمرين ، كما لم يكلفنا ان نعرف جهنم نفسها والجنة وسائر شئون عالم القيب معرفة كنه وتحديد ، وانما كل ما على المؤمن ان يعتقد انه تعالى اشد داراً للأشراط تسمر فيها النار وتثور ويسمع لها صوت على المعنى الذي يزيد مسبحاته وتعالى . اما ما وراء ذلك من اعتقاد ان مواد جهنم وتناصرها وطبائعها وغلبيتها وحسبها من جنس ما نعرفه في الدنيا او لا - فهذا مما لم تكلفه رحمة بنا ، إذ القصد ان يؤدي علمنا بالنار الى الخشية والازدجار ، وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وان الداخل إليها يشعر من الألم باقصى ما يمهده في دار الدنيا .

واما ان التلظى والغضب يكاد يقطع اوصال جهنم ، فهو تمثيل وتصوير لهول أمرها ، وفظامة خطيئها ، قلما يجهل حسنة من أدنى حظا من علم الأدب ، وتلوق بشيء من خصائص لغة من العرب .

الكلام متصل بما قبله ، فبعد ان وصف دار العذاب جاء هنا بصف لنا اطوار الملعبين فيها ، (فوج) جماعة من المخاذين ، (مخزئها) هم المكونون بها ، ويسمون الزبانية ، (نذير) رسول من قبل الله ينذرهم بطعنه ، وينذرهم عقابه ، (يلي) حرف تصديق يقع بعد النفي فيفيد اليكسات المنفى ، وفي الآية لم يكتف بما فتيده (يلي) من الاييات ضمناً ، بل جاء به صراحة ، اذ قيل (قد جازنا نذير) ولو لم يصرح به لفهم ، و (الفضائل الكبير) هو ان يعد المرء من الحق بعدا شامسا ومفعول (نسمع او نعلم) محذوف اي ما كنا نسمع ولا نعلم كلام الرسول ولا انذارهم ولا تحذيرهم . والوارد بنفى السماع والعقل نفى الاجابة والفتية ، لان القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع في كلام العرب . قال شاعرهم :

دموت الله حتى خفت الا يكون الله يسمع ما أقول
اي حتى خفت الا يكون الله يريد اجابة دعائي ، وتلبية ندائي ، و (السعير) من أسماء جهنم وهو من سعرت النار فهي مسعورة ومسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، اي اوقدتها ابتداء شديداً ، (سحقاً) بسدا وهلاكاً ، وهي من كسكست اللدما والتقريرع مثل بسا وجديها ، ويقال في خدشتا سقيا ورصيا ، وأصل معنى (سحقاً له) اسحقه الله سحقاً ، اي ابتعد من رحمته . ابعاداً ومن سحق يعني البعد قولهم « مكان سحق » اي بعيد و « نحلة سحق » اي طويلة ، ومعنى الآيات انه كلما لقي في جهنم جماعة من المكذبين سالم القائلون

عليها استوال بوييح وتكرير - ثم يرسنسل اسماءهم رسولاً فيقولون : بلى ! ارسله اليك كذبتنا وافرطنا في التكذيب حتى جحنا الوحي الساموي وقتلنا ما أنزل الله شيئاً مما تلوهنا ايها الرسل ، ثم ذهبنا في الجحود والعناد والجرأة على الله كل مذهب ، قلنا للرسل (ان اتتم) اي ما اتتم معشر الرسل الا يفسدوا عن الحق والصواب اشد بعد . ثم قال المسترسلون لاولئك السائلين مقال النادم الأسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع اصفاء وقبول ، وعقلناه من تفكر وتدبر - لكنا آمننا بهم وبالحق الذي جاءوا به ، وما كنا الآن في عذاب زوار جهنم تقاسي حرها ونصلي سعيها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بذنوبهم في وقت لا ينفهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه في العناد ومقاومة الحق لا ينفي الرافة به ، ولا العطف عليه ، وانما يحسن تقريره وتوبيخه والدماء عليه بالسحق والهلاك . وفي تكرير لتقبيهم باصحاب السعير من النفي عليهم والهزء بهم ما لا ينفي وقعه وحسن ابراده .

وانما سالمهم زبالية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم (ألم ياتكم نذير) مع أنهم ربما كانوا عاين بسا كان منهم في دار الدنيا - ليكون ذلك اشد نكايه في تعذيبهم ، واكثر ايلاما لتفوسهم ، فانه لا يرضى قلب المرء شيء مشل ان يقال له في حين ظهور خطيئته ، ومقاساته عاقبة ماجتبه بداه : انك انت الجاني على نفسك ، انت الذي فرطت بما يسر لك من أسباب النجاة والسعادة فشيت .

قلما يصف القرآن ما اعد الله للمكذبين في الدار الآخرة من انواع العذاب الا اقبله بذكر ما اعداه للمؤمنين من منزل الكرامة وصف النعيم ، وهذا هو مقصد الاتصال بين هذه الآية (ان الذين يشككون ربهم الخ) وسابقتها ، على ان آية بها اتصالاً آخر ادق وألطف : ذلك ان المكذبين لما وردوا جهنم وراوا ماهاهم امره من أحوالها ، وسئلوا عن سبب ورودها - اجابوا بانهم كانوا يكذبون اقوال الرسل ، وينكرونها الوحي وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد . وحجتهم في ذلك انه يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، ففهم وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول في دعواه ، انخلوا عدم دؤيتهم لما بشروا وانلر به من عالم القيب والنشأة الثانية ذريعة الى تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الاعتقاد بقوله ، فكان أمر القيب اكبر عقبة في طريق ايمانهم . اما اولئك (الذين يشككون ربهم) اي يخاضعون عذابه (بالقييب) اي حال كون ذلك العذاب غالباً عنهم ولم يصابوا منه أئرا - فانهم جذبرون بان تكون (لهم مغفرة) وغفر من الله عن ذنوبهم (واجر كبير) اي عظيم اذا غيس بلذات الدنيا الصغيرة الحفيرة .

بعد ان انذر تعالى الكذابين وبشر المصدقين عاد فنتيهم جميعاً الى انه عالم بما يكون منهم من ايمان واكفر ، ولا فرق عنده بين السر والنجهر . والخطاب في قوله : (واسئرو قولكم) - وان كان موجها الى

اجهروا به ^{١٤٠} انه عظيم بذات الصدور ^{١٤١} الا يعلم من
 خلق وهو اللطيف الخبير ^{١٤٢} هو الذي جعل لكر
 الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه
 واليه النشور ^{١٤٣} امنتم من في السماء ان يحسف بكر
 الارض فاذاهي محور ^{١٤٤} ام امنتم من في السماء ان

التوفيق المصدقين والمكذبين - كان سببه صادرا عن
 المكذبين وهم المشركون ، فافهم كانوا يومى بعضهم
 بعضا بالا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ، فلا
 يطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم . و (ذات)
 بمعنى صاحبة الموثق كما ان (ذو) بمعنى صاحب
 للمذكر . واذا قال العرب (ذات الخدر) ارادوا المرأة
 صاحبة الخدر الملازمة له . وكذلك هم يريدون
 (بذات الصدور) المخاطر التي تلازم الصدور فلا
 تبرحها وتبقى مخفية فيها . و (من خلق) يمكن
 تطبيقه في الاعراب النحوى على وجهين : اما ان
 نجعل (من) فاعلا يعلم : كانه يقول : الا يعلم الخالق ؟
 ويصح ان يكون مفعولا به يعلم ويكون فاعله ضميرا
 راجعا الى الله : كانه يقول : الا يعلم الله تعالى مخلوقاته
 و (اللطيف) فيه معنى الدقة وصغر الحجم (لطف
 الشيء) صغر دق حجمه ، فهو لطيف . واذا وصف
 به ذو العلم والقدره كان معناه انه مطلع على الامور
 الدقيقة التي قلما يظن لها . والله سبحانه وتعالى
 لطيف اى انه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على
 غوامض مصالهم . وهو يسلك في تمهيد طريقها بين
 ايديهم مسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : (هو
 لطيف بمعباده ، وان لطفه بمعباده صحيح) يريدون
 عنانيته تعالى بكشف الضر عنهم ، وايصال الخير اليهم
 من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم .
 والآية على وجازة اللفظ تتضمن قضيا ونتائج
 اخذ بعضها برباب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم
 الخاطئين : انه لا فرق عنده بين ان تسروا حديثكم
 بينهم او تجهروا به وتسمعهوا علنا ، لانه تعالى يعلم
 خواطر قلوبكم ، وما يدب من الاسرار في صدوركم ،
 ولو لم تنوطوا بها اجراس الانفاظ لكيف لا يصلح
 الانفاظ المهموس بها همسا ؟

ثم انتقل الى الاحتجاج على من هساء ينسكروا ان
 يكون الله تعالى عالما بالضمائر ، وخفى السرائر ، فنبهه
 الى انه تعالى هو الذي خلق البشر واولجهم من
 العدم ، والخالق يعلم البينة ، كيف لا وعلمه قد
 نفذ الى اسرار الملوكات ، ويطن خواضر الامور ؟
 هاذا اذا جعلنا (من خلق) فاعلا يعلم . فاذا جعلناه
 مفعولا كان المعنى : كيف لا يعلم تعالى الواجس التي
 تحيك في نفوس البشر وهو الذي خلق هذه النفوس

الشيء ؟

بعد ان ذكر تعالى في الآية السابقة انه لطيف خبير
 ذكر هنا مثالا من امثلة ذلك اللطيف العجيب ، فهو
 تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض
 استعداداتهم ، فاعلمهم من صنوف النعم بما يلائم
 حالهم ، ويسهل عليهم البقاء في هذه الدار الدنيا . الا
 يكون هذا الاسداد ، وذلك اللطف المشاهدة آثاره بام
 آلمين - بعنا على خشية الخالق وتصدق رسله ،
 والايامن بالفتيب الذي اخبر به ؟

اصل (الذلول) الدابة البينة السهلة الانقياد .
 مشتق من اللل بكسر اللال بمعنى اللين ، وهو ضد
 الصموية . والوصف منه ذلول . اما اللل بضم اللال
 فهو ان يكون امر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس .
 وضده المز . والوصف منه ذليل . و (المناكب)
 جمع منكب على وزن منكب ، وهو الناحية من كل
 شيء : فمناكب الارض اطرافها وجوانبها . ومنكبا
 الرجل جانيه . والمنكب ايضا في الشعر والانسان
 اسم للموضع الذي يلتقى فيه عظم عضده بكفنه .
 وهما منكبان ، فيحتمل ان يكون المراد بمناكب الارض
 جبالها واماها ، وتكون سميت بذلك لشخوصها
 وارفعها كارتفاع المنكب في الانسان . وخص الحال
 بالذكر في قوله : (فامشوا في مناكبها) لافادة ان الارض
 غاية في السهولة والانقياد للانسان بحيث يتسنى له
 الانتفاع بوعورها وحزونها ، فكيف يكون مقادير
 انتفاعه يسهولها واربائها المنسطة ؟ يروى ان بشرا
 ابن كعب المدوي قرأ هذه الآية (هو الذي جعل لكم
 الارض ذلولا فامشوا في مناكبها) فقال لجاره له :
 (ان دريت ما منكبا فانت حرة لوجه الله) فقالت :
 « منكبا جبالها » فكانما سفع في وجهه ، اى كان
 لاطما لطمه على وجهه ، خشية ان تكون الجارية
 اصابت في تفسير المنكب ، فتعق عليه ، وتخرج
 من ملكه ، وهو ضئيل بها . فقال : فمن قائل
 معتقت ، ومن قائل لم تعتق . ثم سأل ابا الدرداء
 الصحابي الجليل رضى الله عنه ، فقال له : ان الخير
 في طمأنينة ، وان الشر في ريبة ، مدع مايريك الى ما
 لا يريبك . ومعنى هذا ان خيرا للانسان ان يكون في
 حالة طمأنينة وهندوه نفس ، وان شرا له ان يكون
 حاله صلى العكس ، وان الجارية يحتمل ان تكون
 اصابت وان تكون اخطأت ، فيقالوا في ملك سيدها
 مدرجة للشيطان بالوسوسة الى نفسه ، فالاحسن
 له ان يعتقها ثم تزوجها ان شاء وشاوت هي .
 و (النشور) مضارع نشر البيت بنشر من باب دخل
 عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور الى الله ان البعث
 ومرجع الانسان في نشأته الاخرى اليه تعالى ، فليس
 من يحاسبه على افعاله سواء .

قلنا اتفان ان هذه الآية تتضمن مثالا من امثلة
 لطفه تعالى بالبشر مد جعل الارض سالحة لسكنائهم
 فيها ، على ان الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين
 وتذكيرهم بان من يسر لهم اسباب البقاء في هذه
 الارض قادر على تسليمها ايها ، فهو يقول لهم :

احلوا هذا التحدى والتكذيب للرسل ومحاولة اخفاء سر الترمك ، واذكروا انه تعالى جعل لكم الأرض سهلة لينة متفاداة لتياد الدابة اللؤلؤ ، فنعوا اذن العناد والتكذيب جاتا وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا في الأرض متى المستعمر المستفيد ، وانتقموا بما هياه لكم فيها من انواع الرزق واصناف القوت . ثم لا تركوا الى هذا الميضي الهنيء ، فنتسلسوا الى احوالكم ، ووساوس نفوسكم ، بل يبقون اكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم الى الله ، فيمحاسبكم وينتصف منكم .

وانقياد الأرض للإنسان ظاهر بالآكثر في الأمم الحية التي عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومدارك عقولها الممنوحة لها من قبل الأفره الالهية . فهي لم تدع غريبا من شروب الانتفاع بهذه الأرض الا توافقه ، ولا طريقا من طرق الاستفاده من خيراتها الا سلكته . حلت العناصر وركبتها ، صهرت المعادن وطبعتها . عرفت طباع الحيوانات وسخرتها ، ففقت خصائص النباتات واستغنتها ، اكتشفت نواصير المادة واخضعتها ، اكتنعت أسرار الكائنات واستغلستها . فاست في أعماق الماء ، طارت في اجواز السماء . اذا امتزجتها شوامخ الجبال نادتها بالبخار من تحتها ، او وقتت بسلاسل سكك الحديد من فوقها . وبالحيلة فان في بلوغ البشر هذه الدرجة من الرقي مصداقا لامتثال البراري تعالى عليهم بجعل الأرض ذلولا لهم يمشون في منابيحها ، وياكلون من زرعها ، حتى ياتيهم اليوم اللدور ، ثم الى الله يكون النشور .

ولقد يقال في تصوير كون الأرض ذلولا لنا معشر البشر اننا لعيش مضمولين على ظهرها ، وهي تسير بنا الهوني في فلها حول الشمس : لا تبطيء ولا تسرع باكثر مما تستدعيه حال سكانها ، ولا تفادى نجما أو ذنبا لنوات الأتذاب السابحة في الفضاء . فكانت الأرض لنا نعمت الطيبة المنيرة ، والدلول المجربة .

لعمري هذه الآية بما قبلها يؤيد ان الأولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الإشارة إليه : (من في السماء) هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلي على ان الاله الأرضي خالق الكل ، وضابطه اكل ، لا يتصور ان يكون مستقرا في مكان . فوجب اذن صرف الآية من ظاهرها ، وجعلها على معنى يلتحم مع ما ابيته العقل ، ودام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : **ثانية (وهو الله في السموات وفي الأرض)** تنفي ان تكون ذات الله في السموات وفي الأرض ، اذ كيف يعل في كون اللات الواحدة في مكانين في آن واحد ؟ لأجرم أن يكون المراك بكوله تعالى في السماء وفي الأرض أن مشيئته وحكمه نافذ فيهما ، وسيلطانه وقهره غالب عليهما . واللى يسلمد على هذا التأويل ما جرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ، فانهم ينتظرون وصول النعم اليهم ، ويطلعون حلول النعم بهم من جانب السماء ، فهي قبلة خولهم ومغارب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله في السماء عند الاطلاق ان السماء مصدر تصرفه ونفوقه مشيئته في العالم .

وذهب ابو مسلم الأصفهانى (١) الى ان العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون انه في السماء - خطبوا في الرعي على حسب اعتقادهم ، فقيل لهم : (**المتنم من في السماء ان يخسف بهم الأرض ؟**) اي المتنم انها القوم ذاك الله العظيم الذى تعتقدون انه موجود في السماء ان يهلككم ؟ هذا حاله ابو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد في القرآن أمور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وإرادة حمل المخطفين على اعتقادها ، وانما تذكر صلى مسبيل الفرض ، وارتقاء العنان لهم في اعتقادها اعتمادا على نصوص اخر بينت فساد هذا الاعتقاد . وقد قال الامام الشافعى في موافقته : ان القرآن لا يذكر امرا بظلالا لم ينبه على بطلانه وفساد امره .

و (**خسف**) المكان خسوفاً غاب في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفاً غيبها . و (**تعود**) تضطرب وتتحرك بشدة حركة أفعية اى يينا وشيلا وهي أشد حالات الخسف هولاً وتغريبا . وقوله (**لم المتنم الخ**) اغراب من التخوف الأول وهو الخسف بهم ، وانتقال الى تخوف أقرب وقوم ، واكثر حصولا ، وهو ارسال الحاصب ، و (**الحاصب**) ريح شديدة تثير الحصباء وهي الحصى . و (**حصيت** الرجل) رعيته بالحصباء . و (**تدبر**) اصله تدبرى يباء المتكلم ، لكنها حدثت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خوارج الآيات المتقدمة عليها والتأخره منها ومعنى (تدبرى) أتدلار ، وهو اسم مصدر لاتلر ، اما المصدر فهو الأتلار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الأرض لمعيشتهم فيها ، ليثبت هذا التدكير في نفوسهم فضل خشيته ، وزيادة ايمانهم . ثم حذرهم مغبة التحدى في الجحود ، وأنه ليس من اللائق بهم ان يامنوا زوال النعم عنهم ، ويدخلوا من ان الذى لطاهم هبسه النعم وهو الله تعالى قادر على ان يسلبهم اياها . فبعد ان تكون الأرض ذلولا صالحة للانتفاع بها ، تصبح كالفرس الجحود ، أو البحر الصعب ، فلا يعود يمكنهم القرار عليها ، فتسرح وتضطرب واضطراب خسف وزوال والتفهم . ولا ينتهى التنكيل بهم عند هذا الحد ، بل تأخذ بعد ابتلاهم في الور والاعتزاز الشديد ، فيكون هذا اشد لتركهم الاقناض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والفرص اليهم . وكان المخاطب استعمالوا وقوع الخسف بهم قلة حدوثه ولا سيما في جزيرة العرب ، فاضرب تعالى من تهديدهم بالخسف الى تهديدهم ببطاب آخر اقرب حصولا ، واكثر حدوثا في جزيرتهم ، وهو ارسال ريح شديدة عليهم تحمل الحصى وصفار الحجارة وتصبهم بها صكا ، فتهلكهم وتستأصل شأفتهم .

ولما كان من المحتمل ان يبقوا على عنادهم وامرارهم بحيث لا تنفل نفوسهم للتخوف بالخسف والريح الحاصب ايضا - سكت عن كل ذلك ، ثم احالهم

(١) القرون ص ٢٢٢ في تفسيره للسبي . (الجنح الصبورين لمسى التنزيل) .

وَسَلَّ عَلَيَّكَ حَاصِبًا فَسْتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذِيفَ كَانَ نَذِيرُهُمْ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتًا وَيَقَرْنَ مَأْكِنَهُمْ ۝ أَلَا

على المستقبل ، فإنه وحده الحكم في هذه المسألة . وفيه يتبين أن اندار الله لهم وتهديدها بهم بالضرب والريح صادقا أو غير صادق . وهذا مغزى قوله تعالى : (فستعلمون كيف نذير) أى سوف يتجلى لكم أيها المكذبون الحق وصدق الانذار أن بقيتم في متوكم ويعيد ضلالتكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعي الخسف والزوال وهبوب الرياح الزوابع علا وأسبابا ، فإن ذلك لا يمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله . فإذا هلك قوم برززال شديد وكانوا طغاة فاجرين تقول إن الله أهلكهم بالزوال لسوء صنيعهم ، وقد نسا الزوال نفسه عن انفجار ابخرة وغزوات كانت متجمعة في تجاوزها الأرض ، أو تشامع انخساف إحدى طبقات الأرض الكونية من صفور هشة رخوة ، فتناهت الطبقات العليا المتراصة فوقها ، فحدث الزوال ، فتهدمت المباني وهلك الناس . ويمكن أن يتصور المرء هذه المسألة تصورا جليا بما نودده له من حيلة المثال الخارجى ، وهو أن المنصور المباني كان تقم عن م له تخرى عليه ، وهو عبيد الله بن على ، وأراد أن يقتله فيلة لا كفاحا ، خشية غضب من شفع به من سائر عموته ، فبنى له بيتا جعل أساسه من قطع اللب وسجنته فيه إياما ، ثم سلب الماء على الملح فذاب ولغضى البناء وانفتحت الجدران وخر السقف على الرجا فمات ، وأشاعوا أن موته كان ياتهدام السجن عليه . فالذى أهلكه هو المنصور المباني ، لكنه توسل إلى غرضه بسقوط الحجرة الثقيلة عليه ، وتوسل إلى سقوطها بتاحلل الملح من تحتها ، وتوسل إلى انحلال الملح بتأثير الماء فيه . فإذا قال قائل أن الرجل الملق بأسباب طبيعية حدثت في أساس البناء يكون صادقا . وإذا قال آخر أن الرجل مات لأنه غاظ المنصور ورمى من طاعته فأهلكه يكون صادقا أيضا وهكذا تقول فيما ورد في القرآن من أن الله تعالى أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزوال أو الطوفان أو ابتياق السد أو غير ذلك . وله المثال الأعلى .

كان الخطاب في الآيات السابقة للمشركين أنفسهم من عند قوله (وأسرأقولكم) إلى قوله (فستعلمون) ثم التفت في هذه الآية : (ولقد كذب النج) إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم . وتجددته من أولئك المشركين الذين كان يضابطهم وتسلطه بأنه سينالهم إذا بقوا على تكذيبهم مثال مكلى الأمم الذين كانوا

قبلهم . و (تكذب) أصله تكبرى بياء المتكلم لكنهما حذفوا موافقة دعوس الآيات الأخرى كما حدثت من (نذير) . و (النكير) أسم مصدر تنكر تنكرا . ومعنى تنكر تفر : يقال تنكر الملك لوزيره إذا تغير قلبه عليه ، وتنكر الصديقان إذا نفرا وانتقلا من حال تمر إلى آخرى لسوء ، وتنكر لى فلان تقبلى لسانه بشما . فعنى التنكر قرب من معنى التقيد والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تسخط عليه تنتقم منه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر في جانب الله لا يصح أن يراد منه انفعال النفس ، وإنما يراد به لازمه ، وهو الأهلاك وانزال العذاب ، ومن ثم قال أبو مسلم الأصفهاني : التنكر عقاب المنكر . وهكذا يقال في مكر الله بهم ، وغضب عليهم ، ورضى عنهم ، وضحك اليهم .

يقول تعالى لا تأس يا عبيد مما ترى من مفوق قومك وجحودهم وتكذيبهم لك ، فقد كان هذا ذات الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وعادوا في دباب وعنادهم ، فتكررت لهم ، وغضبت عليهم ، وانزلت بهم العذاب . ولا تزال أخبارهم وهول ما لقوا متعابا متداولا بينكم . فكيف كان تنكرى لهم ، وتغيرى عليهم ؟ أى فكيف كان غضبي عليهم ، واخذلى لهم ؟ ألم يكن غضبا شديدا ، وأخذا وبيلا ؟ والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين أخذهم الله بلنوبهم وجعلهم مثلا بجره لمشركى مكة . لكن قوله (فكيف كان تكذب) يشير بأن منازل بأولئك الأقوام كان معروفا للمخاطبين ، إذ كيف يسألهم عن خبر ملحل بهم ، ويطلب منهم المصادقة على هول ما أصابهم وهم لا يدرون من أمرهم شيئا ؟ فإذا لم تقل في تعيين أولئك الأقوام الهالكين أنهم عاد ولمود أنفسهم تقول أنهم من أمم تعرفها الصرب طغوا وبقوا فأخلفهم الله بلنوبهم ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم لوربابا بقوله ، واستخفافا بما كان يومدهم به ، فكانت الآيات تنزل ترى في الاحتجاج عليهم ، وتسفيه آرائهم وحضهم على التصديق ، وتخويفهم العذاب أن هم أسروا وكابروا . وكان معظم السبب في اسرارهم وتكولهم ظنهم أن لاشوء مما أودعوا به يمكن أن يلحقهم . فاحتج عليهم بمباحته بما صنع بالأمم التي كانت قبلهم وقد كذبت فاهلكها . ثم أخذ في هذه الآية (أو لم يروا إلى الطير النج) والتي تلها يشه المشركين إلى شمول قدرته ، ويلصقهم إلى التفكير في أنه تعالى قادر على إلحاق العذاب بهم ، فإن من عجائب قدرته ما يورنه في كل وقت وأن من تحليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستملائها في طبقات الهواء ، مما لها أخصام ضخمة كان من مقتضى التوامس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض . ولكنه تعالى بياهر قدرته ، وهيب صنعته وحكمته - خالف في أجسام الطيور التوامس مائل الأجسام ذات الثقل ، وركب لها التوامس أخرى لآلته بها ، بحيث يمكنها معها

والوقوف على أسرار خلق الكائنات . وقد عدوا من أبعاد الأمور عن التنقل استمرار الطيور طائفة واجتاحتها بصنوفة موازية للأفق وهي لاتتحرك . وأعلن بعض علماء أوروبا منذ سنين أنه اكتشف الناموس الذي به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ما عرفه من أمر هذا الناموس . غير أن العلماء اتفقوا على أن السبب في استمرار الطيور طائفة يرجع إلى أن قعر اجنحتها وتحديدها وتكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون اجنحة طياراتهم على أوضاع تحكى اجنحة الطيور وأوضاعها .

ربما يخطر في البال بعد طيران الإنسان أن طيران الطيور لم يعد محالاً للعجب ، ولا دالة فيه على القدرة التي أراد الله الاحتياج بها على المشركين ، ولكني أقول أن طيران الإنسان قد يكون أكثر دالة على قدرة الله تعالى من طيران الطير ، ولو كان الإنسان قد احتذى في عصر النبوة إلى الطيران لمجى الوحي للمشركين من تحليق الطيارة في جو السماء ، كما مجى من مسير الفلك على وجه الله ، مذ هذه نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . ولعمري أنه لا فرق بين طيران الطير وطيران الإنسان فإن كلا منهما أثر من آثار قدرة الله ، ومجيب صنعه في خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كائنة في تركيب جسمه وهي من الله ، وطار الإنسان بقوى عقله وعمله ودقة ملاحظته ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهد ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده وكلاً من مالم آخر غير مالمنا ، فخلق لاله آخر غير الهما ، وبما كمل تلك القوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمناً بالله وما أنزل إلينا من عند الله .

قوله (**من هذا الذي أتى**) مقابل لقوله قبله (**اولم يروا إلى الطير فوقهم صافات**) ، كأنه يقول اولم ينظروا إلى مجيب صنع الله في خلق الطير فيعرفوا مبلغ قدرته تعالى على أنزال العذاب بهم ؟ أم أنهم تعاملوا من ذلك اعتداداً بأن لهم من قدر الله قوة تحميهم أن أراد اهلاكهم ، وترزقهم أن أسسك الرزق منهم . فإقارعة الحامية لهم في زعمهم هي جندهم ومسلحهم ، والقوة الراضفة هي الهزم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين في زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم إذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من نعمتهم ، ونصرة جندهم . وإذا حذرهم القبط وأنه تعالى قادر على أن يجبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق - أظهروا التجرد والاستغناء ، وزعموا أن أصنامهم تملهم من صفوف الرزق بكون شاموا . فويحهم الله على الأمرين ، وبطل لهم كلا الرعمين : فلا الأموان الذين لديهم بقادري على أن يحومهم أن أراد هو اهلاكهم ، ولا الأصنام التي يعبدونها باتني يمكنها أن ترزقهم إذا أراد أسسك الرزق عنهم .

والإشارة إلى الجند والأوتان ، بكلمة (**هذا**) الدالة على القرب مما يفيد في هذا المقام تحقير المشار إليهم

أن تستعلى في الهواء من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أسسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أسسكها إلا الرحمن ، الذي رحم هذه الجيوانات فيسر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان - ما حفظ به نوعها ، وانظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها . ولا بدع ، فهو تعالى (بكل شيء بصير) ، وعلى كل شيء من خلقه القوى والسنن اللازمة له ، والتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن أكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى « الكندر » ثقله سبعة عشر طناً ، وأبعد بين جناحيه إذا صفها أي بسطهما يبلغ عشر أقدام .

والقصد من هذه الآية تنبيه المشركين الكلدانيين إلى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير في تكوين خلقه الطير لا يصحبه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ ما يريد من أنزال العذاب بهم .

بقي هنا شيء . وهو لماذا قال (**صافات**) ويقضن) ولم يقل (**صافات** قابضات) أو (**يصفنن** ويقضن) ؟ أي لماذا مبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صفت الطائر بسط جناحيه في الجو وهو طير ، وقبضهما إذا ضمهما وضرب جناحيه ، والأصل الذي يساعده الطير على الطيران أنما هو الصف وبسط الجناحين ، وإذا ضمهما أحياناً عاد بسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضاً لهما وهو طير ، بخلاف البسط ، فإنه يبقى ملازماً له صافات كثيرة ، فما كان الأصل في الطيران وهو الصف جى به على صيغة الاسم ، فقليل (**صافات**) لإفادة أن الصف هو شأن الطيور الذي ثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل تفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها « **الطيور** » في بعض الأحيان يطرا عليها وهي طائفة ما يندموا إلى قبض جناحيها من حيث أنه يساعدها على البسط والحرك . فلما كان القبض أمراً طارفاً وعرضياً في الطيران جى به في الآية بلفظ الفعل المضارع الذي يفيد التكرار والتجدد ، فقليل (**يقبضن**) ، ويكون مؤدى المعنى هكذا : أن الطيور صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة . أو يقال : أن التكة في التعبير عن القبض بالفعل المضارع هي تصوير الحالة للأذهان المخاطبين وزيادة تعجيبهم منها ، فأنهم حين تقول لهم انظروا إلى الطير صافات يجبون من أمرها ، لم يصف العجب حيثما يقع في نفوسهم أنها عند بسط اجنحتها يكون قد دعمها الهواء من تحتها كما يلهم الأجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فإذا تبناهم إلى أن الطير قد قبض جناحيه في اتساع الطيران ولا يقم توكس قد زدنا في صعبهم ، وهجتنا من دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحديث والزمن يساعده على تصوير الحالة وأحضرها في ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفضيل لأساليب العرب ، وبأمل في ملأح كلاً منهم .

هذا وإن طيران الطيور لم يزل من المشكلات التي لم يحلها العلم الحديث على طول بامه في الاكتشافات ،

الرَّحْمَنُ إِنَّهُ يَكِلُ شَيْئَهُ يَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ
جُنْدٌ لَكَ يَنْصَرُّونَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا
فِي غُرُورٍ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُوقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رَبُّكَ
بِلِجْوَا فِي عَذَابٍ وَنُفُورٍ ﴿١٧﴾ أَفَنْ يَمْنَى مِجَا عَلَى وَجْهِهَ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْنَى سَوَاءً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٨﴾ قُلْ هُوَ
الَّذِي أَنشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

وانحطاط شأنهم ، كما ان التعبير بذلك الدال على
البعد يفيد التعظيم ورفع الشأن أحيانا نحو قوله
تعالى (ذلك الكتاب لأريب فيه) .
والجند العسكر والأعوان : معناه جمع ولفظه
مفرد ، وقوله في صفته (ينصركم) مرأى فيه
جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة (دون) مقبولة في
الأصل على (ذو) ومعناه القرب . استعملت في
المكان القريب . ومن كان في مكان قريب منك كان
بالضرورة مقابرا لك . ومن ثم كثر استعمال دون
أيضا بمعنى (غير) ، فمعنى من ينصركم (من دون
الرحمن) من يقدر أن ينصركم نصرا وأصلا ليسكم
من غير الرحمن . ويمكن أن يفي (دون) على معناها
الأصلي وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا :
ومن يمكنه أن يمدكم بالنصر من مكان قريب من الله ،
ولأرب ان كل الأمكنة قريبة منه تعالى : أي انه تعالى
عالم بالأمكنة وبمعن حل فيها . وليس اقترابه منها
كاقتراب بعض الأجسام من بعض ، فكل أحد اذن
عاجز عن نصره المشرعين لان الله ناظر الي من ينصرهم
من كتب متمكن من قهره أخذ بناصيته .
والاستفهام في قوله (أمن هذا الخ) ينتهي عند
قوله (الرحمن) .

وقوله (ان الكافرون الا في غرور) بمنزلة الجواب
لذلك الاستفهام : أي لا جند لهم في الواقع ونفس الامر
قادر على نصرتهم . فليس الكافرون اذن الا قوما
مفروطين مخدوعين ، فتكون (ان) نافية بمعنى ليس ،
وكذا يقال في الاستفهام الآخر آمنى قوله (أمن هذا
الذي يزُوقُكم) فانه ينتهي عند قوله (وذهه) .
وقوله (بل لجوا في عذاب ونفور) قام مقام الجواب
كانه يقول كلا لا أحد غير الله يزُوقُكم . ولم يلحقوا
هم لهذا الامر الجلي بل تعادوا في تمردهم وكبرهم ،

وما ائى به من القول الصدى .
(كنه) على وجهه سرعه وجاهه . والرجل الذي
انقلب يقال عنه انه آف . والرجل اذن هو الذي
يعتور مشيه على وسوقه من وقت الى آخر ، اما
لنصف في بصره ، او وعورة في طريقه . وعكسه
(السوى) وهو الذي يمشی مستوى القامة ، ثابت
القدم . و (اهتدى) فعلا . تفصل اى اشد هدابة
واقرب وصولا الى حيث يقصد .
والكلام تمثيل لحالة اولئك الذين وصفهم بالنفو
والنفور في الآية السابقة مع مغادرتهم بالمؤمنين الذين
اذعنوا للحق : قال من الاول ائهم تعادوا في تمردهم
ونفورهم . والتمرد اذا نفخ الشيطان في نفه شل
وعنى من القصد واعتسف الطريق اعتسافا . وهكذا
كان شأن المشركين ، فهم كاللشي المكب الذي يقع على
وجهه في كل خطوة يخطوها . اما المؤمنون فكانوا
كاللشي يمشی منتصب القامة في طريق لاجب : لاصحور
فيه ولا عوائير . فأي التبين اشد هدابة ، واقرب
وصولا الى القامة ؟

اذا كان حال المشركين على ما وصف في الآية
السابقة من ركوب التعاسيف والضلال عن طريق
الحق كانوا ملومين اشد اللوم ، وذلك لانه تعالى
خلق لهم الحواس والشماع ، ومتمهم بالقل والمنطق ،
ويسر لهم وسائل النجاة ، واسباب الهداية . فلم
ينتقموا بشيء من ذلك ، ولم يشكروا الله على هذه
الوسائل والاسباب ، فاستعملوها فيما خلقت لاجله
بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى ، الى طريق
الردى .

فقوله (قل) اى يا محمد في تكبيت اولئك الذين
عتوا وتورطوا في الضلال : ألم تعلموا ان الله الذي
يدعوكم الايمان (هو الذي انشأكم) خلقكم وجهزكم
باسباب الرشد والهداية من اسباع وابصار والنفثة اى
قلوب . فلم سمعتم من المواقف ؟ وعيتم من الايات ؟
وأعرضتم عن النظر والتفكير ؟ لا جرم انكم تعلمون ان
الله فاعل جميع ذلك ، كنتم قوم لا تشكرون ، وينعم
الله تكفرون .

والقلة كثيرا ما يستعمل في كلام العرب ويراد بها
صدم العقل ونفيه من اصله لا لانه يقع على وجه
التدور . ومثل له الجاحظ في كتاب الجواهر (جزء ٢
ص ٨٢) يقول « فلان قليل الحياء » قال : والنت
لست تسريد ان هناك حياء البتة ، فهم يسمعون
(القليل) في موضع (ليس) اى في موضع النفي ،
ومنه الحديث الشريف (كان صلى الله عليه وسلم يقل
اللعن) اى انه لا يلعن ابنا .

واراد (بالافئدة) العقول والمذارك ، لان العرب كما
يسمون العضو ذا الشكل التصويري قلبا وفؤادا يسمون
العقل اسمى القوة المتحركة قلبا وفؤادا ايضا ، تسمية
للحال باسم المحل ، ذهابا منهم الى ان العضو المذكور
هو مقر العقل والادراك . والوحى يخاطب العرب بما
القول واعتادوه من اساليب التخاطب بينهم . وهذا
كأثر القرآن باصل اللسان العربى لاجل ان يفهموا ،

السورة كلها إنما أتت لإيات الحشر ، وتحقيق يوم الحساب ، وحل أهل مكة المكذبين على التصديق به . فقد أشار تعالى في فاتحة هذه السورة إلى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لإنجيل أن يختبر أمرهم ويعرف الطبع من العاصي منهم . ولا تكون نتيجة ذلك الإثابة المطيع ومجازاة العاصي في الدار الآخرة ، قال مافروقه السورة إذن إنما هو تنبيه المشركين إلى الإيمان بتلك الدار . ولما كان القوم مصرين على جحودها واستبعاد حصول العذاب فيها - تضمنت السورة ضرباً من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين ، وأنواعاً من الحجج والبراهين على قدرته ، وأنه تعالى لا يصر عليه إيجاد دار تعذيب المجرمين ، والتشكيل بالمكذبين . فكان كلما ذكر شيئاً من تلك النعم ، وعدد طائفة من هذه الحجج - عاد فقرر أمر الآخرة ، أو بعبارة أخرى تنبيهها . وهكذا حتى آخر السورة .

وان آيات هذه السورة ، بل آيات سور القرآن بجملة ما كشدور الذهب ، وقد ألف بينها بلحام من المناسبات غاية في الدقة واللفظ . وأقرب ما تستشهد به على ذلك قوله تعالى هنا (واليه تحشرون) ، فان هذه الجملة خام دقيق يصل بين الآيات - ويبيان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حسن أن يأتي على ذكر الموضوع الذي أشار إليه في أولها ، وهو انكار المشركين البعث والحساب ، وأنه لم يبق لهم علم في النكول والجحود بعد ما مر من آيات الاحتجاج عليهم . فذكر بالوضوح إذ قال : (ويقولون متى هذا اليوم) ، لكنه كيف ينتقل إليه مع أن الكلام الذي قبله في صدد بيان قدرة الله على خلق البشر وتسليةهم بقوى المشاعر والحواس ؟ انقل إليه على هذا الأسلوب : هير من الخلق باللوه ، واللوه كما قلنا أتفا فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل (ذراكم) يشير إلى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا في جنبات الأرض ، وتفرقوا في أربعة أقطارها . هنا تتسائل النفس : هل في قدرة الله أن يجمع البشر ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار في الأرض ؟ فقال تعالى في جواب هذا السؤال : (واليه تحشرون) فهو قد مهد لذلك الحشر بذكر اللوه ، كما مهد بذلك الحشر لقوله (ويقولون متى هذا اليوم أن كنتم صادقين) ؟ أي أن هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعنت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والصلاب الذي تعدوننا به أيها الملهدون - لأنه تعالى لو خلق كنتم صادقين في تهديكم ، وتصنفون الحقيقة في وعدكم لنا ووعدكم ؟

كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن يوم القيامة الذي كانوا يوعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن إلا مسخرة وتهكما . ولكن الله تعالى أمر نبيه في قوله (قل إنما العلم بالغ) أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجدل في القول ، والأعراض عن القلق . وإن الرد عليهم بهذا الأسلوب لأشد نكاية ، وأبلغ في حلهم على الاستفاه والتدبير .

ولو أنزل أعجيباً لكان لهم الحجة . وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه في قوله تعالى : (ولو جعلناه قرآناً أعجيباً لقالوا لولا صلت آياته : الأعجمي وعبري ؟) أي أيكون القرآن بلغة أعجمية ومحمد الذي أنزل عليه ذلك القرآن مريباً ؟ أمكن هذا ؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على مرض كون القرآن أعجيباً . وقال صاحب الصحاح في مادة (عبق) : هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسوا إليه كل شيء فصحبوا منه : لوب عقرى وبساط عبقري لما فيه أصباغ ونقوش ، وظلم عقرى ورجل عبقري ، ومنه الحديث « فلم أر عبقرياً بقرى فريه » ثم خاطبهم الله بما عارفوا فقال (وعبقري حسان) .

وقد أشرنا إلى هذا أيضاً في غير ما موضع من هذا التفسير اهتماماً به ، وحرصاً على فائدته ، ولكونه يحل مشاكل كثيرة في تفسير معاني الوحي الإلهي . قال الفخر المصنوع في قوله تعالى وأيضاً حال العذاب المخلد في جهنم (لم لا يموت فيها ولا يحيى) - : قيل ذلك لأن العرب كانوا إذا وصفوا الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا ألا هو حي ولا هو ميت ، فخطبهم الله بالذي جرى به ذلك من كلامهم « انتهى قول الطبري ، وقد مرأه إلى طائفة من أهل العلم في تفسير الآية المذكورة . وقال بعض العلماء في قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) : إنما نزل هذا في العرب بناء على عادتهم ، وهي أنهم كانوا إذا أخصبوا تحاربوا ، وإلى هذا يشير قائلمهم قوم إذا ثبت الربيع بأرضهم تبئت ملاوتهم مع البقل أمر تعالى نبيه في الآية السابقة أن يذكر المشركين بما أنعم عليهم من قوى النفس ، ومشاعر الحس . ثم ارتقى في التذكير إلى ماهو الأصل في كل نعمة ، وأساس كل موهبة : أعني نعمة الخلق والإيجاد والتكاثر وتفهم سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين ، فكانوا كثيرين متفرقين في جنبات الأرض .

و (اللوه) الخلق . وهو أيضاً الكثير : يقال « ذرا الشيء » إذا كثره . ومنه (اللرية) وقد تركت همزتها ، ومعناها النسل الكثير . على أن اللوه إذا ذكر وأريد به المعنى الأول أعني الخلق كان مراداً به المعنى الثاني وهو الكثرة أيضاً ، فليس معنى (ذراكم) خلقكم فقط ، بل هو أيضاً مشوب بمعنى الكثرة ، أي خلقكم وكنتم . ومناط الانتباه على البشر إنما هو التكاثر في الخلق لا الخلق المجرد ، لأنه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة ، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفني إلى الانتشار في جنبات الأرض وإلى أحيائها - لمدت عليهم الموادي : من قحط ووباء وزلازل - أو طردتهم الشواري : من شيع وغير وأسد ربيال ، فهلكوا وبأدوا . لكنه تعالى خلقهم وجعلهم يتكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوباً تتسابق في مضار الحياة ، وتتنابى في استعمار الأرض ، واستتدار خيراتها ، واستدفاع أخطائها . وهذا هو السر في قيام مدنيات الأمم ، وارتقاء عمران العالم .

أما ختم الآية بقوله (واليه تحشرون) فذلك لأن

صَدِيقِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ غَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مِنْ هَوًى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٦٠﴾

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم ، فاجيبوا بأنه ليست وظيفة النبي سوى تخويفكم هدايا محقق الوقوع في ذلك اليوم . وإذا كان الأمر محققا كان الواجب عليكم الإذعان والتصديق وترك العناد . أما معركتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا دخل له في التخويف والانتذار . عليكم بأن القصاص لا بد أن يتأكد إذا أذنت هو الذي يأخذ بحجرتك من الوقوع في اللب ، فإذا تحققت القصاص ، بطل إذا ظننته ظنا لا يقربك من التوكل . أما تساؤلكم عن الوقت الذي يقع فيه القصاص فلا يكون لائقا بك ، بل لا يكون من اللازم تعيينه لك ، لأن التعيين لغو ، والسؤال عنه عثرة أو مشاقفة ، أو خروج من الصدد كما يقولون . وكان رؤساء المشركين يقصدون من وراء هذه المشاقفات تضليل أفكار العامة وضعفاء العقول من أهل مكة ، فيتهمهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به ، فلا يعودون بخافوا من العذاب ، ولا يؤمنون بيوم الحساب . فجاء النوح رادا عليهم ، ومبطلا حججهم ، مفسرا إلى أن التصديق بالعذاب لا يتوقف على معرفة الوقت الذي يقع فيه ذلك العذاب .

(أزددوا) و (تزلوا) اقتربا بسبب أن كانوا متباعدين . و (الزلف) على وزن (جلب) بمعنى الإزدلال . ومثل الزلف (زلفة) على وزن فرفة . والضمير في (واوه) يرجع إلى اليوم المتحدث منه . وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول « فلما راوه مزدلفا » أي مقتربا منهم ، لا (زلفة) أي اقترابا . نعم هذا هو الأصل في التعبير ، ولكن المدلول إلى المصدر كثيرا ما أغاد المبالغة والتأكيد ، فان قولك « زيد عدل » أبلغ وأكث من قولك « زيد عادل » . والتعبير بـ (زلفة) في الآية يفيد الاستعداد قرب يوم القيامة ، وأنه دان من موافق إصباحهم .

و (سواء) مجهول سواء . والسواء التبع ، يستعمل لازما ومتعديا . مثال اللازم أن يقال « سواء طبعك » و « سواء أحوال البلاد » أي صارت سببة قبيحة .

ومثال التمدد أن تقول « ساءني منك أن فعلت كذا » و « ساء الناس ظلم جاحدهم » . وقول في ذمهم له سيئوا . وأصل الكلام في الآية « ساء قلوبهم يوم القيامة وجوههم » ، أي أن قلوبهم التي تأبها بسواد الحزن وأكثر ألهم والقتل . ومعنى قوله « مسيئت وجوه الذين كفروا » حصل لها ذلك . وخص الوجه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزن وكمد وقلق إنما تظهر عليها . والدال في (تدعون) شديدة . من النداء بمعنى الطلب والثناء . فري ، أيضا (تدعون) بتخفيف الدال : أي تدعون ونسألون : كما يقال « تدعون وتذكرون » بتخفيف الدال وتسددها . بقي أن فعل (دعا) بمعنى طلب وسأل بمعنى نفسه لا بالياء : فيقال « دعا حصول يوم الحساب » ولا يقال « دعا بصولة » ولكن من لاحظ أنه يقال « آهاب به » وهتف به « بمعنى شناه وناداه لا ينسب في جواز أن يقال « دعا به » إذا ناداه وطلب حضوره . سلى أنه لا مانع من جعل (تدعون) الشدة في الآية من الإدعاء الذي اسم مصدره دعوى ، وتعدبه بالياء يسأله على ذلك ، كأنه يقول : هذا هو يوم القيامة الذي كنتم أيها المشركون تدعون به ، أي تدعون بدلائله ، وتزعمون أنه لا يأتيكم . فها أنتم أولاء نروته زلفة أي قريبا منكم ، والأفعال الثلاثة في هذه الآية (دعى) (راوه) و (سيت) و (قيل) . - قد جاءت بألف الماضي مع أن المتأخر فيها أن تكون بلفظ المستقبل . لأن يوم القيامة الذي ستقع فيه هذه الأفعال مستقبل لا ماض ، لكنه عدل بها إلى الماضي جزيا على أسلوب من أساليب بلاغة اللغة العربية ، وطريق من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : أن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث ينسج اعتبارها ماضيه ، فانا أخبر عنها بصيغة الماضي إشارة إلى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع في القرآن وفي كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى (فلما راوه زلفة) فمتى راوه زلفة .

أصل معنى (أوليت) (١) الاستفهام بما إذا كان المخاطب رايا وألمير ؟ ثم سار يستعمل في مقام (أخبرني) كان النبي صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم أحيانا بوقوع العذاب عليهم في دار الدنيا كما وقع بالأمم المتدبرة قبلهم . فكانوا هم تارة يحاجونه ويستزنون به ويشاقبونه ، وأوتة بالغو والتلفظ يقاطعون . إما هو فكان لا يثنيه شيء من التصح لهم ، وتبلغ أمر ربه اليهم ، وكان هذا الثبات منه في دعواته يبرهم ويخرج سدورهم ، فكانوا لا يجذون تفرجا لكربتهم سوى النداء عليه بالهلال ، أو أن يقول بعضهم لبعض : أطيلوا بالكم عليه فهو لا يلبث أن ينفذ أمره ، ويأتيه أجله ، فستدع منه ومن لجاحته . فلا تعالى في هذه الآية بتشدد هويته ، وبلغت حجته ، ويقول له : قل لأولئك القوم : أخبروني إذا استجاب الله دعوتكم في وقى صغابتي فإمتانوا ورحمنا فأخر موتنا إلى أجل - فماذا يفيدكم

(١) في مثل قوله تعالى (أوليت أن كذب وتولى) ومثله في خطاب الجميع هنا (أوليت أن اهلكني) .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ مَا أَتَىٰ نِعْمَةَ رَبِّكَ

المراد من (ن) أحذروا الهجاء : افتتح تعالى هذه السورة بحرف النون ثم أقسم بالقلم . كما افتتح سورة أخرى بحرف القاف ثم أقسم بالقلم من قال تعالى : (ق والقرآن المجيد) والدليل على أن المراد بالنون هنا حرف الهجاء المعروف لا مسمى آخر كالحوث أو الدواة — كتابتها بصورة الحرف هكذا «ن» وسكون آخرها ، فلم يقل (نون أو نونا أو نون) بالنون .

ولو كان المراد بها الحوث أو الدواة ، لكتبت بالحروف هكذا (نون) ولخلطت عليها علامات الإعراب كما دخلت على (والقلم) المجزوء بحرف القسم . وحجته قال : أن المصادر بنون في الآية (الدواة) — أن النون ذكر مع القلم والتسطير به ، فعد أقسم الباري سبحانه بهما أي (بالقلم وبما يسطرون) ناسب أن يقرن بهما فالتصريح الذي هو الدواة . أما النون بمعنى الحوث فيبعد أن يكون مراداً من النون في الآية ، إذ لا نسب بينه وبين القلم والتسطير ، ولا علاقة له بهما . غير أن المفسر النيسابوري روى عن بعض النحاة أن أصحاب السحر (١) يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً أسود كالنفس (أي الحبر) أو أشد سواداً منه يكتبون به ، فيمكن أن يكون المراد من (نون) في الآية ذلك الحبر (٢) الأسود المستخرج من الحوت المذكور (وقيل هو الإخطبوط) وخصه بالذكر من بين سائر أنواع الحبر المعروفة يومئذ لشدة سواده أولاً ولإمرأة رموس الأي ثانياً . ويقال في تأويل (نون) — مراداً بها حرف الهجاء

- (١) أراد بهم رجال الصنعة أو علماء الكيمياء كما لسميهم اليوم .
 - (٢) واللا يريد من (النون) الحبر على ما رواه الحوت جابر بن إبراهيم .
- من الحبر الدواة كما ذهب إليه الحسن البصري . وقد جاء في تعريفات السيد الجرجاني ما نصه «النون هو العلم الإجمالي يريد به الكدوة» فإن الحروف التي هي صور العلم موجودة في مدادها أجيالاً لقوله تعالى (ن والقلم) — هو العلم الإجمالي في الحفرة الأحذية ، والقلم حفرة التفصيل «وهذا ما قيل المستشرق كازيميرسكي مترجم القرآن يفسر في مجمله العربي الفارسي النون بقوله : (Résumé de toutes les sciences) أي خلاصة جميع العلوم . اهـ . المؤلف .

ينجيكم من العذاب ؟ أو هل لم من يدخلكم في جواره فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟

وهذا طريق ثان من الطرق التي علمها الله نبيه في الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، وينتظرون موته نافذي الصبر تارة أخرى . فهو يقول له : قل لهم يا محمد إن هذا الإله الذي ادعوكم إلى عبادته والإيمان به رحيم بخلقه ، فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحي عبثاً ، ولم يرسلني إليكم سدى ، بل في ذلك كله مصلحة لكم وطريق لخلاصكم ، فكيف يجيب دعوتكم في ، فيهلكني أنا ومن معي قبل أن تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتعلو كلمته . ولا سيما أنا قد آمن به تعالى ، فلم أشرك به أحداً ، وتوكلنا عليه وحده ، فلم نطلب من غيره معونة ولا ملجأ . فهل إذا كنا كذلك يكون من الرحمة أعلنا ، وأجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيع الكفر والفساد فيه ؟

كلا ! لا يتصور أن يهلكنا الله لأجل دعوتكم ، بل هو بالغ أمره في خلقه . وستعلمون من منا الذي حاد عن طريق الهداية ، وابعد عن مواقع الحق ابتعاداً ظاهراً . وذلك حينما تتم لنا القلبة عليكم ، وتصلو كلمة الإسلام في أروكم .

(غورا) مصدر غار الماء نضب وذهب في الأرض . وكان الظاهر أن يقول : إن أصبح ماؤكم غائراً ، لكنه وصف بالنضب للمبالغة كما مر بيانه عند قوله (زلفة) و (ماه معين) أي جاز على وجه الأرض منظور بالعين وروثه (مفعول) من عاتنه إذا نظره بعينه أو (فعل) من معن الماء في جريه إذا طرد وتسلل ، فكان ذلك أمون على نقائه وطهارته ، وتخليصه من الشوائب . لم يشأ تعالى أن يشتم آيات التوبيخ والإنذار التي خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكير يستعمل بها قلوبهم ، ويستلكن مراتبهم ، فهو يمن عليهم بالماء الذي جعله يجري ليعتد مواقع أبصارهم ، وعلى مقربة من متناول أيديهم . هذا الماء خرج من تحت الأرض وسال على ظاهرها ببعض قدرة الله ومعكم تدبيره ، فلو أراد الله تعالى أن يفيض ذلك الماء ويلهب في الأرض بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا إليه — فمن يقدّر على إيجاد ماء لهم يسقي زروعهم ويغطي عطشهم ؟ وقد مهد لذلك هذه النعمة بذكر الرخمة والتوكل في الآية السابقة ، فقد ذكر فيها أنه تعالى رحيم وإن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يتوكلون في أمورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى ، فمن رحمته تسهيل أمر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه يتابع في الأرض ، ثم خرجه وجريانه على وجهها . وكما أن الله الذي هو مادة حياة البشر ، مثال من أمثلة رحمته تعالى — هو أيضاً مثال مما يتوكل النبي والصحاب عليه تعالى في تناوله من مجاريه ، والانتفاع به من كتب ، فلا جرم أن ينتبه المشركون إلى ذلك ، فيتوكلوا على الله تعالى أيضاً في مسائل مرائق حياتهم ، كما يتوكل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، فإن ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون .

مَجْنُونٌ ❶ وَإِنَّكَ لَأَجْرٌ مُّسْتَوِنٌ ❷ وَإِنَّكَ
لَعَلَّ خَلْقٍ عَظِيمٍ ❸ فَتَنِيْمٌ وَيَصْرَوْنَ ❹ وَيَأْتِيْكُ
الْمَقْنُونُ ❺ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَلِينَ ❻ فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ❼

المعروف ما قبل في تأويل سائر حروف الهجاء التي
افتتحت بها بعض السور ، واحسن الأقوال فيها أنه
تعالى ذكرها لتنبيه المشركون إلى أن القرآن إنما أُنزلت
كلامه من جنس ما تؤلفونه ككلامهم ، أي من حروف
الهِجَاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقونها صبيتهم ،
فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة للعادة في حروفها ،
مبينة للمألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هذا عجزوا
عن الاتيان بمثله ؟ وكأوا (١) من تركيب جعل كجمله ؟
لا جرم أن يكون تعديد حروف الهجاء على هذه
الصورة في فوائد السور من أبلغ الأساليب في التحدي
والنزاله ، وأصعبها في التقرير والمعابة .

والأصل في القسم أن يكون لتأكيد الخبر في نفس
المخاطب ، وإزالة الريب الذي يوشك أن يكون خافره
في صدق الحالف ، هذا هو الأصل في القسم ، ولكنه
قد يفتن أحبانا تنبيه المخاطبين إلى شرف القسم
أي ، وما لهم من ضرب النفع فيه ، وأكثر ما يقوم
هذا المعنى في الأقسام الواردة في كلام الله تعالى ، ففي
سورة العصر حلف بالعصر وهو الوقت تنبيهاً للبشر
إلى عظم فائدته ، وأنه مما لا يحسن التفریط فيه
بإفحامته في البطالة والوهو . ومثل ذلك حلفه تعالى
بالتنزيل ، والنساء ، واليسل ، والنهار ، والفجر ،
والضحى .

قال الأستاذان الشيخ محمد عبده في تفسير قوله
تعالى (والنارعات فرقا) « إذا رجعت إلى جميع
ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أكثره بعض الناس ،
أو احتقره ، لغفلته من فائدته ، أو ذهل من موبسغ
المرءة فيه ، وسمى من حكمة الله في خلقه ، أو انكسر
عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر
الله شأنه عليه ، فيقسم الله به إما لتقرير وجوده
في عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه في نفس من يحتقره ،
أو تنبيه الشعور إلى ما فيه من شأنه من لا يذكره ، أو
تقلب الاعتقاد في قلب من أضله الوهم ، أو خاتمه
الفهم ا هـ . »

أما الحلف بالقلم فهو حلف بأعظم نعمه أتم الله
بها على نوع الإنسان ، بعد نعمه النطق والبيان ، نعمه

(١) أي تنهتوا ونصروا .

أفراذه أنواع الشرائع ، وحقائق المعاملات ، فلا لا القام
لم يقدمين ولا كان عمران ، وإذا أردت أن نفس حالة
جماعات البشر من حيث الرهب في سائر المذاهب ، فلا
مقياس أدق من انتشار في الدنيا بينهم ، أي الذي
يحدد درجة كل شعب من العناية الإلهية ، ويوضعه
موضعه اللائق به في مصاف الأمم الحية .

وليس المراد من قيام في الآية الإلهاد المعروفة من
حيث ذاتها ، بل من حيث عملها ، الأمر الذي ينشأ
منها ، أعني نقل الأفكار والمعاني من نفس شخص إلى
نفس شخص آخر . يدل على هذا قوله تعالى (وما
يسطرون) بعد قوله (والقلم) : كأنه يقول أحاطوا بالقلم
وبالتسطير الذي يفعله الكاتبون . فمما في قوله (وما
يسطرون) مصدريه ، فهو تعالى يحلف بأن الكتابة
التي تعددت وسائطها ، فكان منها القلم ، وآلات الطباعة
وسائر أدوات الكتابة ، كالنسخة المصروفة باسم
« تايپ رايتير » ، وكل ما يمكن أن يخترعه البشر
ويستعملوه في الوصول إلى هذا الغرض . ولا نزاع
في أن هذه اللغنية المقيمة والممران المحجب الذي
توصلت إليه الأمم في عصرنا الحاضر ، إنما هو نتيجة
من نتائج فن الطباعة واستعمال المطابع الحديثة في
سرعتها ، واتقان صنعها .

فانظر إلى قوله تعالى (وما يسطرون) ما أحسنه !
وما اللطف إرادته في هذا المقام ! وهو في الحسن
يشبه قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) بعد قوله :
(والخييل والبال والحمير تركبها ورينة) ، فهو تعالى
يعلن على البشر أن هداهم إلى وسائل النقل ، فذكر
الوسائل الحيوانية المعروفة لديهم في عهد التنزيل ،
ثم أشار إلى أن هنالك وسائل أخرى يخلفها ولم يعلمها
البشر بعد ، فكان من هذه الوسائل السكك الحديدية
والأوتوموبيلات وسائر ضرب السيارات ، ولا تنسى
أدوات النقل التي تسير على وجه المساء ، كالسفن
والوابورات ، أو تخترق طبقات الهواء ، كالناطيسد
والطائرات . وما يدبرنا أن سيخلق الله وسائل أخرى
للتنقل غير ما ذكر ، يهدي إليها البشر ، وتكون أصعب
من تلك وأسهل ، وأدق في الصنع وأمثل .

هذه السورة أنزلت في مكة . وآياتها الأولى من
أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة
(اقرأ باسم ربك) .

لا نزل جبريل على النبي في غار حراء وقال له :
اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، ثم لقنه سورة (اقرأ باسم
ربك الذي خلق) فخفف بها إلى خديجة رضي الله عنها
فاخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ففسر عليه ما جرى
فيه ، وشاع أمر دعواه في مكة ، وأن ورقة قال له : إن
هذا الذي كلمك هو النساوس الذي كان ينزل على
الأنبياء قبلك ، وتسمى ورقة أو يقول غيره فيعززه
ويتصره . لما كان كل ذلك . . . أخذ كفار قريش
يقولون أنه صلى الله عليه وسلم مجنون ، يريدون
بذلك صرف القلوب عنه ، وتزهد الناس فيه ، فلا
يسمعون قوله ، ولا يتدبرون ما أتاهم من عند الله به ،

بفضل الله عليه .

وقوله (بنعمة ربك) مثل (بفضل الله) فيما اذا قلت لآخر أنت بفضل الله غير محتاج الى احد . والمعنى ان وصف الجنون منتف عنك بالمحمد بسبب انما الله عليك بالاخلاق الحسنة ، ولطفه بك مد رباك تربية حميدة . وكيف يصح في العقل أن يكون صلى الله عليه وسلم مجنوناً وهو ليوم خروجه من مكة مهاجراً الى المدينة كانت لديه امانات وودائع لا والله الذين كانوا يصفونه بالجنون ، وقد خلف سيدنا علياً كرم الله وجهه في مكة ليؤديها الى اربابها . فهل يكون مجنوناً ذلك الذي لم يجدوا من ياتمنونه على ذنابهم سواء ؟ نفى الله عن نبيه الجنون واثبت له امرين يستحيل أن يكون منهما مجنوناً : احدهما انصافه بالخلق العظيم والطبع الكريم ، والجنون لا يكون كذلك . والثانيها الاجر والثواب الذي اعده الله له يوم القيامة . وقال ان ذلك الثواب (غير مهزون) اي غير مقطوع ولا متقوس . كما قال تعالى في محل آخر (مطاه غير مجلد) اي غير مقطوع . ومن كان له يوم القيامة اجر على مسامحة واعماله وتحمله المشقات في سبيل الدعوة الى الله كيف يكون مجنوناً ؟ والثواب انما يعتمد العقل ، لان الثواب يكون على العمل ، والعمل المشاب عليه بنسبة الارادة والاختيار ، والمجنون لا ارادة له ولا اختيار ، وليس هو بمكلف لثواب او عقاب .

وبالجملة فادعوى اهل مكة انه صلى الله عليه وسلم مجنون دعوى باطللة لا اساس لها ، ولا حجة تعتمد عليها . وهذا امر جدير بالذكر والتدبر : ذلك انه صلى الله عليه وسلم كان آمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، واسره في ذلك متعالم بين قومه مشهور فيهم . ثم لا انزل عليه الوحي كان اول الايات نزولاً عليه آية (اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم) وآية (والقلم وما يسطر) والآيات وردنا مورد الامتنان على الامم بما وهبهم الله من نعمة الخط وصناعة القلم والشان في من لم تكن له تلك الموهبة ان يكون منتقصاً بين قومه مفضولاً فيهم ، فهل بمقل ان يفترى محمد صلى الله عليه وسلم على الله بادعاء النبوة ثم يفجأ قريشاً قبل كل شيء بما ينهيم ان تقص بمسبونه فيه ، وعيب بدعونه عليه ؟ لا جرم انه صلى الله عليه وسلم مدفوع الى اعلان ما اتى به من الدين والوحي بسائق ساقى لا يقوى على رده ، ولا طاقة لمبتكاته . ثم لا يعرب من فكر الفطن ان جعل الخط والكتابة ان كان نقصاً في غيره صلى الله عليه وسلم فهو فيه محمداً وميزة وآية كبرى ملي صفة دعواه الرسالة ، كما اشار تعالى الى ذلك بقوله : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا التزيت بالمطون) .

قد يلحق قلب النبي صلى الله عليه وسلم فخره من التأثير والوجوب الى اولئك المكذبين الذين يصفونه بالجنون ، كما يفيل الى هؤلاء المكذبين انهم بهذا البلاء والنيل من الرسول قد فازوا عليه ، وكفوا مؤونة الاذمان له ، والاهتمام بامر دعوته . فقال تعالى مسلحاً له صلى الله عليه وسلم ومدبراً : ومنهتدا

يرى اولئك الذين وصفوك بالجنون - عاقبة امرك وامرهم ، وتعلمون جميعاً أي الفريقين منكم هو المصاب بالجنون واختيل العقل في الواقع ونفس الامر . والعاقبة المنتظرة هي ما يكون للمؤمن من الفوز والغلبة والفتح ، وما يلحق المشركين من الخلال والاستسلام . وقد صدق الله وعده ، ونصر جنته ، وهزم الاحزاب وحده .

ومعنى قوله (يا باكم للفتسون ؟) من منكم هو المجنون ؟ ولكن الوصول الى هذا المعنى يكون بأحد طريقين : اما بجعل الباء صلة زائدة كما هي في قوله تعالى (وهوى اليك بجذع النخلة) وقول امرئ القيس « حضرت بغض ذي شاربغ مبال » وقول الاعشى « شمنت برؤى عيناك ارحمنا » وتكون كلمة المفتون اسم مفعول من فتن اذا اصبحت بفتنة أي محتوياً باله : من ذهب عقل او مال او موتورله او حميم . فالمعنى هنا سترون انكم الذي فتن وابتلى بالجنون وذهاب العقل . واما بجعل الباء اصلية ومعناها الالتصاق ، والمفتون مصدر بمعنى الفتون أي الجنون . وقد ورد المصدر بصيغة اسم المفعول في الفاظ قليلة ، كالمفتول والميسون والجلود بمعنى العقل واليسر والجلادة . أي سترون باي الفريقين - منا ومنكم - الجنون ؟

ولما كانت زيادة الباء وورود المصدر بصيغة اسم المفعول امرين نادريين ، كان القولان المذكوران في تفسير الآية موضعاً للنظر : ومن ثم ذهب آخرون الى جعل الباء اصلية بمعنى في ، وابتقاء الفتون بمعنى اسم المفعول ، ويكون حل المعنى هكذا : سترون المفتون والمفتن بالجنون في اي الفريقين ؟ في فريق المؤمنين او في فريق المشركين . ويكون الكلام مبنياً على التعريض بالمشركين بان المجنون فيهم ، لا يعدوه الى غيرهم . ووصفه تعالى لهم بالجنون بمشكلة لوصفهم له صلى الله عليه وسلم بذلك ، والا فهم ليسوا مجانين حقيقة ، بل وصفوا به من حيث امراضهم من الحق ، واتباعهم الهوى .

وهذه الآية ايضا من قبيل التعريض بالمشركين الذين ادوا النبي صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما هو موصوف بضده من كمال العقل وسلامة الشعور ، فلا يمكن لاحد ان يعلم من صفات البشر واطوار نفوسهم مايلهم موجدهم الذي خلقهم من تراب ثم من طينة ثم من علقه ، فهو تعالى يعلم الذين حادوا من سبيل رشاه ، كما يعلم الذين سلكوا هذا السبيل .

وهذا من صالح امرهم الى الصراط المستقيم . ولا ريب ان المكذبين هم الذين حادوا عن سبيل الهدى ، وواقفوا مهوى الردى ، فما اشبههم ان يكونوا هم الجانين ، لا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الذي هداه ربه الى حيد الحصال ، وطبعه على مكارم الاخلاق .

من اتفأ ان هذه السورة من اوائل ما انزل عليه صلى الله عليه وسلم من سور القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم اذ ذلك ناصراً له سوى الله ولا مؤنس

وَدُّوا أَنْ يُدْعُوا فَيُذْهِبُوا عَنْهُمْ ۖ وَلَا يُطِيعُ كُلُّ حَلَافٍ

مَعَهُمْ ۚ هَٰذَا مَتَّاعٌ بَعِيدٌ ۚ مَتَّاعٌ لِلْغَيْرِ مُعْتَدٍ

أَتَمِّمُ ۚ عَسَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَنْ يَرْجِعَ ۚ أُنْكَرْتُ

ذَٰمًا مَالًا وَبَنِينَ ۚ إِذَا تُسئَلُ عَلَيْهِٖٓ إِنَّمَا تَقَالُ سَطِيرٌ

سوى الحق ، ولا مشايخ سوى نفسه . وكان المشركون في معظم كثيرهم أواج مزهم ، وكانوا مع ذلك يتمنون لو يخفف لهم في القول ، ويصالحهم في ترك بعض ما يبهوهم إليه ، وعيادة بعض ما كانوا يعبدون من الطواغيت ، وهم في مقابل ذلك يشنون على مصالحتهم والأدهان له في بعض ما يكلّفهم إياه ، ويبهوهم إليه . وهكذا يبنون أمرهم معه على مواطاة وطباق ، ويدبلون التفات في الشقاق .

وقوله (فيذهبون) مرفوع على الاستئشاف ، أي فهم يذهبون له مذ الآن ، وينتظرون منه أن يذهب لهم جزء ادعائهم . ولو نصب فقيل (فيذهبوا) كان المعنى : ودوا أن يذهب لهم فكأنهوا على ادعائهم بالدين . وليس هذا المعنى مراداً في الآية .

وقد كان المتفائلون من المشركين يتوقعون فيه صلى الله عليه وسلم الميل إلى هذا الرأي من أمر المداينة والمصالحة وحل المشكلة بينه وبينهم على هذا الوجه . غير أنه خاب ظنهم ، وكذب فاهم ، فإن الأمر ليس كما يظنون ، وللاقتلابات الدينية الكبرى أسرار لا يعلمها إلا الله والراسخون . ولكن ما يبرئنا أن تكون تسويلات المشركين وجوبهاهم قد ألفت في نفسه صلى الله عليه وسلم برداً من الأمل ، وحببت إليه موافقتهم في بعض العمل ، فحادث هذه الآيات لذلك نلر حمته ، وتشغل من غرار عزيمته ، فذكره الله في فاتحة السورة بما كان يصفه به أولئك المتعلقون من الجنون واختلال الشعور ، ثم ذكره ثانية بأن القوم يقولون عنه أنه كاذب ، فكيف مع هذا يصح منه أن يطيعهم فيما اقترحوه ، ويطيعهم إلى وعدهم بأنهم يؤمنون ببعض ما جاءهم به . فهذا الاقتراح منهم ليس سوى مراوغة وخداع ، لا جرم أن يبقى موقف النبي صلى الله عليه وسلم إزاهم - وهذه حالهم - موقف التشدد في دعوتهم ، الملح بطلب الإيمان منهم . ولا فإن التساهل معهم يفرهم به ، ويؤيدهم جراً في الاقتراح عليه ، وبهذه الصورة يتخلصون من الدعوة شيئاً فشيئاً ، وينفض أسياسهم من حولهم حالاً فحالاً ، فلا يعود يستوفى الرسالة أمر ، ولا ترمخ للاسلام قديم .

ومن ثم نهاه الله عن اطاعتهم ، ونهيه إلى أنهم ينتظرون منه أن يخون أو يتسلح لهم في تبليغ بعض

لم يفسد الأمر عليه أخيراً ، فابكن على جلد من ذلك . وهذا التعليم القرآني من أحسن ما يستفاد منه زعماء الأمم حكمة وثيقاً لا عساه يعثر على سرهم من عواير التعلات والأمانى . فالقرآن يرشدكم إلى وجوب التحنى عنها وعدم الانخداع بها .

أما قوله تعالى (تذهب فيذهبون) فهو من الأدهان بمعنى المداينة المعروفة ، وهي شرب من الخبثانة : قال المبرد : « ادّهن الرجل في دينه وداعن في أمره إذا خان فيه ، وأظهر خلاف ما يبرم » . أما اشتقاقه فمن الدهن . والدهن البيل ، يقال : دهن الطير الأرض إذا بلها بلا يسيراً ، فلما كان الدهن وهو البيل يلين الشيء بعد بيسه مسح أن تشبه المصالحة ولين القول بالدهن والبيل ، فإن الدهن يلين الجاس ، والمصالحة تلين نفس من تريد خداعه ، وتكتف من جماعه ونفوره . وربما كان الأدهان والمداينة من الدهن والدهان بمعنى الصبغ والصباغ ، فإن اللابنة وكلمات المصالحة جميلة أثينة في ظاهرها ، ولكن ليس تحتها حب صميم ، ولا اخلاص صريح ، فهي مثل دهان تصبغ به الشيء وتلون ظاهره بما يجعله موقفاً معجياً في بادئ النظر ، ثم لا يكون كذلك في الواقع ونفس الأمر .

نهى الله نبيه في الآية السابقة عن اطاعة المكذبين فيما اقترحوه عليه من مصالحتهم وملايئمتهم ، وإن يقل منهم التصديق ببعض ما يدعونه إليه دون البعض الآخر مما لا يوافقهم ، ولا يلائم أخواقهم . وقد ذكر تعالى هؤلاء المكذبين ثمة بعنوان عام . أما في هذه الآية فقد نهى الله نبيه عن اطاعة واحد منهم بعينه تجتمع فيه خصال عشر غاية في التبع والبشاعة ، معرضاً بذلك الشخص معرضاً ، مدخلاً له في كل من كان مثله في استجماع الخصال المذكورة . ولما كان من المستبعد أن تجتمع هذه الخصال جميعها في أشخاص كثيرين فإن الدهن ينته بالضرورة إلى أن المقصود واحد بعينه اتفق اتصافه بتلك الخصال وإن كانت فضيته مسورة بالسور الكلى ، أعني كلمة (كل) في قوله (كل حلاف) .

وإن أراد الكلام على هذا الأسلوب ، وأفرغ التعريض في هذا القالب لهم من الحسن والوصول إلى الغرض يمكن .

وقد اختلف المفسرون في الشخص الذي أريد التعريض به ، والاكترون على أنه الوليد بن المغيرة الخزومي (١) .

كان هذا الرجل من رجالات قريش وسادتهم ، وكان في سعة من المال وكثرة من الولد ، وكان يقول لأولاده وأبناء عشيرته : كلما أتس منهم ميسلاً إلى النبي : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفه بشيء أبداً » فكأنوا بسبب ذلك يتمتعون من الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

(١) وسيل في سورة الدحر آيات في صلات الوليد هذا ، أولها - « فدن من خلق وحيدا » . فالراد بالمعقول فيها الوليد بن المغيرة نفسه . المؤلف

من النبي أن يتنازل لهم من بعض ما يكلفهم من أمور الدين ، فحصل الله نبيه الأول في أشرافهم عامة ، وأشرافه الوليد خاصة ، لأن ما في الوليد من الأخلاق والأطوار مظنة أن يؤثر في نفسه صلى الله عليه وسلم اتخذها أو مصانعة ، ولذلك أسهب الوحي في التعريف بالوليد ، ووصف أحواله ، وتصوير مستبشع خصاله بحيث أبرزه للعيان ولما مضى ، وشيطانا بالعلمت مسوما ، تلك الخصال أو الصفات العشر :

١ - كثرة الحلف بالله تعالى ، وسيأتي من جملة خصاله الغيبة والنميمة ، فيبعد ألا يكون متصفا بالكلب ، والكلب أخوهما الشقيق ، فوصف الله الوليد بأنه (حلاف) قد يكون المراد منه أنه كلاب ، وأنه من الكلب في أفعي حاله ، فهو يكلب ويكلم كلبه بالطف بالله ، ويروج بطله بذكر اسمه تعالى ، وهو استخفاف منه بمقام الألوهية ، وجهل بمظنة الله تعالى وما يجب لاسمه الكريم من التوقير والتعظيم ، ولا يكثر الحلف عادة إلا من عرف أن الناس لا يصدقونه فيما يقول ، فهو يحلف لهم ليصدقوه . فكثر الحلف مظنة الكذب . قال الشاعر :

وأكذب ما يكون أبى اللئى إذا آلى يمينا بالطلاق

وقد كان الصحابة يرغسون الله عليهم يضربون أولادهم إذا سمعهم يظفون تعويذا لهم وتقويما لأخلاقهم .

٢ - ومن صفات الوليد أنه (مهين) والمهانة العفارة ، وليست قهارته في نفسه وانعطاف شأنه في قومه ، وإنما هي حقارة الرأي ، وضعف التمييز ، وقلة التدبر في مواقف الأمور . ولو كان جيد الرأي ، وأمر التسليم ما آل أمره إلى الجحود والكفر ، أو ما كان كاذبا ، لم يقيم دليلا على كلبه كثرة حلفه ، واستخفافه باسم ربه .

وإنما قلنا أن المراد من المهانة مهانة الرأي لا مهانة الشأن والمكانة ، لأن من جملة خصال الوليد الاتي ذكره أنه يكثر الوقية في الناس ويظلمهم ، ويماملهم بالتسوية والصف ، وأنه كثير المال والولد ، ومن كان هذا شأنه كان مهينا مرعى الجانب مؤثر الحرية في قومه ، لا محقرا وضعيف القدر فيهم . وقد نقل أن الظالم الماني كثير المال والولد يكون رفيع المنزلة عظيم الخطر في نفوس الجاهل والعامة ، أما عند أرباب الفضل والعقل والدين ، فمنزلة منخفضة ، وقدره مهين ، فلا جرم أن يكون الوليد مهينا بهذا المعنى أيضا .

٣ - ومن خصاله العشر أنه (همار) ، والهمز في اللغة النفس ، ومنه الهماز للذابة . وهو أيضا الضرب والبص والضغط . قالوا لأمرأى « اتميز الفسارة » يريدون انطبق بها مهموزة ؟ ففسبهم يقولون : انفضها وتضغط عليها . فأجابهم : « الهه يهوها » . لم يستعمل الهمز في الظن في الناس والغنى منهم ، وذكرهم بالكره ، وهو الهمز أيضا : يقال هو « همزة

أمرهم كثيرة متشعبة : يهزمهم الهماز لحين العداوة وأتورة الحقد ، أو وقت الهزل والسخرية ، يهزمهم في دينهم وأخلاقهم ، أو في حياتهم ويختلف أطوارهم ، يهزمهم في حضورهم ، أو وقت غيابهم ، يهزمهم بلسانه ، أو بشعر اليهم برأيه أو مينه بلسانه ، كل هذا يدخل تحت الهمز ، ويقال لفعله أنه همار . وقد روى أن الوليد المذكور من أكبر الهمازين ، فقد كان يهزم النبي صلى الله عليه وسلم ويذكره بالسوء في غيبته ، ويظعن عليه في حضوره ، وكان يلقب الناس بالقلب السوء كما يفعل السفهاء والتحتون .

٤ - ومن خصال الوليد أيضا أنه (مشاء يتميم) ، أى يمضى بين الناس بالنميمة ، فينقل حديث بعضهم إلى بعض بقصد افساد ذات بينهم ، وإثارة الاحقاد والعداوات في صدورهم .

٥ - ومن خصاله الملعونة أنه (مناع للخير) ، أى يحول بين الناس وبين فعل ما يريدونه من عمل الخير ، والمراد من الخير كل عمل صالح : إيمان بالله ، أو أسداة صنيعه ، أو اتفاق في وجه من وجوه البر ، وقد يكون المراد بالخير الذى يمنعه الوليد إيمان بربه وبني عمه وعشيرته ، فقد ذكرنا أننا أنه كان يقول لهم : « لن بيع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا » .

٦ - ومن خصاله أنه (معتد) ، أى يتصدى حدود العدل والإنصاف في معاملة الناس ، فيظلمهم ، ويجور عليهم ، ويهضم حقوقهم .

٧ - ومن أوصافه أنه (أقيم) ، أى كثير الائم ، والائم اللين وأن يعامل المرء لا يحل عمله .

٨ - ومن لعم أوصافه أيضا أنه (همل) ، والمعل يهضم العين والتام وتشديد الائم الأكل والشروب القوى الشديد بوضع ، أى الأيزان فلا يؤن شعيرة ، وقيل هو الأكل المنوع ، وقيل هو الجالى الغليظ . أو يقال هو الضخم في جسمه ، والشره في أكله ، الفظ في طبعه ، التميم في نفسه ، السيء في معاملته ، وبالعجولة هو الذى لا يطاق ولا يستعمل ، وعن أبى البرداء رضى الله عنه : « المعتل كل وشيب الجوف ، وثيق الخلق ، أكل شروب ، جموع للمال ، منوع له » . اهـ . ورغيب الجوف : واسمه .

وربما كانت كلمة (المعتل) أجمع كلمات اللغة العربية لمساوى الإخلاق ، حتى أن القوم نفسه أصبح معنى من معانيها ، ولطخة من مخازيها .

٩ - ومن خصال الوليد (بعد ذلك) أى ودام كل ما تقدم من خصاله التبيحة أنه (زيم) و (الزيم) هو الذى يتدس في القوم ويستلحق بهم في النسب ولا يكون منهم ، فهو معلق بهم كازمنة فيمنع في النسب ، والزمنة هنة تنشأ في جلد العنز وتتسلى من منها كالكقرط ، وهو خلقى فيها ، أما هو في الضالمة والناقة فليس خلقيا ، وإنما هو فيها أن تقطع من أذنيهما جليلة فتترك معلقة لتكون علامة تميز بها العجبة الكريمة أو الناقة الكريمة من سائر النماج والنياف .

الْأُولَى ١٥ سَمِعَ عَلَى الْخُرُومِ ١٦ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا
بَلَوْنَا أَجْمَبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧
وَلَا يَسْتَنْبِئُ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهِمَا طَافٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُم نَائِمُونَ ١٩ فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوْا

وقد ذكرنا أن الوليد لم يكن ذا نسب صحيح في قرشي، وإنما استلحقه أبوه بلمعنى ثمانى عشرة سنة من عمره، فهو إذن زعيم دعى ملصق. ومن معاني (الزويم) الرجل الذى اشتهر وهرب بين الناس بلومه وخيته وكثرة ضروره، فهو ممتاز فيهم بصفاته هذه كما تمتاز الشاة من بقية أخواتها بزميتها المتدلية في أذنها، فمعنى كون الوليد زعيما على هذا أنه مشهور في قومه بالزوم والشرة. وربما كان تفسير كلمة زعيم في القرآن بهذا المعنى أشبه به، وأتوه له.

١٠ - بقى من خصال الوليد الخصلة العاشرة، وهي استخفافه بآيات الله، وتسميته لها (أساطير الأولين)، أى أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخبار الأنبيين، ليست صحيحة ولا تحدث في النفس أثرا، وإنما تقال تفكهة وسليية. وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والايان بها - سخر منها وقال: أنها (أساطير الأولين).

وقوله تعالى: (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) حلة لما قاله الوليد، أى إنما قال الوليد هذا القول المنكر في القرآن لفرط غروره بأمواله وأولاده، فإن المتقوى بعاله ودرهله يطفى ويبقى، ويتجاوز الحدود في التفكير والجود، وهكذا كان شأن الوليد.

ويحتمل أن يكون المعنى على العتاب المشوب بشيء من التوبيخ والتقريع، كأنه تعالى يقول: أمن أجل أن كان الوليد متمما عليه من قبلنا بالآل والبني أخذ يفتري على آياتنا كلما تليت عليه ويقول عنها أنها أساطير الأولين؟ أملا جزاء الأحرار؟

وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى: (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) متعلقا بما قبله، وهو قوله تعالى: (وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ يَوْمٍ خِلَافًا) وأن لا تليس متعلقا بما بعده وهو قوله تعالى: (إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ أَتَانَا قَالَ) . وحل الآية على تعليقه بما قبله: لا تطعم يا محمد من كان متضفا ببله الأخلاق الرذلة، مراعاة لكثرة ماله، وتعدد ولده، فإن اتصافه بما ذكر من الأخلاق يستدعى التفرقة منه، والإزدياة عليه، مهما أوى من المال والولد، لإلزامه له، والجمالية إلى حد الطاعة.

ويعد أن عدد الوحي مثالب هذا الجاحد المعتاد

• على الخروم ()

(الزوم) هو أن تضع علامة على الشيء تميزه بها من غيره، و (الخروم) الهنة المستطيلة في موضع الألف من القيل، وتقسم له مقام اليد يتناول بها حاجاته. ويطلق الخروم أيضا على مقدم انف الخزير، وربما كان استعمال الخروم في الآية بمعنى الألف منقولاً عن المعنى الثاني لعنى خروم الخزير، تحقيرا لذلك الجاحد وتهكما به، كما تهكم هو بآيات الله مد وسمها بأساطير الأولين. (والزوم) على الخروم كتابة من الألال والخلل. قال التلمس وهو من أقدم شعراء الجاهلية:

ولو غير أخوالى أرادوا تقيصتى

جعلت لهم فوق العرائن ميسما

أى أذللتهم وقهرتهم. وإنما خصوا الألف بالذكر دون سائر الأضواء كونه موضع ظهور أثر العزة والحجبة والشمس، فإذا أرادوا أن يصفوا أنسابا بذلك قالوا: «فلان شامخ العرين»، «وحمي انف فلان» أى غضب وتمعر. واشتقوا من الألف (الأنفة) بمعنى العزة والاستنكاف. وإذا أرادوا أن يصفوا أحدا بالذلة والمهانة عكسوا وقالوا: «فلت ذلك على الرغم من أنفه» أى قهرا عنه. و «أرغم فلان أنف فلان» أذله وقهره. وأصل معناه أن يصفى بالرقام وهو التراب و «جدم أنف فلان» دما عليه أو أخبر عنه بالذلة والمهانة. والجدع القطع. ويقولون «فلان وسم فلانا يسم سوء» إذا سبه سببا قبيحة باقية بحيث تلتصق به، وتصبح كالسمة له.

ومعنى الآية أن الوليد بن المغيرة بما كان منه من التكذيب وإلباء النبي صلى الله عليه وسلم، والتعاضد في قبيح الخصال - استحق أن نسبه على خرطومه أى تلحق به ذلا وعارا يلزمه لزوم النسبة في خرطوم الخزير، ويجعله مذكورا بهذا الوصف القبيح على السنة الأنام، مدى السنين والأعوام.

وقد تحقق قول الله، ونفدت مشيئته في الوليد، فإن اسمه سيبقى مقرونا بالخرى والمال على كر الأباام والسنين، وما تليت تلك الآيات التي سماها أساطير الأولين.

ومغزى الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وحمله على اليأس من إيمان هؤلاء المكذبن لا سيما الوليد، وتنبيهه صلى الله عليه وسلم إلى أن من كان كالوليد في قبيح خصاله، وسيره فعالة - يصبح من الملعن انتظار الأيمان منه، ورجاء الخير فيه. فلا تشغل قلبك إني الرسول الكريم يطمه، وأكل على معونة الله وفضله.

الضمير في (يلوئهم) يرجع إلى أهل مكة الذين سماهم الله المكذبن في قوله (فلا تطعم المكذبن) وذكر من أوصاف أحدهم وهو الوليد ماذكر، ومن أوصافه المقوطة أنه كان يسمى آيات الله (أساطير الأولين) كبرا وحتوا واعتدادا بكثرة ماله وولده. والمال والولد نعم انعم الله بها عليه، وكان من حقها أن تورث نفسه

أخبالا وخضوعها ، وتعوده إلى الإسلام بزمام الشجر ومعرفة الجميل ، لكنها على العكس كانت مسبب كفره وجحوده ، وتعباده في فيه وضلاله .
 الوليد بن المغيرة وأمثاله من سادات مكة الذين أتم الله عليهم بالنعم المختلفة فقابلوها بالجحود والتكبر ، وبادروا إليه بالتكذيب والاستغناء والصبيان ، حتى كان هذا منهم مسببا لسلخ النعم عنهم ، وإنزال النعم بهم - ينسبه حالهم حال أصحاب الجنة ، ويصح أن يفرط غرور أصحاب الجنة مثلا لهم . والمراد من الجنة هنا معناها اللغوي ، وهو الأصل فيها ، أعني البستان كثير الزروع والأثمار والأفصان الملتفة ، والناس في زمانا إذا أرادوا هذا المعنى سموه بستانا أو جنة ، ويخصون الجنة بفراديس النعيم الأخرى ، وهي أكثر ما تطلق على ذلك في نصوص الدين .
 وتعريف الجنة وإضافة الأصحاب إليها يشعر بأنها وأصحابها معودة للمخاطبين ، وأن حكايتها وحكايتهم مستغنية فيهم .

ولما أراد الله أن يذكر أهل مكة بما كان من أسلافه النعم عليهم ، وما كان منهم من التكذيب في مقابل هذه النعم ثم زوالها عنهم - ضرب لهم مثلا قصة أصحاب البستان المتداولة بينهم في ذلك العصر ، ليكون ذكرها لهم في التصور ، وإبلاغ في التذكير والتأثير . وسواء أكانت قصة أصحاب الجنة مما حدث في زمن العرب أم في زمن غيرهم من أهل الكتاب ، فذلك ما لا يهم معرفته مادام المقصد من سرد القصة مزاهاة وأحداث الوصف والتذكير بها . على أن بعض المفسرين روى أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا أناسا من الحبشة من أهل الكتاب ، وكان أيوهم شيئا صالحا ، وله جنة فيها نخل وزروع ، فكان يمسك قوت سنته ، ويعظم منها المساكين ويتصدق بالفضل ، فكان يتوه بتوهمه من ذلك فلا يلتفت إليهم . فلما مات قالوا : والله أن كان أيونا لأحق حين يعظم المساكين ، وإن لنا عيالا كثيرين ، والمال قليل ، فلو فعلنا ما كان يفعل أيونا ضاق علينا العيش . ثم كان منهم ما قصه الوحي علينا في هذه الآيات ما قال (قَا بَلُونَاهُمْ كَمَا بَلُونَا أصحاب الجنة) .

وإبلاء الابتلاء الاختيار والامتحان ، فإذا نسب إلى غير الله تعالى كان المراد أن يعرف المبلى (بكسر اللام) ما جهل من أمر المبلى (يفتح اللام) ، وإذا نسب إلى الله كان المراد كشف الأمر وإظهاره للدين يجهلونه ويمارون فيه .

وإبلاء الله البشر قد يكون بإفدائهم النعم عليهم ، فيكفرون أو يشكرون . وقد يكون بإتزال المصائب بهم ، فيجزعون أو يصبرون . ويسمى هذا الابتلاء أيضا امتحانا وفنتة ، ويسمى في الأسفار المقدسة تجربة وتجارب . وقد ورد في أحذية تلك الأسفار خطابا لله تعالى « لا تدلخلنا في تجربة » . ومن استعمال

الفنتة في القرآن قوله تعالى : (لَمْ أَحْصِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) . ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن

(الناديين) . وابتلاء الله لعماد فريش بتبليبه لأصحاب البستان ، فإنه تعالى أفدق على الفريقين صنوف نعمه ، وكفروا بها ، ولم يبرعوا حق رعايتها . قلنا إن أصحاب الجنة قوم كانت لهم أرض ذات نخل وزروع ، فلما حان صرامها (يفتح الصاد وكسرها وقت جنى ثمرها) ، فأنزلوا فيسألونهم ، وأقسموا أن يصرموا الجنة ولا يحتوا ثمارها ، إلا في صباح اليوم التالي . والكلام في أسلوبه هذا يشعر بأن قوما آخرين ينازعون أصحاب البستان ، ويؤيدون أن يشاركوهم في قطع ثمراته وتناول ثمره من خيراته ، وبذلك اضطروا أصحابه إلى أن يتواصوا هذا التواص ، ويعقدوا العزم بينهم على الذهاب إلى بستانهم في وقت لا يتيسر لأولئك المنازعين أن يصحبوهم فيه ، وهذا الوقت هو وقت الصباح ، وقت استغراق الناس في نومهم . ويستدل من قول أصحاب الجنة الآتي : (لا يدخلنا اليوم عليكم مسكين) على أن هؤلاء المنازعين الذين يخش الصرام عنهم ، هم المساكين .

ونفهم من تقاسم أصحاب البستان ، وتعيينهم وقت الصبح لمباشرة عملهم - أن للمساكين شائنا خاصا في ذلك البستان ، ولا ما يفتح الأمر إلى أن يتعاقد أصحابه على صرم ثماره الملوكوة لهم خفية ، إذ كيف يسوغ لأحد أن يعارض آخر في ملكه ، ويحول بينه وبين الانتفاع بثمره - لو لم يكن لذلك المعارض حق أو شبه حق في هذا الثمر ؟

أما الحق أو شبه الحق الذي كان للمساكين فهو أن صاحب الجنة والمالك قبل أصحابها هؤلاء ، كان قد جعل في ثماره نصيبا مفروضا لأولئك المساكين الذين يعيشون معه في القرية ، فكان بذلك يكسب ثناهم ، ويستل سخائهم ، ويكف بهم من العدوان بالسرقة . على بستانه ويسألهم أهل القرية ، ويكون من جهة ثانية قد قام بالشكر الواجب لله تعالى على ما أنعم من الرزق الطيب والعيش الهنيء . ولا جرم أن يكون هذا الصنيع منه لمحة المريد ، ووسيلة إلى دوام النعم واستمرارها ، وعدم وجود منفص لها . أما خلفاء هذا الحصن البار على تلك الجنة فاتهم لم يطبقوا أن يعملوا للمساكين حظا في جنتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعل سلفهم من إعلان وقت الصرام ، ليقتل للمساكين ، ويتناولوا حصتهم ، بل راوا في ذلك مضيقا لرزقهم ، مقلا من انصياعهم ، وغفلوا عن أن رزاة المال تطهره وتزده نماء ، وتطيل مدة المنفعة به . فهم من أجل ذلك عقدوا النية على حرمان المساكين ، ومنعهم ما كانوا يتقبلون به من ذلك البستان ، ولما أو أن يتوصلوا إلى ذلك بمباشرة صرم ثمرات النخل وقت السحر ، إذ يكون أولئك الثمر من المساكين مستقرقين في نومهم ، مستسلمين إلى غفلتهم .

هذا معنى (إذ أقسموا ليصرنها مصحين) . ومعنى قوله تعالى : (وَلَا يَسْتَشْشُونَ) - أنهم كانوا يحلفون على مباشرة الصرم وحرمان المساكين ، والذين من موادة الأقدار لهم ، غافلين عن قدرة الله تعالى ، فكانوا لا يستششون في العيى ، ولا يقولون إلا أن يشاء الله . وهذا منهم دليل الغفلة والغرور ، وترك التفكير

مُصْبِحِينَ ﴿١١﴾ أَنْ أَغْلُوا عَلَىٰ حَرْبِكَ إِنْ كُنْتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿١٢﴾ فَأَتَقَلَّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿١٣﴾ أَنْ
لَا يَدْخُلْنَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿١٤﴾ وَغَدَا عَلَىٰ حَرْدٍ
قَدِيرٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا تَأَوَّاهُ أَتَانَا لُضَالُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ
كُنَّا نَحْرَمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَقْلَ لَكُمْ لَوْ كُنَّا
نَسْمَعُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴿١٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَمَّضُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يَا بَنِيَّ
إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴿٢١﴾ عَصِيَ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا
لِإِنْ رَبَّنَا رَغِيبُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰكِنَّ آيَاتِ الْآخِرَةِ

في عجائب المقدور ، والاستثناء في اليمين ان تقول :
« لا أفعل كذا الا ان يشاء الله » وهو آية من آيات
الايمان بالله تعالى ، ودليل الثقة بقدرته وتفويض
المشيئة اليه (١) .

لما وطن اصحاب البستان نفوسهم على منع
المساكين حقوقهم في ذلك البستان ، واكدوا الايمان فيما
يبتهن على ذلك غير مستثنين ، ولا حاسبين حسابا
للاقبال وتصريفها وحكمة الله وتماجيها - ذهبوا الى
مضاجعتهم وهم ينوون التبرك الى الجنة ، واذا (طائف
من ذلك) اي بلاد عظيم حصل ببعض قدرة الله من
دون دخول للبشر فيه ، طاف عليها ليلا ، وتبع
اشجارها ، فاكلها واحرق عذوقها ، واغسد افارها ،
بحيث يحسبها التافل اليها (كالصريم) اي كالبقرة
التي صرم اصحابه لحمه ، وقطعوا عذوقه ، ولم يبقوا
على شيء منه . وهذا الطائف الذي اثم بالجنة ليسلا
فأثى عليها ، هو من قبيل الآفات السماوية التي رتبها
الاعراس والمزروعات في بعض السنين فتتلفها وتهلك
الغراس باصحابها . ولا يلزمنا ان نعين جنس ذلك
الطائف ، وانما نقول ان استئصاله لثمار الجنة
وافساده فيها كان بالثأ حده بحيث يحكم التامل فيه
انه حصل بصورة خارقة للعادة من شأنها ان تحدث
في النفوس الفاقة الربية والأزدجار .

ومعنى (طاف عليها طائف) جرت في ، الليل من

(١) يمح ان يكون المعنى : « ولا يستثنون حصة المسكين كما
كان يفعل انهم » ولعله للتبديد . المصحح

امر الله حذر . ولا يكون الطائف في الامم العرب غالبا
الا ليلا كالطريق . ومنه الطائف للسمي . ومعنى
(الصريم) المدحوم بحد اي المخلوح المجدود . والصريم
معان آخر : منها الليل الغامم البهيم ، والارض السوداء
لا تبت شيئا ، والقطعة من معظم الرمل - وكلها تصلح
في تفسير الآية . ومن شبهها بالليل جعلها بعد ان
احترق نباتها ، وتبوسحت اوراها ، وزال خضرها -
سوداء كالليل البهيم .

لما افاق اصحاب البستان من نومهم جعل بعضهم
ينادي بعضا فآلئين : هلموا الآن : اي في وقت الصبح
الذي لا يكر في مثله المساكين عادة . فذهبوا الى
بستانكم ان كنتم تريدون صرم تمساره من دون ان
يشهد صرمتكم احد من اولئك المساكين .
(والحرد) الزرع ، والمرد به موضع الزرع وهو
البستان حيث الثمار والاعشاب ، فهو بقوله تعالى :
(تسألونهم حرد لكم) اي موضع حرد .

(والقدر) يتعدى بالي من حروف الجر . يقال :
« هذا الى موضع شغل » اي ذهب اليه وقت
الغداة . لكنه غدا هنا بطل مضمتا له معنى الجبل :
كانه يقول : « اجبلوا على حربكم » .

وقد وصف في قوله تعالى (فأتقوا الله)
يتخافتون (٥٥) حالة خروجهم الى الجنة ، كما وصف
في سابقها حالة نهوضهم من النوم ، اي اتخذوا طريقهم
الى الجنة وهم يتكلمون بكلام خافت مبهوس لسلا
يسمعهم المساكين فينبههم ، يقول بعضهم لبعض :
ان ندع احدا من اولئك المساكين يدخل جنتنا ،
ويشاركنا في رزقنا ونعمتنا .

وقوله (وغدا على حرد قادرين) اي وظلوا بعد
ان قالوا ما قالوا جادين في صرهم ، حاسبين في نفوسهم
انهم قادرون على حرد ، اي منع اولئك المساكين نصيبهم
من ثمرات الجنة ، فتقوله (على حرد) متعلق بقادرين
مقدم عليه . و (قادرين) حال من فاعل (غداوا)
لا خبر لغداوا : لان (غدا) هنا فعل تام بمعنى ذهب
وقت الغداة ، لا فعل ناقص بمعنى صار او اصبح .
و (الحرد) له معان كثيرة ، انبها هنا ما ذكرناه ،
وهو النع . يقال : « حرد زيد » اذا منع و « حارد
فلان » اذا كان يعطى لم منع . و « حاردت الناقة »
منعت لبنها . و « حاردت السنة » منعت مطرها .

ورجح بعضهم ان يكون (الحرد) هنسا
بمعنى القصد . يقال « حردت حركه » اي قصصت
فصلك . ومنه قول الشاعر :

اقبل سيل جاء من امر الله يجرؤ حرد الجنة الملة
اي يقصد قصد الجنة ذات الملة ، وجهتها ،
ويكون الحرد في الآية بمعنى القصد المزموم عليه في
النفس ، فيصير المعنى : ان هؤلاء القوم جاءوا جنتهم
غفوة النهار على امر صدوده واعتدوده ويوتوه فيما
يبتهنهم ، فصار من انفسهم القدرة على انفاذه .

والعاصم ان القوم يبتوا النية ليسلا على منع
المساكين ، وهو ما نوه صباها وهم يتحاضون
على التبا في هذه النية ، ثم ساروا الى الجنة وهم
يتهاشون بلزوم انفاذ ما صمموا عليه ، شماسين

من اعصم بالعزة على هذا الاعتاد . وما علموا ان الله الذي لم يشكروا نعمه ، ولم يرحموا عياله - من رآتهم حبيط ، وعلى اجابك كيدهم قاتل .

ان القوم بقوا مصممين النية على الحرد ، حتى وصلوا الى الجنة التي طاف عليها طائف الالة المساوية فاحرقها ، وصوح نيتها (فلما راوها) على هذه الحالة عرفوا انهم كانوا على ضلال من جهتين : من جهة منعهم المساكين حقوقهم ، ومن جهة غفلتهم عن قدرة الله ، وسرعة انتقامه ممن نابذوا امره الالهية وخالف سننه الكونية .

ويعد ان سجاولا على انفسهم الضلال ، وحكموا عليها بالفلة - ذهبوا في الحكم عليها الى ابعد من هذا ، فلموا ان المساكين الذين ارادوا حرمانهم من الرزق ليسوا في الحقيقة محرومين ما داموا في رحمة الله ، وحت كلالته ، وانما هم المحرومون على ما يظهرون لانهم استحقوا مقت الله ، وفسيه بخروجهم من سننه ، وقسوة قلوبهم على عياده ، ولذلك اُلف جنتهم ، والصد عليهم معيشتهم . ويحتمل ان يكون المراد من حكمهم على انفسهم بالضلال ، ضلال الطريق الى جنتهم صد راوها معترقة لا تبس فيها ولا تمر ، ولا اثر من اكل الحبيصة ، مع انهم تركوها بالامس معترقة مبرقة ورافقة الظل ، فحسبوا انها غيرا ، وانهم اخطوا طريق الوصول اليها . ثم بعد هنية تبين لهم انها هي هي ، فاضربوا من ظنهم . الاول قائلين : (بل نحن محرومون) ، اى لم نضل طريق جنتنا ، وانما حرمانا الله ايها بشؤم طاعتنا ، وتغير نيتنا .

لما ظهر لاصحاب الجنة خطوهم ، وانهم في ضلال من سمعهم - انبرى واحد منهم كان وعظهم من اول الامر ، ونصح لهم ان يرجعوا ويكفوا ويرافقوا الله : فلا يجحدوا فضله ، ولا يكفروا نعمته ، ولا يمنوا المساكين حقهم ، فلم يبالوا ولم يكتروا له ، فاخذ الاثن يدركهم بما كان من نصيحتهم لهم ، ويؤنبهم على ما كان منهم من المخالفة والصناد والكفران . وكان هذا الناصح اوسط رفاقة ، اى خيرهم واملهم رأيا ، واملهم طريقة ، واسرهم رجعة الى الله . والوسط من كل شيء خيرهم واملهم . ومنه قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم امة وسطا) .

(قال) لهم (اوسطهم : اثم اقل لكم الخ) اى اذكرون اننى كنت علىكم عاقبة البصر ، وحضضتكم على تسبيح الله ، اى تنزيهه من كل سوء . وتنزيهكم لم يكون بالاستثناء ورد المشيئة اليه تعالى ، وانتم لم تستثنوا مذ هزمتم على صرم جنتكم ، وانما صممتم عليه ، قائلين او متفائلين من مصيب قدرة الله تعالى . ويكون التنزيه ايضا بالايان بالله ، والخوف من بطشه ، واعتقاد انه تعالى يغار على خلقه الذين هم عياله ، فلا يرضى ان ييضموا حقوقهم . فانتهم لما لم يؤمنوا به ، ولم تحافوا بطشه ، ولم تحسبوا معاملة خلقه - كنتم معتقدين فيه تعالى المحر والضعف والخرق ، فلم تكونوا مسبيين ولا منزهين له عن صفات نقصان . وكان خطيهم وهو يامرهم بهذا يلج عليهم في طلب

الاستبيح ، لانه استعمل كلمة (لولا) وهي مثل (هلا) في اغادة الحض والحش .

ويظهر ان هذا الخطيب لما نصح لهم فلم يقبلوا نصحه ، فضل ان يبق في جملتهم ، ومشاركاً لهم في عملهم ، على حد قول دريد بن الصمة :

وهل الا انا من غربة ان غوت
غوت وان ترشد غربة ارشد
وكذلك لما ظهر للقوم خطوهم في مخالفة خطيهم ماتبهم بقوله (اثم اقل لكم لولا تسبحون) . فكان هذا القول منه على حد ما قاله دريد ايضا في مثنى قومه في القصيدة نفسها :

محضتكمو نصحي بمنعرج الولى
فلم تستبينوا الامر الا ضحى الفلد

وقد يكون المقالة الناصحين مارب في بقائهم مشاركين لقومهم في عمل ماثوهم منه ، مثل اجتباب التفريق والانتقاء الذى يعقبه الفشل وطمع العدو ، ومثل ان يأخذ اولئك المقالة الناصحون بحجرات قومهم وقت اليهود واشتداد الازمات ، ومثل ان يشبههم الى سوء صنيعهم ونتيجة مخالفتهم وقت الوقوع في الهلكات ، فيكون تذكيرهم لهم اذ ذلك اشد تأثيراً في نفوسهم ، وامون على تقويم احوالهم ، ولم شعتم . اعتبر هذا فيما كان من اصحاب البستان اذ (قالوا) في جواب اوسطهم الذى كان نصح لهم : (سبحان ربنا اننا ظالمين) ، فانظر كيف اشتهر قوامهم فورهم بظلمهم المساكين ، وتركهم رد المشيئة الى الله ، وجاروا بتسبيحه تعالى وتنزيهه ، ولكن بعد حلول الليرة ، وخراب البصرة .

ثم بعد ان اقر القوم بذنوبهم ، ورجعوا الى الصواب في تنزيه خالقهم - اقبل كل واحد منهم على صاحبه يلومه ، ويزعم انه هو الذى اغراه بالمعصيان ، وحشه على التماضى في مخالفة الناصح او عدم الاعتداد بحقوق المساكين ، وتركهم اطاعهم من جنتهم . فيقول أحدهم : انت اشترت علينا بهذا الراى المكوس ، وبجيبه الآخر : بل انت خوفتنا الفقر وعاقبة الانفاق على المعوزين ، ويقول الثالث : انتم الذين لم تسمعوا قولى ولم تصفوا الى نصحي ، وهذا معنى (يتلاوهون) . ثم انهم لم يكتفوا باستقياح عملهم ، والوقوف به عند حد الاقرار بالباطل والتلاوم ، بل جعلوا يدعون على انفسهم البويل والهلاك ، وصرخوا بانهم جسد بيرون بذلك ، لما انهم كانوا (ظلمين) ، بل متجاوزى الحد في المخالفة والمعصيان ، وهذا هو معنى الظلميان . وهذا السخط على انفسهم ، واطلاهم لفظاعة عملهم ، وتصريحهم بانهم ظلموا وتجاوزوا كل حد - انما ارادوا به التوصل الى استئزال عفو الله ، والتعرض لنصفائه ، وان يوضحهم خيرا مما قفسوه ، ولذلك نسسمهم يقولون في ختام حديثهم (عسى ربنا ان يعطينا خيرا منها) ، اى نرجو الله ان يعوضنا جنة تكون خيرا من تلك الجنة التى يارت وتصحوت ، ثم قالوا انهم لا ملجأ لهم ولا مستثاب الا الله ، وهذا معنى قولهم (اتاى ربنا راقبون) ، لان فعل (رغب)

أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٠١﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٢﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٠٣﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا حَيَرُوا ﴿١٠٥﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتٌ
عَلَيْنَا بَلَاغَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿١٠٦﴾
سَلَامٌ أُولَئِكَ رِزْقُكُمْ ﴿١٠٧﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا
بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ

الذي عدلى (بنى) كان معناه إرادة الشيء ، والطمع في
الحصول عليه ، وإذا عدلى (بنى) كان معناه على
العكس أى الكراهة للشئ والتفرقة منه ، وإذا عدلى
(بالى) كان معناه الضراعة والإنبهال . وهنا قدم
الجبر والجور على الفعل فأفاد الحصر . ويكون
المتى أننا مينهلون ضارمون في قضاء حاجتنا ، وفي
أن يبدلنا خيرا من جنتنا - إلى ربنا لا إلى غيره .
ويكون هذا منهم منتهى التسبيح والإيمان ، بعد ذلك
الاجود والكفران . وهل يعتبر قولهم هذا توبة
نصوحا ينالون بها من الله العفو والإصفح والتعويض
من جنتهم ؟ لا يعلم كيف كان أمرهم في ذلك . وقد
سئل قتادة عنهم : أمن أهل الجنة هم أم من أهل
النار ؟ فقال للسائل : « لقد كلفني تعباً » يريد أن
الأفضل التوقف في أمرهم . ويمكن أن يقال أن الآية
التي ختم الله بها القصة تشتمل بالتهديد والوعيد معا
يدل على أن في توبتهم شائبة رياء ونفاق .

ف قوله : (كذلك العذاب) معناه أن العذاب الذي
ترسله في دار الدنيا على الطافين المخالفين ، والذي من
شأنه أن يؤثر في النفوس ازدجلا وإحصالا - إنما
يكون مثل ذلك العذاب الذي نزل بأصحاب الجنة
فأهلك حرهم ، وأباد خضراءهم ، ونقص حياتهم .
على أن عذاب الآخرة الممد لكل من طغى وبنى أشد
وأعظم من عذاب الدنيا ، فقالت الطافين - ومن
جملتهم مشركو مكة - يعلمون ذلك فيزدجروا
ويتعظوا . وهذا معنى قوله : (ولعذاب الآخرة أكبر
لو كانوا يعلمون) .

ومعنى هذه الآية أو القصة التي تضمنتها أن
الله تعالى عامل كفار قريش معاملة المبلى المختبر ،
ليظهر خالهم ، ويكشف عن موارهم . فهو تعالى قد
أبهمهم بأنهم ، وبسرهم أسباب الخيف والفساد
وليأن العيش ، فظفروا وبغوا وغفلوا عن القيام بأجر
الشكر نحو مغيض هذه النعم عليهم ، فكان ذلك

حالتهم حالة أصحاب الجنة حلو القلة بالقلة .
وقد ذكروا أن الوليد بن المغيرة الذي نزلت فيه
هذه الآية كان في سعة من العيش والرزق حتى
كانت له البساتين من مكة إلى الطائف ، ومن جملتها
بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، ثم ذهب كل
ذلك كمنى الدابر جزاء كفره .

أما البلاء الذي نزل بأهل مكة فهو الجوع والقطط
الذي دام فيها سبعين حتى أكلوا العظام والجيف .
ومن البلاء أيضا مأزول بهم في وقعة بدر من الأذى
والقتل والأسر والتصفيد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ
القرى وهي ظالمة إن أخذها اليه شديد) .

(المتقون) هم المسلمون الذين ادعوا لأمر الله
ونهيهِ ، واتقوا عقوبته باجتناب معاصيه ، وأداء
نرائضه . أما فريق (المجرمين) فهم الذين خالفوا
الفريق الأول ، فلم يدعوا ، ولم يتقوا ، بل جحدوا
وكذبوا ، واستكبروا عن اتباع الرسول وأبوا . وهم
الذين سماهم الكذابين ، ونهى نبينهم عن اطاعتهم
والخضوع لما داوروه عليه من أدهانهم ومصانعتهم .

هؤلاء الجرمن المكذبون من صناديد قريش كانوا
يسلكون في مقاومة البعثة وأفساد الأمر على المسلمين
كل طريق : طورا بالشدّة ، وطورا باللين . تارة بالجد
والتحكم ، وتارة بالهزل والتهمك . من ذلك قولهم
للمسلمين : ان صحح اننا نبعث في دار تانية كما
تقولون - فلن نكون حالكم وحظكم في تلك الدار
بأحسن من حالنا وأوفر من حظنا في هذه الدار . فإن
الذي فعلنا عليكم في هذه الدنيا ، وجعل حظوظنا
خيرا من حظوظكم فيها - هو الذي يسيده الأمر في
الآخرة ، فيفضل كذلك أو يساويكم بكم على الأقل .
يقولون هذا مد يرون ما هم فيه من البهنية والغنى
وسعة الرزق ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم
من القلة والشظف وضيق العيش . وهذا القول منهم
بالهزل والمغالطة ، أشبه منه بالجد والمناقضة (أى
رد الحجة بالهجة) ، والا فإن دار الدنيا ليست دار
ثواب وجزاء . وإنما هي دار عمل وإبتلاء . يعرف
فيها الطبع الخفي من المجرم الشقي . فمن شغله
أجرامه عن طاعة الله وممارسة الفضيلة ، والعسل
الطيب في هذه الدار - فهو محارب محروم في الدار
الآخرة مهما كان محدودا موسم الرزق في الدنيا .
ولا يضر المتقين الطمحين أن يكونوا متقوى الحظوظ
من حظام الدنيا ، لأن تحصيل حظامها يكون بأسباب
وطرائق كثيرا ما تيسرت للمسكين المأمنين الذين
يمارسونها ، وتيسرت على المتقين الطامحين الذين
يمرضون عنها . والفرد يرضاه الله وحول دار كرامته
في النشأة الآخرة إنما طريقه العمل الصالح وممارسة
الفضائل والاطاعت في هذه الدار ، ولا يكون بسعة
الرزق وكثرة الحظام وكثرة التيسار .

وهذا معنى قوله تعالى (أن للمتقين) الآية ، أى إن
للمتقين المسلمين لا لغيرهم من المسكين الجاحدين
جنت النعيم . تلك الجنت الكاملة في سعيها والتي
أشرف أحوالها ، وأكرم صفاتها ، أنها عند الله وبالقرب

منه سبحانه . . معهم تان في هذه الجنات الاخرية من صنوف النعيم التي قد تشبه من بعض الوجوه نعيم دنياكم ايها المكذبون - فان قربها من الله سبحانه، وكونها في جواره الاقدس - يجعلها ممتازة على غيرها، وحديرة بأن تكون للذين اتقوه وأطاعوا وأمنوا برسوله . فهل يتصور أو يحسول في نفس عاقل أن يجعل الله جنات قربه ، ومنازل كرامته - للمكذبين الجاحدين ، ويحرم منها المتقين المسلمين ، أو يجعلهم في حظوظها شرعا متساوين ؟ كلا ! ما لها بفعل ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : **(افنتجمل المسلمين كالمجرمين)** ، يعنى في الحظ والقسمه والكرامة والقرب منه تعالى . ثم عاد فأتى حامد العقل في نفوسهم بأسلوب آخر قائلا : **(مالك كيف تحكمون ؟)** أى أين ذهب بكم ، وكيف ضل ضلالكم حتى حكمتم هذا الحكم القريب ، فصلتم الأعداء كالأولياء ، وأحلتم الفجاء ، متناول الأبرار .

يظهر من سياق هذه الآيات وتلوين الخطاب في الرد على المجرمين ، وتخطئتهم في زعمهم - من أن لهم حظا من جنات النعيم مثل أو أوفر من حظ المتقين - أن أولئك الجرمين كانوا متشددين في حكمهم ، مصممين في رأيهم ، ولذلك وبهم الوحي أشد لوبيخ ، ورد عليهم أبلغ رد .

(نفوسهم) من درس الكتاب ، إذا أقبل عليه بقرؤه وتفهم ما فيه . وكان حق همزة **(أن)** في قوله **(أن لكم)** الفتح لكونها واقعة في مفعول ليرسون ، لكنها كسرت لدخول اللام في خبرها . و **(لغفرون)** اكدها تخيرون . من خبر الشيء واختصاره بمعنى أخذ خيره وأحسن ما فيه ، كما يقال تنظله وانتظله ، بمعنى أخذ منخوله وصرفته .

وقوله : **(أم لكم إيمان علينا)** ، أى أم عندكم الإيا وعهود ومواثيق ثابتة علينا ، كنا قدمناها لكم بدخولكم جنات النعيم مع المتقين ؟ يقال : **(لقان على يمين بكذا)** إذا كنت شمنت له ، وحلفت له على الوفاء به . وقوله **(بالفة)** أى مفظة مؤكدة متناهيته في الشدة ، أو المعنى أن تلك الأيمان تبلغ يوم القيامة كاملة والفرقة بحيث يقع البر بها من دون أن يحدث شيء منها . وجواب هذا القسم المحكى أثنى **(إيمان علينا)** هو قوله **(أن لكم لما تحكمون)** ومن ثم كسرت همزة **(أن)** ملان وقوع اللام في خبرها مما يقتضى كسرها أيضا كما قلنا في **(أن)** السابقة .

وقوله **(إلى يوم القيامة)** متعلق بالفاة أو بالظرف المستقر ، أى متعلق علينا ، أى إيمان استقرت وثبتت علينا إلى يوم القيامة . **(والزعيم عند العرب هو (زعيم) بمعنى كليل ، والزعيم عند العرب هو الضامن للشيء المتكفل به ، ويكثر استعماله في الذي يتكلم من القوم ويحث لهم ، ويحلى من حقوقهم ومصالحهم ضامنا لهم التبع والغلبة . يقول تعالى : الكرامة أيها المكذبون الزاعمون أن حظوظكم من دار الكرامة يوم القيامة مثل حظوظ المتقين أن لم تكن أوفر - كتاب سماوى أو غير سماوى يطعمن القلب إلى صحنه ، قائم تقرعون فيه هذه البشارة ، بن أن**

لكم أن تختاروا من حظوظ دار الآخرة ماتحسبون ، وتحلون من يحاسبها ومنازل كرامتها حيث تشتهون ؟ وهذا كقوله تعالى : **(أم لكم سلطان مبين ؟ فاتوا بكتابكم)** ، وكقوله : **(أم آتيناكم كتابا فهم على بينة منه)** .

بل إذا لم يكن لديكم مثل هذا الكتاب فهل كننا أقسمنا لكم قسما نحن مطالبون بالوفاء به اليوم ويوم القيامة ، وهو أن يكون لكم حكمكم يومئذ فنتعطيكم ما تتمنونه وتحكمون به لأنفسكم من مساهمة المتقين في النصائب ، ومزاحمتهم في دار ثوابهم وجزاءهم **(سليم)** باسمحمد **(إيهي بذلك زعيم)** : من منهم الريم والمردة الذي يمكنه أن يحتج علينا بأننا كننا أقسمنا لهم على تلك الزاعم التي زعموها ، وأعطيناهاهم الصود والمواثيق على الوفاء بها .

لم يدع الخطاب الإلهي ل هؤلاء المكذبين الجاحدين دليلا لا نقضه ، ففى أولا أن يكون لهم دليل مقضى على الأ قوضه ، ونفى أولا أن يكون لهم دليل مقضى على صحة ماذهبوا إليه ، فقال لهم : **(افنتجمل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ؟)** . ففى هذا القول رجوع إلى العقل وتحكيمه في المسألة ، ولاجرم أن العقل لا يحكم بأن المسلم الجاحم ، وأن السامعى له بمنزلة الطليع له في التواب والرقى منه تعالى . ثم نفى الخطاب الإلهي أن يكون لهم دليل نقلى بذلك فقال : **(أم لكم كتاب فيه ليرسون ، أن لكم فيما تخيرون)** . والقوم لم يكن أنزل عليهم كتاب يعتقدون صحنه ، يشترهم بأن لهم من منازل الكرامة ويحاسب السعادة مااختاروا وأجروا ، فالذا لم يكن هناك دليل مقضى ولا نقلى بقى الظن في أنه تعالى أتاني لهم أوامرا أن يعطيهم يوم القيامة مايحكمون ويشاؤون . وهذا أيضا لم يقع لأن رب الفرقة ذاته سبحانه ينهى أن يكون وقع ذلك منه ، وإذا كانوا يسمون وقومه فغن من زعمائهم يجرؤ على إجابته والاحتجاج له ؟

ولم يبق للقوم من حذر سوى قولهم : **(أن لهم شركاء)** يشهدون لهم ، ويذهبون مذهبيهم في أن لهم نصيبا مقروضا من جنات النعيم كما للمتقين . والمرد ب هؤلاء الشركاء : أما الأصنام والطواغيت التي يصليونها من دون الله ، وهذه خشب مسندة لانطق ولا تعرف كيف تثبت وجودها ، بل لا تصرف أنشا موجودة فضلا عن أن تشهد لغيرها ، ولما أن يكون المراد بالشركاء عقلاء البشر ممن درس الحكمة وتلقى تعاليم الأديان القديمة ففتتبع آثارها ، واستعمل أسرارها - ياتون يشهدون للبشر من من قريش بأنهم ناجون عنه الله ، وأن لهم حظا من جنات النعيم . فإله كليل يقول لأولئك المشركين : **(أن لكم شركاء يشهدون لكم هذه الشهادة فاتوا بهم أن كنتم صادقين في أنهم لديكم . لاجر أن الشركين لا شهداء لهم من هذا القبيل ، وبذلك تكون قدبطلت حججهم ، وانقضت معاذيرهم ، وحقت الكلمة عليهم . (يوم)** ظرف متعلق بقوله قبله **(فليأتوا بشركاهم)** أى إذا كان لدى أولئك المشركين المكذبين شركاء يشهدون لهم بأنهم ممن يدخل جنات النعيم مع المتقين فليأتوا

الى ان قال :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
فلاجل في هذا التعبير - اعني كشف الساق
مرادا به التدة والبول - ان يكشف عن الساق فالمعجل
عند الخطب واستعداد النازلة ، ثم كثر واستفاض حتى
صار يفهم منه استعداد الامر ، واستفحال الخطب ،
ولو لم يكن لمة ساعد ولا ساق ، ولا كشف ولا
تشمير .

وكذلك الشأن في كل ما ذهب مثلا من الجمل
والتركيب ، كقولهم : « فلان يده مفولة » كناية عن
كونه ممسكا شحيحا ، ومنه قوله تعالى (ولا تجعل
يدك مفولة الى عنقك) ، اي لاتمسكها من الانفاق كل
الامساك ، واصله اعتقال اليد بالفل وهو القيد ، فلا
تنطلق في العمل ، ولاتتصرف في بلل المال ، لكن هذا
التركيب (اعني مفول اليد) يستعمل في وصف
الخيال ولو كان اقلع لا يده ، ولا ولا يفلقا ، ومثل
ذلك ما حكي الوحي عن اليهوس من قولهم (يد الله
مفولة) اي مقبوضة عن امداد الرزق عليهم ، وهو
كناية عن وصفهم له باليخل تعالى وتقدس .

وهكذا استعمل (كشف الساق) في حصول يوم
القيامة ، يراد به الهول وفظاعة الامر ، وان لم يكشف
عن السوق بالفعل ، فان يوم القيامة - وان تكن فيه
سوق - لا ياب لبس ولا دلائل تكشف في ذلك اليوم
المصيب ، كما ورد الحديث في وصفه : « يحشرون
حفاة مراة غرا » .

واتما اطنا الكلام في هذا تنبيها الى ان افضل
ما يحفل عليه كلام الله المعجز من الاساليب ماعرف
عند بلقاء العرب وتداولته السنتهم ، وشاء استعماله
بينهم . والعدول عن هذا المعنى اكتنالى الى غيره -
كاقول بان المعنى : يكشف عن ساق (الرحمن) تعالى
وتقدس ، اعتمادا على بعض الآثار الواردة في ذلك ،
او عن ساق (العرش) ، او ساق (ملك مهيب) من
الملكالة - كل ذلك لا حاجة اليه بعد الشواهد التي
ذكرناها من اقوال فصحاء العرب ، وتختلف اساليبهم في
بلخ تراكيبهم ، مما يدل دلالة واضحة على ما قلناه .
ويكفي شاهدا تقليا عليه ان ابن عباس كان يقول في
تفسير يوم يكشف عن ساق (: يكشف عن امر
عظيم ، الا تسمعون العرب يقول : « وقامت الحرب
بنا على ساق » وتقول « كشف هذا الامر عن ساقه »
اذا صار الى شدة .

بقى ان يقال : وما ذلك اليوم الذي يكشف فيه
عن ساق وقد حوف الله به المكئين ؟ يوم القيامة
هو ؟ ام يوم من ايام الدنيا والتبادر من الكلام والمفهوم
من السياق انه يوم القيامة ، واي يوم يوصف بأنه
يكشف فيه عن ساق ، وان ابصار الجاحدين فيه
خاشعة ، وترهقهم فيه ذلة - غير يوم القيامة ؟

وذهب ابو مسلم الاسفهانى لمذهب في تفسير هذه
الآيات لا اراه بالبعد ، فقد قال : ان ذلك اليوم في
الدنيا ، لان الله تعالى قال في وصفه : (ويحشرون الى
السيجود فلا يستطيعون) . ويوم القيامة لا يدعى الى

ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ﴿١١﴾ خاشعة
ابصرهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود
وهم سايون ﴿١٢﴾ فذكرن ومن يكتتب بهذا الحديث
مستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴿١٣﴾ واسمى لهم

بهم في ذلك اليوم ، وهو يوم كشف الساق ، اي يوم
القيامة . وهذا يحكم بالمكئين واسارة الى ان معاذيرهم
وشفعاهم غير نافعتهم في ذلك اليوم شيئا .
او ان الكلام لائق له بالاتيان بالشر كراه ، واتما هو
كلام مستأنف يتعهد الله به المكئين للجرمين الذين
ذكر لئولحاجنا الوليد بن الغيرة ، ووصفه بقوله :
(ولا قطع كل خلاف مهيمن) وذكرنا في ان الوليد كان
يقول لبنيه وعشيرته كلما آتس منهم ميلا له صلى
الله عليه وسلم وارتيحا الى دعونه : « لئن بيع دين
محمد منكم احد لا اتفقه بشيء ابدا » مبدلا بشروته
وصمة رذقه . فهنا وامثاله بذكرهم الله تعالى بذلك
اليوم ، يوم كشف الساق واهواله العظيم .

و (كشف الساق) في كلام العرب يراد به اشتداد
الهول وعظم الامر . والاصل في ذلك ان المرء اذا نزلت
به نازلة ، او اهتم لمباشرة امر من الامور والمضى فيه
- شمر عن ساعديه ، او ادان لذاته (اطراف ثوبه
التدلية) في وسطه ، ومنه قولهم : « فلان كيش
الازار » اي مشمره ، قالوا : وهو مثل في الجد والمضاء
وقوة الارادة . يفعلون ماذكر من التشمير عن السواعد
والسوق منذ الشروع في العمل النجد ، ومباشرة ما بهم
من الامر ، ولا سيما ما فيه مخاطرة بالنفس ، كمنزلة
بطل ، او مصارعة اسد ، او اطفاء حريق ، او انتشارال
غريق . وقد يفعلونه يوم الخوف واللمر والهزيمة .
قال ابن قيس الرقيات يصف شدة :

لنهل الشيخ من بينه وتبدي

عن خدام العقيلة الصلراء

والخدام بكسر الخاء : الخلائيل ، واحدا بخسة .
فالصلراء انما تكشف عن ساقها في ذلك الوقت ليكون
ساعدا لها على التخلص والفراخ .

اما المعنى الاول فهو الامم الاغلب في استعمالهم ،
فيقولون : « قامت الحرب على ساق » اي اشتدت
وماطمت . وقال حاتم :

اخو الحرب ان مضت به الحرب مضها

وان شمرت عن ساقها الحصب شمرا

اي : وان اشتدت هول الحرب شمر لها ، واصطلي
نارها . وقال سعد بن مالك جد طرفة بن العبد في
ابيانته المشهورة :

والحرب لا يبتى ليحيا حنفا اليخيل والمراح
الا الصبار في الب نجلات والفرس الوقاح

الى عبادة ، ولا يكلف احد سجودا ، فلا جرم ان يكون ذلك اليوم الذى كتبت فيه عن سابق هو ايام المحر والشيخوخة ، او ساعات النزوع والحشجة التى تلم باولئك المكذبين على حد قوله تعالى (قلوا اذا بلغت الحلقوم) . هذا ما قاله ابو مسلم .

وحل معنى الآية صلى قوله هذا : اذكروا ايها العابدون المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم يوم الهول العظيم الذى ينزل بكم عند اخر يوم من ايام حياتكم : يوم يعول ذوكم ، وتندب ساقكم ، فيميزن ثيابهم ، ويقطعن شعورهم ، اذكروا اكم اذا دعيتن في تلك الساعة الى الايمان بالله والسجود له ، وقد ظهرت لكم امارات القيامة وصديق نبيكم الذى كنتم تكذبون به في حال صحتكم - فلا تستطيعون السجود ، لما نزل بكم من الموت ، وحل بجسمكم من الوهن والضعف ، في ذلك اليوم تضعف اوصاركم عن الحركة فتخشع ، ويضي وجهكم اللئ فتسفع . في ذلك اليوم تذكرون اكم كنتم تلمسون الى السجود وانتم صحيحون فادفون فتأبون وتستكبرون ، فادفوا اليوم ما كنتم به تكذبون .

فانت ترى ان حل الآيات على هذه الصورة لا مانع منه ، ولا منافي له ، لا من السياق ، ولا من الحقائق . اما حلها على ان المراد به يوم القيامة ، فالامر فيه ظاهرا ايضا . ويكون المعنى هكذا : على هؤلاء المكذبين ان يذكروا ذلك اليوم العظيم الذى يشتد فيه القرب ، ويفتح الخطاب ، يوم يوبخون على ما فرطوا في جنب الله ، وكلبوا من بعثه محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : هاكم قد تبين لكم صدق الرسول ، وما دعاكم اليه ، فقوموا فاسجدوا لله ويكم ، ان كنتم فاعلين !! ومن اين لهم الاستطاعة يومئذ على السجود وقد حيل بينهم وبينه بما علموا ان هذا كفر نافع في ذلك اليوم ، ولا الوقت وقته ، وان طلب السجود منهم انما هو طلب توبيخ وتعنيف لا طلب تشريع وتكليف . فتخشع اذ ذاك اوصاوم فلا تعود ترفع ، ويضي سواد اللؤل وجوههم بعد ان كانت يومئذ المظلمة والكبرياء تقوى وتلج ، ويدكرون انهم (كانوا يدعون الى السجود وهم سالكون) خالون من مثل هذه الموانع التى اعترضتم يوم القيامة فيستكبرون ، ويكتابها بكدبون ، فىاى حديث بعده يؤمنون ؟

كان صلى الله عليه وسلم يضيقي عنده احيانا من عناد المشركين وتكذيبهم له وصلحهم الناس من الدخول في الاسلام ، كما من من الوليد بن المغيرة الذى ذكر التنزيل طرقا من عناده وصدقه وسوء اخلاقه . وكثيرا ما شغل قلبه الشريف بالفكر فيهم ، والتجنى لو ان الله يكفهم شرهم ، ويكف عنه عاديهم . فكان الله تعالى يحض نبية على الصبر والبات ، ويذكره بما اتم الله به عليه من صفات التزم وعظيم الآلاء ، ويصف له ما سوف يلاقيه اولئك المشركون من شديد العذاب على تكذيبهم له واهراضهم عن الاسلام ، ويضرب له مثلا اخوانه من الانبياء والمرسلين وما لا قوا من عناد اممهم .

وكيف كانت العقابية لهم ، مسلما له ، وملقيا روح الرجاء والأمل في قلبه الشريف .

ومن ضرور التسليية قوله في هذه الآية - وكأنه قد آتس منه شيئا من التلق واضطراب القلب بشأن اولئك المكذبين وفرط مقاومتهم له - (فلنرى ومن يكذب بهذا الحديث) .

و (الحديث) القرآن والوحي والآيات التى كان يتلوها صلى الله عليه وسلم على المشركين مذكرا ومسلما . ومعنى (فلنرى ومن يكذب) دعنى واباه ، وفق بى ، وفوض امر الانتقام منه الى ، فانى كافيك ذلك ، وقادر عليه ، وعالم بطريق الوصول اليه . فارح نفسك من جهته ، ولا تشغل قلبك به . وفي هذا الأسلوب من تهديد المكذبين وتخفيفهم ما فيه .

وكان قائلا يقول : وما انت صانع بهم يارب ، وعلى اى طريقة من طرائق الأخذ والنكال تسير بهم ؟ فقال : (سنستخرجهم من حيث لا يعلمون واملى لهم . الخ) و (الاستخراج) ان نزل بالرد درجة فدرجة الى حيث تريد به . فقوله (سنستخرجهم) سننتقل بهم من طور الى طور ، ومن حالة الى حالة بعجيب مظاهرها ، لم لا يشعرون بما خبيء لهم في طيها ، حتى يردوا العذاب ، ويتورطوا في الشقاء .

وقوله (واملى لهم) اى امهلهم واؤخرهم ، فيكون مشتقا من (الملاء) وهى البرهة من الدهر ، ويكون المعنى : اتى افصح لهم في اعمالهم ، وانسا في اجالهم برهة من الزمن ، لم ازل معنى انتقامي اخيرا .

ويحتمل ان يكون معنى (املى لهم) ادخلى لهم العنان : يسرحون ويمرحون كما يشاءون ، ثم لا يشعرون بأنفسهم الا وهم في العذاب والبلاء متورطون ، فيكون (املى) على هذا مشتقا من (الملاء) وهو التسرح من الأرض . يقال : امليت البحر اذا وسعت له في قيده أو زمامه . وادخيته له بحيث يسهل عليه الرعى انى شاء .

وكلا التفسيرين (الاستخراج) و (الاملاء) ، تمثيل لتأخير انتقام الله من اولئك المكذبين ، وتمتيعه اياهم بالصحة والبين والرزق ورفد العيش والوان التمتع ، فيشغلهم كل ذلك من النظر في آيات الله وابتناس الرسول والايمان به . وقد قامت لديهم الأدلة وتكاملت حجج الله على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم سادوا في غفلتهم هذه حاسبين ان تأخير العذاب عنهم ، وانساء حلول البلاء بهم ، لربة فيهم اقتضت ذلك ، بل ربما ظنوا - كما أشار الله في الآيات السابقة - ان سيكون لهم يوم القيامة نصيب من بعاث الجنان كما يكون المسلمين المتقين بحجة ان هؤلاء لا يفضلونهم بشيء ، وانهم هم لو لم يكونوا على خير وزلفى من الله لما تمتعهم بمسنوف التمتع ، ورفد العيش ، والمذاق المعمر . ويقون هكذا في غرورهم ، وغفلتهم عن سنن الله في خلقه ، ومثلا في الآام قبلهم حتى تنزل بهم آتياه تلك الملائكة بغنة وهم لا يشعرون ولا ينتظرون ، وهذا معنى قوله (من حيث لا يعلمون) .

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ عَلِمَ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتَبُونَ ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿١٨﴾ لَوْلَا أَنْ نَدِدَكَ رَحِيمَةً مِنَّا

وهكذا كان شأن مشركي العرب الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا نبوته ، قائم ما زالوا في فيهم ، ولوط منهم ، حتى نزل بهم البلاء بغير وبقية المواطن ، لم كان الفتنة وظهور الاسلام . وقد سمي الله تعالى تأخير العذاب عنهم ، وتمتعهم بالصحة والرزق وطول العمر - وهو في طي ذلك قد قدر عليهم الشقاء ، وأرصد لهم الانتقام - مياه (كيدا) لمشابهة الكيد في الظاهر ، والا فان الكيد من صفات الماخذ الذي يحتال على عدو له قوى لا يقدر على مباداته بالبطش ، ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقسا ، ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب جبال الشر حتى يقع فيها ، هذا هو الكيد ، والله تعالى منزه عنه ، وأما الكلام تمثيل ، وتسمية الشيء باسم ما يشبهه ، وما هو في صورته .

(الفرم) و (الفرامة) ان يلتمز الانسنان اداء ما ليس عليه ، فيعطيه وهو كاره ، و (واقله) حمله شيئا ثقيل ، والوارد من (الغيب) ما ليت في الغيب ، وقدر في علم الله ، وقوله (يكتبون) أى يكتبون ذلك المقدر في الغيب ، ويتسبحون منه ، ويقرؤه بعضهم على بعض احتجاجا به واستنادا اليه ، و (ام) للأضراب والانتقال من حديث الى حديث آخر يعبر بالمخاطب ان يفكر فيه ، ويهتم به اشد من اهتمامه بالحديث الاول ، كان الحديث يقول : دع هذا الذي حدثتك به واسمع ما هو أصعب ، وأقرب وأولى بالاهتمام .

والخطاب الإلهي بعد ان هدد المشركين المكذبين ذلك التهديد المخيف مد قال تعالى : (فلترى ومن يكذب) اصبح من المحتمل او المنتظر ان يكون قد خامر أولئك المكذبين خوف أو خشية مهبطت في نفوسهم طريقا لقبول الحق ، وموضعا للتأثر بالوظف والأرفساد ، فخرج الوحي الى الآلة القول لهم بما يشبه العتاب ، لتحريك عاطفة التناصف في قلوبهم ، فقال تعالى : (ام تسألهم الخ) أى بل العجب من كل ذلك يا محمد ان القوم يايون قبول ما اتيتهم به من الحق والهداية حتى تلك طلب منهم عليها أجرا يبهظهم ، وينقل مواضعهم .

ثم يجب من حالهم بأسلوب آخر يقال : (ام متدبرم الغيب فهم يكتبون) ، أى اذا كانوا لم يظنوا انك تتقاسمهم أجرا باهظا ، فلم يهابدون كل هذا

العناد ؟ اعندهم اطلاع على علم الغيب ، وما اثبتا في اللوح المحفوظ ، فهم يتسبحون عنه من شروب الحجج ما يساعدهم على النجاة والتفت من البتة ، ويضمن لهم الفوز ودخول جنات النعيم مع المتقين !! وإلى هنا يدون قد انتهى الكلام مع أولئك الجاحدين بما يفهمهم ، ويقطع حججهم ، ويجعل الحوار معهم خريبا من الميت والظفر ، فلم يسبق الى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وحله على الصبر والاعتصام بالله في انجاز وعده ، وإتمام امر دعوته ، فلا يل ولا يفسح ولا يكون منه ما كان من سيدنا يونس النبي عليه الصلاة والسلام . وقد قص الوحي علينا في هذه السورة موجزا من خبره فقال : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) الآية . (حكم الله) الذي طلب تعالى من نبيه ان يصبر عليه هو الاملاء للمكذبين وتأخير انزال العقوبة بهم حسبما اشار الله بقوله (سنستدرجهم) (وأملئ لهم) . وقيل ان تعقبا لما آذوه صلى الله عليه وسلم ، وسلطوا عليه عبيدهم وارشادهم ، أراد ان يدعوهم ، فانزل الله عليه (فاصبر لحكم ربك) أى لاتعجل في الدعاء على القوم بالعذاب ، وأصبر حتى يحين وقته المقدر .

وذهب جمع من المفسرين الى ان (حكم الله) الذي كلف تعالى نبيه (الصبر عليه) ما كان من رمة التبل في رمة احد : من مخالفة امره صلى الله عليه وسلم ، واكتشاف آخرين عنه ، حتى هم من اجله بالدعاء عليهم ، فنهاه ربه قائلا له : (فاصبر لحكم ربك) ، فان ما فعلوه حكم قضاء ربك تعالى ، وفي طي فعلهم حكم واسرار ، فاصبر ولا تعجل . غير ان قوله تعالى لنبيه : (ولا تكن كصاحب الحوت) وهو يونس النبي عليه السلام ربما ايد القول الاول ، من ان المراد يحكم الرب هو مناد المشركين ، وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخير نصرته عليهم . وان خبر يونس مع قومه ، ومفاضيته بسبيهم ، وشقيق صدره من متادهم ، وعلم نزل العذاب بهم - يشبه بعض الشبه امر نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه . فانهم لجأوا في مقاومتهم ، واكثروا من مكابذته ، واتهموا بما كان يوعدهم به من العذاب - فكان صلى الله عليه وسلم يرى أحيانا ان قد حان الوقت لحلول عقوبة بهم تفسح الطريق امام الدعوة وانتشار الاسلام ، وآونة كان يضيق صدره الشريف من تأخر ذلك عنهم ، غير ان الحق تعالى قال له أولا : ذرني وأياهم ، وفق باتى قادر على اهلاكهم ، فاحر قلبك من هذا التقبل ، وقال له تانيا : ان اربك سننا حكيمة لاتفتير في أمثال هؤلاء الامم المكذبة ، فاصبر لحكمها يا محمد ولا تعجل ولا تقضب ولا تكن كالنبي يونس . ثم وصف تعالى لنبيه مواقف يونس مع قومه قائلا : (اذا نادى وهو مكظوم) ، أى لانك مثله في الضجر والمفاضية وقت ان رفع صوته بالدعاء على قومه ، وهو مغموم مملوء غيظا منهم ، وهذا معنى قوله (مكظوم) ، فاته اسم مفعول من كظم غيظه اذا رده وجبسه ، واصله من كظم السقاء اذا ملاه .

ثم إن الله أخبر بأن يونس (تباركه) في آخر الأمر (نعمة من ربه) ، وهي لطفه به مذ وثقه إلى التوبة والإنابة ، فغفا عنه ، واستخلصه لنفسه ، وقال : أنه لو لم تتداركه تلك النعمة (من ربه لنبت بالبراء) وهي الأرض القضاء لا سائر فيها (وهو مغموم) ، أي ملوم على ما كان منه ، لكنه لما تاب نبذ الحوت بالبراء من دون أن يكون مغموما . وقد قال تعالى في سورة الصافات بشأن يونس أيضا (فالتقمه الحوت وهو مليم) ، أي التقمه وهو متلبس بما يلام عليه . وقال في سورتنا هذه لولا أنه تاب (لنبت بالبراء وهو مغموم) فأفاد أنه حينما نبذ الحوت لم يكن مغموما وهو بمعنى لم يكن مليما أي لم يكن مستحقا لوم . فهو صلوات الله عليه دخل بطن الحوت ملوما ، وخرج منه غير ملوم ولا مدموم ، فالعمدة في جواب قوله (لولا أن تتداركه نعمة) ليست هي قوله (لنبت بالبراء) إذ لو كان التنب بالبراء هو العمدة لأفاد أنه لم ينبت منه غير هذا بالفعل ، وإنما العمدة في الجواب هي الجملة الحالية ، وهي قوله : (وهو مدموم) ، فالتنب في البراء حصل ، ومشاركة النعمة ليونس كانت في توبته ما كان يبطل الحوت بحيث كان وقت أن نبذ الحوت غير مدموم ولا ملوم .

ولفظ (النعمة) ثابته غير حقيقي ، وقد فصل بينه وبين فعله بضمير المفعول ، ولذلك جاز تذكر فعله فقيل (تداركه) ، على أن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما قرأها (تداركه) بالثاء .

وقوله : (فاجتاه ربه فجعله من الصالحين) معناه أنه تعالى بعد أن تداركه بنعمته اصطفاه لتبوءه وجعله من الصالحين أي الاتيأب الرسولين الصالحين بما أمرهم وبهم ، والمتنهن مما نهاهم عنه .

قلنا إن الوحي قص ملينا خبر يونس في هذه السورة بموجب من القول ، لكنه في مواضع آخر من القرآن ذكره بأكثر أساليب ، وهذا نحن نورد الخبر بإطرافه مقتصرين فيه على ما ثبت وصح في النصوص من دون حكاية ما زاده القصاص :

انفصل نبي الله يونس من قومه مغاضبا فلما أن الله غير مؤاخذه له ، وظل سائرا كهية الهارب حتى بلغ شاطئ البحر ، فركب سفينة مشحونة للسفر . وفي أثناء سفر هذه السفينة في البحر جرى من الأمر ما أدّى إلى الاقتراع والمساهمة بين ركابها ، فوقعت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه في البحر ، فالتقمه أحد حيتانه ، ولم يخبرنا الوحي عن سبب خروجه من قومه مغاضبا ، وإنما أشار تعالى بقوله : (فظن أن لن نقدر عليه) إلى أن غضب يونس لم يكن موشيا له تعالى .

لما الاقتراع بين ركاب السفينة الذي ألجا يونس إلى إلقاء نفسه في البحر ، فسببه - والله أعلم - احتفاظ السفينة بركابها وإبقائها ، وغلبة العواصف واحتلاج الأمواج إليها ، فرأى أهلها أن يخفوا عنها فاتقوا إبقائها ، ثم لما لم يف ذلك بالاجابة ، اضطروا أن

يلقوا بعض الركاب أيضا وراوا من العدل أن يقتربوا بينهم على من يلقونه ، فأصاب القرعة يونس ، فألقى نفسه مكرها أو مختارا . ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه ، والتقام الحوت له - أثرا من آثار الاتفاق المحض ، وإنما هو لعمرى الله من أكار المشيئة الإلهية : ليكون ذلك جزاء لغاضبته ، ومنهبا له على فعلته . ثم إن يونس استغفر في بطن الحوت ، وتجدد بالكلى من عالم الأسباب إلى عالم الملكوت ، وشعر بغطر ما هو فيه ، وخطأ ما كان منه ، انتبه إلى وجوب الرجوع إلى ربه بالتوبة والإنابة ، فرفع صوته في تلك الظلمات قائلا : (لا اله الا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين) . وكان المعنى في هذه الاستغارة : أي يارب قد ظلمت مذ غفلت من بعض سننك الكونية في إيمان الأمم وجوعدها ، وانحطاطها وصعودها ، واتعاشها وخمودها فسألتك لأمتي « أهل نينوى » مالم تجر عادلتك به ، وما هو مدارب لسنتك الصالحة ، ومشيئتك القدسية فسقتني يارب إلى هذه الظلمات ، وجعلتني في هذا القبر المتحرك قبل إبان المات ، منيها لي بذلك إلى أن تأخير انتقامك من قومي لم يكن ضعفا منك ، ولا مجزا من تبديل السنن والنواميس الكونية ، وإنما هو أطراد لها ، فلا يخل نظام الكائنات ، وتبنيه للبشر إلى لزوم أمرائها ، فلا يتسلفون التناجات ، أو يتقون في الضلالات ، وأنت يا يارب إذا شئت فرت سنن الكون ونواميسه ، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم في الجسد ، مذ حفظت على حيالي ، وديرت لي معيشتي وأنا في بطن الحوت ، فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس ، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين ، خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه .

وقد ذكر الله في كتابه في تمة خبر يونس هذا : أنه تعالى لي دعوته ، وقبل توبته ، ولولا ذلك لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة .

وقد ألم تعالى ذلك الحوت فنبت يونس إلى ارضي فضاء لا ستره سوى شجرة من فصيلة النيات التي لا ساق لها مما يمتد على وجه الأرض : كاقنات والبطيخ والقرع ، وهو الذي غلب عليه في إيمان اسم البقطين ، فلما علم أبة ذلك كانت تلك الشجرة البقطينية . غير أن قوله تعالى (وانبتنا عليه) يشير بأن تلك الشجرة قد تعرضت على قائم شخاص، كجذع شجرة مثلا بحيث أمكن ليونس أن يأوي إليها ، ويستقر تحتها . ويشير السياق إلى أنه قد انتفع بها ، ولم يصح الكتاب بأنه الطرائق كان ذلك الانتفاع . ولعل قوله (فنبتناه بالبراء وهو سقيم) يشير إلى أن الانتفاع كان علاجاً لسقمه . ثم إن يونس رجع بعد ذلك إلى قومه الذين فارقه مغاضبا قاتموا به ، ولقوا الهلالية عنه ، حتى أذن الله بانقراضهم .

هكذا هو خير سيدنا يونس حسبما أخذناه من النصوص الصحيحة ، وليس فيه ما يستبعد وقومه

رَبِّهِ لَنُبَيِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ ۖ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ يَوْمَ تَصُفُّ الْأَشْقَابُ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّ جَهَنَّمَ خَالِدَةٌ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَلَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

الهم ألا التقام الحوت له ، ومكنه في بطنه حينما من الزم حيا يرزق ، ثم نبهه في ذلك الفضاء .

على أنه ان حق لأهل القرون الماضية ان يستمدوا خبر صاحب الحوت ، فلا يحق لإنعامنا ذلك الاستعداد ، بعد أن رأوا بأنهم سبح الكثرين منهم في بطون القواصات أباما متطاولات ، تحت الجسار الطاميات ، وطيرانهم مثل ذلك في اجواز السموات . فالله الذي خلق العقل البشري ، ومهد له سبيل الوصول إلى مثل هذه العجائب ، ألا يكون قادرا على أن ييسر حصول مثله لمبده يونس بعرض الأسباب التي لم تول مجهولة لنا ؟

هذا ما نقوله للتسائل المتعجب . أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بما ورد في الكتاب مادام أنه غير محال في العقل ، ونرى أن الارتياح فيه لخالفه نواويس السادة المعروفة اليوم لا يليق بمسلم يعتقد بخالق هذه السادة ، ومبدع تلك النواويس .

أما ما رويته الأسفل القديمة من خبر يونس الذي سمي « يونان » فهو أنه من بني إسرائيل من قرية « مشهد » على مقربة من الناصرة ، قد أرسله الله إلى الآشوريين في ليتوي نحو سنة ٨٢٥ قبل المسيح ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فتقامس يونس عن الذهاب إليهم ، بغضا فيهم ، وذهب إلى بابا « فركب سفينة متنافرة إلى طرسوس » - ترسيس » ، فأثار الله عليه أنواء البحر قصاصا له . فلما ألقى التوبة القرعة ليعرفوا من هو السبب في هذه المصيبة وقعت القرعة على يونس ، فاعترف بدينه ، وقال لهم القوي ، قاتلوه ، فابتمه نوح ، وصلى وهو في جوفه صلاته المعروفة ، وبعد ثلاثة أيام قذفه الحوت إلى البر ، وكرن الله عليه الأمن بالذهاب إلى نينوى وإلزام أهلها بدينهم ، وألزامهم الهلاك بعد أربعين يوما ، فقاموا وتابوا ، فمعت الله عنهم الهلاك المؤمرد ، فغضب يونس لظنه أن ربه جعله كاذبا في نظر الآشوريين ، أو لأنه تعالى مفا من القوم . ولم يعلمهم ، وخرج يونس من نينوى ، واتخذ لنفسه مظلة جلس تحتها ريثما يرى ماذا يصيب المدينة ، فأنبت الله بقطيعة عرشت

على الظلة ، ووقته حر الشمس ، فسر يونس بها لكنها لما يست ، ولله العز ، فمضى لو مات واسراح ، فأوحى الله إليه : « يا يونس ! استجب على البقطة ، التي لم تريب ، ولم تسمع عليم . وهي بنت ليلى ، أملا في أنا على بيوت المدينة العظيمة التي فيها انتنا منيرة ربوة (١) من أناس لا يعرفون بعينهم من شعابنا ، عمدا ما فيها من البهائم الكثيرة » !!! فدخل يونس من هذا الجانب ورجع إلى بلاده ، فاضل مع أمه في محل قريب من « صور » حتى مات ، وبين بيروت وصيدا اليوم مزار يقال له « النبي يونس » وعلى مقربة من نينوى تل يسمى « تل النبي يونس » و « تل التوبة » .

قالوا : وأما الحوت الذي ابتلعه فلا يعرف نوعه ، وذهب الكثيرون إلى أنه من النوع المسمى طس البحر ، وقد عثر على واحد من هذا النوع عند سائر بيروت طوله عشرون قدما كما عثر على واحد آخر في جزيرة القديسة « مرفيت » في فرنسا وفي بطنه فرس كامل الأعضاء - فلا يستغرب إذن أن يبلغ الحوت المذكور يونان النبي هـ .

وفيما ذكرته هذه الأسفل من خبر يونس ما لا يجوز لنا معشر المسلمين التصديق به مثل امتناعه عليه السلام من تبليغ الرسالة إلى الآشوريين بغضا فيهم ، ومثل غضبه على ربه لأنه عفا عنهم .

(أن) هذه هي المؤكدة ، كانت مشددة فخفت ، ويعد التخفيف بطل عملها وبقي تأكيدها . واللام في (لئلقونك) هي اللام الفارقة الدالة على كون (أن) هذه مؤكدة لا نافية .

ومعنى (يلقونك) يجعلونك تزلزل وتزلزل : زلقت قدمه زلت ، وزلقه غيره وأزلقه أزله ، والموضع الذي تزلزل فيه القدم وتزلزل يسمى « زلقا » و « زلا » . (لئلقونك) قرى ثلاثيا ورباعيا . وهما بمعنى واحد كما قلنا . وأزلق فلانا بصره نظر إليه نظر مستعطف كاره ، كأنه من شدة التحديق إليه وفطرق القاء النظر الشزور عليه يكاد يزل قدمه ويرمي به فتلك النظرات الممتوية أصبحت لشدها وحدها كأنها مادية محسوسة ، تصيب الشخص فتدفعه دفعا ، لم تصره صرعا . ومنه قول الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا في موطن
نظرا يزل مواضع الإقدام
والضمير في (سمعوا) يرجع إلى الكافرين المكذبين المتحدث منهم من أول السورة . و (الذي) هو الروح والقرآن ، وسمى ذكرنا لتضمنه موعظة وتذكيرا وأرشادا .

(١) الروية بكسر الراء الجملة المطلوبة من الناس لحر عشرة آلاف . أما الروية بفتح الراء فهي من اصطلاح الصاب اليوم عند تجار . والكرة منهم مائة ألف . اللؤلؤ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝

(الحاقّة) ثابت الحاق ، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حقّه وأوجبه وأبنته . وإذا كان معنى (الحاقّة) ما ذكرنا كان لها موصوف ومفعول مخلوفان . والتقدير الساعة الحاقّة لأمر الحساب ، ولما يتلو ذلك من الثواب والعقاب . فتلك الساعة - وهي يوم القيامة - تحقق كل ذلك وتثبت بحيث لا يعود يقع فيه رب للمرتابين ، ولا تلمة للمكذّبين . ويقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه : « أنا أحقّ لكم بهذا الخبر » أي أعلمه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن (حق) التلاوي يكون متعلّيا بمعنى حقّ يكون لازما بمعنى وجب ولبت وتحقق في نفسه ، ومنه (حقّت كلمة ربك) و (حقّت عليهم كلمة العذاب) أي وجبت ولبت . ويجوز تفسير (الحاقّة) في آية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع . وقد أصبحت (الحاقّة) اسما من أسماء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصولها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، ثم غلب استعمالها أسماء بل أصلا يوم القيامة .

وقوله (ما الحاقّة ؟) استفهام بقصد به تهويل تلك الساعة التي سميت الحاقّة ، كأنها لفراية أمرها ، وفظاعة هولها أصبحت النفس من دهشتها تتسائل منها قائلة : « ماهي تلك الحاقّة ؟ » ، وهذا كما إذا فاجأ المرء مصاب فادح ، فاتهيلت إلى جلبيه قائلا : ما هذا ؟ مع أن المصّاب يكون معلوما لهما ، بل يكون أحيانا تحت موارع إصراهما .

وكان الظاهر أن يقول « ماهي ؟ » مكان (ما الحاقّة ؟) لكنه عدل منه إلى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل إلى الاستفهام . أما أمرها فهو : فالخاقّة مبتدأه ، وقوله (ما الحاقّة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقّة مبتدأ مؤخر ، والجملة منهما خبر للحاقّة الأولى ، والحاقّة الثانية بمنزلة الضمير والكتابة عن الحاقّة الأولى ، كأنه يقول « الحاقّة ما هي ؟ » كما يقال : « زيد ما زيد ؟ » أي أن أمره عجب ، ومثل الآية في الصلوات إلى الظاهر قول أم زرع في حديثها المشهور : « أبو زرع وما أبو زرع » ، أم أبي زرع فما أم أبي

أمر الله لثيبه بالصبر ، وانتظار حكم الله في أعدائه الذين يوقعون به الفتنة ، ويتقاولون عليه الأقاويل ، ووعظه بالا يكون كصاحب الحوت في الصخر وحب الانتقام من قومه . ولما جاء إلى ختم السورة ختمها بما يذكر بغايتها ، ويربط نهايتها ببدايتها ، فكانت هذه الخاتمة كفلدة الحساب ، تجعل ما تقدمها من التفصيل والإسهاب .

وبيان ذلك أن الله تعالى نفى في أول السورة من نبيه ما يرميه به مشركو مكة من الجنون والقتون ، حينما يسمعون منه تبيين عبادتهم ، والتهكم بالهتهم ، وما كان يفلحهم به من البعث والحساب ، والجنة والنار ، وفرب أوصافهما . فكانوا يثيرون عليه صلى الله عليه وسلم جلبة وضجيجا ، ويصفونه بما هو براء منه ، لتصرف قلوب الناس عنه ، ولا يألون في تكذيبه والتكلم ما أتاهم به من الوحي والقرآن . وكانت جميع آيات هذه السورة حوارا وجدلا مع أولئك المكذّبين ، وقد تضمنت من أساليب التذكير بلبفها ، ومن الأمثال اقربها وإعجبها ، قصّة أصحاب الجنة : ضربهم الله مثلا للمكذّبين الذين كفروا نعمة الله عليهم ، وكخبّر صاحب الحوت : ضرب الله مثلا لثيبه صلى الله عليه وسلم ، يحذر فيه أن يفعل فعله . ثم عاد لنقطة أصل الدعوى ، وإثني بتتبيجة

مافصل من القدمات ، فقال : (وأن يكاد الذين كفروا ليزلزلوك) الآية . والمعنى أن المكذّبين إنما يفضونه صلى الله عليه وسلم ويحسدونه على ما اختصه الله به من الوحي ، وآثره من النبوة والكرامة . فهم حينما يسمعون منه الذكر ، وهو القرآن يتلوه عليهم منلرا ومحلرا ، كانوا يوجهون إليه من شدة الفيزظ والحنق نظرات أصبحت من حدتها وقوتها بحيث تكاد تصرمه صلى الله عليه وسلم ، وتلقيه على الأرض . وهذا من البلف ما يقال في وصف نظر الفيزظ والمخذ . وقوله تعالى (ويقولون أنه مجنون) أي يحسدون

محمد صلى الله عليه وسلم على ما أوتي من فضيلة الوحي ، وكرامة النبوة ، وهم مع هذا يقولون عنه أنه مجنون . وهذا القرآن الذي جاءنا به من المهيذيان الذي يهذي به في جنونه ، كيف يتفق هذا القول مع نظرهم الدالة على شدة فيظهم ، وفرط حنقهم ؟ ! وهل تشغل النفوس بالمخذ والحسد ، وتسجر القلوب بشار الفيزظ والمخذ على المجانين إلى هذا الحد ؟ كلا ما هو عليه الصلاة والسلام يمجنون ، وما قرأه والوحي المنزل عليه بهذين ولا فتره ، (وما هو الا ذكر للعالمين) . والمشركون يملكون ذلك ، لكنهم من فرط حسدهم وعداوتهم وحيرتهم يريدون أن ينفروا الناس من صلى الله عليه وسلم ، ويصرفهم من الإصفاء إلى ما أتى به من الحكمة والهدى والحق ، فلم يجدوا أسهل من أن يقولوا : أنه - وحاشاه - مجنون .

كَتَبَتْ نَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ❶ فَأَمَّا نَمُودُ فَأَهْلِكُوا
بِالطَّاعِغَةِ ❷ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ❸

زرد ؟ » ، « ابن أبي زرد فما ابن أبي زرد ؟ » وهكذا
والمعنى أن أمر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحي فاستفهم معجبا من أمر الحاققة على
أسلوب أبلغ فقال : (وما أدراك ما الحاققة ! !) كأنه
يقول : أنه لا أحد يدري أمرها ، أو يقدر أن يحيط
وهي بما هي عليه من الغمضة ، وجلالة الشأن . وإذا
كان الخطب في (وما أدراك) لطلق انسان ، الشامل
للممكنين القليلة - يكون فيه تعريض للكذب ، وأنه
يكذب بما لا يعلمه ، ولا يقدر على اكتناه أمره .
والاستفهام في هذا الأسلوب جار على عادة العرب في
التخاطب ، ولا أن العلم الخبير سبحانه وتعالى
لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتي الوحي على وصف تلك الساعة
واخبارها ، وما يكون فيها لقريني الأبرار والفجار -
ذكر المخططين موجزا من أخبار بعض الأمم الماضية
الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين
بها من مشركي العرب ، فقال : (كَتَبَتْ نَمُودُ وَعَادُ
بِالْقَارِعَةِ) ، وكان الظاهر أن يقول مكان (بالقارعة) :
(بها) ، أي بالحاققة ، لأن الحاديت عنها ، وكذب عاد
ونمود إنما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها إلى اسمها
الظاهر توصلا إلى نعتها بوصف آخر غير (الحاققة)
وهو أنها (القارعة) التي تفرق القلوب بهجومها ،
ومفاجأة أهوالها .

و (القرع) ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء
مثله ، يقال : قرع الباب والتافوس ، وقرع رأسه
بالمصا ، وقرع السهم الهدفه ، وهكذا ، وإذا فجا
الهل القلب اضطرب ووجب كان قارعا قرعه . على
أن الساعة كما تفرق القلوب والتفوس بالافزع ، تفرق
الأرض والسموات بذلك والتسف والانصداع ، فهي
القارعة بمعنى الأمم الأضل .

و (نمود) و (عاد) من قبائل العرب البائدة ، وكل
هذه القبائل عند العرب من نسل آدم ، فهم آدميون
أي أنمايون كما نسميهم اليوم ، ويقولون « عاد آدم »
و « نمود آدم » فيبينوا لهم بهذا الوصف من غيرهم ،
أو كشفاء لهم ، فيعرف به نسيهم .

وفي التوراة أن عادا ونمودا تنسبان إلى آرام بن
سام بن نوح عليه السلام ، فنمود جد قبيلة نمود
هو ابن « جاشر بن آرام » ويسميهما مؤرخو العرب
« كاشر بن آدم » ، وعاد جد قبيلة عاد هو ابن « موص »
ابن آرام .

وكانت القبلتان تسكنان اليمن ، ثم أن ملوكها
الحميمين طردوا نمود منها فسكنت الحجر من بلاد

الحجاز في وادي القرى بطريق الحاج التمام إلى مكة
وغمر بها السكة الحجازية ، وهي مدائن صالح المشهورة
ذات البيوت المنحوتة في جبال ننتا في قاعة الإحلام
وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور
الإسلام .

وقد أرسل الله إلى قوم نمود سكان هذه المدائن
نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام . وكان
صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، يمشي
حافيا ، ولا يتخذ حذاء . ويعيش متسقا فلا يتبوا
مسكنا ولا يئنا : ثم إن تومعه كذبوه ، وعفروا ناقته ،
وأغفروا في الكفر والجحود حتى أهلكهم الله . وقد
قص تعالى علينا أخبارهم في غير موضع من كتابه ،
وذكر في هذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

أما أبناء عميم (عاد) فكانوا يسكنون الأححاف من
بلاد اليمن ، والأححاف في اللغة الرمل المستطيل الموعج ،
وهذه الأححاف كانت ممتدة في بلاد حضرموت بين
عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب
جنوبا . ويوجد في تلك البلاد على كثرة رمالها جبل
وأودية من أخصب بلاد الله ، ذات مياه وأشجار
وزروع ، لاسيما في نواحي حضرموت والشحر من
بلاد اليمن ، وكانت « عاد آدم » تسكن في تلك الجهات ،
وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة لفظوا ونفوا ،
فأرسل الله إليهم هودا عليه السلام ، فهدوهم
وأنفروهم ، فكذبوه ونردوا عليه ، ثم إن من أمر
هلاكهم أخيرا ما فاض الله علينا في هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم (١) أن مؤرخي اليونان
ذكروا في جملة قبائل اليمن حوالي ميلاد المسيح
قبيلة يكتبونها بلفظتها هكذا (Adramtal) أي
العادراميون ، ولا غرو أن يكون العادراميون هؤلاء
هم الذين ساهم العرب « عاد آدم » أو « عاد آرام » .

قالوا : وأما قبيلة نمود فذكرت في جملة البلاد
التي غلبها « سرجون » ملك آشور سنة ٧١٥ قبل
المسيح ، وكانت بجوار مكة في الجهة الجنوبية من
مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان نمود حوالي زمن
المسيح وبعبده ، وجملا منازلها المدائن المذكورة ،
ويسمونها نمودي (Thumudai) .

ودخلت « مدائن صالح » في حوزة ملوك بطرا « أو
البتراء وهي وادي موسى » قبل المسيح ، وقد وجد
على أطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا
المعنى ، ودونك هذا المثال من تلك الكتابات بالحرف
النبطي ولغريه حوالي عهد المسيح :

« هذا القبر الذي بنه ككم بنت وائلة بنت
حرم وكلية ابنتها لأنفسهن وذريتهن ، في شهر طيبة
من السنة التاسعة للشر ملك النبطيين ، بحب
شعبه ، فمسي ذو الشرى وعرشه (؟) واللات
وعمنه ومثوت وقيس تلن من يبيع هذا القبر أو
يفشتره أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو مضوا أويدين
فيه أحدا غير ككم . وابنتها وذريتها ، ومن يخالف

(١) ملخص من كتاب (العرب قبل الإسلام)

هذا ذنب لعمود وعذابهم - (وأما) إبناء معهم (عاد) - وهم الذين يسمون أيضاً «عاد أرم» و «أرم ذات العماد» ، والعماد الأبنية الرفيعة ، وسبأى وصف إبنيتهم ، أو هو كتابتين قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقتلنا أن مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت - فقد وصف الله في غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم لتبنيهم هود عليه السلام ، واستخفافهم به ، وبالأوامر الإلهية التي كان يبلغهم أباهما ، وهم الذين كانوا يقولون له : (وما نحن بتاركي أهتنا نحن قولك) مذ كان يقول لهم : (يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره) .

وقد انضم إلى قفرهم هذا بالله ماتم ومناكر غاية في البشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفوهات العابر ، وكانوا يبنفأسون في بناء تلك القصور وشييدها حتى يصبح القصر آية ، وعلامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الفنى والثروة ، وتقوى على إبناء مشيرته . فكانت تلك القصور وسيلة للمباهاة والتفاخر وتآريث القتن والعداوات ، ولم يكن لهم في تلك القصور عمل سوى الصب والغلب والافتساد في الأرض . فكان بعضهم يتخذ في أملاها إبراجاً للحمام ويشيع الوقت سدى في أطرافه ، وإبداء الجيران به . وكان آخرون يطولون من قصورهم على الضافين والرائحين ، من تجار وكاترين ، فيعيشون بهم ، ويدبون بالأذى إليهم . وكان بعضهم يرشد الذين يفدون على تبنيهم هود للإيمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيتناولونهم بأنواع السبب والشتم ، ويضولون بينهم وبين ما يريسون من الإيمان بهود عليه السلام . وكل ما ذكرنا هو منهم الذى كان يوبخهم عليه سيدنا هود مد يقول لهم : (أئبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) لم يقول : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ، أى تبينون البيات المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج الماء ، حاسبين انكم تعيشون إلى الأبد ولا يدرككم الموت وانتم في تلك القصور المشيدة ، وأنتم من عذاب الله على فظائعكم وآلائكم ؟! وأشد ما كان يوبخهم عليه تبنيهم أنهم كانوا إذا غضبوا على أحد من الناس يادروا إلى تعذيبه ، والإيقاع به ، قتلا بالسيف أو جلداً بالسياط ، من غير تفكير ولا تدبر في الأقايب ، وقد لا يكون المسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العقاب ، فكان تبنيهم هود يقول لهم معدداً فظائعهم (وإذا بطشتم بظلمين) .

هذا ما قصه الله علينا من خسر هذه الأمة العاتية . فلا بد من إذا أتزل بها شديد عقابه ، وإليم عذابه ، مذ قل تعالى واصفاً ذلك في كتابه (وأما عاد فاهلكوا) الآية . و (الضمر) وصف الريح يجمع بين شدة صوت هبوبها في الآذان ، وشدة اللع بردها على الأبدان ، فإن من معاني هذه المادة (الضم) الصوت الشديد . يقال : (صر صرا ومرصرا) ، والبرد الشديد يقال (ربيع صر) إذا كانت شديدة باردة . وقوله (عاتية) العتق في الرجال : مجاوزة التحد في الكبر والبطش وقسوة القلب . والعتو في الرياح : مجاوزة

ما كتب عليه فليلعنه ذو الشرى وهبل وموت خمس لعنتا ويغرم الساحر (؟) قرامة مقفلهها ألف درهم حارثي ، إلا من كان يده لذن من يد كتم أو كلبية إبنيتها بشأن هذا القبر ، والأذن المذكور يجب أن يكون صحيحها ، صنع ذلك وهب اللات بن مبد مباداه . واللفة المنقوشة على اطلال مبدان صالح أرامية مثل لغة « بطرا » البظية ، وكان لعمود سكان هذه المداين كانوا يستعملون لغة سادتهم النبطيين وكتابتهم أحياناً ، والأغان لغة لعمود الأصلية هي لغة بلادهم « الأيمن » التي هاجروا منها ، أعنى اللغة الحميرية ، وكتابتهم بالحرف المسند الحميري لا النبطي . وقد عثروا على فروع من القلم المسند في عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ما وجد في « الصلاة » جنوبى مبدان صالح ، أوائل الميلاد . من ذلك :

- ١ - كتابة سموها « لحائية » مد وأوا فيها أسماء ملوك لحيان الذين يظن أنهم بقايا قبيلة لعمود .
- ٢ - كتابة سموها « لعمودية » وهى تختلف من « اللحيانية » بعض الاختلاف .
- ٣ - كتابة سموها « صفوية » وهى التى وجدوها في جبل الصفا بحوران .

(الطائفية) من الطغيان : الإفراط ومجاوزة الحد وهى صفة لحدوف . كآله يقول : أخذوا بأخذة من أخذات العذاب جاوزت كل حد في عنفها وشدها . وقد كانت تلك الأخذة صحيحة من الساء : امتلحت (١) قلوبهم ، وأهدت نفوسهم ، بدليل ما جاء في سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصبيحة فأصبحوا في ذراريهم جالمين) ويعنى بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والتكتب لم يعين هذه الصبيحة ، ولم يفصل أمرها بآثر من وصفها بالطغيان ومجاوزة الحد ، كما قال في آيتنا التى نفسرها : « وقد قال في سورة الشعراء (فآخذهم الصلاب) ، وفى سورة النجر (فصب عليهم ريك سوط عذاب) ، وفى سورة الشمس (فنعمد عليهم ريم بلبنيهم فسواها) ، ومعنى (نعدم عليهم) أهلكهم ، ومعنى (فسواها) سوى قبيلة لعمود بالأرض ودمرها ، أو سوى بين أحادها في لحاق العذاب بهم ، فلم يفلت منهم أحد . أما السبب الذى أخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لتبنيهم ، ومخالفتهم أمر الله فيما امتحنهم به ، من أمر النافذة . فقد أمرهم أن لا يسموها بسوء ، لم يكون لهم شرب ، أى يوم يشربون فيه من المورد كفاتيتهم ، ولها هى يوم تشرب فيه وحدها ، على أن يثبوا في يومها كل وعاء وإنهم لم يبنها .

لم أن جملة القوم يرموا بالنافذة وشربها وجرماتهم المساء في يومها ، فانبت أشقامهم قمرها ، ولم يأخذ قومه على يده ويغنموه من جرمة ، فتسب امرئ إليهم كلم ، لرضائهم به وسكونهم عليه ، فسمهم الصلاب ، وأخذوا بهذه الأخذة الطائفية التى جاوزت الحد المعتاد في القوة والاشتداد ، كما جاوزوا هم الحد في المخالفة والعداء .

(١) اتملحت (التزمت) .

نَحْنُهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَغَنِيَّةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرَخٌ كَأَنَّهُمْ أَتَجَارُ عَلَى خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ قَهْلَ تَرَى هُمْ
مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِأَعْيُنِنَا ﴿٩﴾ فَفَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً
رَاسِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا عَلِمْنَا أَنَّهُمْ جَاءُوا فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذَكُّرًا وَنَعِيْمًا أَذْنًا وَعِيَةً ﴿١٢﴾ فَلَمَّا نَفَخْ

الحد في العصف والهبوب وقهر من أراد التوقي منها
بحيلة ما : فهن تهمر عليه كمنه ، أو تنتزعه منه
بلا رحمة ، وفوق ذلك هي عقيم ، لا تلحق شجرا ، ولا
تبقى ثمرًا .

هذه الريح التي أرسلها الله على عاد (سخرها
عليهم) أي سلبها وجعلها مسخرة لأمره في إبادتهم ،
والانتقام منهم مدة (سبع ليالٍ و غنينة أيام حُسومًا) .
(و الحسوم) في اللغة يدور حول ثلاثة مغان :

١ - القطع باستئصال ، يقال (احسم العرق) أي
انزعه من أصله ، ثم اكوه ثلاثا يسيل دمه .

٢ - الشؤم الذي لا يكون معه خير . ومنه (أيام
حسوم) أي تحسم الخير والبركة من أهلها ،
وهو يرجع إلى المعنى الأول .

٣ - الذؤوب في العمل والأخذ فيه من دون فتور ،
وهو يرجع إلى المعنى الأول أيضا ، لأن الذي
يريد حسم العرق مثلا يتابع العمل ويميد إلى
على العرق المرة بعد المرة حتى يتحسم .

وقد وصفت تلك الريح بكونها (حسومًا) وفسروها
بكل هذه المعاني ، فهي قد استأصلت القوم وأبادت
خضارهم ، وكانت شؤمًا عليهم مدة استأصلتهم ،
وكانت في الصحاح في عملها وإبادتها ذائبة متتابعة لم
يعتبرها فتور ولا وقى .

ولفظ (حسوم) إما مصدر كجولس ، وهو راجع
إلى الريح أو إلى الأيام والليالي ، ويكون التقدير -
يرجع ذات حسوم ، أو أيام وليال ذات حسوم . أو هو
جمع حاسم كجولس وشهود جمع جالس وشاهد ،
فيكون حينئذ من صفة الليالي والأيام .

ويقال : إن هذه الأيام هي المعروفة إلى اليوم بإيام
المجوزة تأتي في أواخر فصل الشتاء ويشهد فيها البرد
أربعة من آخر شباط (فبراير) ، وثلاثة من أول آذار
(مارس) . سميت بذلك - فيما زعموا - لأن مجوزا
من قوم عاد المذكورين توارث من خوف الهلكة في سرب
فانتزعتها الريح الصرصر في اليوم الثامن فاماتتها .

وقيل أن اسمها (أيام العجز) أي أيام آخر الشتاء ،
فإن عجز الشيء مؤخره . ثم حروفها وقالوا (أيام
المجوز) قال صاحب التاج : والصحيح أنها (عجوز)
بالواو كما في دواوين اللغة ناطقة .

(و صرصي) مطروحين على الأرض . و (استجسار
النخل) أسولها وجذوعها . و (خاوية) نخرة فارغة
تأكل جوها وبلى وتفتت ، فمما أسرع أن سقطت
على الأرض .

هذه الجلود النخرة الممددة هنا وهناك هي مثال
طبق لقوم عاد ، مد سرعتهم الريح الصرصر في أفنية
دورهم ، وعراس مساكنهم ، مبشرين مبشرين .
وأنك لو طقت معابدهم ، وجست خلال دورهم ،
بعد أن فعلت الريح بهم ما فعلت - (فهلل)
كنت (تري لهم من باقية) ، أي بقية أغلتت من الهلاك
أو المعنى هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها
الهلاك ؟ ؟

قوله : (وجاء فرعون) مطوف على قوله تعالى :
(كذبت فرعون عاد بالقرارة) . بعد أن وصف الوحي
موجزا من هلاك عاد و فرعون ذكر طوائف من أهم قديمة
أخرى كان من خرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر
عاد و فرعون ، فعد منها فرعون ، ويعني فرعون وقومه ،
وقد اجتزأ من ذكرهم بذكره ، إذ كان رئيسهم ، وولي
أمرهم ، كما اقتصرهم أيضا في قوله : (ولو أتاك
حديث الجنود - فرعون و فرعون) . ولو قال قائل : إن
المراد بفرعون الفرعونيون أي المصريون القدماء
التسويرون إليه - ما كان مبادا ، كتصميم مثلا فإنه في
الأصل اسم لجد القبيلة ، ثم غلب عليها كلها .

وقوله : (ومن قبله) قبل بفتح القاف وسكون
الباء ، أي وجاء أيضا من الأمم من كان قبل فرعون
وسبقه في الزمن . ولم يمين الكتاب لنا هذه الأمم
السابقة ، وما علينا لأفهامهم ونعني بتعيينهم . وقد
مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم فرعون .

وقرأ بعض القراء (ومن قبله) بكسر القاف وفتح
الباء بمعنى جاء فرعون والذين هم عنده وجهته ، يعني
جنوده وأتباعه المقيمين حيث أقام ، والراطلين حيث
رحل . يقال (أتاني من قبل فلان رسالة) أي من عنده
أو من جهته . و (إلى قبل فلان دين) أي عنده .
ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله في مسعود وأبرين
كعب (وجاء فرعون ومن معه) ، ولا يكون معه إلا
جنوده وأتباعه ، وهو معنى (ومن قبله) . ويشهد لها
أيضا قراءة أبي موسى الأشعري (وجاء فرعون ومن
تلقاه) . و (تلقاه) بمعنى (لقاه) في الأصل ثم توسع
فيها فصارلت بمعنى (عند) و (جهة) .

(والمؤتفكات) جمع المؤنكة أي المنقلبة ، وموصونها
محدوف ، أي القرى المنقلبات أو الأراضي المنقلبات .
يقال تنفكت البلدة بأهلها إذا انقلبت ، ومنه الأفك ،
بمعنى الكذب لأن الكاذب يقلب الحقيقة ، ويظهرها في
غير صورتها الصحيحة . والمراد بالمؤتفكات مدن قوم
لوط التي انقلبت عليهم ، وصار عاليها سافلها ، بما

كانوا يرتكبون من الفجور والمنكر، والذي جاء بالخطئة أهل المُنْتَكَات لاهي، لكن تجوز بها عنهم اعتماداً على فهم السامع على حد قوله تعالى (وَأَسْأَلُ الْقِرْيَةَ) أي أهلها .

ويقال ان البحيرة التي تسمى اليوم بصيرة لوط والبحر الميت - تغمر الأماكن التي كانت قائمة فيها قرى قوم لوط ، وهي خمس : سدوم ، وعمورة ، وأدعة ، وصوبيم ، وبالع وتسمى صوغر . ولما أراد الله إهلاك هذه القرى أمطرت بصم النار والكبريت ، وتفتتها سبحانه من الأبخرة المنعشة من جوف الأرض ، ثم تحللت تلك الأبخرة إلى ماء كربة الطعم ، استنقع في ذلك القور ، وتكونت منه تلك البحيرة .

و (الخطيئة) صفة لمحدوف ، أي بالخطيئة الخطيئة ، أو الأعمال الخطيئة ، أي ذات الخطيئة والآثم والذنب . يقال : خطيء ، إذا آثم والذنب فهو خاطيء ، وقال بعض أهل اللغة : لا يكون ذلك إلا من عمد وتصميم ، بخلاف خطأ فهو مخطيء ، فإنه الذي يفعل الشيء غير متعمد له . والخطأ من خطأ ، والخطيئة من خطيء .

وقوله (الحقة رابية) أي شديدة زائدة في شدتها من ربا إذا زاد ونما وتضاعف عدده أو حجمه ، فهذه الأخذة التي نزلت يقوم فرعون مذ أفرقوا في اليم ، ويقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم ، وتراكت عليها الحمم وصحارة الكبريت وسحب الأبخرة - كانت ولا رب أخذة زاد فيها العذاب ونما ، واشتد بها الكرب على الفرقيين وطما .

ولا حاجة إلى ذكر مجابهة قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام ، وعصيان موسي ولوط عليهما السلام ، ووصف ما كان من أمرهم ، والعذاب الذي نزل بهم ، فهو على الإجمال معروف ، وقد ذكر في التنزيل أكثر من مرة . غير أننا نذكر موجزاً من تاريخ حياة (لوط) حسبما ورد في الأسفار القديمة : قالوا :

هو ابن حوأن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد هاجر مع عمه إبراهيم من بلاد مابين النهرين إلى أرض الميعاد (فلسطين) ، وبعد رجوع إبراهيم من مصر كانت مواشيه ومواشي لوط قد ازدادت جداً ، وكثر الخصام بين رعائهما ، فاقترح إبراهيم على لوط أن يفترقا معاً للزواج والخصام ، وخير إبراهيم لوطاً في الأرض التي يريدها ، فاختار داترة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة . ثم غزا (كنعان لاهمير) ملك ميلام هذه المدن ، وأخذ ملوكها ، وأسر طوائف من سكانها ، كان فيهم لوط عليه السلام ، وألقت من القوم من أخبى سبيدنا إبراهيم بهذه النازلة ، فأصرع بثلاثمائة وعثمانه عشر من أهله وحشمه عناء خلفائه الآموريين وجد في أثر الفزاة حتى أدرهم بالقرب من باتيانس في قضاء القنيطرة من مملكتك دمشق ، فنزلهم وشئت شملهم ، ثم تبعهم إلى (صوبا) في محل قرية (لكة) على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم ، وهناك استرد الأسلاب ، واتفق الأسرى ولوطاً ابن أخيه ، ثم كان ماكان من أمر القري الخمس وتدمير الله لها ، فانتقل

لوط إلى جبال (موآب) فتوطنها ، ثم كانت من بعده نسله الموابيين والموميين .

قص الوحى علينا أخبار الأمم المكفئة المذكورة ، وحلول العقوبة الإلهية بها ، ليكون ذلك زاجراً للمكذبين من قريش . وقد قدم هذه الأخبار بين يدي ذكر يوم القيامة ، وما يحدث فيه من الأحوال ، يعد أن افتتح السورة بوصف يدل على هول ذلك اليوم ، ومظم أمره . وكانت تلك الأخبار تذكر على نسق واحد ، لكنه لما انتهى الحديث إلى خبر أمة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف في الأسلوب ، ولون الخطاب بلون آخر ، ويدل أن يقول مثلاً : ان قوم نوح كذبوا فأغرقوا بالطوفان - وجه الخطاب إلى مكذبي قريش الذين هم من سلالة الناجين من الفسوق مع نوح ، مذكراً لهم بنمته على آبائهم . ويسكون في إيراد الكلام على هذا الأسلوب ذكر جميع بين خبر القصاص الفرقيين ، وخبر الأبرار الناجين ، كما قرئ بين تحدير مكذبي قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك الفرقيين ، وبين الامتنان عليهم بحمل آباءهم في السفينة ، فكان ذلك سبباً لنجاتهم ، وانتشارهم في الأرض ، وبثهم لدرابهم في جناتها . وكان مكذبي قريش المخطئون - من هذه الزريات ، أمما كان الواجب عليهم أن يدعوا العناد والتكذيب ، ويشكروا الله الذي مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير العجيب ؟ وقد خالف في أسلوب الكلام على هذه الصورة لينتقل بذلك إلى البعث وأحواله ، ووصف يوم القيامة وأحواله .

ومعنى (طئي لاه) : طما وارتفع وتجاوز حدة المعروف ، وطاف على الأرض اليابسة فغمرها ، وكان منه الطوفان الذي أباد الله به أهل ذلك الزمان .

وقوله (حملنكم) أي أتمتم بامعشر قريش المخطئين اليوم ، وأتما جعل حمل أجدادهم حملاً لهم ، لأن أولئك الآباء كانوا جرثومة لهؤلاء الأبناء ، ففي حفظ الجرثومة حفظ قوتها النامية بل حفظ لما في طيها من النراى الكامنة ، وهذه الدرارى المائلة يجب عليها أن تشكر للذي حفظ أصلها ، وصان جرثومتها من الضياع والفناء ، فكان ذلك سبباً لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء ، و (الجارية) السفينة .

وقوله (لنجسها) أي لنجس السفينة ، وقصتها العجيبة ، أو لتفعل تلك القصة ، وهي نجاسة الأبرار ، وهلاك الفجار (لتذكرك) عبرة وعظة بحملكم أيها المكذبون على التوبة والإتابة وترك التكذيب . (ونجسها) لأن واهية) ، أي وأجل أن تحفظ تلك التذكيرة وما تتضمنه من العظة والعبرة - أن حافظه لها - والمراد بحفظها تعقلها وتدبرها والانتفاع بها في احتجاب الفسوق والعصيان ، واتباع سبيل أهل التقى والأمان . وقد أراد بالآذن صاحبها لا الجارحة نفسها ، وتكرها وجعلها واحدة للإشارة إلى أن الآذن التي تعي الحكم والمواظف وهي تدبر والانتفاع - قليلة النسبة إلى التي لا تعي ولا تتدبر . على أن في تنكيرها الميذ لتقليلها إبداناً بعظيم شأن تلك الآذن القليلة وتغنيهم أمرها ،

فِي الصُّورِ نَفْثَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٧﴾ وَجَحَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدُكًّا دَكًّا وَاحِدَةً ﴿١٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٩﴾
وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٢٠﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى
أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَنُتَيْبَةٌ ﴿٢١﴾
يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٢٢﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوَفَىٰ

وَأَتَاهَا عَلَى قُلْتِهَا هِيَ الْكَثِيرَةُ الْعَالِقَةُ وَالْقُوَّةُ الْعَامِلَةُ ، عَلَى
حَدِ قَوْلِ الْقَائِلِ :

يَا خَالِدًا يَا خَالِدًا أَلْفَا وَلَقِمَى وَاحِدًا

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والموسوم
إليه من أول السورة بقوله تعالى (الصاعقة ما الحاقفة)
والذي كُتِبَ به تلك الأمم ، فأهلكها الله جزاء تكذيبها
وحملوا قريبا أن تسلك مسلكها في التكذيب ، فيصيبها
ما أصابها .

و (النفخ في الصور) في لسان الشرع : قد يكون
تمثيلا وتصويرا لبثت الأموات وانبعاثهم من أرواسهم
بسرعة تحكي سرعة المجتمعين وقد هتف بهم من
بوق عظيم ، وهذه (النفخة الواحدة) هي النفخة
الثانية أو السموة الثانية التي يكون من أثرها صق
الخلايق وخمود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف
حركاتها (١) . -والأ فاته يسبقها نفخة أولى أو دصوة
أولى يكون من أثرها فصر الخلايق واضطرابهم ،
وإختلاط حابيلهم بتأليلهم . ونحن نسو من بذلك كله
حسبما ورد في الشرع . أما التعمق والتطلع لمسرفة
ما وراءه فهذه ما لم تكلفه رحمة بنا ، وإن البحث فيه
مضلة ، والسؤال من كنهه مخرفة .

(وَجَحَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ) أي وفتتا وسيرتا ،
كما قال تعالى في سورة التكوين : (وإذا الجبال سيرت) .

(١) دوى من ابن خباز أن الراد يهذه النفخة ، النفخة الأولى
التي يكون منها خراب العالم ، ومن ابن المسيب ومقاتل : لها
النفخة الأخيرة . وقد التصر ابن جرير على الأول ، ورجحه
الغفر الرازي والأوس : قال الأوس : « الأول أولى ، لأنه
لأنسب لها يند ، وإن كانت الروا لا تدل على الترتيب ، لكن
مخالفة الظاهر من دواعي ما لا حاجة إليه » . وقال الغفر الرازي :
« فإن قيل : لم قال يند ذلك : يومئذ تعرضون - والعرض
أنما يكون عند النفخة الثانية - قلنا : جعل اليوم اسما للحين
الواسع الذي يقع فيه التفتت والسمعة والنشور والوقوف
والسحاب ، ولذلك قال : يومئذ تعرضون ، كما تقول : جئته
هنا كذا ، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته » . وقد
جرى لذلك في كلامه على امتياز النفختين الأولى ، وسيل
الكلام فيه . الصحيح .

والثنية في قوله (دكنا) باعتبار أن (الأرض)
و (الجبال) مجموعتان متمايزتان : مجموعة الأراضي
المنبسطة التي هي السهول ، ومجموعة الأراضي
المرتفعة التي هي الجبال والجزون . فقوله (دكنا)
أي هاتان المجموعتان ، سهولا وجزونا ، هدتا وسويتا
على تسطیح واحد .

(والدك) والذق متقاربان ، غير أن الذك أبلغ ،
وهو أن تأتي إلى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر
وملء وتراب مثلا فتضربها بعضها ببعض ، وترصها
رصا متكررا بحيث يتكون منها بقعة مهيبة السطح :
لا تضاريس فيها ولا اموجاج ، ولا ارتفاع ولا انخفاض ،
وأحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعلون ذلك من
التسوية والزس والدك في البقعة التي يفرشون عليها
بضائعهم في جنبات الطريق ، يعرضونها تحت أنظار
المارة والمشتريين ، وكانوا يسمونها دكانا ، ثم شاعت
هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذي يبيع
فيه التاجر أشياءه ولو لم يكن للدك فيه أثر .

وقوله (دكة واحدة) أي أصبحت الأرض والجبال
بعد دكهما كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ،
ولا لجبل على أرض . أما هذان : الرفع والدك اللذان
وصفناهما فبأية قوة كانا ؟ لم يذكر الله في كتابه إلا
أتهما حصلا ، وبدهى أن ذلك يكون بقدرة الله مباشرة
من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس .
الله أعلم بما يكون من ذلك .

وقوله : (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) ، أي ويوم أن يقع
ملازم من النفخ والحمل واللك - تكون قد وقعت
الواقعة وحقت الحاققة ، وقامت القيامة التي كنتم
تكذبون بها أيها المكذبون .

ثم ذكر الوحي بقية ما يقع في ذلك اليوم من تخريب
العالم العلوي بعد أن ذكر تخريب العالم السفلي فقال :
(وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) . وانشقاقها
كتابة من انصداعها ، وتبدل أوضاعها ، وذلك بأن يسلب
الله منها ذلك الناموس الأعظم الذي كان يمسكها ،
ويربط بين أجزائها ، فلا يبقى جزء منها مستقرا في
مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المهود من حركته
ودورانه ، وهذا معنى (واهية) : بالية متداعية
لا تماسك فيها .

وإذا كانت أرضنا على صفرها وحقارة أمرها
بالتسبة إلى العالم العلوي - قد خلق الله فيها أنواما
من المخلوقات ، وصنفا من الأحياء التي أرقاها
الإنسان - أفبعد سبحانه تلك السموات العلوية مجردة
من خللاق بلذوهم فيها ، يصلون له ، ويمجدون
اسمه ؟ كلا ، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق
السموية (ملائكة) .

كيف تكون حال هذه الملائكة في ذلك اليوم : يوم
القيامة ، وقد انشقت السماء التي تعلوهم ، وتفتتت
أروال الأجرام التي تضمهم ؟ قال تعالى :
(وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) .

وقوله : (**والملك**) أى جماعة الملائكة ، قال فيه الاستغراق . **وسمير** (**أرجائها**) يرجع إلى السماء التى قد تصدعت وتشتقت . والمعنى أنه إذا لم تعد السماء بعد ههنا وانشقاقها صالحة لأن تكون مثابة وأماناً لأولئك الملائكة - انتشروا هنا وهناك ، وانضروا إلى أرجاء السماء أى أقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم إلا بقاء له أرجاء ، فإن (الرجا) الناحية والجانب ، وهو لازم للمكان من حيث هو مكان .

لا تترك نفس السامع تصل إلى هذه النقطة من وصف خراب العالم ، وأنتكأ فتله ، وتعاطف هوله - حتى يتمثل لعينيه مبلغ السلطان الإلهى ، وعظمة ذى الجبروت الأزل ، فيشهد إذ ذاك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وأن جميع ما تنال على مسرح الوجود من هذه الخلاق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت إلى ظلال . **والى هذا يشير تعالى في قوله : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)** .

وسمير (فوقهم) يرجع إلى الملك الذى قلنا أنه أن كان مفرداً في لفظه فهو جمع في معناه .

وهل المراد من كلمة (فوق) العلو والارتفاع ، أى أن ثمانية يحملون عرش الرب تعالى في مكان فوق مكان الملائكة الظاهر ، على أرجاء السماء الواهية ؟ أم معنى (فوقهم) زيادة عليهم : كما يقول لآخر وقد أطمعته مئة درهم (لك مئذى فوقها مئة أخرى) ، وقد تقول (لك مئذى وأدها مئة أخرى) ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وهلى هذا يكون معنى الآية : يحمل عرش الرب يومئذ ثمانية هم غير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم (١) .

أو **سمير** (فوقهم) يرجع إلى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متناخر في اللفظ لكنه متقدم في الرتبة ، ويكون المعنى حينئذ : ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ، فهم يحملونه فوق رؤوسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقاً في أيديهم مثلاً .

والمراد من الثمانية مسكوت منه ، فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية قوات الهية أخرى تحمل عرش الرب فوق رؤوس ملائكة الأرجاء ، أو تحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين في الحمل - كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشيء منه .

(أما (العرش) في اللغة العربية فله معان غير السريز الذى تجلس عليه الملوك : منها العز والملك والسلطان ، ومنه قولهم « فلان ثل مرشه » يريدون زال ملكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : « تداركنا حينها » وقد ثل عرشها ، أى ذهب عرشها - وضعف أمرها ، كما يقولون في عكس ذلك « فلان توطد مرشه » ، أى استقر ملكه في البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

(١) لا وجه لهذا القول فيما نرى ، فإن أحالة مئة معلوم إلى مئة مجهول ينشئ منه المنجوع مجهولاً ، وحينئذ يقول ذكر صمد الثمانية من القادة - المصحح .

وحمل عرش الرب في الآية قد يكون تمثيلاً لسمال مزته سبحانه ، وانفراذه بالجلالة والعزة والملك في ذلك اليوم ، وأن تأثير هيئته سبحانه وتعالى في القلوب في ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا - وهم على رؤوسهم التى تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم - في قلوب رعيته المستعبدين لهم . وإن هذا من ذاك ، وله المثل الأعلى ، وأما هو نزل لأنهام المخاطبين ، وانفراغ المعاني القبيحة في قلوب ما القوه من تراكيب لغتهم العربية ، واصطالحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها . **والا** فإن خالق الكون تقدمت أساؤه ليسجما يحمل على العروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الزخارف والتقوش .

وكل ما ذكر في هذه الآية من أمر تخريب الكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب إلى الذات المقدسة الإلهية في ذلك اليوم من الأوصاف والأطوار - تؤمن بما ورد منه في القرآن ، وهلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا نقصان في إيراده ، حسبما دل ظاهره ، وتكل أمر كتبه وحقيقته إلى قائله ومثوله سبحانه ، ونجتهد في أن نرى أنفسنا التزينة الدينية التى يرمى إليها الوحي الساوى والوعظ الإلهى ، فنشعر قلوبنا بالإيمان والتقوى ، ونتمسك في حب الخير والفضيلة ونجنب الشر والذنبه بالسبب الأقوى ، مراقبين في جميع أحوالنا جلال الله وعظمته ، محاذرين عقوبته وسخطه ، في يوم تعرض فيه الخلاق ذلك الأرض العظيم ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

(**يومئذ**) ، أى في ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وأما أماد ذكر كلمة (يومئذ) المرة بعد المرة خلال سرد أحوال ذلك اليوم - زيادة أحضار له في أذهان المخاطبين ، وتصويراً لهوله في نفوسهم حتى كأنه مائل أمام أعينهم .

(**تعرضون**) ، أى على ربكم أيها البشر الحصاب ، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركي مكة الذين ينكرون الرسالة ، ويكذبون بيوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبیان الحصاب والشروع في إحصائه بعد أن استوفت الآيات السابقة ذكر قيام السلسلة ، وخراب العالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين - خراب الكون وعرش الخلاق للحساب - يقعان في يوم واحد ، لكن هناك ما يدل على أن العرش للحساب ومباشرة إحصائه يكون وقتاً بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنفخة الثانية ، فهما وقتان أو يومان ، فالنفختان ثلاث .

١ - نفخة الفزع الأكبر ، وقد أسمى إليها في آية التمل وهي « يوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض » .

٢ - نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلاق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين

كَتَبَهُ وَيُحْيِيهِ ۖ يَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرَاءُ ۖ كَتَبْتُهُ ۖ لِي إِلَى
فَلَنْتُ إِلَىٰ مِثْلِي ۖ حَاسِبَةٌ ۖ هَؤُلَاءِ عَيْنُهُ ۖ رَاضِيَةٌ ۖ
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَسْبًا ۖ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أَرَىٰ

فیجازی کلا منکم بحسب عمله : ان خیرا فخر ، وان
شرافتر . وقد فصل ذلك بقوله : فاما من اوتی ...
الآیات .

يقولوا له صلى الله عليه وسلم : ما فهمنا ما تقول ، ولا مانعونا اليه ، ثم وحدوا من ذلك سبيلا الى الطعن فيه وفي رسالته . ولم ينقل اليها أنهم طعنوا في القرآن من جهة عدم فهمه ، وفحوى أساليبه ، فدل هذا على ما قلنا . ونقل الأصمعي عن العرب أنهم يقولون : « فلان متدنا باليمن » أي بالنزلة الحسنة ، و « فلان متدنا بالشمال » إذا خست منزلته . وقال الشاعر :

أبينى : ألقى بيني يدبك حطنتي

فأفرحهم صبرتي بشائك ؟

وسئل نفلويه من قول جرير :

وإني لعف الفقر . مشتركة الفنى

سريع - إذا لم أرض داري - احتماليا

وبأسط - خير فيكمو يمينه

وقايض شر منكمو بشماليا

فقال : إن العرب تنسب كل خير لليمن وكل شر الى الشمال ، ثم استشهد على ذلك بهذه الآية (فاما من أوتي الخ) .

وقول جرير (احتماليا) يريد به سفره ونقله الى دار أخرى يرضاه ، وهو فاعل لقوله (سريع) .

أما إن الإنسان يأتي يوم القيامة وأعماله محصاة عليه في كتاب لا يفسد منها صغيرة ولا كبيرة بحيث يضطر الى الاعتراف بها - فهذا لا ريب فيه . وهو من عقائد الاسلام ، لكننا لانكلف معرفة ما إذا كان الكتاب على مثال اللوح أو الورق أو الرق أو غير ذلك ، وما إذا كانت الكتابة جداد وقلم أو بأداة أخرى ، وما إذا كان الخط يتقوس ويحرف ، أو يتجلى الأسمال للعالمين ، ويظهرها لهم ظهورا يينا كأنها مشيئة في فرائدهم ، ومتوقفة على الواح نفوسهم : بحيث لا يقدرون على انكارها ، والتملص من تبعثها ، وهو المعنى الذي فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) - كل ذلك لا يكلفه المسلم ، وإنما يكلف اعتقاد صدق الخبر أجلا ، ثم تفويض أمر تفصيله الى الله تعالى .

وقوله (هالكم) اسم فعل أمر بمعنى خلدوا خطابا للجمع ، وتقول لغرد المذكر (هاء) يفتح الهمزة ، وللؤنثة (هاء) بكسرها ، والمعنى (هالكم) ، والنسوة (هالكن) والهاء في (كتابيه) و (حسيبيه) و (ماليه) و (سلطانيه) هاء النسك ، فترتاح القاريء في القطاع نفسه عندها . ولا كذلك إذا وقف على بام التكلم مفتوحة ، لاسيما والآيات مرامى فيها الأزدواج مع كلمات (راضيه) و (ماليه) و (خاليه) التي هالها . هالات تاتي لا هالات سكت .

وكان حق هال السكت أن تحدث في الآيات حين الوصل ، لكنهم يؤثرون النطق بها فيه أيضا ، كونهم ثابتة كتابة في المصحف - الإمام .

ومعنى (ظننت) هنا علمت وليقنت ، إذ لا يكتفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للصاب ظنا ، وإنما يجب عليه أن يعتقد اعتقادا ، ولعل النكتة في العلول

من التعبير بالعالم الى التعبير بالظن ، هي افادة أن مجرد الظن بيوم الحساب كاف في حبل الصمد على الإنسان والطاعة ، فمنها بالآ إذا كان يعلمه علما . ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) .

وقد يقال : كيف تكون (العيشة راضية) ؟ وكيف يصح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ وأجيب بأن (راضية) بمعنى مرضية ، وأنه اسم مفعول بصفة اسم الفاعل . وقالوا أن أكثر من يستعمل ذلك من أحياء العرب يهكان الحجاز فيقولون « ماء دافق وسر كاتم » أي مدفوق ومكتوم ، وقيل هو من باب قولهم « لاين ولامر » ، بمعنى أن صيفته هذه صيغة نسبة من دون الحاق بالهاء ، فمعنى « لاين » ذو لبن و « لامر » ذو تمر ، و « دارع » ذو درع ، و « نابل » ذو نبل . وهذا يدل أن تقول لبني وقرى ودرى ونيلي . و (راضية) بمعنى ذات رضا ، أي أن الرضا واقع عليها لا منها .

والحقون على أن (الراضية) هي العيشة نفسها ، وإن نسبة الرضا اليها مجاز مهود مثلة في كلام العرب من حيث يقصد به البالفة في رضا صاحبها ، وإن الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره الى عيشته نفسها فاصبحت راضية أيضا .

و (حنة عالية) أي مرتفعة ارتفعا حسيبا ، فيكون ذلك اطيح لها واكرم . أو الراد بطوها علو شأنها ، وارتفاع قهرها ، وتزجها من النقص والسوء ، أو من التشابه والنظر .

وقوله (قفوهها ذاتية) أي لا حائل يحول بين لمار تلك الجنة ويدى جانيها كارتفاع وحشوك مثلا ، وإنما هي مهذلة قريبة من متناول الأبدى . و (القفوف) جمع قطف بكسر القاف : الثمر الذي نضج وحن زمن قطعه ، وقيل هو الثمر ساعة قطف ، والقرارى يفهم من سياق قوله (كلوا واشربوا الخ) أن قالوا يقول لهم ذلك بمن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، أو أنهم أنفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك للذلة وتباهيا . ولا يخفى أن (من) في قوله (فاما من أوتي) لفظه واحد لكن المراد به جماعة التاجين ذوي العيشة الراضية .

على أنه ليس المراد ب (كلوا واشربوا) أمر أهمل الجنة بالآكل والشرب فقط ، وإنما هو أسلوب يبيح يقصد به الإباحة للمسامر أن يرح في التمتع ويبلغ بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهي نفسه من دون معارض . ألا ترى أنك تعطى ابنك المطيع لك مالا وقصودا ودورا وحدايق لم تقول له « اذهب يا بني فكل واشرب وكن قريب الصين يسا أعطيتك جبراء يرك بي ، وطاعتك لي » . وأنت لا تريد بأمره بالآكل والشرب الا إطلاق يده ، وتذكره بالتمتع ، وطلب دوام شكره عليها . ويؤيد ذلك قوله بعده : (بما أسلفتم في الأيام الخالية) أي تمتعوا بما أعطيتكم بسبب ما أنتم في أيام حياتكم الماضية في الدنيا فبما (بما) متعلقة ب (كلوا واشربوا) ، والمعنى تمتعوا

كُتِبَ وَبَشِّرْهُ بِهِ ، فَيَقُولُ يَلْبَسُنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ ﴿١٥﴾
وَلَرَأُوتٌ مَحْصِيَّةٌ ﴿١٦﴾ يَلْبَسُهَا كَانَتْ الْقَضِيَّةُ ﴿١٧﴾
مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿١٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿١٩﴾
خُدُوهُ فَقُولُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ اجْحِمِ صَلَوةُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سَلِيلَةٍ
دُرْعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

ولذلكوا بالنعم الالهية التي من اجلها واعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم . والا فان مجسود الاكل والشرب لا يرضى بهذا الكريم لو بان ان قام بما امره به ، واجتنب ما نهاه عنه . ولمعنى ان الاكل والشرب في الجنة من اقل ما يحتفل به في مكافأة اهلها ، والباقي من ايمانهم وطاعتهم وحسن اعمالهم ، واذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة الا ان يأكلوا ويشربوا فما اخص جنتهم ! وما اخص صفقتهم ! فلي المؤمن المحمدي ان ينتبه لما قلنا ، وينسج على متواليه في فهم ماوردت به النصوص من هذا القبول ، وتفسيره تفسيراً يلتزم مع ماقرر في الشرع وابديه علوم الحقيقة ، وصرح به كبار علماء الاسلام كالغزالي : من ان المؤمن في الجنة تغلب فيه الروحانية على الجسادية ، والثورانية على الظلمانية ، ويكون اكبر حظوظه وتنفذ التمتع بمالي الاحدية ، والتلذذ بجماليها ، والاستغراق في سحبات اللذات ، والتخشيخ لجلائها ، والا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنو له البعيد ، ويختصر له الزمان ، ويفعل مايريد . آمنا بالله ، وتقدس اسماء الله . ومسباني لهذا البحث زيادة تفصيل في الكلام على الآيات التي تصف نعم الجنة واسباب اللذات فيها من سورة « هل اتى » .

لم انتقل الى بيان ما يكون من نصيب المجاهد المكذب بعد حسابيه وهرسه على ربه . وفسأته على العكس من شان المؤمن . فهو ممن يؤتى كتابه بشأله اى يكون من اهل الشقاء والغمران . وما قلناه في تفسير (اوى كتابه يبعثه) يقال في تفسير (اوى كتابه بشأله) . وهذا المكذب لا يلبث اذا علم انه من فريق الاشيقياء ان يحزن ويتحسر ويقول (ياليتني لم اوت كتابي ، ولم ادرك ما حسابي) كانه يمتنى الا يكون من فريق الاشيقياء ، او يمتنى الا يكون خلق ولا حوسب ، ولا اوتى كتابا ، ولا درى حسابا . على حد قوله الى آية اخرى (ياليتني كنت تروبا) .

والضمير في (ياليتنا) يرجع الى الوجة التي ماتها في الدنيا ، فهو يستخط عليها كونها لم تكن قاضية عليه الى الايد ، فلا يحيا بعدها في جهنم هذه الحياة المرة ، التي يموت فيها كل يوم ألف مرة . ويحتمل

ان يرجع الضمير الى احدهما ، فيكون معنى ما أصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يمتنى لو ان ما هو فيه من الشقاء والالام بقضى عليه فراح : يعنى انه يمتنى الموت في ذلك الوقت مع ان الموت كان اكروه شيء عليه في الحياة الدنيا .

لم يتذكر ذلك العذب من امر دنياه ورفده فيها ما يزيده حسرة وكابة فيقول (ما اغنى عني ماليه) ، فهو ينفي ان يكون ماله قضاغنى عنه شيئا ، او يستغنى استغناء . والقصد منهما كليهما اظهار التأسف والووعة ، وان كنوزه التي جمعها في دار الدنيا ، ولم يبق بحق الله فيها - لم تدفع عنه من امر الله شيئا .

(هلك عني سلطانيه) السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الامر ، كالفران والرجحان . ومعنى (هلك عني) غاب عني وزال عني . يقول ان ملكه وتسلطه الذي كان في دار الدنيا ضل عنه وذهب فهو يتحسر ويتحزن ، لانه شغل بملكه وسعة سلطانه من طاعة ربه ، والعمل لآخره .

وكان قتادة ينكر ان يكون تفسير الآية ما ذكر ويقول : « اما والله ما كل من دخل النار كان امير قرية بجيبها » ، يريد ان قوله تعالى (هلك عني سلطانيه) هو من قول المكذبين سواء اكانوا سلاطين ام غير سلاطين . وغير السلاطين من سائل الناس لا يمكن ان يقولوا (هلك عني سلطانيه) معنى الملك والتسلط على الرعية ، وانما السلطان هنا القدره والطاقة او الحجة والبينة ، ولا جرم ان كل واحد من فريق اهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطان حجته التي كان يحتج بها في الدنيا وعدم نعمها في دره العذاب عنه في ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد في الدنيا من لم يكن له شيء من السلطة على غيره ولو على زوجته وولده كما قال صلى الله عليه وسلم « كلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته » ، فالعذب في الآخرة يتذكر انه كان ذا سلطة يمكنه ان يستعملها في الخير والطاعة ورفشاء عز وجل ، لكنه بالعكس استعملها في الشر والفساد ، فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى ان عضد الدولة بن بويه نظم شعرا جاء فيه قوله في صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر
ثم اصيب بعد بشيء من الخيل والوبواس وفساد المزاج ، فكان لايتطيق لسانه الا بقوله : « ما اغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » وجعل يردداه الى ان مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء اصحاب العيشه الراغية من الكلام ما تطيب به انفسهم ، ومنها معه معيشتهم مثل (كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية) - يقال لفريق اهل الشقاء من كلم التحقير والتعزير ما يريد به شقوهم ، ويعظم معه بلاؤهم - من ذلك ان يقول قائل على مسمع من احدكم : (خلدوه فقلوه) اى ضموا في يديه ورجليه

القل ، والفعل ما يكل به الاسير من القيود والسلاسل .
و (الجحيم) اشد اماكن النار تاجعا . و (صلوة)
يفتح الصامدون التصلية ، وهي حرق الشيء على النار .
اي اجعله في الجحيم صلاها : اي يحترق بها ،
ويقتضى حرها . و (السلسلة) هنا هي القل ، والمراد
من كونها سبعين دراما انها طويلة جدا . وعبد
(السبعين) يستعمل في كلام العرب عند ايراد الكثرة ،
وعليه قوله تعالى لتبسه صلى الله عليه وسلم (ان
تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقوله
(فاسلكوه) اي فادخلوه بين ثنائها وطوائها . وانما
قال ذلك لان السلسلة لطولها والتواء بعض اطرافها
على بعض تكون كأنها وراء يدخل فيه ذلك المذهب .
وسلك الشيء في الشيء : ادخله فيه كما تدخل اليد
في الجيب ، والخيوط في خرم الابرة .

وقدم (الجحيم) على (صلوة) و (في سلسلة
النار) على (فاسلكوه) لراعاة الفواصل ، او لارادة
الحصر : كان المعنى اتمك انها المأمورون بصلاب ذلك
الجاحد لا يسمح لكم ان توردوه من طبقات النار الا
اشدها حرا ، واقرأها اشتعالا ، ولا ان تلعنوه من
الات العذاب الا باطلهم هولا ، وايضا طولها .

قالوا : و (ثم) في الآية ليست لافادة الترتيب في
الزمان ، وانما هي لافادة التفاوت في الرتبة فيستفاد
منها ان المتأخر في الذكر اهم واكمل في نوحه مما قبله .

ولنا ان نقول ان سلكه في السلسلة هو نفس
تفليه في القل ، فما القصد من التكرير ؟ وقد يجب
بانهم امروا اولا بسوقه الى الجحيم مغلولوا وهناك
بعد تكيله بكنل اطول واعظم ، وعلى هذا لايمان ان
يكون قد لوحظ في (ثم) افادة التراخي الزماني : فهو
بغل اولا ويقاد الى الجحيم لتمر عليه وهو يقاد
اليها مدة يظنها طولها سنين ، ثم اذا ورد الجحيم
تمر عليه مدة طويلة ايضا قبل ان يكبل بالسلسلة
فيحسب ان ماله فيه من العذاب آخر الزمان . حتى
اذا سلكوه في تلك السلسلة عرف ان هناك انواعا منه
اشد هولا ، فيشتد حزنه ويعظم كرب .

ويعد فان ما اى على ذكره كتاب الله من وصف
دار النعيم والنعيمين ، ودار العذاب والمعذبين - انما هو
تنزل في الخطاب الى ما اعتداه من الاساليب ، وتقرين
لحقائق الغيب في مألوف التراكيب ، والا فان افهامنا
ذلك بالكنه والحقيقة متعذر مادام الصالح الاخرى
مباينا لعالنا في سنته ونوايسه وطبيعته التي ركبها
الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب - مهما تفنى في
الوصف - ان يفهم كلاما فاقد احدى اللبسوات
الجسدية حقيقة تلك الالة قبل بلوغه زمتها ، كذلك
يستحيل علينا ان نفهم حقيقة تعميم النار الاخرة
وعذابها قبل بلوغنا زمنها .

ثم ان مجزنا من تعقل الجنة والنار بكنههما
وحقيقتهما لا يستلزم انتفاه وجودهما مادام الوارد
بشانهما غير محال عقلا ، اذ كم من امر ثابت الوجود في
دنيا جده ، بل يكون علمنا به بديهيا احيقا - لا نقدر

ان نتعقله بكنهه ، وانما نتعقله بآثره الصادر عنه والدال
عليه . لا نمثل لك بالكهربائية والاثير والمادة واجزاها
الفردة التي تتركب منها مما لا يزال مجهول الحقيقة
في العلم الطبيعي ، وانما نحيكك على نفسك التي بين
جنبيك ، فذلك بالطبع تعترف بانها موجودة ، كنتك
تمجز وتفهم اذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا الى
كنه امرها ، وحقيقة صرها . وكل ما تقتصر عليه من
التصريف بها هو فوك اني اريد وافعل ، واهم واعمل ،
وانسى وانلذكر ، واقتصر وانصبر ، وكل ذلك لا يكون الا
بقوة موجودة بالفعل في يدني - تصبر عنها تلك
الآثار الموجودة ، اذ لا يصبر موجود من معدوم ، ولا
سيما ان تلك القوة اذا زابت يدني لم تعد تلك الآثار
تصبر عنها ، مع ان البدن سالم لم ينقص من كونه .
تأمل يا اخي هذا ! لم اعترف ممي بان الدين مجهولات
كما ان العلم مجهولات ، وانه ليس من الانصاف ان
نطاطم ودعوسنا بين يدى الثانية ، لم نشعج بالوفسا
امام الاولى .

قوله (انه كان لا يؤمن بالله) انك استشفاف واتق في
جواب سؤال مقدر - كان قائلا يقول : ولم استحق كل
هذا العذاب يا رب ؟ قال : (انه كان لا يؤمن ... ولا
يخض ... الخ ...)

والايمان بالله اصل في سلامة العقائد ، كما ان
العطف على المسكين ومواسمته بفضل المال اصل في
سلامة الاخلاق . ومن ثم قرن الله بين الامرين في هذه
الآية ، وقال ان السبب في تعذيب ذلك المصلب هو
كفره وشحه : خلو نفسه من التصديق والايمان ،
وخلو قلبه من الرحمة والحنان ، وهذا كما قرن
الكتاب مرارا بين الصدقة والزكاة ، فان الصدقة من
اكبر آيات الايمان ، كما ان الزكاة من اكبر آيات
الرحمة وحب الاحسان .

ولم يعذب الله هذا المصلب بتركه اطعام المساكين ،
بل بتركه حض الآخرين على اطعامهم . فانظر كيف
ان الاسلام لم يكف من المؤمنين بان يهبوا المساكين ،
ويعطوا عليهم ، ويحسنوا اليهم فقط ، بل هو يامرهم
بان يامروا غيرهم ايضا ، ويحضوا المتقاعدين عن ذلك
حضا .

ومن مظاهر الحضي وصوره ان يدعو المسلم اخوانه
المؤمنين اليه ، ويكلمهم مسامحة . فيما ينبغي : من
العناية بالقراءة ، وازاحة ظلمهم ، وتيسير اسباب
الميشة عليهم ، وتهدد طرق الحياة الطيبة بين ايديهم .
فان الكتاب ان اقتصر من شروب العتابة بالقراءة
على ذكر الطعام وحده ، فانما ذكره كنموذج ومثال ،
والا فلاسلام بامر بابائهم والباسهم ، وقاية لهم من
اذى البرد وامر بتعليمهم وارشادهم الى ما به صلاح
دينهم وديناهم من علم وصناعة . بذلك على هذا ما قاله
المفسرون في قوله تعالى : (وما السائل فلا تنهر) : ان
السائل يشمل سائل العلم المحتاج الى المعرفة كما
يشمل سائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطالب العلم

وَاللَّهُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢﴾
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مِنْهَا حِسْمٌ ﴿٣﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غَيْبٍ ﴿٤﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ ﴿٥﴾ فَلَا أَقِيمُ
بِمَا تَصْرُودُ ﴿٦﴾ وَمَا لَا تَصْرُودُ ﴿٧﴾ إِنَّهُ يَقُولُ رَسُولُ
كَرِيمٍ ﴿٨﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾
وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَكُونُونَ ﴿١٠﴾ تَنَزَّلُ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٢﴾

وقال : (ما انه ليس بالسائل المستجدي ، ولكن طالب العلم اذا جاع فلا تنهره) .

والا دما المؤمن اخوانه المؤمنين الى ما قلنا من التعاون في شان الفقراء والمساكين على الوجه الذي يكون فيه سداد من موز ابدانهم وثقوسهم - كانت دعوتهم هذه هي الحضي الذي اوعد الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم اذا دما واجابه اخوانه وعملوا باشارته من التزام العناية بالفقراء اتنا قلنا - كانت متابعهم هذه واجتماعهم عليها هي ما يسميه اهل هذا العصر (الجمعيات الخيرية) و (جمعيات البر والاحسان) و (جمعيات التعاون) . فلذا قلنا لاجواننا المسلمين : ان كتابنا السماوي يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف (جمعيات زكاة) يمكننا بواسطتها انتشال اخوتنا الفقراء من مهاوى التعاسات - لم نرد ان القرآن وضع لذلك قانونا سرد فيه الاعمال مادة مادة ، وانما اردنا انه رمز واشارة ، وامر بالتقاييس والاعتبار ، وان نراعي في اعمالنا ومسايقنا اختلاف الاعصار والامصار .

وقد بعثت لكم لكيما تفهوا

واللهن يهيمه ذوو الاسباب

وان الناقص اليمان ، الذي كان من آيات نقص ايمانه قسوته على المساكين ، واهمال امرهم ، وتركه الحضي على مواساتهم وسد خللتهم - ليجلبر بمقت الله وغضبه ، وان تسوء والمياد باله عاقبته ، فلا يكون له في النشأة الاخرى (حليم) اي قريب او صديق يهتم بامره ، او يدفع عنه ، او يفيقه مما هو فيه من البلاء والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن اخوانه الفقراء في دنياه ، فتخلى اخواته عنه في آخرته . تصام من سماع شكوى اولئك الفقراء في هذا اليوم ، فتصام اخلاؤه من شكواه يوم

دنياه ، فحرمه الله شهي الطعام في آخرته - فلم يكن له (طعام) يومئذ (الا من غسيل) . قال قتادة : « هو شر الطعام واخبثه وابشعه » . ولعله انما سمي بذلك من الغسل ، لان شر الطعام واقدره هو البقية التي تعلق في صحاف الموائد بعد الفراغ من اكل ما كان فيها ، فتسلت تلك الفضلة ، وتغسل منها الصحاف . فهذه الفضلات الحبيثة التي تشتمل منها النفوس الكريمة ، هي التي يستحق ان يطعمها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطرهم الجوع الى ارتكاب الشرور والانام . وطعامه هذا (لا يأكله الا الخاطئون) الذين قسا القلوب امثاله . و (الخاطيء) متعمد الخطيئة وهي الاثم والذنب ، بخلاف (الخاطيء) فانه من الخطا . وليس الخطا باثم ولا ذنب ، وانما هو معافا الله عنه ، وقد مروت الاشارة الى الفرق بينهما .

و (طعام) في قوله ١ ولا يحض على طعام المسكين اسم مصدر من توكلا ائتمعا اطعما وطعاما ، كما يقال اعطاه اعطاه وعطاه . اما (طعام) في قوله ٢ ولا طعام الا من غسيل) فهو نفس ما يؤكل ، وانما قلنا ان (اطعام المسكين) بمعنى اطعام ، لان الحضي انما يكون على الفعل لا على الاسم ، فتقول (احضك باهلا على اطعام المسكين) ولا تقول (احضك على وغفر المسكين) الا على تقدير مضاف ، والاصل صمد التقدير .

ومن لطيف آداب العرب انهم كانوا يستشعرون الحدة والنزق وشكاسة الاخلاق الا في الحضي صلي الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعفاة والمساكين ، فان الحدة وشراسة الاخلاق تكون اذ ذاك محمودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

اذا نزل الاضياف كان عزورا

على الصبي حتى تستقل مراجله

يقول : ان ذلك السيد يكون وقت نزول الاضياف به غضوبا خرسا سبيء الاخلاق على رجسالي الصبي يحضهم على تهيئة مايلزم لهؤلاء الضيفان ومداورة اسباب راحتهم ، وتجميل الطعام اليهم ، لئلا يكونوا جعيبا فيمنعهم الحياء من طلبه . ولا يزال ذلك السيد في غضبه وحذنه حتى تستقل قدوره ، اي تسلم ، وتقوم على موافد التريان ، وهناك بهذا باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتساب باداب القرآن ، ان ابا الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه كان يحض امرأته على الاستكثار من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : (انما بالله فخلعتنا نصف السحلة اللويلة التي قال الله انها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، افلا تخلع نفسها الاخر بالحق على طعام هؤلاء المساكين ، فتخرج من عداد الذين لا يحضون على طعام المسكين ٤٤) .

ثم شرع في تقرير مشركي العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كانه يقول : اخبرناكم اولا خبر

الامم القديمة التي كلبت بالحسافة ويوم الصرض
والحساب فاهلكتها واذاقتها وبال امرها ، ثم فنيها
على ذلك بحجر يوم الحساب نفسه ، ووصف هوله
وما يكون فيه نقرقيا الابرار والفيجار من العيم والعداب
القيم ، ويوشك ان يكون كل ما قلناه غير بالغ مبلغه في
فلوبيكم ، ولا مؤثر اثره في نفوسكم ، متاعا متكم لتسبيكم
ولجاجة في مقارنته وتكديسه ، قائلين عنه تلو انه
شاعر ، وطورا ان قوله قول كاهن . (فلا اقسام بما
تبصرون وما لاتبصرون انه لقول رسول كريم الخ) .

وقد مر في (ن . والقلم) بيان الحكمة في ان الله
تعالى يقسم ببعض مخلوقاته ، ونسمعه هنا يقول
جل وهز : (فلا اقسام) فكيف ذلك ؟ يقول بعضهم :
ان المنفى (بلا) ليس القسم ، وانما المنفى محذوف
مفهوم مما سبق : تقديره (فلا) معنى لتكديكم
بالقرآن ، ولا الامر مايقولونه من محمد صلى الله عليه
وسلم انه شاعر او كاهن ، ثم استأنف فقال : (اقسام
بما تبصرون وما لاتبصرون) . وعلى هذا يكون افضل
للقاريء ان يقف على (فلا) وقصة خفيفة ليشعر
السامع بما ذكرنا من المنفى . وذهب المحققون الى ان
ال (لا) نافية للقسم ، وانه تعالى يخبرنا بانه لايلف بما
ذكر : كانه يقول : ان القضية المتنازع فيها - وهي
صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة
والوحي - هي من الظهور والثبوت بحيث لااحتياج
الى الحلف عليها ، وهذا الأسلوب مالوف حتى في
تخاطب اهل زماننا ، فيقول احدهم للاخر في امر مهم
يريد ان يشته له : لاجابة للحلف او لا لزوم للحلف
ثم يستأنف فيقول : ان الامر كيت وكيت .

اما قوله (ما تبصرون وما لاتبصرون) فلا قرب ان
يكون المراد به ماثرون ويقع تحت ابصاركم من عالم
الشهادة ، وما لا ثرون ولا يقع تحت ابصاركم من عالم
الغيب ، فهو تحقيق لعالم الغيب ، وتعظيم لشأنه .
وفي القسم بالامرين مما اشارة الى ان كل ماخلق الله
وما لم يخلق ، مما نرى وما لا نرى ، هو عظيم الخطر
جليل الشأن ، حقيق بالتأمل فيه ، واذا كان التكليم
يدخل في عموم كلامه كما ذهب اليه بعض الاصوليين ،
تكون اللبات الاحدية داخلة في عموم ما لاتبصره من
عالم الغيب ، ويكون تعالى قد اقسام لنا ببلائه العلية
على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصدق
دعواه .

(انه) اي القرآن (لقول رسول) اي قول محمد
صلى الله عليه وسلم . ومعنى انه قوله ، انه قاله بلسانه
لكم مبلفا . بعد ان اتى في روجه وحيا ، والا فان
القرآن كلام الله . وفي اضافة القول اليه صلى الله عليه
وسلم يعنون انه رسول لا باسمه العلمي وهو محمد .
ما يدفع الشبهة المذكورة ، وذلك لان قول الرسول هو
في الواقع ونفس الامر قول صادر عن مرسله ، وانما
الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب ان يكون القرآن (قول شاعر)
او (قول كاهن) .
(والشاعر) معروف . اما (الكاهن) فهو الذي

يخبر عن الكواكن في مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة
الاسرار ، ومطالعة الغيب ، ورجل مثل هذا اعتاد ان
يظيل الفكر والاستغراق ، ويكثر التطلع الى ما وراء
عالم الحس - قد يتبرق له يارقة خيصال من ذلك
العالم ، فيقرن بها أمثالها ويقيس عليها اشباهها ، ثم
يخبر بها ، فيرى احيانا في اخباره وميض من الحق
ومسحة من الصدق . هؤلاء الكهان وجسدوا في بلاد
العرب قبل البعثة ، ولكن كانت اخلاقهم واطوارهم
وهوم انفسهم ليست على شيء من الطهارة والنزاهة
وحب الخير وممارسة الفضيلة وامحاض العبادة ،
وتبليغ الخلق وحيا قامت التجربة على
نفعه في تحسين حال الجماعات البشرية ، واثيره
في نقلهم من طور الهمجية الى اعلى اطوار المدنية .
وانما كل مايصدر من احد اولئك الكهان سجيات
ظاهرة الركاسة والتعسف ، تتضمن مصاتي بادية
التصنع والتكلف ، فما اين بطلان ما كان بقوله
المشركون من انه صلى الله عليه وسلم كاهن ؟ وما
اوهن الاحتجاج به !

اما قولهم عنه انه شاعر فبطلانه اظهر ، وبهتاتهم
فيه اكبر ، لان اخلاق الشعراء واساليبهم في كلامهم ،
ومراميمهم في حياتهم - تمت عنها اشعارهم وقصائدهم
ومعلقاتهم ، فلا غرو ان يوقع الكارث اولئك الزاعمين
هذه الزامهم فيه صلى الله عليه وسلم ، ويقول لهم :
(قليلا ما تؤمنون ... قليلا ما تذكرون) اي اتم
قوم اصحاب متناد باطل : ماتت عاطفة الفكر والذكر
من قلوبكم ، فلا تؤمنون بالله ، ولا تحدثون في انفسكم
ذكرى تؤدي بكم الى الاعتبار والاصطفا . فقلوه
(قليلا) و (قليلا) لافادة نفي اهل الايمان ، ونفي
اصل التذكر ، وكثيرا ما تكون (القلة) في كلام العرب
يعنى العدم المحض . وفي الحديث « انه كان يقتل
الغو » اي لا يلتق صلى الله عليه وسلم اصلا . وشاهد
ذلك قولهم « قل وجعل يقول ذلك الا زيدا » اي
ما رجل بقوله الا هو ، فلو لم تكن (قل) بمعنى النفي
المحض ما صح الاستثناء منها ، فان الاستثناء معيار
العموم كما تقرر في علم الاصول .

واذا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن ،
فهو (تنزيل رب الملائكة) اي وحى منه تعالى
اتزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فليكن اياه
يقوله ولسانه . وأشار بقوله (رب الملائكة) الى ان
الاله الذي ربي البشر ، وادهم بشر ، وادهم بشر
وغلامهم يصنوف نعمته حقيق بان يتهدمهم بوحيه
على لسان رسله ، كي يلقوا بهم غايه كمالهم ، ويحاج
سعادتهم .

(ولو نقول علينا) . اتقول : تكلف القول ، ويراد
به التكلف والافتراء ، لان القول الذي يكلف به قائله
يتكلف له ، ويتصنع في ايراده .

(والاقاويل) جمع اقوال ، واقوال جمع قول ،
فهو جمع الجميع ، وغلب استعمالها في الاقوال الكتابية
التي لا اصل لها . وجملها بعضهم جمع (اقواله)

لَا خُلْدَ لَنَا مِنْهُ وَالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾
فَبَايَعْنَا مِنْكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ حُجْرِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَهُ لَنَذَكَّرُ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا لَهُ
خَشِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْيَقِينِ ﴿٢١﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾

وإن كانت (أقولة) لم تستعمل، وهذه الصيغة أمنى (الفعلة) يراد بها سفر مسابها وحقارته غالبا، مثل: أخشركة وأكلوبة وأسطورة وأصبوبة وأنشودة، جمعها أصاحيك وأكاذيب وأساطير وأماجيب وأناشيد ومثلها (أقاويل) .

(و اليمين) : اليد اليمنى . ويكون الأخذ بيمينه صلى الله عليه وسلم كتابة عن الممكن منه ، والقنطرة عليه ، فإن من يضبط أنسانا من يده اليمنى التي هي آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والصيال . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ، ويكون معنى (لأخذنا منه باليمين) لانتمنا منه بقوتنا وقدرتنا . و (الوتين) قال ابن سيده : « هو عرق لاصق بالقلب من بطنه أجمع ، يسقي المروق كلها الدم ، ويسقي اللحم ، وهو نهر الجسد » . وقال غيره : « هو نياط القلب وهو حبل الوريد ، إذا قطع مات صاحبه » فمعنى (للقطعنا منه الوتين) لمأجلناه بالقوية ولم ندمه حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر أعضاء الجسد ومروقه لأن طريقة الإمامة بقطعه أسرع الطرق وأشدّها أجهازا على الحياة .

وقوله (حاجرين) ، أي متينين وحامين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر أن يقول : فما منكم من أحد أبها الناس عنه حاجرا ومائنا ، لأنه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من أحد) تكرة مستغرقة في العموم صارت بمعنى الجمع لو صفت بصفته .

ومعنى الآية أنه تعالى يقول في تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفي دعواه أنه - وحاشاه - كذاب مفتر على الله : لو تعدد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نقتعه منته فضلّا بكم ، ولكننا أهلكناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد في البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين أنفاد مشيئتنا فيه .

لا يقال : أنه قام في الزمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت أكاذيبهم ، وانتشرت

أضاليلهم - لآنا نقول : أنه قلما ظهر متنبئ كذاب إلا سلب الله عليه من قتله وأخذ أنفاسه ، كما فعل في سبيلة الكذاب وأخراجه . وإن بقيت لأحدهم دعوة في الأرض فأنما تبقى محسورة في جهة منها وبين أقوام قليلين تعوزهم الأدلة والبراهين على مسحة ما أتى به متنبئهم لتكون مقبولة في نفوس ذوى العقول السليمة . أما « بؤده » و « كنفوشيوس » و « زرادشت » الذين انتشرت تصاليفهم في معظم آسيا ، واتبعهم نيف وسبعائة مليون من أهلها ، أي نحو نصف العالم الإنساني - فقد يكونون أنبياء صادقين ، ولم يرد في الشرع نص مريح بنفي نبوتهم . وإذا كان في أديانهم النسوبة اليهم اليوم ما هو ظاهر الوضع والبطالان فيكون مما دس عليهم ، وأخترعته تخيلات أتباعهم ، ولم تسلم من مثل هذه الأديان السبوبة المشهورة .

ويكن أن يقال : ليس معنى (أخذنا منه باليمين ، وقطعنا منه الوتين) تعجيل العقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وإنما المراد أنه لو كان كاذبا لكنا مجتنبين له مقبولة أمثاله من المتنبئين الكاذبين ، فنميت ذكره ، ونطفئ دعوته ، ونلأش ما أتى به . ولا ريب أن معالجته بالعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، وأهلاك له . لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كاذبا ولا مفتناتا على ربه ، فمن أجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يهرج صدره بل شرّحه ، ولم يمت دعوته بل أحيائها ، ولم يلاش أمته بل نغماها ، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

إن دعوة رجل واحد يهتف بها في متقطع العمران ، فيلبثها ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تزل معالمها ناطقة بتبجدها إلى اليوم - دعوة هذا شأنها لا تصور في العقل أن تكون كاذبة مفتراة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما استتب لدعوة سبوبة فسرها أن تثبت وجودها ، وتبرهن صلى صدقها . إذ لم نر لدعوة أخرى سواها من الأثر في تربية الأمم ، ونشر العلم والخير على العمل الصالح ، والبرام الملل المطلق - ما رأينا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام . فهل يتمخض الباطل من نتائج خير من نتائج الحق ؟ ويعمر الكلب من النمو الطيب ما لا يثمره الصدق ؟ ؟

أما إذا قيل أنه قد قامت في العصور المتأخرة مدنيات عظيمة في قوتها ، عظيمة في أعمالها ، عظيمة في آثارها ، لم تقم بعنوان إسلامي ، ولا هي مما أسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيات الحديثة على المجتمعات الإسلامية ومدنيتها المتوارفة حتى غشاها من أمرها ما فشى - فإني أقول : لو قام اليوم من تحت الأرض قائم كريم ، ثم طاف عالم المدنيات الإسلامية ، وممسكان الأمم المنسوبة إلى الإسلام - لا تتركها كلها ، اللهم إلا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة ، ولو طاف هو نفسه المدنيات الحديثة ،

ومساكن أهلها - لا تعترف بها كلها ، اللهم إلا ما ظهر بطله ، واستبان فضحه ، ويفكر أهله أنفسهم في النزوع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، لم طاف مدنيات الأمم المنسوبة إليه ، وتامل في أصول حياتها المادية الجديده المؤسسة على الخرص وادخال المال والتمتع بلذائذ العيش - لا تترك كل شيء ينسب إليه إلا الاسم ، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التي كان أي بها إلا الرسم .

جعل ختام السورة كتيبة للسكلام السابق ، مرتبطة به أشد ارتباط ، فهو يقول : إذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه - كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها القتون ، فضمير (وأنه) يرجع إلى القرآن الذي أن لم يتقدم له ذكر صريح فقد تقدم مايعينه ، ويوميه ، إليه ، فإن قوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) لم يرد به إلا القرآن الذي كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصديق القرآن .

وقوله (للمؤمنين) يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم من كدورات الأهواء ، وخلصت من شوائب الجسود والتقليد ، ومالت بفطرتها إلى قبول الحق والأخلاق له ، تنقى بذلك سبيل خالقها وتحمل مقابله . أمثال هؤلاء هم الذين استمكنت نفوسهم لقبول القرآن والاستهاد به ، أما أولئك المكذوبون الجاحلون على ماوردوه من آياتهم ، فإن الله توهمهم بقوله : (وأنا لنعلم أن منكم مكذبين) . وليس المراد به افادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، باصدهم ، غير تارك مقابهم . فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال « أنا أعرف المحسن منك ، والمسيء » أي لا يخفى على ذلك منك ، ولا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض « ورجى لعداك معرفت أم لم تعرف » أي كافيتني بالسننى أم لم تكافنى .

فهؤلاء المكذوبون الذين يعلمهم الله وهو من ورثهم ، كيف يكون حالهم في مستقبل الأيام : في الدنيا إذا اظهر الله نبيه ، ونصر حربه ، وفي الآخرة إذا أخرج السائر ، وبطلت الأعداء ؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حصرة ، وهذا معنى قوله تعالى (وأنه لحصرة على الكافرين) . فضمير (أنه) يرجع إلى التكذيب المفهوم من قوله : (المكذبين) ، ومزاده (بالكافرين) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الإضمار أي أن يقول (وأنه لحصرة عليهم) ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهو كونهم كافرين . ويحتفل أن يرجع

ضمير (وأنه) إلى القرآن ، أي أن القرآن سيكون حصرة على المكذبين : في الدنيا إذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر في الخافقين نوره ، أو في الآخرة إذا أراوا نجاة المصدقين به ، المتسمكين بحبله . وهو ضمير (وأنه لحصرة) على القرآن أنسب ، وبذلك ينظم شمله مع ضمير (وأنه لتذكرة) الذي قبله ، وضمير (وأنه لحق اليقين) الذي بعده ، فانهما للقرآن .

ومعنى (وأنه لحق اليقين) أن القرآن هو اليقين ، أي الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، « ثبت بضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين في الدعوة ، ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، وديمهم له بمختلفاتهم ويخلق الدعوى » .

ومعنى (فسبح باسم ربك العظيم) إذا كان من ماقبة المكذبين ما ستمله يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا - لم يبق إلا ليأتك في أمرك ، ومضيك في مآئدك له من تبليغ رسالتك ، واستغن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن أختصك بكرامة النبوة ، « وهو الرب » فهو ربك الذي حاظك بعنايته ، والعظيم الذي يصغر كل شيء إلى قبس بعظمته ، وهو تعالى وحده الذي يجب أن تسبحه وتشكر له ، وتوجه وتخاله ، ودع عنك أولئك المكذبين جانيا .

و (الاسم) هو مايعرف به المسمى ويتميز عن نظائره ، ولسم الله واسأله صفاته التي عرفناه معشر البشر بها ، « ألا فإن الماداة تعجز دون الوصول إلى كنه ذاته » فالتسبيح باسم الرب ، الذي أمر الله نبيه به هو عبارة عن تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو تقول : أن المراد (باسم الرب) هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فإذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، وتمجيد شأنها - كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيها من أن تطلق أو تستعمل في سميات بشر كما يفعل المشركون من تسمية (اللات) فلها مؤثث (الله) مساويا لها من ألهمهم ، وسماوا الآلهة أخرى (العزى) تاتيت الأهر ، والأمر والعزير من صفاته أو أسماء تعالى ، فمعنى قوله (سبح باسم ربك) تنزهه فلا تسم به إلا آياته سبحانه وتقدس .

وقيل (سبح) يتدلى بنفسه فيقال (سبح اسم ربك) ، وبإبائه كما في آيتنا هذه ، ومثله (أحيى الكتاب من يده) و « ألقى به من يده » ، و « أخذ الشيء وأخذ بالشئ » ، قال تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال أيضا (واتقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ
دَافِعٌ ② مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائِينَ أَلْفِ سَنَةٍ ④

كان المشركون يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وأنه أتتهم لأمعالة ، فكانوا يقولون : وابن هذا العذاب ؟ أما أن وقت مجيئه ؟ بل قال اخبرهم طريقة في تكذيب الوحي ، وهو « النضر بن الحرث » ما قصه الله علينا في آية أخرى من كتابه : (أن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) . وكان صلى الله عليه وسلم يثق لتهكمهم هذا ، ويود أحيانا لو يجعل إليهم بئس من العذاب ، فزعموا أو يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكبا ما يقوله النضر أو غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاضرا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و (السؤل) إذا كان بمعنى طلب الشيء واستعمله يعادى بالباء ، يقال « سأل بالعداب أن ينزل به » ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بن الحرث دما بالعداب طالبا له مد قال (ائتنا بعذاب أليم) ، فيكون المراد (بالسائل) في الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، وهماونا به .

أما إذا كان (السؤل) معنى الاستخبار من الشيء اهتماما به ، وتفحصا من حاله ، فيتعدي بمن تارة ، وبالباء تارة أخرى ، فيقال « سألت عنه وعن حاله » ، كما يقال « سألت به وبحالته » ومنه قوله تعالى : (فاسأل به خبيراً) ، أي سأل عن هذا الأمر الذي تهتم له خبيراً به ، ومنه قول عائكة بنت عبد المطلب :

سائل بنسأ في لومئنا - وليكف من شر سماعه
أي سائل منا ومما كان منا في تلك الحرب ، حنوب الفجار ، من النجدة والبسالة .

ويحتمل أن تكون (سأل) في الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد (بالسائل) النضر أو غيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألك يا محمد سائل من خير ملاب طلالا حدثتهم به ، وحققت

لهم أنه واقع بهم . وقد انتهى السؤال منا . قوله (واقع) فاجاب تعالى على سؤال هذا السائل ، أو على دعائه على نفسه بقوله (للكاافرين ليس له دافع من الله) فهو استئناف واقع في جواب سؤال السائل : (للكاافرين) مدحاة بمحمد ، رالة به .
العذاب الذي هو : « ما ومرسه للكافرين » .
يستعملوا هم ، ولا تضيف أنت يا محمد .

وجملة (ليس له دافع) خبر بعد خبر ، أي هو مخبره لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله (من الله) متعلق بدافع ، على تضمينه معنى المنع والوقاية : أي أن العذاب مهيا لهم . وليس له دافع ومانع وواق من الله ، بل ستكون مشيئة الله تعالى في تدبيرهم نافذة أئنة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذي سأل هو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قلنا أنه أحيانا كان يتمنى لو ينزل بهؤلاء المكذبين عذاب يرحمهم عن طريق الدعوة الإسلامية ، فينتشر وتلقى بالقبول ، ويكون تنكيره صلى الله عليه وسلم لتعظيمه أو لتعنيته ، فاجابه ربه على سؤاله قائلا : ما تطلبه وتستعجله مرصد ومهيا للكاافرين - ثم ختم الآية بقوله مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : « فاصبر صبرا جميلا » أي صبرا لا تلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجليل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : (ذي المعارج) ، وهو من العروج أي الصعود والارتفاع . واسم الآلة منه « معراج » و « معراج » مجعما « معارج » و « معارج » فالمعارج في معناها كالصاعد والمرافق والسلام والدرج والدرجات . فقله تعالى : (ذي المعارج) مراد لقوله في سورة المؤمن ، واصفا نفسه « رفيع الدرجات » .

و « المعارج » و « الدرجات » إذا نسبت إلى ذاته تعالى كان المراد بها الرفة والعلو اللاتين به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات نعت له سبحانه بعلو الذات وتنزهها عن النقصان . وليس نعتا له بعلو الذات وارتفاعها في المكان .

أبعثه فكروني حتى إذا بلغت
هابياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما
رأيت موضع تكيف وتحدد
و (الملائكة) من عالم الغيب الذي يؤمن به ، ولا تكلف أنفسنا عنه ما لم تكلفنا آياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير في حقائقه ، فإن هذا غير مستطاع لنا ما دمنا في هذه الدار الدنيا .

أما (الروح) أفراد به جبريل نفسه ، وهو أحد هذه الملائكة ، ويكون في ذكره معهم باسم له خاص زيادة تعظيم له .

ويقول بعضهم : أن (الروح) طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة في البشر بالنسبة إلى علمتهم ، فالروح صلى هذا جميع لا مفرد ، كما يقال أحيانا « الملك » ويراد به الملائكة .

أما معنى (تعرج للملائكة والروح إليه) أى إلى الله ، فهو مروجها وصعودها إلى حيث يقاض عليها من أواب قدسه ، وتعجيل أمره ونهيه - ما يتعلق بتجسير العالم ، وتدبير الكائنات ، وإعدادها في الأطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير (إليه) يرجع إلى الله تعالى باعتباره مكان تجليه ، ومصادر أمره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ومكان وجوده ، فإنه تعالى ليس له مكان ، كما مرّت الإشارة إليه آنفاً .

وقوله : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مراداً كما يأتي بيانه ، قال أبو مسلم الأصفهاني : ولا يلزم منه أن يصير وقت القيامة معلوماً ، لأننا لا ندرى كم مضى وتم بقي . والمراد باليوم في هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير في كلام العرب ، قال في الصباح : « والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهارة كان أو ليلاً ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم ، أى لهذا الوقت الذي افتقرت فيه إليك » ١ . فالملائكة تعرج في مدة الدنيا منذ أول نشأتها إلى حين إقالتها ، ومعنى أنها تعرج في ذلك اليوم ، أنها تتردّد بين الرب وبين هذه الأكوام بما يريد منها ، ويقضيه فيها .

ولا تقدّر أن نفهم من هذا إلا أن الله الذي خلق هذا الكون ، أراد أن يدبره ويبلغه كماله بوسائل خلقها وسماها ملائكة (١) ، كما شاء لتساخن في حياتنا الدنيوية أن نتخذ وسائل في قضاء أمئنا ، وتوفّر مصالحنا . أما أنه لماذا اتخذ سبحانه هذه الوسائل ؟ ولماذا لا يفصل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذلول من السائل من نفسه ، واستشراق في طينة حسه ، كضموص (٢) في حكمة يتناول إلى درس أرفي مدنيت العالم ، وإلى فقه أسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

أما وجه ارتباط خبر هروج الملائكة في الدنيا بما قبله من سؤال السائل من العذاب وأنه مهيأ للتكافيرين - فيفهم من أعمال المقارنة بين هذه الآية وبين آيتين أخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

فالآيات الثلاث بعضها يفسر بعضاً ، وهي متواردة على أفادة معنى أو معنيين تقربياً . وحصل ذلك أن الله تعالى أحيا الكليين بأن ذلك العذاب الذي يستطيعونه واقع بهم لا محالة ، وأنه لا أحد يقدر على دفعه عنهم ، ومنع ما يريد تعالى بهم . ثم تبهم بقوله (يعرج الملائكة أتم) إلى أن ذلك العذاب إنما يروونه بعيداً لطول مدة الدنيا ، فهي في نظرهم ، وباعتبار

(١) كما سماها (الغارات) في سورة التجمعات . مد قل تعالى : (للديرات أبر) .

(٢) الضموص : ذبابة أو دودة سوداء ، تكون في المياه الواكمة ولتلس في وحلها .

مقاييس أزمانهم طويلة جداً كألف سنة أو خمسين ألف سنة ، مع أنها ليست عنده تعالى وبالتسوية إلى الاحتباب التي تربط الأبد بالآل سوي يوم ، أى زمن قصير تعرج فيه الملائكة مترددة بين الخالق وبين الخلاقين تدبر أمرهم ، وتعلمهم من العناية الإلهية بما فيه صلاحهم . فما هؤلاء الكليين يستعجلون العذاب ؟ ويستعجلون العذاب ؟ وهو منهم على قارب ؟ ولما أراد أن يصف سني عمر الدنيا بالكثرة عبر منها في آية بالف سنة ، وفي أخرى بخمسين ألف سنة . ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وإنما أراد البالغة في وصف المدة بالطول بالنسبة إلى البشر . وقد جرى في ذلك على ما اعتادوه في أساليب كلامهم في مثل هذا المقام ، فهم إذا أرادوا تكثير مرات فعل من الأفعال قالوا : جئت أو فلتت سبعين مرة ، أما إذا أرادوا الإخبار من زمن أنه طويل جداً ، فمرة يقولون : لو عاش فلان ألف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين ألف سنة ، وفي كلا التعبيرين لا يريدون إلا البالغة بطول المدة . وقد ذكر القرآن في حادثة واحدة - وهي وقعة بدر - أن الله أمد المؤمنين بالف (١) من الملائكة وبثالة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه للمدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم « أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » - أن العرب يذكرون السبعة في الأحاد ، والسبعين في العشرات ، والسمعمائة في المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد ، وإنما يريدون أفادة الكثرة . وحمل بعضهم (اليوم) في آيتنا التي نفسرها - على يوم القيامة ، وقال أن المراد بالآية تهيؤ أمر ذلك اليوم ، وتعظيم شأنه أن نفوس المشركين المكذبين الذين يستعجلون العذاب ، فهو تعالى يقول : أن ذلك العذاب يقع في يوم بطول طليمك أيها المكذبون إلى حد أن تحسبه خمسين ألف سنة ، وما هو بالنسبة إلى الإلهية إلا كيوم واحد .

وسواء أردنا باليوم يوم الدنيا ، أو يوم الآخرة ، فليس المراد بالخمسين ألفاً تعيين عدد السنين ، وإنما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يرونه التقصي في البحث ، والإحلاف في السؤال من مثل هذا ، وكيف يكون اليوم ثارة ألف سنة ؟ وثارة خمسين ألف سنة ؟ فقد سال رجل ابن عباس رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى : (في يوم كان مقداره ألف سنة) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وإنما وجه إليه سؤالاً بمعنى سؤاله قائلاً : « ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ » فقال له الرجل : « أتساءلك لتضربني » ، فاجابه ابن عباس : « هي أيام سماها الله ، وهو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم لي به » .

هذا ، وفي الآية وجوه أخرى تتعلق بمعناها وإمراها اقتصرنا منها على مرآياتها أحصى بالقبول ، وأحفظ لدى العقول .

(١) ففي الأنفال : (استعجلونكم ويحكم فاستجاب لكم إلى مدمكم بالف) ، وفي آل عمران : (إن يكفكم إن يدمكم وبثالة آلاف) . وفيها أيضاً : (يدمكم ويحكم بخمسة آلاف) .

فَأَسْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿١٧﴾ وَرَبُّهُ قَرِيبٌ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿١٩﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِيقِ ﴿٢٠﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَسِيبًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بَشِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَنَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَصَحْبُهُ أَزْوَاجٌ ﴿٢٤﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلْفُ نَفْسٍ ﴿٢٥﴾ رَمَتْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يَنْجِيهِ ﴿٢٦﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَفْئُفٌ لَّشَوَىٰ ﴿٢٧﴾ تَدْعَاؤُكُمْ أَذِيرٌ وَتَوْكَلْ ﴿٢٨﴾ وَجَمْعٌ فَأَوْحَىٰ ﴿٢٩﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٣٠﴾

قوله (إنهم يرونه البعيد) أي أن المشركين المستعظمين يوم الدين يرون العذاب الذي أوعدهوا به فيه بعيدا ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه أنه هو جلت عظيّمته يرى ذلك العذاب الواقع في يوم القيامة الذي تكون فيه السماء كالهيل - قريبا ، أي واقعا معقول الحصول . وعبر عنه بالقرب مشكلة ومقابلة قوله (بعيدا) .

وقوله تعالى (وتراه قريبا يوم تكون النّج) انتقال وخلاص من الرد على الكذابين بيوم العذاب إلى وصف ذلك اليوم الذي فيه (تكون السماء كالهل) (والهيل) مائع الزيت ، ومائع الفلز المذاب كالنحاس والصدئ والفضة ، مع ملاحظة أن يكون للمؤمنين المذكورين اللون الخاص الذي يمهده فيهما كل من رأى معدنا يصهر ويذاب ، أو رأى دروي الزيت وعسكره يصب ويكال . هذا اللون الأكثر الضارب إلى الحمرة أو الزرقاء أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة ويأذن الله بخرب هذا العالم .

(وتكون الجبال كالعز) (العز) : الصوف المصبوغ ألوانا من أصفر وأحمر وأخضر ، وقد وصف هذا الصوف في سورة القارة بأنه « منقوش » . والجبال إذا بست يوم القيامة ، وتفتتت أجزاءها - وهي بالطبع مركبة من الرتبة ومعادن مختلفة اللون - كانت ذراتها المنيئة في الفضاء منقوشة غير متبلدة ، وذات ألوان مختلفة : كالوان الصوف المصبوغ تتهاوى ، لا ذات لون واحد .

هذه هي حال السماء والأرض في ذلك اليوم . أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى : (لا يسأل حسيب) حسيم المرء : قريبه وصديقه الذي يهتسّم بأمره ، فمن شدة ما ينزل بهم جميعا من الهول والفرع يشاكرون ويتذاقون ميّنا وشملا ، مشتغلا كل منهم

عن حسيبه بنفسه ، وتلصق طريق الخلاص لها ، وينحصر همه في ذلك بحيث لا يعود يسأل حسيبه : ما شاك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب شئ مؤنة ؟ وهذا كما قال تعالى في سورة عبس : (يوم المرء من أخيه ، ولديه أبيه ، وصاحبه وبنيه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يقول قائل : إن الحميم قد لا يكون أبصر حسيبه في ذلك الوقت لئسالة ، فقال تعالى (يصيرونهم) وهو مضارع مجهول من التبصير ، وصميره المرفوع - وهو نائب الفاعل - يرجع إلى (حسيم) المرفوع ، وصميره المنصوب يرجع إلى (حسيما) المنصوب . وإنما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما في المرجعين من العموم وإن كانا مفردين .

يقول : إن الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضا من حاله في ذلك اليوم مع كونهم قد جعل الله بعضهم يبصر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجز تحول دون رؤية أحدهم الآخر وإنما يمنعمهم من المسألة لشغل كل بحويصة نفسه .

قوله (يود الجرم النّج) هذا ترقى في وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لا يقتصر الأمر في ذلك اليوم على وقوع التناكر والتدابير بين الأحباء والأهل والأصدقاء بل الأمر أفظع من ذلك ، إذ (يود الجرم) - وهو مركب جريمة الجحود والتكذيب - (لو يفتدى مسن عذاب يومئذ بنيه النّج) ، أي يتمنى لو تقبّل منه فدية ، فيقدم فداءه من نفسه أقرب الناس إليه ، والعقيم به ، وأهزم عليه : من ابن وزوج وأخ وأبنة عشيرة كان يأوى إليها ، ويتكل في توائمه عليها ، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدى بـ (من في الأرض جميعا) من البشر وغير البشر ، (ثم ينجيّه ذلك الفداء) وينقله من الكرب ، وفادح الخطب . (و صاحبة الرجل امرأته ، وقد تقول المرأة عن زوجها أنه صاحبها ، لكنه قليل ، قالت ليلى الأخيلية :

لنا صاحب لا ينبي أن نخوفه

وأنت لأخري صاحب وخليل

(و فصلية) الرجل : مشيرته ورهطه الأذنون ، الذين انفصل عنهم بالوفاة ، وبقي بأوى اليهم بالنسب والنصرة في الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذ بعيد الحصول ونجاته من العذاب بهذا الطريق في مأمول - عطف فعل (ينجيّه) على (يفتدى) (ثم) التي تستعمل في التراخي والبعد الزماني أو الاعتباري كما هنا ، كأنه يقول : يود أن يفدى نفسه هؤلاء المذكورين وهيئات أن ينجيّه ذلك .

(كلا) كلمة زجر وتعنيف ، يصدر بها المخاطب صرفا له عن اعتقاد أو رأى أو عمل غلا في التمسك به ، والتعصّب له ، فيكون معناها ليس الأمر كما زعمت أو عملت باهلا ، وإنما هو كيت وكيت . والمكابور ، يوم الدين المستبعدون لوقوع العذاب فيه غلوا في منادهم وتكذيبهم بعد أن وعّش الأمر لهم ، وقامت الحجة

مكنا للنزول استوقفته تلك الروضة بحيث لا يمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ، فهي كأنها تقول له : « أمشيت » أي أصبت مشيا ، « فأنزل » على الربح والسمعة .

ومثله قول الراجز الآخر :

امتلا الحوض وقال فطنى

مهلا رويدا قد ملأت بطنى

فهذا مايسوونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جدا في القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان القتال ، ولا حجة لهم إلا أن الله تعالى قادر على كل شيء . ومن ذا الذي ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا من أهل اللسان في الحكاية مما لا يعقل - أمثل بل أبسط من حملها على الحقيقة ، ولا داعي عقل ، أو شرعي للحمل عليها . على أن مفسرا لقويا (١) حمل (تدعو) هنا على حد قولهم « دعا الله فلانا بما يكره » أي أنزل به ما يكره ، فمعنى دعوة جهنم إياهم أنها تفعل بهم الأفعال .

قلنا إن جهنم في ذلك اليوم تهتف بأبائنا أن يسروا إليها ، ومن هم أبناؤها ؟ (من أدبر وتولى) أي أمضى عن الإيمان بالله ، وقبول ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين الحق ، وكذلك هي تدعو إليها أيضا من تكالب على الدنيا ، (وجمع) من حطها (فلوحي) ، أي خيأ وكتره في الغراني والصناديق والأوعية ، يقال « أوى الشيء » إذا حطفه ، وأوى المراد المتاع إذا جعله في الوعاء . وأوى أيضا جمع وشح ، ومنه الحديث « لا وى ليوى الله عليك (٢) »

وفي الآية وعيد شديد لمن يضل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينقذه في سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كائن المال ، الشحيح به ، الذي يمنعه مستحقه - بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد للرسل ، كما جعلهما في قرن واحد أيضا مدقات تعالى : (أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى في سورة الحاقة .

وإن الباحث المفكر ليقف موقف الحيرة في معرفة أية الخصلتين أشد محققا لألم ، وأجها على حياتها ؟ أفكر بالله ؟ أم الشح ؟ أمى ترك بلل المال فيما يجب فيه البذل . ويظهر من آيات الكتاب المتفكرة - ولا سيما في الآيات الآتية قريبا - أن الخصلتين سواء في ذلك . أمالنا الله من المهلك .

وما وصفه الله من هول الساعة ، ولون السماء ، وحالة الجبال ، وقطيع الأحماء المحشورين في مرصات القيامة ، ثم ما يكون للمكذبين في جهنم من العذاب والنكال ، بالأسلسل والأغلال ، وما يكون للمؤمنين في

عليهم ، حتى كأنهم من فرط الضاد ، وقيام الحجة ، معلون أنفسهم بالأماني ، ويتمسكون بأوهي الأسباب من مثل استغناؤهم أنفسهم بغنية ما - فكلهم الوحي في ظنهم هذا ، لم زجرهم عنه ، وردعهم عن التصادى فيه قائلا : (كلا أنها لظي الخ) ، أي دعوا أيها المجرمون المكذبون هذه التعلات ، والأماني الكاذبات ، فإن الأمر ليس كما تزمون من أنه تعالى لا يخلق دارا يسلب فيها الفجار ، أو أنه إذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقا للخلاص بقاءه ونحوه . (أنها لظي) ، أن تلك الدار ، أو أن تلك القصة الهائلة التي تملون فيها ، هي لظي كما أخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجى منها .

و (اللظي) اسم للآثار ذات اللمب ، و (الشوى) كل ماله يكن مقتلا من الأفعساء : كالبيدين والرجلين والأطراف ، يقال : رمى فلان فلانا فأشواء ، أي أصاب أطرافه ، ولم يصب منه مقتلا ، ويقال في ضده « وماه فأصاه » إذا أصاب مقتلا له فلاناه . والمعنى أن تلك النار من فرط نظفها تنزع أطراف المصلب وجوارحه نوما شديدا مبالغا فيه ، أو نوما متذكرا يحصل مرعب مرة ، وكأنه يخص الأطراف بالذكر دون الأعضاء الرئيسية التي إذا نومت ملأت صاحبها - للإشارة إلى أن تعذيبهم بتلك النار المنظفة لإسلبهم حياتهم ، فهم في النار دائما أحياء بعدون ، ويكون حفظ الحياة ودوامها إذ ذاك ببعض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم إن (الشوى) هنا جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وتسمى « فروة الرأس » أيضا ، وإن النار يوم القيامة تنزع من المكذبين الجاحدين جلادات رؤوسهم المرة بعد المرة ، كلما نومت أصيدت زيادة في التنكيل والتعذيب .

وقوله (تدعو من أدبر وتولى) أي تنادى وتهتف بالذي أدبر وأعرض عن الإيمان . وقال (تدعو) لأن تهيو جهنم ، وتبرجها للمعرضين من الإيمان ، وتفتح أبوابها لدخولهم - كأنه في المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو مايسوونه لسان الحال ، كما أن الدعاء بالقول « لسان المقال » . وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوع في كلام العرب وأشعارهم ، لاسيما إذا أرادوا الحكاية من شيء لا يعقل ووصف أحواله ، ومنه قوله :

شكا إلى جملي طول السرى

يا جملي ليس إلى المشتكى

سبرا جميلا فكلنا مبتلى

والجمال لا يمكن أن يشكو بلسان مقاله ، وأما يشكو بلسان حاله ، فإن آثار الآين والكلال والخفاء البادية عليه ، كأنها السنة تنطق بالشكوى إلى صاحبه .

وقال أبو التيجان الرجز المشهور يصف روضة :

« تقول للرائد أمشيت أنزل »

أي أنها لاستجماعها ما يلزم للوقوف المسافرين من مرضى وماء وظل إذا وصل إليها والذم يبتقى لهم

(١) من ١٢٣ ج ٢ : المصنف

(٢) أي لا يوسى وتسمى بالنقطة فيجاءك الله بتصديق ذلك . المصحح

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝

إِلَّا الْمَصِيرِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَاعُونَ ۝

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝

الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنف اللبوس والثياب - كل ذلك نمتقدم من دون زيادة أو نقص ، ونكل أمر حقيقته وكنهه الى الله تعالى ، كما كان يفعل سلفنا الصالح في فهم ذلك ، وفي تربية اولادهم عليه .

روى الامام احمد في مسنده ان سعد بن ابي وقاص رضى الله عنه سمع ابا له يدعى ويقول : « اللهم انى اسألك الجنة ونعيمها واستبرئتها ونحو ذلك ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأفلالها » فقال له ابو له : « لقد سألت الله خيرا كثيرا يا بنى ، وتموذت به من شر كثير ، لكنك تعدت الحد الذى نهى الله من تعديه في قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية . انه لا يحب المعتدين) » اى المتجاوزين في الدعاء ثم علمه الاذنى ذلك فقال له : حسبك ان تقول : « اللهم انى اسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » .

وروى ابو داود في سننه من عبد الله بن مغفل انه سمع ابنه يقول : « اللهم انى اسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها » ، فقال له : « يا بنى ، سئل الله الجنة ، وتموذ به من النار ، فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء » . والاعتداء على الطهور المبالغة في الوضوء والفصل والنظافة بما يؤدى الى الوسوسة .

فالذا كان السلف رضوان الله عليهم لم يرضوا ان يعين الداهى ويخصص ويغلو في دعائه - وليس الدعاء سوى طلب ومن الله - فكيف يرضون ان يضع الرواة في أوصاف الجنة والنار وأطوارهما واحوال التعمين والمعدنين فيها - يزعم الترفيق والترهيب - ما لا اصل له في الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التي يستبطنها الكذابين ، وذكر انها تلصق اليها من كان منهم معرضا عن الحق ، مكبا على جمع المال وكثرة - تطرق من ذلك الى ذكر خلق فطر البشر عليه ، وكان سببا في معظم الشقاء الذى يصيبهم ، ثم استثنى منهم اولئك الذين قنعوا على تطهير نفوسهم من ذلك الخلق بممارسة الفضائل الدينية .

اما الخلق الذى فطر عليه الانسان فهو ما عبر عنه بقوله تعالى : (ان الانسان خلق هلوعا) ، وارايدا بالانسان كل افرادة لا واحدا منه بدليل استثناء (المصلين) منه ، والاستثناء معيار العموم .

اما (الهلوع) فقد فسره الكتاب نفسه بقوله : (اذا مسه الشر اليخ) ، والمعنى ان الله خلق الانسان وغرس في نفسه منذ اول نشأته هذا الخلق الذى هو (الهلوع) ، فهو (اذا مسه الشر) ، وبرز به المكروه من فقر أو مرض أو خوف - كان (جزوعا) ، فيستولى عليه اليأس والقنوط ، ويحسب ان منازل به غير مقلع عنه : فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحة ، والخوف لا ينسجه أمن . وكثيرا ما قاد به باسه هذا الى ارتكاب معصية أو منكرو وقتل نفسه أحيانا ، (ولا همه الضمير) ، وتيسرت له أسباب الرغد وغفارة العيش ، فأصبح غنيا موسعا عليه في الرزق ، صحيح الجسم معافى ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، ذا جاه ومنصب - كان اذ ذلك (منوعا) يتمتع الناس برده وممرته والانتفاع بجاهه . فهو من غلبة هذا الخلق عليه يحسب ان ما أوليته من الخير والرزق والنعمة لم يؤته الا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، ليطغى على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر الله عليها بوضفها في مواضعها ، بل قد يستغف بها أحيانا فيحسب انه مستحق لاكثر منها . وربما يندرج من هنا الى ابداء خطائها والنفي عليهم ، ولفظ حقو فهم . وهذا هو الطغى ، وصاحبه هو (المنوع) الذى حذى الله منه في هذه الآية .

خلق الله الانسان منذ اول نشأته مغفورا على (الهلوع) ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق في نفسه في جانب هذا الهلوع مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة الدين ، وكآيات الوحي التى كان يتلقاها الانبياء فيمالجون بها ضعف الانسان ، ويلطفون من سورة حلمه ، ومن ذلك الصلاة التى هي عماد الدين ، واكبر مظهر من مظاهر عاطفته . وهذا معنى قوله (الا المصلين) ، استثناءهم من أفراد الانسان الملوئين بالهلوع . فالمصلون بما واطبوا على صلواتهم ، وتمرضوا لنفحات ربهم وهم يباحون فيها - استفادوا ثمرات تقى به ، ورضي بقضائه ، وعرف ان كل خير وشر بتقديره ، فلا يجرعون اذا مسهم الشر ، ولا يمتنعون اذا مسهم الخير . ومثلهم في ذلك الزكوة (الذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

(السائل) القسیر الذى يتكفف فيعطى ، و (المحروم) الذى يتعفف فيحرم ، أو هو الذى أصيب بأفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك ، وافترق وانف ان يسأل الناس ، أو هو الذى كلما طلب الدنيا لادبرت عنه ، ويسمى الحدود بالهواة المهمة ، والمحارف أيضا ، وضده المجدود « بالجيم » وهو المبارك الميمون التقيية . والاسم من المصارف « الحرفة » بضم الحاء . ومنه قول الشاعر :

ما فيه لو ولا ليت تنقصه
وانما ادركته حرفة الأدب

أى حرمان الأدب وشؤمه .

فالمرسورون الذين يحصلون في أموالهم قدرًا معينًا من المال ، ويربون ذلك حقًا وأجيب الآداء للفقراء ، سواء .
أطلب النقاد منهم ذلك أم تمنعوا فلم يطلبوا . . . هؤلاء
المذكورون جديرون - بما مارسوا من الصلاة ، وما
انفقوا من الزكاة - ألا يعطوا من أفراد الإنسان الهلوع
الذي وصفه الوحي ، وشهر به ، ومقت فعله .

قوله (والذين يصدفون الخ) يعنى بهم الذين
أمنوا بالغيث ويوم الحساب ، وصدفوا بجميع ماله
به الوحي على لسان الرسل من أمر الثواب والعقاب ،
فأصبحوا - وقد مازج هذا التصديق قلوبهم - خائفين
أن يحاسبوا ، مشفقين أن يعذبوا ، ولا سيما أنهم
يعلمون أن العذاب غير مأمون ، والخلاص غير مضمون ،
فيزيدهم ذلك أقبالًا على الله وعلى ممارسة الأعمال
الصالحة ، كما أن تقتصم بوعده الله بالثواب تثلج
صدورهم ، وتشعل عزائمهم ، وبذلك يكون مترجحين
بين الرجاء والخوف : لأفلبة رجاء تعلمهم على الكسل
وتسوف العمل ، ولا شدة يأس تسلمهم إلى الخطل
ووسوسة الخيل .

أن مثل هؤلاء المصدقين المشفقين ، قلما يترديهم
الدنيا ، أو يطرهم نعيمها ، أو يجزعون لما فاتهم من
حطامها : فسواء عليهم أصحوا في الدنيا أم سقموا ،
خسروا في حظوظها أم فنعوا . إذ أن لديهم من الفكر
في جلال ربهم ، وذكر مآذهم ، ما يشغلهم عن الجزع
إذا سبهم الشر ، ويربوا بهم من المنع إذا سبهم الخير .
فشر الدنيا وخيرها إلى فناء وانصرام ، ويبقى وجه
ربك ذو الجلال والإكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الموقنين الذين قدروا
أن يحفظوا نفوسهم من وصمة (الهلع) المقسوت ،
ويحفظوا موازينهم ، ويفسطوا ميولها ، فلا تستسلم
للجزع والوسوسة ، ولا تسترسل في المنع والقطرسة ،
وأولئك هم الأغفاء الذين قال الكتاب عنهم أنهم
(لفروهم حافظون) (١) : فلا يرتكبون المحارم ، ولا

(١) جعل المؤلف « الحافظين للفروج » فريقًا خاصًا ،
وهذا يدل على أنه يعد المتعاطلين على الصلاة فريقًا ، والمؤدين
للزكاة فريقًا آخر . . . وهكذا ، ويسمرح بهذا قريبًا . ولعل الذي
سأله إليه تكرر اسم الوصول « الذين » وليس يسدده بل الراد
بالصالحين المؤمنون ، كنى عنهم بالصلاة التي هي عماد الدين ، ثم
ذكر أوصافهم المختلفة التي لا يثنى بعضها من بعض في تحقيق
الإيمان ، بل تتآزر كلها على إصلاح المؤمن في نواحيه المختلفة ، وكل
وصف منها له أثر كبير في مقاومة الهلع . وإنما تكرر الوصول لبيان
مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصلاة من صفات ، كما
قول حينما تريد أن تصف انسانا بعدة صفات ، وفعل على مزيد
الرباط : بها - محمد هو الذي يثوم بشفار دينه ، والذي يكرم
شيوه ، والذي يغلس في خدمة وطنه . . . وهكذا ، كانت تريد أن
تعد الصفات لا يكون إلا له - أمه الصبح .

يتولون بالكلم ، يعرفون غير أئوانهم ، أو ملوكات
أيعانهم ، يعنى الرقيقات - فالذين يقتصرعون على مآحله
الله لهم موانع لناموس الفطرة الإلهية ، وتكثر الهجود
الامة بوفرة النسل والذرية - يكونون (غير ملوفين) ،
بل غير مبخوسين حقهم من الأجر في هذه الدنيا . أما
الذين يتبنون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات -
(وراء ذلك) ، أى وراء ما أحله الله (فأولئك هم
العاذون) أى الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا الناموس
الامر بالاعتدال في مطامع النفس ، وتكليف الحياة .

والرق كان فاشيا قبل البعثة المحمدية في العرب
واليونان والرومان على أشبع صورة وأتكرها . ثم
جاء الإسلام فضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ،
وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرهم ،
فقال : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ،
فأطعوهم مما تأتولون ، والبسوهم مما لبسوا » ،
فكان الرقيق في الإسلام رقيقًا ظاهريًا ، أخا باطنًا .
والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وسائل
نشر الإسلام ، وتعميم تعاليمه ، وتكثر سواد أهله ،
فهو يشبه ماسومونه اليوم بلسان السياسة : التجنيس
بالجنسية والاتحاق بالتابعية .

ومع هذا فإن الدين الإسلامى كان يعتبر الرق
والحرب الوسيلة إليه كليهما ضرورة ينبغى تجنبها
ما وجدنا أن ذلك سيلا . ومن لم كان ينهى من تنهى
لقاه العدو أى ممن تعنى الحرب ، وذلك بأن نقض
مشاكل الخلاف بين الأمم من دونها ، كما يحض على
حق الرقيق وهو أسير الحرب ، ويرغب في إعطائه
حرية ويتوسل إلى حق العبد بمختلف الوسائل ،
ومتعدد الوسائل : كما إذا حلف سيده وحث ، فإن
من كفارات يمينه أن يعق رقبة .

أما اليوم ، وقد اختلفت أصول الحرب بين أمم أقالم
شكلًا جديدا ، وكان ممن تلك الأصول إبطال أمر
الإسترقاق - فلم يكن الدين الإسلامى يسأى ذلك
لوافقته أصل الأصول عنده : أعنى الرحمة والرفق
بالإنسان ، والمبادرة إلى حق الرقيق على أن الإسترقاق
اليوم أصبح من المتعلد إيقامه حسب الشروط التي
اشتراطها الإسلام ، والأحوال التي قرررها الشارع ،
فكان على البشر أحماله وترك العمل بشريته .

تنقسم أصول الشرائع التي يكلفها المرء في دنياه
ثلاثة أقسام كبرى :

(القسم الأول) ما كان بين العبد وربه من عقائد
ومبادات محضة .

(القسم الثانى) ما كان بين العبد وأخواته مما
الترزؤه بينهم من العهد والمعاملات المحضة .

(القسم الثالث) ما كان متوسطا بين القسمين
المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف من

دائمون : يأتون بها في أوقاتها ، فلا تغفون منها فائنة .

لكن هؤلاء قد لا يحسنون أداء الصلاة ، فلا تقع بحيث تؤثر في قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فخص من المصلين المواظبين على الصلاة في أوقاتها ، المحافظين على سننها وآدابها وشرائطها ، وجعلهم قسما رابعا ، لكنه ذكره في آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، وإعادة تذكير بها ، لتكونا موضة للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

٤ - (والذين هم على صلاتهم يحافظون) ، أي يلتزمون شرائطها وآدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، والا كانت حركات ساذجة ، لأحاجة له فيها ، ولا فائدة للعبد منها .

أما القسم الثاني وهو العمالات فلذكر الوحي اللذين يراهمونها ، ويؤدون ما التزموه منها من التوفيق ، وهم فريقان فقال :

٥ - (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ، فد (الأمانات) هي الحقوق المتبادلة بين الناس . و (العهد) يريد به جملة العقود التي تتولى بينهم ، وتكون أساسا للحقوق والأمانات . وينطوي تحت الأمانات والعقود كل أنواع العمالات ومن جملةها (الشهادة) لدى الحاكم ، بل أن الشهادة أكبر ضمانا لسلامة تلك الأمانات وحفظها ، فإذا وقع التسامح والتفريط فيها بكتماها أو نسيانها ضاعت الحقوق ، وفستت وعقمت العقود ، وخزيت الأمانات (١) وفستت العمالات ، ومن ثم خص الكتاب الشهادة من بين الأمانات والمهود بالذكر ، وجعلها قسما برأسها فقال :

٦ - (والذين هم بشهادتهم قاتنون) ، أي يؤدون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

أما القسم الثالث من الأعمال الشريفة المتوسطة بين العبادات والعمالات ، فهي الزكاة والصدقة وكل صلة مالية أخذ المرء على ماله مواساة أخوانه الفقراء بها ، سواء أكانت ماساة أوجبه الله عليه ، أم مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

٧ - (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتصاف فيه على ما حله الشرع ، ففي هذا الاقتصاف والتصف طاعة لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للأنسب ، وبهذا الاعتبار أضيفت مفقود النكاح

(١) من غرى الرجل كغرى غريا إذا حان أو ملك .

وَالَّذِينَ يَصِدُقُونَ بِرِيسَمِ الَّذِينَ ١١ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ شَقِيقُونَ ١٢ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ١٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ١٤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ١٥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ١٦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ١٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ١٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ١٩ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ٢٠ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْلَكُمُ هَٰذِهِمُ الْيَوْمَ عَنِ النَّارِ ٢١ وَعَنِ النَّارِ عَنِ النَّارِ ٢٢ أَيْمَنُ كُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ٢٣ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ٢٤ فَلَا أُنْصِفُ رَبِّيَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَنَقْدِرُونَ ٢٥ عَلَىٰ أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا

الذين وفقهم الله الى تطهير نفوسهم من خلق (الهلع) المعلوم (١) وهم :

١ - (الذين يصدقون بريسمة الذين) (أي يوم الحساب ، لكن هؤلاء قد لا يحملهم تصديقهم على الإشفاق والخوف من العذاب ، فيستسلمون في الماصى والشعور ، فخص المشفقين من المصدقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

٢ - (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) . ثم ذكر أن أعظم مظهر من مظاهر الإشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الإشفاق جالبا لرضاء الله ، وأقيا من سخطه وعلاجه - هو الصلاة والاتجاه الى الله ، فخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

٣ - (الا المصلين الذين على صلاتهم دائمون) . ومعنى

(١) وهكذا يستمرس الزلف في عد الصفات طوائف من الناس ، والصواب - يانه على ما فهمنا - أن يقول هنا : وثمة انطوى تحت جملة القسم أربع من صفات الإيمان الطاهرة للنفس : ١ - الصلح

مهود الشرف والكرامة المتبادلة بين أفراد الأمة، فان في انتهاك أمرائها أضراراً لحقوا بها وامتثالاً لكرامتها . وقد أشار الكتاب الى هؤلاء المتعنفين الموقنين بقوله :

٨ - (والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم التيح) . ومن تفسير ذلك أيضاً في محله .

وبعد ان أتى الكتاب على ذكر هذه الأقسام الثلاثة مما فيه دواء لئلا الهلج الموقوت ، وذكر ما انطوى تحتها من الأقسام :

(أولئك في جنات مكرمون) . (أولئك) إشارة الى ما ذكر من الطوائف الثمانية (١) ، فهو يقول ان لهم من الجزاء يوم القيامة على أعمالهم وحسن مساعيهم ، رضاه الله ، والحلول في دار الكرامة .

(الذين كفروا) هم الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، واتكروا البعث والصلاب والصلاب ، وكان أحدهم سأل من الصلاب متى يقع تهكما به ، وتكديبا له . فيعد ان رد الله عليهم تكديبهم في فاتحة هذه السورة ، ووصف ما سيلقونهم هول الصلاب ، ولا سيما من كذبهم حرصاً على جمع المال وادخاره . وبعد ان ذكر ان هذا الحرص ناشىء من خلق (الهلج) المذموم ، واستثنى اصنافاً من الموقنين الذين طهرهم الله من ذلك الخلق - عاد الى أولئك الكذابين ، فوصف من خلافتهم ، ومن كذبهم أطوارهم فقال : (فما للذين كفروا فيلبك مهطعين ؟) .

(فيلبك) أى جهتك ونحوك الى مجلسك ، (مهطعين) الإطعاق الاقبال والأسراع الى الداعي على حالة خاصة وهي ان يكون ذلك القبل المسرع ماداً عنقه شاخصاً بصره الى من دعاه . ومن أجاب داعيه على هذه الصورة يكون في القالب خائفاً ، وتبدو عليه آثار الدل والخضوع . فالمكذبون من قريش كانوا اذا سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم تالياً آيات القرآن ، وفيها من الزجر والوعيد ما يزعج نفوسهم ، ويصدع أصدان قلوبهم - أسروا الى مجلسه متلعبين متلعين بأعنانهم نحوه ، لا يلبون على شيء حتى يصلوا اليه ، واذا ذلك بتفرقون حوالبه (عن اليمين وعن الشمال عزين) .

(عزين) : أى فرقا فرقا ، وجماعات جماعات ، متحدثين بلسانه ، ومتسفرين ماسموا منه ، كأنهم في أول الأمر ياتون وهمسهم أكثر الخبيل والدعشة والخوف ، حتى اذا اجتمعوا وتراووا زالت وحشمتهم ، وهذات نفوسهم ، ثم أقبل بعضهم على بعض ، فحشلقوا حوله صلى الله عليه وسلم حلقائهم وهناك ، يتسألون - وهم معرضون عنه ، هازئون به - ماذا قال ؟ وماذا أوحى ليه ؟

(عزين) جمع مرة كعدة على خلاف القياس ، لانه لا يجمع جمع سلامة بالواو والتون الا ما كان لما للذكر ماقول ، أو وصفا للذكر ماقول . اما مثل جسيح ستة على ستين وعصفا على عشرين ، وكرة على كرين ،

(١) الأضرة - بناء على ما قلنا - الى المؤمنين الذين اجتمعت إليهم تلك الصفات . المسح .

وعزة على عزين - فهو شاذ . و (العزة) العصبية والجماعة . أصلاً (عز) حدثت وأوها وعرض منها التاء . وكأنا سميت العصبية من الناس عزاة لأنهما تعزى وتتسبب الى رأى خاص يجمع بين أفرادها . ويستعمل الناس اليوم (العزوة) مكان (العزة) مع ان (العزوة) أسم من الاعتزاز بالنسبة من الانساب زنة ومعنى : يقال : ان فلاناً لحسن العزوة .

فلذا اجتمع هؤلاء المهطعون حوله صلى الله عليه وسلم مجالس مجالس ، في كل مجلس ثلاثة ثلاثة ، او أربعة أربعة ، وقد استأنس بعضهم ببعض - عادوا الى استهزائهم وتكديبهم . ويسمعون في آيات الوحي ذكر ما أعد الله للمؤمنين يوم القيامة من النعيم وصفوا الكرامة ، فيهبون رعوهم هازئين ، ويقول بعضهم لبعض سافرين : « ان كان هؤلاء القوم داخلين الجنة ولا يد كما بعدهم محمد فنحن أولاء داخلوها قبلهم » يريدون أنهم أحق بها منهم ، لأنهم هم أشرف العرب وسادات قريش ، فقال تعالى مجيباً لهم : (يطلع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم ؟) . وهذا استفهام إنكاري مشوب بالتوبيخ والتفريع ، أى لا يطمعن طمع منهم ان يدخلها ينتم بسا وهو لم يسع لها سعيًا .

ثم عاد فكرر زجرهم ، وتقبيل رايهم بأداة الزجر الخاصة به وهي (كلا) : أى ما الأمر كما زعموا ، وليس طمعهم بدخول الجنة في محله . وكان قالاً يقول : ولماذا يارب ؟ فاجاب (انما خلقناهم معا بطلعون) . والشيء الذي خلقوا منه المولود لهم ، هو تلك الوبيرة القلرة . فلذا كان الأمر كذلك وعلموا من خلقوا ، فما يكون لهم ان يعموا تلك الجذوى من دخولهم الجنة قبل المؤمنين ، بين الفريقين الا بالتقوى والعمل الصالح ، وأتباع الحق ، وهو ما عليه المؤمنون ، لا ما عليه هم من التكذيب والجحود والعداء ، فليزعموا ان من هذا الطمع الباطل في دخول الجنة قبل غيرهم .

وانما رد عليهم هذا الرد ، وأباسهم من دخول الجنة بهذا الأسلوب ، تذكيراً لهم بأن الذي خلقهم من شيء حقير - كمثل الشيء الذي خلقوا منه - قادر على ان يخلقهم من التراب الذي تحولت اجسامهم اليه بعد الموت ، فما كان ينبغي ان يدعوا دخول الجنة قبل غيرهم ، بل ما كان لهم ان يتكروا البعث أصله .

فاتظر كيف جمع في هذه الكلمات القليلة ما شاء من الاحتجاج على الكذابين ، والتفريغ عنهم ، والانه القول لهم ، مع التواضع التامة في التعبير ، وحسن الإيقاظ والتذكير . ولا عجب فهو الكلام الإلهي الذي تبوأ من البلاغة سنام الإعجاز ، وترك لغيره الأخير والأعجاز .

(فلا تقسم الخ) : يقال في هذا القسم المنقلى ماثل في قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)

بوقريء (يرب الشرق والغرب) بالافراد ، أى مشرق

نَحْنُ بِمَسِيرَةٍ ۝ قَدْ رُمِيَ يُحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ ۝ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سَرَّاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرَفَهُمْ ذَٰلِكَ أَيُّومُ الَّذِي كَانُوا يَوعَدُونَ ۝

(حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ) ، أى حتى يصلوا
وبلغوا يومهم الذى اوعدهم الله بالعذاب فيه ، واذا
ذلك يعلمون أنهم كانوا على باطل ، ورأى قابل ، وأنهم
اضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

(يَوْمَ) بدل من يومهم فى آخر الآية السابقة .
يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه .
(وَالْأَجْدَاثِ) القبور . (وَنُصُبٍ) وزان عنق مغرور
جمعه أنصب . وقيل انه جمع واحد نصاب ككتب
فى جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نصب
واقم لأجل أن يعد من دون الله ، من صنم أو غيره .
(وَنُفُوضٍ) يرمون ويستيقنون . (وَالْخَشِيعَةِ)
فى البصر النفس والكسر ، وفى الصوت الخفض
والاخفات ، أما الخشوع فى البدن فهو الذلل والتطامن ،
(وَتَرَفَهُمْ) تفشاهم وتعلوهم وتستولى عليهم .

والمنى أن اولئك المكذبين المستهزئين الذين امر
الله نبيه أن يخيلهم وشأنهم سيلاقون يومهم الموعود
عما قليل ، وفى ذلك اليوم يخرجون من قبورهم
مجيئين داعيهم ، مرمعين الى موقف العرش والحساب ،
وأن حالتهم فى اسراهم الى ذلك المكان كحالتهم فى
الدنيا مذ كانوا ينفرون من مساكنهم فى أيام عبادتهم
ومواسمهم متسابقين الى حيث نصبوا أصنامهم
وأهنتهم ، أيهم يأتوها أولا ، فيعبدها ويتقرب إليها من
دون الله ، وتكون أبصارهم فى ذلك اليوم مضطربة
منكسرة الى الأرض ، وعلى وجوههم آثار الذلل
والهانة .

وقوله : (ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يَوعَدُونَ) ، أى
هذا اليوم هو اليوم الذى كانوا يوعدون به فى دار
الدنيا ليعامروا فيه ويكذبون ، قد تحقق ووراه
بأعينهم .

وفى تشبيه حالة اسراهم الى موقف الحساب
بحالة اسراهم وتسايقهم فى دنياهم الى أهنتهم
وطواغيتهم - بهم يوم ، وتعرض بسخافة عقولهم ،
وتسجيل عليهم بالجهل فى هذا الاسراع الى مباداة غير
من يستحق المباداة ، والتقاعد عن الايمان بمحمد صلى
الله عليه وسلم الذى يدعوهم الى الايمان بالله وحده .
وقرى : كاتهم الى نصب يوفضون (يفتح النون
وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنصوب ، والغاية
يستبق إليها المتراهنون يوم الصباح ، يقول : أن
المكذبين يخرجون يوم القيامة مجيئين الداعي كأنهم
يسرعون الى راية رفعت لهم ، فهم يتندرونها
ويستيقنون إليها . وليس فى هذا المعنى من التوبيخ
والتقريع ما فى المعنى الاول ، فيكون الاول هو الاكمل .

الشمس ومفرها . أما قراءة الجمع فباعتبار أن
للشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف أيام السنة
وقصولها ، كما أن لها مغارب متعددة كذلك . أو المراد
مشارق الكواكب ومفرها ، وفى جملة ما تعالى . وضمير
(منهم) يرجع الى أولئك الذين كانوا يهبطون الى
مجلس النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغوه
تفرقوا حواله مصائب عصاب من اليمين وعن الشمال ،
ثم يأخذون فى التهمك به ويتابعه المؤمنون .

وقوله : (وَمَا نَحْنُ بِمَسِيرَةٍ) أى انا انا اردنا
الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ بنواصيرهم ، فلا
يمكنهم أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، ويفوتونا طلبا .
فمعنى (وما نحن بمسيرة) هنا بمعنى قوله تعالى
خطايا لهم فى غير ما موضع (وما أنتم بمجزيين) ، أى :
ما أنتم بفاعلين على أن تفلتوا منا فنجزى عن الوصول
اليكم ، وإنزال العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة للقس فالأمر واضح ، انا
لنى إمكانان نستبدل بكم بامعشر المكذبين المستهزئين
فوما يكونون خيرا منكم استعدادا للايمان ، وقبولا
الحق ، ومسارة الى تصديق محمد عليه الصلاة
والسلام . ثم لا تصيبوا أنكم قادرين على الهرب
والانفلات ، فتسبقونا وتنجون بأنفسكم مشا بحيث
لا نعود قادرين على أنوال العقوبة بكم . كلا ! فكل
ما توهمنوه باطل .

ثم التفت الى النبى صلى الله عليه وسلم حاشا له
على الثبات والصبر ، ومتوعدا أولئك المكذبين على
ما كان منهم من النجود والكفر ، فقال :

(قَدْ رُمِيَ) أى دهم بامحمد (يَحْضُوا) فيما
يعجبهم من لهو الحديث ونفو الكلام . جعل الاستكثار
من الحديث الباطل ، واللمع فيه كل مذهب خوضا
على التمثيل . (وَيَلْعَبُوا) يأتوا من الأعمال ، ويرتكبوا
ثم لا يزالون كذلك فى خوضهم ولعبهم وباطلهم وفلتتهم
من الأمور ، ما هو لب وهزل لا فائدة لهم فيه ولا نفع .

(٧١) سُبْحَانَ نوح مَكِّيَّة
وَأَيَّاهَا ٢٨ نزلت بعد الفحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَآثَقُوا وَأَطَاعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُزِيَّرْكُمْ لَئِنْ أَجَلُ مَسَىٰ ۖ إِنْ أَجَلُ

(أن) في قوله (أن اتذر) وفي قوله (أن اعبدوا) تسمى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدم (أن) الأولى الإرسال ، وإرسال الله النبي إنما هو تحميلة قولاً إليها يلفه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْذِرْ قَوْمَكُمْ) من دون (أن) على تضمين (أرسلنا) معنى القول ، فكانه قال « قلنا أنذر » وقد تقدم (أن) الثانية قوله (نذير) ، وهو من الإنذار الذى معناه التحذير والتخويف بالقول . ويصح أن تجصل (أن) فى التضمين مصدرة لا تفسيرية ، وتكون مجرورة بالباء ، والتقدير أرسلناه بأن أنذر ، أى بقولنا أنذر ، وأنى نذير بأن اعبدوا ، أى بقولى لكم اعبدوا .

وقوله (مبين) صفة النذير من (إبان) اللام إذا اضحى واكتشف ، بمعنى (نظير مبين) نذير بين واضح البرهان لا لبس فى صلتك انفاده ، أو من إبان التعمد أى نذير مظهر لآمره ، وكاشف من سره ، ومعرب من نفسه أنه نذير صادق مخلص ، وهكذا يقال فى أخواتها الواردة فى القرآن : (عدو مبين) (ساحر مبين) (لصبان مبين) (خصيم مبين) (مربى مبين) (أفك مبين) (غوى مبين) .

وقوله تعالى : (يغفر لكم من ذنوبكم) أول ما يتبادر للنفس أن (من) هنا لإفادة التبعيض أى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من المفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أن قوم نوح إذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الإسلام يجب ما قبله . وأجيب عن هذا بأن فى التبعيض اسماء وتبنيها قوم نوح إلى أن ما يغفر لهم من الذنوب

أما هى الذنوب التى كانت وقعت منهم قبل أن آمنوا ، أما ما يقع بعده فهو لأصق بهم ، ولزمهم التوبة منه . فالذنوب التى تغفر لهم بالإيمان إنما هى بعض من جملة ذنوبهم الصادرة منهم فى أيام حياتهم ، أو يقال أن الله يغفر لهم بعض ذنوبهم وهى التى تتعلق به تعالى ، أما ذنوبهم الأخرى المتعلقة بحقوف العباد فعليهم الاستحلال من أربابها .

وأرى أن (من) متعلقة بغفر على تضمينه معنى « التحليل » يقال « حل فلان فلانة » إذا حله فى حل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر قوم نوح إذا اطاعوه جاعلاً لهم فى حل من ذنوبهم التى كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل أنه تعالى بدأ عنهم هلاک الاستئصال كالطوفان ونحوه إذا هم آمنوا بنوح ، ويؤخرهم إلى حين حلول آجالهم فيسوتون السورة الطبيعية التى كتبها الله على بنى آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) و (البسمي) المقدر والقرر فى علم الله تعالى .

و (نوح) عليه السلام أقدم نبي رسول ذكره الوحى ووصف وجود قومه وتكذيبهم له وما كابداه منهم من العناء والأهانت حتى أفرقهم الله بالطوفان ، ولم يذكر من نبي قبله ما ذكر عنه من هذا القبيل ، وما ذكر من أبيه وإبى البشر آدم عليه السلام إنما هو شرح لكيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له وألوجه فى دار الجنان ، ثم هبوطهما . ولم يذكر لنا الكتاب من أطوار ذريته وأحوالهم من حيث الإيمان والجود والطاعة والعصية سوى ما كان من منازعة إبنيه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للثاني بفيا وحسدا . وقتله له أول مثال من أمثلة الظلم وقع فى البشر وقصه علينا الوحى .

وجاء فى كتب الأوائل أن فى زمن « أنوش بن شيث بن آدم » ابتدأت عبادة الأوثان ، وجعل الناس يسمون المخلوقات آلهة ، فكان « أنوش » يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده . وفى زمن إدريس عليه السلام - وهو أخنوخ بن يارد ابن مهلائيل بن قينان بن أنوش - كثرت النفاق ، وانفس الناس فى الآثام ، فانزل الله عليه وحياً فى سفر ، هو صحف إدريس المشهورة ، ولم يبق من ذلك السفر سوى فقرة يقولون أنها وجدت فى أطواء بعض الكتب المقدسة ، وهى : « وقد تنبأ اختسوخ على هؤلاء الأمم فقال : هو ذا الرب يأتى فى ربوات قديسة لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم » .

أما فى زمن سيدنا نوح - وهو ابن لامك بن متوشلح بن إدريس - فقد شاع الكفر ، واشتد العصيان فى البشر ، واکثروا من الظلم والبغى والفساد ، فكان من خبرهم مع نبهم نوح ما قصه الله علينا فى فاتحة هذه السورة وفى غيرها من سور القرآن .

اعبدوا الله .

و (الركن الثاني) تقوى الله واجتناب المعاصي والذنوب والفواحش التي تقسّد عليهم صحتهم وأخلاقهم وآدابهم ، وفنك روابط الألفة وهرا النظام بينهم ، وهذا معنى قوله (واقفوه) .

و (الركن الثالث) اطاعة ولي الأمر فيهم ، وهو نوح عليه السلام نفسه ، وهذا معنى قوله (وأطيعون) . فالعدوة السماوية التي هي أول ما أنزل على البشر ، وبلغ اليهم ، هي مطوية في ثلاث كلمات فقط : إيمان ، تقوى ، طاعة . بالإيمان ينظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ، وبالتقوى ينظم أمر أخلاقها وأدائها فتسلم من السقوط والفساد ، وبالطاعة ينظم أمر اتحاد كلمتها وصلو شأنها فتسلم من الانحلال والضياح .

وما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السماوية لتعلم في الحياة الاجتماعية تستطع ، وترقى في العزة والقبلة وتعيظ . وآية ذلك التاريخ : فهو الشاهد الممل ، وإلى في هذه المسألة القول الفصل . ومحصل معنى الآيات : أن الله أرسل نوحا إلى قومه ، وكلفه أن يبلغهم أمره السماوي ، وأن يذعنوا له ، وأن لم يفعلوا فإن عذابا اليما يوشك أن ينزل بهم . فجاء نوح قومه وبلفهم أمر الله بأن يعبدوه وحده ، ويتقوه ، فيبدوا المعاصي ، ويطيعوا رسوله فيما يأمرهم وينهاهم ، وأنهم أن فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذي أوعدوا به . فيعيشوا أعمارهم ، ويتمتعوا بالنعمة إلى آجالهم . وكان نوحا يهدم من قومه الرب والشك في أن لهم أعمارا محتومة ، وأجالا معلومة يموتون عندها ومن ثم أتبع قوله : (ويؤخركم إلى أجل مسمى) بقوله : (أن أجل الله) المسمى والمقدر لكل حي من بني البشر (إذا جاء) وقته وحينه (لا يؤخر) عنه بل ينفذ طبقا للمشيئة الإلهية .

ثم أظهر نوح أسفه من أن قومه فلو في الجمل والمعاد حتى أتوا هذه القضية الدينية : وهي أن لكل أجل كتابا فقال : (لو كنتم تعلمون) ، أي ليكنتم استسلمتم عقولكم ، وتذبرتم الأمر بها فاعتديتم إلى ما قلت لكم . وفي هذا التحذير من التوخيخ والتعير ما فيه .

ويصح ألا يكون المراد بالأجل في قوله تعالى : (أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) أجل العمر المسمى المذكور قبله ، بل يكون المراد بأجل العذاب الهنيئ لهم فيما إذا لم يؤمنوا بنوح ، فإن هذا العذاب له أجل وقت معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم ، وهو الذي يجعلهم قوم نوح ويموتون فيه . أما أجل الموت الطبيعي الذي يدور كأسه على كل واحد من بني آدم ، فمن المستبعد أن يجعلوه إلى حد أن يماروا فيه وفي أنه إذا نزل بهم لا يؤخر . فيكون معنى قول نوح (لو كنتم تعلمون) لو كنتم تعلمون ماله من نفوذ المشيئة والحوال والقدرة في أنزال العذاب بمنكرى ونحوه ومكذبي أنبيائه .

الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴿ ١ 〉 قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴿ ٢ 〉 فلم يردعهم دعائي إلا قرا ﴿ ٣ 〉 وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصيهم في أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ ٤ 〉 ثم إني دعوتهم جهارا ﴿ ٥ 〉 ثم إني أعلنت

وذكر في الأسفار القديمة أن نوحا ولد لسنة ١٨٢ من عمر أبيه « لامك » لسنة ١٠٥٦ لجده الأكبر آدم عليه السلام . ومعنى نوح : الراحة والتعزية . وكان عمر نوح ٥٠ سنة لما أخذ يلد أولاده ساما وحاما ويافث . وكان عمره ٦٠ سنة . حصل الطوفان (١) . وجميع أجداد نوح ولسوا في زمن جدهم الأكبر « آدم » . أما هو فلم يولد في زمنه ، فأجداده المذكورون أمكنهم أن يعاشروا جدهم آدم ، ويتلقوا الأخبار الصحيحة منه من أبداع العالم وما علمه الله أباه . وكثيرون منهم ولا سيما متوالم « و « لامك » عاشروا ابنهم « نوحا » سنين متطاولة ، فلتقوا ما لفتواهم من جدهم آدم . ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة أمكن حفيده إبراهيم الخليل أن يعيش معه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه الأخبار الصادقة ، أو أن إبراهيم تلقى ذلك من جده سام أن لم يكن تلقاه من نوح . ولقنه إبراهيم لأولاده اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة الحلقات . وبعد أن نجا نوح من الطوفان جعل يعثر الأرض ويغرمها كروما كما كان يفعل آبؤه . أمه .

هذا منقول ما جاء في الكتب القديمة من خير نوح عليه السلام . ونحن - معشر المسلمين - لانصدقا ولا تكديها (١) بل نكل أمرها إلى العالم الحديث ، فهو الذي يمحسها ويميز فثها من سمينها .

ويظهر من هذه الآيات التي التتحت بها سورة نوح ، ومما تضمنته من خبره ، ومساويرة لقومه ، وشكائته إلى الله من فيهم وسوء متبعهم - أن دعوته كانت مؤسسة على ثلاثة أركان :

(الركن الأول) ترك عبادة الأصنام (ود) (سواع) (يثوث) و (يعوق) و (نسر) التي كان يعبدوها أهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم

(١) قوله تعالى في سورة التكاثر ١٤ : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأعلمهم الطوفان) يفيد أن الطوفان حدث بعد أن أمضى نوح بين قومه ٩٥٠ سنة فالأثران يخالفت في ذلك ما نقله المؤلف من الأسفار القديمة . (مرآة النفاة بالآهر)

الى عبادة الله وتوحيده ، ويمظهم ويخوفهم باسمه وعلايه ان يحل بهم ان هم لم يؤمنوا . وحكى هنا شكائته الى ربه عنادهم وتعاديهم بتكذيبهم وجودهم وقال انه كان يدعوهم (ليسا ونهارا) اى مستغرقا جميع الاوقات ، فكان كلما زادم دعوة وحضا على الايمان ، زادوه (فرارا) وهربا وتفلتا منه فينا وشالا فلا يفسون اليه ، ولا يجتمعون عليه .

ثم وصف نوح نفورهم ، وصور حالة امرأهم ابلغ تصوير فقال : انهم كانوا اذا دعاهم الى الاقرار بوحداية الله والعمل بطاعته (جعلوا أصابعهم في آذانهم) ثلا يسمعوا قوله . وهذا شأن الكبار المماند الذى يعلم ان الحق سطوة على الوجدان ، فهو يخشى ان ينفذ منه نور الى قلبه ، فتزجج منه نفسه ، ويتفحص له عيشه ، ولذلك تراه يحتجده في ان يتعدى عن الدامى الى الحق . وما كان قوم نوح يكتفون بالفرار منه تارة ، ويسد مسامعهم تارة اخرى ، بل هم احيانا كانوا اذا رآوه (استنشوا نياهم) ، اى تغطوا بها ، ووضعا اذانهم وفضلوا اكمامهم على وجوههم وروسهم كيلا يراهم هو فينبئرى لهم بالدعوة والنصح ، او كيلا يروه هم فيثأذوا برويته ، وسماع دعوته .

وسين (استنشوا) اما للطلب ، اى طلبوا من نياهم ان تفسهم وتغطيهم ، واما للعمل والصيرة ، اى جعلوا نياهم أغشية لهم . ثم ان نوحا اخبر ان قومه يفعلون مذكر على وجه الدوام والشبات بحيث لم يعد يرجى منهم اوبة أو توبة ، وهذا معنى قوله : (وأصروا) . يقال « اصر على الامر » اذا لزمه ولبث عليه ، واكثر ما يستعمل في الاكباب على الشرور وسيئات الأعمال .

اما اباء القوم ، ونفرتهم من نوح وسماع دعوته — فسببه كبرهم وعزتهم ومناظمتهم في نفوسهم . فهم يرون نوحا دونهم منزلة ومقاما ، كيف يطعمونه ، ويخضعون له ، ويصحبون في عباداته ؟ وقد اشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مد قال : (استكبروا استكبرا) الى فرط كبرهم ، وغلوهم في عتوهم .

ومن لطيف تمريره بحالتهم قوله : (واتى كلماء دعوتهم لتتفر لهم) . وهو صلات الله عليه ما كان يدعوهم لاجل المغفرة ، وانما كان يدعوهم لاجل الايمان بالله ، فاذا آمنوا به غفر لهم ذنوبهم . . . لكنه طوى ذكر الايمان ، وجعل دعوتهم لحض مغفرة ذنوبهم ، وفي مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم . لكم تكون الجحالة مستحكمة في نفوسهم اذا كانوا يسدون مسامعهم ، ويغطون على عيونهم ، كيلا يصلوا الى السعادة ، وهى بين ايديهم وتحت اشعة انصارهم . قال نوح في الآية السابقة : (رب اتى دعوت قومي ليلا ونهارا) وقال هنا : (ثم اتى دعوتهم جهارا) عاطفا بشم ، فاذا ان هذه الدعوة الجهرية كانت غير الأولى ، وان بيتها وبينها بعدا وتفاوتا . فاذا تقرر ان الثانية

سرية ، فهو يقول : انه في اول الامر كان يتكتم في عرض الدعوة على قومه ، فكان يدلى اليهم بالمناصحة سرا ، مستغرقا في ذلك جميع وقته ، ليلا ونهارا ، كما هو شأن الدامى الحرص على بث دعوته ، الحاذق في اذائها الصالح بطرق تبليغها : يتحين لها الفرص ، ويختار لها الاوثق فالأوثق من الرجال ، ولا يتسرع في افسائها خشية ان يكاد لها ، ويقام الوائى دونها . ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح في القوم لفرط عتوهم ، وبحصر العناد في نفوسهم ، وهذا ما حمل نوحا على سلوك طريق آخر في الدعوة وهو مصارحتهم بها ، وتبليغهم اياها جهارا من دون تكتم ولا خوف ولا رقة ، وهو معنى قوله : (ثم اتى دعوتهم جهارا) ، اذ ربما كان فرط تكتمه في امره ، واستخفائه بدعوه ، يجعلهم يظنونها باطلا ، والا فما الذى يمنعه من الجهر بها ؟ او يظنون انه عاجز جبان بلهيفا ، فهو يكتمها خشية انتقامهم به ، وهذا مما يزيدهم نفورا وعتادا . ومن ثم قام نوح عليه السلام بمصدمهم بمعونه صديقا ، شأن الواقى من صدقها ، المعتمد على ربه في حيالته وحياطتها ، كانه يقول : هاكم دعوتى ابليكموها على رؤوس الاشهاد فان كان لكم سلطان بين على بطلانها فهاتوه ، او كنتم تريدون قتلى وصدى بالقوة فافعلوه .

اذا لم يكن لدى الدامى جرة وشجاعة ادبية في عرض دعوته فان دعوته تموت مهما كان واقفا من صدقها ، بل مهما كانت هي حقا في نفسها . وكتم دعوة حق مالت في مهدها ، وكلمة صدق خمدت بمدق وقلمها (١) — بسبب قبيح الدامى المقاميين له ، وما ينقص من الشجاعة الاذينية تحمل الكوارث والشوائب التى تضر سيرة . ومن ثم جعل زعماء المدنية الحديثة الحرية الفكرية ركنا من أركان مدنيتهن ، ومعادا قويا لحضارتهم . ولو قال قائل : ان مدنية الفريين ، وظهور النوايغ فيهم ، وعروجهم في السلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم في المزة والصولة والقلبة الى الاجل الذى وصلوا اليه اليوم — انما هو اثر من آثار الحرية الفكرية . . . ما كان غالبا ولا مبالغا .

ولا صدق نوح قومه بفسوته هذا الصدع ، وباداهم بالمناصحة هذه المباداة — اضطربوا وحاصروا ، وعلوا ان الامر جد ، وان نبههم غير عاجز ولا وكل ، واته على بيته من امره ، وقوة في مريته ، وانهم اذا نهاتوا في شأنه ، واستغفروا بدعوه — ربما علقت كلماته بنفوس بعض ابنائهم فيقولون بها ويشبون عليها ، وحينئذ يعظم أمرها ، ويستفحل خطيبتها . فصاروا يداورون نوحا عليه السلام ، ويحاولون اسكاته وصرفه عن النهج الى المذاكرة معه في السر . فلم باب نوح ذلك عليهم ، وجعل يصف لهم دعوته ، ويبلغهم أمر الله في مجالس خاص ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقي مصرا على الجهر بالدعوة والاعلان بها

(١) وقته : مصدر وقدت النار اشتعلت . وكل فيه يتلا هو يند حتى العالج اذا تلاا يسهله .

لَهُمْ وَأَمْرُهُمْ لَمْ يَسْرَأْ ۖ قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
إِنْ كَانَ غَفَارًا ۝ يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝
وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ
لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ اللَّيْلَ فَيَنُورُ وَجَعَلَ

في الجامع، وحيث يكون السهماء والجمهور. وهذا هو
الطور الثالث من أطوار نوح في دعوة قومه، وتبليغه
رسالة ربهم اليهم. وقد أشار إلى ذلك بقوله: (ثم
أني أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارًا) .

والعطف يتم يشعر بأن الإعلان والأسرار الآخرين
كانا بطريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة
السر الحصة، وغير طريقة الجهر الحصة. فكان في
الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة سرًا حيث يصلح
الإعلان، وبسرهم لها أخرى حيث يتوقع نفع الأسرار.

ثم بين ما وعظهم به سرا وعلايته فقال: (فلعلت
استغفروا ربكم أنه كان غفارًا الخ) ، أتاهم من طريق
القلب، وتحريك المواقف، والتذكير بأن ما هم فيه
من انحباس الأمطار، وما حرّمهم من الرزق والذرية
وجذب الأرض وقحوها - إنما سببه كفرهم بالله الذي
ييده وحده إرسال المطر، وإفلاق الرزق، والإمداد
بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا
الإله الذي يقتدر أن يمنحهم أمثال هذه النعم، ويميدوا
آلهة أخرى، أختروها، لا تضر ولا تنفع. فقلوه:
(استغفروا ربكم) ، أي آمنوا به، واطلبوا منه أن
يصنع مما فرط منكم. فلأمر بالاستغفار يقتضي أمرًا
بالإيمان، لأنه لا معنى لأن يطلب الجاحد من آله غفران
بمعاصيه وهو مقيم على كفره، وتكذيب نبيه. وقد
يقال في معنى (استغفروا ربكم) اطلبوا منه تعالى أن
يقفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعبادة غيره،
وليس معنى هذا سوى الإيمان بالله وترك الشرك.
ويلازم هذا المعنى قوله بعده: (أنه كان غفارًا) ، أي
أن ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم، ويقفر لكم
ما معصي من شرككم به وعبادة الآلهة غيره، وإتاكم أن
تؤمنوا به وتستغفروا (يرسل السماء عليكم مدرارًا)،
و (يرسل) مجزوم جوابًا لاستغفروا .

و (السماء) في قوله (يرسل السماء عليكم المطر)
وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان،

المطر عليه. وكل هذا يجوز وتوسع في كلمة (السماء)
التي معناها في الأصل ما اظلم الإنسان جهة الملو .
وقد جاء العنيان في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناها وإن كانوا قضيبا

فقلوه « نزل السماء أي المطر » وقوله « رعيناها »
أي رعيها السماء بمعنى الكلا والعشب الناتج من المطر .
وأعادة ضمير « رعيناها » على السماء بشر معناها
الأول نوع بدعي يضيء الاستخدام . و (المدرار)
الكثير النور، الفزير الانسكاب . و (الإمداد) الإعانة
بالشيء، والتتميع به على وجه الفائدة والانتفاع .
و (الجنات) البساتين ذات الأشجار المظلة، المثمرة
الغلة .

وفيهما مما قاله نوح لقومه أن قومه كانوا مجذبيين
مصحلين محاربين مشغومين، وإن فساد أمرهم،
وسوء أخلاقهم، وغلبة الذنوب عليهم، وأخلاقهم إلى
البطالة والكسل، وجهلهم بشئون الزبارة والمصانة
وأفانين العمل - كل ذلك أدى إلى حرمانهم مما كان
في طاقتهم أن يحصلوا عليه لو آمنوا واطاعوا، واليعوا
الشرائع التي أتاهم بها نبهم نوح من عند الله، والتي
يصلح بها شأنهم، وينتظم أمرهم، وتكثر ذريتهم،
وستبهر عمرانهم .

فبالإيمان بالله، وبالعامل بشرائه، وبطاعة نبيه -
يتبدلون على العمل، وإنشاء البساتين، وغرس
الأشجار، وحفر الترع والآبار... وبذلك تقدر
محاصيلهم، وتكثر أرباحهم، وتتوفر مكاسبهم،
ويغدق الرزق والمسال ينهمس . ويترك المساعي
والفواحش والفجور - ينتظم أمر البيوت، وتتوفر
روابط الألفة والمحبة بين أفراد الأسرة، ولا سيما بين
الزوجين، فيطيب إذ ذاك العيش، وتتوفر دواهي
الهنا، ويبارك الرب سبحانه في الذرية والبنين .

كانت هذه الأمة التي هي من أقدم أمم التاريخ
محرومة من كل هذه البركات، لكنها كانت شديدة
التشوق إليها، والحرص عليها - فجاءها نبهها نوح
يرشدنا ويعلمها، ويبلغها من خالقها ما به صلاحها
وينجح طلبها، ويؤكد لها أنها أن اطاعتها انتقلت بأن
خالقها إلى طور في الاجتماع أكمل، ودخلت في دور من
أدوار الحياة أفضل وأمثل .

بعد أن اطعم نوح قومه في الآيات السابقة بالحصول
على بركات السماء وخزائن الأرض أن هم آمنوا بالله
الذي ييده مقاييس هذه الخزائن، ومنه وحده تستمد
لك البركات - ما فز نفوسهم ومطعمها نحو الإيمان
بأسلوب آخر من أساليب البيان، فقال: (مالككم
لا ترجون لله وقارًا، وقد خلقكم أطوارًا) ؟ .

والعمدة في هذا الأسلوب استعمال المثل،
والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر
والتفكير في خلق أنفسهم، ثم في خلق هذه الكائنات

المعلومة والسلفية ، كما كان العنفة في أسلوب الآيات الماضية ، هو القلب وبحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذي في الشكر له والإيمان به استزادة من تلك النعم ، وتصجيل في الوصول إليها .

و (الرجاء) الأمل ، وقد عطف عليه قول كعب : « أرجو وأمل أن تدنو مودتها » . وقد تضمنه العرب في موضع الجوف إذا صاحبه جده كما قال أبو ذؤيب « إذا لمسته التحل لم يرج لسمها » . يصف مشتار الصل : يقول أنه لا يخاف لمس التحل إذا هي لسمته لاعتياده ذلك منها .

والرجاء في لغة هليل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم أدر يصنون لم أبل .

و (الوار) في الإنسان الرزاة والعلم . يقال : « وقر فلان » إذا رزن . أما الوار في جانب الله فيمعنى العظمة ، والتوقير التعظيم . يقول نوح قومه « مالك أيها القوم لاتخاذون لله عظمة » أو لاتبايئون عظمة الله فتؤمنوا به ، ولا ترهبون له جانباً فتدعوا عبادة غيره ، وأنتم إذا نظرت في أنفسكم وفي الآفاق رأيتم من غريب صفته ، وعجيب ابتداعه ، ما يستلهي منكم تلك المخافة والرهبة .

والمراد (بالآطوار) ما عليه البشر في أفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد ، والسعادة والشقاوة ، والخير والشر ، والعفيلة والرديلة : تصفيف الناس إلى هذه الأصناف ، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة ، وشان دون شأن سديل على وجود الله حكيم مدبر مريد يرضى من شاء بما يشاء .

والذي عليه الاكثرون ان المراد (بالآطوار) حالات التخليق غير المستقرة ، التي يتدرج فيها الإنسان من حالة إلى حالة ، وينتقل من طور إلى طور : طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم عظاما قسيما ، قد كسى لحما طريا ، ثم بشرى سويا ، وروحا بقريا - فتنبارك الله أحسن الخالقين .

نه نوح قومه إلى النظر في انفسهم أولا ، لانهما اقرب اليهم ، والاستدلال بها اسر عليهم ، ثم امال انفسهم إلى الآفاق ، قائلا : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) ، كانه في هذا الاستفهام يجيبهم من أمرهم في تأخر صدور الإيمان منهم ، مع انهم سبق لهم ان رأوا السموات ، ووقفوا على شئهم من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو انه نزلهم منزلة المعين الذين لم يروا ثقلها أنجمل والدخول عليهم .

ونفهم من (السموات) ما كان يقسمه منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانهم (١) ، وهو ما ارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذي تسمي فيه الكواكب والنجوم من طرائقها ومداراتها . هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بواسطة الرصد

وادوات المراقبة - لم تكن كلها في رفيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام انها متفاوتة في العلو والارتفاع : بعضها أعلى من بعض ، كما ان بعضها أكبر جرمًا من بعض . وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذي تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طباقا ، طبقة فوق طبقة ، فالذي يرى السموات يشهد بعينه ومقله انها ذات طبقات متعددة . وقد عرفت الأمم منذ ذلك العهد ان تلك الطبقات سبع ، وان في كل طبقة كوكبا متبرا يدور فيها ، فأصبحت مدارا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره . وقد عرف نوح من قومه يومئذ أنهم بلغوا من العلم إلى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، ومداراتها .

والرؤية المستفهم منها في قوله (ألم تروا) انما هي الرؤية العلمية التي تكون بالاستدلال والاكساب ، وأعمال القياس والخصاب ، وليست هي الرؤية البصرية التي تكون بمجرد العين ، فان العين وحدها لا يمكن ان ترى سموات سبعاً ، واحدة فوق أخرى ، وانما ترى جلدا واحدا فيه نجوم متعددة .

ومحصل القول ان البشر في زمن نوح - وهو الزمن الذي عاش فيه الكلدانيون المشهورون بصلم الهيئة ورصد الكواكب وعبادة النجوم ، ويسمون الصائبة ايضا - كانوا يوصلوا إلى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وقد قسموا الفضاء باعتبارها إلى طبقات سبع ، وبيّنت هذه المعرفة متواترة في الأمم جيلا بعد جيل حتى رمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فتخطوا عن أمر السماء بما اعتادوا ان يتخاطبوا به فيما بينهم ، وهو ان السموات سبع ، وان طباقها طبقة فوق طبقة . . إلى هذا القدر بلغ علم الأمم في الزمن القديم ، ولا يلزم منه ان تكون الكواكب والأجرام السماوية الكبرى في الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا ان يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل ان الله منده من علم السماء وعدد أجزائها وتاليف طباقها مالم يصل إليه علم البشر ، اللهم الا ما علموه في العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، والا ما علموه في العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السيارة الأخرى ، وبعض الطبقات والمدارات الأخرى ، ولا مانع ان يطلع الله البشر في المستقبل على غير ذلك من الأجرام والعلقات ، ولكن خطاب الله للأمم ووحية اليها انما يكون انما تتركه قولها ، وتلمسه بوساس ، ويبلغ إليه تصورها في عهد ازال الوحي ، ويكنى في الدلالة على المطالب .

وقوله تعالى : (وجعل القمر فيهن نورا) فيهن أي في السموات السبع دولا يفرض ان يكون القمر في الواقع ونفس الأمر في ادنى تلك السموات واقرّب طباقها اليها لافيهما كلها ، لانه أسلوب عرف التخاطب به بين أهل اللسان ، فهم يقولون : فلانا يسكن المدينة الفلانية ، يريدون انه ساكن في حي من أحيائها وجهة من جهاتها لا في كل حي وجهة منها . وكذلك هنا من قال : ان القمر في السموات أي في مجموعها ، الصادق باستقراره

(١) قال ابن سيده في الخفض « جزء ١٦ صفحة ١٨١ » ما نصح : « والسماء والسماة سفار النجوم » وقد مر مثله .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمْعَ مَرَجًا ﴿١٦﴾ وَأَنَّ الْبَصَرَيْنِ مَثْرَجَانِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُهُنَّ كُرْسِيًّا وَيُخْرِجُهُنَّ مَرَجًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّ الْجَلَ لَكَ الْأَرْضَ إِسْلَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَلْسَكُوا مِنْهَا سُبُلًا ﴿٢٠﴾ فَبِجَالِهَا ﴿٢١﴾ قَالَ نوح رَّبِّ إِنِّي أَمْسَوْتُ وَأَتَّبَعُوا مِنْ لَدُنْكَ مَا لَهُمْ وَوَلَدُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٢﴾ وَصَرُّوا مَبْغَرًا

في واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) مع أنه إنما أنزل في ليلة واحدة من ليالي رمضان ، وهي ليلة القدر ، لا في رمضان كله . ومن مواضع المصباح أن الكتاب لم يقل من الشمس أنها جعلت فيهن ، أي في السموات ، كما قال من القمر أنه جعل فيهن . وقدم فـأخيرا أن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وأن السيارات السابعة في سمواتها ومداراتها تحثف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار مكدودة في السيارات السابعة في السموات ، الرتبة طبقات طبقات . أما القمر لمدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

و (السراج) آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجا لأنها سراج النهار يستصباح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسراج والأصباح في لهم ، ولم يسم القمر بهذا الاسم (أي باسم سراج) لأن الارتفاق بظوره في الليل أقل بكثير من الارتفاق بنور الشمس في النهار ، وإنما هو نور يستغشه به في الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والحساب . وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشد وأتم وأكمل في الانتفاع من نور القمر كذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) - أفاد ذلك أيضا ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور في الأم الأغلب من إطلاق التكمين . وهذا قد يزيد ماقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ونور القمر عرضي مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمل اتفاق قومه من السماء إلى الأرض ، وحضهم إلى التفكير في صحاب ما فيها من الشئون والأطوار . فمن ذلك خلق المخلطين أنفسهم ، وكيف سلوا من تراب الأرض كما يسلك النيات . والأصل في معنى الانبات إخراج الله النبات من الأرض . لما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون أمهاتهم أطفالا ، ثم ينشئون بها بغيرهم من العلوم والنباتات أنشاء يلقون به أشدهم . لكن لما كان إخراجهم وأنشأهم بشرا سويا إنما يتم بتناول آياتهم وأمهم ثم يتناولهم هم بعد الولادة - عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستجدة من الأرض . كانوا من هذه الحية مشاهين

النباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ، فلذا سمي خلقهم وأنشأهم انباتا . وهذا يشير إلى وحدة على الحيوان والنبات واشترائهما في كثير من النوايس التي تتعلق بالحياة العامة ، كالنلاقح والتوالد والانتقاد والنمو والتنفس ، وطرورات أخرى من هذا القبيل . ومن ثم قال بعض الحكماء : ان الإنسان شجر أقتلع بجذره من الأرض فمضى ودلف ، وان الشجر إنسان غاص بقدمه في الأرض فنبت مكانه ووقف .

فمعنى قوله (والله أنبتكم من الأرض نباتا) انكم (١) وإن كنتم بشرا في حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار التكاكم في حياتكم الحيوانية على مناصر الأرض كاتكال النباتات في حياته النباتية عليها . فالله الذي أنبتكم هذا الانبات ، ويسر لكم من مناصر الأرض الأزرق والاقوات ، ثم خصكم بفضلائه وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالا بإضافة الحياة الانسانية ، ثم أكرم بوابها النفس والفعل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة . . . الإله الذي هذا مبلغ عنايته بكم ، وذلك قدر انصامه إليكم - بجدر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعبيده ووعده (٢) .

و (نباتا) مصدر (نبت) الثلاثي ، لكنه أقسم مقام مصدر (البت) الرباعي ، وجاء تأكيدا له ، فقليل أنبتكم نباتا مكان أنبتكم انباتا . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثي ، وجعله من نوع الاحتباك البدني ، وقال أن أصل الكلام هكذا (والله أنبتكم من الأرض انباتا فنتبت نباتا) فهما فعلا لكل مصدره . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثاني لدلالة مصدره عليه ، ولذلك جاء الكلام موجزا في مباء ، هو فرا وفيها معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجيب صنع الله في إخراجهم من الأرض إخراج النبات ، فقد تمهد له السبيل إلى تلذذهم بامر البعث الذي كان القوم يتكروه فقال :

(ثم يعيدكم فيها) ، أي مقبورين في الأرض بالمات ، كما أخرجكم منها منشئين بالانبات (ويخرجهم إخراجا) أي من الأرض ثانية بالبعث بعد البت الطويل فيها . وأصل النزاع مع المخاطبين في قضية الإيمان بالله التي لا يسلمون بها ، لكن نوحا لما استدلل على وجوب الإيمان بما كان من قريب صنع الله في إحيائهم مستلا لهم من الأرض استدلال النبات - ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل ميتة على قضية البعث وإحيائهم الحياة الثانية ، فقال لهم : أنه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالموت إلى ترابها ، وسيخرجكم

(١) ثم أهد لك نفس منه تصحيح أمثال هذا التركيب (الله وإن كان كذا فهو كذا) بعد أن سميت الجاهل في كتابه الحيوان (ص ١٤ - ١٦ - ١٧) يقول (الله وإن كان كتابا وإحسا فانه كتب كنية) . على أن التحري الفطن لا يصعب عليه توجيهه وطبعه على القواعد .

(٢) ووعده (منصوب) بفعل محذوف على حد . (ملحقنا تبتنا ونم بربنا) ، أي وعلونا وعبده .

بعد منها احياء للمرعى والخصاب، والثواب والعتاب .
 وإذا تأملت في آياتكم واخرائجكم من الارض لليرة
 الاولى ، سهل عليكم تمقل اخراجكم من الارض بعد
 المات واتبانكم منها بحصب التاموس الذي يضعه
 الله اذا شاء لهذا الانيات التاتي .

اشرنا آنفا الى ان الانسان اذا كان يشترك مع
 النبات في بعض الخصائص والاحوال ، فانه يفارقه
 بالواهب السامية التي مازه الله بها . ومن تلك المواهب
 حريته في الانتقال والمشي على سطح الارض من جهة
 الى جهة ، ومن رجا الى رجا ، ولم يخلقه سادكا (١)
 بمكانه كالنبت لا يبرحه الى ان يموت . وتشبيها
 بالنبات هو الذي وطا السبيل بين يدي ذكر النعمة
 الجلى : وهي جعل الله الارض بساطا للبشر يتقلبون
 عليها كيفما شاءوا ، ماداموا خلقوا على غير خلقة
 النبات ، فهم يفرقون فيها ذات اليمين وذات الشمال
 للسباحة والزهرة وطلب العلم وكسب المال .

و (السباط) ضرب من الطنافس معروف ، مسمى
 بساطا لكونه يسطو ويفرش على الارض فيجلس
 عليه الجالس كما يطبخ له . وهكذا الارض : بساطها
 الله للبشر ، ومهدتها تحت مواطئ اقدامهم ، لاجل ان
 يسلكوا منها سبلا فحاجا توصلهم الى افراضهم ،
 وقضاء مصالحهم .

و (السبل) جمع سبيل ، وهو الطريق (والفتاح)
 جمع فتح ، وهو الطريق الواسع . والفتح في اصل
 معناه ان يلبد النافذة بين رجليها الطل ، ويباعد
 الرجل بين رجليه عند ارادة المشي او لامر آخر .
 فالطريق الفتح كانه لا سماع ما بين جانبيه قد تفتح كما
 تفتح النافذة عندما تطلب . وبهذا الاعتبار مع ان تكون
 الفتح صفة للسبل ، كانه قبل سبلا متسعة متباعدة
 الأطراف . وجاء في كلامهم : « قطعوا اليك سبلا فحاجا »
 حتى اترك حجاجا » . واكثر ما يستعمل الفتح في
 الطريق الواسع بين جبلين ، لظهور الفتح والتباعد
 بين سفحيهما ، لكنه يستعمل احيانا في مطلق الطريق
 الواسع كما ذكرنا ، وعليه ظاهر الآية (٢) .

وصف نوح في الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه
 الى الايمان بالله ، وبآي الاساليب كان يحلهم وينلهم
 ويحتج عليهم ، وكيف كانت احوالهم ازاء دعوته من
 الامرار وسد الاذان واستغشاء النياب ، مغرانا كلامه
 في قالب مرض الامر والشكوى الى الله الذي ارسله
 بهذه الرسالة اليهم . وقد انتقل في هذه الآيات الى
 ذكر نتيجة الدعوة وانها لم تنجح في اقوم ، وبيان
 السبب في عدم نجاحها ، موردا ذلك كله ايضا في ضمن
 الشكوى الى الله العالم بما كان منه ومنهم ، وبجميع
 اسبابه وظله ومصايريه . لكن المخاطبين وهم قريش

(١) سبلك به فتح : لومه ولم يفارقه ، ومنه قول الحريري .
 ف سبلك به فحان ، وجملة فحمة قيد مياتي .

(٢) روى المفسر (جزء ١٠ صفحة ١٢٦) الفتح والجمع الفتح
 ربما كان طريقا بين شرطين شرطين ، وربما كان طريقا مريضا ،
 وربما كان حقيقا ، والا لم يكن طريقا كان لوها كثيرة الضرب
 واللا ١ هـ . وسرف الجبل فعلة الحمد .

كانوا لا يعلمون ، فلم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم
 من العقوبة الالهية اكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح ان قومه عصوه وانصرفوا من سماع
 دعوته الى سماع كلام رؤسائهم فاتبوعهم واطاعوهم ،
 وعمل عن ذكر هؤلاء الرؤساء التبوعين باسائهم الى
 الكتابة عنهم باسم الوصل وهو (من) ليتوصل
 بصلته الى بيان سبب مقاومة الرؤساء له ، وتعنكهم
 من استتباع القوم واضلائهم . ذلك ان اولئك القادة
 كانوا على جانب عظيم من المال والولد ، فلم من
 سعة مالهم ، وعصبية ولادهم قوة يقاومون بها نوحا .
 وهم يعلمون ان ايمانهم به يجعلهم تابعين له فيامرهم
 ونهائهم بما يريد في اموالهم واولادهم . فلايمان بنوح
 في زمعهم مضيقا للمال ، ممحقة العصبية ، ومسد
 برجمون خولا واليما في قومهم بعد ان كانوا سادة
 متبوعين . وشائهم في هذا شأن عظاما كل امة فعلها
 دام الحق الى طاعتها ، والعمل بتبصيحته . هذا
 هو التصل الذي قال نوح عليه السلام انه اصحاب
 عظاما قومه . ومشوهم مالهم ولولهم ، وهم بالمال
 والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته ،
 والايمان بما جاء به . كانوا يتهددون اولئك الضعفاء
 بمصيبتهم ، وابناء مشيرهم ، وكانوا يجنون من المال
 والثراء مايساعدهم على غرضهم ، بل ربما كانوا
 يتفقون من اموالهم في شراء دم اولئك المساكين ،
 واملاك قلوبهم ، فغرشونهم ، ويدلون اليهم بالصلوات
 والهدايا ، ويقومون لهم الولام والمادب . فلتاظر كيف
 توسلوا بما اوتوا من المال والولد الى اضلال قومهم
 والتلمذ بمعقولهم . لا جرم انهم ارددوا بذلك خسارا
 على خسار ، واحلوا قومهم وانقسم دار البوار .

هذه الطريقة التي احتلداها اولئك الرؤساء في
 مقاومة نوح واضلال قومهم - كانت مكررا وخداعا : مكر
 بنوح من جهة انهم ماكانوا يظلمونه على كل مايعملون
 في السر لقائمة دعوته واحباط سعيه ، ومكر ما يقومون
 من جهة انهم كانوا يخفون عنهم الحقيقة ، ويعولون
 بينهم وبين الايمان بنوح والتبصير بما اتاهم به من
 الوصي ، مظهرين لهم ان الخير كله فيما يشيرون به
 عليهم ، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الاصنام
 التي هي دين آباءهم . وهذا معنى قول نوح عليه
 السلام : (وعكروا مكرا كلبا) ، واي مكر اكبر مما
 فعلوا . وهو معطوف على صلة من ، اي ائبوا من لم
 يرده وائبوا من مسكروا و (كلبا)
 بمعنى كبير قرئت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلما
 زادت حروف الكلمة زادت معناها عظما او شدة ، فيقال :
 مكر كبير وكبار وكبار ، كما يقال : رجل طويل وطوال
 وطوال ، وامر عجيب وعجيب وعجائب .

ومن طرق المكر التي كان يسلكها اولئك الرؤساء
 في اضلال القوم حضمهم لهم على النبات في عبادة
 معبوداتهم ، فكانوا يقولون لهم بهيمة الفتنح المخلص :
 (لاتلنن الهنكم ولا تلنن ونا ولا سلوانا ولا يفسوت
 ويضوق ونسرا) .

كِبَارًا ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَا تَدْرُونَ الْغَيْبَ وَلَا تَدْرُونَ مَا لَا
رُؤْيَا وَلَا يَخْفَى وَيَعْرِقُ وَتَرَا ﴿١١﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا
وَلَا تَرِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا سُلْطَانًا ﴿١٢﴾ تِمَّا خَطِيعَتُهُمْ
أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(لا تدرون) لا تدعن ولا تتركين . وكانت القوم آلهة
كثيرة لأخصى ، أكبرها شانا ، وأملها منزلة — هذه
الخمسة : ود وسواع واخوانها . فكان الرؤساء
يعمون في التهي من تركه الآلهة ، ثم يسخون منها هذه
الخمسة بالذكر ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط
تعمتهم في مكرهم .

والخمس المذكورة أسماء آلهة واسماء أصنام أو اسما
أسلاف صالحين القوم كانوا يعبدونهم من دون الله .
وعبادته الأولان في الأمم القديمة طريقتان :
(الطريقة الأولى) مذهب الصابئة ، وأساس هذا
المذهب الاعتقاد بأن في الأجرام السماوية أرواحا متصلة
بأعنان التنوير اتصال متناه وتبدل وتغير .
ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة في أحوالها وأشكالها
متباينة في أطوارها وأقذارها ، وهي غائبة عنهم ،
بعيدة عن مواقع أنظارهم ، وهم في كل وقت في حاجة
إلى التبرك بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها
أرادوا أن يصنعوا لكل منها مجسما مثله ويندب من متناول
الفكر وألتصروا . . . فاتخذوا الأصنام ، ونسبوا
الأولان ، وعبدوها من دون الله . ويقال أن هذا الدين
— دين الصابئة — هو أقدم الأديان البشرية الباطلة
على الإطلاق . وبقي حتى زمن إبراهيم الخليل عليه
السلام ، ففشى عليه شر فضاء ، وعلم بدين آباءه :
آدم وإدريس ونوح ، وهو عبادة الله وحده . ثم
انتقل دين التوحيد من نوح إلى أولاده ، وبواسطتهم
انتشر بين الأمم ، من هرب وهجم . ولعل ودا وسواما
وبقية الخمسة التي عبدها قوم نوح كانت أصناما
منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فإن منها (نيرا)
وهو اسم لكوكب سماويين : يقال لأحدهما (النسر
الواقع) وللآخر (النسر الطائر) . وللآخرين خلفاء
قوم نوح اله يسومونه « نروخ » أي النسر العظيم ،
وكان له هيكل في ماصتهم « نينوى » وألك ترى في
أثارهم اليوم صورة أنسان برأس نسر وجناحيه ،
قلبه رمز إلى ذلك الإله .

(والطريقة الثانية) لعبادة الأولان هي قيام أفراد
من البشر ينشون في نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطونة
أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غير مبهودة في
الناس الآخرين ، ليغتنم بهم أقوامهم ، ويرون أن هذا
التفوق والتبوغ لم يكن إلا لظول روح الهى فيهم ،
فيعبدونهم في حياتهم ، وفي الأمم الأغلب بعد مماتهم ،

ثم يتخلدون على مثالهم صوراً أو أصناماً أو موال
أخرى يذكرونهم بها ، ويتقربون بالتسود والبخور
والصلوات وخروب العبادات إليها على نحو ما يفعل
الصابئة في عبادة الكواكب . وقد خربت عبادات النوايح
بحراتها في جنات الأرض ، فلم يعد يقوى على معوجها
أئدين السماوى نفسه ، وقد لا يقوى إلا بمعونة العلم
وانفكاك العقل من قيود الوهم . ولعل وثنية قوم نوح
وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل . وقد بقي
لعبادة هذه الأصنام أثر في جزيرة العرب أو في بلاد
اليمن خاصة حتى زمن البعثة الحمديّة ، فكان (ود)
لبنى كلب بدومة الجندل ، وهو على صورة رجل .
و (سواع) لهمدان أو هذيل ، وكان على صورة امرأة .
و (يفتو) لمذحج أو غطيف من مراد في سبأ ، وكان
على صورة امرأة . و (يفتو) لمزاد أو لهمدان ، وهو
على صورة فرس . و (نسر) لعبر أو لذي كلاع من
حميز ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون
أولادهم بعيد ود ، ويصعد بعوث .

ومن تأمل ما قلناه في متشابهة ظهور الوثنية في البشر
فهم السر في كون الدين الاسلامي يحرم إقامة الصور
ونصب التماثيل وتشديد القبور ولجسدها على ردم
الطعنة . وفي حديث علي رضي الله عنه : « أرسلني
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لي : لا تدع
صنما إلا طمسته ، ولا قبراً إلا سوتته » ١ هـ ، فإن
الوثنيين كانوا يتخلدون من مرائل القبور والأصنام
ذكرى لرجالهم الصالحين ، وليستذكروا لهم ذكراً
عظماً واعتبر ، وإنما هي ذكرى استمداد أسرار ،
واقتراس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واستغراق
واستغراق ، والتماس باعق استكشاف أفراد . فسند
دين الاسلام للبرية بتحريم هذه الموائل خشية أن
تستتر به ضعف العقول واستهويهم ، ومن مراقب
الوثنية تقريبهم وتذنيهم . فلهذا الاسلام ما أمده فيما
شرع وحكم أوما أوضح بهجه فيما خط لنا من
الهداية ورسم ١١

وقوله : (وقد أضلوا كثيراً) من تمة كلام نوح
عليه السلام وشكوه إلى ربه ما لاقى من أولئك
الرؤساء الذين مكروا بقومهم ، ولزينا لهم عبادة
الأولان . فهو يقول : إن هؤلاء الرؤساء يارب كانوا من
قبل : قد أضلوا خلقاً كثيراً) غير هؤلاء القوم
المساكين الذين ادعوه إلى الإيمان اليوم ، أو أنه يريد
أن أولئك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد
والكر والتسويل بـ أضلوا وما زالوا يضلون خلقاً
كثيراً . وفي قصة من أضلوا قومي هؤلاء .
وكان نوحاً عليه السلام انتبه إلى أن صدور هذه
الشكوى منه إلى ربه ربما إدوم فقلته أو ذهوله من
نسن الله ومشيئته في خلقه ، فغتم شكواه بقوله
(ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً) .

وظاهر قوله : (لا تزد) النصاء إلى الله أن يريد
الظالمين ضلالاً . وهذا مستبعد من نوح أبي الأبياس
الذين هم مثال الفرق بالبشر والرحمة لهم والطف
عليهم ، وإنما هو في الظاهر دعاء وطلب ، وفي المعنى

اخبار من استمرار مشيئته تعالى في خلقه عاملة ، وبقاء سننه مطردة شاملة ، لا تشد ولا تتخلف ، كانه يقول : انك يارب في عدم هدايتك قومي الى الايمان بك انما تتم مشيئتكم القديمة ، وتنفذ سنتك الحكيمة . فان قومي الذين ظلموا بعدولهم من محبة الحق سيبتون في ضلال عنها ما داموا في ظلمهم وتقصمهم ، بل انهم كلما ازدادوا ابتلا في هذا الطريق الذي اخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا من محبة الحق شان الذي ينصرف من رأس الجادة ، فانه كلما اوغل في الناشطة (١) التي سلكها ، ابتعد عن الطريق الاعظم حتى يتورد حثفه . فهنا كما ترى سنة الهية ركب الله عليها هذا الكون ، فلا تخالف امة من الامم امر الله ، ولا تدابر سننه ، ولا تستخف بنواميسه . حتى تفضل عن طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الامة التي تعمل بامر الله ، وتراعي سننه ونواميسه . فتوح عليه السلام بأسف لكون ايمته من الفريق الاول ، فهو بعد ان وصف حالها ، وتنبأ مآلها - ما قد قال : لتسب مشيئتكم يارب ، وتنفذ ارادتك ، ولتستمر سنتك . قول نوح في ختم الآيات السالفة : (ولا ترد الظالمين الاضلالا) يشعرياس من ايمانهم ، واستثنائه منهم التمادي في الكفر والضلال ، والاصرار على ارتكاب الخطيئات الى ما شاء الله . وامة هذا شأنها تستحق العقاب الالهي ان يحل بها ، والمذاب الساموي ان يدمر عليها . وهذا معنى قوله تعالى : (هذا خطيئتهم افروا) . وهو اعتراض بين قولي نوح الماضي والآن . و (من) لافادة التعليل والسببية ، كانه يقول افروا بخطيئتهم ويسببها . و (ما) المتصلة (بمن) هي التي يسمونها الصلة . وزيادتها انما هي باعتبار اللفظ بحيث اذا اسقطت بقي شمل الكلام منتظما . اما باعتبار المعنى فالمقام في حاجة اليها ، اذ هي تفيد المبالغة والتأكيد ، كما افاد ذلك تقديم المتعلق على الفعل ، فهنا التقديم مع وجود (ما) افاد ان كفر القوم وخطاياهم كانت الاعمال القوي في افراقهم ، وانهم لو لم يرتكبوا هذه الخطايا لكانوا نجوا من الهلاك بآرادة الله التي يتجلى لنا اثرها في هذا الكون ونواميسه .

وكان اكبر خطيئات القوم الكفر بالله ، لكن انضم الى هذا الكفر ذنوب وآثام زادت غلظا وفسدة ، من ابتسمها ابتأهم ليهيم نوحا عليه السلام مدة مفرطة في طولها ، عبر منها القرآن بقوله (الف سنة الا خمسين عاما) .

اما الطوفان الذي افروا به فثؤن به اجمالا بما اجمال ما جاء في القرآن وهذا هو : (حتى اذا جاء امرنا وانا النور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واثمك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل . . . وهي تجري بهم في موج كالجبال . . . وقيل يا ارض ابلي ماك ونما مسماة اقلعي وغيضي الماء وقضي الامر واستوت على الجودي) .

(١) هي الطريق يتشعب من الطريق الاظم يمتد او يبتعد .

هذه الآية أكثر تفصيلا لحادثة الطوفان من سائر آيات الكتاب التي اترلت في وصفها ، ولا يكلف المسلم ان يعتقد بما وراء ما تضمنته من الحقائق بشأن هذا الطوفان ، وتلك الحقائق هي :

- ١ - انه قد تقدم الطوفان فوران فنور .
 - ٢ - ان نوحا عليه السلام حمل معه في السفينة اهله والمؤمنين به القليلين وأزواجه من المخلوقات .
 - ٣ - ان السفينة جرت بهم في موج كالجبال .
 - ٤ - انها استقرت على الجودي (١) بعد ان اقلعت السماء ، وغاض الماء .
 - ٥ - ان نوحا واهله والمؤمنين به نجسوا ، وهلك الباقون الكليلون - بالفرق اجمعين .
- اما الروايات والأساطير الأخرى المتعلقة بهذا الطوفان ، فمما لا يجب علينا الايمان به ايمانا جازما ، وانما نكل امره الى الله تعالى وإلى التحقيق العلمي ، حتى ان مسألة شمول الطوفان لجميع اقسام الارض وعدم شموله - لم يرد منها في الكتاب نص قطعي . وكلمة (ارض) في قوله تعالى : (وقيل يا ارض ابلي ماك) ليست نصا في الدلالة على جميع اجزاء سطح الارض ، وانما هي تستعمل احيانا كثيرة استعمالا فصيحيا في البعثة الواحدة من جهات الارض ، ففي سورة يوسف : (قال اجعلي على خزائن الارض ايتوا حفيظا وليم) . (وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوا منها حيث يشاء) . والمراد بالارض في الموضعين ارض مصر لا الكرة الارضية كلها ، وليس هذا مفرقة منا في صلاحية قدره الا ان يعم سطح الارض كله بالطوفان ، وانما نجب ان نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل ، وارتاح اليه صريح النقل .
- هنا ولم تنفرد الكتب السماوية بلذكر حادثة الطوفان ، فقد ورد ذكرها ايضا في كتب الصين واليونان وهي معروفة عند امريكا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم : انه وجد اثر كروية الطوفان في جميع الاقطار وفي جميع تقاليد الامم ، ما عدا السودان فانه ليس في بلادهم ولا في تقاليدهم ما يدل على حدوثه . وذكرت الحادثة في آثار الاشوريين ، فقد عثر على صحيفة اشورية تصف تلك الحادثة ، وكان الكلام فيها ورد على لسان نوح عليه السلام مد استقرت السفينة على الجودي ، فادرس القرب فلم يعد ، ثم ارسل الحمامة فعادت مبشرة بانكشاف اليابسة ، كما جاء مفصلا في التوراة ، وهك ترجمه ما قالته الصحيفة الاشورية : « في اليوم السابع ارسلت الحمامة ، فقاتت ولم تجد مقرا فرجعت ، ثم ارسلت ستونوة فقاتت فلم تجد مقرا فرجعت ، ثم ارسلت غربا فقاتت وراى اختفاض الماء فاكل وسبح وراح ولم يعد ، ثم ارسلت الحيوانات الى جهات الرياح الاربعة ، وسكنت سبكية ، لم نيت ملجأ على قنص الجبل ، وقطعت سبعة

(١) قالوا هذا جبل على جزيرة ابر في بحر في الجانب الغربي من دجلة . وهو يسمى (ارباط) . وقد ذكر (ارباط) في التوراة . لانه موضع استراحة فلجرح بعد الطوفان (تك : ٨ : ٤) .

أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَضْلُوا عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْنِرْنِي وَلِيَكُنْ لِي
وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا
تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

أصحاب ، ولجنتها وضعت صومرا (١) وصنوبر وصمقر ،
فاجتمع الآلهة عند فوحان الرابحة : اجتمعت كاللذباب
عند اللبحة .

ولا يخفى ما في الكلام الأخير من النافسة لأدب
الوحي الصحيح .

(و) (النار) إذا أطلقت معرفة بالالف واللام أريد بها
دار العذاب المعدة للأشرار بعد البعث والحساب .
فأيراد كلمة (نار) في قوله (فَادْخُلُوا نَارًا) منكرة مع
مطف الفعل بالغاء التي تنيد التعقيب من دون مهلة
ولا تراخ - قد يشعر بأن المراد بهذه النار التي أدخلها
الله قوم نوح عقب الطوفان - ليست هي نار دار
العذاب وإنما هي نار أخرى قبل هي عذاب القبر ، وروى
من الضعفاء : أنهم كانوا يفرقون من جانب ويحرقون
من جانب . أو لعل المراد بالنار التي أدخلوها ،
وأسلمهم الفرق إليها - نار الخزي والخذلان ، نار
الذل والهوان ، نار ألم النفس وهلاك الوجدان ، نار
تتعذب بها كل أمة خالفت أمر ربها ، وللاعتبار بشرايع
دينها ، واستمرت في عنادها وعشمرتها حتى تقلص
ظلمها ، وتشتت شملها ، وأصبحت طعمة للطامعين
وفقعا (٢) بقرقرة ، يدوسه السيد والقطيع . على أنه
لا مانع من أن يراد بتلك النار دار العذاب الأخرى ،
ويكون تنكيرها لتحويل أمرها ، كما يكون التعقيب
بالغاء لإفادة قرب الإدخال وتحققه ، وكل آت مهما
بعد قريب . وهؤلاء المكذبون الذين أفرقوا فأحرقوا
لم يجدوا لهم أنصارا ينصرهم مما أراد الله بهم من
الافراق والاحراق ، وهذا معنى قوله تعالى : (فَلَمْ
يَجِدُوا لَهُمْ نَصْرًا) .

ثم إن نوحا عليه السلام لما رأى قومه شرقي وقد
خلت منهم النار وقت الأثر قال : (وَبِ لَا تَذَرْنِي عَلَى
الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) .

(ديار) كلمة قولها العرب في سياق النفي لإفادة

(١) شجر له ثمر كالبوط .

(٢) القبح ضرب دعيه من الكفاة يكون في القرقرة (وهي الأرض
للخلفة) لا يؤخذ به ، ولا ينجيه أحد ، وإنما يدوسه الأقدام ،
فحرق مثلا للسائل البهيم من الناس .

تأكيد نفي وجود أحد من الناس . ومثلها قولها « ما
في الدار صافر » ولا فيها نافع ضرة » . وأصل ديار
ديوار فيقال : من دار في الدار إذا ذهب وجاء فيها .
يقول ما فيها متجول ، وقيل إن ديارا مشتقة من
الدار نفسها ، فعني ديارا صاحب دار ملازم لها مقيم
فيها ، كما يقال مثلا « جمال » لأصاحب الجمال
و « كرام » لأصاحب الكرم .

وقول نوح (رب لا تذر علي الأرض من الكافرين
ديارا) يريد (من الكافرين) الذين ساروا على سيرة
قوحي . فليس المراد اللعاب عليهم بالاستئصال
والاجتياح ، كيف وقد أصبحوا صرعى
تحت مواقع بصره ؟ وقد أراد بالعناء هنا ما أراد في
قوله السابق (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . فتكون
آية (رب لا تذر الخ) شاهدا مؤيدا للمعنى الذي قلناه
في آية (ولا تزد الخ) من أن نوحا عليه السلام أورد
الخبر عما أودعه الله هذا الكون من السنن التي لا تتخلف
في الأمم الشاردة من أمره - في صورة اللعاب . فقله
(لا تزد) و (لا تذر) معناهما لا تغفل بآبالا ما مضى
عليه سنتك ، وسيتك به مشيتك ، وهو بذلك يعان
التسليم إليه تعالى ، والاعتراف بأن ماضاه في خلقه
صل ، وأن ماشاه فيهم ماض نافذ لا معقب له .

ثم اتبع ذلك ببيان حكمة الله في أهلاك الكافرين
فقال : (إِنَّكَ أَنْ تَرْوِهِمْ) أي أن تدع الأشرار يتمتعون
بسلطنتهم وسطوتهم ، ويتصرفون تصرف المستبد
الطلق في ارتكاب المفسد والتآمر ، ومخالفة شريعة
العدل ، ونواميس الحق - (يَضْلُوا عِبَادَكَ) تستشر
فتنتهم ، ويعطون فسادهم ، ويسر إلى بقية العباد
الطغيان بهم ، المخالطين لهم ، فيفسدوا ويضلوا من
أمرك ومتابعة وحيك ، ولأسيما إذا تأصل الشر
والفساد في أولئك الأشرار ، وأصبح ملكة راسخة في
نفسهم ، فإن حيثهم وفساد أخلاقهم ينتقل بالوراثة
إلى أولادهم وذرائعهم ، فصار من مقتضى حكمتك
لرب محقق واستصحابهم جملة ، فإلك أن تركتهم
يلدون وينسلون- نموا وكثروا (وَلَا يَلِدُوا) إذا ولدوا
وأعقبوا (الْآفَاجِرَا كَفَّارًا) مثله .

(و) (الفجور) بمعنى الفسوق والعبدان ، وهو تجاوز
الشرائع والحدود التي أمر الله بالوقوف عندها .
وهنا مسألة ، وهي أن ذراري قوم نوح الذين غرقوا :
هل هلكوا معهم ؟ وكيف أهلكوا وهم لم يجنوا ذنبا ولم
يقترفوا خطيئة من خطيئات آبائهم ؟
الظاهر أنهم هلكوا معهم ، لأن الكتاب قال فيهم
(أنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) ، وقال نوح :
(رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا) الآية .

ولو قال قائل : أن هذا التعميم إنما هو بالنسبة
إلى الكبار المكذبين مرتكب الخطايا ، أما صغارهم
فألكتاب سكبت عنهم ، فتسكت معه : ولا نخوض في
أمرهم - ما كان في ذلك شاذا ولا نائبا .

وما يغرينا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال
بلطفه وتأييده ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وهم

له من أمثاله، على أنه تعالى أن كان أهلك الأطفال المعموسين، مع الكبار الجرمين - فإنه فاعل مختار لا يسأل عما يفعل . نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة في ذلك، وخفاؤها لا ينبغي وجودها، وإن في الأوبشة والظواهر التي تلم بالشر فتستاصلهم مع ذرائعهم استصلا، وفي الزلازل التي تصف الأرواح وتصددها فتبتلعهم جميعا ابتلاها، وفي البراكين التي تتورط فيج تنفذ الصمم والرماد بحيث تظلم البلاد التي حولها وتدفن تحتها سكانها كلهم كما روى لنا التاريخ من المدينتين الرومانيتين « بومبي » و « هركليوم » - أن في كل ذلك مشابهة ومحاكاة، بل نسخة مطابقة لما وقع بقرم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك، ويقال في تحليل هلاك هؤلاء ما قيل في تحليل هلاك أولئك . على أن النفس قد تستأهل هذا السؤال نفسه في الصغار الذين يورثون بأجاليهم قبل أن يبلغوا سن كمالهم . وقد رأيت يوما امرأة تنحصر على موت صغير لها، أمضا لقدمه، وأسقمها بعده، فسمعتها تقول وقد شخضت بعينها إلى السماء مفروقة بين السموع : « بارب مادميت تريد أن تسلبينه قبل أن تمتعني فيه فلماذا أعطينيه ؟ »

هذا وأمثاله من العقد التي تتعلق ببيتنا هذه الكائنات ومنتهاتها، والحكمة في محوها بعد أن خلقها وسواها . بل هو لعمرى من القدر الذي أدبنا بيتنا صلى الله عليه وسلم بترك الجوض فيه . أخرج الترمذى في مسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه الشريف كأنما فقه في وجنتيه الزمان، ثم قال : أبهلا أمرم ؟ أم بهلا أرسلت إليكم ؟ أنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، مويت عليكم ألا تتنازعوا فيه » . وكتب المقتطف (صفحة ١٩٨) مجلد (٦١) بعنوان « الحكمة الفالقة » جوابا على سؤال جاءه من البرازيل وهو « جاء في الإنجيل أنه حينما ولد المسيح طلب الملك هيرودس أن يحضره إليه، ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك، فلماذا لم ينقدهم المسيح ؟ » . فاجاب المقتطف بقوله : « لا تعلم، وفي الكون أمور كثيرة يظهر في بادىء الأمر أنها منافقة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كان الكون متروك لا مدبر له، فالسكة تبض مليون بيضة وقد تنفق كلها، ولكن لا يبعث من أولادها إلا العدد القليل، وأشجار البرية تبلر الشجرة منها ألوانا من البذور لحفظ نوعها، وقد لا تزور واحدة من بذورها، ولكن إذا أعيا النظر في تركيب جسم السمكة وأوراق الشجرة وأزهارها - رأينا من الحكمة الفالقة ما يدهش العقول، ونضطر أن نسلم بوجود حكمة فالقة في كثر بيض السمكة وبلر الشجرة ولولم يبعث منها شيء، أما كان نوحا عليه السلام يقول : أما وقد أهلكك بارب الظالمين بما كسبوا من الخطيئات، وكتبوا بآياتك البيئات، وكان أهلكك لهم مدلا، وتنكيتك بهم حقا - فمن عدلك المنتظر، وكرمك المؤمل : أن تغفر لفرق

المؤمن الذين أقروا بتوحيدك، واستمسكوا بعرا دينك .

و (التفر) الست والصنع من اللب، فالؤمنون مهما تحروا الحق والعمل الصالح قد يضرط منهم ما يؤاخذون عليه، فقم يتناولوا إلى الله - كما وقم للإيمان والتوحيد - أن يفر لهم ما زبوا يدر منهم مما لا يرضيه تعالى . فبيدنا نوح بنفسه، ثم نرى بوالديه لعظم حقهما عليه، وقد من أن اسم أبيه « لامت بن متوشال »، أما اسم أمه فهو « شمخا بنت أنوش »، ثم لك بين دخل بيته مؤمنا، وهنى بهم أولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيته مشاركين له في معيشته وعبادته . وفي التوراة أنه لم يكن معه في السفينة سوى زوجة وأولاده الثلاثة وأزواجهم الثلاث . ثم ختم دعاه بالعام المؤمنين والمؤمنات جملة واحدة، ويرى هذا من طرف خفى إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجوا معه في السفينة . وهى هذا فاطوفان لم يعم الأرض كلها، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يفرقوا، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين . أو يقال أن المراد بالمؤمنين والمؤمنات دعاهم نوح من وجدوا في الماضي أو سيوجدون في المستقبل متى تناسل أولاده وتكاثروا وانتشروا صلى وجهه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات مرفعة لأن يظلموا ويضطهدوا، ويتجاوزوا حدود الشريعة، ويسلموا بفيرطلة الله . فهو بعد أن طلب من الله المفرة لفرق المؤمنين - ما دفع قال : أما إذا احدا منا مشر المؤمنين ظلم واحد من محبة الصواب، وترك العمل الصالح وشا في الأرض فسدا - فلا تتبركه بارب من معاملتك له بالعدل كما عاملت أولئك الكلدانيين للفرقين، ففبره وأهلكه، بل زده تبسرا وهلاكاً كما أهلكتهم .

وهذا من نوح عليه السلام أيقاظ وتنبه لاهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحلهم بطش الله وسخطه، وانتقامه ممن خالف أوامر الله ونهى العمل بشرائه العادلة .

ولا ريب أن أفعال الإيمان من التمسك بالعمل الصالح وممارسة الفضائل سببته من الصدر وبشئ الذين على القلب بالتفريع كما ورد في الحديث : فنسخ الكلمة على من هذا شأنه، فبأخذه الله بالعداب كما أخذ أولئك الفرقتين من قوم نوح - ففوج يقولونهم : لا نظنوا أن الله : نجاكم للذم، وأما نجاكم لإيمانكم وعملكم الصالح، فاحرصوا عليهم، واجتهدوا في تقويتهم وتثبيتهم، ولا حل بكم من الهلاك والتبازر، ما حل بأولئك الفرقتين النجار .

و (التبازر) من تبر كفر إذا هلك، وتبره غيره كفره، وتبره أهلكه . فنسار اسم مصبر يقال : تبره تبسرا وتبازرا، كما يقال كلمه تكليما وكلاما، وودعه توديعا وودعا .

(٧٢) مَيُورَةُ الْحِجْنِ مَكِّيَّةٌ
زَالَتْ بَعْدَ الْأَعْرَافِ ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَىٰ إِلَى اللَّهِ أَسْمَعَ نَفَرٍ مِّنَ الْإِنسِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا
قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ هَدَىٰ إِلَى الْاُرْتَدِّ قَفَامَتَاهُ وَلَنْ تُشْرِكَ
بِرَبِّكَ أَحَدًا ۝٢ وَأَنْتَ تَعْلَىٰ جَدْرِنَا مَا نَفْعُ صَنِيعُهُ
وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنْتَ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤
وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَكَ بَعْدَ الْاِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كِبَارًا ۝٥

(أوحى) الإيهام في اللغة أن تلقى الي غيرة
ما تريد أن تعلمه إياه بواسطة الإيهام أو الإشارة أو
الرسالة أو الكتبة، ثم غلب استعماله فيما يتعلق إلى
الإيهام من عند الله . ومع الوحى معنى الإيهام
والسرعة ، فما يلقى وحيا يكون خفيا سريرا .
و (استمع) تكلف أن يسمع ، وأصغى انذليسمع .
(و نفر من الجن) : دفع عنهم ما بين الثلاثة إلى
الاشعة .

وَنبِئْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَصْفَى إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ
النَّفَرُ ، وَاسْتَمِعُوا تِلَاوَتَهُ الْقُرْآنَ ... لَمْ يَكُنْ عِلْمًا بِهِمْ ،
وَلَا شَاعِرًا بِمَكَانِهِمْ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ رِبْهٌ : (قُلْ أَوْحَى
إِلَيَّ) أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَقَوْمِكَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْكَ
(أَنَّهُ) اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجَنِّ (وَأَصْفَوْا) قُرْآنَكَ .

وكان من خبر ذلك، كما في الترمذى وغيره، أنه صلى الله عليه وسلم انطلق في نفر من أصحابه علمدين إلى سوق حكاظ، حتى إذا كانوا بوادي نخلة (موضع بين ليثين من مكة وعلى عسلى من حكاظ) - نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه الصبح، فمر بهم أنكر من الجنة، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن، فاستمعوا له مصفين متبرزين في مقاماته به، ورجعوا إلى قومهم منبرين. وكانوا أنكر النفر، وفيهم روي عن أبي عيسى رضي الله عنه، من خير نصيبين، وهي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة - على جادة القوافل من الموصل إلى بلاد الشام، وقال أبو عباس أيضاً: أنه صلى الله عليه وسلم ماروا إلى أولئك النفر من الحرة، ولا

وَأَمَّ يَوْمَئِذٍ ، وَلَا عِلْمَ بِمَكَانِهِمْ ، حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ
بِأَمْرِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا أَوْحَى .

وقد قص الله علينا خبرهم أيضا في سورة الأحقاف بم قال تعالى : (وأذ صرفنا أهل نغرا من الذين يسمعون القرآن فلما حضروا قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم مبترين . قالوا يا قومنا أنا سمعنا كتابا أنزل من ربك موسى صدقا لم يكن بينه وبينهم منى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) إلى آخر الآيات . وفيها حفي لقومهم على الإيمان بالقرآن كما آمنوا بالنبوة التي أنزل على موسى من قبل ، وأنهم إن لم يحببوا داعي الله ، لا ينجو بهم من أخذهم بالنكال والمذابح .

وقوله في سورتنا هذه : (فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا **الخ**) معناه انهم بعد ان استمعوا القرآن وتدبروه رجعوا الى قومهم فقالوا لهم : (انا سمعنا قرآنا عجبا) اى موضعنا للاربابه والدهشة من جهة مباحثته لأمثاله ونظائره من الكتب ، في حسن نظمه ، وبلاغه أسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم ، وبالغ الغلات والصور .

فخبر هؤلاء النفر من الجن في السورين متوافق متواتر على شيء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ، فاجابهم به : فايماهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجهم الى قومهم يسمونهم الى الايمان والصدق ويؤمن من قول هؤلاء النفر : (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) انهم كانوا على دين النصرانية ، لان الاسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا ما يستند في حاجتها على نفي الصحابة والولد .

وقد كبر على عقول بعض أبناء هذا العصر ،
الضعيفي الثقة بأمر القبط ، وعالم الوجوديات ، أن
يقنعوا خبر هؤلاء النفر - من الجن الذين استمعوا
إلى صلى الله عليه وسلم قاموا به - إلا على ضرب
من التاويل - فقالوا : إن أولئك النفر طائفة من
نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم
وكما وفد عليه نصارى نجران ، وأنهم جاءوه مجتئين
مستخفين متكررين لبعض الأسباب ، فلم يبعوا أن
يعلم أمرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أكتمهم
أن يسبحوا قرآنه ويعاقلوا دعوته . أو هم نفر من
التجار والأفانين : تصدوا سوق عكاظ وشهدوا
موسمه ، فعروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ،
فماضوا إليه يتلو القرآن من حيث لا يشعر بهم ، فلما
رجعوا إلى بلدكم أخبروا قومهم بخبره ، وهجيب
أمره ، ومعجز قرآنه ، فسماهم الجن السماوي
جنا لهذا السبب ، كما سميت الأبل في الحديث
جنا . أخرج الإمام الشافعي في مسنده (إذا أركم
في الصلاة) أن أمان الأبل فاخرجوا منها فصولا ، فانها
جن خلقت من جن ، إلا رولها إذا نقرت كيف تسمع
بأنفها . وفي رواية أحمد بن حنبل (إلا ترون إلى
مذنبها وهياتها إذا نقرت) انتهى .

هنا ما قاله اولئك المعاصرون ، وهو ضيق مطر

منهم ... والا فان وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبية ، استترت من حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بأثارها ، وما نواتر من أخبارها - أمر محقق لا ريب فيه . ولتضرب لها مثلا القوات الطبيعية التي كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، والكهربائية التي لو قص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، على البشر وهم في طور سلاجاتهم - لعدوه كلها حيرتنا (١) . وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة الى ما ينتظر أن يعرف منها في المستقبل ، وما يدركنا أن يخلف الكهربائية قوة أو قوات أخرى أقرب منها وأصعب . وههنا (الراديو) (٢) على الأبواب ، بل قال « أسحق نيوتن » أكبر فلاسفة الإنجليز : أن البشر اليوم بالنسبة الى ما اكتشفوه من أسرار الكائنات كأطفال على ساحل الأوقيانوس ظفروا بدهشة برافة ، وشظايا أسفاد ملونة لامة ، فشفلوا بها وحسبوا كل ما عند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما في أعماقه من الطرف الموقنة ، والأعلاق الغيبية ، والكنوز الثمينة !

وإذا كنا لاندقق الا بما نشر به بحواسنا فهذه ارواحنا التي في أبداننا لأزهارها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسها ، ولكننا نؤمن بوجودها ، ونعترف بعالمها ، فما علم مما بلما ؟

وبعد فان عالم الجن ، كعالم الملائكة ، من الغيبات التي أمرنا بالامعان بها ، ولم تكلف رحمة بنا أن نرى من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحي لنا . لننتقل منه ما نعلم ، ولنكلم أمر ما لا نعلم الا الله ، فهو سبحانه وعالي القادر على أن يعرفنا في مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكتون سره ، ما يكون مقدمة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحي الصريح . ومعنى كون القرآن (يهدي الى الرشاد) - أنه يدل على الحق والصواب ، ويوصل اليهما . وقوله (ولأن نشره بؤينا أحبا) معناه أنهم قالوا قومهم اننا آمننا بالقرآن ، وعملنا بأمره وتعليمه ، فلن نجعل من بعد اليوم شريكا لله من خلقه .

وهوأت (انه) في قوله (وآتاه تعالى جد ربنا) (وآتاه كان يقول) (وآتا فلنا) الى آخرها - وهي بضع عشرة هجرة - كلها مكسورة مطلقا (آنا) اسمعينا قرأنا حببا) وهجرة (آنا) هذه مكسورة فوقعها بعد القول : فالمنى أن أولئك النفر من الجن رجعوا الى مشربهم والظهور جميع هذه الأخبار مطلقا بعضها على بعض ، وقد أكدت كلها بكلمة (أن) التي هي أم المؤكدات . ومن القراء من فتح هذه الهجرات كلها مطلقا على ضمير (به) فيصبح المعنى : آنا آمننا بالقرآن ، وآمننا بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة

(١) كلب حيرت) خاص مجرد لا يستره فيه .. ويقال أيضا : كلب يحيرت .
(٢) الراديو منتر مكتشف حديثا لغزت فيه قوة إحصائية هائلة تلحق قوة الكهرباء أشمالات مضاعفة بحيث يتوقع من ردها اكتشافا والانتفاع بها أعظم الآخر في مصالح البشر وقوانين حياتهم .

ولا ولدا ، وآمننا بكذا وبكذا الى آخر الآيات ، غير أن بعضها لا يصلح معه تقدير فعل - آمننا - فيقدر له فعل آخر يتناسب من نحو - صدقنا - و - علمنا - و - عرفنا - و - اعترفنا - وسالمهمند - وشهدندك على حد مقالوه في قول الشاعر : « وزججن الحواجب والعيونا » أي وكحلن العيون ، وقوله « علفتها تبسنا وماء باردا » أي وسقيتها ماء باردا .

ومعنى (جد ربنا) عظمته وسلطانه ، أي أن العظمة والجلال الإلهي أبى ويترن عن أن يتخذ لنفسه صاحبة ولدا ، إذ أن مقام الألوهية يتناقض هذا الاتخاذ الذي هو أثر من آثار العجز أو الانقسام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جد في عين الناس ، يعنون عظم أمره في صدورهم ، ومنه حديث أنس رضي الله عنه : « كان الرجل منا إذا حفظ سورتي البقرة وآل عمران جد في أعيننا » أي عظم وأصبح له مقام ، لما وفق اليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون قومهم ما كان من تأثير الكلام الإلهي في نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغير من أوهامهم ، وسردوا على منساع أخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا منها عمين ، فذكروا أولا أنهم أقروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : ان السفيه منهم - أي سفيه كان ، أو المراد بسفيهم الكثير الذي هو زعيمهم وولي أمرهم - كان يقول على الله قولا شيطنا ، تحطى فيه حد السفل والحق والشطط : عدم الوقوف في الأمور عند حد الاعتدال والسفه : خفة وطيش في البرء تنشأ عن خرق وجهل . فهم يقولون : ان ذوى الرياسة الدينية فيهم كانوا يتسبون الى الله ما لا يليق بحجاب قدسيته ، ويصفونه بصفت ينكرها العقل ، ولا يعلمهم على ذلك إلا جهلهم وخفة حلومهم ، وكان أولئك النفر من الجن وسائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون في الآله سبحانه ما يلقونهم إياه من الأضاليل ، مسوقين الى التصديق بسائق التقليد والاستهواء ، أو بسائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن واستنلروا بنسور هدايته ، فما عادوا يصفون الى ما يقوله رؤسائهم ، ولا يتخذون به .

ثم أنهم اعترفوا أيضا بشيء من غرارتهم وسلاجاتهم هم أنفسهم مد كانوا يظنون أنه لا يوجد أحد في البشر ، أنسا كان أو جنا ، يكذب على الله ، ويأتى عنه من القول ما لم يقله سبحانه . فهؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون ويتخذون بما يقوله الكذابون على الله من الوحي الملقق ، والحديث الزورق ، ظانين صدق القائل ، ومستعدين صدور الكذب منه . وهكذا معنى قولهم : (وآتا فلنا أن لن نقول الانس والجن على الله كليا) . أما الآن - وقد سمعوا القرآن ، وأشرنت قلوبهم حلولة الإيمان - فقد عرفوا أنه يوجد في الانس والجن كذبة ملبسون ، يجب تحذيرهم ، وتبليد دعاويهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

مرسعة بين ارسافه به صمم (١) يتغى اربنا
ليجعل في رجله كمبها حمار النية ان يعطيا

يقول : لانتيحي احقق مازال شعر راسه محمرا
من آثار العقيقة الباقية فيه - والعقيقة : اسم للشعر
الذي يولد به الولود - وان في رفسع ذلك الاسم
فسادا وامواجبا ، فهو قد شد عليه سيرا للاستشفاء
مما عراه ، وهو فوق ذلك بتجول في البرية ليصطاد
اربنا فيجعل كمبها في رجله فلا يموت بتعرض
الجن له .

وقوله (من الجن) متعلق بمحذوف صفة لرجال ،
اي ان رجال الانس يستجرون برجال مفتهم انهم من
الجن ، كما قلنا انما ان اهل الجاهلية كانوا يستجرون
برجال الجن الذين لهم سيادة فيهم .

وقال بعض المفسرين : ان قوله تعالى (من الجن)
ليس صفة لرجال - وانما هو متعلق بفعل (يعوذون)
فالمنى ان رجال الانس يستجرون من اذى الجن
برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الانس
كالكهان والمنجمين والعرافين وهما في مستطلي الغيب .
فخطباء الجن يقولون لقومهم : ان رجالا من الانس
ضماض العقول يعوذون هند حول المصائب والشدائد
برجال من بنى جنسهم الانس ، مستجبرين بهم ان
يدفعوا عنهم اذى الجن وغائلة الشياطين بما اوتوا من
تجليات الانوار ، وما استنبطوا من مستودعات
الاسرار . وان هؤلاء الرجال من الانس الذين استعير
بهم يرونها فرصة لاسغلال اولئك الحقيق
المستجبرين بهم ، واستغفار ما في جيوبهم . فلما
يتوهم ولا يبينون لهم جهلهم ، بل يريدون في ايهامهم
وتحديقهم وادخال الرعب في قلوبهم منا معشر الجن
والشياطين ، ثم يأخذون في مداواتهم ودفع اذنانهم
بالطالسم والاكاذيب ، ويختلف الاساليب . وان هؤلاء
الرجال المخترقين ، لهم الجن المؤذون ، لو كان
المخدوعون بهم يعلمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الاسلام ، وهذا ماذهبهم
اليه القرآن ، وحلهم منه على لسان اخوانهم من
مؤمنى الجنة .

وجد الاسلام العرب على عقيدة في الجن واوهام
من امرهم نزلت بهم الى حضيض البهيمية ، فاعلم
امر الجن بلسان الجن ، وقرر ان استجارة الانس من
اذاهم وهم وفي وضلال ، ثم نبه الى ان رجال الانس
المستعاذ بهم ، كالكهنة والعرافين والمنجمين ، يريدون
اولئك المستعجلين الساكنين (وهما) وعتنا ، ويدخلون
على قلوبهم من الرعب والخوف منهم ما لا يطيقونه -

(١) رفسع الصبي كمنع : شد في يده او رجله خروا للدلع
الجن ، ورفسع كمنع كفوف اربعه ، ورفسع حرفا فهو مرفسع
ومرسعة ايضا : فسد اجهلته ، والفسع : يس في مقفل اللفظ
نحو منه اليد او القدم . القاموس .

» به صمم » جملة اسمية و بين ارسافه » حال مقفلة
المصح

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادَهُمْ هَرَقًا ۖ وَهُمْ ظُنُّوا أَنَّا مُنْتَفِعُونَ بِأَلْفِ
أَلْفٍ أَهْلِهَا ۖ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مِثْلَ تَحَرُّمٍ
شَدِيدٍ وَنُجُومًا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لَشَجَعٍ ۖ فَمِنَ
بَسْمِجٍ آلَانٍ يَجِدُ لَهٗ شُبَّانًا رَصَدًا ۖ وَأَنَّا لَا تَدْرِي
أَشْرَأُ يَدُ يَمْنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ

وان لنا معشر الانس مغزى وصبرة من اقوال
هؤلاء النفر من الجن : ان ننتبه كما انتبهوا الى انه
قام فينا نحن ايضا ملبسون ، يظفوننا ان نصدق بكل
منقول ، ولو كان مما يناقض العقول ، وبخالف ماقرره
الاسلام من القواعد والاصول . فلا ينبغي اذن ان يكون
اولئك النفر من اخواننا الجن اهدى منا الى صحيح
الايمان ، ولا اشد تمسكا بآداب القرآن :

ثم لقد قامت الطيور فتنى
لا يكون الحمام اطرب منبا

ومما قاله اولئك النفر لقومهم امر بالغ في الغرابة
بمتعلق باوهام الانس في الجن . ذلك ان اناسا منا معشر
البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم
عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ولجأون اليهم مستعطفين
ضارعين الاوذهم . فكان الرهط من عرب الجاهلية
اذا اسما في واد او قفر وخافوا من الجن - لجشوا
الى الاستعانة بعظيم الجن السود فيهم ، فيقولون :
« نعوذ بسيد هذا الوادي من سفاه قومه » ، ثم يبيتون
آمنين . وكانوا اذا أصيبوا بمرض او آفة ، علقوا على
اجسامهم مائاتهم وتعاوذب يزعمون انها تقيهم اذى الجن ،
وكثيرا مايلطخون تلك التعاوذب بالتحاسة ليعتد الجن
من حاملها ، ويسمون التعاوذة اذ ذلك تنجيسا ،
وبجموعها على تنجيس ، ويعلقون على انفسهم
احياءا ومدا وعظاما . وقد اذكرك بعض عقلاهم قبح
هذا وسخافته كمرى القيس الذى يوصى زوجته
الا تتزوج - اذا مات وارادت ان تتزوج - احسق
معتوها من نعت من ذكرنا فيقول :

ايا هند لانتكى بوهة عليه عقيقته احببا (١)

(١) البوهة : الرجل الضاوى ، والطاش ، والاحمق . والعقيقة
خرقة كانوا يزعمون ان من نعت بها سكنت روحته عند الفصام
والاحسب : الابرس ، ورجل في شعر راسه شفرة ، ومن
ايضت جلده من داء ففسلت شعره نصا ايض واحسر .
القاموس . المصح

كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بلاهتهم ، كما يستثمر البقرة الجلوب . وهذا معنى (رها) فهو اسم مصدر لأرحة أرهاقا بمعنى أخته وكلفه فوق طاقتة . ولا جرم أن ضعفاء العقول يتحصلون من صيد هذه الأوهام والشعوذات فوق ما يطيقه نفوسهم ، وتقرى عليه ملكاتهم ، فيعيشون في الوسوسة والشيل والتعاسة إلى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد في الجن ، ورد البشر في أمرهم إلى حد محدود . فكم نجنى على أنفسنا بل على القرآن نفسه إذا كنا نعتقد في الجن والشياطين اليوم ما يعرفه عرب الجاهلية أنفسهم مما لو سمعوه عنا لضحكوا عجا ، وأعصوا منا هربا .

ثم قال خطباء الجن لقومهم : أن فلة الانس كففتكم انتم يا معشر أخواننا الجن . فهم يظنون كما يظنون أن الله يترك كلا الفريقين - الانس والجن - من رحمته ، فلا يبعث إليهم رسولا يزيح عن أمتهم غشاوات الأوهام ، ويميط عن قلوبهم رين الأساليب ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون ان طعن الفريقين فيما ذهبوا إليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رحمة للانس والجن ، وأنزل عليه القرآن الذي سمعنا آياته ، ودامغ بيناته ، فوجدناه لا يتفق مع ما نحن عليه جميعا من العقائد والأوهام ، فامطناها من قلوبنا ، وطهرنا من لولها نفوسنا .

(لسنا) يراد من التمس الطلب وان كان أصله التمس باليد . وكثيرا ما نقول نحن اليوم للتمس كل أي نظليه . ولي عندك التماس أي طلب . وهذا كالجنس ، فان أصله تعرف الشيء باليد ، ثم استعملوه في طلب الخير وعرفه ، ومنه التمسس والتمسوس . فقولهم (لسنا السماء) يريدون به طلبنا أخبارها ، وحاولنا أن نتعرف أسرارها . و (الحرسي) في الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء ، ثم استعمل استعمال المفرد ، وأصبح اسما للجماعة الذين يحرسون السلطان ، ولذا لا يقال في واحد حارس ، بل حرسى ، أى منسوب إلى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صحت النسبالية ، لأن الأصل في الجموع الانسب إليها ، ودليل آخر وصفه في هذه الآية بالمفرد وهو (شديد) ، ولو اعتبر جمعا لقال في وصفه شديدا . و (شهاب) جمع شهاب صفة خاصة ببعث يتيسر لنا منها استيراد السمع ، وسماء الليلة المصححة كانه كوكب متقشر . وقوله (وانا كنا نقعد الخ) يريد به اننا كنا من قبل نقعد من السماء نقاعد لأجل أن نتسمع أخبارها أي نقاعد قليلة ذات صفة خاصة ببعث يتيسر لنا منها استيراد السمع ، ولذلك نكر (نقاعد) . وقوله (يجده) أى يجد معنا له ومهيتا في طريقه . ويقال في (رسدا) ما قيل في (حرسا) من أن أصله جمع راسد ثم استعمل استعمال المفرد . ومن ثم وصف به المفرد فقيل (شهابا رسدا) ولم يقل (شهاب رسدا) أى أن ذلك الشهاب مهيتا في طريق ذلك الشيطان المستمع برقبه لينقض عليه . وهذه مسألة ثنية من الدلائل ذات البال التي

قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجن تصيحوا لمقتلنا بشأن جنس الجن ومبلغ مسطوهم على الانس ، فلا نذهب في الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل مذهب . قال أولئك النفر في الآيات السابقة أنهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الانس ، فليطمئن هؤلاء بالا من هذا القبيل . ويقولون الجن في هذه الآيات أنهم يريدون - بالصعود إلى السماء - أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ما قدره الله وإرادته في البشر ، لكنهم يطردون منها طردا ، ولا يوفقون إلى ذلك ، وأنهم كانوا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يظفرون بحاجتهم أحيانا ، فيلتقطون من السماء أخبارا ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن ، وتقررت فيه الحقائق - فلم يعد للجن نصيب من ذلك : بمعنى أن الجن والشياطين كان لهم قبل الإسلام سؤلة ودولة ، أما بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القبيل .

والسماء في حرف جميع الأديان المنزلة مساحة الملكوت الرباني ، وصلى السر الروحاني ، وفيها عرض السلطان الإلهي ، ولوح التقدرات الأزلية المتشعبة بعالم الدنيا . وهي مسكن الملائكة : منها يهبون ، إليها يرجعون ، ومن لم كانت قبلة السماء ، ومنتهى الرجاء . وكان الكهان والمخرفون ودهاة البشر الذين يريدون التلب بضفاف العقول واستغلال بلاهتهم يستخدمون الجن في تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدره فيها ، وكثيرا ما ادعوا أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به السكبان فضا طريا فيخبرون به الناس . فانت ترى أن حيايل الكهان في القوابة والأضلال ، ومزاليق البشر إلى الوهم والوسواس والخيال - كانت متحصرة تقريبا في الجن : من جهة الظن فيهم أنهم مسطلون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خياته العناية الإلهية للبشر فيها . وكانت هذه الأساليب كثيرة الزواج : شديدة الوطأة على عقول البشر في تاريخهم القديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والإسلام حدا لهذه المسألة ، وقرر بلسان الجن أنفسهم (أولا) أن الجن لا يؤذون الأذى الذي يخافه ضمام العقول ، و (ثانيا) أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن النفوس بشأن البشر في لوح محفوظ في السماء بعيد عن ان يتصل إليه أولئك الجن الذين أصد لهم في طريقهم حفظة أشداء وشهب رواسد تمنعهم وتذفع في صدورهم . ومقرى آيتنا هذه في إزالة الأوهام بشأن الجن ومعرفتهم الغيب هو نفس المفرد في آية سب : (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) . فكل من الآيتين البتت جهل الجن لم جهل الكهنة والعراةين بأمر الغيب وما قدره الله خلقه . كما آتت القرآن أن الغيب لله وحده (ومنه دفع القبيح لأعمالها إلا هو) ، فقد حجبه عن المخالفين أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) . ثم

السموات والأرض ، ومستبقى الى ماشاء الله مادامت سنتها الالهية ، ونواميسها الطبيعية قائمة في هذا الكون ، غير ان القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثة المحمدية رمزا وتنبها للبشر الى ان الجن والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه وقرآنه ما كان لهم قبل ذلك لدى الأمم القديمة الرائجة فيها السحر - من السلطة والنفوذ والتأثير في عقول البشر بواسطة مخرفة الكهان والسحرة ودعوى الغيب والمزامير الباطلة .

فالقرآن يهتف من فوق رموس الأمم والشعوب بأن العقل البشري تحرر من هذه الأوهام بففضل القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن هذه الشهب التي ترونها أيها البشر تنفض في السماء من وقت الى آخر علامة لكم على ذلك فهي ترمز لكم وتشير الى ان الشياطين مطرودون من السماء ، محطون (١) من حظائرها برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلعبن بمقولكم .

ويشبه هذا ما جاء في التوراة من أن الله تعالى وعد نوحا وولده بالا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذي وقع لهم وأهلك البشر وكل حيوان ما عدا نوحا وولاده ، وأنه تعالى جعل قوس قزح في الغمام علامة على عهده معهم (٢) . قال مفسر التوراة : ولا ينتج من هذا ان قوس قزح لم تكن موجودة قبل الطوفان لأن تكونها طبيعي كلما وقعت أشعة الشمس على فطرات المطر ، لكنه تعالى جعل مثل ما كان - علامة لما سيكون ، ورمزا الى انه تعالى لا يسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . لم يفربوا مثلا لذلك صخرة ملقاة في أرض منهن القديمة ، ثم قسمنا الأرض الى قسمتين ، وجعلنا تلك الصخرة نخعا ومسلما بين القسيتين ترمز الى كل فريق أين تنتهي حدود أرضه .

وهكذا القرآن فاته جعل ارسال الشهب الموجود من قبل علامة على ابطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصد ابطال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منيع حصول طوفان آخر يهلك البشر بمسد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع في وصف ما كانوا عليه من التفرق والانقسام المؤدى الى الضعف والانحلال ، ثم ماصاروا اليه بالإيمان والاتفاق على طريقة واحدة برحى لهم بواسطة الخير والاسعاد . وقوله (الصالحون) صفة لمصدوف ، أي (قنا من) القوم (الصالحون) ، وهم الأبرار العاملون بما يرضى الله من اتباع أوامره الالهية ، والتمسك بسنته الحكيمه ، والعكوف على العمل الصالح .

(١) خلاه من الله بطرده .

(٢) وقد ورد مثل هذا في حديث ابن عباس : « ما من لاهل الأرض من النرق - القوس - وحتى بالقوس قوس قزح . المؤلف .

وَأَنَّا إِنَّا الْغَاسِقُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ قِدَا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعِزَّكَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَ نُعِزَّهُمْ رَبِّهَا ۝ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْحَدِيثَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ بِمَآ وَلَا وَهَآ ۝ وَأَنَّا إِنَّا الْغَاسِقُونَ وَمِمَّا الْقَاسِقُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِقُونَ فَكَفَّا لِحُبِّهِمْ حَكَبًا ۝

لإعلاء صلى الله عليه وسلم من الغيب الامانيه به الوحي الصادق .

هذا ما استفاد اولئك النفر من الجن مدمسوا القرآن ، وهذا ما اعلنوه في قومهم ، وهذا ما احوا ان يعلمه الانس ايضا ، مؤكدين خبرهم واعتقادهم بأبلغ اساليب الخطاب العربي المعهود في لسان اهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمة (ان) التي هي الاصل في التاكيد .

ثم انهم اتوا الحديث من جهل الجن بنتيجة ينشئ ان يعيها كل انسى وهي قولهم : (وَاِنَّا لَأَنذِرُكُمْ أَشْرَ أَوْدٍ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) ، أي انا معشر الجن الذين نزعونم فينا يلمعشر الانس معرفة الغيب واستراقه من السماء - لانذري ولا تعلم ما الله فاعل في سكان الأرض ، وماذا قضاه وقدره عليهم في لوح تقديرهاته : أراد وقدر شرا ام أراد وقدر رشدا ، أي عذابة وتوفيقا . فلا تظنوا فينا معرفة شيء من ذلك بعد اليوم ، ثم لا تصدقوا الكهان بما يبرون لكم منا . هذا ما قالوه ، لكنه تعالى في الواقع ونفس الامر قضى بالشر والشؤم والضللال على بعض من في الأرض من الأشخاص والأمم ، كما قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص ولبعض الأمم .

بقي بحث نصب الآ يوفتوا ذكره ، وهو ان ظاهر هذه الآيات يفيد ان الجن بعد البعثة المحمدية منوا من استراق خبر السماء بارسال الشهب عليهم ، ولما أورد على هذا ان الشهب كانت ترى في السماء قبل البعثة - اجيب بانهم لم تكن من الكثرة الى هذا الحد الذي وقع بعد البعثة بدليل قوله (ملئت) ، وهذا يدل على ان الحادث الجديد هو الماء والكثرة ، وكذلك قوله : (تقدم منها مقادير) ، أي كنا أولا نعد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، أما اليوم فقد ملئت المقاعد كلها كما صرح به الفخر الرازي . وقد يقال : ان الشهب كانت منذ خلق الله

وقوله (دون ذلك) هو أيضا صفة لحذوف ، أي (ومتنا) قوم (دون ذلك) ، أي أدنى وأحط في مراتب العمل ومراماة السنن من أولئك الصالحين . ولم يعلم كان هؤلاء الأدنون النحطون عن أولئك فريقا واحدا ذا رأى واحد وسيرة واحدة ، أم كانوا على خلاف ذلك - حتى قال : (كنّا طرائق قنذا) ، فنادى بهذا الاستنفاد البيناني أنه يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والأدنين - طرائق قنذ .

و (طرائق) جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذي يطرق ويسلك ، ثم غلب استعمال الطريق في معناه الأصلي ، أمضى الطريق المحسوس المسلوكة ، كما غلب استعمال الطريقة في الطريق المعنوي ، وهو مذهب الإنسان وسيرته التي يتربسها في حياته إلى آرائه ومقاصده .

و (القنذ) جمع قنذ : القطعة ، من قد الشيء إذا قطعه . وطرائق القوم مقود بعضها من بعض ، ومقطوع جانب منها من جانب ، فكل واحدة منحارة من الأخرى ، مقطوعة منها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه . من الطرائق القوم مقود بعضها من بعض ، وتبين مذهبهم . وقد سألهم إلى هذا التفرق الآلة والطمع وحسب الرياسة وجلب النافع الزائلة ، وهذا بالضرورة يؤدي إلى الشقاء وسوء الخاتمة . أما التفرق في الآراء بسائق الاستهزاء ، وتلمس السعادة والحصول على نظام كافل للحياة الاجتماعية - فهو تفرق محمود نافع ، يحرص عليه الأمم الموقفة ، وترغب فيه ، وتسمى إليه بواسطة الصالحة والاندباء وعقد الأزمرة والجمعيات التي يؤدي تفرق الآراء فيها إلى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالتفرق من الجن الذين خطبوا قومهم ذكرهم بما كانوا عليه من التفرق الممقوت ، ووعدوا أنفسهم جميعا - بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به - بانتظام أمرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ، ومذهبهم ، ففتحه أبدا إلى الخير ، وتنصرف عن الشر .

ثم قالوا لهم : (وأنّا قنذا) ، أي علمنا واعتقدنا . والظن كثيرا ما يأتي بمعنى العلم (إن لن ينجي الخ) ، أي لن تكون في الأرض جبابرة أقوياء يعجز تعالى عن أخذنا وإزوال قهره بنا . كما لا تندر على الهروب والتفلت فنوه لم يعجز من الحاق بنا ، والانتقام منا .

يقولون قومهم : أننا كنا من قبل نعلم ذلك ونعتقد ، ولكن لم يفندنا ذلك العلم ، ولم يتقلنا من بلاد ما كنا فيه من التفرق المشؤم حتى سمعنا القرآن وآمنّا به ، واتقننا بهديه .

و عادوا إلى ذكر نعمة الإيمان والشكر له تعالى على أن وفقهم إليها . ولا جرم أن في ذكر النعمة وترديدها على الأنفواء عتابة بها ، وفي إعلان الحمد والثناء على سديها استزادة منها . وهذا هو المقصود من قولهم : (وأنّا لنا سمعنا الخ) .

ومعنى (لا يخاف بخصا) أي انتقاما من حقه في الثواب فيعطى أقل مما له .

ومعنى (ولا رهقا) أي لا يخاف ظلما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالرة ، أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق وأي رهق ، لكن المؤمن يبره آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : (وأنّا قنذا المسلمون الخ) يريدون به تحذير قومهم وانقاعهم ، فادخلوا أنفسهم في جعلتهم ، وقالوا لهم أنه سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق قاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : (وأنّا أو أباكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ، وهو من أساليب اجتلاب الخصم ، وتلطيف حديثه ، واستئالة عريته . فهم بهذا الأسلوب يحركون من عاطفة قومهم لعدو شيطان التفرقة والاختلاف في بينهم ، وليكونوا بدلا واحدة في الإيمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفي إلى أنه سيكون منهم جميعا أفراد قاسطون ، أي جائنون وحاذقون عن سبيل الهدى والرشد ، وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا في هذا السبيل . فكأنهم يقولون : إنهم لم يكن فينا فريق قاسط ، بل تكون كلنا مسلمين ، إذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

(فمن أسلم) واتباع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن (فأولئك تعزوا وشهدا) أي طوبوا الأخرى والأهلى من الطريق مد اختاروا أنفسهم طريق الرشد والحق فاستقاموا عليه ، وهو آخذ لهم أن شاء الله إلى الجنة . وهذا - وإن لم يذكره الكتاب كما ذكر العذاب يعطى جهنم في جانب القاسطين - مفهوم من ذكر موجه أمضى تحرى الرشد . والله تعالى أعلم من أن يعذب القاسطين ، ويدع المسلمين من ثوابه .

(وأما القاسطون) الصادلون من ذلك الطريق ، (فكانوا) بما اختاروه واستمرعوه (لجهنم خطبا) وقودا يلقون فيها ، ويصلون سعيها جزاء وفاتقا لأعمالهم ، وسوء اختيارهم . وليس هذا الكلام من أولئك النفر إلا ابتغاء قومهم كلنا ، وحسنا لهم على النظر والتدبر في العواقب ، فلا يسلكوا إلا طريق النجاة والفوز .

و (القاسط) من قسط إذا جار وحاد من الحق ، ومصدره القسط بفتح القاف . ويكون (قسط) أحيانا بمعنى عدل . يقال : قسط الوالي في حكمه إذا عدل ، وهو وإن كان قليل الاستعمال بهذا المعنى فإن مصدره الذي هو القسط بكسر القاف كثير جدا . أما (أقسط) بالهمزة فهو بمعنى عدل ، واسم الفاعل منه مقسط أي عادل . ومنه قوله تعالى : (فإذا قالوا : اقسط الوالي في حكمه) كان معناه أزال القسط بفتح القاف أي الجور والظلم ، فيكون «أقسط» موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل .

وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ^(١)
لِنَجْنِيَهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ يَعْزِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ سَلَكَ عَذَابًا
صَعِيدًا ۖ وَإِنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۖ^(٢)

قوله : (لو استقاموا الخ) . أكثر المفسرين على انه ليس من مقول الجن لقومهم ، وإنما هو من مقول الله موحي به الى محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو عطف على آية استمع نفر من الجن في فاتحة السورة . ولعلمهم إنما جعلوه كذلك لقوله (اسقيهم) . فالله الوحي يقول : لو استقام أولئك القاسطون على الطريقة المثلى لأسقيهم ماء غدقا . ولو كان من مقول الجن لقال « لأسقاهم الله ماء غدقا » . وهذا القول ظاهر لايبار عليه . ومع هذا فاني أرى ان الأليق بالكلام المجز ، والأكثر محافظة على تناسق جملته ، والتحام أجزائه - أن يبقى (وان لو استقاموا الخ) من مقول الجن ، ومما حللوه به قومهم ، ولا سيما أن بعض المفسرين جعل الآيتين التاليتين : (وان المساجد لله الخ) (وانه لما قام عبد الله الخ) - من مقول الجن أيضا ، وكيف يحسن هذا مع جعل (وان لو استقاموا) من مقول الله لا من مقول الجن ؟ وكيف يعثر حشرا بين أطوار كلامهم وهو غريب عنه (١) ؟

وإذا صح جعلنا له من مقول الجن - كان قوله : (لأسقيهم) واردا مورد الحكاية ، وأن الله هو السقي لا النفر المتكلمون : على معنى أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيهم ماء غدقا . لكن المتكلمين عدلوا من الاسم الظاهر وهو ربهم الى الضمير وهو (نا) حكاية لما يقوله الرب في وجه خطابه عادة للبشر ، فهو كقولك لمن تريد نهيهم عن المعاصي « انك اذا تبت الى الله ادخلتك الجنة تجري من تحتها الأنهار » (٢)

(١) ما اختاره المؤلف لما مبنى على ماذهب اليه بعض المفسرين من أن الآيتين التاليتين من مقول الجن ، وليس باللام . فقلى قول الجمهور لاجتماع من قولهم ، بل يكون الكلام من هنا تقريرا لما ينبنى ان يقرئه الناس ويسروا عليه بعد أن مرلوا قصة الجن . والتكلام على هذا ملضم الأجزاء ، متناسق البطل . وعلى الرأي الثاني ، لتكون الآية مسخورة حشرا كما قال المؤلف ، بل تكون اعتراضا حسن الموضع ، لما فيه من التنبيه الى سنة الله الدائمة الى الاستقامة على الطريقة المثلى ، وهو المقصود من قصة الجن كلها . المصحح .

(٢) لما يصح هذا التوجيه في ماوى لو كان المتحدث يمثل هذا الكلام ممن يسمع له ان يتحدث من الله تعالى كما في الآيتين التاليتين استشهد بهما المؤلف به . على أن الأبلغ في الميلة التي سألها أن يقال : انك اذا تبت الى الله ادخلك الله الجنة . الخ . يظهر الاسم العكبري بدل الضمير ، لتوكيد نية ادخال الجنة اليه تعالى ، فيكون آدمى الى المسورة في الامتثال . المصحح .

تريد أنك ايها التائب تكون في جملة من يدخلون تحت وعد الله لأهل طاعته مد يقول : ادخلنا ويؤانا وانزلنا . وفي الكتاب آيات كثيرة وأرودة على هذا الأسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه : (قال فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أمطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى في كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهادا . وسلك لكم فيها سبلا . واتزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى الخ) ، وكان الظاهر أن يقول فأخرج به . وينبشه أن يكون منه قوله تعالى في سورة الانعام : (قل تعالوا انزل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) . فقله : (نحن نرزقكم) بضمير المتكلم وارد مورد الحكاية عنه تعالى ، وكان الظاهر أن يقول : « هو يرزقكم » .

وقوله : (لنجنتهم فيه) واردا ايضا مورد الحكاية مع (لأسقيهم) . ثم رجع الكلام في قوله بعد ذلك (ومن يعرض عن ذكر ربه الخ) ، وان المساجد لله الخ) - الى أسلوبه الأول ونسقه السابق .

و « الاستقامة على الطريقة » السلوك فيها بصير وكيات ودوام . والمراد « بالطريقة » الطريقة السكاملة الرضية عند الله ، وهى طريقة أهل دينه وطاعته ، وسيرهم التي لا يبعدون منها . والضمير في (استقاموا) يرجع الى أولئك الذين لم يسلّموا ولم يتحروا رشدا ، بل قسبوا وحادوا من طريق الرشد والحق .

بعول النفر من الجن قومهم : قد يكون منا فريق لا يسلّمون كما أسلفنا ، ولا يسلّكون طريق الحق كما سلّكتنا ، بل يقسطن ويضلّون ، ويكونون حطبا لجهنم ، ولو استقام هؤلاء القاسطون على الطريقة المثلى التي يرشاهم لهم ربهم : من العمل بطاعته ، واتباع سنته - لوسع عليهم الرزق ، وآلان لهم العيش ، ولكانوا في جملة الذين يقول فيهم (أسقيهم ماء غدقا) .

(والفلق) : الماء الكثير النافع . والماء مادة الحياة ، وأصل البركات ، وعلى غرارته وجوده تتوقف صحة الأجسام ، ورفاقته العيش ، وطيبه الإقامة . ولم تكن مدينة من مدن البشر أو يستبحر عمرانها الا لأنها كانت مبنية على نهر متدفق ، أو ينبوع مفدودق . ولا سيما مدن العرب الضاربين في الوادى ، فان المناهل والفران غرضهم الاسمى الذي يطمحون اليه ، ويحرصون عليه ، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه . وكمن من غارة شئت ، وتكر حرب شسيت - من أجل غدِير ، أو اغتصاب بير .

وقالوا : قد جنت ، فقلت كلا
وربى ما جنت ولا انتشيت .
ولكنى ظلمت فكذبت أبكى
من الظلم البين أو بكنت
فان الماء ماء أبى وجسدت
وبئرى ذو حفرت وذو طويت

وإذا أرادوا الدعاء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسبوغ النعمة - قالوا : « سقيا له » ، و « سقاه الله » ، كما يقولون : « طربى له » و « حياه الله » :

فمعنى قوله : (لأستقيانهم ماء غلدا) لوسعتا عليهم الرزق ، وأجزلنا لهم النعم ، وبسطننا لهم الدنيا ، يتقبلون من رغدها وقضوة مهبثها فيما شادوا وأحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطيبة ، ورغد العيش في الأمم - إنما هو أثر من أكثر تقوى الله ، والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التي يرضاهها ، كما قال هؤلاء النفر خطبائه الجن لقومهم . غير أن الماء الغدق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا - كما تكون نوابيا من الله للام على استقامتها ، وحسن طاعتها واستمسكها بحبال سننه تعالى في خلقه - تكون في الوقت نفسه فتنة تصعب الأمم فيها عرضة للخطر ، ومزقا تهوى منه إلى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء . وذلك يكون بمدول تلك الأمم من الطريقة التي استقاموا عليها ، والتي كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأتهن .

فالله يرشد الأمم والشعوب إلى طريقة مثلى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ، فإذا استقاموا أفلحوا وسعدوا ، لكنهم - وهم في هذا الفلاح والسعادة - بسبيل الفتلة والذهول والزهو والثرور والتكبر من الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعمل ، وحسن العمل .

لما أحرارهم ساعدت باليقظة والانتباه والتدبر ما أحرارهم بفقر الخلل والأحتياط والاستمسك إ بحبل النجاة - ما أحرارهم أن يكونوا في هذه التجربة والمزلق الدخفي ذوى أقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ، كي يجتازوا الصراط ، ويتخطوا المزلق ، وينجوا بأنفسهم . أفرا كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الداموس الإلهي عليهم - تجده مطردا لا خلف فيه ، يحكما لا وهن يعتريه .

ان هذا الدور ، دور الفتنة والتجربة بالتبسط في أفانين النعيم ولذلك الحياة الدنيا - من أرباب الأدوار على الأمم ، وأشدها خطرا على حياتها . وإلى هذا الدور أشار تعالى مذ قال : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبسورين) .

وكل ما ذكر الله في الكتاب من أخبار الأمم الماضية ، إنما ذكره تقريراً لهذه القانون الإلهي ، وكشفاً عن أمره ، وتحذيراً من فوائله ، بل تنزل الوحي إلى ذكر ذلك لنا على لسان أخواننا من الجن - كمباً في هذه الآية - ليكون آدمى إلى الانتباه والأعطاء والاعتبار . ويحصل معنى الآية أن أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : ان الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون

إلى بحايح السعادة وطيب الحياة ، ولكن ليحزنوا - ومد بلغوا هذا الدور - أن يطرخوا ويشغلوا بزهرة الحياه الدنيا ولذائدها عن العمل بالحق والعمل وطاعة الله . فان سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما ان شغلها ومصائبها كذلك ، فكوتوا بها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (لتفتنهم فيه) ولأن (لتفتنهم) هي ماسية النجاة لأم العافية ، وليست هي لأم التعليل ، أى ليس المعنى أن الله يوسع عليهم الرزق ويفدق النعم - لأجل أن يفتنهم ، وإنما المعنى أنه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، وإتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقالهم إلى دور خطر ، وموقف حذر ، فيه يفتنون ويجربون : فإن أحسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه - نجوا وسلموا ، وإن خاسوا بالهمد ، واستخفوا بالوعيد والوعد - بادوا وقصوا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : (ومن يعرض عن ذكر ربه) ، أى من يعرض عن أولئك الذين استقيانهم ماء غلدا - أثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار - من وحى ربه ودينه والعمل بطاعته (يسلكه) يدخله (عذاباً صعباً) أى في عذاب صعد . وفعل (سلك) يعنى بنى ، قال تعالى : (ما سلككم في سقر) أى ما أدخلكم فيها ، ولكنه هنا مدى إلى مفعوله بنفسه حملا له على لعل « دخل » ، يقال : « دخلت السوق » و « أدخلته الحان » من دون « في » .

و (الصعد) يفتحون ويضمين معنى الصعود ، مصدر صعد يصعد ، والصعود أكثر استعمالاً من صعد . و « العذاب الصعد » : هو العذاب الشديد الشاق ، وأصله من التصعيد في الجبل ، فإنه منصب متعب ، فيجبل العرب التصعيد فيه مثلاً للشقيقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شيء كان ، وتقول « تصعدنى الشئ » و « تصاعدنى » إذا شق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : « ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى خطبة التكاح » يريد ما شق على ولا غلبنى إلا هي . أو هي من الصعود يفتح الصاد العقة الشاقة ، كما قالوا « تكادونى وتكادنى » من العقبة الكئود ، أى شق على . ومثله قوله تعالى : (سارقه صعدا) ، منناه ساسومه عذاباً يشقى به كما يشقى الصعد في الصعود .

والعذاب الذى يعترى الأمم بسبب إمراضها من أمر ربها ، ومن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته - من أشد أنواع العذاب ، وأكثرها حزا في القلوب ، وإمراضاً للنفس .

وقد فرسنا « ذكر الرب » بالطاعة والدين وإتباع السنن الإلهية ، لأن سعادة الأمم وشقاها ، وسقوطها وارتقاها - إنما يكون بهذا النوع من الذكر ، أى العمل ، أما الذكر الشئى الذى تتنل به الأمم حين غلبة الجهل والكسل والغبول عليها ، فإنه لا قيمة لهن دون عمل ، ولا بدفع منها إخطب إذا الخطب نزل . ولما نجد في كلام الله كلمة « الذكر » ألا مراداً بها

وَأَعْرَضُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا أَنْ يَبْكُورُونَ عَلَيْهِ
 لِبَدًا ﴿١١٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١١١﴾
 قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَفْعًا ﴿١١٢﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ
 يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١١٣﴾
 إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 قُيِّنْ لَهُ تَارَاجُوتَهُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿١١٤﴾ حَقَّ إِذَا رَأَوْا
 مَا يُوعَدُونَ فَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْبَلُ عَدَدًا ﴿١١٥﴾

القرآن والوحي والدين وطاعة الله وأخشية منه . أما
 الحركة المضطربة أو الميكانيكية فما أبدعها من مقاصد
 القرآن ! وما أضعفها إلا في نجاته الإنسان !!
 وما قاله أولئك الخطباء لتقومهم مباحين بما
 سمعوه واستفادوه من الوحي الإلهي (أن للساجد
 لله) . و (المساجد) جمع مسجد . والمراد به مكان
 السجود ، أو المراد به السجود نفسه . فيكون مصدرا
 مهيما سميت به الصلاة تسمية لكل باسم الجزء
 كما تسمى أيضا ركوعا لذلك . فالمتنى أن الصلوات
 كلها التي يصلها أي شخص ، مسلما كان أو غير
 مسلم ، أو أن العباد كلها للمسلمين كانت أو لغيرهم
 من أبناء الملل الأخرى - هي لله ، أي ينبغي أن تكون
 خالصة له ، فهو الخالق الحقيقي للبشر ، ولا يحسن
 منهم أن يجعلوا صلواتهم أو عبادتهم لغيره أو باسم
 غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له
 العبادة فيها ،

هذا ما قاله الجن لتقومهم ، ثم فرغوا عليه نعيمهم لهم
 من عبادة غير الله ، فقالوا لهم : (فلا تدعوا مع الله أحدا)
 أي إذا كانت الساجدة له وحده فلا تبتعدوا معه سبحانه
 أحدا من خلقه . فالمراد بالدعاء هنا وفي قوله بعده
 (يدعوه) العبادة . وقلمنا ذكر الدعاة في الكتاب إلا أريد
 به ههنا المعنى ، أي العبادة . بل قالوا أن الدعاء من
 العبادة . والدعاة في الأصل الطلب ، ثم صار يطلق
 على العبادة ، لأن من شأن العابد أن يطلب من عبوده
 ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نهى المؤمن بالله أن يطلب
 من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله ، لتلا يكون في طلبه
 هذا عابدا لذلك المطلوب منه أو كالعابدين له . قال تعالى :
 (والذين يلدن من دونه ما يملكون من قطمير - أن
 تدعوه . لا يسمعون دُعائكم ولو سمعوا ما استجابوا
 لكم)

ولما انتهى أولئك النفر من الجن حديثهم أحبا أن

يختموه بذكر ما علموه من أحواله صلى الله عليه
 وسلم ، وقيامه بدعوة الناس إلى التوحيد ، وما كان
 من تكذيب الناس له ، وصبره على أذاهم . . فقالوا :
 (والله لا قام عبد الله يدعوه الخ) ، وقد سموه صلى
 الله عليه وسلم باسم (عبد الله) تنبيها لقومهم إلى أنه
 مع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ،
 ونباهة الذكر ، واستجماع الكلمات في ذاته الشريفة -
 ليس من شأنه أن يؤسم بغير ميسم العبادة .

لا تلغنى إلا يابدها فاتته اشرف اسمها

فليس هو صلى الله عليه وسلم الهما أو متساها في
 الأرض ، ولم يتم ليكون جيلنا من جبابرتها ، ولا
 طافوها من طوائفها . وإنما هو كما قال من نفسه :
 « عبد » . اجلس كما يجلس العبد ، واكل كما يأكل
 العبد . . وقد حصى أمته على ألا يطروه كما تطرى
 الأمم إبطاها وعظماها وأنبيائها إلى درجة الألوهة ،
 ولكن يقولوا عنه : انه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : (انه لما قام عبد الله)
 محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يدعوه ربه ،
 ويعبده وحده من دون الأصنام والأنداد التي تعبدها
 القبائل والأمم في ذلك العهد - حاج هؤلاء الأقوام
 وتالبا عليه من كل جانب بحيث (كادوا يكونون) من
 فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وأزدهاجهم (عليه)
 لصده من دعوه ، وإسكانه من تبليغ رسالة ربه -
 (ليلما) ، كالتبد : أي كحيوط الشعر أو الصوف التي
 تلبنت وار بعضها إلى بعض . و (اللبد) بكسر ففتح
 جمع لبدة بكسر الهمزة ويجوز شهما فتجمع إذ ذاك على
 لبدة كزفرة وغرف . وهي اسم لكل شعر أو صوف
 متبلد . ويسمى الشعر المتبلد على أكتاف الأسد لبدا
 لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال « ذو لبدة » وفي الملل
 « هو أمتنع من لبدة الأسد » .

ثم قال الخطباء : وإن عبد الله محمدا صلى الله عليه
 وسلم لما ثالثه عليه القبائل تناصبه وتعاير به - لم يقل
 لهم قول المخبولين الموسمين ، ولا الجبابرة المتكبرين ،
 بل (قال) لهم قول البررة المخلصين : أتى يا قوم لم أك
 أمرا متكررا ، ولم أقبل ما استوجب به منكم كل هذا
 الأعراس والتفورات والأصافق على عدواني ومقامتي
 (إنما أدعو) وأمد (دعي) التي خلقتي وأمدني من
 ضروب العناية والتربية والتأديب بما صرت به بشرا
 سويا ، وعبدًا بظامة ربه مليا ، فأنا لا أكفر بكل عبدة
 النعم ، (ولا أشرك بربى) وعبادته والإخلاص إليه
 (أحدا) من خلقه : الذين أتوا قدامي به ، واستندوا
 كياتهم منه (١) .

(١) اشتمر المؤلف هنا على قراءة « قل » وفي تفسير الآخري:

(اقرأ الآخريون قل على أنه حكاية من دعاه بقوله صلى الله عليه
 وسلم للمتكبرين عليه ، أو حكاية من أخرج منه زجرهم إلى قومهم
 ... وقراءة الآخر وهي قراءة حاصم وحيدة وابن جعفر - بطبر
 وأوفق بقوله سبحانه « قل إلى لا ملئكم ثم غرا ولا رشدا » .)

ما مر كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم . ثم انتقل الوحي منه إلى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلما له ، ومرشدا إلى أفضل الطرق أمثاله في خطاب مومنه من فريش ، ومحاجتهم في الله ، سحرهم بعباده ، جاعلا بحاجة لقومهم توظلة بمهيدا ، بل نموذجا ومثالا ، فقال :

(قل) يا محمد في محاجة هذه القبائل التي ازدحمت عليك للبطن بك ازدحام شجر البود : (أني لا املك لكم ضرا) أي ولا نفعا - كما لا املك لكم ضرا (ولا رشدا) : فحذف « نفعا » من الأول لدلالة « ضرا » عليه ، وحذف « ضرا » من الثاني لدلالة « رشدا » عليه ، فهو من جوامع الكلم التي كثر ورود أمثاله في الكلام المعجز .

يامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينه قومه ومقامي دعوته إلى أنه لم يتم فيهم تكون له سيطرة عليهم ، ولا لبديل ويغير ماقدرة الله وقضاه فيهم من خير وشر ، ونفع وضر ، وفى ورشاد ، وإشقاء وأسماء كذا ! فان ذلك كله ليس من مقدوره ، وإنما هو بيد ربه ، وإليه مرجعه . وأنه هو صلى الله عليه وسلم لم يرد من كونه واحدا منهم : أرسله الله ليبلغهم وحيه وأمره ، ويدلهم على الطريق التي يريد ربه من يستقيموا عليها . فيقدر ما يكون منهم من الهدى في تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والنفى والرشد ، ثم يكون صاحبهم على الله . بل (قل) لهم يا محمد فوق ذلك (أني) أنا المرسل بتليغ أمر الله اليكم (لن يصيرني) أن خالفت ، وأهملت ، أو أذنبت ، (من الله) أن أراد مقصدي ، والتفكير بي (أحد) من البشر . (ولن أجد من دونه ملتجئا) أي ولن ألقى أن هربت من عقاب الله وسطوره ملاذا للنجاة إليه ، وآمن فيه من العقاب . سمي اللاد والملاجا « ملتجئا » من « اللحد » وهو في أصل معناه الجبل . يقال : لحد فلان إلى فلان إذا مال إليه ، ولحد السهم من الهدف إذا عدل عنه ، ولحد في دين الله إذا مال من صراطه إلى مضايقه وتبائله . ولما كان الملجا والملاذ يلجأ إليه الهارب للاعتصام به سمي ملتجئا . وقد نفى أولا أن يجد صلى الله عليه وسلم مجرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجا ومقل يأوى إليه من الأجناس الأخر . فلذا كان هو صلى الله عليه وسلم - حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلغ وحيه وأمره إليهم - معرضا للقتل والانتقام الإلهي أن خالف أو مضى أو قصر في هداية أولئك الأقوام المرسل إليهم - فكيف يكون حالهم هم إذا عصوا وظلموا وتصاوموا عن استماع أمر ربه .

والعمل بما يرشيه ؟ لاجرم أن الأمر الإلهي ، والشرع السماوي - ناموس عام ، بديع الصنع والإحكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فمن راماه ، واستمسك بعمره - سلم وتجا ، ومن استخف به ، وحاد عنه - شقى في الحياتين ، ثم هوى .

نفى الوحي عنه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة كل طاقة وقدرة تحول بينه وبين انقضاء المشيئة الإلهية فيه ، كما نفى عنه أن يكون مالكا لشيء من مصير الخلق وأمر شرهم ونقمهم ، وفيهم ورشادهم . لكنه عاد فآلت له صلى الله عليه وسلم حقا واحدا ، وعمل واحد ، ووظيفة واحدة يملكها بلائ الله ، وهي مناوئته أولئك القوم المكذبن (بلافا) جاهد (من الله) تعالى و « رسالات » ، وهي سور القرآن وآياته ، أتزلت عليه من الله ليتلوها عليهم ، فمن سمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبيل الرسالات وتلبرها ، وعمل بمضمونها - كانت له الجنة خالدا فيها أبدا ، (ومن يعص الله ورسوله) ، فيعرض عن سماع البلاغ وتبيل الرسالات والانتفاع به (فان له ناز جهنم) جزاء وفاقا لتكذيبه وأمره وسوء صنيعه . وقوله : (خالدين فيها) أي لأبدين في العذاب إلى غير نهاية ، وإنما جمع (خالدين) مبالغ المعنى : وذلك أن (من) لفظها مفرد ، فأعاد عليها الضمير مفردا فقال : (فان له) ، أما نعمنا فمعاص شامل لكل عاص ، فذلك جمع خالدين تمايلا مع ذلك المعنى . وفي الكلام - قبل قوله (ومن يعص الله الخ) - مقدر أشرنا إليه بقولنا : « فمن سمع البلاغ ووعاه الخ » ، ثم عطفنا عليه قوله تعالى (ومن يعص الله الخ) ومثله كثير في آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولو ذكر فيه كل ما حذب منه من هذا القبيل لبلغ حجمه أضعاف مائه ، فسيحان من أتزله ، ويحليه الإيجاز والإعجاز زينته وكلمه .

والضمير في قوله : (حتى إذا أوأ) يرجع إلى (من) باعتبار معناها الجمعي كما قلنا في خالدين) وكلمة (حتى) غاية لمضامين الآيات التي وصف فيها أوضاع المكذبن وأتالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث أشبهوا في تأليهم وتظايرهم البعد . فالمعنى : سوف يستفسر هؤلاء المعاندون في فهمهم وضلالهم ، واستغفاهم رسول الله وصحابته ، واستضافهم لهم ، (حتى إذا أوأ ما يومنون) أي حتى وقت معانفتهم ما أوعدهم الله بهم من العذاب والعقوبة : أما في الدنيا فإن مصيرهم فيها الضري والخلدان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين ، وأما في الآخرة فان مأزيم فيها إلى النار ويشن القرار ، (فسيعلمون) منذ رؤيتهم ذلك ، وتحققهم صحتهم (من أضعاف ناصرا) معينا وحاميا (واقف عدا) نفرا وجندا : هم

قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رِزْقًا
أَمْدًا ﴿٦٦﴾ غَلِيْمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٧﴾
إِلَّا مَن أَرَادَ نَجْدَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ
خَلْفَهُ رَمَدًا ﴿٦٨﴾ يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا وَسَكَتَ رَسْمُ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٦٩﴾

او معبد عليه الصلاة والسلام . لا ريب انه صلى الله
عليه وسلم هو الاقرب ناصرا ، فان ناصر الله تعالى ،
وهو الاكثر صدا ، فان جنده الملائكة الاطهار
والمؤمنون الابرار .

ويحتمل ان يكون المعنى انهم سيعلمون يوم القيامة
ان الله تعالى هو القوى العزيز القادر على التنكيل بهم ،
والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ انصارهم وحفاظهم
شيئا ، ولا يفتي عنهم ملدهم وتكاثر حصارهم فتिला .
كان صلى الله عليه وسلم كلما خوف المكذبين ناز
جهنم ، وحلدهم احوال الساعة - اظهروا الاستخفاف
بقوله ، وسالوه : متى تقوم هذه الساعة ؟ وطلبوا منه
ان يعين لهم زمانها وقت حلولها ، ويتخاضعون من
جهنم وقتها ، واخفاه الله لها ، سيلا الى تكذيبها
واتكراها بالجملة . وه في اخفاء الوقت الذي تخرب
ليه الكائنات وتقوم الساعة - حكمة هو سبحانه اعلم
بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد ببيعة البشر ،
واستتباب امرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا
يلحون عليه صلى الله عليه وسلم في تعرف امر الساعة ،
فكان احياها بشارتهم في الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ،
حتى ما به ربه على ذلك في سورة النازعات فقال :
(يسألونك عن الساعة ايان موعدها فبسم انت من
ذكرها . الى ربك منتهاها) ، يعنى ان امرها غيب
انقضت الحكمة الالهية الا يبلغ عليه احد حتى انت
بامحمد ، فدع منك كثرة اللجج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من امر الساعة
والتحقق وقومها ، اتبع ذلك ببيان ان زمانها مكنوم
من الخلق يجعله كل احد الا الله .

ولما ختم في الآيات السابقة الحديث مع قبائل
العرب المتالكين عليه صلى الله عليه وسلم - بايعادهم
بنار جهنم والخلود فيها - كانوا يسيل ان يسالوه
حسب شئنتهم : متى يكون هذا الذي تعدنا به ؟
قريب هو ام بعيد ؟ فقال الله لتبيته : (قل لهم يا محمد
(ان ادري) اى ما ادري (اقريب ما توعدون) من قيام

الساعة بحيث اصبح متوقع الحول ، منتظر الحصول
كل وقت وان ، (ام يجعل له يدي امدا) ، يعنى ام هو
غير منتظر الا وغير متوقع الحصول ، لان الله جعل
له امدا واجلا هو بالانه ، فقلوه (امدا) واقع في مقابل
قلوه (قريب) كما تقول : اقريبة زيارتك ام لها اجل
فهي مؤخرة اليه ؟

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : (عالم الغيب) . وفي
سياق الآيات الماضية امران اقتضيا وصفه تعالى بذلك :

١ - ما ورد على لسان اولئك النفر من الجن : انهم
لا يعلمون الغيب ، وان الله قد حال بينهم وبين
معرفة ما قدره في السماء بشأن الخلائق .

٢ - اخفاء الساعة من متناول علم البشر ، وانه
لا معنى لاهتمامهم بها وسؤالهم منها من وقت
لاخر ، فالغيب بوجه عام - وغيب يوم القيامة
بوجه خاص - مما استأثر الله بعلمه .

(فلا يظهر) (١) اى لا يطلع (على غيبه احدا) من
خلقه .

و (آل) في (الغيب) للاستغراق ، اى انه تعالى
عالم كل الغيوب على اختلاف انواعها واشكالها . والغيب
ما غاب عنا معشر البشر مما لا تهتدى اليه بشيء من
حواسنا ومشاعرنا ، او بشيء من فراستنا وقياسنا
واستنتاج عقولنا . وكل ما استكننا علمه والوصول
اليه باحدى هذه الوسائل لا يكون غيبا ، بل لا يسمى
غيبا بالمعنى الذى يشمل قوله تعالى (عالم الغيب) .
والغيوب التى استأثر الله بعلمها انواع ، لكن منها
ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة
وفائدة : كالوحي والشرائع والامور والنواهي الالهية
الغيبية منهم ، والتى لا يبلغها علمهم ، ولن تهتدى اليها
عقولهم . فهذه الشرائع السماوية اذا بقيت مكنومة
منهم ، غير مبلغة اليهم - اضر ذلك بهم - واخل بنظام
امرهم ، وخسب عليهم السعادات الدنيوية والاخرية .

وقد قام في البشر حكماء وفلاسفة وكهان ادموا
علم هذا النوع من الغيوب المتعلقة بمصالح البشر
وانتظام امرهم ، وكانوا يزعمون انهم وصلوا الى خرم
منه يتقوهم او يراضاهم ، او بواسطه الجن ، ففى
الله ذلك أولا من اعلان بلسان الجن انفسهم ، ونفيه

(١) ورد في الحديث انه صلى الله عليه وسلم سمع جردى
ينفخ في مرس ويقول :

واصدى نبا اكثرا تجهجج في المرصد
ودججك في النادى واصل ما في السعد
فقال صلى الله عليه وسلم : لا يعلم الغيب الا الله . ومعنى يججج
تتمكن ويحس مسترخية ، والريد الحظيرة - المؤلف -
قوله (في النادى) هو كذلك في الاصل وفى لسان العرب ، وامله
(في المنتدى) يستقيم وزن البيت - المسجع .

تكون مايسميه النحلة لام العاقبة ، ويمثلون لها بقوله تعالى (فانتظروا آل قرون ليكون لهم عدوا وحزنا) وكما مر في لام (لتغتنم فيه) .

فمعنى الآية إذن أنه تعالى عالم الغيب كله لا يطلع عليه أحدا من خلقه ، أنسيا كان أو جنيا ، حكيمًا أو كاهنًا ، اللهم إلا غيبة اللئى في اطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلئ الإلهى ، فإنه يوحىه بواسطة أمين وحيه جبريل الى (من ارتضى من رسول) ، أى الى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واسطفاه لذلك ، فيأمره بتبليغه اليهم ، وأنه تعالى (يسلك) ، أى يرسل ويبعث ويثبت من بين يدى رسله ومن خلفهم (رسدا) على معنى أنه تعالى يحول رسله من كل جانب يرصد من الحراس والحفظة ، وذلك صوما لهم ، وحفظا من الراسوس والتخاليف ، أو من الدخول والنسيان ، حتى لا يتركوا بعض ما أوحى اليهم ، أو يبدلوا عنه ، أو يقتصروا في تبليغه . وهذا كناية عن أنه تعالى ركز في فطرة أنبيائه مقدرة أو صفة بها يطبقون تبليغ رسالته الى خلقه من دون تفریط في قوة منها ، كما تقرر في « علم العقائد » ، ويسمون تلك الصفة « العصاة أو الأمانة » .

ثم إن أنزال الوحي ورسالات الكتب السماوية على الأنبياء ، وعصمتهم من التفریط فيها — تكون نتيجة إبلاغهم تلك الرسالات الى البشر ، وبذلك تتحقق المعلومات الإلهية ، وتم المشيئة الأزلئية في إسماعدهم وهدايتهم ، واستصلاح أمر دنياهم وآخرتهم ، فالمراد من قوله (ليعلم) ليلظرو وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفا . وقد زاد هذا المعنى وضوحا بقوله بعده (وأحاط بما لديهم) ، أى أنه تعالى أحاط علمه بجميع ما لدى الأنبياء من الوحي والشرائع والرسالات ، فلن يفوته منها شيء ، ولا يتفلت حرف ، فهو محص لها ، مهيم عليها : وهو تعالى لم يحط علمه القديم بمسا لدى رسله فقط بل أنه (أحصى) ، وهلم علم غيب واستقصاه وشمل — (كل شيء) من هذه المخلفات المنبئة في الأرضين والسماوات (عددا) ، أى حالة كون كل واحد من تلك الأشياء معدودا معينا من غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الأشياء الكونية وجوئياتها ، وكيف لا يحيط علما بما عند رسله من وحيه ورسالاته التى أمرهم بتبليغها الى خلقه ؟ وكيف يمكن إرساله عليهم الصلاة والسلام أن يعرفوا في تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرّفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟

منهم مستلزم لتفى معرفته عن الكهان بالضرورة . ثم نفى في هذه الآية إمكان اطلاع أحد من البشر مهما ارتقى عقله ، وصح حكمه ، وصفا قلبه ، وأشرقت نفسه — على ما في غيب الله من الوحي والشرع الذى يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم (إلا من ارتضى من رسول) — فإنه تعالى قد يرتضى ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم آياه وحيًا : تورا أو زبورا أو انجيلا أو قرآنا ، متضمنا ما يريد أن يخاطبهم به مما فيه صلاحهم ومعادتهم ، وانتظام أمر معاشهم ومعادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه انه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام . نقل ذلك ابن جرير الطبرى في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب اليه أيضا ابن جريج ، وزد بن حبيش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : ان الغيب هنا بمعنى الوحي والشرائع كالغيب في قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضئ) ، أى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحي والشرع الذى يلقي اليه بمتهم فيغير أو يبدل فيه .

ومما يشهد على أن المراد بالغيب ما ذكر — قوله تعالى بعده : (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلفوا رسالات ربهم) .

(مسلك وأسلك) بمعنى أدخل ولرسل وبث ، و (الرصد) مر أنه بمعنى الحرس والحفظة ، وضمر (يديه) يرجع الى (من) في قوله (من ارتضى من رسول) باعتبار لفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا : وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوته — أعاد عليها الضمير في (أبلفوا رسالات ربهم) جمعا ، وقد مر نظيره في قوله : (فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) .

ومعنى (ليعلم) لأجل أن يقع تبليغ الرسالات وينكشف أمره للخلق ، فيطلع علم الله به واقعا . وقد سنى ذلك الوقوع علما كما سماء كذلك في آية (ولنبين لكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين) ، والا فان اطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شيء منه — ليس لأجل أن يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلم منذ الأزل وقد قدره وقضاه ؟ وإنما يرسل الله الرسل ويعصمهم من النسيان لأجل أن يعقب ذلك انجاز اقتدر الإلهى ، وتعلق العلم القديم ، وتكون نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووجيه الى خلقه . فالآلام في قوله (ليعلم) يشبه أن

(٧٣) سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ
إِلَّا الْآيَاتِ ١٠ وَ ١١ وَ ٢٠ قُدْسِيَّةٌ
وَأَمَّا ٢٠ نَزَلَتْ بَعْدَ الْقُلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴿١﴾ ثُمَّ انْزِلْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ تَصِفُوهُ
أَوْ أَنْصِفْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْرَدَ عَلَيْهِ وَدَّيْنِ الْفُرْقَانِ
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَافِثَةَ
الْأَيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْغًا وَأَقْوَمُ بَصِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ

فواقع هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة (اقرأ باسم ربك) . وكان من خبر ذلك أن العناية الإلهية بعدما أعدت نفسه للترغفة لقبول الوحي - وكان في الأربعين من عمره - أنزل عليه جبريل وهو في حارة خاء ، فلقى عليه : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) ، فكان أمر العلم والتعلم أول ما فرغ قلبه الشريف من فوارق الوحي السماوي والتطمين للوحي . وإذ لم يكن له صلى الله عليه وسلم عهد بتلقي الوحي ومخاطبة الله ، ذكر منه (١) ، وظننا أن أو عارضاً عرض له . والرؤى في مثل هذه الحالة لا يجدر بمبكتنا لروعه ، فحفظاً لهواجسه - مثل الالتجاء إلى يمينه - ويث شكواه إلى زوجته - ففعل صلى الله عليه وسلم ذلك . وكأنه خائف أن يتبدد من أم الملك نائية ما فاجأه أولاً ، فلقى نفسه في فراشه ، وقال للسيعة خديجة زوجة : زملوني زملوني ، أي لففوني بالباب . فينبغي أن يكون قد أراد بذلك الاستغناء عن الملك ، وأداحة نفسه من عند الطوارئ الجديفة ، وما خامر قلبه من الهول التشديد . ولم يكن أنه

[illegible]

النعاموس الذي كان ينزل على اخوانه الانبياء والمرسلين قبله ، او ان طلبه التلطف بالشباب كان لشعريرة برد شعر بها في جسمه .

ولما عاد اليه الملك مرة ثانية وجهده لى الله عليه وسلم تفرلا فى قطيفة ، فقال له : **(يا ايها الزمّل)** **(يا ايها اللئيم)** ، وهى فاحشة سورتنا هذه . ثم جاءه مرة اخرى وكان متدلرا ، اى متلفعا ، كذلك بكسالة ، فقال له : **(يا ايها اللئيم)** فقال له : **(يا ايها اللئيم)** ، وهى فاحشة السورة الآتية . والسبب فى الخطاب فيها كالسبب فى الخطاب فى هذه السورة على ما سياتى . وفى كلنا الحائذين كان صلى الله عليه وسلم خير من مثيتين من امر الوحي لأول زول وهله ، فسكان يريد ان يتجنبه بالزمّل والتدبر ، وعدم التعرض للهاثف ، حتى يحقق الامور اخيرا ، وعلم انه جبريل عليه السلام : **(يا ايها بالوحى يبلغه امر الله)** ، وقد كان السبب السبب خديعة رضى الله عنها الموقف العظيم فى تثبيت قلبه ، ومهنته وروحه ، وكشف الهواجس من خلده ، كما هو مبسوط فى كتب السيرة .

و « الزمّل » و « المذثر » من « زمّل واذثر »
 قلبت تاءهما زايًا ودالًا ، واذفعتا في الراي والدال
 الأصليتين ، واجتلبت الهمزة في أول كل منهما لأجل
 التوصل إلى النطق بالسكون ، فقيل « زمّل واذثر » .
 واسم الفاعل منهما « زمّل ومذثر » .

أما خطاب الملك لبينا على الله عليه وسلم بياها
الزامل ، ولبيلة أمر به بقيام الليل وترويل القرآن ،
وبقوة الأوامر والإرشادات التي تستمعها في هذه
السورة - فالقاصد منه الفراغ الأمة المحمدية في قالب
مبين من التريتين الجسمية والروحية - فالشاعر
الأعظم لم يملأنا من بيان الطرائق التي تؤدي إلى التوفيق
هاتين التريتين فيقترن - فهو لم يكتف بما كان هند
أسلافنا العرب من القوة الطرية الرخصة في نفوسهم
وأبدانهم ، بل شرع لهم من طرقها ووسائلها ما يزيدنا
وسخا فيهم ، فيستفيدون من هذه التربية فيما
ندبوا له من القيام بالأعمال الجلي - كما أن هذه
التربية نفسها التي ابتسامهم الآتين صفات الترف
واللذة ويلهية العيش التي سيصبحون معرضين
لها بسبب الفتح واستباحرة العيران ، والتبسط في
متاح الحضارة - فالتكاليف الشرعية المتعلقة بالدين
مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام من
آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مرارا ،
والاعتساف في أحيانا ، والكسوف في أيام الله ، والقيام
للسحور من آخر الليل ، والكحل وحمل مشقات
السفر لاداء فرضته ، والأحرام والسبي والطواف ،
والجهاد وما ينطوي لاحتسته من فروب المشقات
والأعباء - كل ذلك يورث ألدائنا سבלابة ونفوسنا
وتكون سبلافتنا على الثبات في معترك الحياة الصام ،
وقوة نونا لنا على نشر تعاليم الإسلام بين الأمم -
مثل هاتين الأوجيم الهندوسية المشهورة بذكرنا في

السجن فقال: «إن أعظم شيء حصلت عليه في السجن هو عمودي احتمال متقلب الجسد ، فقد كنت أجد أن قوتي الروحية تزداد نشاطاً . وأنتي اعتقد أن الله يقوى ويساعد الظالمين ، وذلك بصلتهم بـ قاسون الألباب الجسدية كاستحسان قواهم الروحية » ١ هـ .

فالتكاليف السماوية تقوى الجسم بسبب تمرسه بها ، وعرضه لها المرّة بعد المرّة . وتقوى النفس أيضاً بسبب أنها تصبح حاكمة على الجسد ، نافذة الإرادة فيه ، مصرفة له فيما تريد ، ولا تكون لشياطين الأخلاق الرديئة - كالكسل والاسترخاء والحين والأعمال - سلطة عليها . بل إن اختراش الزكاة نفسها فيه تعويد النفس قهر شيطان البخل ، والتقصي من سطوة ، وخفي وسوسته . وبذلك تصبح النفس قوية العزيمة ، نافذة الكلمة في مملكتهما البدنية . وفي القرآن الكريم آيات جمة تتضمن الحضي على تقوية الجسم والنفس والتمسك بأسيابها . وهذا الحضي السماوي يلقى على المخاطين بأسلوب عجيب لا ينفطن له إلا بعد تأمل وإمعان نظر . وقد بقى القارئ آية من القرآن يخصصها برمي إلى معاينة عبادة ما ، ويكون هناك حكم وأسرار أخرى أعم وأشمل وأعلق بالتربية الاجتماعية من التربية الجسدية . من ذلك هذه الآيات التي افترضت بها هذه السورة .

فقله : **(يا أيها الزمّل)** ، أي يا أيها الذي تلفظ بقطيعته ، واضطجع بزاوية بيته ، وقد أشبه في فعله هذا من يؤثر النعمة والسكون ، ويحاول التخلص من صعوبة مايؤكل إليه من أمر يعني أو مصلحة تهمه : **(قم الليل إلا قليلاً . نصنعك أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه)** ، أي دع التزمل والتلفف ، والنشط لصلاة الليل والقيام فيه ساعات . والواجب أن تكون هذه الثلثين طويلة بحيث لا تقل من ثلث الليل ، خشية ألا يكون لها تأثير في الجسم والروح ، كما لا تزيد من الثلثين خشية أن يؤدي القيام إلى عكس المراد منه : فيضعف جسمك ، وتضائل قوتك ، فلا تعود قادراً على تحمل أمياد التليخ ، ومعاينة شئون الدعوة . فقله **(قم الليل إلا قليلاً)** معناه لا تقصمه كله . ثم نسر ذلك بقوله : **نصنعك** ، أي قم نصفه ، أو أقل من النصف قليلاً ، أو أكثر منه ، يعني قليلاً . وهذا هو معنى ما قلناه : أن المكلف به هو ساعات تختلف بين الثلث والثلثين لما بيننا من الحكمة في ذلك .

(ودلّل القرآن قريشاً) ، أي أقر القرآن أنسواء قريشاً من الليل قرأة ثبوت وتؤدة - آية الرأية ، كما يرسخ في تفسيك معنى الوحي السماوي ، وتفهم مفزى الخطاب الإلهي فهم أحاطة واكتناه ، ولا تسرده سرداً يضيغ معه التدبير وفهم المعنى . يقال كلام رتل ورتل إذا كان مغلفاً مغرجاً .

لا جرم أنه صلى الله عليه وسلم قد تأدب بأدب القرآن ، وتأسى به أصحابه الأبرار ، فطاعوا ربه في

أحياء الليل ، والتخفف للصلاة ، ومجاهدة النفس ، حتى شحبت ألوانهم ، وذبلت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم . وقد رحّمهم ربهم فأقرّل على نبيه مؤذناً له بأنه بلغ من المجاهدة والعبادة وقيام الليل فوق ما ظنّه ، فقال تعالى : **(طه)** ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يشقى .

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بطراح النوم ، والوقوف إلى العمل ، وأن يصلي في الليل ساعات طويلة ، وأن يتفهم الخطاب الإلهي المتعلق بهداية الكذابين ومحاقتهم فيما يعبدون من دون الله - انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة ذات التكليف الشاق ، فقال : **(أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً)** ، أي أننا سننزل عليك وحياً يتضمن الدعوة إلى دين جديد ، وحمل الناس عليه ، وتكليفهم العمل بأحكامه . فهو بالطبع سيكون ثقيلاً شديداً الوطأة عليهم ، لما فيه من ترك ما ألفوه من العقائد ، ونبيذ ما ورثوه من أسلافهم من التقاليد . فانت يا محمد معرض لتأنيب كثيرة ، وأخطار جمة ، في سبيل هذه الدعوة ، وحمل البشر على قبولها ، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة وأنت على ما نرى من التزمل والتلفف والنوم والغزلة ، وملازمة الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق وقهر النفس وحملها على العبادة والمجاهدة الطويلة ، وعدم دراسة الوحي الإلهي درس تفهم وتدبر ؟ فانتقش من مضجعتك الآن ، واسهر معظّم ليلك ، وادرس آيات القرآن درساً مميّساً ، استمداً لتحتل مثاقيل الدعوة ، ومتاعب تبليغ هذا الوحي الشديد ، والدين الجديد .

وكان هناك سائلاً يشك في أن قيام الليل ودرس القرآن مما يساعد على تحمل متاعب الدعوة ، فرجع الخطاب الإلهي إلى تقرير هذه الحقيقة فقال : **(أن ناشئة الليل الخ)** .

(ناشئة الليل) : ما يحدث فيه ويتجدد من الطامات والعبادات : من نشأ إذا حدث وتجدد . ومعنى **(أشد وطئاً)** أصعب على النفس وأثقل مما لو انتشت في النهار . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أشد وطئاً على مضر » .

والمعنى أن ناشئته المرء ويحدثه من طاعة وعبادة يقوم لها من مضجعه بعد هدأة من الليل - هو ممارسة صعبة ثقيلة عليه ، ومن شأنها أن تقوى النفس وتشد العزائم ، وتصلب الإبدان . ولا ريب أن التمرس بالمجاهدين ومصاصاتهم وطول النزاع معهم يحتاج إلى نفوس قوية ، وإبدان صلبة .

هذا هو تأثير ناشئة الليل في الأجسام والنفوس . أما تأثيرها في تغلّب الوحي ، واستبانة معاني الخطاب الإلهي - فلا يقل من التأثير الأول . وهذا معنى قوله تعالى : **(واقوم قليلاً)** .

(القيل) مصدر كالقول والقال . و **(أقوم)** أي أعمل وأبين وأسد وأبليت . والمعنى أن تلاوة القرآن ودراسة الوحي في الليل أو في صلاة الليل ، وتفهمه والتأمل في معانيه - إيتين وأسد وأبليت في الليل منها في

سَبَّحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْهَرْمْ جَهْرًا
جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا

النهار . فان هدو الصوت في الليل ، وسكون الحركة
فيه - اجتمع للقلب ، وأعون للنفس على التسكين
والانقطاع والتأمل في الأسرار والقاصد . وهذا أمر
محقق يعرف كل من امنطق بصوات الالهي ، الى بيل
الطامع والامال .

ثم رجع الوحي الى بيان الحكمة في تحمل مشقات
قيام الليل ودراسة القرآن فقال : (ان لك في النهار
سبحا طويلا) . اصل معنى السبح العموم على وجه
الماء او المروار السريع في الماء ، ثم استعير للمروار السريع
في الهواء ، فيستعمل في الطير والفرس ، ومنه « سبوح
لها منهالها شواهد » . ويستعمل أحيانا في التصرف
في الأشغال ، وضرورة المرور في الاممال . وهو المراد
هنا ، يقول : ان لك في النهار تصرفا وتقبلا ، واشغالا
طويلا في مهمات الوظيفة المقدسة الموكلة اليك ، وهي
دعوة المشركين الى دينك ، ومجادلتهم في بطلان ما هم
عليه من الشرك . ومثل هذا العمل الشاق لا يقوم به
الا من توفرت فيه القوتان : قوة الجسم وقوة النفس .
وان ناشئة الليل ، والقيام فيه للعبادة وتلاوة
القرآن - مما يساعد على ذلك ، ويكسب جسمك
صلابة ، ونفسك متانة لممارسة هذا العمل الشاق
في النهار .

قد يعترض من عترض بان قيام الليل وطول التهجد
فيه يضعف الجسم من المقاومة والكفاية ، فكيف
يكون وسيلة للقوة والجلادة ؟ هذا الاعتراض نفسه
أورد على سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه ،
واجاب عنه . وهذا نص قوله :

« وكاني بقاتلكم يقول : اذا كان هذا حال ابن ابي
طالب (اي من التخشن والتهجد والتأمل من الطعام)
فقد قعد به الضعف من قتال الأقران ، ومنزلة
الشجعان . الا وان شجرة الريح أصلب صودا ،
والروائع الخضرة (اي الاعشاب الينة) ارق جلودا ،
والناتبات البدوية اقوى قودنا ، وابطا خمودا . واتنا
مرسول الله كالصنوم الصلو ، والفرار من المضد
(اي اته هو سيدنا الرسول من اصل واحد في العمل ،
والطريقة واسلوب المعيشة فيكون في حالته كما كان
سيدنا الرسول : شديد اليأس قوى العزيمة ، وان كان
خشن المعيشة) . ثم قال : « والله لو تظاهرت العرب

على قتالي ما وليت هتها . ولو امكنت القرص من
رقابها لاسرعت اليها » اه . هذا ما قاله على رضي الله
عنه ، ومنه تعلم ان الرياضات البدنية : من الصيام
والقيام والتقصيف ، اذا روعي فيها الاعتدال المشروع ،
أدت الى قوة الجسم ومتانة العزم ، لا الى ضعفها .
وقد تحصل من الآيات السابقة ثلاث مقدمات :

١ - نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم
والعزلة والتلفف في الثياب كما يكون من شأن
المترائخ المنغمسين في التعرض للأخطار في سبيل
القيام بوظيفته .

٢ - حضه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل الى
حد محدود ، ودرس الوحي الذي يلقي عليه
درسا عميقا كي يقوى على اداء وظيفته .

٣ - بيان صعوبة أمر الدين ، وعسر الدعوة اليه ،
وان على الداعي ان يبذل الجهد العظيم ، ويقضي
الوقت الطويل في مسالة الجاحدين وجسدال
البلطين .

وبعد ان قرر الخطاب الالهي هذه المقدمات التي
هي بمثابة تمهيد وبسط للدعوة - انتقل الى امر
الرسول صلى الله عليه وسلم بها نفسها ، وتعليمه
كيفية السير فيها عملا ، بعد ان مهدها له نظرا ،
فقال تعالى : (وادكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا) .
اي بعد ان يتم لك ما تريد من تقوية بدتك ونفسك
بواسطة الطاعات والعبادات الليلية ودرس الخطاب
الالهي درسا مدققا - باشر وظيفتك النهارية ، وهي
دعوة الخلق الى الحق ، والزاهرهم بخلق الأولان وما
يعبدون من دون الله .

فقلوه (وادكر اسم ربك) مثل ما تقول لآخر « سم
الله » واتت تريد حضه على الأخذ بعمل فيه مشقة ،
وابدائه بطول وقته . كأنك تقول له : هيا باشر
وظيفتك ، وقم بالعمل الذي امرت به ، فقد جاء
وقت الشروع فيه .

او المراد بقوله : (وادكر اسم ربك) ارفع صوتك
بذكر ربك ، وأعلن صفاته الحقيقية بين اظهر الصوتين ،
وادمهم الى عبادته وحده ، وخلق الأصنام .

ثم علم الله نبيه ان يكون مقبلا على ربه ، منصرف
الهمة اليه وحده ، فقال : (وتبتل اليه تبتيلا) .
اي انقطع اليه انقطاعا تاما ، وأخلص اليه اخلاصا
عاريا من الشوائب ، ولا تدع نفسك تعتمد في شأن
من شئتوك على غيره تعالى ، وهذا هو التوحيد
الحقيقي . اما اذا شاب الاعتقاد بالله شوب استعناد
روحاني من غير الله - فانه يكون ولا ريب شوبا من
جهيم ، ولا يكون صاحبه من أمر مقيده على الصراط
المستقيم .

وأصل معنى التبتل : القطع ، كالتبتل والبتر والتبتك ،
ثم قلب التبتل على الانقطاع من الدنيا الى الله ، ومنه
« التبتل » لقب السيدة مريم ، وقيل سميت به
لانقطاعها عن الزواج ، ويقال : بتل الى الله ، كما يقال :
تبتل اليه .

وكان الظاهر أن يقول في تأكيد (ستل) في الآية

«تبئلا» لا «تبئلا» ، فإن التبئيل مصدور يتل لا تبئل ، لكن لما كان معنى تبئل : يتل نفسك - جاز أن يؤكد تبئل بالتبئيل ، مिला مع هذا المعنى ، ومرادها لحق القواصل ، وقد مر مثله في قوله تعالى : (والله أنتبكم من الأرض نباتا) ، ومثاله في كلام العرب قول شاعرهم :

وغير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتعابا
فإن «تبعه» من التغفل و«اتباعا» من الافتعال ،
وكان الظاهر أن يقول «تبعه تبعا» .

ثم استدل على وجوب الانقطاع له وحده وترك
أشراك غيره به بقوله (وبالشركاء) ، أي هو
وحد الذي يرعى المشرق والمغرب ويدبر أمورهما .
و (المشرق والمغرب) يكتى بهما عن الكائنات كلها
والخلق بجهنم ، وأن التقابل فيهما يشعر بالأحاطة
والشمول وأرادة الجميع ، كما يقولون : « من الباب
إلى المحراب » يريدون كل ما في الدار لا بابها ومحرابها
وحدتها ، ويحارب الدار صندرها . ومعنى كونه تعالى
رب الكائنات أنه ربها ومهد لها ، سبيل النمو والرقى
والانتقال في التكامل من طور إلى طور كما يرعى
الشخص ابنه أو فله أو فليته (١) .

وقد يكون في تخصيص كلمتي (المشرق والمغرب)
بالذكر ، ويكون بهما - إشارة على الاستدلال على
وحدانية الله ، ووجوب الانقطاع إليه بطريق عقلي
كانه يقول : أنك أيها الإنسان لو تأملت في الكائنات
كلها من شرقها إلى غربها - وجدتها : من حيث التكوين
والتركيب والانساق السن والنواميس - على نمط
واحد ، وبنية واحدة ، أدرس طبيعة الكائنات في
أقصى الشرق ، ثم أدرسها في أقصى الغرب - تجدتها
خافضة لتواحدة طبيعية واحدة ، وضمن الهيئة
متساوية متقادة : لا تبديل ولا تنفر . فخالقها
الحكيم الذي أبدعها على هذه الصورة ، وأفرغها في
هذا القالب - هو واحد لا متعدد . الكائنات في الشرق
والغرب واحدة في تكوينها فخالقها واحد في وجوده .
الكائنات ذات وحدة في الطبيعة والتكوين والقوة
والجواهر الفردة وتعاور النواميس ، فلا جرم أن تكون
للك الكائنات منبعثة من اله مختار ذي وحدة حقيقة
في ذاته وصفاته وأفعاله ، فيكون في ذكر (المشرق
والغرب) - إشارة إلى دليل عقلي وطبيعي على أن
خالق هذه الكائنات : واحد أحد ، فرد صمد ، لا شريك
له ولا ولد ، فلا يجوز إذن الاستعداد وطلب الاستعداد
من غيره تعالى ، ولذلك عقبه بقوله : (لا إله إلا هو
فاتخذ وكيفا) ، أي اعتمد يا محمد عليه وحده في
دعوتك البشر إلى الإيمان . وهذا الخطاب وإن كان
موجهاً إليه صلى الله عليه وسلم ، فإن القصد منه
التعريض بالمشرئين ، وإسباغهم بما يجدر بهم أن يفعلوه
هم أنفسهم الذين يعبدون الأصنام ، ويتوكلون عليها ،

(١) الفار كفتي ، وعفو ، وسمو : الجعش والمهر فلما أرو
بلغا السنة ، والفسيحة : النخلة الصغيرة . القاموس .

ويوفضون (١) في الشدائد إليها ، لا هو صلى الله
عليه وسلم .

ظهر مما تقدم كيف انتقل الخطاب الإلهي بالتبئ
صلى الله عليه وسلم من ساحة الاستعداد والتهيئة
الليالية إلى ساحة العمل وممارسة الدعوة النهارية .
ويدهى أنه سيد أمامه في الساحة الثانية سدا
منعيا من المكذبين القاموسين : كلهم يردون عليه ،
ويستفون رايه ، ويؤمنون فيه الزاعم الباطلة : من
مثل أنه - وحاشاه - ساحر أو مجنون أو طالب
رياسة دنيوية في نظير ذلك ، ولكن الله تعالى ربه
التربية المثينة التي تجعله يصبر على هذه المشاقبات
والتناقضات .

ولذلك قال له بعد أن أمره بالدعوة النهارية :
(وأصبر على ما يقولون) ، أي إذا دعوتهم في النهار
وعارضوكم ، وقولوا عليك الأفاويل - فاصبر عليهم
يا محمد ، وجعل قولهم ، (وأصبرهم عجزا جليا) ،
أي أعرض عنهم أراضا لا يتسبوه أذى ولا شتم ولا
مقاومة ريشا يتعن أصحابك بالعبادة والمجاهدة
الليالية على المناجزة والمجاهدة النهارية . وتكون بذلك
قد تهيأ لك الرد ، واستوسقت العصبية ، وتوفرت
أسباب القلبية والظهور عليهم . أما الآن ، أي قبل أن
تصل أنت وأصحابك إلى هذا الطور : طور الظهور
أعمال السيف والسنان - فينبغي الصبر والاقتصر
على الدعوة باللسان .

تقول : ومن أين أخلت هذا المعنى ؟ فأقول : من
قوله تعالى بعد ذلك : (وذريتي والمكذبين أولي النعمة
ومهم قليلا ، أن لنفينا لكلا الخ) . يقول الله لنبيه :
أعمل الآن أنت وأصحابك بما أمرتكم به من قيام
الليل ، وترويض النفس بالطاعات ، وتختلف التكليف
الشاقة ، حتى إذا تكاملت تربيتكم الجسمية
والنفسية ، وتوحدت طراتكم الدينية والزوجية ،
وبقى أولئك المكذبون أعداؤكم متقسمين في تترفهم
وتنعمهم ، متمسكين في ملذاتهم وشهواتهم - فإن من
شان حالتهم هذه أن تفسد تربيتهم وأخلاقهم ،
وتنهك قواهم وأجسامهم ، على حين تكونون أنتم
بواسطة الرياضة والعبادة والمجاهدة وتحصل المشاق -
على العكس منهم (٢) ، فيحشذ (ذريتي) ، أي دعني
والمكذبين ، أي أنك لا تحتاج في نيل الظفر بمرادك ،
والانتقام من مكذبيك إلا إلى أن تتكل على ، وفوض

(١) يوفضون : يسرون .

(٢) ويضبه خلا من وقائع التاريخ ما كان من سكان الأندلس
(القوط) الذين أتوا إلى أيبول العرب الأصفاء على بلادهم
فما كان منهم إلا اللجوء والانسحاب إلى جبل (أستورياس) أو
(أستوريس) كما يستعمل العرب ، وهي جبل شامخة قلعة واقعة
في الشمال الغربي من إسبانيا ، فالتسبب الأجرام من بيتشما
خلط ، وفرة وخشونة ، حتى إذا اكتسبت لهم هذه التربية في بضع
مئات من السنين - انتفضوا من قن جبالهم كالمقيان على أولئك
الرومانيين التريين ، فاجلهم من صياصيم ، وطبقوا سدة
الله بهم .

غَصَّةٍ وَعَدَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ
رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٧﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبَيْسًا ﴿١٨﴾
فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ إِن كُفِّرَتْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٩﴾
الْأَسْمَاءُ مِنْفَرِّقَةً ۖ كَانَ وَعَدُّهُمْ مَقْعُولًا ﴿٢٠﴾ إِن هَٰئِهِم

الأمم إلى ، وتدعى هؤلاء المنكذبين ، أطبق عليهم
سنتي في خلقي ، وذلك بأن أسلط القوى : وهو أتم
على الضمير : وهو هم ، وأمكن أوليائي الذين يعملون
بأوامري ويرامون سنتي بمن أعدائي الذين يخالفونها ،
ثم يحق بهذا هؤلاء المخالفين العقاب ، ويدخلون بأسؤم
مخالفتهم دار العذاب . وهذا معنى قوله تعالى : (أن
لدينا أنكالا وجحима) .

و (الأنكال) جمع نكل - بكسر اوله - وهو القيد
والثقل ، و (الجحيم) دار العذاب . و (الطعام ذو النصة)
هو ما أهدى الله في تلك النار من الطعام المنكر البشع
الذي ينشعب في خلوق أكليه ليفصسون به ، ولا
يقدرن على أسلفته .

ذكر الوحي العذاب الأول ومكانه وهو الجحيم ،
والآله وهي القيود وطعام الزوم ، وأراد تخويف
الكلبيين ولهديدهم بأنه تعالى يماقيهم بذلك كله أن
بقوا مستمرين في تكذيبهم ، مستمرين مرمي فيهم .
رؤى أن الحسن البصري أتى بطعام فلوره في بعض
أيام صومه ، فمرست له هذه الآية : (أن لدينا أنكالا
وجحима وطعاما ذا غصصة وعدابا أليما) ، فقال
تلامذه : أرفعه بسلام . ووضع منده في الليلة الثانية ،
فمرست له فقال : أرفعه بأسلام . وكذلك الليلة
الثالثة . فبلغ خبره ثابثا البثاني ، ويزيد الضبي ،
ويحيى اليكاه - فاجلوا إليه ، ولم يزالوا به حتى
شرب شربة من مهيق .

ولقد تبين من سياق الآيات التي افترحت بها هذه
السورة أن تربية الجسم والنفس بضروب التكالييف
والرياضات والعبادات الشاقة - هي مما أراده لنا
«حفظنا عليه في الكتاب» ، ولم يكن طلبها منا للثبات ،
أو لاسترضائه تعالى بممارستها ، ومكابدة أمانيها .
كيف وقد قال تعالى : (أن ينال الله لوجهها . ولا
ندأوها) ، وأما أراد سببها بهذه التكالييف
والجاهدات لتربيتها تربية دينية ، تجمع بين فطري
القويين : القوة في الجسم ، والقوة في النفس ، بحيث

تفتح أمامنا طريق التفلح والتمكن من نشر الاسلام ،
كما حصل لاسلافنا مذ عملوا بأصول تلك التربية ،
وتحول بيننا وبين الاستكناة والخسوع لغيرنا ، كما
حصل منا اليوم مذ أهملنا تلك الأصول وفرطنا فيها ،
وقصرنا في تطبيقها ومزامعتها . والأمر لله العلى
الكبير .

(يوم) متعلق بمضمون الكلام السابق ، أي أن
العقوبة ممددة للمكذبين في هذا اليوم الذي فيه
(ترجف الأرض والجبال) ، أي تضطرب وتزلزل بما
عليها زلزلة شديدة ، وذلك يوم القيامة . ولما كانت
الجبال صلبة جامدة بالنسبة إلى سائر اجزاء الأرض
- خصها بوصف ما ينوبها في ذلك اليوم من التفرق
وتناثر الاجزاء فقال : (وكانت الجبال كثيبا) تلام
الرمل سائلا متناثرا : من كتب الماء إذا صبه ، وكتب
الشئ اذا جمعه . ففي مادة الكتيب معنى الصب
والجمع ، ومن هنا سمي الكتيب كثيبا ، لأن الرياح
تحمل الرمال من هنا وهناك وتصبها في مكان
الكتيب ، ثم تأخذ الرمال الأخرى تتجمع عليها وحولها
حتى يتكون الكتيب . ورمل هذا الكتيب اذا حرك
أو مس تساقط وتنازع بعضه إلى بعض ، وهذا معنى
كونه (مهيبلا) ، وهو أسم مفعول ، وأصله مهبول
كميكيل أصله ميكول ، يقال : هلت الرمال فانهال ، اذا
حركت أسفل فسال من أعلاه وتنازع ، وما كان أقصد
تماسكا وكثافة من الرمل - كالبناء مثلا - فإنه يقال
فيه هروته - بالراء - فانهار .

يقع هذا الحادث الجلل في العالم مندما يتأذن الله
بخرابه وانقضاء أجله ، ثم يستبدل به عالما آخر
أشد احكاما ، وأبث نظاما ، وأكمل رسوخا وسلاما
وقصوى الكتاب تدل على أن خراب عالم الدنيا
يكون بزلة الأرض ، وتبدد أجزائها ، وتسيير جبالها
بحيث تصبح هذه الجبال كالكتيب المهيل أو الفين
النفوس .

على أن هذا الخراب الذي ينزل بالأرض لينسف
جبالها ، ويعرق أوصالها - ليس خاصا بها وحدها ،
بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور البينا : أرضه
وسائه ، وسائر كواكبه وأجرامه ، بديل آيات الكتاب
الأخرى من مثل : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم
انكثرت) ، و (إذا السماء انفطرت . وإذا السكاكيت
انتثرت) . والله يعلم بأي سبب يحصل ذلك الخراب
العالم ، وما اذا كان وراء الكواكب المنظورة هوال كواكب
أخرى يشملها الخراب المنتظر أو لا يشملها فتيق
سألة من مثل ما نزل بماننا إلى أن يشاء الله خرابها ؟
وهل ينشئ دينا العالم الأخرى في ساحات العوالم
السماوية الأخرى غير المنظورة أو ينشئه عالما جديدا ،
وكونا مستقلا لا علاقة له بالعوالم الغالبة اليوم من
ميوننا ؟ كل ذلك غيب لا نتمكن معرفته ، فنكل أمره
إلى الله سبحانه وتعالى .

يتراوح الوحي الإلهي في تخويف المخاطبين بين
تذكيرهم بيوم القيامة وما أصده الله فيه للمكذبين ،
وتذكيرهم بالآلام التي خلطت من قبلهم وكيف عصت

وغيرت فانزل بها من امره ما انزل ، وقد أتى في هذه الآيات على الأمرين معا .

وقوله : **(رسولنا شاهدنا عليكم)** يعنى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فانه يشهد بلسان مقاله انه بلغهم امر ربه اليهم ، او انه صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم بلسان حياته . فان من تصفح احواله ، واستقر ما جرى له في حياته منذ ولد فنشأ ، فبعث ، فلما الناس الى الايمان ، فاستأثر الله به - لم يجد في ذلك كله الا آية صادقة ، او معجزة خارقة : ثبت انه رسول الله الى الناس ، لم يال في تبليغهم ، ولم يتوان في امحاض النصيح لهم . فعاله هذه شهادة على اولئك المكلمين انه انما يبلغهم ما به نجاحهم في الدنيا والآخرة ، وانه لم يبع من وراء ذلك التبليغ جز مغتن لنفسه ، او تاسيس ملك لقيه ، بحيث يصدق عليه ما وصف به سيدنا على بن أبى طالب نفسه **صد قال : « فوالله ما كنت من دنياكم تبيرا ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولا اصدت لىالى لوى طعرا »** .

والرسول الذي ارسله تعالى الى فرعون هو موسى الكليم صلوات الله عليه . وقد نكره مذ قال **(رسولنا)** لافادة تعظيمه . كانه يقول : **رسولا عظيما من اولئك الرسل اولى المزم** . او انه نكره للاشارة الى انه متعين لا يلتبس بغيره . وقوله **(الرسول)** اى ذلك الرسول : قال فيه للهمم الذكرى . واخذ الله لفرعون كتابا من املاكه ، **(الويل)** في مطلق امته التقليل الشديد الضخم . فلذا قالوا : **طعام وييل** ، او **كلأ وييل** ، او **مرعى وييل** - ارادوا انه وخم ثقل على اكله - لا يستمر لونه ولا يهضمونه . واذا قالوا : **مطر وابل او ويل** - ارادوا انه شديد الهمر كبير القطر . والويل : العصا الضخمة . وتقول العرب : **« لقد اوبلت على شوك »** ، اى اقلظته على ، وبهظنتى به ، و **« ويل فلانا بالسيط »** : تابها عليه بشدة وعنف . وكل هذه المعاني تقال تقريبا في **(الويل)** ، فقولته تعالى : **(ذاقوا وبال امرهم)** ، وقوله هنا **« اخذناه اخلا ويلا »** - الكلمتان فيها منحوتتان من سعة واحدة . ولا جرم ان املاك الله لفرعون وقومه بالفرق كان باعظا لهم ، ملحا عليهم بحيث لم يفلت منهم احده . بعد ان ذكر الله اخذه لفرعون في دار الدنيا ، وان ملكه وجبروته لم يمنعه من ذلك الاخذ - هاد فذكر مكلى قريش - الذين شرب لفرعون لهم مثلا - يوم القيامة ، وانهم غير معجزى الله في ذلك اليوم ، ولا مغفلون منه بانفسهم كما لم يفلت فرعون مما فعل به ، فقال لهم :

(فكيف تتقون) ، اى تحلرون وتضافون **(ان كفرتم)** ، اى امرتم على الكفر - **(يوما)** ، وهو يوم القيامة وعذابه الشديد بل الابد وبالا وظلما من عذاب الله لفرعون في دار الدنيا ، فيوما مغفول به لتتقون على معنى تحلرون وتضافون . كما قلنا ، يقال **« اتقى الله »** ، و **« اتقى عذاب الله »** اى حذره وخافه ، و **« ما اتقى فلانا »** . اى ما اخوفه واخشاه له ، جاصل معنى

اتقى العذاب ، او الاسد ، او البرد : اتخذ لنفسه وقاية من العذاب او الاسد او البرد ، ثم كثر حتى صار يعنى خاف وحذر ، ونصبوا به المفعل . والمعنى هنا : كيف يصح ان تكونوا حاردين خائفين يوم القيامة ، او كيف يصح ان تعدوا انفسكم حاردين خائفين ذلك اليوم ان يقيت هكذا متعدين في كفرهم ، متقين على ضلالتكم ؟

ثم وصف ذلك اليوم بانه **(يجعل الولدان شيبا)** ، والولدان جمع وليد ، كما ان الاولاد جمع ولد (شيبا) جمع اشيب وهو من ابيض شعر رأسه . ولا ماتع من ان يكون الرعب او الفم سببا في حدوث الشيب في الرأس ، ولو فرضنا ان هذا لم يثبت فنا ، فيكون الكلام واردا على ما جرى به العرف بين العرب منذ القديم ، يقولون : **« يوم يشيب نواصي الاطفال »** ، فخرطوبا في القرن بين القوا ، وما زال العرف به الى يومنا هذا : قال ابو الطيب :

والهم يشترم الجسيم نحافة

وشيب ناصية الصبي ويهرم

على ان الهول والقم ان كانا شيبان الكبير لا يضربان قلبه وتائل مصبه من شدة وقصهما ولذع المهمة - فما بال الصبي الغافل ؟ وكيف يمكن ان يبلغ الحزن أو الخوف من نفس الى حد ان يشيب ناصيته ، وينقص عليه حياته ، ولا سيما اذا لاحظنا ان الولدان غير مكلمين ولا مؤاخذين فلا يلحقهم رعب ولا ضرر يوم القيامة ؟ فلم يبق الا ان المراد من الآية البالغة في وصف اشتداد الكرب ، وفاقم الخطب .

وهول يوم القيامة ان كان يؤتى هذا الاثر في نواصي الولدان فيشيبها ويغير لونها - فلا محب ، اذ ان هناك ما هو اقوى جسما ، واضخم جرما من لم الولدان وشعر رهوسهم وهو **(السماء)** ، اى بناء السماء وسقفها المرفوع فوق رهوسها ، فانه **(منقطنى)** ، اى متصدع ومتشقق **(به)** اى يهول ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبا . فالتغير والتحول والتأثر يهول ذلك اليوم ، وعظم مايقع فيه - عام شامل - يتناول ادق السواد والينها والطفها ، كما يتناول اشد السواد واصلها واضخمها - و **(انقطنى)** السماء : اتصدع اجرامها ، ويبلل اوضاعها ، فلا يعود حالها على ما هو عليه اليوم . وذكر فعل السماء فقال : **منقطنى** ، ولم يقل **منقطرة** . كما هو الاستعمال الشائع - كما يال الى ارادة البناء والسقف في معناها . صلى ان **(السماء)** وردت في كلام العرب مذكرة ، قال شارهم :

فلو رفع السماء اليه قوما

لحقنا بالسماء مع السحاب

فالسماء فاعيل (رفع) ولم يقل رفعت . يريد التباهر ان السماء لو كان من عاذتها وداها ان ترفع اليها قوما لفضاهم وعزتهم ومجدهم - لرفعتنا اليها ، ولكننا مقيمين فيها مع سحابها . او يقال ان السماء مؤنثة غير حقيقية ، ويعجز في مثله تأنيث فعله ولذا نرى وقوله : **(كان وعده مغفولا)** تحقير وتأنيذ لما وعد

فما الذي جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير ؟ قوله : (ان ذلك يعلم الخ) له اتصال بأول هذه السورة مذ قال تعالى : (قم الليل الا قليلا : نصفه او اتقن منه قليلا) . وقد قلنا ثمة : ان الوحي الالهي كلفهم ان يقوموا ساعات من الليل طويلة : لا تقل عن ثلثه ، ولا تزيد على ثلثه . فان قيام الليل على هذه الصورة ، واحياهه بالطاعات المختلفة : من ذكر ، وصلاة ، وقراءة قرآن - يقوى ابدانهم ونفوسهم معه ، ويعودهم الخضونة في العيش ، واجتناب ما عليه التفرقون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات الى حد ان تضعف همهم ، وتصرف نفوسهم عن جسام الامور الى دنياها ومحتراتها . كلفهم ذلك العمل الليلي تقربا اليه ، واستعدادا للدعوة ، وقرع الروموس العاتية بها .

والخطاب في فاتحة السورة للنبى صلى الله عليه وسلم وحده مراد به امته معه بدليل قوله هنا : (وطائفة من الذين معك) ، فان صحابته رضوان الله عليهم قاموا قيامه ، وسامعوه وصيامه ، ولبتوا في ذلك حشر سنين ، وقيل اقل من ذلك ، وهي مدة كافية لحصول الرها من الاسعداد والتعبية واستجماع التربية الدينية التي ارادها ربهم لهم . وبعد مضى عشر السنين المذكورة نزل الوحي خطابا له صلى الله عليه وسلم ولصحابته القائمين معه في الليل بهذه الآية : (ان ذلك) بالمعنى (يعلم انك تقوم ادنى من لثني الليل ونصفه وثلثه) .

لا يشبهه أحد من المخاطبين في آتة تعالى يعلم ذلك ، فلم يكن المراد منه افادة انه تعالى عالم به ، بل افادة انه وقع منكم ذلك ، وبلغتم به رضا ، والحمد الذي اراد ورسمه لكم . فهو مجازكم عليه ، موافقكم الى نيل الغرض الذي قمتم وتعمتم من اجله . واستعمال العلم بهذا المعنى مثله في قوله تعالى : (وانا لنعلم ان منكم مكذبين) . فليس المراد به افادة العلم بتكذيبهم ، بل افادة انه تعالى مرصد لهم العقوبة على تكذيبهم . وقوله : (ادنى من ثلثي الليل) - (الادنى) في اصل معناه : الاقرب مسافة ، لكن لما كان البعد الاقرب مسافة اقل احبازنا ومقائيس ، سموا الاقل ادنى . وقيام النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ثلثة اقل من ثلثي الليل ومرة نصفه واخرى ثلثه - هو معنى ما قلناه في (قم الليل الا قليلا الخ) . انهم امروا بان يتراوح قيامهم بين الثلث والثلثين ، فهو تعالى يقول : فعلمتم ما امرناكم به من قيام الثلث الى الثلثين ، والغاية غير داخلية كما دل عليه . قوله (ادنى) .

وقوله : (وطائفة) بالفتح عطف على ضمير تقوم . وحاز ذلك للفصل بينهما . بمعنى تقوم انت يا محمد ، وتقوم طائفة من صحابك الذين معك ، ويعمسون على اثرك فيما امركم به جميعا وانهاكم . وجعلهم طائفة لانه اراد بهم اولئك السابقين في الايمان ، الذين هم اول من كفروا هذا التكليف الشاق . اما وقد تم ما اراد الله بهم ، ورضيه لهم : من تحميمهم وتوثيقهم ، وتربيتهم التربية الدينية

تَذَكُّرُهُمْ شَاءَ اَحَدُكَ رِيَّةً سَيِّئًا * اِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ اَنْكَ تَقُومُ اَدْنٰى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ اَنْ اَنْ تَحْصُوهُ فُتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ اَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضٰى وَعَٰثِرُونَ بِعَثِرٍ فِي الْاَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاَعْرَضُونَ يَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَاَقِيمُوا

الله به : من وقوع ذلك اليوم ، ولن يخلف الله وعده ، مهما طال امده وتوسى ذكره . فلينتبه اليه الغافل ، وليعمل للخلاص من هوله العامل .

وضمير (وعده) يرجع الى الله وان لم يجز للمذكر ليما تقدم من الكلام ، لما ان المقام بعينه . او هو التثنية من التثنية في قوله (فاخلذوا) الى الغيبة في (وعده) . وكان الظاهر ان يقول : (وعدنا) فعمل الى ضمير القالب فتفتا في الكلام ، وطريقة للاسلوب . ويحتمل ان (وعده) من اضافة المصدر الى مفعوله ، ويكون المضمير راجعا الى اليوم المتحدث عنه . والمعنى كان وعده الله بذلك اليوم مفعولا ، وامره كائنا لا محالة .

(هذه) اشارة الى الايات السابقة ونظائرها مما فيه تخويف المكذبين من يوم القيامة واهواله ، او تخويفهم من ان ياخلطهم الله في ماجل دنياهم كما اخذ لروعن بملابيه وتكاله . (تذكُّرُهُمْ) : عظة وعبرة تذكر الناس فيذكر ، وتثقل الغافل فيستعبر . (فَمَنْ شَاءَ) من الغافلين الناسين ان يستفيد من هذه التذكُّر قبل القوت (اَحْذَرُ اِلَى رِيَّةٍ سَيِّئَةٍ) ، اي سلك الطريق القودية الى رضا ربه ، فعمل بطاعته من دون مطال ولا تمسوف . فان الاسباب ميسرة ، والسبل الى العمل الصالح مشرعة ، والاختيار من الله للعبد موهوب ، وكل من الخير والشر مقدور ومكسوب . قال تعالى : (وهديناه السبيلين) اي رفعا امام عيني كل واحد منكم ايها البشر طريق الخير والشر ، ودللنا عليهما بما وهبناه من نعمتي الوحي والمقل ، فمعا لى الا الاستماعة بنا في الوصول اليها ، وان يختار ما هو الاجبل به ، والاصح له . فليرد امرؤ لنفسه ، قبل حلول رسمه ، وتحول غده الى امسه . روى عن الحسن البصري انه قال : بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ايها الناس ، انهم نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر .

بواسطه ماشرعه لهم من قيام الليل في هذه السنين
المشتر - وقد كان في خلالها انقض اليهم ودخيل في
دينهم من لا يصبر صبرهم ، ولا يطيق ما اطاعوا من
المجاهدة والقيام والتبتل - فقد خفف منهم ذلك ،
وردهم الى مايطيقون من العمل وقيام الليل ، باعتبار
مجموعهم لا باعتبار كل فرد منهم ، وان كان بعضهم
قد يطيق القيام والدوام على ما كلفه اولا . لكن
الخطاب الالهي والتكاليف الشرعية ، اما يراعى فيها
مجموع المخاطبين ، وعامة المكلفين ، لا الاحاد منهم .
وهذا معنى قوله تعالى : (علم ان لن تحصوه) ، اي
علم انكم لا تطيقونه بمجموعكم ، وقد ظهر عليكم - بعد
ان دخل في الاسلام منكم داخون آخرون - قوة من
الضعف والفتور ، والصبر من القيام بما قام به اخوانكم
الاولون ، فطلبت التخفيف والتيسير لمجموعكم . وهذا
الطلب حق لكم بحسب الطبيعة البشرية الفالبة ،
واجابكم عليه مما تقتضيه رحمة ربكم وعمله ، (فتأب
عليكم) ، اي رجع عليكم بالتيسير والتخفيف من
رجعت اليه بالشكوى والطلب والدعاء ، (فافروا)
من بعد اليوم في قيام الليل واتم في صلاة او غير
صلاة (مايسر من القرآن) ، وسنلت عليكم تلاوته
وتدبره ، وهو القليل من آياته مما لا يستغرق الثلثين
ولا النصف ولا الثلث .

وقيل ان المراد بامرهم بقراءة القرآن - الصلاة
نفسها ، لان القراءة من اعظم اركانها ، كما يعبر عنها
احيانا بالركعة والسجدة وسياى ، اي فصلوا مايسر
وخف عليكم من صلاة الليل .
والعلم في قوله (علم ان لن تحصوه) مراد به ايضا
ظهور عدم الاحصاء منهم ، ووصولهم الى دور تحقق
فيه عجز مجموعهم منه ، فتجلى ذلك لكل احد وتعلق
علم الله تعالى به بعد وقوعه .

وقوله (فتأب عليكم) . التوبة هنا بمعنى الرجوع
وليس المراد بها الصفح والصفح عن الذنب لان الصحابة
ما لبثوا ، ولم يبالوا بذنوبهم فيما امر ، وانما امرهم
على العكس : اطاعوا وقاموا بما كلفوه خير قيام .
و (الاحصاء) في الاصل : التقصى والمبالغة في عدد
الشيء ، ويشتمل كثيرا في معنى الطاقة والضيغ .
يقال : « هذا شيء لا احصيه » ، اي لا اطيقه ولا
أضبطه ، وفي الحديث : « خصلتان لا يحصيهما رجل
مسلم الا دخلته الجنة » ، اي لا يطيقهما ولا يقدر
عليهما .

اشرنا في فضون كلامنا السابق الى ان هناك آحادا
من الصحابة كانوا يشعرون من انفسهم الطاقة على
قيام الليل كما امر الله ورسم ، وربما احزنهم ان ردهم
الله الى الاخف الأيسر من العمل وقيام الليل مع بقاء
اخوانهم المؤمنين الذين يتألف منهم سواد الأمة ، وتبعوا
او تساهلوا : لماذا لم يكن الليل اطول مدة واوفر ساعات
مما هو عليه ، كي يتسع لذكره تعالى ، والتلاوة بتلاوة
كلامه ؟ فقال تعالى كافشا من حكمته في ذلك : (والله
يقدر الليل والنهار) . وقد تخلل بهذه الجملة بين التناهد

عليهم بما كان منهم من قيام الليل حسب امره الاول
وبين ظهور عجز الكثيرين منهم اخيرا من المثابرة عليه ،
والضيق فيه ، منها الى انه تعالى هو الذي قدر
الليل والنهار ، اي جعل لكل منهما قدرا معيناً ، وحدا
محدودا : لا يتجاوزاته مهما اختلفا وتعاقبا ، لا الشمس
ينبغي لها ان تترك القمر ولا الليل سابق النهار) .
وقد دبر ذلك على حسب مصالح البشر ، ويقدر
ما يحتاجون اليه في سكون ليدهم النوم والراحة ،
وحركة نهارهم للسعي وطلب المعاش . ولو تحولت
تلك المقادير الى غير ماقدرة الله ودبره في خلق الليل
والنهار - لاختل امر البشر ، او كان لهم نظام في
الحياة غير ما هم عليه الآن . فالواجب عليهم اذن ان
يرضوا بما قدره لهم ودبره . من نوايس ما لهم
هنا ، ويطيعوه فيما رسمه من العبود والاحكام .
وعمل من الماضي وهو (قدر) الى المضارع نقال
(يقدر) تنبيها الى صفته الصبيغ في تدبير امر الليل
والنهار ، وتصويرا له في اذهان المخاطبين .

ومحصل معنى الآيات انه تعالى كلف الصحابة في
بدء الاسلام قيام ساعات طويلة من الليل ، فاستمروا
على ذلك حينما من الدهر ، ثم لما كثر المسلمون ، ودخل
في مدادهم شيوخ ونساء ، ومن لا يطيق قيام الثلث
الى الثلثين من الليل - رسم لهم من القيام والعبادة
وقراءة القرآن مايطيقونه ، ويتحملة طورهم الجديد .
ذكرنا فيما مضى ان لبيل الحكم في امر الصلاة
وقيام الليل ، تأخير من تبدل الحالة والزمن ، وتكرر
المسلمين في فضون عشر السنين التي قضاه المسلمون
السابقون يحزنون معظم ساعات الليل في الصلاة
وقراءة القرآن وصنوف العبادات .

وقد صنف الوحي في هذه الآيات المسلمين الى
اصنافهم التي حدثت فيهم ، وكانت سببا لتغير حكم
صلاهم ، مينا الحكمة في ذلك فقال تعالى :

(علم ان سيكون منكم مرضى) . هذا هو الصنف
الاول الذي علم الله وجوده في المسلمين علما جابجا
لتقديره الالهي : من ان البشري في جملتهم المسلمون -
بطرا عليهم امراض وعمل يتعلل عليهم معها قضاه
معظم ساعات الليل في التجهذ والذكر وقراءة القرآن .
(وآخرون يفترون في الارض النخ) . هذا هو
الصنف الثاني ، وهم التجار والمسافرون في البلاد
يطلبون الرزق وكسب المال مما هو افضل من الله
ونعمة ، فان هؤلاء ايضا قد تحول اسفارهم والنشاق
التي تلحقهم في خلالها نهرا دون القيام الطويل في
صلاة الليل وقيامه .

(وآخرون يقاتلون في سبيل الله) ، وهذا هو
الصنف الثالث ، وهم الذين يعملون على نشر دين
الاسلام ، والدعوة اليه ، مناصرة من يتصدى لهمهم
ومقاومتهم . هؤلاء ايضا يتعلل عليهم احباب الليل
تهجذا وقيامه ، وقد قتلوا النهار حريبا وصدا .
وفي جمل التجار الذين يتفتنون الكسب في مقابلة
المجاهدين الذين ينشرون الدعوة تنويه بالتجارة وعمل

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ غُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾

كانها في نظر الشارع ، لأنها من أقسى العوامل في إضرار الأمم ، ولبيت أمرها ، وانتشار تعاليمها . وربما كان معظم السبب في انتشار الإسلام في أطراف المعمور - ولا سيما أفريقيا وشرق آسيا - راجعا إلى رواد التكسب ، ورواد مناهل الربح . فقد كان هؤلاء التجار يحملون متاجرهم إلى بلاد الوثنية وبخاطلون أهلها ، فيعرضون عليهم بضائعهم مقرونة أحيانا بمرض دينهم وتعاليمهم . والتجار اليوم منذ دول الاستعمار آلة من آلات الفتح والغلب ، يرسلونهم إلى البلاد النائية ، ويحملونهم طلائع الدعاة والبشرين ، ثم ينلو هؤلاء دعاة الفتح ، وبناء التسلط والاستعمار .

علم الله وجود تلك الأصناف الثلاثة ، ونشؤهم في المسلمين ، وربما كان يوجد أصناف آخر غيرهم ، لكن الوحي اقتصر على ذكر ما كان أكثر وجودا من سائر الأصناف - فانتفضت حكمته تعالى التيسير والتخفيف ، فعاد إلى ذكر ما قاله أولا ، وزيادة في تقريب الحكم ، ولتيسرته في نفوس المكلفين ، فقال : **(قَالُوا مَا لِيَإِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَدْعُوهُمْ أَنْ يُقَالُوا تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)** . أي من القرآن . وقوله : **(أَلَمْ يَأْتِ الْبَنَاتِ)** عطف مقابيل ، فيكونان شيئين : قراءة قرآن ، وصلاة ذات ركوع وسجود . أو هو من قبل عطف التفسير ، ويكون المراد بقراءة القرآن الصلاة نفسها ، لأنهم كانوا إذا صلوا أطالوا صلاتهم ، وقرأوا فيها ما شاء الله أن يقرأوا ، وهذا هو المعبر عنه أحيانا كثيرة بقيام الليل . فكانوا يفهمون من صلاة الليل ، ومن قيام الليل ، ومن قراءة القرآن في الليل شيئا واحدا تقريبا .

والقصد من ذلك أن قيام الثلث إلى الثلثين من الليل في الصلاة وقراءة القرآن - أصبح شاقا عليكم معشر المؤمنين بعد أن كثرت ، ووجد فيكم مرضى ومساقرن ومجاهدون ، فانتصروا بمدد اليوم من فريضة الصلاة وقراءة القرآن على الصلوات الخمس : التي يقع بعضها في أول الليل ، ومعظمها مفرق في سحابة النهار ، لكن عليكم أن تأتوا بهذه الصلاة على وجهها الشرعي ، من الخضوع واستحضار القلب وحرارة الآداب والسنن ، وهذا هو معنى الإقامة في قوله تعالى **(اقِيمُوا الصَّلَاةَ)** . وقلنا ذكر الأمر بالصلاة في القرآن إلا ذكر معه الأمر بالزكاة ، ولا غرو ، فإن الصلاة عماد الأمر بين المرء وربه ، كما أن الزكاة عماد الأمر بينه وبين جنسه .

والمراد بالزكاة زكاة الأموال الواجبة بناء على أن :

آخر هذه السورة مما نزل في المدينة حيث فرضت الزكاة ، وقيل السورة مكية كلها ، والزكاة هنا زكاة الفطر .

وقوله : **(وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)** - حض على اتفاق المال في رضاء الله ، ووجه المبررات بأبلغ أسلوب . وذلك أن الفتى لا يتأخر عادة عن قرض أخوانه مبالغ كبيرة من ماله . وربما كان مصير هذا القرض التلذذ الضياع عليه ، فكيف يحسن منه الخلل في أن يقرض الله تعالى بالانفاق على عياده الفقراء والمعوذين ، وقرضه هذا مضمون مصون عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ؟ بل هو يرد عليه يوم القيامة أضعافا مضاعفة .

حث الكلف أولا على إخراج الزكاة المفروضة عليه ، ثم أخذ بضمه إلى مستوى أرفع ، فحظه على بدل المال في وجوه البر ولو لم يكن ذلك مفروضا عليه ، فإنه إذا بذله في سبيل الخير كان كفره أقرضه الله ، لكن بشرط أن يحسن النية في هذا القرض ، فيبني من ورائه رضاء الله لا طلب التوفيق من الخلق ، أو الشهرة فيهم ، أو التوصل إلى غرض دنيوي قد يكون حقيرا نافعا ، وهذا معنى قوله : **(قَرْضًا حَسَنًا)** .

ثم ارتقى بالإنسان إلى بحبوحة الإحسان المطلق ، فحظه على عمل الخير ، وفصل البر ، وممارسة الفضائل والكمالات الإنسانية مهما كان جنسها : بدلا أو غيره من ضروب الأعمال النافعة التي يتوصل بها المؤمن إلى رضاء ربه ، أو خدمة نومه ، فقال :

(وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ) ، وتقدموا أيها البشر **(مِنْ خَيْرٍ)** ، أي خير كان **(تَجِدُوهُ)** : تلقوا ذلك الخير الذي تلمتصونه في دنيكم **(عِنْدَ اللَّهِ)** يوم معادكم **(هُوَ خَيْرٌ)** . (خيرا) مفعول به ثان لتجدوه ، و (هو) ضمير فصل بين المفعولين ، وضمير الفصل من عادته أن يقع بين المبتدأ والخبر ، ومفعولا (وجد) أصلهما مبتدأ وخبر . والمعنى تجدوا ما تلمتصونه يوم القيامة خيرا لكم منه : يعني أنكم تجدون ثواب الله عليه ، وذلك الثواب الممد لكم خير وأكرم وأفضل من صدقتكم التي اتفقتموها ، أو طاعتكم التي مارستموها في دار الدنيا (فخيرا) الثانية أفضل تفضيل ، بخلاف (خير) الأولى فاتها اسم بمعنى الإحسان والبر والعمل الصالح .

ثم نسر « خيرا » بقوله : **(وَأَعْظَمَ أَجْرًا)** ، يعني أن الأجر الذي تجدونه إذا قيس بالعمل الذي تقدمتموه وجدتموه أعظم وأفضل من عملكم ، فإن عملكم فإن بالذ ، أما الأجر عليه فباق خالد .

وقد ختم السورة بإرشاد المتفهمين الحسنيين إلى أن يطلبوا من الله الصلح والغفرة ، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الاتفاق ، أو لم يصنعوا العمل في الأغراض ، فيضمو الثقة في غير مواضعها ، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، فإذا **(اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ)** من ذلك غفر لهم ، (فإنه) سبحانه وتعالى **(غَفُورٌ رَحِيمٌ)** من شأنه الغفران والرحمة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ① قُمْ فَأَنْذِرِي ② وَرَبِّكَ فَكَبِّرِي ③

بعضهم : لم يكن السبب في تدرئه صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحي ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتهمتهم به عند قيامه بالدعوة ومباشرة امرها . فكانوا كلما تصدى لهم أو عرض شيئا من الوحي عليهم أسموه بأكبره مما لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يا مجنون . وقد اتقوا عليه يوما صلى جيزور ، فنصروا نياحه ، ولوثوه بالدم ، فاقتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشرق عليه ، ورجع الى بيته مكتئبا حزينا . والمرء في مثل هذه الحالة تطيب له المزمة والتلف ثوب أو قطيفة ، مفكر في امره ، مستظلا طلع مصيره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم : فاته لما وصل الى بيته تدثر وجعل يفكر في صيد الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كثر في أملي ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة في العرب . وكان من اخص خلافتهم الكبر والخيلاء والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر ان يخضعوا لشاب منهم : جعلته أخلاقه القبطية ، وفضائله النفسية - في منزل عنهم ، ولم يفهمهم به يوما مجلس فمار أو خمر أو لهو ، ولم يروه مشاركا لهم في أعيادهم ، أو السجود لأصنامهم ، أو ممارسة عبادة من عبادتهم . مما من شئانه أن يؤلف بين القلوب ، ويغرس النيل والثقة في النفوس ؟

كان صلى الله عليه وسلم في مثل ما ذكر من ضرب الهواجس والأفكار ، وإذا الملك يعقت به قائلا : (ياها المدثر) المستغرق في هواجسه وهووم نفسه ، (قم) نشيطا ، ولا تجعل لياس اليك سبيلا ، (فأنذر) قومك وأدعهم وخوفهم مهما تجهضوك وأسمضوك وأذكوك ، وأمضي في دعوتك قلنا من دون أن تباليهم أو تخشى جاتهم . فان انسلاك من بين أيديهم ، وتومك في بيتك منعزل عنهم - لا يفيدك شيئا ، بل ربما أفرأهم بك ، وجراهم عليك ، وحال بينك وبين ما أتت بسبيله من نشر التوحيد والإسلام ، وإبطال عبادة الطوائف والأصنام .

وموإا أقلنا ان تدثره عليه السلام وانزواه من الناس في بيته كان تعييا الوحي ، وفقصيا من شغفته ، أم تجنبا لأذى قومه ، وتفكيرا في مصيره معهم - فان الوحي السماوي لم يعسلره في أي الأمرين كان ، بل حشفه على الهبوب من الضجيج ، والتشمر للحصوة ، والجد في اداء الوظيفة التي اختارته لها العناية الأزلية . وبديهي أن يئله صلى الله عليه وسلم بغوة جبارة متاة الى خلق ديتهم ، وما ورتوه من أجدادهم - يحتاج إلى سلاح ماض يتحصن به في أثناء المقارعة والمصارعة ، فما هذا السلاح ؟ وما هي تلك القلاع الشاهقة ؟ والجيش التلاحقة ؟ والأعداء والآلات المهلكة المبيدات ، التي استعان بها صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى ربه ، ومحاربة الشرك وحربه ؟ لم يكن شيء من ذلك كله ، ولم يكن معه مسلفد غير الوعد

كلمة (المدثر) في احوالها الصرفة كالزمل ، وقد تقدم بيان ذلك . و (المدثر) مشتق من الدثار ، وهو اسم الثوب الذي يليس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذي يلي شفر الجسد ، ومعنى (المدثر) المتلف في دثره . ويقال في سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ما قيل في سبب خطابه له ب (ياها الزمل) ، ومن لم قال بعضهم ان أوائل هذه السورة أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم . وبيان ذلك ان جبريل بعد ان قنته سورة (اقرأ باسم ربك) و (ياها الزمل) ثم الليل الا قليلا الى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأمي ما حصل - تخلف عنه الملك زمنا طويلا كي يهدأ روعه ، ويستجم نشاطه ، ويعود صلى الله عليه وسلم الى ذكرى الوحي ، ويتطلب تلك المناجاة السابرة برغبة ووقوع وحتم . ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مختلطا مشجعا ، فمرأه صلى الله عليه وسلم أيضا شيء مما كان مرأه في المرة الأولى ، فجاء بيته وقال : « كنوروني دثروني » ، وبينما هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : (ياها المدثر) الذي استعمل بدثاره داخلأ فيه كمن لايهمه أمر ولا يعنيه شأن (قم) واتشط من مضجعتك هذا ، واربا بنفسك ان تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة . فان العناية الالهة قد رشتك لقام سام ، ونشر دين عام ، (فأنذر) الناس بذلك الدين ، وخوفهم العاقبة ان هم امراضوا عنه ، وكذبوا به .

وفعل (أنذر) تعني الى مغولين ، يقال : « أنذر قومه عدابا شديدا » مثلا ، لكن لما كان الوحي الالهي اتما يريد منه صلى الله عليه وسلم في أول الأمر ان يقوى على الانذار ويتصدى له بهمة ونشاط - حذف مغولى أنذر لصعد فعلق الفرض بهما ، وعلقه بأصل الانذار ، اذ كان هو أهم شيء بالنسبة اليه صلى الله عليه وسلم مادام لا يعلم بعد من هذا الذي يخاطبه ؟ وماذا يريد من غشياته له المرة بعد المرة ؟ وقول القائل ان أوائل هذه السورة أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم - يراد به أنه أول ما أنزل عليه بعد سنتين أو أكثر من انقطاع الوحي عنه . وقال

وَيْسَابَكَ فَطَهِّرْ ① وَالْأَرْجَ فَاهْجُرْ ② وَلَا تَعْنُ تَسْتَكْبِرُ ③ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ④ فَإِذَا نَفَرْنَا فِي الْأَنْفَارِ ⑤

الالهى ، وغير ما في هذه الآيات الآية من الوصايا التي أمره ربه أن يتدبر بها ، ويروض نفسه عليها ، وهي قوله تعالى :

(وَيَبْكَرُ فَكْبِرُ الْخ) ، والفاء في (كبر) لفادة معنى الشرط ، فهي فاء الجواب ، كأنه يقول : ومهما قام في وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكذا يقال في فائات الجمل الآية . ومعنى (كبر ربك) اختصه بالكبرياء ، وأفرده بالمظلة والمجد ، وأرفقه من أن يكون له شريك من معبودات المشركين وآلهتهم . ففي هذا تقرير لمقيدة التوحيد ، ولتحرير العقل من سلطة الأوهام ومعبدة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، أما السلاح الثاني فهو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، وردى الخصال ، وهو ما أراده تعالى بقوله :

(وَيُطَيِّبُ فَطَهِّرْ) . لأشياء يلزم الإنسان في مختلف حالاته ، وبصاحبه في جميع أدوار حياته : منذ ولادته إلى حين مماته - مثل طيبات التي يجسرها فيها ، فصارت كأنها جزء من أجزاء ذاته ، وأحد مقومات قروته (١) . وصاروا إذا وصفوا يوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ، فيقولون : فلان طاهر الثياب أو تقى الثياب ، وطاهر الجيب والدليل والأردان ويريدون وصفه نفسه بالنقاء من المايب ومداس الأخلاق . ويقولون في ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخبيث الثياب ، وقال عنتره بنى عبس :

فشككت بالرمح الأصم ليلابه

ليس الكريم على القنا بمحرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يمتدح به ، وإنما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسه بالرمح . فان هذا الشك هو الذي يردبه أنيالا ، وهو الذي يثبت بسالة عنتره وحداثة في منون التفسيل . بمعنى قوله تعالى : (وَيُطَيِّبُ فَطَهِّرْ) ، وتلك أو نفسك طهرها من دنس الأخلاق ، وسببها الملكات ، فلا تجعل للجزع والسامة وقلة الصبر والخور وضعف الهمة وغير ذلك من أمراض النفس - سبيلا إلى نفسك . فلابية تحضه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسه ، ولتحريرها من قيود الصفات الدنسية ، وهو السلاح الثاني .

أما السلاح الثالث فتعزير الجوارح من المعاصي والدنوب ، وآلية الإشارة بقوله تعالى :

(وَالْأَرْجَ فَاهْجُرْ) . الأرج بكسر الراء وضبطها في أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله في كل ما أوجب العذاب ، وأدى إليه من المعاصي والآثام . فهو يقول :

(١) القرونه : النفس

أترك كل ما يجر إلى العذاب من تلك المعاصي ، وحرر جوارحك من مقارفتها : فلا تدع سمحك ولا يبرك ولا فمك ولا يدك ولا رجلك ولا عضوا آخر من أعضائك - بلم بشيء منها . هذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التي يتم بها استمداده على الله عليه وسلم المعنى في دعوته ، والتجنيح في مهمته ، والتفكير بطلته .

وقد استوعب الوحي في هذه الآيات الثلاث التي لا تتجاوز بضعة كلمات - أمهات الفضائل الإنسانية . إذ أن الإنسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فسادا وصلاحا يطرأ عليه ، أو شر أو خير يصدر منه - فانما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التي هي مقومات وجوده ، وإركان حياته . فيقتدر ما تتوفر له من صلاح العقل بالمقائد الصحيحة ، وصلاح النفس بالأداب الرفيعة ، وصلاح البدن بهجر الآثام البويلة - تتوفر له السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة . ويقتدر ما ينقص من ذلك بخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه ويدنه أنه - وحاشاه - ملوث بشيء من دنس الوثنية أو العيوب أو المعاصي . إذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذي لا ريب فيه أنه صلى الله عليه وسلم كان كاملا في عقيدته : فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملا في نفسه : فلم يتلوث بخلق دنس ، كاملا في جوارحه : فلم يقترب بها معصية قط . ومهما كان أملاؤه المشركون يوجهون إليه الطمان والتستائم ، فلم يسمعهن سيرة ينفرون له : أنك كنت بالأسس شركا لنا في عبادة الآلات والرمز أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غفلت بفلان ، أو أسأت إلى فلان ، أو استخفقت على فلان ، أو يقولون له : أنت الذي كنت تفعل كذا وكذا من المعاصي وأنشأنا . لم يكونوا يقولون له شيئا من ذلك . ولو وقع منهم لثقل علينا كما نثقل قولهم له أنه ساحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطا شافيا في كتابنا الذي نؤلفه في سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . أما قوله تعالى له في سورة الضحى : (ووجدك ضالا فهدى) ، فمعناه أن ربك وجدك منذ نشأتك في ضلال ، أي حيرة من أمر هداية قومك ، وانتقادهم من دنس الشرك ومعرفة الجاهلية ، إذ كنت واقفا من أمر هدايتهم في مفرق طرق . لا تدري أي طريق تسلكه إلى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحي إلى دين الإسلام وتعاليم القرآن ، وأمرك أن تسير بتوكل على نوره ، وانتقلد من الحيرة التي كنت فيها . هذا هو معنى الضلال في الآية .

تقول : وإذا كان الأمر على ما ذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم في عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصيره - فما معنى الوحي له بتمجيد الرب ، وتطهير النفس ، وتبرك المعاصي ؟

فأقول : أن المراد من أمره بما ذكر طلب الدوام منه على ما هو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على أداء وظيفته وإقيام مهمته : فلا يبتئس ، ولا

يحزن ، ولا يأس ، ولا يكثر من التلق والاحتمام .
وينبهه الى ان من كان مثله طاهرا من الشوائب سليما
من المعائب - لا يضر ولا يقيب ، بل يكون له من
الظهور وحسن العاقبة أوفر نصيب . وهذا كما تقول
لابنك - وأنت ترشحه للضرب في البلاد من أجل كسب
مال أو مقام ، وقد شمرت بمنه بشيء من التهيؤ
وتوقع الخيبة : « أقدم بابني ولا تخف ، وكفى أديبا
فطنا آمنا معيما لربك ، ما لك لا ربك ، وفيك لصحبك ،
واسير تري ما الله فاعل بك » . تقول له هذا وانت تعلم
أن كل ما يمر به هو من صفاته وأخلاقه ، ولا تريد
من توجيه الخطاب اليه بذلك الأمر إلا حثه على انتظار
النجاح ، وبث الطمأنينة في نفسه للمستقبل . ومثل
هذا قوله تعالى : (أنا اعطيتك الكثرة . فصل لربك
وانحر) ، أي اعطيتك يا محمد الصبر الكثير ، فلتكن
صلواتك وما تقدمه من الأقربان خالصا لله ، ولا تجعل
لغيره من المودات فيهما نصيبا . والمعنى : دم على
ما أتت عليه من هذا الإخلاص ، فاته قضاء للهمة ،
وفاء لحق النعمة . والا فاته صلوات الله عليه وسلم
لم يسجد لصنم قط ، ولم يذبح لصنم قط ، وهذا هو
معنى قوله تعالى هنا لتبته : محمد ربك يا محمد ،
وطهر نفسك ، واحم جورحك - أن شاء الله .

ثم ان من الصفات النفسية صفتين هما الشدة
ما يلزم للقائم بالعبادة - إية دعوة كانت : دينية أو
دنيوية ، سياسية أو اجتماعية - تلك الصفاتان هما
الجود والصبر . فلا يمكن قط أن ينجح داع في
دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح
فيها إذا كان ملوا جزوعا ، مسترخي العزيمة محلول
عروة الصبر . فكم دعوة حق أضطحت وزالت بسبب
شح القائم بها ، أو بسبب مله وقلة صبره ، وكم
دعوة بطلت لا أساس لها تنزع صاحبها بالجوهر
والسماع ، واستشعر الصبر والداب واللاحاح ،
فكانت مآبته القول والفلبة والنجاح .

وقل من جسد في امر يحاوله

واستشعر الصبر إلا فاز بالفخر

اعتبر ما قلناه في الدول التي ظهرت في ازمنة
التاريخ المختلفة ، وخاصة التي ظهرت في صدر
الإسلام . فإن الدولة الأموية لم تثبت ويستتب لها
سلطان إلا بالبلل والسفاه ، والصبر وانتظار
الفرص . أما الدول الأخرى التي كانت تنافسها
وتجري معها في ميدان واحد كالدولة الزيرية مثلا -
فأنت لم يضر بها ويقطع عليها الطريق أي غابها إلا
الشح والفسخ بالمال ، والملل وعدم انتظار الفرص .
إذا فقرر هذا فهنا السر في تخصيص الله هذين
الخلقين بالذكر بعد أن مر في آية (ولياربك نصور)
التي قلنا ان معناها عليك بكرم الأخصال ، ومحاسن
الإخلاص ، ثم خصص فقال : (ولا تمنن تستكثر) .
ولربك فاصبر) ، كأنه يقول : واخص من بين تلك
الإخلاص الصفاء بلا استكثار ، والصبر على المكروه
والضار ، فقول : (ولا تمنن تستكثر) معناه لا تمن
وأنت مقدر في نفسك أن ما تعطيه كثير ، بل أعط

عطاة من لا يخاف الفقر ، وقدر أن ما تعطيه قليل وإن
كان كثيرا في الواقع ونفس الأمر ، قال : « من الأمير
على فلان » إذا أتم عليه وأصطنع عنده بدا .
وقوله : (ولربك فاصبر) معناه اصبر على الذي
قومك وهرامهم ، وعدم اتقائهم لك ، لأجل ربك
وتبليخ رسالاته ، والتقين وجهه ، فإن في هذا الصبر
بلوغ ما تشتهي وتحب من إيمانهم ومعارفهم الى
تصديقك . وقد قال تعالى لتبته في معرض الامتنان
عليه بما وهبه من حسن السجاية حتى كانت سببا
في تألف العرب ، وحبه له ، واتقيادهم الى دعوته :
(ولو كنت فظا غليظ القلب لاتفضوا من حولك) .
فلينه صلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكرم أخلاقه
عامه ، وسخاؤه وصبره خاصة - كل ذلك مما أديبه
ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن
لم قال صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربى فأحسن
نأديسي » . أما تأديبه له بالجود والسفاه فيكفي في
التمتين له اعطائه يوما لبعض المؤلفة قلوبهم راديا
معلوما ابلا وشاء ، وأما صبره وثبات قلبه فيكفي في
الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وسلم في جواب
عمه أبي طالب مد رغبة في السكوت من قومه ، وتوكل
التعرض لهم في دينهم ، وإثمه يمتحنه في مقابل ذلك
بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : « والله لو
وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت
دعوتي الى دين الله » .

قوله : (فإذا نقر في التاقور) . الفاء للسببية كالفاء
الثانية في قوله تعالى : (فأخرج منها فاك رجيم)
أي لأك رجيم . والمعنى هنا انتفض يا محمد الانذار
قومك متنبها بما أورك به ، واصبر على أذاهم
ولا تهال بهم ، فإن أمامهم أن بقوا على كفرهم يوما
شديد الهول عليهم ، و (النقر في التاقور) هو بمعنى
التفخ في الصور ، تقول : « قرت الرجل » . إذا صغرت
له بلسا لك ، والتقر بالثقل أزعاجها بالصوت حثا لها
من المسير ، و (التاقور) فاعول اسم الآلة التي ينقر
بها أو عليها فتصوت ، كالكافور اسم للدواء الذي
يؤكل فيكون به الهضم . فالتقر كما يكون بمعنى
الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت ، يكون
بمعنى التصويت والتفخ في الشيء فيسمع له صوت .
ونفهم من كلام بعض المفسرين ان النقر غير التفخ ،
وهو يدل على ان التفخ في الصور والتقر في التاقور
كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كتابة من أعلن
ذلك اليوم ، والمناذرة به ، وظهور أمره ، واكتشاف
سره . أو هو تمثيل لبعث الخلائق وحشرهم في
صعيد واحد بحيث يحسب من رآهم أن نغمة صوت
أو قرة ناقور أصابت بهم وأزعجتهم الى حفرة ربهم .
على أن الشرع أن كلنا الاعتقاد بالناقور وأنه
والحمد لله لم يكلنا معرفتهما ، ولا كيفية التفخ في
الصور ، أو النقر على التاقور - معرفة اكتناه
وذلك رحمة بنا ، وبمسرا للأمر علينا .
وقوله (فذلك) إشارة الى الوقت المفهوم من إذا ،
أي فذلك الوقت أو اليوم الذي ينقر فيه في التاقور .
وقوله : (يوم عيسى) خبر قوله فذلك . وقوله

فَلَاكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ ﴿٢﴾ تَوَنَّى وَخَلَّى وَخِيعًا ﴿٣﴾ وَجَلَّتْ لَهُ مَالًا
مُحْدودًا ﴿٤﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿٥﴾ وَهَلَّتْ لَهُ مَوَئِدًا ﴿٦﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿٧﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِندًا ﴿٨﴾
سَارِعُهُمْ صَعُودًا ﴿٩﴾ إِنَّهُمْ قَفَرُوا وَقَفَلُوا ﴿١٠﴾ فَقَتِلْ كَيْفَ

(يَوْمَئِذٍ) بدل من (فَلَاكَ) الذي قلنا انه بمعنى
فَلَاكَ اليوم . وفائدة هذا الإبدال زيادة التقرير
والتصوير في الأذهان . وكما أكد في الإبدال من المبتدأ
أكد بتقرير الوصف مد قال : (غير يسير) فانه بمعنى
(يسير) . وهذا كما تقول «أنا محب لك غير مبغض»
فقولك «غير مبغض» يوثر الكلام فضل تأكيد . بل
ربما كانت لتكثرة التكرير في الآية الإشارة إلى أن عصر ذلك
اليوم لا يصحبه يسر كما يصحب عصر الدنيا . فهو
عصر مطبق . وهول مطلق . و (على الكافرين) متعلق
بعسير . أو بيسير . والاصل في قوله (فَالَا) مضمون
جمله الجزاؤهى (فَلَاكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ) والمعنى :
يشهد الهول وبصر الأمر وقت تقرر التناقص .
معنى (وَدَنَى وَمِنْ خَلَّى) دعنى وإياه . وكل
أمره إلى . وثق أنى قادر على كسابتك همه . وهو
أسلوب يلغى في التهديد . مثله ماسبق في آية (وَدَنَى
وَالْكَافِرِينَ أُولَى النِّعَةِ) . وآية (فَلَدَنَى وَمِنْ يَكْذِبُ
بِهَذَا الْحَدِيثِ) .

وهذا الذي يقول الله انه خلقه وسيتزل به
مقوبته هو الوليد بن الفرة الخزومي . أحد قططاء
قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد
ذكره تعالى بأباده منه في معرض تهديده وتخويفه . وقد
ليكون ذلك أدنى إلى الكسر من نفسه . والنفس من
خيالته . فيكف من بعض شره وإبائته للنبى صلى
الله عليه وسلم . والوحي وإن نزل في سبب خاص .
أو خاطب به واحد من الأشخاص . فإن أسلوبه
يبقى هاما متناولا كل من كان كالوليد في معصاة
الحق . والكفر بالله . وترك الشكر له على نعمه ونسوانه
الآله . ويقول بعض المفسرين أن الوليد هذا هو الذى
أذى رسول الله . وكاد له . واضطره أن يأوى إلى بيته
ويتدنى بغطيته مغموما حزينا . فإن صناديد قریش
لما برموا برسول الله . وضائق عليهم الحيل في أسكاته
واطفاء نور دمونه . لجئوا إلى الوليد . فاشاء عليهم
بأن يلقوه صلى الله عليه وسلم بالساحر . ويأمروا
معيدهم وصبياتهم أن ينادوا بذلك في مكة . فجلسوا
ينادون : أن محمدا ساحر . فلما سمع رسول الله
ذلك وجم وأشد عليه الأمر . ورجع إلى بيته حزينا .
ثدثر بغطيته . فنزل عليه جبريل يقول : (يَا نَبِيَّاهُ
الْمَدْرُ قَدْ فَانَلَرُ) . وقد ذكرنا هذا أنفا مستوفى

الشرح والتفسير . إلى أن قال له ربه هنا : (ذُنَى)
أى دعنى بلمحمد بعد أن تكون أنت على ما أحببتك
في استجماع الكمالات الانسانية فيك (ومن خلقت)
أى وعدوك الوليد الذى خلقتة (وحيدا) . أى دعنى
وحدى معه . ولا تستجش عليه الأعداء والأنصار .
فأنا كافيك وحدى . وفى الفناء من كل هون ونصير .
فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (ذُنَى) . أو المعنى
دعنى وهذا الذى خلقتة وحدى ولم يشركنى في خلقتى
له شريك أو مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد إلى أن
من الصار عليه أن يقرن بمن تفرد بخلقه شريكا في
المباداة . أو إبقاؤه إلى أن من خلقة وحده قادر على
أن يهلكه وحده ولا يعارضه في اهلاكمعارض . فيكون
(وحيدا) على الوجهين حالا من فاعل (خلقت) .

أو المعنى : دعنى يا محمد وهذا الذى خلقتة .
فكونته في بطن أمه وحيدا . لا رفيق له سوى رفقى
ولطفى ومناينى . ثم ولده أمه فكان وحيدا قريبا .
لا مال له ولا ولد . ولا حول ولا إمداد . حتى إذا أسبغت
عليه الآلاء . وأمدده بالأموال والأولاد والأخلاء . قام
يكفر بى . ويكذب رسولى . ويعاند أبائى . فيكون
(وحيدا) حالا من مفعول (خلقت) . وهو ضمير يعود
على من .

وهذا المعنى الأخير يناسب ما بعده من لعداد
النعم . وتذكر الوليد انه أصبح بها كثيرا وأفرالعدد .
بعد أن كان وحيدا متقطع المدد . وبعد نزول هذه
الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تعبيراً له . ونهكما
به . وقيل : كانوا يلقبونه بالوحيد قبيل نزول الآية
تكريماً له . وتوحيها بافتراده في الرئاسة . فهو نزلت
قلبت المدح إلى قذح . وحولت التكبير إلى تعيير .

ثم أخذ الكتاب في بيان النعم والأيادي التى كانت
لخالفه عليه فقال : (وَجَعَلَتْ لَهُ مَالًا مَحْدُودًا) .
أى ميسوطاً موصلاً . وقريب منه قولهم «فلان
صاحب سعة» . وموسع عليه في الرزق . فهو من المد
بمعنى بسط الشيء . وتوسيعه . ويحتمل أن تكون من
المد والإمداد . يعنى أن ماله كان كالنهر : كلما نفذ
منه شيء مد بآخر . وكلما انفق نعمة أخلف الله عليه
غيرها . وكان للوليد هذا بستان في الطائف لا يتقطع
ثمره صيفاً ولا شتاءً ونعم وأموال أخرى كانت ممتدة
بين مكة والطائف . ومن قال بعضهم أن ممداد
ماله المفهوم من قوله (محدوداً) هو على حقيقته .
(وبين شهوداً) . أى مقيمين معه في بلده . لا يبرحونها
انتفاء للكسب وطلب المعاش . لوجود أموان يكفونهم
مؤونة ذلك . فهم دائماً شهود حضور بين يدى أبيهم .
يستأنس بهم . ولا يتنقص جيشه لقراهم . وشبهه
هذا ما قالوه في بيت حسان رضى الله عنه :

أولاد جفينة حول قبر أبيهم

قبر ابن ملوكة الكريم المفضل

وأنه أراد بقوله «حول قبر أبيهم» أنهم ملوك أمراء
مقيمون بدار مملكتهم : لا يبرحون لاكتساب . ولا
يتنجمون كالغراب .
أو المراد يكرههم (شهوداً) أنهم يلقوا من الرجولة

والكمال والنجاة مبلغا يشهدون به مع أيهم الجامع والحاثل العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجعلا .

وقوله (ومهدت له تمهيدا) من قيل التميميم بعد : ... سمع فعد أن ذكر من مظاهر نعم الإلهية : ... سمع عاد علف النعم والحيرات الدنيوية لها في هذه الحيلة فقال (ومهدت له) أي بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، وسرت له تكاليف الحياة ومظاهر الجاه تبسيرا ، بحيث لا يصعب عليه تناول ما شاء منها (والتمهيد) في الأصل أن تجعل الشيء أو الأرض مهيأة مسبوطة ، يقال « مهد الأمر » إذا وساه وسهله وسواه وأصلحه . ثم جعلوا يتجوزون به عن بسطة المال والجاه . ويقول الكتاب في رسالته : « آدم الله نايبيك وتمهيدك » يريدون ما ذكرناه .

وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان - عكس الأمر - وقابله بالصدود والتفردان ، فعلم قريشا أن يلقبوا رسوله بالساحر ، وينادوا عليه به في كل أرجاء مكة . وقد أشار الوحي إلى ذلك في الآية الآتية من هذه السورة على لسان الوليد : (أن هذا الأسحر يؤثر ، أن هذا القول البشري) . وقال عنه في سورة « ن والقلم » : (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال مشير به : « لئن تبع دين محمد متكم أحد لا أنفقه بشيء أبدا » فكانوا بسبب ذلك يمتنعون من الإسلام . وقد مر من الوليد هذا خبر طويل في سورة « ن ، والقلم » وقوله تعالى فيه (ولا تطع كل حلاف مهين هزاز) إلى آخر الأوصاف العشرة التي وصفه الوحي بها - ذلك هو شأن الله مع الوليد في أسداء النعم وموالاته الإحسان ، وهذه هي شئنيته الوليد مع ربه في الصعود والعصيان ، ومقاومة أهل الإيمان . (لم أن الوليد بعد ذلك كله لا يستحي من ربه ، ولا يفتن إلى سوء أدبه ، به هو (يعلم) ويحرص (أن يزيد) به من نعمي ، وأواى عليه من أحساني .

يساء النيسا ثم يرجي وادانا

لقد هان من يعطي مودته فعبا

ويروي أن الزيادة التي كان يطعم فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيا وغيره لها ، بل من نعم الأخوة وبجانب جناتها . فقد كان يقول « أن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي » (كلا) أي لن تدرك الوليد من طعمه وليكتف من غروره ، فليس هو أعلأ لما طعم فيه . وقد روي أن الوليد لم يزل يعد نزول هذه الآية في نقصان وخسار حتى افتقر ومات معدما .

(أنه كان لا يأتنا) حجبنا حلي خلقنا - من كتب وورسل (عتيقا) معانينا لها ، مكابرا فيها - منذ من الطريق : مال ، وعمل ، وهائد فلأنا : جانيه وفارقه ، وعارضه بالخلاف والعصيان ، وهائد الحق : جعده ورده وهو يعرفه ، فهو معاندا وعنيئا . ومما رويوه من متاد الوليد أنه مر على النبي صلى الله عليه وسلم

وهو يقرأ « حم السجدة » ، وقيل بل سمعه يقرأ آية (أن الله يامر بالعدل والاحسان وأبشاه ذي القربى) ويهني عن الفحشاء والمنكر والبني معظمكم لمنكم لذكرون » ، فرجع وقال لقريش : « والله لقد سمعت اتقا من محمد كلاما : ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن : أن له لحلاوة ، وأن عليمه لطلاوة ، وأن أملاه لمسر ، وأن أسفله لحنق ، وأنه يعلم ولا يعلم ، لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبقي مقبيا على تكديبه له ، ووصفه بأنه (أسفلير الأولين) ، وقوله فيه (أن هذا الأسحر يؤثر ، أن هذا القول البشري) - كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشد الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : (سارقه صعدا) ، أي سأكفه وأحمله عذابا شاقا صعبا عليه ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل . و (الصعود) يضم الصاد : مصدر صعد ، وبفتحها : المعية في الجبل يصعب على المرة التصعيد فيها . وقد مر في تفسير قوله تعالى : (عذابا صعبا) أن السرب جعلوا صعدوا المرتقى الصعب مثالا في تكليف الأمر الشاق الذي لا يطاق ، فراجع ما قلناه في سورة الجن .

ذكر في الآيتين السابقتين أن الوليد شديد العناد لآيات الله ، وأن الله سينزل به ما لا طاقة له به من الصلب . وكان ساللا سمع ذلك فقال : وكيف كانت حالته في معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ لم سأل : وما هو العذاب الذي يرهقه يوم القيامة ؟ فأجيب من الأول بقوله تعالى : (أنه فكر وقد ألهم) ، وأجيب من الثاني بقوله بعد ذلك : (سارقه صعد ، وما أدرك ما منقر ألهم) ، فهد الآيات والتي لبها تفصيل وشرح لها أدমে في آتي (أنه كان لا يأتنا عتيقا - سارقه صعدا) ، وهذا قوله تعالى في سورة الاخلاص (الله أحد ، الله الصمد) ثم عاد بآليان على (الله أحد) فقال : (لم يلد ولم يولد) ، وعلى (الله الصمد) فقال : (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفي هذا الإسهاب بسد الأبعاد - ما فيه من البلاغة وباهر الإعجاز .

(قدر) الأمر في نفسه : هياه ، وأحال فيه رايه ، ليبرسه إلى الناس نافعا كاملا ، ومثله (روزه) إذا أصل الروية في تربيته وتقديره ، و « زوره » بتقديم الزاى إذا أداره في نفسه وهياه .

وقوله (فقتل) ... لم يقتل) يعني قتله الله ! وهو كقولهم : قتله الله ! أما أشجبه وأخزاه الله ! أما أشعره ! بقول السرب هذا في معرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكان الأصل في هذا الاستعمال أن هذا الشجاع أو الشاعر بلغ في شجاعته وشعره حدا يثر الصد في نفوس الناس ، فلا يكون السنهم من ألدأه عليه بالقتل أو الخزي ، شأن العاصد سمع مصوده ، لم شاع هذا الاستعمال وصرفت إلى المدح والتعجب حتى صار يقوله الحب في محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو في الآية فتعجب واستعظام مشعوبان بالقدح ، ولا مدح فيهما ، أو يقال أن المدح فيهما وأورد مورد التحكم ، فلا تضر ملاحظته في الآية .

قَدَرٌ ۖ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَهُ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَسَى
وَبَسَى ۖ ثُمَّ أَذْبَرَ وَأَسْكَبَ ۖ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا
بَصَرٌ مُؤَثَّرٌ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشِيرِ ۖ سَأُخْبِرُ
مَقَرَّ ۖ وَمَا أَذْرَكَ مَاسِقَرٌ ۖ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ۖ
لَوْاحَةٌ لِلْبَشِيرِ ۖ عَلَيْهَا سِتْعَةُ عَشَرَ ۖ وَمَا جَعَلْنَا

و (العنبر والبسور) والكلوخ : تقلص فضلات
الوجه عند الألام أو الحزن ، أو هم نفسي يتفعل له
المرة ، وجعل بعضهم الكلوخ في الشفاة بحيث يلبس
الثنائيا ، والعنبر في تطقيب الحاجبين ، والبسور
أشد من العنبر .

وقوله (يُوَثَّرُ) معناه يروى ويتناقل خلفا من
سلف .

قلنا أن الوليد على متوه ، وشدّة متبادلة - كان
لا يملك نفسه من الإعجاب بالقرآن فصاحه آياته ،
حتى قال فيه قوله الثور : « إن له حللوة » وإن عليه
للطلاوة الخ » . وقال قرشي يوما : سأبائر لكم - أي
سأجرب واختبر - هذا الرجل الليلة - يعني محمدا
صلى الله عليه وسلم - فعجابه فوجده يصلي ويقرئ ،
فرجع اليهم وأجما وآله النفس ، فقالوا له : « مه »
قال : « سمعت قسولا حلوا أخضر مشرا بأخذ
بالقلوب » . وزار أبا بكر مرة وسأله عن القرآن ،
فاسمعه شيئا منه يصوله الرقيق الحزين اختلب به
ليه ، فخرج إلى قرشي فقال : « يا عجميا لما يقول ابن
أبي كبشة أفو الله ما هو بشعر ، ولا بسحر ولا بهلى
من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله » ، فكانت قرشي
يسمعون هذا وأشباهه من الوليد فيخامروهم الرب
فيه ، ويقولون : « والله ثلث صبا الوليد لتصبان
قرشي » ، أي ثلث خرج من دينه إلى دين محمد ليفعل
مثله . ثم راجعوا أبا جهل في أمره ، وخوفوه العاقبة
أن هب أسلم . فاعلم أبو جهل عظمتهم قرشي
وصناديدهم وجوب الاجتماع في ناديتهم المسمى
« دار الندوة » فشهد مؤتم وأشرافهم . وحضر
الوليد ، فقال له أبو جهل : « أي سم » أن قومك
يريدون أن يحجموا لك مالا » قال : « وله » قال :
« يعطوك إياه » فأنك تعرض لجمد طالبا ما قبله
يريد أبو جهل أنه يتعرض للثبي في طلب عطية منه .
وأما أراد بهذا القول أن يحمي الوليد ، وبغضب
فيحتجب مجالس النبي صلى الله عليه وسلم
والصحابية . فقال الوليد : قد علمت قرشي أني
أكثر ما مالا . قال أبو جهل : فقل إذن فيه . قولا يعلم
قومك أنك مسكر لما قال ، وأنت كاره له . قال الوليد :

فما أقول فيه ؟ قالوا : نريد قولا نقوله لو فود العرب
إذا هم جاءوا الوسم ، وسألونا عن محمد : ما حقيقة
أمره ؟ فإذا اختلفنا في الجواب ، وقال بمضنا - هو
شاعر ، وقال آخر : كاهن ، وقال ثالث : هو مجنون
- استدلووا من اختلفنا على بطلان قولنا من أصله ،
فهلما نتفق على رأي واحد ، ووصف واحد . فقال
بعضهم إذ ذاك : قول قلنا : أنه شاعر . فقال الوليد :
لا والله ، ما هو بالشاعر ، وليس أحد أعلم بالشعر مني
ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، أليس قد
عرضت على الشعراء شعرهم : النابغة وعبيد بن
الأبرص ، وأمية بن أبي الصلت ، وغيرهم ؟ فلا يشبه
كلامه كلامهم . قال آخر : نسميه الكاهن . فقال
الوليد : لا والله ، ما هو بكاهن ، ولا سيما أن الكاهن
يصدق ثارة ويكذب أخرى ، ومحمد لا يكذب قط .
قالوا : هو مجنون . فقال الوليد : الجنون يخيف
الناس ، وما يخيف محمد أحدا قط . فلما سمعوا
هذا منه سكتوا . فقال له الوليد : فذمني حتى أفكر
فيهِ . فقال له أبو جهل عند ذلك : والله لا يرضى
قومك حتى تقول أنت فيه قولا .

وكان من حق الوليد في هذا الموقف أن يكون ثابت
القدم ، جرىء النفس ، قوي الإرادة ، مؤثرا للحق على
الباطل ، والثواب الباقي على العرض الزائل . فباعتبر
بلسانه بما اعترف به في وجدانه ، ويشهد أن القرآن
حق ، ودعوى محمد صلى الله عليه وسلم صدق .
لكنه قلب عليه الجحود والعدا ، فاعلم كره الصريح
في ذلك التاد ، وأشار إلى القوم أنه سيرى لهم بشأن
محمد رأيا يتقدم به من غيرهم ، ويهديهم إلى صالح
أمرهم . فأمرأيت إليه عند ذلك الأضائق ، وسمرت
في وجهه العماليق والأحذاق .

وقد وصف الوحى حمر الوليد وبجزه - في تلك
المديدة التي كان يفكر فيها - وصفا استوعب
فيه جميع الحالات الجسمية ، والانفعالات النفسية
التي تبدو عادة على كل من كلف تكليف الوليد ، وكان
في مثل منصبه . والكلام عنه مسوق للسخرية به ،
والتمجيح من غفلته ، وقصور نظره ، على حد ما
قيل في مثله :

فان قيل : كم خمس وخمسين لاوتاي
ولفلفل لياثته يمد ويحسب
خمس وخمسين ستة أو سبعة
قولان قالهما الخليل ولعلب

فان تعالي : (هـ) أي الوليد حين طلب منه أن
يأني بوصف يطبق عليه صلى الله عليه وسلم (فكر)
لجعل قلب وجوه الرأي في استحضار الأوصاف
والأقارب المختلفة ، (وقد) أي وجعل يعمل رويته
في الترتيب والتصنيف بين تلك الأقارب والاختيار
الأقرب والأليق منها . لم قطع الوحى معجبا من
أمره ، ناعيا سوء فعله ، داعيا عليه بما يشبه
الاستعظام له والتفخيم ، وهو إنما يريد الاستهزاء به
والتبكيت : فقال : (فقتل كيف قدر) أي تبخه الله

ما أشد هوسه في أمر ذلك التقدير الذي اجتهد أن يقدره ! وفي استنباط القلب الذي كان يحاول أن يستنبطه ! ولبأسه السرب إذا قالوا قولا في أمر ، أو حكما حكما على شخص ، وتوقعوا انكار المخاطب ما قالوا ، أو استبعدا للحكم الذي حكموا - حادوا فكروا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويسعدونه بحرف العطف (ثم) ، كأنهم يقولون للمنكر : مهما استقرت من زين في الانكار وأرد فإن قولنا أو حكما هو الحق الذي لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم في اظهار حبه لحبيبته مثلا : « لا يا أسلمي ثم أسلمي ثم أسلمي » : توقع في قوله « لا يا أسلمي » الأول الانكار عليه ، وأن المنكر سوف يعطل في لومه وعذله ، فقال : (ثم) أي بعد كل ما تقوله أيها المنكر وسرده من كلمات اللوم والعمل أعود الى قولي الأول ، وأدعو لحبيبتي بقولي لها « أسلمي » ، وهكذا المعنى في قوله في المرة الثالثة : « ثم أسلمي » .

والكتاب المنزل إنما يورد خطابه موارد العرب في خطابه ، ويتصرف فيه تصرفهم في مناحي تراكيبهم . فهو بعد أن دعا على الوليد لما أقترف من بشاعة التفكير والتقدير - عاد فكرر دعاهم عليه مؤكنا قاطعا على المنكر انكاره فقال : (ثم قتل كيف قدر) . تركنا الوليد بفكره ويقدره ، ونترجع اليه لنرى ماذا فعل بعد . قال تعالى : (ثم ينظر) أي بعد أن فكر وقدر ، ونظر بالقلب الذي طنه في زعمه أشد انطباعا على النبي من غيره - ولعل بصره الى القوم المحتشدين في النادي وجعل بذير نظره في وجوههم . وكان نظره اليهم أولا نظرا حاديا ليجوس معه ولا كلوح ، وإنما كل ما أراد - أن يشعزم به بأنه أصاب المحل ، ووقع على الفألة المشوذة ... حتى إذا استمعهم القوم ما انتشر من نفوسهم ، وراهم قد تهيموا لسماع كلامه - حين فطنب حاجبيه محالوا في ذلك استهواهم والتأثر ليهم ، كما يفعل النوم تنويما مفتطسيا في هذه الأيام . وهذا معنى قوله : (ثم عيسى ويسر) : أي قلب حاجبيه أشد التقطيب متهيئا للكلام وأعطاه الحكم القطعي .

ولما كان رايه الذي سيبديه للقوم ، والوصف الذي اختاره له صلى الله عليه وسلم - ناشئا من محض كبر ، وغطى الحق ، وأمرأى من الإيمان - عبر الكتاب من رايه هذا بأنه أديار واستكبار ، فقال : « أي أديار واستكبار » أي ثم أبدى للقوم رايه في ما يجب أن يلقب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأي محض أديار ، وقول من الحق واستكبار ، ولم يكن فيه الرأى ما شعر به في قلبه من حلاوة القرآن وظلاؤه ، وقوله فيه : « أنه ليس بشعر ولا يسحر ولا جنون أن هو إلا كلام الله » . عرف كل هذا وأقر به أولا ، حتى إذا شهد النادي ، واحتف به القوم ، جحد وأتكر ، وأدبر واستكبر ، ففضل بذلك وأضل ، واستكان لوسوسة الشيطان وزل . والدة التي فكر فيها الوليد وقدر ، ثم أبدى هذا الرأي المنكر - لم تكن طويلة حتى يصبر من كل فترة

من فتراتها يتم التي تفيد البعد والتراخي ، لكن القوم لما كانوا في سوق شديد الى مصرفة ما كان يقدره الوليد ويذره من الكابد - كانت الادة بالنسبة اليهم طويلة ، فكان بين تفكيره وتقديره ، وبين نظره الى وجوههم وبين صوبه وسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيرا من القول الدال على أدياره واستكباره - فترات طويلة في نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها بش .

ثم فسر الوحي تلك الكلمة التي قالها الوليد للقوم ، والقلب الذي مرضه عليهم فكان به : « بيا مستكبرا - بقوله : (فقال إن هذا) أي ما هذا القول الذي يقوله محمد (الأسحر يؤثر) أي يروى مثله من الأشوريين والبابليين ، وقدماء الهنود والمصريين ، أما رايتموه يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد ومجده ؟

ثم أكد رايه بأنه سحر معروف في الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : (إن هذا) ، أي ما هذا القول (إلا قول البشر) ، أي مثل قول البشر الذين عاشوا في القرون الماضية ، ومارسوا السحر في الأمم الخالية . وانظر كيف قال : (فقال إن هذا الأسحر) ولم يقل (ثم قال) - لأن قوله تفنن وبيان لأدياره واستكباره التجليين في رايه القاتل ، فكان المقام للفاء المفسرة من دون تراخ . وكذلك قوله : (إن هذا إلا قول البشر) أتى به من دون عاطف لكونه يسانا وتوكيدا .

ومساق الآيات في استنكار قول الوليد ، واستشباع رايه في اختيار ما اختاره من تلقية صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كلب ذلك - يشبه قولهم في مبارتهم المشهورة « سكت دحرا ونطق كبرا » ، فإن الوليد أطال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء في التخيل والتصوير ، ثم لم يأت في آخر الأمر إلا بالرأى الفطير ، والقول التافه الحقير . ومع هذا فإن القوم المحتشدين في النادي هتفوا له مد سمعوا قوله ، فأرجع النادي بهتافهم ، ثم تفرقوا محجبين بقوله ، متحجبين من دهائه ، ووفور عقله ! !

قوله : (ساصليه سقر) لما ادمنحه في قوله : (سارقه صمودا) كما مرّت الاشارة اليه . و (سقر) اسم من أسماء جهنم ، وهو من « سقرته الشمس » إذا لوحته ، وأكث حماله بصحرا . و « السقرة » شدة وقع الشمس . و « الساقور » العديدة تحمي ويكوي بها الحمار . و « أصلاؤه سقر » تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع الى الوليد .

وقوله : (وما الذالك ما سقر) استفهام يراد به التحجيب من هول سقر ، وأنه منها فكر المفكر فيها لا يمكنه أن يعرف ما أمرها سوى ما عرفه بالوحي ، ومن ذلك أنها (لافتي) على شيء يلقى فيها الأهلكته ، (ولا تفر) أي لاتدع أحدا من العجايز يحاول إلهرب منها إلا ناشته واحتجته . وقوله : (لواحله ليشتر) مؤكدا لما يفهم من كلمة

أَصْحَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَنْهُمْ إِلَّا ذُرِّيَّةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَتَنَبَّيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُذَادَ
الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّائَهُ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(سقر) وهو تلويح الجسم وتغييره الى سواد ،
فلو احة اى مقيرة لكون الجسم : فعالة من « لاحتها
الشمس » . ويقال في الأكثر : لو حته الشمس .

(البشر) جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الانسان ،
وليس المراد به الناس الذي يكتي بهم آدم فيقال :
« آدم ابو البشر » وان كان هذا المعنى هو المراد
من اللفظ . فاللعنى ان دار الملب السماء سقر
تلفح وجوه اللذين بها ، وتسفع جلودهم ، وتفسر
لون ابشارهم الى السواد من شدة ما ينزل بهم من
المذاب .

ولعل السر في قوله (واحة البشر) مع قوله
(لا تبقى ولا تذر) الاشارة الى ان اخف حالات
المذاب في سقر لا يطلق ولا يحتمل . ومن يطبق ان
يمرض جسمه على النار فيفصل حرها الى حد ان
تسود بشرته ، وتعمل (١) من للمها جلده ؟
لا يطبق هذا احد ، فكيف به اذا عرض على سقر في
اشد احوالها ، واقطع احوالها ؟ وهو المصبر منه
بقوله (لا تبقى ولا تذر) .

وقد فسر بعضهم (واحة البشر) بأنها تحرق
الجلود حرقا . وذهب آخرون الى ان تفسير (واحة)
بمغيرة ومسودة ومحرقة لا يتسق مع قوله قبله
(لا تبقى ولا تذر) . المفيد انها تهلك اهلاكاً وتمحقه
محقاً ، وقال ان معنى (واحة) : لامة ، يزيد ان سقر
لشدة غوارها ، وانفجار نيرانها وميها بشره كانه
القصر ، أو الجمالات الصفر - تلوح وتظفر لانتظار
البشر من مسافات بعيدة ، ويكون المراد بالبشر في
الآية بنى آدم ، فهي لامة لهم ، بارزة الى انظارهم :
يردونها من غير استشراف ولا مد اعتاق . فلو احة
فعالة من « لاح البرق » اذا اومض ولغ . ويقولون
« لوح اليه يتوبه » اذا رفع الثوب وحركه ليراه من
بعد فيقبل عليه ، وهذا كما اذا اردت ان تصفبر كانا
عظيما ، يتلف نيرانه وحجمه بشدة ومنف الى عتات
السماء بحيث يرى من مسافات بعيدة . فتقول
مثلا : « بركان لوح » ترى مقدوقاته من مسائر
التوايح .

ثم ذكر الوحي من صفات تلك النار ان (عليها
تسعة عشر) وهم خزنتها الموكلون بأمرها على ما يمل

(١) سجلت يده كتبر وفرح : لفتت وفرحت وتكون بين
جلدها ولحمها مة .

الله من حقيقة ذلك وسره ، كما يعلم سبحانه الحكيم
في كونهم (تسعة عشر) ، لا اقل ولا أكثر . وسباني
في صريح الوحي ان اولئك الخزنة من جسد الملائكة
ولكن (التسعة عشر) المذكورين هنا : هل هم تسعة
عشر شخصا من الخزنة أو صفاء أو صفاء أو بقية
أو زعماء ؟ الله اعلم بجميع ذلك . ولم يكلفنا البحث
فيه : بل اشر الى تعلم معرفته ، وأنه مما لاطافة
الخلق بادراره مد قال تعالى . (وما ادراك ما سقرا)
ولا سيما اذا كان المقصود بالخطاب في (ما ادراك) ؟
صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فيكون غيره
اولى واجدر بعدم معرفته . وكل ما علينا اعتقاده
هو ان تلك النار ذات الاحوال المذكورة في الكتاب
حق ، وانها ستكون مآوى للفجار الذين كفروا بالله
وجحدوا الحق في هذه الديار .

ولا ذكر الوحي في صفة النار ان (عليها تسعة
عشر) فتح باب الجدل للمكابرين المشككين : كابي
جهيل واحزابه ، فطعوا يقولون : ما هؤلاء التسعة
عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين ؟
اما لرب محمد اعوان الا تسعة عشر ؟ بل ذهبوا الى
الاستهزاء بالوحي الى ابيد من هذا ، فقال ابو جهيل
قهرش : « فكلكم امهاتكم . اسجل كل عشرة منكم
ان يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟ »
فقال احدهم - وهو ابو الاسد بن اسيد الجمعي ،
وكان مشهورا بالقوة والبطش - : « انا اكفيكم سبعة
عشر ، فاكفوني اثم التين فقط » .

وهكذا كانوا يفسفونهم صلى الله عليه
وسلم ، ويستهنون بالوحي المنزل عليه ، ويصرفون
قلوب العرب عن الاعتدال به ، واخذ العبرة منه .
والنبي صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن
النفس ، واثق بوعده الله ان لا ناصر ومظهر دينه
فكان يجيبهم من دون امتناض ولا ارباك بما يأمره
ربه ان يقول لهم ، فاني ابا جهيل واخذ يبيده في
بطحاء مكة وخوفه قائلا : (اولى لك فاولي . ثم اولى
لك فاولي) ، اى يوشك ان يحل بك العقاب الالهى ،
فاحذر لنفسك . فاجابه ابو جهيل : « والله لا تقدر
انت ولا ربك ان تفعل بي شيئا » ، ثم مالبث ان اخذه
الله بالتكال في وقعة بدر .

وقد بزلت هذه الآيات في مسدد الرد عليهم ،
وتوبيخهم على ما كان من استهزائهم ، فقال تعالى :
(وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة) ، اى ان خزنة
النار ليسوا بشرا متلهم ايها المجاحدون ، فتصاولوهم
وتقوا عليهم ، اتما هم ملائكة ذوو ايد وقوة فوق
قوة البشر ، فاسالوا عنها ان شئتم قوم عاد ونمود
واهل سدوم وعمورا . فلهم يخبروكم انهم لقوا من
تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وغفت
أبصارهم ، وكذلك هي في جهنم ان جلتعوها تطبق
عليكم ، وتباذل باكتفكم وتشمعكم حللها وتكالا ، فلا
تسالوا عن هذه القوة واشكالها فليست بمغيرة
بالعد ، ولا تخلفوا الجذ بالعيب ، وتصرفوا قلوب
الناس عن استماع الوحي والانفتاح بهيده .

لأنهم غير مستحقين أن ينظروا إلى وجه الرب ، ويروج يظنون رجليهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر إليهما ، ويروج يظنون لقتضاه مشيئة الإلهم » ، و « كان للتين الذي رآه سبعة رعوس وسبعة تيجان وعشرة قرون » ، وهذا كالحيوان في رؤيا دانيال » فان له عشرة قرون أيضا » .

فلذلك هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار ، وقد فسروا السر بقولهم « أنه حقيقة روحية لا يصلح الإنسان إلى معرفتها بمجرد ذهنه ، ولا يفهمها تماما في هذه الدنيا ، وتسمى بعض التعاليم أسراراً لها فيها من الإبهام والصعوبة على الفهم » . قالوا : « ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء في رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والمناظر السبعة ، والمرأة المتسرلة بالقرم » .

وقالوا أيضا في وصف صعوبة فهم أحوال عالم القبط : « أنه قد يكون في الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تعبر عنها ، وإذا كنا نحن معشر البشر في دنسنا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال ، فكيف بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزل ، ووصف الأرواح المعردة عن المادة ، ووصف مختلف أطوارها » .

فقد تبين من هذا أن في كتب أهل الكتاب رموزا وأسارا من شئون عالم القبط يفسر الفهم دون ادراكها وتفهمها ، وأن علمهم مترفون بوجود هذه الأسرار ، ويأن لها معاني صحيحة منها ما يفهمه الراسخون في العلم ومنها ما لا يفهمونه إلا بعد وقومه في المستقبل أو في العالم الأخرى . فلا بدع إذا لم يستغرب أهل الكتاب في زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من أن صعد خزنة سلقر تسعة عشر ، كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : (ليستيقن الذين أولوا الكتاب) .

ويحتمل أن يكون المراد من كونهم يستيقنون أنهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وثالهم عليه في التكذيب والمنافقة طورا ، والسخرية والاستهزاء ثلثة أخرى - أنه نبى كاتبيهم ، مد يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على أذاهم ، وثباته في تبليغ أمر ربه - كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ، فيستيقنون ويصدقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الغلص فان ورود الوحي بأن خزنة سقر تسعة عشر - لا يضحك في نفوسهم إنما من شبهة سوى ازدياد الإيمان بالله ، والتصديق بوجه ، وأن خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافيهم بأن في كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى : (ويؤيد الذين آمنوا أيضا) .

ويرى أم الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون : « لا يصح كل عشرة منا أن يبيتوا بواحد من أولئك

تم عجب الوحي من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم يأخووا من آيات القرآن ميرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقر وأهوالها ، وإنما كان مكان الميرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واشتغال بيسا لا فائدة لهم به من ظاهر القول ، فنتقلوا بكلمة (تسعة عشر) ، وساءلوا عن هذه العدة وسببها وحكمتها : مما لو أريدوا على فهمه وتقبله - وهو من شئون العالم الأخرى - لفسر عليهم عطفه ، بل لأردادوا إشكالا ، وأدغوا بعدا عن التصديق وضلالا ، وهذا معنى قوله تعالى : (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) .

(هدهم) ، أي فدة خزنة سقر في قولنا منهم أنهم (تسعة عشر) ، و (فتنة) يعنى ضلالا وميلا وأغراضا عن الحق . وليس المراد أنه تعالى أوحى إلى نبيه بذلك ليفتن الكافرون به ، وإنما كانت نتيجة الوحي بالنسبة إليهم ضلالا وكفرا بالنظر إلى منادهم في باطلهم ، وجمودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم . أما النتيجة والعاقبة بالنسبة إلى غير الكافرين - وهم المؤمنون به عليه الصلاة والسلام ، وإلى أهل الكتاب الذين شموأ رائحة الوحي ولهم عهد بالكتب التوراة وأسابيل الخطاب الإلهي فيها - فان الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة : فالذين أولوا الكتاب « استيقنوا بها » ، أي أيقنوا صحتها ، ولورد نظرنا لها في كتبهم المقدسة ، فكيف في هذه الكتب من أخبار من العالم الأخرى ، وعالم القبط ، وحوادث المستقبل ، أرسل فيها القول إرسالاً ، وأودعت من الأغرأب في الوصف والإيصال في التمثيل شروبا وإشكالا .

وبكى في الاستشهاد على ذلك ما جاء في رؤيا دانيال « من أسفار العهد القديم » ، و « رؤيا يوحنا » من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء أهل الكتاب : « أنه وإن يكن يوجد في سفر دانيال حوادث غير اعتيادية ليس هذا يستغرب لأنه يعم الكتاب المقدس . قريبا » ، وقالوا في رؤيا يوحنا : « أن معناها مرمض وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تسعة ألف سنة ، بل أن مسألة ألف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ، ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها » .

وقالوا أيضا : أن كل ما جاء في هذين السفين من قبيل الرمز « وهو أن يشار بكلام حرفي إلى معنى روحي ، والرمز كثير الوقوع في جميع الكتابات الشرقية ولا سيما الكتاب المقدس » .

فمثال ما جاء فيه من الرمز بالأعداد إلى مصاد غيبية أو مستقبلية « حيوانات حزقيال الأربعة التي لكل منها أربعة أوجه وأربعة أجنحة وأربعة جوانب » ، وملائكة رؤيا يوحنا « كانت سبعة وثق أيديهم سبع جامات وسبع ضربات » ، أما عدد أجنحتها « فكان سنا مرببة أزواجاً : فكانوا يزوج يظنون وجوههم ،

وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْصًا وَالْكَافِرُونَ
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ

التسعة عشر - قالوا لهم مستهزئين : « ويحكم
اتقاس الملائكة بالحدادين ؟ » ، ومزادهم بالحدادين
الساجون الذين يضعون الحديد في أيدي المسجونين .
وقد ذهب قولهم هذا مثلا فيقال : « لاتقاس الملائكة
بالحدادين » في التفرقة بين اثنين أحدهما طيب
والثاني خبيث .

ثم ان استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيمانهم
يغهم منه بالضرورة ، بل يلزم منه عدم ارتياب الفريقين
جميعا . ومع هذا فقد أكد الوحي استيقان الأولين
وازداد إيمان الآخرين بالتصريح بذلك اللازم : أنهى
صدور الارتياب ونفيه عن الفريقين معا فقال : (ولا
يرتاب الذين أتوا الكتاب والمؤمنون) ، أي أنهم
يستيقنون ويزدادون إيمانا ولا يرتابون ، كما تقول
آخر : « إني أبغضك ولا يحبك قلبى » ، فإن آيات
البغض يستلزم نفى الحب . لكن العرب في أساليب
مخاطبتهم اعتادوا التصريح بذلك اللازم تأكيد الكلام ،
وقوة الحكم . على أن في أمادته في الآية تعريضا
بإثبات الكافرين المشاكسين الذين أصبح ذهابهم
الارتياب بالوحي ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى : (وليقول الذين في قلوبهم
مرصا والكافرون الخ) . فإن قولهم هذا إنما هو أثر
من افتتاهم ، ولزوم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليصف
من ذلك الافتتان ، ويروى شيئا من أقوالهم ،
وليضيف إلى الكافرين ضغنا منهم ، وهم الذين في
قلوبهم مرص ، ويعنى بهم المنافقين . وفى ذلك من
التفنن في التعبير ، وزيادة التفرع والتعبير - ما فيه ،
كانه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لهذه الخزنة افتتان
أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم - ولا سيما
المنافقين منهم - : (ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

و (هذا) إشارة إلى « تسعة عشر » في عدة خزنة
سقر ، (المثل) : القول الساخر في الناس ، المتداول
على الاستعمال ، ولا يكون إلا في أمر ذي شأن وخط
ووصف مستغرب . فالشركون الذين سمعوا الوحي
يخبر أن خزنة سقر تسعة عشر - فحجبوا منه
واستغفروه ، وعدوه في جملة ما يصح أن يسمر مثلا
بين الناس ، فقالوا : (ماذا أراد الله) أي ماذا أراد
بهذا القول الذى هو مثل في الترابية والبسامة ،
فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟

قوله (كذلك) إشارة إلى ملاك . قبل من الأمرين :
افتتان الكافرين والمنافقين وارتيابهم بالوحي ،
واستيقان الكتبيين والمسلمين وازديادهم إيمانا به .
ولا ريب أن الأولين كانوا من فتنهم ولوتياتهم حلى
فضلا ، وأن الآخرين كانوا من استيقانهم وزيدة

إيمانهم على هدى . والله تعالى يضل من يشاء من
الخلق ويهدي من يشاء منهم : مثل الاضلال والهداية
الذين كاتا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى اضلال الله فريقا وهدايته فريقا :
أنه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه
من الصلاة والهدى ، ولا أنه تعالى يكرهم على
سلوك أى السبيلين شاء من سيبيلى الخير ، والشر -
كلا . فإن هذا الإكراه منادى للعقل الإلهي بل منافع
لحكمه التشريع السماوى ، ولا يلتحم مع نصوص
الشرعية المتواترة القطعية في دلالاتها على معناها : من
أن العبد له الإرادة واختياره من مناط التكليف
والمؤاحدة ، وكذلك كان الصحابة والسبع يفهمون
من تلك النصوص ... سأل سائل عليا عليه السلام
فقال : « إكان مسيرك إلى الشام - يعنى قتال
أهلها - بقضاء الله وقدره ؟ » فقال له : « ويحك !
لعلك ظننت قضاء لازما ، وفردا حاتما ، ولو كان ذلك
كذلك ، ليطل الثواب والغنى ، وسقط الوعد
والوعيد ، إن الله سبحانه أمر عباده تخيرا ، ونهاهم
تحذيرا ، وكلف يسرا ، ولم يكلف عسرا ، وأعطى
على القليل كثيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يعط مكرها ،
ولم يرسل الإتياب لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد
ميثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما
باطلا - ذلك ظن الذين كفروا لئول للذين كفروا من
النار » اهـ .

وحضر « الواسطى » بعض الأربطة - جمع رباط
الصفوية - فسمع من غنى بقول العباس بن
الأحنف :

فأفكروا أو أقلوا من أساءلكم
فكل ذلك محمود على القليل

فمن واستغاث وشق الجيب وحسوق واستغفر
وقال : « يا قوم ، أبا ترون إلى العباس بن الأحنف
لا يكفيه أن يحسن .. حتى يكفر ، متى كانت الفضائل
والذنوب والمعيوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدر
الله هذه الأشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدرها كان قد
رضى بها ، ولو رضى بها ما عاقب عليها ، ولو قدرها
على مبددة وعاقب عليها ، كان من الظلم الذى يقع
بالخلق ، فكيف بالخلق ؟ أيا الله ، لمن الله القول إذا
شعب الجاعة ، ولعن الجاعة إذا قرنت دم يفسد
في الدنيا » .

وما زال يقول هذا وأشابهه حتى رد عليه أبو
صالح الهاشمي فقال : « هون عليك يا شيخ ، فليس
هذا كله على ما ظنن ، القدر يأتي على كل شيء ،
ويعلق بكل شيء ، ويجرى على كل شيء ، ويكل
شيء ، وهو سر الله الحكيم ، والعالم الذى يحيط بكل
شيء ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى
شئ ، وإذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خير ، وما
هذا التحارج والتضايق والشكوى يهزل ويجد ،
ويقرب ويبعد ، ويضيئ ويظلم ، ولا يؤخذ به
الرجل الديان ، والعالم ذو البيان » اهـ .

الان التصوص التي ينسب عليها ان يكون الصيد مكرها لا اختيار له ، وتقول انه تعالى هو الذي يضل ويهدي - فمعناها انه تعالى يشرع امام الشر السبيلين : سبيل الخير والشر ، ويرجع الى اضرارهم التجديد : نجدى الهدى والضلال ، ولكل فريق منهم ان يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجره اليه ارادته وتربيته ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذي يعيش فيه . وهذا الذي يختاره لنفسه منجذبا اليه بالجاذب المذكورة لا يقع الا منطقيا على ما في علم الله وارادته ولوح تقديراته ، فلا يمكن ان يختار العبد لنفسه مالا يكون ثابتا في العلم الازلي القديم ، وليوت ذلك فيه لا ينبغي من العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الارادة ، لان صفة العلم ليست سوى صفة تتكشف بها المعلومات له تعالى ، فهي لا جبر فيها ولا اكراه . وقد ذكر ابن القيم في كتاب « القضاء والقدر » نقلا عن الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه انه قال : « القدر علم الله » .

ولما كان شرع السبيلين : سبيل الخير والشر ، ورافع التجدين : نجدى الهدى والضلالة - هو الله سبحانه وتعالى ، قيل في بعض التصوصي : انه هو الذي يضل هذا ويهدي ذلك ، وهو الذي قضى وقدر على زيد بان يعمل الخير فيكون من اهل السعادة ، وعلى وقدر على عمرو بان يعمل الشر فيكون من اهل الشقاوة . وقضوه تعالى وقدره فينا خفيان منا معشر البشر ، وانما يظهران لنا ، ويقعان تحت اعيننا ، ماثلين في سببته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي ينشأ في حياتها هذا العالم ، وربك بنسائه عليها : لكل شخص أو امية تراعى سببته ونواميسه الحكيمه العادلة - ينساق أو تنساق الى بحايح السعادة والخير ، وكل شخص أو امية تدابير تلك السنن والنواميس ، وتعمل العمل بها - ينساق أو تنساق الى مواطن التاعسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين منا ، بل هي لعمري الرايا الصغيلة التي ينعكس عنها الى ابصارنا ما في اللوح السماوي من حكم الله وارادته ومشيبته في تدبير هذه الكائنات وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هذا الأصل الحكم في مصير الأفراد والأمم في غير ما مسورة وآية من مسوره وآياته . قال تعالى في سورة الانفال : (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يسودوا فقد مضت سنة الاولين) ، وفي سورة الاحزاب : (سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وفي سورة فاطر : (فهل ينظرون الا سنة الاولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وآيات اخرى بهذا المعنى في الفتح والاسراء والمؤمن والحج وال عمران والنساء . ويظهر من سياق هذه الآيات واطلاق القول فيها ان تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلف ، عادلة لا تحاي ، صارمة لا تقبل شغاعة : فمن اتقاه

وراعاها من اى قبيل كان ، ومن اى بلاد كان ، ومن اى دين كان - سعد وقار . ومن استخف بها ، واعرض عنها - شقى وخاب .

فاذا لاحظنا هذا ، ولاحظنا الآيات الناطقة بأن الايمان وحده هو مناط السعادة ، وان الكفر وحده هو مناط الشقاوة - حكمنا بان بين هذه السنن وبين الايمان والكفر علاقة متينة ورحا ماسة ، وان اتفاق هذه السنن ومراعاتها شعبة من شعب الايمان ، وان الاستخفاف بها والاعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهذا الموضوع لا يحتمل كلاما باكثر مما تكلمنا ، وسر القضاء والقدر لا ينبغي الاشارة اليه باكثر مما اشرنا . والسعيد من وفق فظفر في ملكوت السموات والارض فاعف وزجر ، وتصفح احوال الشعوب والأمم كما امره الله ففأس واستنبح واعتبر . على ان القام ربما وسع كلمة نجب الا نفوتنا عملا بما امرنا به القرآن من النظر في الأمم وحالاتها ، ثم الاختيار بيناياتها ونهاياتها ، فنقول :

اشرنا في اطوار كلامنا السابق الى ان البشر قد تجذبهم الى مساندتهم أو شقاوتهم « جاذب » ، وان شئت سميتها « هوامل » : من مثل الملة التي يارسون شعائرها واحكامها ، والحكومة التي تسيطر عليهم ، والعائلة التي تربي اطفالهم ، والمدرسة التي تعلم ابناءهم ، والمحل أو النادي الذي يحتشدون فيه للحديث أو السر أو اللهو أو البيع والشراء أو ختلف الأعمال والمصالح - فالفراد من المحل أو النادي ما يريده علماء التربية بقولهم « جماعه الاسدقاء والمهاجرين » - والوراثة التي تنقل الى ابدانهم دم آباءهم ومزاجهم وكونهم الجسماني ، كما تنقل الى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم واختلافهم وتكوينهم الروحاني ، والاقليم الذي يشربون مائه ، ويستنشقون هوائه ، ويدفون حره وبرده ، ويتناتون بمصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس « البيئة الجغرافية » ، ويسمون العوامل الأخرى « البيئة الاجتماعية » .

هذه « الجاذب » أو « العوامل » هي التي تعمل في تكوين الأم ، وهي التي تعرف بها حالتها الاجتماعية ، ودرجتها في سلم المدنية : فان صلت تلك العوامل واستقامت ، صلت الأم واستقامت في افرادها وجماعاتها ، اذ ليست الجماعات الا فردا متكررا ، وان سادت وفست سادت احوال الأم ، وانحطت شأنها ، وتقهقر عمرانها .

هذه الجاذب هي التي تجتلب البشر الى ملابسة الخير أو موقعة الشر ، وتقودهم من ايديهم الى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهي التي نستدل بها ، ونشئ على أثرها في معرفة ما هو قضاء الله وقدره في هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وقبات امرها ، وحسن نظامها - فهناك فوز الأمة

وَيَسِّرْ لِي سَبِيلَهُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَكُنْ إِلَّا دُرٌّ عَلَى الْعَرْشِ ۖ فَلَا يَصْعَقُ بِهِ ۚ وَالَّذِي إِذَا دُبرَ ۖ

وقلاهما ، وتجلي حكم القضاء والقدر فيها . ومهما راينا من نقص « المومل » وخطأها واضطراب أمرها ، وقبح نظامها - فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هذه المومل هي التي يعنى بها الأنبياء والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيون ، فيجتهدون في إصلاحها ، وتقويم أودها ، حيا في إصلاح أممهم ، وتربية شان شعوبهم . ولم يال الدين الإسلامي في التصحيح لأبنائه بوجوب توفرها وتنقيتها من الشوائب ، كي تبقى صالحة لسعادتهم في دنياهم ، ونجاتهم في آخراهم .

قد يقال : إذا كانت هذه المومل هي مظهر قضاء الله وقدره في البشر ، وعلى سلمها ينزلهم ربهم ويصعدهم ، ويشقيهم ويصدهم .. فاني لنا الوصول اليها بالإصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا إلا انشأت على القدر ، وتداخل في وظيفته ؟ والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ، فلها إما أمرتنا بالتقرب إلى أحوال الأمم والاعتبار بما جرى ، لتتسلك بما كان سببا في نجاحها وسعادتها ، لتجنب ما كان سببا في هلاكها وشقاؤها . ونحن في كلنا الحاليين بالقول ما قضاها الله وقدره فينا « أصموا فكل مسر لما خلق له » .

وهذه الأمم المعاصرة لنا - مفسر المسلمين - ارتفعت وعزت وقلت بما كان من منابتها بامر المومل المذكورة . فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا نظام قوانين المدرسة والتربية الصالحة وسائر مقومات الاجتماع - كما كانت عليه في مصورها الوسطي .

تقول : والأقليم والوراثة كيف يكون إصلاحهما ؟ فاما إصلاح « الأقليم » فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وإنشاء الغابات والحراج ، وحفر الترعة ، وجر المياه النقية للشرب ..

وأما إصلاح « الوراثة » وتحسين حالة النسل والأخلاق ، فقد أخذ الفرييون في الأيام الأخيرة يمتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم إليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشأنه .

وهذا ، أو ذلك ، أو ذلك - مما يدخل تحت الطاعة ، ويستطيعه البشر - ولقد أصبحت المسكينة فيه ضحايا من الجهل والغبوة بعد ما رأينا حسن أثره وأفعها جلبا في الأمم التي غلبت علينا ، وأصبحت المتحكمة فينا .

ومعجب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن في

إصلاح الدين ، أو الحكومة ، أو نظام العائلة ، أو طريقة التعليم والتأليف ، أو سائر عوامل الحضارة والعمران - مخالفة للدين ، أو لدخلا في وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارح الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو في الواقع ونفس الأمر إلا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ، فلا يتسرب إليه أو اليهم ما ليس منه في شيء فيفسد وينفدون . فالأمر والنهي إذن إصلاح ، والأمرون الناهون مصلحون . وكان بعض العارفين يقول : « ينبغي لأهل كل مذهب في كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان » .

ومما يحسن إرادته هنا أن الشارح صلى الله عليه وسلم نهينا إلى تأثير نفوس الوراثة ، وأشار إلى أن في إصلاحها إصلاحا للنسل والوراثة مد قال : « تغيروا لنطفكم ، فان العرق نزاع » ، يريد تزوجوا كرائم النساء ، فان أولادكم من زوجاتكم يرحمون في طيب الأخلاق وقبحها إلى أجدادهم من أمهاتهم ، أما رجوعهم في أخلاقهم إلى أجدادهم من جهة آبائهم فيل الطريق الأولى . وليس فوق هذا إرشاد وتعليم لنا في أن نصلح شربنا ، وموالم اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاعتنا كسالة الوراثة . وقال أبو الأسود الدؤلي مخاطبا أولاده :

وأول إحساني إليكم تحري
لمساجدة الأمراق باد عافئها

وبالجملة فان الدين والعلم والتجربة والمساعدة اتفقت كلها - وإن خالفها الجهل والتقليد والكآبة - على أن سعادة الأمم وشقاؤها أمران ميسوران لها ، تخالفا تحت طاعتها . وليس معنى أن الله يضلها ويهديها إلا أنه تعالى يهد تحت مواقع أبصارها طريق الهدى والفضائل : فهي إذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وإرادته وسابق علمه ، وإذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته أيضا بمشيئته تعالى وإرادته وسابق علمه . وما أحسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! أتتبعنا نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟ » ، وبشبه هذا ما قاله الإمام جعفر الصادق « عليه السلام » : « إن الله أراد بشا شيئا ولواد منا شيئا ، فما أراد بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراد بنا عما أراد منا ؟ » .

وأوضح السبل الموصلة إلى سعادة الأمم هو إصلاحها دينيا : فلا يكون فيه حشو أو دمه ، أو تكليف مما لا يات به وحى ، ولا خير صادق . ثم إصلاح بقية القوميات والمومل التي قلنا أنها هي التي تجلب بضع الأمم إلى مراقي الكمال والعزة والفلة ، كما أن اقرب الطرق التي تأخذ بالأمم توا إلى هاربة الدلة والسكنة والتملح والاضمحلال - هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما لا يرضى الله ورسوله من

الإرام والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك في الضرر أن نترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف في مدارسنا ومؤلفاتنا ، ومساثر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم إصالحه إلى بصالح الحياة السعيدة . . . فان جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع إصهارنا ، وبأبلغ في تحذيرنا منها في محكم كتابه . فما علينا إلا التنكب منها ، والاستعانة به تعالى منها ، فنكون من الفائزين المهتدين أن شاء الله .

بعد أن ذكر الأصل الكلي في أن سعادة البشر وشقاوتهم أمران مرتبطان يسلكوا ما أشرعه الله لهم من طريق الخير والشر ، وأن ترجيحهم أحد الطريقين مستند من علم الله الأولي ومستند إلى مشيئته القديمة ، وأن أبا جهل ورفاعة المستهزئين بالوحي القائلين : « أرب محمد أعوان إلا تسمة عشر ؟ » لم يكونوا من أمرهم على بصيرة ، ولم يختاروا لأنفسهم إلا أتبع الخصال ، ولم يسلكوا إلا طريق الضلال - عاد إلى توبيخهم على قولهم المسكود الدال على غباوتهم ، وفرد جهلهم بما يجب الله من التعظيم والتوقير والوفوق عند حدود الأدب ، وتنبههم إلى أن خزنة جهنم إن كانوا تسمة عشر فليس ذلك من قلة في جنود الله ، فان جنوده كثيرة لإلهمها إلا هو .

و (الجنود) جمع جند ، وهم الأحرار والأنصار والعسكر . وقد يراد من الجند أحيانا صنف من الخلق على حدة - يقال « هذا جند من الخلق قد أقبوا » أي طائفة من الخلق . وفي الحديث : « الأرواح جنود مجنده » . ومنه المثل « أن هـ جنودا منها السبل » . وربما كان المعنى الثاني هو المراد في الآية .

ويدهى أن جنود الله التي يستتب لها بها السلطان الإلهي في ملكوته ، والقهر الرباني على ماخلق ويخلق في عالمي دنياه وآخرته - ليست عسكريا حربيًا ، ولا جنديا بشريا ، وإنما هي وسائل وأجزاء وتنفيذ وتصرف مطلق : منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة في هذه الدار ، ومنها ما لم نعلمه بعد ولم تكلف البحث عنه ، وهو غيب عنا ، ولكننا نؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من أحواله وشؤنه على الوجه الذي يليق به ، وينطبق على حكمة خالقه . ومن هذه الجنود أو الوسائل الغيبية : الملائكة .

وكنا معشر البشر نشعر في أنفسنا أننا سفرون للآخر الإلهي ، وخاضعون إلى ما يراد منا في هذه الدار الدنيا . وقد أخبر الوحي الصادق أن هـ جنودا جعلها وسائل في تنفيذ مشيئته ، وتتميم إرادته في خلقه . وقد سمي تلك الوسائل ملائكة . وكما قامت هذه الوسائل في إيفاء وظيفتها في هذه الدار ستقوم بمثل هذه الوظيفة في الدار الأخرى على النحو الذي يريده الله تعالى ، ويناسب حال تلك النشأة .

ولذا رأى أولئك المستهزون المكذبون تحديده عدة خزنة جهنم تسعة عشر سائرا غريبا ، وهو شأن

من شئون عالم آخر له سنن ونواميس خاصة به ، ولا يستغفرون من علمهم هـدا - الذي خلقوا من طينته - أحواله العجيبة ، وأطواره القريبة ؟ وهذه قواه المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من موارده ومعادنه ، وجوهراته ونبائه ، وشؤموسه وأقداره ، وتوابعه وسياراته - ولكل منها عدد خاص ، ونسب معينة ، ومقادير مصدودة ، وترتيب معلومة - فلا نسمعهم يسألون لماذا كانت البروج اثني عشر ولم تكن أكثر أو أقل ؟ ولماذا كانت حلقات زحل ثلاثا ولم تكن خمسا ؟ وأقداره لعانية ولم تكن عشرة ؟ والوان الشمس سبعة ولم تكن مشرين ؟ ولماذا كان الملح مركبا من عنصرين فقط إذا انحلا وافترا ضرا وأفسدا ، وإذا انحلا وتركبا نفسا وأصلحا ؟ ولم يكن القنار والخاصة على خلاف ذلك ؟ وهكذا مما لا يكون السؤال من سره إلا ضربا من العنت والمحاكة ، وطمع المخلوق فيما كان من خصائص الخالق .

لقد غفل المشركون المستهزون من سر التشريع الإلهي ، وذهلوا عن الحكمة في أنزال الوحي السماوي (وما هي) أي تلك الحكمة التي أنزل القرآن من أجلها (الإذكري) وموعظة (للبشر) ، فيخافون ديهيم ؟ ويتعجبون بينهم ، وتنتظم أحوالهم ، ويسعدون في دنياهم وأخراهم . ولم تكن الحكمة قط أفهام البشر حقائق النشأة الأخرى ، وجعلهم يدركون أحوالها وقوانينها بآثنته ، فان هذا غير مستطاع لهم ، وعقله لا يدخل تحت مقدورهم .

والضمير في قوله (وما هي) يرجع إلى الآيات السابقة وما أشبهها مما فيه بعض الوصف لسؤال الغيب ، أو أنه يرجع إلى الحكمة المغمومة للمضابط بمعونة المقام كما أشرنا إليه في حل الآية . وإرجاع الضمير إلى غير مذكور كثير في القرآن وفي كلام العرب ومثله قول ابن نواس :

ألا يا ابن الدين فنوا وماتوا
أما والله ما ماتوا لتبقى
وما لك فاعلمن فيها مقام
إذا استكملت أجالا ووزقا

أو أن الضمير يرجع إلى الحكاية والشأن والقصة ، وهو ما يسميه النحاة ضمير الشأن والقصة .

تقدم أن (كلا) كلمة ردع ورجع ، فالمنى ليردع أولئك المستهزون بالوحي - الذين انغذوا من ذكر عدة خزنة سقر سبيلا إلى انكارها ، والتشكيك فيها - عن قطعهم وسوء صنيعهم .

ثم أقسم بالقرن أن سقر حق ، وأنها إحدى الدواهي التي يبنى بها أولئك المكذبون . وقد تقدم بيان الحكمة في أنشأ الله تعالى بعض مخلوقاته والسر فيه ، أما قسمه هنا بالقرن والليل والصبح - فلتنبية الآمان إلى ما في خلقها من جميل الصنع ، وبديع الأحكام ، وما قارن ذلك من الرفق بهم وتقسيم

وَالصَّبْحَ إِذَا اسْفَرَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا الْإِحْدَى الْكُبْرَى ﴿١٦﴾ نَذِيرًا
لِّلْبَشَرِ ﴿١٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿١٨﴾ كُلٌّ
نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ﴿١٩﴾ إِلَّا أَحْبَبَ الْيَمِينُ ﴿٢٠﴾
فِي جَنَّتِ بِسَآءَةِ لَوْنٍ ﴿٢١﴾ عَنِ الْمَجْرَمِينَ ﴿٢٢﴾ مَا مَلَكَكُمْ
فِي سَفَرٍ ﴿٢٣﴾ فَلَا أَرَى نَكَمَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٢٤﴾ وَلَكِنْ تَكُ نُظُمٌ

أوقاتهم ، وتقدير أعمالهم ، بما فيه كل الخير
والنفع لهم .

وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان
لله ، وأنهما في حر كاهما ، وإدبارهما واسفارهما ،
ونشوء الليل والنهار عنهما - مسخران لأمره ،
ساجدان بين يدي قدرته وقهره ، فكيف يحسن
بالبشر أن يعبدوهما ، ويكفروا بالاله الذي خلقهما ؟
وقوله (إذا دبر) قرأه هكذا ، وقرأه أيضا
(إذا دبّر) و (إذا دبّر) ولا فرق بين دبّر
وإدبر في المعنى : يقال : دبر النهار أو الصيف - إذا
انصرم - ودبر فلان : ولي ، كادبر - واستعماله من
دون همل قليل سوى قولهم : « أمس الدابر » . فانه
شائع .

يقسم تعالى بإدبار الليل ، وأقبال النهار .
وهذا معنى (والصبح إذا اسفر) ، أي أضواء وتبليج ،
وقال بعض أهل اللغة : إن من قرأ (دبر) بلا همز
أراد أنها من دبر الليل النهار إذا خلفه وأتى على أثره ،
ودبر فلان فلانا إذا جاء خلفه ، فهو تعالى يقسم بالليل
مد يقبب النهار ، وبالنهار مد يسفر عقب الليل .

وغدير (أنها) يرجع إلى سقر كما مرّت الإشارة
إليه ، وقوله (الكبير) جمع الكبرى مؤنث الأكبر ،
وتجمع الكبرى على كبريات أيضا ، أي أن سقر المدة
للكليين إحدى الدواهي الكبار والأمور العظام التي
ما اعتادوا بعد رؤية أمثالها ، فهي واحدة من بينهن
لأنظير لها في العظم والهول كما تقول : صاحبك فلان
أحد الزجال ، ولا تريد إلا آبه واحد من ذهابهم
وشيطانيتهم .

وقوله : نذيرا للبشر . (نذيرا) لما أن تكون مصدرا
غير قياسي لآثار النذير ونذيرا ، كما يقال أوعد إيعادا
ووعيدا ، وأموت المرأة أمواتا أو أمواتا ، وتومر تمعيرا .
أي أن سقر إحدى الكبر من جهة تخويفها وإتلاؤها
للبشر ، كقولهم : فلانة إحدى النساء عاقبا ، يريدون
أن لها شأنا بينهن ورجحانا عليهن من جهة عقابها ،
ولما أن تكون اسم فعل على غير قياس أيضا لأنزه
فهو منزه ونذير كما يقال : آله العذاب قسو مؤلم

واليم ، وأوجهه الضرب فهو موجه ووجيع ، ويعرب
(نذيرا) إذ ذلك حالا من (إحدى الكبر) على إرادة
معنى العذاب فيها لكي يصح سمي (نذيرا) حالا
منها ، والا يجب أن يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه
وصفا لأحدى الكبر المؤنث . وليس « نذير » مما
يستوي فيه الذكر والمؤنث ، لأنه بمعنى أسم الفاعل
لا بمعنى اسم المفعول . فإله تعالى يقسم بأن سقر هي
أحدى البلايا أو الدواهي العظام منكرة للبشر ،
مطلوبة لهم نفسها ، وقوة بطشها . وروى عن الحسن
البحري أنه قال : « والله ما أتذر الناس بشيء أدهى
منها ولا بدهية أعظم منها » .

ويعد أن عم في كلمة (البشر) ، عاد فخص منهم
أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون في
مستقبل أمرهم ، وهم موضح الخطاب ، ومحط
الامل ، فقال : (لمن شاء منكم) ألغ .

وقوله (لمن) بدل من (البشر) ، أي أن سقر منكرة
لكم أيها البشر وخاصة (لمن شاء منكم أن يتقدم)
فتكون سابقا إلى الخير وممارسة الفضيلة فيسجد ،
(أو يتأخر) فيخلد إلى الشر وممارسة الرذيلة
فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله (لمن شاء) ألغ
مستأنفا لا بدلا مما قبله ، على أن يكون بمعنى قوله
تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، وقال
في أمراة : (أن يتقدم أو يتأخر) مصدرا مؤول
ميتنا ، وقوله : (لمن شاء منكم) خبره مقدم عليه .
والمعنى ألكم معشر البشر - بعد أن املر الوحي
إليكم ، وألقى من كلمات الصبح والإنذار ما ألقى
عليكم - لم يبق إلا أن تستمعوا قولكم ، وتستفيدوا
من النتيجة والاختيار الممنوحين ليكم ، فتختاروا .
لأنفسكم من الخير والطاعة ما هو المأمول فيسكنم ،
والإتيقن بكم . فإن كلا من التقدم إلى الخير ، والتأخر
عن الشر - أمر مهين لكم ، جمهيد أمامكم ، منوط
بحسن اختياركم فإن لم تتقدموا إلى الخير كنتم
الجائين على أنفسكم .

وحمل الآية على هذا المعنى له تعلق كبير بآية
(يفضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء) الواقعة قبلها
قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذي قلناه في تفسيرها .
من أن الانسان أرادة واختيارا وهما مناط التكليف
والمواظدة ، وأن ما يوجه الخير والاكراه محمول على
أنه تعالى أشرع أمام البشر طريق الخير والشر ، وأن
ملوك المزه في أحدهما مطابق لمسلم الله الأولي ،
ومستند من مشيئته القديمة .

ثم إن العنيتين اللتين قلناهما في هذه الآية نظير
أتهما يصلحان في آية سورة « التكوين » : (أن هو إلا
ذكر للعالمين) . لمن شاء منكم أن يستقيم) ، لكنني لم
أرهم تعرضوا لتغير المعنى الأول ، وهو أن يكون (أن
شَاءَ) بدلا من (للعالمين) لا مستأنفا كما قالوا
باحتماله هنا .

من أن آيات الوحي أثبتت الإنسان ، فما عليه
اذن إلا أن يفعل ماين له ، من التقدم إلى الخير أو

عن حالهم ، قائلين لهم : (**ماسلككم في سقر**) وما اللب الذي ادخلكموها ؟ فالخطاب في (ما سلككم) ، إنما هو مستند الى سابق كلامهم المأخوذ من قوله ، وقد حبلت اختصارا واعتمادا على ذلك المأخوذ ، ومثله كثير في القرآن ، وهو من اصعب اساليب اجازته ، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر الفية : على معنى ان السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلككم ، أي سلك المجرمين في سقر . ولهذا الاجازة نظائر في اقوال العرب واسعارهم ، من ذلك قول حاتم الطائي :

لكل امرئ نفسان : نفس كريمة
ونفس ... فيمصى نفسه ويطيعها
وأصل الشعر مع المحذوف منه هكذا (لكل امرئ نفسان : نفس كريمة ونفس ثيمة : فهو تارة يمصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يمصى نفسه اللثيمة ويطيعها) .

فالمذكور في الكلام سبع كلمات : والمحذوف منه سبع ايضا بقدر ما ذكر . ومنه ايضا قول الآخر :

شهور ينقصين وما شمرا
بأنصاف لهن ولا سرا
فاما ليلهن فخير ليل
واطيب ما يكون من النهار

أي وأما نهارهن فاطيب الخ . ويمكن إبقاء الخطاب في (ما سلككم) على ظاهره . على معنى ان السعداء (يتسألون من المجرمين) المدينين فيما بينهم ثم يرجعون على مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالهم مواجهة قائلين لهم : (ماسلككم في سقر) . وفي هذا التوجيه حذف ايضا بضع كلمات كما حذف في التوجيه الأول .

(**قالوا**) الخ ، هذا جواب المجرمين لاصحاب الميعين الذين سألوه عن اللب الذي ادخلهم سقر . والصلاة في اللقمة : الدعاء والدين والاستغفار . لم غلبت في العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود . فقول المجرمين أنهم لم يكونوا من الصالحين - الأشبه ان يكون معناه لم تكن من أهل الدعاء والدين الذي يرضى الله تعالى وهو دين الاسلام . وقد مر ان الدعاء قلما يذكر في القرآن إلا مراداً به العبادة ، والله تعالى إنما ينصلي في هذه الآيات عن أبي جهل واضرابه من سادات قريش السابقين في الشرك والضلالة وعبادة غير الله ، فهم - بأن تطلب منهم في أول الأمر الصلاة بمعنى الدين والدعاء والعبادة - أجبر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود . على ان هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وإنما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بسنة ، وبعد بعثته صلى الله عليه وسلم سنة ، وسورتنا هذه (بأنها للذين) مكة ، بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر . فالجرمون المخطيئون بهما لم يكونوا مكلفين حين نزولها إلا الصلاة بمعنى الدين والعبادة ، ويشهد ذلك قول هؤلاء المجرمين عن أنفسهم أنهم كانوا يكتلون بيوم الدين . والوحي في عشر السنوات الأولى التي قضاهها صلى الله عليه

التأخر عنه الى الشر ، ولكن على لقة أنه اذا اختار الشر ومقارفة الآثم فليس بمعجز الله ، ولا بمفلس من أن يحاسبه على عمله ، وبأخذه بلذنه ، إذ (كل نفس) من نفوس البشر ارتكبت ذنباً أو اقترفت ألماً ، هي (بما كسبت) ، أي ارتكبت واقرتت من ذلك اللب والآثم (**رهينة**) ، أي مرهونة ومحبوسة يوم القيامة في مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، واكثر المفسرين على أن (رهينة) ليست مؤنث رهين بمعنى مرهون ، لأن رهين هذا يستوي فيه الذكر والمؤنث ، فلا حاجة الى أن يقال في تأنيده (رهينة) ، وإنما هي مصدر . يقال : رهننا رهينة كما يقال شتمته شتمنا وشتمية ، والمصدر يستوي فيسه الذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشيء المرهون وثيقة لشيء آخر ، فيقال : فلان رهن أو رهينة أو مرتهن بجريزته كما يقال مومسلم بها وميسل بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكك منها . فنفوس البشر يوم القيامة مصبورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفككة (**الاصحاب الميعين**) ، أي الا فريق السعداء . وقد مر ان أهل الميعين والميمنة عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق اصحاب المشامة والشمال على الاشتياق . فالسعداء هؤلاء فكرو رقايقهم وخلصوها كما يخلص الراهن رهنه بإداء ماليته من الحق ، وأصبحوا في منجاة من العذاب على توبتهم . لما لأنهم لم يقتربوا ذنبوا يستحقون معها العذاب ، بأن كانوا من الصديقين أو الأبرار ، وأما لأنهم اقتربوا من الذنوب مالم يبلغ بهم حد التعمد عليها ، بأن تابوا منها توبة نصوحا فغفرها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات ما أدى ثوابه على تلك الذنوب : كالاستشهاد في سبيل الله ونصرة الحق ، فكان ذلك كفارة لها .

هؤلاء يتممون (في جنات) : مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا تكبرها ، ويكون من شأنهم فيها أنهم (يتسألون) : يسأل بعضهم بعضاً (عن الجرمين) المدينين الذين يمهدونهم في دار الدنيا فذكروا الوحي ، وأمرشوا من الحق ، وارتكبوا من الآثام والمنسأكر ما استحقوا به العذاب .

وسأول اصحاب الميعين من المجرمين قد لا يكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء متقلبهم ، وإنما هو زيادة في تبييت أولئك المجرمين وتوبييخهم ، وإدخال الألم والحسرة في نفوسهم ، مد تذكرون أن أسباب النجاة كانت موفرة بين أيديهم في دار الدنيا فاهملوها وسبل الأعمال الصالحة كانت مهدة تحت مواقع أقدامهم فتكبروها . على أن في تسأول السعداء هذا السؤال ما يريدهم التداخا بنعيمهم ، وسيرة بما وفقوا من العمل الصالح في دار الدنيا فسعدوا ونجوا في العذاب .

فلذا تسألوا عن حال المجرمين كما وصفنا ، أجابهم بعض المسئولين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء المجرمين المسألين فيقولون لهم : كنا أشرفنا على المجرمين يوماً وسألناهم

الْمُسْكِينِ ① وَكَأَنَّهُمْ مَعَ الْخَائِبِينَ ② وَكَانَ كَذَبًا
يَوْمَ الدِّينِ ③ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ④ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ
الشَّافِعِينَ ⑤ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُبْرَحِينَ ⑥ كَانَتْهُمْ حُرَّةٌ
مُسْتَفْرَّةٌ ⑦ قُوتٌ مِنْ قُسُورِهِ ⑧ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ
مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى مِثْلًا مُفَرَّدَةً ⑨ كَلَّا بَلْ لَاحِقَافُونَ الْآخِرَةَ ⑩

وسلم في مكة بين أظهر المشركين إنما كان غرضه
أمريْن : (١) البات التوحيد والعبادته دون المعبودات
الأخرى (٢) البات البعث والحساب . وقول الجرمين
« ما كانوا من المصلين وانهم كانوا من الكافرين يوم
الدين » يلتمس سجع الفرسين المذكورين إذا فسرنا
الصلاة بالدين والعبادته .

وسمى يوم القيامة « يوم الدين » ، لأن فيه يقع
الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من
معاني كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة أي
الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهار والمجازي
والقاضي . قالوا : « وكان علي بن أبي طالب رضي الله
منه ديان هذه الأمة بعد نبينا » ، أي تغرد بمرية
القضاء والحق في فصل الخصومات بعده عليه
الصلاة والسلام .

ذكر المجرمون من خصائص الشعبة التي استحقوا
بها دخول سقر - أريم خصال : خصلتين متعلقان
بالمقاتلة وهما الشرفوا تآكل البعث ، وخصلتين متعلقان
بالإخلاق وهما البخل والخوض في الباطل .

وكان القوم في جاهليتهم يبلون أموالهم في السفه
والقتار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع
ولا يظفر له أثر في مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما
كفاية المساكين وسد جوعتهم وتخفيف ألم البؤس
عنهم . فهؤلاء المجرمون ما كانوا يعطون المساكين ،
وما كانوا ينفقون فيما بينهم على سد هذا الخلل ،
وملائكة ذلك الشر : أفنى البؤس والفقر الذي إذا نشأ
في قوم أسفد أخلاقهم ، وقطع روابطهم ، وضررهم
لشر من الأمراض الجسمية والاجتماعية والسياسية .
ومعضلة أوروبا اليوم إنما هي القوضونية ، ولم يولدوا
فيهم إلا استئثار حاتمهم وذوى الدعا فيهم بالأموال
الطائلة ، واحتجائهم من علمتهم وسؤد أمتهم . وأن
معظم اهتمام مقلاتهم في هذه الأيام في تسوية هذه
المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وإنما اقتصر المجرمون من أسير العناية بالمساكين
على ذكر عدم أطعامهم لأن القسوت أهم ما يحتاجون
إليه في قيام حياتهم ، وإلا فإن الإسلام يباري بؤسائهم ،

والرفق بهم ، وإبصال أي ضرب من ضرب الخير
إليهم ، وقد مر في سورة الحاقة شيء من هذا عند
قوله تعالى : (ولا يحض على طعام المسكين) .

أما الخصلة الأخلاقية الثانية التي اعترف المجرمون
بانهم كانوا اقترفوها في دنياهم فهي الخوض في الباطل ،
والاجتماع على القبيية والنجاسة ، والافساد في الأرض ،
وتدبير المكائد لأهل الحق ، وتآرث نذر القرن بينهم :
مما يؤدي إلى تسلط الأشرار ، وخسراب الديار ،
وسقوط جماعات البشر في مهاوى الشقاء والسوار .
فهم يعترفون بانهم ما كانوا يجتمعون في اندبيتهم
للمذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ، وإنما كانوا يجتمعون
للخوض فيما يضر ويعر ويسفد .

وأصل (الخوض) الذهاب في الماء ، ثم نقل إلى
الذهاب في الكلام والأخذ باطراف الحديث ، ثم قلب
على الاكثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث .
وقلما ذكر الخوض في القرآن إلا مراداً به هذا المعنى
وإن لم يذكر مفعوله . ومثله في ذلك « أسمعه » فأنهم
يردون أنه أسمعه ما بكره من القول وإن لم يذكروا
ذلك ، و « ذكره » فأنهم يردون به أحيانا أنه عابه
وتكلم في حقه بسوء وإن لم يذكروا ذلك أيضا . ومنه
قوله تعالى : (سمعنا نسي بذكرهم يقال له إبراهيم)
وكانوا سمعوه يعيب أصنامهم .

قال المجرمون : أننا ما زلنا في ديننا نشرك بالله ،
وتكذب بالعداء ، ونرتكب من مساويء الأخلاق أكثرها
وأبشعها ، كالقسوة على المساكين ، والانهمالك في
الباطيل (حتى أتانا اليقين) : الصلبان الحق الذي
نقاسيه اليوم ، أو الراد باليقين البوت الذي يوقن به
كل نفس ، وفيه إيماء إلى أنهم كانوا في غفلة عنه ،
وانهم لانهم كانوا في الباطل كانوا على شك منه .

ثم لما ألهم القوم حديثهم عقبه الوحي بأن هؤلاء
المجرمين المرتكبين ما ذكر من منكر الأعمال لا منتقد
ينقدهم من صلب سوط المذاب عليهم ، ولا وسيلة
في وسائل النجاة تحول بينهم وبين انقاذ العدل الأعلى
فيهم . فقال : (فما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .

و (الشفاعة) في المجرمين لدى الحكام : إما أن يكون
الحامل عليها الكففة عن ظلم أولئك الحكام ، وتخفيفهم
حدود العدل في حكمهم ، وإما أن يكون الحكم أصاب
مقتضاه من العدل غير أن المصعوم فيلبس في رأي
الشفاعة مزية تقتضي الرقق به ، والبغوص عنه . والأول
لا يتصور في جانب الألوية ، ولا يجوز أن يقال أنه
تعالى جار أو ظلم في الحكم على المجرمين ، وأن هؤلاء
الشفاعة يتوسطون في إزالة ذلك الظلم عنهم . أما
الثاني - وهو حقو الحاكم عن الجرم رحمة به وشفقة
عليه - فإن هذا ممكن الوقوع في جانب الألوية بعد أن
يأذن به سبحانه وتعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا
بإذنه) . ولكن هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا
بما ذكره الوحي لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم .
فليعلم إذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ،
ولا يعتمد على الشفاعة ، وإنما عليهم أن يعتمدوا على
التوبة والإنابة إلى الله ، فهي وحدها التي تنجيهم من
من المذاب .

وهذا لا يمنعنا أن نقول أنه ما أضر بمصالح المسلمين وأفسد حالهم ، وأضر عمراتهم ، وأضر مزاياهم عن العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجه ، وجعلهم يتسلحون فيما تسلحوا به : مما أصبح أمره متعللاً مبروراً ، وصلى أسلأت الألسنة والأقلام

مذكوراً وموصوفاً - شيء مثل سوء فهمهم الشغافات وتدخل أمصاهم بالمد والبركات ، ونفوذ سلطة الكرامات ، بل التعلل أحياناً في فهم الآيات البينات . فنقول قائلهم : « إذا قال لي ربى يوم القيامة : ما فكر بربك الكريم ؟ أقول له فربى كرمك بربك » - ذهب في فهم كلمات اللغة غير ملاهيا ، وحمل للكرم على معناه في لغتهم لا في لغة العرب ، ولا فان معنى الكرم في اللغة أن يبلغ المرء الكمال في الأخلاق والسياسات . وكرم الله كماله في صفاته القديمة التي منها العدل والحق وصدق الوعد وأطراد السنن والتواميس الأزلية أطراد أماله تقوم السموات والأرض ، ويتحقق ما في الوحي الإلهي من واجب وفرض بحيث يظهر أثر إرشاده وتعليمه في نفوس العالمين به ، والسالكين في طريقه . أما أن المراد بكرم الله الكرم الذي قد يكون في بعض الأمراء والسادات : تركب إليهم كل جنابة مخزية ، وتمارس بين ظهرائهم كل رذيلة بشعة مفسدة ، لم يفهم ذلك السيد من صاحبه فلا يهاج ، ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا إزعاج - فان هذا غير مراد بالآية ، وليس كرمه سبحانه وتعالى هذا النوع من الكرم . نعم أنه تعالى مطلق التصرف في خلقه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولكنه سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة أيضاً بأنه حكيم فيوم صادق الوعد والوعد لا يتأجل سنته ، ولا تتغير نوايسمه . ولا نقول هذا تعطيلاً لنطق النصوص الأخرى الدالة على شمول عقوه سبحانه من المذنبين ، وقبوله شفاعته بعض الشافعين ، وإنما نرى أن نقف إزاء هذه النصوص وقفة تحفظ ، فلا نؤمن إلا بما صرح ولبت منها ، ثم نقف إزاء هذا الصحيح الثابت وثقتنا أمام المتشابه تقرباً ، فنقول : أنه سبحانه وتعالى يقبل شفاعته نبياً صلى الله عليه وسلم وغيره من المقربين قبولاً يدل على علو مقامهم ، وعظيم منزلتهم عند ربهم ، ويلتزم مع حكمته تعالى وعدله ، وأطراد سنته ، وصدقه في وجبه : من حيث يؤدي اتباع هذا الوحي الصادق إلى قيام أمر الصالح ، وانتظام شمل الأمم ، واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ، واستتباب العدل والحق بينهم .

وأما إذا صدقنا كل ما ياتى وبروى بشأن الشفاعات في الجرمين والإيمى ، والتوسط في العفو والصفح عن المخيرين للمفسدين - فان الوحي السماوى الصادق يصف أن ذلك تأليه في نفوس المخاطبين ، كما وقع وشاهدنا أثره عينا في المسلمين . فانظر إليهم اليوم وقد اتهم اليقين ، هل قبلت منهم مغفرة ، أو نعمتهم شفاعته الشافعين ؟

قوله (فما لهم) الخ فترجع على قوله قبله (فما) تنغمهم شفاعته الشافعين) أى إذا كانت السنة الإلهية

في الجرمين المكذبين ماذكر من أوتاهتهم بما كسبوا من أعمالهم ، وعدم قبول شفاعته الشافعين فيهم - فما بهم يعرضون عن التذكرة يعنى من القرآن وآياته التى أنزلت لوعظهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف أعراسهم من القرآن وتسلطهم من استماعه ، ونفوذهم ممن يدعوهم إلى الانسحاق به ، فقال : هم من هذه الجبهة (كاتهم حمر) جمع حمار ، والمراد بها حمر الوحش ، فان العرب كثيراً ما يسمونها مثلاً في التفارو والشرود ، ولا سيما إذا نجم لها شاخص ، أو أراد أن يقتصها قاصص ، وقوله (مستغفرة) بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت الغفران من نفسها ، وتكلفتها تكلفاً ، فيكون ذلك أشد في عدوها ، وإبمد في تفارها . ومن قرأها يفزع الغاء أراد أنها قد نفرها منفر ، وحملها على المسو حائل . ثم ذكر السبب الذى دحماها إلى التفار فقال : (فرت من فسورة) . والشهور المتبادر من معنى (الفسورة) أنه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوت فساور . ويحتمل أن يكون المراد بالفسورة جماعة الرماة الذين يتتبعون حمر الوحش والوصول لاصيبتها وقتنها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى : (فسرت من فسورة) ، فقال : هو بالعربية « الأسد » ، وبالقرسية « شير » ، وبالنبطية « أربا » ، وبالبحشية « فسورة » ، فالفسورة على قوله مبرية وليست مبرية الألب .

ثم وصف الوحي من حال أولئك المكذبين ماهو أشد غربة من حالة أعراسهم من القرآن فقال : (بل يريد كل امرئ منهم) الخ كأنه يقول : دع منك ذكر أعراسهم وضيادتهم ونفادهم نقار المعاملات مما فيه خسرهم ومسادتهم وهلاكهم ، واستمع ماهو أصعب وأقرب : ذلك أنهم (يريد كل امرئ منهم) أى من أى من أولئك المرعفين (أن يؤتى صفحاً مشفرة) مكان القرآن . فليسه حالهم أن يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، ويفرون من صفحه ؛ إذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تنشر بين يديه ، ليؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاستراط في تصديقهم بالقرآن والنبي عليه السلام أقرب من أعراسهم عن سماع القرآن ، ومن لم عطف جملة (يريد كل امرئ منهم) على ما قبلها ببل التى تغيد الاضراب والانتقال إلى ماهو أهم وأجدر بالذكر ،

و (الصفح) : القرائيس التى تكتب وتتلواها أبدي الناس يقرؤونها وينظرون ما فيها . و (المشفرة) : المبسوطة المفتوحة تحت أبصارهم : يقال نشر الثوب ونحوه إذا بسطه ، ويقولون « صفح مشفرة » ، وملاء منشرة ، أى منشور ومبسوط . والملاء جمع ملأمة الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملأية .

واختلفوا في أولئك المرعفين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشأن الصفح المشفرة ، فبوى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : « ان أن

كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿١٥﴾ قَسَّ شَاءَ ذِكْرُهُ ﴿١٦﴾ وَمَا يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧﴾
إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿١٨﴾

نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب يكتب في السماء وينزل به الملك ساحة كتب فضا وحيًا منشورا لم يطر بعد ، عنوانه : من رب المالكين الى فلان بن فلان ، اتبع محمد بن عبد الله . . ويؤيد هذه الرواية آية (و لَوْ أَنَّ لِرَبِّكِ قُلُوبٌ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرَوْنَ) . وقيل أنهم قالوا له : « ان سرنا ان نتبعك فليصبح كل واحد منا فيرى عند رأسه صحيفة منشورة فيها ثابته من النار » ، يعني أنهم يريدون ان يؤثروا ببراءة من عذاب جهنم قبل ان يعملا العمل النجى منها . وهذا ذاب قصار النظر الذين يطلبون النهاية في البداية ، ويريدون بلوغ الغاية قبل تكلف المسار إليها . ولما كان فطهم . فلما دأبوا على مكابرتهم وفساد رأيهم زجرهم عنه بكلام ، فقال تعالى : (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) الخ .

(كَلَّا) ، أى ليرتدوا عن رأيهم القاسد في أمثال هذه الاقتراحات ولا يصبوا أن دعواهم ان يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحيها ، ان هم أوتوا الصحف المنشرة - تروج علينا ، فالأمر ليس كذلك ، (بَلْ) من قوم (لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) ، ولا يصدقون بالبعث والصلب ، ولا يؤمنون بداري النعيم والعذاب . وهذا هو الذى أقدمهم ، وجعلهم يعرضون عن التذكرة والانفاج بها . ولو أنهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، واقتناع ذلك من الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة الى الوجه الذى سبق أنما كان خداعا وتمويهًا وأضاعة وقت . ولشد ما نهام القرآن من اقتراح آيات وعجائب أمثال ذلك ، ويضعهم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الايمان بها ، وقال لهم : ان القرآن وما فيه من الهدى والحكمة والإرشاد هو الآية الساطعة ، والحجة القاطعة ، على صدق محمد ، وأنه مرسل من عند الله ، فلا ينبغي لما قل ان يطلب من الطبيب شهادة على صحة دعواه وحذفه في صناعة الطب من مثل انزال صحيفة من السماء ، او تفجير ينبوع من الأرض بغير ان يكون الطبيب أقام دليلا على دعواه ، ولينا على مهارته - شفاهه الأمراض ، وإبرأه ذوى الملل والمآل .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم في هداية الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والبر ، وبما فطرت عليه ذاته الشريفة من الاخلاق الفاضلة ، والسجايا العالية . . كل ذلك كان أكبر آية على صدق دعواه ، وأوضح معجزة على استقامة محجته . فما بال هؤلاء القوم . يقترحون عليه الايمان بالقرآن والمجالب ؟ أولا يظنون ان دورها ذهب منح إدبار الامم القديمة وقت ان كان السخر والشعوذة والطسكات والتماته ، واستخدام الجان ، وتبشير

الشیطان واخواجه من بدن الانسان - ركتا من اركان دياناتهم ، وشعبة من شجب شرانهم وتعاليمهم ؟ اما وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأطلقت العقول من قفل الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم لدخول في طور كرم من التشريع والهداية والتعليم - فان الوحي لم يعد بجيهم الى كل ما كانوا يفتخرون ويسالون ، بل كانوا اذا اقترحوا شيئا احالهم على القرآن وما فيه من الهداية العملية الجبرية في استصلاح نوع الانسان . على ان الوحي لو كان بجيهم الى اى اقتراح اقتروه - وهم من الصناد والمكابر على ما كانوا عليه - لاقترحوا امرا آخر وهكذا . ومن اجل ذلك رد الوحي عليهم اقتراحهم الصحف المنشرة ، فقال في أوائل سورة الانعام : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلْيُسِّمِهِ بِيَدَيْهِمْ لَقَالِ الْدِّينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ) .

زجرهم أولا بقوله (كَلَّا) من اقتراح امثال الصحف المنشرة ، وأشار في قوله بلى لا يخافون الآخرة الى انه لم تحلهم على اقتراح الصحف رغبتهم في التذكرة ، بل كان الصارف الحقيقى لهم منها علم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فزجرهم من كل امثالهم ومجموع مزاعمهم فقال (كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ) أى فليرتدوا عما هم عليه من الاستخفاف بأمر الآخرة ، وصدوم الحوف منها ، وإعراضهم عن التذكرة ، والتصديق بها ، وإدعاء انهم ان اجبوا الى مقترحهم ، وأعطوا الصحف المنشرة - أمنا ، ليرتدوا من ذلك جميعه . ثم بين سبب وجوب ارتداعهم مشيرا الى ان شان محمد والقرآن الى انهم به تقتل نفوسهم ، وارضى قلوبهم - فوق اوهامهم ، وفوق مايتصورون ، فقال : (إِنَّهُ تَذَكَّرٌ) ، أى ان ذلك الذى أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضهم على تصديقه ، وترك الاعراض عنه - ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الايمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتنبؤهم ان كذبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم . فالضمير في قوله (إِنَّهُ) يرجع الى ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم من الوحي والقرآن المقسوم بمعونة المقام . وكان سبق قصرا عنه بالتذكرة مد قال : (فما لهم من التذكرة معرضين) ، أى من القرآن والوحي . وقد سماه في هذه الآية تذكرة لا فيه من التذكير والإنذار والتحذير .

ثم عاد أخيرا بعد ما زجر المعرضين عن التذكرة زجرا عاما فاكد لهم أمر القرآن والوحي الذى اعرضوا عنه ، ملقيا له برة ثانية بأنه تذكرة وإرشاد البشر ، ليس له وصف سوى ذلك : فما هو سحر يؤتى ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنه ، ويتشابهون به ، ويرتابون في نصحه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه اجرا ، ولا فقههم عطفا أو منصبا يكون لاولاده من بعده ذخرا ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه عائده عليهم .

وفي ختمه السورة بقوله ان القرآن تذكرة وهدى لنهائيتها ببدايتها ، وتذكير بموضوعها الذى سبق في

ان يقول النبي لقومه : انظروا الى السماء ، فترون فيها مكتوبا باحرف من نور باقطع الكبير « فلانبي ، ودينه هو الحق ، فاقبلوه » لم يبق ذلك بادبا للبيان حقبة من الزمن . قالوا : هذا لا يمكن ان يقع ، لان الدعوة الى الايمان بهذه الصورة تصعب من قبيل الابحاث والاجيال ، ودعوة الامم التي جرت بها عادة الله تعتمد على التفويض والاختصار ، ولتتميز بذلك الأبرار من الفجار . و لو كتب في السماء باحرف من نور كما وصفنا لم يعد في وسع أحد من الناس مهما كان عنيدا ، أو سمجا بليدا ، ألا الاذعان والتصديق . فقلوه تعالى هنا : (وما يدكرون الا ان يشاء الله) بمسند قوله : (فمن شاء ذكره) الدال على معلق التفويض والتخير - لا ينبغي تفسيره بغير ما ذكرنا ومثله في سورة التكوين آية (وما تشاهدون الا ان يشاء الله) بعد قوله (ان هو الا ذكر العالين لمن شاء منكم ان يستقيم) .

فهو تعالى يقول : ان الاستقامة بامعشر البشر داخلة تحت مشيئتك فاستقيموا اذن . ثم قال موحيا لهم ، ناعيا عليهم سوء ملكتهم ، وفرط غلظتهم : (و لكن انتم) ماشاؤون (الاستقامة والباع الحق) (الا ان يشاء الله) ذلك منكم بالحق والاحبار ، وهذا لم تجر به عادته تعالى في الامم ، فالقول لكم ان لم تنظروا لانفسكم .

وان لم تقل في تفسير هاتين الآيتين ما قلنا وقعنا من ظاهر التناقض فيهما في جسدال لايتنهي مع المبطلين المشككين من حيث يفتح لهم بابا الى تعطيل الشرائع ، وتحويل امر الدين . على ان ما قلناه في معنى الآيتين لا يخرج عما عرف في تخاطب اهل اللغة ... تقول لانيك الذي تريد ان تسلك في تربيتك طريق الرفق واللين : « افعل يا بني ما امرتك به ، ولا حذر لك في المخالفة فانك بحمد الله مطيق لما كلفتك ، قادر عليه » ، فاذا خالفك ولم يعمل بمشورتك عنادا او لجاحاتهده فقل : « انا اعلم انك لانشاء ان تفعل ما اقول لك الا ان اشاء انا ان تفعله » ، ولست تريد في قولك هذا ان تسلب ابنك الاختيار والارادة بالرة ، وكما كل ما تريده تهديده من طرف خفي بان في طاعتك ان تكرهه ما اردت منه بواسطة الضرب المزعج ، والكم المتتابع مثلا . غير انك تريد بنفسك ، وبانيك المحبوب ان تقف ، مما هذا الوقف ، فترى صا به الرجوع عن غيه براجز من نفسه .

ومن هادة القرآن ان يأتي عقب التهديد بكلمات الترتيق والتريقب ، وهذا ما كان في الآية التي نفسرها ، فانها عقت بقوله تعالى : (هو) ، أي الله (اهل التقوى) ، أي اهل لان يتقى ويحذر عقابه ، فلماذا لاتتقونه ايها القوم ؟ (واهل الفقرة) ، أي واهل لان يشعروا ان اتقاهم واصبلع عليه ، فلماذا لاصطلحوا اعمالكم ، وتتركوا امراضكم ، وتووبوا الى ربكم ؟ هذا ما وجناه الان ان الاحكام في تفسير آيات الاضلال . ونسأل الله الا يجعل علينا تمة فيما قلنا او تقفنا . ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا .

فانفتحها ، وهو الانذار بالقرآن مد قال : (ياها المدثر قم فانظر) ، أي خوف قومك بالقرآن . فهو هنا يقول : ان ذلك الذي امرتك بالانذار به في أول السورة ليس سوى الذكر بالغة للقوم ، وارشاد وموعظة لهم . وهي امرى كافية في اصلاح امرهم اذا تدبروها واعظوا بها ، ولكن هل يرجى منهم الاعاظوا والادكار ؟ اجب من ذلك بقوله : (فمن شاء ذكره) أي فمن شاء وأحب منكم ايها المعرضون عن القرآن ، المتفادون من هديته - ذكره فلم ينسه ، ووضعه نصب حينه فلم يعرض عنه . فان القرآن جدير بالاقبال عليه ، خلق بالاستضاءة بنوره ، وكل واحد منكم ايها المعرضون يمكن بتمكين الله ان يختار طريق نجاهه وما به صلاح امره ، فليختر اذن ولا يقصر . لكنهم غلت عليهم الشقرة فلا يختارون الا الوبال ، ونفلت قلوبهم بالغفلة فلا يدركون الا الضلال . اما القرآن وما فيه من الخير والهدى فلم يعد في مكنتهم اختياره وادكاره وتوجيه نفوسهم اليه (الا ان يشاء الله) ذلك منهم بقرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته في شرائعه السماوية ووجه المنزل على انبيائه - ان يقصر الناس عليه قسرا ، او يسوقهم الى التصديق به جبرا . وانما هو تعالى يشرع لهم السبلين : سبيل الخير والشر ، ويرفع لهم التجدين : نجدي الهدى والضلال ، وينصب لهم المنارين : مكار الحق والباطل . وعليهم هم ان يختاروا لانفسهم : فمن شاء منهم ذكر ، وانفلت واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ، وكان هو الجاني للسوء . وهذا هو تفسير قوله تعالى : (وما يدكرون الا ان يشاء الله) .

وبهذا التفسير ان شاء الله يلتمس معنى الآية اشد الاتحام مع قوله قبله (فمن شاء ذكره) الدال على تخيير للمكدين ، وتبيينهم الى ما اودعه الله نفوسهم من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى : (فمن شاء) من اولئك المعرضين ان يذكر القرآن (ذكره) ، ويبقى منه على بال ، فينتفع به . (و) لكنهم لفرط غلظتهم ، ولسوء ملكتهم (ما يدكرون) ، أي ماشاؤون ان يذكره ذكر انتفاع واستفادة (الا ان يشاء الله) ذلك بقرهم عليه . وهذا لا يكون منه تعالى ، لكونه مخالفا لسنة الانبياء مع الامم . وانما سنه ان يبين لهم الامرين ، وينصب امام اعينهم الطريقين ، فاداسلكوا طريق الحق نجا ، واذا سلكوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال تعالى في آية اخرى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

اما فقره تعالى الامم ، واجبار لها على الايمان الذي قلنا انه لم تجر عادته به - فهو كان يبرز للبيان وسائل الهلاك واذاوت التعذيب ، لم يقال للمكدين : ان لم تؤمنوا فانتم هالكون بما ترون من هذا الملأب الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تات به الشرائع السماوية ، بل قال الملمساء : ان معجزات الانبياء والايات التي تظهر على ايديهم لاتعتمد دائرة التحذير والتخويف ، كما قال تعالى : (وما ترسل بالايات الا تخويفا) . قالوا : ولا يكون من المعجزات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ②
يَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لَّجَمْعَ عَظَمِهِ ③ بَلَىٰ قَلِيلٍ
عَلَىٰ أَنْ أَسْوَىٰ بِنَافِهِ ④ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ
أَمْرَهُ ⑤ يَسْعَىٰ أَيَّامَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ⑥ فَإِذَا يَبُقُ
الْبُهِرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ

افتتحت هذه السورة بتحقيق أمر البعث ، وإن
الناس لا يتوهم بهم سدى من دون حساب ، مؤكنا
ذلك بالقسم حسب عادته تعالى في الأقسام بما مظم
خطر من مخلوقاته . وقد أقسم هنا بيوم القيامة
على وقوع يوم القيامة . وفي ذلك تقرير له ، وتحقيق
الامر وجوده . وظاهره نفى القسم ، لكن المراد بهذا
النفى التوصل الى التأكيد ، وكأنه يقول : إن الامر
بين فلا احتاج الى ان أقسم عليه ، وهنا القول يؤكد
الخبر اشد تأكيد ، قال أبو مسلم : (لا) هنا لنفى
القسم ، كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وذلك
النفس ، ولكننى سألك بغير مقسم : انحسب أنا لانجمع
مظالمك اذا تفرقت بالوقت ؟ فإن كنت تحسب ذلك
فاعلم أنا قادرون على ان نفعل ذلك اه .

وقيل ان (لا) نافية محذوف ، وليست نافية
للقسم ، وان التقدير (لا) صالحة لا ترمون انه لا حساب
ولا عقاب . ثم استأنف فقال : (القسم بيوم القيامة)
و (بالنفس اللوامة) انكم ستبعثون . وهذا على عادة
العرب من زيادتهم (لا) قبل (أقسم) كأنهم ينفون
ما سوى القسم عليه فيفيد التأكيد . وقد مر في
سورة الحاقة زيادة إيضاح لذلك عند قوله تعالى :
(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) .

وجواب القسم هنا محذوف دل عليه قوله بعد :
(ايحسب الانسان الخ) ، والتقدير « لتبعثن
ولتحيسن » ثم ماذا فاستفهم على وجه الابتكار ان
يكون الله تعالى عاجزا عن خلق الانسان ثانية فقال :
(ايحسب الانسان الخ) .

وقد أقسم الله تعالى بالنفس اللوامة ثناء عليها وتوبيه
بشائنها . وقالوا : ان المراد بها النفس التى لا تزال تلوم
ذاتها وإن اجتهدت في الاحسان والعمل الصالح .
وقال الحسن البصري : « ان البار لا تراه الا لانسا
نفسه ، وإن العاجر يعضى قلما لا يماثل نفسه » ،
قلما : أى من دون ان يصير أو ينشئ . وقد ذكر
الوحي في سورة القجر أختا للنفس اللوامة ، وهى
النفس المطمئنة مذ قال تعالى : (يايتها النفس المطمئنة
ارجعى الى ربك راضية مرضية) . والنفس المطمئنة
هى الثابتة في عملها ، الموقنة بما وعد ربها . وهذه
النفس على فضلها وهلو منزلتها عند ربها مذ قال لها :
(ادخلى في عبادى وادخلى جنتى) - يوشك ان تكون
أختها - النفس اللوامة - أفضل منها ، وأعلى منزلة ،
لان اللوامة لا تستقر على حال من قلقها وخوفها ان
تكون قصرت فيما يجب عليها من بلوغ الكمال الدينى
والاخلاقى المطلوب منها .

فالله تعالى يقسم بالنفس التى هذه حالتها ،
الناصبة في طاعة ربها ، مرغبا في طريقتها ، وحاضيا
النفوس الأخرى ان تكون على مثل شاكلتها : فلا تبلغ
درجة من الكمال حتى تلغ الى الدرجة التى فوقها ،
ولا تمارس فضيلة أو تقوم بعمل صالح حتى تفرغ
الى آخر امثل منه . هذه النفس التى تحيا في الدنيا
مثل هذه الحياة لا يبعثها خالقها من فضلها ، ولا يمنها
مر عدله ، فهو سوف ينقلها الى دار كرامته ، ويقسمها
في كوتر رضاه ورحمته . ولولا ذلك لكائن نفوس
المجموعات والحشرات خيرا منها واحسن ماقبلة ،
ويكون الخالق اشد رحمة وعناية واحسانا بهذه
النفوس الهائلة ، من تلك العاملة أكاملة ، اذ انه تعالى
أراح المجموعات من غر الضجر والوجدان ، وخفف
منها عبء طلب الكمال الذى يؤتمن عليه الانسان .
تعالى الله ، وتنزه عدله ، وتقديست صفاته عن مثل
ذلك . وعلى هذا يكون القسم بالنفس اللوامة في صدر
تحقيق امر يوم القيامة - مما يشعر وينبأ الى ما ذكرناه
من الدليل العقلى عليه . وما أحسن ما قاله بعضهم
مستدلا على وجوب طاعة الله ولزوم عبادته :

هب البعث لم تأتينا رسلا
وجاحضة التسار لم نضرم
اليس من الواجب المستحق
ثنام العباد على النعم

وقوله : (ايحسب الانسان الخ) يريد مطلق انسان
من ذابه تكذيب الوحي ، وأنكار البعث ، وإن كانت
الآية واردة في معرض الرد على انسان خاص ، وهو
عذى بن ربيعة . وقصة ذلك أن عذيا هذا وختنه -
الخنس بن شريق - كانا جارين للنبي صلى الله عليه
وسلم ، وكان جوارعما يشن الجوار ، وكان صلى الله
عليه وسلم يقول فيهما : « اللهم اكفني جاري السوء » ،
فجلس عذى يوما الى رسول الله وطلب منه أن يعذله

شان من شؤنه أعجب ، وسريرة من سراره أغرب .
 كأنه يقول : لا أرى الجبل يبلغ بالإنسان إلى حد
 انكاره قدرتنا على جمع عقلمه ، ومحاسناته على سوء
 أعماله ، (بل يريد) ذلك الإنسان بهذا الإنكار الانطلاق
 من كل قيد ، والتخلت من كل سلطة ، لأجل أن يفجر
 (أممه) ويركب في غط الحق واقتراف الآكام رأسه ،
 ثم لا يتقلع من ذلك حتى يلاقي حملمه ، وتقوم عليه
 القيامة .

و (القصور) : اثبات المرء في الذنوب ، واتحرافه
 عن حدود الشرع وأوامره من دون أن يخامر شعور
 خوف أو خشية . وتعلق الطرف وهو (أممه) به
 يدل على أنه مضمّن ممسّي الدوام والتمسّدي
 والاسترسال كأنه يقول : يريد الإنسان في انكاره البعث
 أن يفجر مصرًا ومتماديا في طريقه الذي أمامه إلى آخر
 عمره . فهاتان الكلمتان (يفجر أمامه) في افادة معنى
 اللجاج والأصرار مشل قوله : « ركب رأسه » ،
 و « خلع ملابسه » . والمعنى أنه ممن في أسأله ، مصر
 على باطله لا يشيئه عنه شيء ، ولا يقضي فيه أحدا .

وهذا الفاجر المتعامي عن الحق ، التمسّدي في الضلالة ،
 كلما نصّح له ناصح بالكف والإرماء ، أو خوفه يخوف
 من عذاب الله ومحاسناته له على أعماله يوم القيامة -
 (يسأل) ناصحه أو مخوفه سؤال سخرية واستهزاء
 وعنت : (أيا ن يوم القيامة ؟) أي متى وقته ؟ وقريب
 هو أم بعيد ؟ هو يسأل الآن ، (فلماذا برق البصر)
 يقول ... أين الغر . ففى هذه الآيات وصف لبعض
 أحوال ذلك اليوم ببيان ما يكون فيه من شأن ذلك
 السائل المتكر .

ومعنى (برق البصر) زأغ وتحير حتى لا يظرف ،
 أو دهش فلم يعد يصير . وأصله أن يرى الشخص
 البرق الشديد اللمعان ، فيختطف بصره ويدهش فلا
 يعود يرى . ثم استعمل في كل حيرة ودهش يمرى
 البصر ولو لم يكن مسببا عن رؤية البرق . ومثله في
 ذلك (سحق الزجل) إذا وقع مفشيا عليه . وأصله
 أن يقع هذا به بسبب إصابة الصاقفة له ، ثم تم
 استعماله في كل شيء .

(وخسب القمر) : ذهب غوؤه وأظلم . وهذا
 يكون منه وقت أن يتأذن الله بخراب هذا الصالم ،
 وتغيير نظامه ، وتسخن أحكامه ، فلا تعود الأرض أرضا
 ولا السماء سما . وقد عبر الوحي عن هذا الارتكاس
 والاضطراب العام في العالم بقوله : (وفتحت السماء
 فكانت أبوابا) ، أي مفتحة الأجزاء ، مفرقة الأجزاء ،
 ويقول : (إذا السماء انشقت) أي تصلحت ، ووقع
 الاضطراب في نظامها العام ، فاختل تركيبها ، وفسد
 تكوينها ، ويقول : (وإذا النجوم انكثرت) ، أي
 تآثرت متقصة من كل جانب . يقال : انكثرت علينا
 القوم إذا جاءونا منتنابيين من كل صوب . ويقول :
 (وإذا الكواكب انتثرت) أي ساقطت متفرقة في كل
 ناحية . فلذا كان هذا شأن السماء بمجموعها .

عن يوم القيامة ، فذكر له شيئا من أمره ، فقال له
 عدى : « أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدقك
 يا محمد ، ولم أومن بك ولا به . يمكن أن يجمع الله
 النظام » فنزل الوحي في الرد عليه ، فاقسم أولايوم
 القيامة نفسه وبالفوس الناصبة في طاعة ربها إرادة
 النجاة في ذلك اليوم ، ثم قال : (أحسب الإنسان)
 عدى وأحزابه ممن حال الجبل بينهم وبين الاعتبار
 بشمول القدرة (أن لن نجعم عقلمه) ، أي أن يقع
 منا جمع عقلمه بمد موه وتفرقها . (بل) نجمعها .
 و (بل) تقع بعد لنفي فتشبهته . وفي (نجمعها) المقتر
 معنى القدرة ، فيكون قوله (قادرين على أن نسوي
 بنانه) حالا من فاعل (نجعم) مؤكلا القدرة التي
 تضمنها الجمع . كأنه يقول : نقدر على جمع عقلمهم
 قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه و (البنان) أطراف
 الأصابع ، والأصابع نفسها . وإراد بذكره (تسوية
 البنان) أنه تعالى قادر على جمع عقلمهم الإنسان ، وإعادة
 تركيب أعضائه كلها كما كانت أولا ، فيتمثل بشرًا
 سوا كاملا لا ينقصه شيء حتى أطراف أصابعه التي
 به أسفر أعضائه ، ومتنهي أطرافه ، وآخر ما يتم
 هي خلقه . فذكر تسوية البنان مثل في الكمال وعدم
 النقصان .

أو المعنى : أنه تعالى قادر على إعادة جسم الإنسان
 إلى سابق حاله بعد أن يكون قد مات واتحل تركيب
 أجزائه وفسد تكوين أعضائه ، حتى يطفا جميعا ،
 وأدقها تركيبا : وهي البنان . فهو تعالى قادر على
 إعادة خلق الإنسان باقيا هذا الحد من الكمال في تلك
 العادة .

فالمعنى الأول يرمي إلى إعادة الإنسان كمالا في
 الأعضاء وعذدها ، والثاني يرمي إلى أمادته كمالا في
 تكوينها واستجماع شرائط قيامها بوظائفها .

وقيل : أن المراد بالبنان الأصابع نفسها لا أطرافها ،
 وأن المراد بتسويتها جعلها مستوية قطعة واحدة ذات
 صفحة جامدة كخف البعير فلا تنتفع بها ، وهو
 تعالى لم يجعلها كذلك ، بل جعلها تفريق ذات أطوال
 متناسدة ، ومفاصل متحركة ، وأنامل ململمة ،
 وموابة تلمة فيما يطلب منها من الانضمام والانفراج ،
 والانقباض والانسباط ، بحيث كانت تمت الآلة
 للتناول ومزاولة الأعمال المختلفة . ولا كذلك البصر
 والجمار اللذان لا يقومان على استخدام الخف والخاصر
 في طرق الانتفاع المختلفة كما يفعل الإنسان بيده ،
 فيضطران إلى أن يتناول طعامهما وشرايبهما بهيما
 مباشرة .

ولعل المعنى الأول هو الأليق بإلقام ، لأن القصص
 اثبات أنه تعالى قادر على إعادة الإنسان خلقا سوا
 يوم القيامة ، لا اثبات أنه قادر على أن يخلق في دار
 الدنيا بأي صورة أرادها .

قوله (بل يريد الفخ) اضراب من شأن الإنسان
 الذي ويخيه عليه في الآبة السابقة ، وانتقال إلى ذكر

وَالْقَمَرُ ❶ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْقَمَرُ ❷
كَلَّا لَا وَزَرَ ❸ إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الَّتِي تَسْتَقَرُّ ❹
يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ❺ بَلِ
الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❻ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ❼
لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَفْعَلَ بِهِ ❽ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ ❾ فَإِذَا قَرَأْتَ قَائِمًا نَفْثَ قَرْنَاهُ ❿ ثُمَّ إِنَّ

والأجرام بأفرداها - فهل يعقل أن يبقى القمر نوره المهود أو يصفى ؟ وهل يتصور أن يبقى كل من القمر والشمس في فلكه ، وعلى هيأته وشكله ، أم يتغير ؟ أن التكدس النجوم وانتثار الكواكب ، أمر يعم أرجاء السماء كلها ، وفي جعلتها الشمس والقمر . نول إذا انتثر هذان الكوكبان ، وزايل مداريهما - وأحدهما وهو الشمس أكبر من الآخر وهو القمر بنحو خمس وستين مليون مرة - لا يجلب أكبرهما أحدهما إليه ؟ وإذا جذب إليه التقيما معا في حين واحد بالضرورة ، وهذا معنى قوله : (**وجمع الشمس والقمر**) . وفولنا أن الشمس تجلب إليها القمر بقوة الجذب العام افتتحت على التيب ، وألا فلا سبحانه وتعالى أعلم . بآية قوة يجتمعان ، وكيف يكون ذلك الاجتماع ، وعلى أي شكل يقع ، فإن ذلك مما لا يمكن القول فيه بالرأى ، فندع أمره إلى الله ، ونقتصر من الاعتقاد على ظاهر الآية : من أنهما يجتمعان اجتماعا يبقى معه الإنسان أنسلأا تام التركيب ، سليم الأضواء له بصير يترك ، ولسان ينطق . وفي ذلك الوقت الذي يترك فيه البصر ، وتقع الأحداث الأخرى (**يقول الإنسان يومئذ أين القمر ؟**) ، أي القرار المنجى من هذه الكارثة ، والمؤدى إلى الراحة والأمن . فيجاء حينئذ بما قاله الله (**كَلَّا !**) أي دعك الحال ، وطلب ما لا ينال ، إذ (**لا وزر**) ولا ملجأ تلجأ إليه ، ولا حوز يوصلك مما نزل بك من أمر الله .

و (**الوزر**) العقل ، والحسن ، والمعصم ، والمجاء يقال : « أنت مصنى ووزرى » ، وأصل معنى الوزر في اللغة الجبل . قالوا : كان الرجل يكونان في مائتيهما فلا يشعران بشيء حتى تأتيهما الخيل مفرة ، فيقول أحدهما لصاحبه : « يا فلان ! وزرك ! » أي عليك الجبل . الجبل ، وكانوا في الجاهلية إذا خشوا عدوا قالوا : « عليك الوزر » ، أي عليك الجبل التجوا إليه ، وامتصوا به . ثم شاع استعماله في كل حوز وحسن وملجأ يمنع ولو لم يكن جبلا .

وكان سائلا سائلا : إذا لم يكن للناس يومئذ وزر أو ملجأ يلجأون إليه ، فهل يكون فوضى مشتتين أم يصبح لهم مقر يستقرون فيه ، ومنتهى ينتهى حالهم إليه ؟ قلنا قال : (**إلى ربك**) ، لا إلى غيره سبحانه وتعالى (**يومئذ**) يوم وقوع ما ذكر من الأحداث والكوارث (**الاستقرار**) أي الاستقرار والسكون والالتجاء . فله يومئذ الأمر ، وإليه الحكم ، وبه الرجاء ، ومنه ينتظر اكتشاف الأرواح .

قوله : (**ينبأ الإنسان الخ**) استئناف لبيان ما يقابل به الإنسان بعد أن يصير أمره إلى ربه . قال انه يومئذ يكشف له القضاء عن أعماله ، فيخير بها كلها : بالذي قدمه منها وكسبه بالفعل من خير وشر ، وبالذي أخره ، فلم يعمل ، بل نوى فعله من خير أو شر . إلى هذا الحد من الأنباء والإطلاع يكشف الأمر للإنسان ، فهو لا ينكشف له ما فعل فقط بل ما لم يفعل أيضا . وهذا هو معنى قوله : (**بما قدم وأخر**) .

ويحتمل أن يكون المراد بالذي قدمه من الأعمال الصالحة ، وبالذي أخره ما لم يفعله منها ، وإنما سوف فيه كسلا وإهمالا .

أو المعنى : بما قدم بين يديه إلى الآخرة من خير وشر ، وبما أخر بعد موته فتركه في دنياه ينسج الناس على منواله بعده : من بدعة حسنة أو سيئة ، وسعة طيبة أو قبيحة . كما قال تعالى في آية أخرى (**وتكتب ما قمتموا وألهمهم**) ، أي تكتب أيضا ما أخره من آثار أعمالهم الباقية في الميزان بعد مماتهم ، كما تكتب ما قدموه في حياتهم .

ثم اضرب عن ذكر هذا النوع من انبئ الإنسان بأعماله ، وارتدق إلى نوع منه أتم وأكمل ، فقال : (**بل الإنسان على نفسه بصيرة**) ، والمراد : (**بالبصيرة**) هنا الحجة والشاهد يشهد بأبليت أمر . يقال : جوارحه بصيرة عليه ، أي شاهد وحجة عليه . ومنه « اخلصني بصيرة عليهم » ، أي شاهد أو قريبا . وقال تعالى في سورة يوسف : (**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**) ، أي أدعو إليه تعالى حالة كونى على حجة وبينة ودليل قاطع .

ومعنى الآية أن الإنسان ينبأ يوم القيامة بأعماله على أنه هو نفسه فحجة شاهدة على نفسه وسواه أعمالها ، وقبح آثارها في دنياها ، فلا حاجة في ذلك اليوم إلى ثبت آخر غيرها .

وهذه الآية بمعناها هذا تتفق مع آية الإسراء (**كفى بنفسك اليوم عليك حسيبي**) : من حيث أن الإنسان يوم القيامة تعامل عنه غشاوات الزهيم والالتباس ، فتنتجى له الحقائق كما يتجلى البدر لميون الناس : يتجلى له ذلك ويذكره ويقتنع به في سره (**ولو ألقى معاذيره**) ، أي ولو حمله الجبل وفرط الاستحياء على الجبل من نفسه بالباطل ، والأدلاء ببعض الأعداء الكاذبة لها ، فإن الأمر مع هذا يبقى واضحا له ، وشهادة نفسه عليه أحق بالقبول من هذه المعاذير .

و المتبادر أن يكون المراد بالماذير الأعداء ؛ لكن الأعداء وأحدها عدو والمعدرة جمعها معادر (١) الماذير ، ومن ثم قال بعضهم : (أن الماذاير) اسم جمع لمعدرة لا جمع لها . أما الضحك والسدى القديا إلى أن الماذاير في الآية جمع معسدار ، وهو الستار (٢) ، كانه يقول أن الإنسان باعته واقتلعه يومئذ يصعب حجة على نفسه ولو اتقى عليها مستورا كثيفة من الحجج والأعداء ، فانه لا شيء من تلك الستور يمكن أن يحول بين الإنسان وبين ظهور آثار الاقتناع والأفعلن عليه يوم القيامة .

ذهب القفال إلى أن الكلام في هذه الآية (لا تحرك به لسانك لتعجل به) متصل بالحدث المسوق في الآيات قبلها ، وأن الخطاب فيها لذلك الجاهد الذي ينجس أمامه ، وإذا خوفه مخوف يوم القيامة أجابه مستهزئا مساحرا : (أبان يوم القيامة) ، حتى إذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفرا إلا إلى الله ، ونبيه بنا قدم وآخر . وقد علم من آيات أخرى أن الإنسان يعطى يوم القيامة صحيفة عمله ، ويقال له : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فإذا اخذ في قراءتها لتلجج وتكلف الإسراع في القراءة ، لينجو من هذا الموقف المخزى ، فيقال له : (لا تحرك به) أي بمملك وتلاوته (لسانك) مربدا للنفس والتخلص منه بهذه الصلة . فانه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجتمع معك ، ونقرأه عليك ، (فإذا قرأناه فاتبع قرأته) بالافرار والاعتراف (ثم إن علينا بيانه) بيان امره ، وشرح مراتب عقوبته .

فقمي (به) وما بعده من سائر الضمائر ترجع إلى عمل الإنسان المسطور في صحيفته المعهودة . وقوله تعالى بعد : (كلا بل تحبون الماجة) الخ خطاب لذلك الإنسان وأغرابه ، ودفع لهم عما هم فيه من حب الماجة الفانية ، وبذلك يبقى الحديث واحدا ، والسياق متصلا .

هذا قول القفال . ولكن المشهور بين المفسرين أن الخطاب في قوله تعالى (لا تحرك) للذي صلى الله عليه وسلم ، والضمير في (به) والضمائر الأخرى ترجع جميعها إلى القرآن . فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يصعب عليه حفظ آيات القرآن وجبريل يلقها عليه ، فكان يحرك لسانه وشفتيه بتلاوة آيات قبل أن يفرغ جبريل مخافة أن تنفلت منه ، وينسأها حين التبليغ ، فنهى عن ذلك في سورة طه مد قيل له : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك أهلك وحيه) ، كما نهى في هذه السورة أيضا فقيل له :

(١) على أن بعضهم يجوز اشباع كسرة الدال في معادر واشباعه لضرورة وهي : ضرورة ، ولعل الذي حسن الاشباع هنا اودة الزاوجة بكلمة (بصيرة) .

(٢) بقلة اليمين ، وسر بعضهم الماذاير بالحجج كانه جمع معادر أو معادر بمعنى الحجج ، لكن هذا الفرد لا يستعمل ، فيكون معاذير من الجمع التي لا تفرق لها كالتلاوي وأغواها .

(لا تحرك به لسانك) أي بالقرآن والوحي الذي يلقه عليك جبريل (لتعجل به) أي لأجل أن تعجل بأخذه وتلقفه منه . ثم علل نهيهم عن التحريك بقوله (أن عينا) كما وعدناك ولما اقتضته حكمتنا (جمعه) في صدرك حتى نثبت فيه . (و) أن علينا أيضا (قرآنه) أي قرآنه ، وهذا هو معنى القرآن : مصدر قرأ قراءة وقرآنا ، ثم قلب القرآن على كلام الله المودع بين دفتي المصحف . ومعنى أن علينا قرآنه : أن علينا أن نوثق قراءته ودراسته بلسانك ، فتحفظه عن ظهر قلب ثم لا تنساه . ويحتمل أن يكون (قرآنه) بمعنى جمعه ، فان (قرآن) أيضا مصدر قرأ الشيء جمعه وضم بعض أطرافه إلى بعض ، (فقرآنه) إذن معطوف على (جمعه) معطف تفسير ، كانه يقول : أن علينا جمعه وتلايف أجزائه بعضها بعض .

(فلما قرآنه) عليك بواسطة جبريل فاستصنت حتى يفرغ ، وإذا فرغ (فاتبع قرآنه) ، أي تتبع في نفسك قراءة جبريل مصفيا ، وكن على ثقة من وعدنا لك بانك تحفظه وبرسخ في قلبك ، ولا تجعل قراءتك مقارنة لقراءة جبريل . فكان صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم إذا اتقى جبريل عليه الوحي اطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه أي نفسه كما علمه ربه ، فيجسده محفوظا منقوشا على لوح قلبه الشريف . وكما كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن وجبريل يلقه حرصا على استظهار الالفاظ . كان أيضا يتف في خلال القاموجبريل القرآن عليه وقفة التمسك المستفسر حرصا على فهم المعاني . فنهاه ربه عن ذلك أيضا ، ووعده بأنه بين له ما أشكل عليه بعد أن يحفظ الآيات ، وتروخ الفاظها في نفسه . وهذا معنى قوله : (ثم إن علينا بيانه) ، أي تفسيره وإيضاحه والكشف من معانيه .

هذا ما عليه جمهور المفسرين في معنى الآيات ؛ لكن يبقى اشكال في وجه ارتباطها بما قبلها ، وكيف صبح الانتقال من خبر المكليين يوم القيامة ، وأنهم سيثابون فيه بأعمالهم كلها - إلى نهيهم صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه بالقرآن تعجلا يحفظه واستظهاره ، ثم الرجوع إلى الحديث مع المكليين بقوله : (كلا بل تحبون الماجة) ؟

وأحسن ما قيل في الجواب أن الآيات السابقة كانت هي نفسها السبب في نزول هذه الآية ، أي آية نهيهم صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه . فبينما كان جبريل يلقى عليه هذه السورة من أولها : (لا أقسم بيوم القيامة) آية فانية ، كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجلا إلى الاستظهار والحفظ ، واقتنه فأوحى إليه ربه آية : (لا تحرك به لسانك) ، واقتنه إياها جبريل فحصة طرية في فحسون تلقينه الآيات التي حرك بها لسانه ، ليكون ذلك آدمي إلى رسوخ مضمون آية النهي في نفسه ، وتادبه بأدبها . ومثلوا لذلك بالمثل يلقى على تلميذه مسائل من القرآن والتعليق يكتبها في صحيفة له ، ثم عثر على هذه

وقت مجيئها بعد ، فلدنوها وهملونها ، معرضين عن الأعمال الصالحة المؤدية إليها - كل ذلك يفتنى فطرهم وطباعكم التي غرز فيها العجل .

وانت يا محمد من حرصك على الآيات الأمرة بالقضائل والكمالات - تمجّل بتحريك لسانك بها ، وتتنى ما وعده ربك . من أن الآخرة لك ، ولا تكون لك إلا بإتمام توفيقك الى حفظ القرآن ، واستظهار آياته كلها من دون نقصان .

فكلا الفريقين خلق من عجل ، لكن عجل المكذبين في الشر والعمل السيئ ، والحرص المموم ، وعجله عليه الصلاة والسلام في الخير والعمل الصالح والحرص المحمود . ومع هذا فقد نهى صلى الله عليه وسلم عنه ، ونهى الى وجوب الثقة بالآخرة المحققة له .

وما ذكرناه من معنى الآية في خطاب المكذبين إنما يفهم منها بنص العبارة ، أما ما خطب به صلى الله عليه وسلم فيها ، فإنه يفهم بطريق التعريض والإشارة .

ولما ذكر تعالى أن البشر يؤثرون الدنيا والدالها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية - وصف ما يكون في تلك النشأة الآخرة من انقسام الناس الى فريقين : الأبرار وفجار ، وقال أنه يكون للأولين (وجوه يومئذ ناضرة) خسنة جميلة من ظهور آثار النعيم وبشاشة السرور عليها ، كما قال تعالى : (أن الأبرار لفي نعيم على الأبرار يفتخرون . تصرف في وجوههم نفرة النعيم) ، أي روثته وبريقه وحسنه وبشافته . وقال : نضره الشعر والوجه واللون اذا نهم وحسن . ونضره الله (مخففة ومشددة) كأنشره : جعله ناضرا ناعما حسنا . وفي الحديث : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها » .

ثم وصف تلك الوجوه بوصف آخر وراء النفرة والحسن فقال : (الى ربها ناظرة) . وقد اختلف المسلمون في تفسير هذه الآية اختلافا مبنيا على اختلاف آخر بينهم ، وهو : هل يرى الله يوم القيامة بحاسة البصر ؟ فريق منهم - وهم أهل السنة - قالوا : أنه يرى بالفعل بحاسة البصر ، ولا مانع يمنع من هذه الرؤية ، ولا تستلزم هذه الرؤية أن يكون البصر تعالى جسما يشغل حيزا من الفراغ . فلا قادر على أن يرثا ذاته من دون أن يكون في حيز ، ومن دون أن يكون على بعد محصور منها ، ومن دون أن يكون متناظرا نور يمكنه من أن يبصارنا ، وغير ذلك من الشروط التي تتوقف عليها رؤية المحسوسات في دار الدنيا عادة . على أن الرؤية ستكون في الآخرة ، والآخرة سنن ونواميس خاصة بها ، وبموجبها يرى الله كفاها (1) ويكون لنا من وراء هذه الرؤية من البهجة والغبطة والمسرّة ما لا يحاكيه شيء من ملذذات الآخرة وغروب النعيم فيها .

(1) عيانا ومشاهدة

عَلَيْنَا يَسَائِرُ ﴿١٠﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١١﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿١٣﴾ لِّكَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿١٤﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَِاِمِرَّةٍ ﴿١٥﴾ تَقْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿١٦﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقُرَاقِي ﴿١٧﴾

الصحيفة بعد ذلك فوجد في غشون مسائلها العلمية هذه الجملة « لا تلتفت بيننا ولا شمالا » ، فیتعجب المتعجب من وجود هذه الجملة محصورة بين مسالتين من العلم قريبتين منها ، حتى اذا عرف السبب ، وأن التعليل كان في أثناء الاقراء تلتفت بيننا وشمالا ، فنهاه استأذنه بهذا القول المشت في الصحيفة بطل الصجب . وله ورسوله وحججه المثل الأعلى . . . هل أن هذا المثل ان كان المفسرون مروضه فرضا فان في كتب المحدثين مثلا له وقع بالفعل : ذلك أن بعض علماء الحديث كان يحدث الناس ، فدخل عليه رجل صالح كثير التمجيد ، فلما وقع نظره عليه استعرد قائلا : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار » ، ثم رجع الى مكان في صدره من الأحاديث ، فظن بعض من كان يكتب منه أن قوله « من كثرت النج » حديث ، فرواه منه . وروى الإمام مسلم في صحيحه في باب أوقات الصلوات الشمس حديثا جاء بين أحاديث الباب غريبا منها : لا علاقة له بها ، وهو قوله : « حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، أخبرنا عبد الله ابن يحيى بن أبي . كثير قال سمعت ابن يقول : لا يستطيع العلم براحه الجسم » اهـ . ولا بد من مناسبة هرفت لأمام مسلم وهو يحدث حلفته على الاستطراد الى هذا الحديث .

ثم بعد أن أتم الوحي تعليمه صلى الله عليه وسلم كيف يفعل حين القاء القرآن عليه ، وأراد العود الى الحديث مع المخاطبين - خاطبهم بكلام فيه ما كان غالب عليه النبي عليه السلام من أحله ونهاه من فعله - فقال : (كلا) ، أي ازلعوا أيها البشر عما أنتم عليه من البطة في شئونكم وحب التسرع في الوصول الى افراضكم وهذا خلق عالم شامل لجميع افرادكم ، حتى من كان منكم في أعلى درجات الكمال ، وأعظم مراتب الصنعة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يخل من محلة في بعض حالاته .

أنتم أيها البشر المكذبون لم تكذبوا بالوحي إيتلاوا للحق كما تزعمون ، (بل) من فرط محبتكم ، أنتم قوم (تحبون العاجلة) ، أي الدنيا الفانية التي بين أيديكم ، وتؤثرون ملذاتها ، (وتذرون الآخرة) التي لم يحسن

وقد استدل هذا الفريق على مذهبهم بهذه الآية ، وبأحاديث صريحة في حصولها للمؤمنين يوم القيامة ، حتى أن بعض هذه الأحاديث رواه أكثر من عشرين صحابيا .

قالوا : وأما قوله تعالى : (لا تتركه الأبصار) وهو يدرك الأبصار) فمعناه أن الأبصار لا تتركه تعالى أدراكه أحاطة واكتناه . فاتفقوا منصب على الإدراك لا على أصل الرؤية ، فهو لم يقل أنه لا يبصر ، وإنما قال : لا يدركه البصر . وفرق بين قولك : « ما أبصره » ، وقولك : « ما أدركه بصري » : إذ أن الأول يفيد نفى الإبصار البتة ، والثاني يفيد نفى أن يكون البصر أدرك البصر . فالبصر يبصره تعالى يوم القيامة ، والنفس تتلذذ برؤيته ، غير أن البصر لا يدركه أدراكه كنه وأحاطة .

وقال فريق آخر من المسلمين ، وهم الذين يسمون معتزلة : أنه تعالى لا يرى ولا يمكن أن يرى ، واستدلوا مقالا بأن الرؤية شروطا إذا توفرت كان المرئي جسما ذا حيز البتة ، وهذا لا يجوز في حق اللات القديمة ، ونقل بأنه (لا يدركه الأبصار) ، وقالوا في آية (التي ربهنا نظارة) : أن النظر كما جاء في لغة العرب بمعنى الرؤية والشاهدة بالحاسة ، جاء بمعنى انتظار الشيء وتوقع حصوله ، وهذا المعنى كثير في كلام العرب ، ومنه قوله تعالى : (أنظرونا نقتبس من نورك) ، وقول : « أنا ناطر إلى فلان ما يصنع بي » تريد أنك تنتظر وتتوقع منه حسن التصنيع في حقل . وفي حديث أنس « نظرنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان ينظر الليل » وسمعت « سوية » - وهي امرأة كانت تستجدي بمكة وقت الظهور حين يطلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مساكنهم - تقول : « مبيتني نوبطرة إلى الله واليكم » ، أي منتظرة معروفكم .

فمعنى كون الوجوه (التي ربهنا نظارة) : أنها منتظرة (١) ومنتومة وواجبة النعمة والكرامة منه تعالى وحده ، غير طامحة ولا متوجهة النفس إلى غيره . وأولوا حديث الرؤية بأن تعلق العلم بذاته تعالى يكون يوم القيامة تعلقا تاما ، واكتشافه اكتشافا لا ليس فيه .

والسلف أنفسهم اختلفوا في تفسير هذه الآية ، بل اختلفوا في أصل الرؤية الإلهية أيضا . فقال الحسن البصري : (وجوه يومئذ ناضرة) أي حسنة (إلى

(١) وقد ذكره في أن يكون النظر هنا بمعنى الانتظار قال : لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته ، وإنما تقول نظرت فلانا (أي من دين صرف جر) ، بمعنى انتظرته . واستدل بغيره لفظية ، لم تقل : ولذا قلت نظرت إليه لم يتم إلا بالعين المجردة إذ ناع ، لكن النواهد الأخرى التي نقلها الرضخري ثبت أن النظر بمعنى الانتظار يصح بالي أيضا . ومنها قول الشاعر العربي :
والبحر دولة دوني نعماء
ولذا نظرت إليك من ملك

ربهنا نظارة) أي تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق اهـ .

وقال مجاهد : (التي ربهنا نظارة) أي تنتظر الثواب من ربه ، لا يراه من خلقه شيء اهـ .

وقال منصور بن العتير : كان أناس يتكلمون في حديث « فيرون ربهم » ، فقلت لمجاهد : أن أتأسا يقولون أنه يرى . قال : « يرى ولا يراه شيء » .

هذا ولو كان لمثل مقال في هذا المجال لفضلت السكوت من هذه المسألة وأمانها مما اختلفت فيه ظواهر النصوص ، ولم يلزم منه مس جانب الألوهة ، ولا ينشأ عنه ضرر في الدين ، ولا تعطيل في مصالح البشر . ولو قال المستزلي لربه يوم القيامة : التي يا رب لم أتف الرؤية إلا تمجيذا لذلك ، وتزبيها لها عن مسألة الحوادث ، وقال السنني : التي يا رب لا اعتقد أن الرؤية لمس مقام الوهتك ، ولم أثبتا واعتقدنا الظلمة في القرب منك وتلذذا برؤية وجهك . . . لو قال كل منهما ذلك - ما كان الله إلا راضيا عنهما ، ومسيلا ذليل غفوه عليهما ، وساخطا من حصول التفرقة في دار الدنيا بينهما .

وباليت المسلمين اضرروا في صغرهم الأول من الاختلاف في أمثال هذه المسألة : ما كان الخلاف فيه لفظيا أو فلسفيا ، أو لا تكون له نتيجة عملية ، أو لا ينقص أصلا من أصول الدين . وباليتميز لم اختلفوا لم يؤولوا ، ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة . وهذا فرأيتهم يهتف من فوق رؤوسهم : (أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) ، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يقول : « اقروا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا منه » : أي إذا شمرتم بأن النظر في الآيات ، وتقليب وجوه الاحتمال في معانيها - يؤثر في رابطتكم الدينية . . . فدعوا النظر بالكلية ، خشية التفرقة .

ولعمري أن إصراف المسلمين منذ قرون من العلم التام ، وأعراضهم عن النظر فيما يهدب أحلافهم ، ويرقى اجتماعهم ، ويشد عرا الإحاء بهم - هو الذي جعلهم يؤولون في مسأله الرؤية وأمانها ، ويفرون للخواص والنزاع فيها . وبذلك تقلص ظل العلم من ديارهم ، وقام مقامه الجدل في مجالسهم وأسفارهم ، حتى أوشكوا أن ينطقن عليهم حديث « ما سئل قزم بعد هدى كانوا عليه إلا أوبوا الجدل وجرموا العمل » .

قلنا أن فريق السعداء الأبرار تكون وجوههم يوم القيامة ناضرة بنضرة البهجة والقبضة والسرور ، وأنهم ينظرون إلى ربهم فيرون من ذاته ، ويحلمهم من مثقال كرامته - ما تقر به أعينهم ، ويطيب معه كمشيهم . أما فريق الفجار فأمرهم إلى العكس ، وهذا ما قاله الكتاب فيهم : (ووجوه يومئذ باسرة) :

أماوى منا يقنى الثراء من الفتى

إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر

و (الترافى) : جمع ترقوة . والترقوتان : عظمتان تمتدان يميناً وشمالاً من نقرة النحر الى العائق . ويبلغ الروح الترافى : كناية عن مشاسرة الموت ، وظهور املائه . وأهل الحضرة اذ ذاك يتجلدون عادة ، ويتداون على الصبر على امل مداركة الامر ، فيقول بعضهم لبعض حول فراش مريضهم : من طبيب حاذق تزونه اصلىح من فلان الذى يطببه ، فان طبيبه لم يهتد الى دأله ، ولعل فى الثانى فرجاً فيوفى الى شفائه ؟ وهذا معنى قوله تعالى : (وقيل لمن راقى ؟) .

و (الراقى) : اسم فاعل كقاضى ، رقا به رقيه اذا أجرى له عملية الرقية : وهى ان يعوذ المريض بكلمات سحرية او دينية ، ثم ينفث فى وجهه او ينفث فى يدى نفسه ، ويمرهما على جسم المريض او فى العوداة التى يكون قد كتبها وبرك عليها . ويحتمل ان يكون المسراد بالراقى هو هذا المعنى ، غير اننا نفسره بالطبيب ، لان الأمم القديمة وهرب الجاهلية منهم كان يمارس الشخص الواحد فيهم الطب والكهانة والأعمال الدينية معاً ، ويكون هذا الشخص كاهناً وطبيباً ورئيس دين فى آن واحد . وقد كان من جلة ومسائل الطب القديم ممارسة الرقية للمريض . فالطبيب الذى يعود ان شاء وصف له أدوية وعقاقير ، وإن شاء رقاها ، وإن شاء تكهن لهم من مصره . حتى اذا حضتر أجرى له المراسم الدينية حسب معتقداتهم .

وما زال هذا شأن الطبابة والكهانة والدين فى الأمم القديمة حتى توزعت تلك الوظائف فى الأئمة المتأخرة ، وقام كل بواحدة منها . ولا يبعد ان يكون عرب الجاهلية قد سمنوا الطبيب وأقيا لذلك ، خالت الختاس :

لكن سهام المنساب من يصين له

لم يشفه طب ذى طب ولا راقى

قوله : (والرقى) ، أى المحتضر ، والمراد بالرقى فلة الراى ، ويحتمل ان يكون المراد به اليقين (آله) ، أى ان الشأن والامر الذى نزل به هو (الفراق) : فراق الأهل والولد والدينا المحبوبة .

وقوله : (والتفت الساقى بالساقى) أراد به وصف نهاية الشدة التى نزلت بالحقض بعد ان بلغت روحه تراقبه . والعرب تذكر الساقى فى أمثال مختلفة وتريد بها كلها اشتداد الأمر ، والتحرر له ، فيقولون : « كشف الأمر من ساقه » ، و « قامت الحرب على ساقى » ، و « قام فلان على ساقى » ، و « قرع فلان للأمر ساقه » ، كما يقولون « ساق المريض نفسه » عند الموت ، و « سيق المريض » بالبناء للمجهول اذا شرع فى نزع الروح ، فقوله تعالى : (والتفت الساقى

ويجبل من راقى) (١٧) وَلَمْ يَأْتِ الْفِرَاقُ (١٨) وَالتفت

الساقى بالساقى (١٩) لَمْ يَكْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ (٢٠)

فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٢١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٢٢)

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَطِلُ (٢٣) أَوَّلَ لَكْ فَأَوَّلَ (٢٤)

ثُمَّ أَوَّلَ لَكْ فَأَوَّلَ (٢٥) أَحْسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ (٢٦)

شديدة الكلوج والمبوس . وكان قتالا يقول : ولماذا كان حالها هكذا يا رب ؟ فاجاب : (تظن ان يفعل بها فاقرة) ، أى انها عيسيت كل هذا الجبوس لما تعلم من سوء اعمالها ، وفتح أثرها فى دار الدنيا ، فهى يوم القيامة (تظن) ، أى تتوقع وينفب على رايها (ان يفعل) وينزل (بها فاقرة) : داهية عظمية تقصم فقر ظهرها . ومن كسر فقر ظهره هلك . فالفاقرة الداهية : سميت بذلك لما ذكرنا ، وجمعها فواقر . ويقولون « عمل به الفاقرة » أى الداهية التى كسرت فقره . فتقوله تعالى : (يفعل بها فاقرة) نحا به هذا النحو من الاستعمال . والضمير فى (تظن) يرجع الى الوجوه ، والمراد اصحابها . كما ان المراد بالظن التوقع والرجحان وغلبة الراى ، اذ مادام القوم لم يقدف بهم فى المحيم بعد ، فهم يتوقعون الصفو منهم ، ويؤمنون الرقى بهم . ومنهم من نسر الظن هنا بالاعتقاد واليقين فقال : ان لك الوجوه توفى بنزول الفاقرة بها لما كسبت من خطيئتها ، واقتربت من سيئتها . والظن يكون بمعنى الاستيقان ، ومنه قوله تعالى : (وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه) .

ودعهم أولاً فى قوله : (كلا بل تحبون الماجة الخ) من حب الدنيا ويأثرها من الآخرة . ووصف ما يكون لفرقتى الأبرار والفجار فيها . لم عاد لتايا فردهم معاً ودعهم منه أولاً من الحب والايثار ، ووصف لهم ما يلاقونه لحين الموت من الياس والشدة ، مشيراً لهم فى ذلك الى ان الآخرة ، ان استغفرتنموها او استغفرتنموها ، فان الموت يلهها ، وهو من أولى مقدمتها ، فقال :

(كلا) ، أى ازلتموا ايضاً عن إشار الدنيا على الآخرة ، واذكروا ما ينزل بكم من فادح أهول (اذا بلغت التراقي) . والضمير فى (بلغت) يرجع الى الروح وإن لم يجر لها ذكر لدلالة السياق عليها . ومثل هذا الاضمار معهود فى كلامهم . قال حاتم :

ببستان ، سبيح من بسند ، أمر على أبيه وأهله ،
فالتفت في ساحتهم آخر خطوب الدنيا بأول خطوب
الأخرة ، فكانه جعل الدنيا والأخرة أو خطوبهما
سباقا تلف وتزدهج . وقال بعض المفسرين : المراد
بالسائقين في الآية ساقا المحتضر ، وأنه عند نزول
الروح يضمهما ويلوي أحدهما على الأخرى ، وهذا
هو التضافعهما ، أو المعنى اتهمتا يلتفان في الكفن
مشدودتين فلا تفرقان .

ويخطر لى أن التفاف السوق في الآية كتابة عن
تزامم أهل المحتضر وأكبهم عليه ، والتفاف سوقهم
بعضها ببعض حواله ، كما قال أبو العلاء المعرى :

تجمعهم أهله زمرا عليه

وصاحت عرسه . أودى ، فصاحوا
لكلمتنا بأفواه المنيا .

من الأيام السنة فصاح

فإذا نزل بك الموت أيها الإنسان ، وانزعك من بين
الأهل والصحب والخلان - فهل تدري إلى أين تقاد
وسواق ؟ (إلى ربك يومئذ المساق) ، أي سوقك
وجرك من التلاييك يكون بعد موتك إلى ربك . فهو
الحكم العدل ، وله وحده في أمرك الفصل ،
فكيف لا تردع من حب العاجلة ، وسيان الأخرة ،
وننت تعلم أن الأمور إلى الله شائرة ؟

قوله : (فلا صدق ولا صلى الخ) احتجاج على
الإنسان الجاحد ، وتفصيل لما أجمله أولا : من أمر
مناده وتكذيبه مد كان يقول : (إيمان يوم الدين) ،
مهدا لنفسه سبيل الاسترسال في الضجور . فالوحي
بعد أن ذكره بأهوال يوم القيامة ، ووصف من حالته
يوم يلاقى حملة - قال : (فلا صدق ولا صلى)
أي فهو لا (صدق) بالله ولا بوجه ولا نبيه (ولا
صلى) إلى الله ، ولا دعاه ، ولا استغفره من فرط
نجوره وجورده ، وأما كان يصلى إلى الطوائف
لا على معنى الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود
لما قلناه عند قوله تعالى : (قالوا لم نك من
المصلين) ، والمراد بالإنسان الذي لا صدق ولا صلى
أبو جهل ، فإن ما وصفه من حاله وشكله هنا هو
الذي كان السبب في نزول الآية . على أن ههنا
الوصف والتقريع يصلحان لكل آسنان صنع صنيعه ،
واركبت من الآثم منكروه وشنيعه .

و (لا) الداخلة على صدق وصلى نافية مثل
(ما) غير أن (ما) تدخل على الفعل من دون تكرير ،
يقال : « ما صدق زيد » كما يقال « ما صدق وما
صلى » أما (لا) فلا يبد من تكرير الفعل معها ،
فيقال : « لا صدق ولا صلى » ولا قام ولا قدم «
ولا يقال « لا صدق » أو « لا قام » من دون تكرار ،
وكلها تكررت الأفعال مع (لا) وأجبت في الاستعمال ،
وحسن وقعها في النفوس قول الراجز :

سببا عن بعضها أي مني ،

خب جبان وإذا جاع بكى

لا حطب القوم ولا القوم سقى

ولا أركب القوم أن ضلت بغي

وباكل التمر ولا يلقى النوى

كانه غرلة مسلاي حشا (١)

وقوله : (ولكن كذب وتولى) أي أن ذلك الإنسان
منكر البعث ما آمن بدین الله ولا عبده ، ولكن كذب
به ، وأعرض عن عبادته ، والقيام بواجب طاعته .

وكان أبو جهل ونظراؤه من صناديد قريش
المكذبين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
يفشون مجله ، ويستمعون القرآن منه ، ثم يأخذون
في التكذيب والشكافية والاستهزاء ، ويرجع الواحد
منهم بعد انقضاء المجلس إلى أهله وعشيرته متكبيرا
متبخترا ، مباهيا بما كان منه في مجلس النبوة من
الجهود والاباء والمكابرة والاستهزاء ، والسبب
والبلداء ، والاستماع والأيلاء ، ليكون له بذلك الفضل
عليهم ، والمنزلة الراقية فيهم ، وليصرفهم عن الأمان ،
وتدبر آيات القرآن ، وليوقع في نفوسهم أن أمر محمد
صلى الله عليه وسلم لم يكن بالأمر الكريم ، ولا بالذي
يستحق العناية والعظيم .

هكذا كان شأن الواحد من هؤلاء المكذبين في معاقبة
الحق ، وإطفاء نور الوحي .

وكان صلى الله عليه وسلم هو والصحابه يتأذون
بهم ، ويتعمدون إلى الله من شرهم وتغلبهم من
الاسلام ، وصدهم الناس من الدخول فيه . فكان
الوحي السماوي يتكلمهم مؤونة أو تلك المكذبين
الاستهزئين بوصف أطوارهم ، والكشف عن موارهم ،
وأطفاء ما أوقدوه للفتنة من نارهم : يمثل ما قاله في
هذه الآيات : من أنك ترى الواحد منهم شديد العناد :
(فلا صدق) بالله (ولا صلى) إليه (ولكن) إذا خضر
مجلس النبي وثلاوة آيات الوحي (كذب) ذلك كله
(وتولى) معرضا عنه زاهدا فيه ، (ثم) بعد أن يجادل
ويقاوم الحق جهده تراه قد (ذهب) راجعا (إلى
أهله) وعشيرته (يتعلى) في مشيته ويتبختر كأنه
عاد إليهم بكتور كسرى وقيسر ، وهو لم يفعل سوى
قول الزود والأمر النكر .

وأصل (يتعلى) يتمطط بثلاث طافات من المط
وهو الله ، والتبكر إذا مشى متبخترا يخط أطرافه ،
وتكفا ويرجح بلرايمه ، وهذه المشية تسمى المطيطة
وهي مشية بني مخزوم في الجاهلية وأبو جهل منهم ،
وقد ورد النهي عنها في الحديث ، وإنما قلت المطاة
الثالثة في يتمطط ألفا فقيل (يتعلى) للتخفيف ،
ولهذه الكلمة نظائر في اللغة في الفعل الثلاثي الضاعف

(١) معنى (لا حطب القوم) أنه كسول لا يجمع لقومه الحطب
للإبتدأ والفتح (و الغرلة) الجوراء ، والحا (النوى)

سُدِّي ﴿١٥﴾ أَلَيْكَ نَفْطَةٌ مِّنْ مَّجِرٍ يَّبْحَثُ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ
عَلَقَةً فُخِّقَ فَمَسُوهُ ﴿١٧﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
الْأَذْكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿١٨﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن
يُجْعَلَ لَمَوْتٍ ﴿١٩﴾

إذا جرى به من التفتل ، فتتوالى الأمثال ، فتقلب
الأخرة الفا : فإذا جرى بظن من باب تكلم قيل : تظن
وتظني ، ويقضي : تقضي البازي وتقضي إذا هوى
يلعب ، ويمط : تعطط ويمطى ، وهكذا .

وقيل ان (عطى) من (الطا) وهو الظهر ، لأن
الذي يمشى المطيعة متبخترا يلوى مطاه ، ويوسع
خطاه .

وبعد ان وصف الوحي من أمر ذلك المتكبر المتبختر
ماتح وسمح - ما عاد اليه فقال مخاطبا له : (أولى لك
فاولي) . وهذه العبارة ذهبت في لغة السرب ملهبط
الثل في التخويف والتحذير والتهديد والوعيد .
و (أولى) الفعل تفصيل من وليه الشيء : قاربه ودنا
منه ، فمعنى (أولى لك فاولي) قد وليك الشر
وأوشك ان يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك . وقيل ان
(أولى) بمعنى اسحق وأجدر ، أي ان العقاب أو الهلاك
يا هذا أجدر بك ، وقيل انه بمعنى (ويل لك) ، وفي
لمعادتها وتكريرها في الآية زيادة تأكيد في التهديد
والوعيد ، ولا سيما اقتران التأكيد بشم مد قال :
(ثم أولى لك فاولي) ، أي بعد كل ما تتجلد به وتقول
في اظهار عدم الاكتراث بأمر الله والخوف من عقوبته .
فاني أكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر وانتبه
لنفسك ، قبل نزول العقوبة بك . والجملة في أصل
وعنها تفيد معنى التهديد والوعيد ، وقد فهم ذلك
منها أبو جهل نفسه مد أخذ صلى الله عليه وسلم يوما
يتناجيه وقال له : «أولى لك فاولي» ، ثم أولى لك
فاولي ، فقال أبو جهل : «أترموني بالمحمد ؟ والله
ماستطيع أت ولا ريك في شيئا ، والله لا تأمر من
مثن بين جبليها (١) » ، ثم لم يلبث ان قتل بيد شرس
قتله ، وتكرير (أولى لك) مبهود في كل مهم ، ومنه
قوله :

أودت لنفسى بعض المسبور
فاولى لنفسى أولى لهسا

(١) قوله (بين جبليها) أي بين جبلي مكة ، وهذا كما يقال من
الدنية (بين حراويا) .

﴿١٥﴾ في السران العجب - ولله عجب - من
أساليبه في خطاب الكليين ، ولما ذهب في إيراد كلمات
النصح والوعظ على أسماهم . فهو يبرز لهم مرادة
التهديد والوعيد بحلاوة التبشير والترغيب ، وإذا ذكر
ما يفيد اليأس منهم ، عاد فذكر ما يشير إلى الرجاء
فيهم ، ولا يذكر آية نار أو عذاب إلا ذكر بعدها آية
جنة أو نعيم ، وإذا صدمهم بكلمات الزجر والتعنيف
شغفها بكلمات التزيين والتلطيف . وانظر هنا كيف
زجر الإنسان للكلب أولا بقوله : (أولى لك) ، أي الوليل
لك ، أو العقاب على مقرية منك ، فاحذر أيها المتكبر
المتجرف وانتبه ، ثم عاد فقال له : (أيحسب الإنسان
ان يترك سدي ، ألم يك نطفة من مثن يعني ، ثم كان
علقه فخلق فمسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر
والأنثى : أليس ذلك بقادر على ان يحيى الوتي ؟) .

ان إيراد هذه الآيات الينة بعد تلك الشديدة
الخشنة يجتذب القلوب المغفلة ، ويفكك منها حراها
ويستنزل العمم (١) العاقلة من قننها وشماريح ذراها .

ومعنى (ان يترك سدي) ان يترك هملا : لا يؤمر
ولا ينهى ، ولا يكلف عملا ، ولا يخاطب بشرائع يصلح
بها أمره ، ويرتقي على سلمها اجتماعه ، حتى يبلغ
درجة السكمال التي قدرها الله له ؟ لا ، لا يحسب
الإنسان ذلك ، ولا يتوهم الذات الإلهية بأن تلعبه مثن
مناياتها ، وتنتاه من عطفا ورعايتها ، بحيث يسقى
كالبهايم الرسالة : قصارها حفظ نوحها بالتوليد وتناول
الفناء ، ثم يكون مصيرها إلى الزوال والفناء . لا جرم
ان نوع الإنسان أكرم على الله من هذه الحيوانات ،
فهو يمدد من حجة وتشريعه بما يسمو به إلى أعلى
الدرجات ، في هذه الحياة وبعد الممات .

إذا تمثل المرء في ذكركه شخصه الكريم - عليه
الصلاة والتسليم - واقفا على نثر في بركة الحجاز
القاحلة ، مشرفا على تلك القبائل الغاملة الجاهلة :
التي لم تفقه من أسرار الوجود ونظام الاجتماع
ونواميس العمران سوى ما لا بد منه في حفظ حياتها ،
بل كانت حياتها أيضا عرضة للفناء والاضمحلال : من
توالت الحروب واستعراش القتال ، وهو صلى الله عليه
وسلم يتلو عليهم هذه الكلمة الحكيمة من وحي ربهم ،
ويتلثل نفوسهم الجامدة بهذه الكلمة الاجتماعية من
عظمت خالقهم : (أيحسب الإنسان ان يترك سدي) ؟
من دون شرع يوفق له أسباب الرغد والهناء ، ونظام
يكفل له سعادة الاجتماع ودوام الارتقاء ؟ . من أماد
إلى نفسه هذه الذكرى مقرونة بجميع ملابسها من

(١) (المصم) جمع لضم الوصل في يد يمان ، و (العاقلة)
التي اضلحت قنن الجبال مغلا لها فتنت فيه مثن صلي صليفا ،
ويطربونها مثلا لكل ما كان محتما يحسر الوصول إليه .



يَسْمَعُ اللَّهُ أَرْخَضَ الرَّيْحَ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذُكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

قوله : (هل أتى الخ) وإن كان في صورة الاستفهام فإن المراد به التقرير والتحقيق فتكون (هل) قامت في الآية مقام (لَدُنْ) نفسها . وذلك كقولك آخر : « هل أكرمك ؟ » والمخاطب يعرف أنك أكرمته . وإنما تريد تحقيق الأكرام وتأكيد أمره . كأنك تقول : « قد أكرمك » . وكذلك الشأن في الآية ، فإن كل واحد من بني الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يغلظ له أحد ، وذلك مد كان جرئومة في صلب أبيه ، أو جواهر فردة منبثة في عناصر هذا الكون . أو الراد بالإنسان نوع الإنسان بجملته ، فإنه أيضا مر عليه حين من الدهر — الله وحده يعلم مقدارهم — كانت هذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مقمورا ، لا يذكره ولا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه وهو الله تعالى .

بعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا أخذ يشرح كيف اغاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن امتعه بنعمة الإدراك والحواس فقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) ، أي نوع الإنسان ، أو كل فرد من أفراد (من نطفة) : مويبة وهي القليل من الماء ، كما ذكر في ختام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقررة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة (أمشاج) ، أي أخلط وأخلطها مشج ومشج ومشج ، يقال مشج المشجين ، ومشج بينهما إذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف (النطفة) وهي مفرد بالأمشاج وهي جمع على عادة العرب في طائفة من كلمات لغتهم هي جمع لكنهم يصفون بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلا « ثوب أخلاق » كما يقولون « ثوب خلق » ويريدون في الأول أن الخلقة أي البلى تمت بجميع أجزائه ولم تقتصر على بعضها ، أما ثوبهم ثوب خلق بالأفراد فيليس نصبا في خلقة

أطوار الزمان ، وأحوال المكان ، وأخلاق السكان — علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل لا كالرجال ، وشارع الهى حكيم لم يأت له التلويح بمثل .

وقوله : (نطفة) ، أي ماء قليل . (يعني) : يراق ويصب . (نطفة) دم غليظة متجمدة . وقوله (فخلق) ، أي قدر الله تلك المعلقة . ومعنى قدرها جعلها ذات قدر وشكل ووضع مؤد إلى قيامها بوظيفتها ، وحسن الانفعال بها . فالخلق هنا ليس معناه الإيجاد من العدم ، لأنه تعلق بالمعلقة وهي سابقة في وجودها ، لكنها لم تكن مخلقة ومقدرة بتقدير ارتقي فيه في مراتب الحياة الكاملة ، حتى كان الله تعالى هو الذي قدرها وكملها . وليس ذلك فقط بل أنه تعالى بعد أن قدرها ، نساها : أي جعل أجزائها وأعضائها متساوية متعادلة متلازمة : بعضها مناسب لبعض ، وموات له في عمله ، فلا يقع بينها تضاد ولا تدافع في أفعالها وظائفها التي خلق المجموع لأجلها .

(فالخلق) بمعنى التقدير ملاحظ فيه مجموع الجسم ، وصلاحيته بجملته للفرض الذي خلق من أجله . و (التسوية) ملاحظ فيها كل عضو أو جزء بالنسبة إلى الجزء الآخر ، وتلائمه معه بحيث تؤدي كل الأجزاء والأعضاء وظائفها على وجه الكمال .

والضمير (منه) قالوا أنه راجع إلى الإنسان ، أي أنه تعالى بعد أن خلق المعلقة فسواها إنسانا ، خلق من الإنسان الذكور والإناث ، يعني أن الإنسان الواحد يولد له أولاد ذكور وأولاد إناث .

ويخطر لي أنه راجع إلى الماء القابل الذي يصب صبا ، فيفيد بذلك زيادة في تصوير الحالة ، وتجسيم الغرابة أمام عيني الإنسان ، فيذكر أن الزوجين الذكر والأنثى اللذين يتكون من بينهما البشر لم يخلقا إلا من مويبة خفيفة : حرارة الشمس تطيرها بفرا ، ومسحة نعل تلاحظها فلا يبقى لها أكلوا .

هذا هو أصل الإنسان والعرق الذي ينتمي إليه . فليست الأمر وليصف في الجواب على هذا السؤال : (اليس ذلك) الإله الخالق الحكيم الذي رقى بالإنسان من طور نقصه وحقارته ، إلى طور كماله وسعاده — (بقادر على أن يحيي الموتى) ؟ فيرى في جسم من طور التراب الذي صاروا إليه ، إلى طور من الوجود والخلق أكمل يصبحون عليه ؟ بل ! فإن من قدر على خلقهم من ماء مهين ، قادر بالضرورة على إعادة خلقهم من تراب وطن ، ولاسيما وإعادة أهون من البلد ، وجمع المتفرق أسهل من إيجاد المعدم .

يرى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية (اليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) ألبها بقوله (بلى سبحانه) .

بِعَمَلَنَّهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا ① إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِنَّمَا شَاكَرْنَا
وَمَا كَفَرْنَا ② إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ سَلَاسِلًا وَأَعْلَنَّا
وَسِيْرًا ③ إِنَّا الْإِبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَاسٍ كَانَ مَرْجَاهَا
كَافُورًا ④ عَيْنَا يَتَرَبَّ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ يَفْجَرُونَهَا
تَفْجِيرًا ⑤ يُوقِفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَحْفَقُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَعِيرًا ⑥ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَامًا عَلَى حَيْثُ هُمْ مَسْكِنًا

جميع الأجزاء ، بل يحتفل أن يكون بعض اجزاء الخلق
ويغيبها غير خلق . وهكذا نطفة أمشاج فانه يدل على
أن كل جزء منها مشيخ مزيج من طبائع مختلفة ،
وعناصر متعددة .

وأمشاج البدن مناصره وطبائمه التي يتكبد منها ،
والآية تشير إلى أن العناصر والطبائع التي يتكبد منها
بدن الإنسان لعين الشكاهه ولعالم نموه كانت مخبوءة
في النطفة الصغيرة واللوية المحترقة التي تكون منها .
وإذا كان الإنسان قد ركب من طبائع أمشاج مختلفة
فهو يورث تلك الطبائع بالضرورة أسأله وأمقابيه ،
فننتقل إليهم ، وتنزوع بين أفرادهم ، على تفاوت في
ذلك من حيث الكيف والكم ، والقوة والضعف ،
والأحوال الأخرى . وهذا معنى قوله تعالى : (وقد
خلقكم أطوارا) منذ من قال من المفسرين أن المراد
بالأطوار الفرائض المتباينة ، والطبائع المختلفة التي ركب
في فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الإنسان هكذا أمشاجا ذا طبائع
مختلفة ، غرسها فيه منذ كان نطفة ، ثم نقلتها إلى
أفراذه بعد أن شربوا وكبروا وتفرقوا على وجه
البيضة ؟ قال تعالى في جواب هذا السؤال : أنا خلقناه
كذلك (نبتليه) ، أي مريدين ابتلاؤه واختباره فيصا
نوجهه إليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نموده أبامه
من سبل التكليف ، لنرى : إنفكر أم يشكر ؟ ويستقيم
في سيرة أم يضل ويعثر ؟ ولو لم يكن نوع الإنسان
مخلوقا مشيخا من طبائع مختلفة ، وفرائض متباينة ،
بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف
ليها ولا تباين - لكنت أفراذه كذلك ، فيندفمون في
أعمالهم ومساميهم إلى سلوك طريقة واحدة ، والتمزام
شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختيار الذي أراده
تعالى في قوله (نبتليه) (نبتليه) ، ولا يبقى معنى التشريع
والتكليف ، بل لم يكن عالم بشري ، ولم ينشأ عمران
الإنسي . وربما كان هذا هو تاويل قوله تعالى في

سورة هود : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ،
أي ذات صيغة في الطبائع والفرائض واحدة . لكنه
تعالى لم يشأ ذلك ليتم قيام العالم الإنساني وبلغ
طور كماله ، فجعلهم أمة مختلفة في الطبائع والفرائض
والاستعدادات : فهم بسبب ذلك يختلفون في مساميمهم ،
ويتنافسون في أعمالهم ومساير شئونهم ، (ولا يزالون)
هكذا (مختلفين) اختلافًا يؤدي ببعضهم إلى سعادته ،
وببعضهم الآخر إلى شقارته ، (إلا من رحم ربك) أي
لكن الموفقين ممن رحمهم الله ، وأراد لهم السعادة -
يسلكون سبيلها ، ويدرون مشارعها . (ولذلك) أي
لأجل هذا الاختلاف الذي يتوقف عليه قيام أمرهم ،
ونشوء عمرانهم ، وتكامل اجتماعهم - (خلقتهم)
سبحانه وتعالى .

قلنا : أن الله تعالى خلق الإنسان من نطفة أمشاج
فكان ذا طبائع أمشاج ليتم الابتلاء والاختيار . ولكن
هل يتم ذلك من دون أن يكون للمبتلى المنحن عقل
ونطق واختيار ؟ كلا ، ولذلك قال تعالى : (فجعلناه
سميما بصيرا) ، أي خلقناه من نطفة ذات أمشاج لأجل
امتحان أمره بالتكاليف والشرائع (فجعلناه) من أجل
ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجة عليه (سميما) : ذا
سمع يسمع به الوحي والحكمة والشرائع (بصيرا) :
ذا بصير يصير به الآيات والعبر ، ويسمى بشوره إلى
تلقى العلم والمعرفة ، وما به يقوم أمره ، وينتظم حاله .
فلم يبق له - بعد أن امتحناه السمع والبصر - من
حجة يحتاج بها ، أو على يتأمل بها .

ويحتفل أن يكون المراد بقوله : (فجعلناه سميما
بصيرا) : أننا جعلناه ذا عقل والادراك يميز به الشرير
من الشر ، والحق من الخاطل ، ويتمكن من اختيار مابه
صلاحه وسعادته . وإنما كان قوله : (سميما بصيرا)
دالا على ذلك ، لأن استجسام عقل الإنسان ،
واستجماع قواه ومداركه - إنما يكون من طريق هاتين
الحاستين : السمع والبصر . ولو ولد الشر صما
عميا منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة - ما كان
لهم من العقل والادراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا
بشرا ، بل مخلوقا آخر له منن لحيته ونواميس
لحيته . . . الله أعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحت الإنسان وسلحته به إرادة
الابتلاء والاختيار الذي كتبه عليه مذ خلقته ؟ أم
هناك شيء آخر وراء ذلك ؟ فإن عقل الإنسان مهما
حصف ، ومداركه مهما استحكمت - تبقى معرضة
للقى الزويع مرة ، والحقرة والاضطراب مرة أخرى ؟
قال تعالى : (أنا) فوق ما منحت الإنسان من نعمته
العقل والادراك (هديناه) : دلناه وأرشدناه وأرشدناه
(السبيل) . والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول :
أرشدنا أمام عينيه السبل المختلفة مذ أوجعنا إليه
ضرائعنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع
أهميات القسوسل والأعمال الصالحة ، وأمرناه
بممارستها ، وأتباع طريقها . كما إننا له في هذه
الشرائع الذروب والأوامر التي لأرضاعها له ، ونهياهم

أربابها ، وتستوك ظرفها . انزلنا له ذلك ، ودلناه عليه . ثم انه بعد هذا ، وبعد ان منحناه العقل — (اما) ان يكون (شاكرا) لنمعتنا ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، فيستحق رضاننا ، ونفعله دار كرامتنا ، (واما) ان يكون (كفورا) لانمنا ، فيخالف امرنا ، ويكذب وحينا ، ويختار لنفسه سبيل الشر والفساد — فيستحق سخطنا ، ونفعله دار هلاينا . فانه تعالى دل الانسان على سبيلي الشكر والتقوى ، وعليه هو ان يختار سلكه هذا أو ذلك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على ان للانسان ارادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله : (**انا اعتدنا الخ**) شروع فيما اعداه الله يوم القيامة لكل من فريقى الشاكرين الطامعين ، والمعادنين الجاحدين . ومعنى (اعتدنا) اعددنا وهيئنا . و (السلاسل) القيود ، وقالوا انها تكون في الأرجل . اما (الأغلال) فالأطواق من حديد أو قند ، وتكون في الأيدي . و (السعير) النار الموقدة .

(والأبرار) جمع بر يفتح الباء ، والبر والبإر من جمع في نفسه بين الصدق والتقوى والإخلاص إلى الله والأحسان إلى خلقه . و (الكأس) كما تطلق على الزجاجية يشربها تطلق على الشراب نفسه . وغير (مزاجها) يرجع إلى الكأس بالمعنى الثاني . وكل شئ من خلط كان أحدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور . و (الكافور) طيب معروف يستحضر من أشجار بلاد الهند والصين ، وهو من أنفس الطيوب عند العرب . والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها — في طيب رائحتها وفوحان شملها — كالكاكفور .

ولما ذكر أن الأبرار يشربون شرابا هذه صفته — عاد لمعناه بقوله : (**عينا يشرب بها عباد الله**) . فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفي ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث أنه مستمد ومستقى من تلك العين . وفعل (يشرب) يتعدى إلى مفعوله بنفسه فارة فيقال يشربها ، وبالباء فارة كما في الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول عنترة في ناقته :

شربت بماء الدهر فسين فاصبحت

زوداء تنفر عن حياض الديلم

والدهر ضان مامان يقال لأحدهما « دهرض » . والآخر « وسيع » ففعل دهرضا لشهرته على الآخر . يقول : أن ناقته شربت من ماء هذين الموردين ومن ثم أصبحت مائلة نائرة من الحياض الأخرى المسماة « حياض الديلم » ، وقد اختلفوا فيها وفي سبب تسميتها بحياض الديلم اختلافا كبيرا .

وقال البصريون : الباء في الآية وفي قول عنترة وأمثالهما زائدة كزادتها في قوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى) ، وفي قول الشاعر :

من الحراري لا أرباب أخمرة

حمود المحاجر لا يقرآن بالسود

وفي قوافله : **تلكم فلان بكلام حسن** ، فيجوز حذف الباء في الكل .

و (**عباد الله**) هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا بأصنافهم إليه تعالى . و (فجر) المساء بالتشديد بمباعدة في نفس التلاني إذا بجمعه وشق له طريقا يجري فيه بفسدة بعد أن كان محبوسا . وقوله : (**يفجرونها**) وصف للعين التي يشرب مامها الأبرار . يقول : أن تلك العين مواتية لهم في الانبثاق والجريان ، فهم ينتفخون بها ، ويتناولون مامها كيفما شاءوا وأحبوا . وسببنا لنا في هذه السورة بيان التعميم الذى يكون للأبرار في الجنة ، والمصاب الذى يكون للفجار في جهنم .

كان قائلا يقول : وبمذا استحق الأبرار منك هذا الاكرام يا رب ؟ فأجاب بقوله : (**يولفون بالنفسير ويفجفون الخ**) ، فذكر من خلاصتهم التي استحقوا بها ذلك ثلاث خصال : خوفهم يوم القيامة ، فإن الخوف الحق منه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ، وممارسة الفضائل ، واجتناب الما صي . وأن لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وإن أسم بسمتهم ، وأدعى أنه مستقيم على مثل طريقهم .

و (مستغبرا) متشورا فاعيا في كل جهة . وأكثر ما يستعمل في ما فيه نار أو نور . يقال : استطار الحريق ، واستطار النجم والبرق .

والشر والنسب يستمار لهما اشتغال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما استطار . ويقال أيضا استطار القبار إذا سطع وانتشر .

وذكر من خلايق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاه البشر ومواساتهم ، والاجتهاد في إيصال كل خير إليهم ، ودفع كل شر عنهم فقال تعالى : (**ويطعمون الطعام الخ**) ، وقد قلنا ان هذا الخلق من أخص أخلاق الأبرار ، ومن ثم قال الحسن البصري : « البر من لا يؤذى الدار » . وإنما ذكر من شروط الواساة أطعام الطعام لكونه الأصل في قيام الشية ، وحصول الحياة ، ألا فإن البار لا يقتصر من عمل الخير ومعمونة الضعفاء على الأطعام فقط . وسببنا . وقد هم في عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال (**مسكيننا**) ، والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جعله فقره أو ضعفه أو ذله أو انقطاع أسباب الدنيا عنه — ساكنا قليل الحركة بحيث لا يقبل إليه فيعطى ، ولا يعتنى به فيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين بيمين هما أشد مرضة للضعفاء والتلف من مأساتهم : (**اليتيم**) ، وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من فقد كافله من أب وأم وغيرهما فأصبح وحيدا بمعزل من الناس ، فإن اليتيم في اللغة المنفرد من كل شيء حتى سمو البيت المنفرد والبلد المنفرد والرملة المنفردة يتما لذلك . فهذا الصغير المنفرد من الكافل في مرحلة الهلاك والضياع ، وإن العناية به بالتربية والتعليم والأطعام والإيصال من سمات الأبرار ، والتفريط في حقه وإهمال أمره من صفات الفجار .

وَبَنِيآ وَسِيرَا ﴿٥﴾ إِمَّا نَطْغُرُكَ لَوِجِهَ اللَّهِ لَا تَرِيدُ
مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٦﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا
يَوْمَ عَبُوسًا قَطَطًا ﴿٧﴾ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَرُؤُوسًا ﴿٨﴾ وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا
جَنَّةً وَجَرِيدًا ﴿٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا عِصًّا وَلَا زُمُورًا ﴿١٠﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا

ومن الغصاة الذين خصهم القرآن بالذكر من بين
الساكنين ، وحض على مواساتهم واطعامهم والعناية
بهم (الأسير) ، ويعنى به من كان من غير أبناء ملتنا
إذا وقع في أيدينا بعد حرب و قتال . أما مواساة
الأسير إذا كان من أبناء ملتنا فبالطريق الأولى ، هؤلاء
الأسرى - لمخالفتهم لنا في الدين والقومية والفة
أحيانا ، ولاتعطاهم في بلادنا من الناصر والمعين ، ولنا
تأصل بيننا وبينهم من الاتحاد والصداوات - يصحبون
موضة لالإبداء والتحقير والعنت - فالقرآن هدف
بالأمميين منها لهم ، ومجربا من أجاتهم وارهاقهم
واساءة معاملتهم مذ قال (وأسرى) ، أى ومن صفات
الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ،
ولا يذمون أحدا بخلص بشر أو أذى آليه ، ولا يجعلونه
لوق طاقته من الأعمال .

تقول : ومن أين لهمت النهى من الأذى والله تعالى
ألمأ أمرنا باطعامه ؟ أقول أن هذا على حد قوله تعالى :
(ولا تقل لهم آف) . نهاتا عن كلمة آف للآذنين ،
فكان نهيا من سائر شروب الأغصاب ، وهنا نهاتا من
أجاعة الأسير فكان أمرا بالمواساة العامة ونهيا من سائر
شروب الإبداء ، لأن الأذى النفسى أشد تكاية وإيلاما
من الأذى الجسمى ، وليس ذكر الطعام إلا مثلا . قال
المفسر التيسابورى : « ثم إن الأطعام ليس بواجب على
التعين ، ولكن الواجب مواساته بأى وجه كان ، وأما
غير من الواساة بالأطعام لأن سبب نزول الآية كان
كذلك ، ولأن القصدوا الأعظم من أنواع الإحسان هو
الطعام الذى به قوام البدن ، يقال : « أكل فلان مال
فلان إذا ألقاه بأى وجه كان ، وإن لم يكن بالأكل
نفسه » اهـ .

أما إن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من
إن المخاطبين لحين نزول هذه الآية لم يكن يقع في أيديهم
الإلأسارى من مشركى العرب . وقد تقل عن عكرمة
وقنادة أنهما قالا في تفسير هذه الآية : « لقد أمر الله
بالأسارى أن يحسن إليهم وأن أسارى الصحابة يومئذ
لأهل شرك » ، وقال النضن البصرى : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض

اليوميين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا
متقية للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الإسلام .
وقوله : (على حبه) ، أى على حب الطعام . والمعنى
أن أولئك الأبرار مع حاجتهم الى ذلك الطعام فى سد
جوعتهم وجوعه عيالهم يطبقون نفسا عنه للبؤساء ،
ويؤثرونهم به على أنفسهم .

أما الفصلة الثالثة التى استحق بها الأبرار رضا
الله وكرامته فهى الوفاء بالثلر . وأنت ترى أنه خص
هذه الفصلة بالتقديم على الفضلتن الآخرين ، وليس
ذلك لأن المراد بها أن يثلر المؤمن لله صيام يومين ، أو
صلاة وكعتين ، أو أطعام رقيقين ، ثم يفعل ما نلره -
ليس المراد ذلك وإن كان الوفاء بما ذكرنا مطلوبا شرعا ،
وإنما المراد بالوفاء بالثلر الذى جملة الله من صفات
الأبرار فى قوله تعالى : (يوفون بالثلر) - قوة الإرادة ،
فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو ممارسة فضيلة ،
أو قياما بأمرنا فاع له أو قوموه دنيا وأخرى - إلا أمضا
ووفى به . ويخل فى ذلك الوفاء بما نلر من قربة أو
طاعة . أما أن الواحد منا يفكر فى عمل صالح ينفع
قومه ، ويعلم أنه يريد القيام به والأقدام عليه ، ثم
يتقاعد عنه ويفتر ، ويماطل إذا سئل عنه ويتنلر -
فهذا هو ضعف الإرادة الذى هابه القرآن فى غير ما
موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين
يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير فى تفسيره : « والثلر هو كل
ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ، ومنه قول
عنتره :

السامى مرضى ولم أجتهد

والثادرين إذا لم أقتهدمى » اهـ

ولا يخفى أن سفك دم عنتره الذى نلره أبنا ضمهم
ليس من القربات فى شيء . فهذا هو الثلر فى لغة
العرب ، وهذا هو طريق استعماله لحين نزول القرآن .
ثم لما شاع استعماله فى نلر القربات والصدقات لم
يعد يلهم منه إلا نلر هذه الأشياء : ككتير من كلمات
الفة الواردة فى القرآن والسنة ، اختلفت معانيها
باختلاف الزمان (١) . وعلى المفسر المتقن أن ينتبه الى
ذلك الاختلاف . وليطعن الى أن الوفاء بالثلر الذى
مدحه القرآن فى هذه الآية عبارة عن قوة الإرادة التى
مآكراها إبراز كل عمل صالح نافع الى ساحة الوجود
بعد أن جرى التسميم عليه فى ساحة الفكر ، وأن لم
يبرره المتكلم لم يكن موفيا بالثلر ، ولم يكن من الأبرار

(١) من ذلك كلمة الولى التى جاءت فى القرآن بمعنى الناصر
كما فى قوله تعالى : (إلا أن أولياده) لا خوف عليهم ولا هم
يؤمنون) ، لم أصبح لها فى اللف معنى آخر وهو ذو الأكرامات من
الشايع . وكلمة (الصالح) التى جاءت فى القرآن بمعنى القادر
على العمل كقوله تعالى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر
أن الأرض يرثها عبيدى الصالحون) أى القادرون على محاربتها ، لم
أصبح لها معنى آخر وهو العلم الذى يصوم ويصلى ولا
يؤتكم كبيره .

(يا أيها الذين آمنوا ! تقولون ما لا تفعلون ؟ كبير مقتنا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقوله : (**إنما نطعمكم**) الخ ليس من قول أولئك الأبرار العظيمين بالسننهم ، بل ليس من المادح أن يضايقوا به هؤلاء المساكين المتخلقين حول موالدهم ، وإنما هو مما قاله الوحي عنهم مشيراً إلى أن حالهم تالقة بذلك . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : « أما والله ما قالوا ذلك بالسننهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأنى به عليهم ، ليرغب في ذلك ورغب » .

(و **شكروا**) مصدر شكر كالشكر والشكران ، والمعنى أنهم يؤسرون الفقراء والمساكين إرادة اكتساب رضاء الله بخدمة الخلق الذين هم ماله والأحسان إليهم ، لا لتحصيل فرض ديني أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، ولا لم يكن الواسي محسناً إلى المساكين ، بل محسناً إلى نفسه ، ولم يكن خادماً لعالم الله ، بل خادماً لمصلحته ، ولا مفرضاً ربه قرضاً حسناً ، بل تاجراً يبيئ الربح من وراء سلعته .

رووا من عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تبحث بالصدقة إلى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذي أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فإن ذكر أنهم دعوا ، أخذت هي بالصداء لهم ، تكتفي عملها الصالح خالصاً لوجه الله ، لا وأصفاً في مقابل عوض من دعائهم .

قوله : (**إننا نخاف**) الخ هذا أيضاً مما يقوله الأبرار بلسان حالهم في السبب الذي يبعثهم على إطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولاً أنهم أطمعهم لوجه الله ، ورغبة في رضاء لا طمعاً في جزاء مجازي ، أو ثناء مثني ، وقالوا هنا أنهم أطمعهم لكونهم يخافون من أيام ربهم (**يوماً عيبوساً قمطيراً**) وهو يوم القيامة الذي ذكر من قبل أنهم يخافونه ، ووصفه باستطارة شره ، وفظامة أمره ، وهذا هو الشوق الحق الذي يتغص صاحبه ، فيحصله على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم (بالمبوس) شدته وعظم هوله على الخلائق ، أو أراد أن الخلائق أنفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذي يشاهم في ذلك اليوم ذوى مبوس شديد ، فنسب المبوس إلى اليوم لا إليهم توسعاً ، نحو قولهم : « تهازه صائم » ، وإنما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

وأخو الهوم - إذا الهوم تحضرت

جنح الظلام - ومواده لا يرقد جعل الوساد لا يرقد ، وإنما الذي لا يرقد صاحبه . وقوله : (**قمطيراً**) أي شديد مظلم مصعباً ، ويقولون « شر قمطير » أي شديد ، ورجل قمطير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين منيه من قرط الفم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خففوا آلام المرهقين المتعبين ، وعطفوا على ذوى البؤس والمعرج في الدنيا

صنيعهم ، (**فوقاهم الله**) الذي فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح (**شئ ذلك اليوم**) أي أذى ذلك اليوم المبوس الذي خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحذرون من شدته وهوله ومكرهه ، (**ولفاهم**) أي ألقى عليهم مكان الشدة والرقق والمبوس الذي يقش التجار (**نصرة**) حسناً ونشأة وبرقاً في وجوههم (**وسوروا**) أي فرحوا وغبطة وجوراً في نفوسهم ، (**وجزاهم**) إليهم وكافاهم (**بما صبروا**) في مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والإيثار بالمال (**جنة**) دخول جنة ذات شان من الجنات التي أمدها لأهل طاعته ، (**وحيروا**) أي وألباهم أيضاً حيراء .

وفي الآية إيحاء ، أخذ بأطراف الإعجاز . ذلك أنه أشار بقوله (**جنة**) إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من صنوف الثمار النفسية ، والطعام الهنية ، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها ذلك . كما أشار بقوله (**حيروا**) إلى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التي من أنفسهم وأغلاها عند العرب الحرير . فهو تعالى قد جمع لهم في الثواب والمكافأة بين المشغورين : المشغور بلذة الطعام ، والمشغور بلذة اللباس ، وكل هذا تنازل من العناية الإلهية في تصوير المسرات الآخورية أكثر مشرة البشر ، وتقريبها من متناول ذهانتهم . وسأني زيادة إفصاح لذلك .

ومن مظاهر الخفص واللطف والتعظيم التي يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحي به في قوله : (**متكئين فيها**) أي في الجنة (**على الأرائك**) جمع أريكة وهي السرير ترخي عليه الحيلة ، والحيلة هي ما يسئل على السرير من فاخر الثياب والستور ، ويتخذ مادة الجلوس ، ومن لم يفرغ الوسع في تحسينها وتزيينها ، فإذا أريد من الحيلة الوقاية من البعوض سميت كلة ، ولسميها اليوم « ناموسية » .

ومعنى إكاثهم على الأرائك أنهم جالسون عليها متكئين . وللاذكاء معنى آخر وهو أن يجلس المرء على أحد شقيه معتمداً على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الإكاء عند الإطلاق . ولا تناسب إرادته في الآية ، لأن الأرائك لا يتكا عليها بهذا المعنى ، وإنما يتكا على الوسائد والتمارق ، اللهم إلا إذا جللناه من موج الكلام ، وأن أصله هكذا « متكئين على التمارق جلوساً على الأرائك » ، فحذف « على التمارق » دلالة « متكئين » عليها ، وحذف « جلوساً » دلالة « على الأرائك » عليها . ويكون هذا الإيجاز كقولهم بعده في صفة الأبرار أيضاً أنهم (**لا يرون فيها شمساً ولا زهبراً**) ، يريد أنهم لا يرون في الجنة شمساً ولا قمر ، ولا يصبون حراً ولا زمهرياً . فدل نفى زهبرهم للشمس التي في الخلد أنهم لا يرون القمر أيضاً ، كما أشعر أنهم لا يصبون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهي التي تثير القمر فينير علينا ، وهي التي تشع حرارتها فتشمر بها أجسامنا . أو أنه لما نفى أنهم يرون الزهبر وهو البرد أشعر أنهم لا يرون الحر أيضاً ، لأن الحر آخر

وَذَلَّتْ قَطْرُهَا تَذِيلًا ۝ وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَائِبَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝ قَوَارِيرًا مِّن
فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ
مِرَاجِيهَا زَنْجَبِيلًا ۝ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخْتَلِفُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ حَبِيبَتُهُمْ
لَوْ لَوْا مُنْشَوْرًا ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ۝ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ
وَحُلُورٌ أَسْوَدٌ مِّن فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمُ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝
إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّكْشُورًا ۝

البرد ، فانظر كيف استوصف بهاتين الكلمتين طائفة
من المائي ، والقصد ان في الجنة نورا خاصا ليس
منبعا من شمس ولا من قمر ، وان هواءه معتدل .
ليس فيها قوة من حر الشمس الممرض ، ولا من برد
الزمهرير المؤذي ، وهذا هو المراد بالزمهرير في قول
الأكثريين ، وقال بعضهم : ان الزمهرير هنا اسم للقر
في لغة علي ، قال شاعرهم :
وليلة ظلامها قد امتسكت قطعتها والزمهرير مظهر
ومعطف الزمهرير في الآية على الشمس ربما اشعر
بان المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول انهم لا يرون
في الجنة شمسا ولا قمرًا ، وان لهم من نورها الخاص
بها ما ينفيهم من ضياء هذين الترين .

قوله (وفاتية) الخ عطف على (متكتين) او على
(لا يرون) ، وتلكها اوصاف للأبرار ، واحوال من
الضمر الراجع اليهم في (وجزاهم) ، وضمر (ظللالها)
(ونظر فيها) للجنة ، والمراد بظللالها ظلال اشجارها ،
وهو كتابية من اشباك اقصان تلك الاشجار وتداخلها
من حوالى الجالسين تحتها ، والا فان الظلال اثر من
أكثر ضياء الشمس ، وقد ذكر أننا انه لا شمس في
الجنة ، اللهم الا ان يكون لنور الجنة الخاص بها ظلال
تتولد عنه ، و (القطوف) جمع قطب بكسر القاف :
المنقود سماعه يقطف ، ومعنى (ذللت قطوفها) ان
مناقيذ تمازها قد خلقها الله سهلة القطف ، قريبة من
إحدى المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلا بضم الدال اذا هان ونحقر بعد
هو ، فهو دليل ، وذل البعير ذلا بكسر الدال : سهل

« بقرة ذلول » و « فاقة ذلول » - ويلفظها الناس
« ذلول » بالدال المهملة - (وجعل لكم الأرض ذلولًا) ،
وفي خطاب النحل (فاسلكي سبيل ريك ذلًا) ، ومنه
تذليل القطوف هنا ، ويقولون : ذل الكرم اذا دلّيت
مناقيده ، و (الآية) جمع اناه ، وهو الوعاء يوضع
فيه الطعام والشراب . وقد فهم بعضهم من قوله :
(ويطاف عليهم بآية) ان اهل الجنة يأكلون طعامهم
على الطرز الذي عليه اهل الترف اليوم : مد يحمل
الفلسان صحاف الطعام حول المائدة ، ويدنون من
الأكليين واحداً واحداً ، فيتناول كل منها حاجته .

ومعطف قوله : (واكواب) على (آية) يشعر انه
يريد بالآية صحاف الطعام ، لان الاكواب اواني
الشراب ، وهي جمع كوب ، والكوب قدح مستدير
الراس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول
« كتابة » .

ذكر اولاً ان آية الطعام من فضة ، ثم لما جاء
لوصف اكواب الشراب قال : (كانت قواريرًا قواريرًا) ،
(والقوارير) جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج
المعروف . فهو يقول ان الاكواب زجاجات ، ثم قال ان
تلك الزجاجات متخذة (من فضة) ، فكيف يكون
ذلك والفضة غير الزجاج ، والمعدنان مختلفان انما
اختلاف ! ولما كان هذا الاشكال الذي خامر نفس
السامع اكد كلمة القوارير مكرراً لها ، فهو يقول : ان
هذه الاكواب - مع كونها متخذة من فضة - هي قوارير
هي قوارير . فالسامع ينتبه بهذا التكرار الى ان الامر
جيد ، وان الحكم عليها بأنها قوارير ليس الا اعني
دقيق اقتضى وصفها به مع انها في ذاتها من فضة .
وبعد التأمل يدرك انها انما سميت قوارير لكونها
ريقة شفاقة شغوف القوارير ، فهي اذن قد جمعت
بين بياض الفضة وحسنها وصفائها وشغوف القوارير
ورقتها ولائها .

تقول : ولماذا اقمم كلمة (كانت) بين (اكواب)
(و قوارير) وهي لو طرحت لصح المعنى ؟ اقول :
(كانت) هنا هي من الكون الذي يقع بعد قوله تعالى
الشيء : (كن فيكون) ، و « كن فكان » ، اي فيتكون ذلك
الشيء ، ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو
اذن من عالم الإرادة الالهية لا من عالم الاسباب
الدنيوية . فتكون تلك الاكواب بما جمعتها من صفات
الابداع فوق كل ما يتصوره العقل من صنوف الاكواب
التي تتفاوتها الصناعة الدنيوية .

والضمر في (قدروها تقديراً) يصح ارجاعه الى
السقاة الطائفتين بالاكواب ، كما يضح أن راجعاً الى
الشاربين الطوف عليهم بها . فالعنى على الاول ان
السقاة يقدرون الشراب الذي يقدمونه للشاربين في
تلك الاكواب : بحيث لا يزيد على رغبتهم ، ولا ينقص
عنها ، فيكون ذلك اهنأ لهم وامراً . والمعنى على الثاني
ان الشاربين قدروا في نفوسهم تلك الاكواب وتصورها
على اوضاع واشكال مختلفة ، فكانت اذا تناولوها ،
راوها طبق امانيهم ، وعلى مثال تقديرهم .

الجنة كافور ، وأن العين التي يتناول منها شراب تلك الكأس يفجره أولئك الأبرار ، ويجرونه إلى شاطئ من الجنة . وقد ذكر هنا أن تلك العين (تسمى سلسيلا) ، وأن مزاج الكأس التي يسقونها يكون (زنجبيل) ، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجها كافورا فوجان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا يثاق هسلان يفوح منها أحيانا رائحة الزنجبيل : تفوح الرائحةن معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد أنهم يجسدون طعم الزنجبيل في الشراب . لا أنهم يشمون هذا الزنجبيل من الشراب شما .

و (الزنجبيل) عروق نبات كالقصب تمتد في الأرض ، ويتولد فيها مقد حريفة الطعم ، مغرب « شنبيل » بالفارسية . والعرب يستلثون طعمه كما يستلثون رائحة الكافور . قال الأشي : كان القرنفل والزنجبيل سل بنا بغيرها وأريا مشورا يصف طعم ثم لم محبوبته وحلاوته في اللهاق . و (الأري) : العسل . و (المشور) اسم مفعول من شال العسل إذا اجتانه من خليفته . ومثل الزنجبيل في استلذاهم طعمه في الخمر ، الفلفل . قال حسان بن ثابت :

ولقد شربت الخمر في حانوتها
صهباء صافية كلمم الفلفل

وقال امرؤ القيس :
كان مكاني الجواء شديدة
صبحن سلافا من رحيق مفلفل

يقول كان طيور هذا الوادي وقت الصباح شربت رحيقا تفوح منه رائحة الفلفل ، أو يطلع اللسان لدع الفلفل ، ولذلك أكثرت الصلح والتفريد . وسميت العين (سلسيلا) لسهولة مساقها وانحدارها في الحلق . وأصل المادة (سلس) تدل على اللين والسهولة والانقياد ، حتى يقولون « في كلام فلان سلامة » يفتون رقة وانسجاما وسهولة . ويريدون على هذه المادة لأماني آخرها فتندل على غاية السلاسة ، فيقولون : « سلسل » و « سلسال » يريدون بهما الماء الملب السهل الحريان في الحلق لعدوته وصفاته . ويريدون عليها أيضا بآه تنفيذ إذ كالتغاية الغايات في السلاسة فيقولون : « سلسبيل » ويريدون به الماء الكثير الوفان في الحلق . وبذلك سميت تلك العين في الجنة سلسيلا ، لأن ماها هذه صفته . وهو يذكر السلسبيل دفع : يوم الشعور بحرارة الزنجبيل وللمتة في اللهاق ، فكانه يقول : أن الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشمرون بحرافته ، فيبقى الشراب سلسيلا سهل السباغ في الحلق .

قوله : (ويطوف عليهم) ، أي ويطوف على أولئك الأبرار بالآنية والأكواب وسائر شروب الخنعة (وللجان) وصفاء « خللجون » من الخلود ، أي لا يموتون . وقيل لا فائدة في هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وإنما هو من الخلود بمعنى إبطاء الشيب . والعرب تقول

واسنائه : أنه لخلد . . . فوصفاء الجنة مخلدون ، يعني أنهم لا يهرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من سن الحداثة . ويقال لثل هسلان أيضا أنه مقتيل الشباب ، أي لم تظفر فيه أثر كبير ، بل هو كأنما يستأنف الشباب كل ساعه .

ولكن يرد على هذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جملة بعضهم من الخلد بمعنى السواد بمعنى القرط أيضا ، يقول أن أولئك الولدان مسودون أو مقروطون .

هؤلاء الولدان (إنا وأيتهم) مثنين في جنسيات الجنة مجتمعين مفترقين هنا وهناك (حسيثهم) في حسنهم وجملهم وصفاء الوانهم (لاؤلا متشورا) نشره نائر تحت مواقع مينيك ، فتري حجات منه مجتمعة متلازمة ، وأخرى متفرقة متساعدة ، مما يزيد بها في التباهي بهاء ورواء ، وبكسها في العين رونقا ولألاء . . . هذا إذا خصصت في النظر والتحديق إلى ما في الجنة من مظاهر الآس والسرور (ولذا وأيت ثم) ، أي وإذا أحببت أن ترمي بصرك إلى ما هناك من نعم المظاهر وجموع المناظر . (وأيت نعيمها) أي نوما من النعيم لا يوصف ولا يبعد له مثال ، (وملكا كبيرا) أي واسعا متوعبا لجميع ما يور على النفس راحتها وهناها وسعادتها ومسررتها . وقد أجمل في وصف الحالة التي عليها أهل النعيم في نعيمهم ، لأنه مما لا يحيط به وصف ، ويمجر أهل الدنيا - ماداموا في دنياهم - عن صورته ، وعمره حقيقة .

رجع إلى ذكر طور من أطوار الأبرار في الجنة ، وهو وصف ما يفرغ على أيدلهم من شروب الزينة واللبوس ، فقال : (عليهم ثياب) الخ . و (مالي) اسم

فاعل من علاه يعلوه إذا كان فوقه ، فالملكي تعلوهم تلك الثياب ، وتفشى غواجرهم (أ) . و (السندس) : ضرب من نسج البر ، وقيل : هو رقيق الديباغ ، عربي أو معرب ، أما (الاستبرق) فهو غليظ الديباغ ، معرب « استبره » ، والديباغ : الثوب الذي سداه ولحمته حرير . وهو معرب أيضا ، و (حلوا) أي السوا حلية ، وهي ما يردان به الشخص من مصوغ المهنيات أو الخجالة الكريمة (أساور) جمع أساور . زينة معنية كالقروق بلس في المسامع والزوائد وتلك الأساور (من فضة) ، وهي المصنن الأبيض المعروف ، وفي سورة فاطر : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ، ولا تناقض إذ يمكن الجمع بين الصنفين في التحلي ، أو يحلون بهذا مرة وبهذا مرة ، و (الشراب الطهور) هو البالح

(أ) لم يصرح المؤلف لآمرابه « عليهم » مع حاجته إلى البيان ، وقد قرى بالرابع على أنه مبتدأ خبره ثياب ، وقرى بالثانيب - وهو السندس - نقول : أنه ظرف بمعنى لوقهم ، وهو غير مطلق لثياب ، والمجئلة حال من الصبي المجرود في عليهم ورجل أبر حيان عليهم خلا من ذلك الصبي ، وثياب مرفوعة على المقابلة له (انظر روح الحاني) المصحح .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٠١﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُطِيعُ مِنْهُمْ فَاغْبَا أَوْ كَفُورًا ﴿١٠٢﴾ وَأَذْكُرْ آمَنَ رَبِّكَ بِكُورَةِ وَأَصِيلًا ﴿١٠٣﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاصْبِرْ لَهُ وَسِجِّيلًا مَكِينًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ جِبُونَ الْعَاجِلَةِ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿١٠٥﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شَفَعْنَا بِلَدْنَاهُمْ أَهْلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكُّرٌ

في ثقافته من القدي والشواحب المادية ، أو المراد تطهيره مما يكون في الأثرية النبوية من الأضرار ومسوء التأثير .

قوله : (ان هذا كان لكم) الخ - مما يقال لهم أو بقوله بعضهم لبعض في الجنة وقت تسليمهم في صنوف أصحها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليشرح الأبرار وهم في دار الدنيا بأن ما وصف من التواب ، وعهد من مظاهر النعيم - ينتظرهم في النشأة الثانية جزاء طاعتهم له ، وأن (سميع) الحسن في التزام أوامره تعالى ، والوقوف عند حدود شرعه (مشكور) ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه أن يشيب عليه خير ثواب . وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والصحب والحب والضحك إذا نسبت إلى الله ، إذ تستحيل في حقه تعالى أمثال هذه العوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر في هذه الآيات أن الله تعالى قد أعد للكافرين سلاسل وأغلالاً ، كما هي الأبرار أوتك يتكئون عليها ، وعاجهم ثياب السندس والامستبرق ، وفي معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم ولدان كالقوافل المنثور ، بما فون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية - صفاء البلور ، وقد ملئت شراباً معزوجاً بالفحيحيل والكافور .

وذكر في مواضع آخر من القرآن وسائل مادية للذة والعباد فوق ما ذكر هنا وأبلغ منه ، وإن النفوس لتسائل عما إذا كانت هذه الوسائل والأدوات ، وألسبب القلوي والبلوي مادية حسية من عين مآتهده في دنياها هذه - فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تعقم في الأساور الفضية كأساورنا مبدودة بيضاء طعم ؟ والخمرة المشروبة كخمرتنا سائلة حراء تستمتع ؟ أم ان المراد بذلك شيء آخر له حقيقة روحية غير ما يفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم في الجواب أن يقال : اتنا - معشر المسلمين - نؤمن بالوسائل الأخروي ، وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل الصلابة

انفسنا عناء البحث عن حقيقتها ، مادامت هي ممكنة الوقوع ، وما دامت قدرة الله صالحة لخلقها وأعدادها . وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمهيداً لآلام الصلابة ومسررات النعيم بما اعتسدها في حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب ، بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلي تنمقل تلك الآلام والمسررات على نحو ماتعتقلها ونشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومثيراتها في دار الدنيا - على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يقتنعهم ما اقتصرنا عليه هنا من هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ما هو الأحق بالقبول في هذه العقيدة مما يلائم روح العصر ، ولتتحم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائله من الللة . فلنمثل هؤلاء كتبنا رسالة بهذا الموضوع : مشروع « مللذات الجنة ما هي ؟ » - ربما طبعناها على حدة أو الحقناها بهذا التفسير إذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من أولها وتدور حول أقطاب ثلاثة :

١ - تذكير الإنسان بالكلب بالبيت بخلقته الأصلية ، وبأن الآله الذي خلقه كذلك ، ومتعة بالحواس والمشاعر ، وأمهده بصنوف النعم - قادر على خلقه ثانية بعد الموت ، وكيف يصح إذن أن ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لا يكون تعالى جديراً بأن يشكر ويطاع ؟

٢ - تخويف الكافرين بما أعد الله لأمثالهم من الأغلال والسير .

٣ - ترغيبهم بما هيأ لهم من وسائل القبطة والهناء أن هم شكروا وآمنوا .

وكثيراً ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء الكافرين ، فلا تحيك في نفوسهم ، ولا يقابلونها بغير الصدود والامراض . فكان صلى الله عليه وسلم يأخذه شيء من الوجوم والفضير ، مد يرى نتائج أذاهم عليه ، وطول امراضهم عنه ، وتماديهم في تكذيب الوحي والاستهزاء به . فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة في تأثيرها ، ووقوف قرش أمامها وقفة الكلب المعاند ، ووجومه صلى الله عليه وسلم وضجره ، واستبغاثه نزول الغصاب الإلهي بأولئك الكافرين - أن تشدد مزيمته ، وتفكك من قلبه الشريف مراهم الفضيير بمثل قوله تعالى :

(إِنَّا نَحْنُ) ، أي لاغيرنا يا محمد الذين (نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا) لا ليس فيه ولا رب ، ووعظناك وأوعظنا الكافرين فيه بما وعدنا وأوعظنا ، فلا تبشش ولا تحزن ولا تقصر : فالقرآن حق ، ووعظنا ووعظنا صدق ، (فَاصْبِرْ) إذن ، وانتظر (لحكم ربك) ، أي لحين حلول وقت حكمه ونقضه الفصل فيك وفي خصوصك ، فينتقم لك منهم ، وتكون القلبة والنصرة لك ، والمعربة والدية عليهم . فاللهم في قوله (لحكم ربك) هي التي يسميها النجاة اللام الدعوتهم وإذا أرادوك على السكوت يا محمد وترك دعوتهم إلى الإيمان لقاه مال بفيضونه عليك ، أو مروس من بناتهم يزفونها إليك - كما كانوا بالفعل يقولون ذلك

له صلى الله عليه وسلم - فلا تصغ إليهم ، ولا تتخذ بقولهم ، (ولا تطع منهم أثما أو كفورا) فيما يحاولونه منك ، ويحاولونك عليه .

وقد كان أولئك المعتادون المكلوبون بين منغصس في الآلام ، متعاطي اللسوق : كمتبة بن ربيعة ، فهو ينفر من الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالوحي ، لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهواته ، وينقص عليه حياته - وبين غلال في ضلاله ، شديدي الشكيمة في كفره : كأبي جهل وأولاده بن الفرة ، فهو ينفر من الإسلام وأتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة دينه وتوديع طوائفته . فقلوه : (أثما) إشارة إلى الفریق الأول ، وقوله : (أو كفورا) إشارة إلى الفریق الثاني ، و (أو) بصد الححد تكون بمعنى الواو . فالعنى « ولا تطع منهم أثما ولا كفورا » .

ويروى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه وسلم : « أرجع من هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي فاني من أجل قریش بنات » . وكان الوليد يقول له : « أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فاني من أكثرهم مالا » . ولهذا قال له ربه وأصبر حتى يقضى الله بينك وبينهم ؛ فيظهر أمرك ويرفع لك ذكرك ولا تطع أولئك الأتيمين الجاحدين فيما بينك به من متوف الترف والنعم ، فدع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ، (وأذكر اسم ربك) فصل له وإعبدة (بكرة) غسوة قبل الفجر ، (وإصليا) عشيا بعد العصر ، (ومن الليل) أيضا (فاسجد له) ، أى صل له تعالى : فالسجود بمعنى الصلاة ، و (من) في قوله : (من الليل) لإفادة التبقيض ، إذ لا بد من راحة له صلى الله عليه وسلم في بعض الليل وسلاة في بعض ، كما يكون ذلك في النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغفلة النوم عليها - عاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر بصلاة الليل ، كيلا يفهم من العبسية المدة القليلة منه ، بل وقتا طويلا فقال : (وسجدة) ، أى صل له (ليلا) ، أى وقتا من الليل (طويلا) مستندا لا يقل من الثلث ، ولا يزيد عن الثلثين ، كما مر بيانه في آية (ثم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) . فالليل الأول من قوله : (ومن الليل) مراد به مجموع ساعاته من القروب إلى الشروق ، والليل الثاني ، وهو قوله (ليلا طويلا) ، مسراد به وقت وحصة منه ، ولذلك . وصفة بقوله (طويلا) . ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل ما تأسب وصفه بالطويل كما يظهر للتعامل ، والسجدة والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما أشرنا ، وكثيرا ما أريد بهما ذلك في القرآن والسنة . والأرجح أن المراد بالصلاة في هذه الآية الصلاة التي كان يمارسها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، وكان اقترضا لهذه الصلوات ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة . وبعد البعثة بالنتى مشرة منه - فهو تعالى يأمر بنبيه في هذه الآيات بالصبر على المكدين ، وانتظار حكم الله فيهم ، والإعراض عما يمتونه به ، ويعرضونه عليه : من زيارج الدنيا ، وبالإقبال على الله ، واستيعاب طرق التهتار

وهزيع طويل من الليل في عبادته والابتهاال اليه . ثم أن الخطاب في هذه الأوامر وأن كان له صلى الله عليه وسلم فإن المراد به أيضا صحابته الذين كانوا إذ ذاك في حاجة إلى أن يكونوا أشداء القلوب ، أقوياء الجلد والعزيمة ، ليقووا على الجهاد وبث الدعوة والتصبر على المقاومة .

وقد شرحنا في أول سورة الكزمل ما في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بالتهجد ، وقيام الليل وتحمل مشقات العبادة من الأثر البين في تربيتهم النفسية ، وتقويتهم الدنية ، فراجعهم ان شئت .

قوله : (إن هؤلاء الخ) فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، واقتناص من إيمانهم به ، وإتباعهم دينه ، وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وإشعار للأئمة الناجزة : فهم يتهافون على ما بين أيديهم من هذه الشهوات ، (ويؤمنون وراهم) أى يمدون ويترجون خلف ظهورهم (يوما نقلا) وهو يوم القيامة التثقل الوقع ، الشديدي الوطأة على هؤلاء الجاحدين المكذبن ، ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم : طرحهم العمل له ، وتركهم ما يؤدى إلى النجاة فيه من الإيمان والتصدق وممارسة الأعمال الصالحة . وفي الإشارة إلى المكذبن بـ (هؤلاء) المفيد القرب تحقير لهم ، واستصغار لثباتهم ، وإن كانوا يتجلبون للناس بجلايب الكبر والعظمة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : أنهم متمكنون فيما بين أيديهم من عاجل الدات ألعنيا ، ويتنسون أمهم يوما قد هيىء لهم فيه عذاب ثقيل ، وهولويل . فتكون (وراء) بمعنى أمام ، وكثيرا ما جازت بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وتعريضا بقياوتهم ، مد تركوا العزم ، ولم يتبدروا الخطب وهو أمامهم .

وقوله : (نحن خلقناهم الخ) فيه مود إلى تليين الكلام لهم ، ورفيق الخطاب معهم ، وتذكيرهم بأنه تعالى هو لا غيره الذى خلقهم خلقا : أحكم فيسه صنعمهم ، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ، فكانوا أقوياء أشداء مصصوبى الخلق ، سجدولي البدن ، وهذا معنى (وشحننا أسرهم) . يقال : « قد أسرنا الرجل » فأسرنا أسرهم ، بمعنى أنه خلق فأحسن خلقه ، وأحكم تكوينه . وبمعنى قول الأخطل في قصة أفراس مجنونة :

من كل مجنونة شديدا أسره
سلس أقياد تخاله مختالا

يعنى الله على هؤلاء المكذبن ، بل على سائر الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة لما يحتاجون إليه في وجوه التصرف وممارسة الأعمال ومباشرة الأسباب . وقوله : (ولما خلقنا الخ) ، أى ليس خلقنا لهم شديدا الأسر هو مبلغ جهتنا ، ومتنوى طاقتنا (را) لكن نحن مع هذا (إذ خلقنا) أن نلهمهم أهائناهم ، لم (يبدلنا أمثالهم) ، أى بدلنا بهم أمثالهم من البشر بحيث نخلق الآخرين خلقا يحكي خلق الأولين في شديدة

قَرَنَ شَاءَ الْمُحَدِّثِ إِلَى رِيَّةٍ سَبِيلًا ﴿١٠﴾ وَمَا نَسَاءُ وَنَ إِلَّا
أَنْ نَسَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ يَدْخُلُ مَنْ
نَسَاءَ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾

الامر ، وإتقان الصنع ، وتوليق الأعضاء . والآية
تحتمل معنيين :

١ - أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان
الأولين المكذبين - هم الأولون أنفسهم ، مذ يبعثهم من
قبورهم ، ويحييهم بعد موته يوم القيامة . فهو تعالى
يقول للمكذبين أنه تعالى كما خلقهم في الدنيا شديدي
الأسر - قادر على أن يخلقهم ثانية بعد الموت شديدي
الأسر . ويكون مغزى الآية إقامة الحجة على البتات
البعث وأماكن الحياة الثانية ، لأن من فعل الشيء مرة
قادر على أن يفعله مرة أخرى .

٢ - أن يكون المراد أنه تعالى قادر على إهلاك
المكذبين ، وأن يخلق في دار الدنيا غيرهم أمثالهم من
البشر ، ولكن مخالفتهم لهم في العمل - فيطيعون
أمره ، ولا يكذبون وحيه . فهو يهدد لهم ، وحض
على المسارعة إلى الإيمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير
بأنهم أن ماتوا هم فلا يظنوا أن أولادهم . ومن يأتى
من بعدهم يكونون في أعتاد والتكذيب أمثالهم ، بل
أن صدق الوحي ، وصحة دعوى محمد عليه الصلاة
والسلام - هي من الظهور بحيث لا يخفى مكانها على
أحد ، اللهم إلا من حمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء
المكذبون المخاطبون . فيكون المعنى في هذه الآية
الكامنة في آيات : (وأن تتولوا يستنبط قوما غيركم
لم لا يكونوا أمثالكم) ، (أن يشأ يذهبكم أيها الناس
وبات بأخرين) ، (أن يشأ يذهبكم وبات يخلق
جديد) .

(هذه) إشارة إلى السورة وما اشتملت عليه
من اللفظ الرشيق ، في الأسلوب الأنيق ، والمعنى
الدقيق ، في الخطاب الرقيق . (تذكروا) ذكرى يتذكر
بها الفاعل ، وموعظة تنزجر بها الجاهل . (فمن شاء)
من هؤلاء المكذبين الأذكار والإعطاء والإنفاق يهده
السورة والشيء على نورها - (اتخذ أي ربه سبيلا) .
أي أمكنه أن يتخذ من الإيمان والطاعة ، وأتباع الحق
وتصديق محمد عليه السلام - سبيلا يؤدي به إلى
رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه
من الهداية والتذكير . والدلالة على الحق في هذه
السورة وسائر سور القرآن مع ملامته الله به من نور
العقل وقوة الاستنتاج ولعمة الحواس . فأسباب
الخلاص ميسورة ، وسبيل النجاة مهففة تحت
مواقع إصرار العاملين أن أرادوا . غير أن قلبه العناد ،

وامتلاء الجهل عليهم ، جعلهم لا يشاهدون سلوك
هذه السبل الموصلة إلى النجاة (إلا) وقت (أن)
يشاء الله ، أن يسلكوها (١) مشيئة الهية مقترنة
بمشيئة جزئية مكتوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه في
اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختياري .

(أن الله كان عليما) بأحوال خلقه (حكيما) فيما
يرسمه لهم من السنن والنواميس ، وينزل عليهم
من الوحي والشرائع ، ويرسل إليهم من الأنبياء
والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام أمرهم ،
وارتقاء هماتهم . وقد سبق زيادة إفصاح لهذا
البحث عند قوله تعالى في سورة البقرة : (كذلك يفضل
الله من يشاء ويهدي من يشاء) ، وقوله أيضا فيها :
(فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله) .

ثم ختمت هذه السورة ببیان عاقبة الفريقين
الذين تضمنتها قوله تعالى : (فمن شاء اتخذ إلى
ربه سبيلا) ، فان مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا
إليه تعالى وهم المهندون ، وفريقا آخر لا يتخذ ذلك
السبيل إليه تعالى وهم الظالمون ، أي الجاثرون من
سبيل الإيمان ، الواضعون علمهم وسعيهم في غير
مواضع ، وهذا هو الظلم في أصل معناه اللغوي .

الفريق الأول قال الله عنهم : (يدخل من يشاء
في رحمته) ، أي جنته ورضوانه . وغير من هذا
الفريق التاجي بقوله (من يشاء) للإشارة إلى ساحة
الاطلاق ، وإلى أن دخولهم الجنة يكون بمحض مشيئته
تعالى لا يكرهه عليه مكروه .

وقال من الفريق الثاني وهم الذين حادوا عن
سبيل الإيمان : (والظالمين أعد لنا عذابا أليما) . فعل
(أعد) إستفعل من أن يعمل بكلمة (الظالمين) بضمهم
وهو (لهم) ، فيقدر للظالمين فعل ناسب بفسره (أعد)
مثل أن يقال : « وأعد الظالمين أعد لهم » أو « وجازى
الظالمين أعد لهم » .

والمعنى أنه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته
حسب حشيتهم وقضله عليهم ، كما يدخل الظالمين
المكذبين دار عذاب مؤلم أرصدها لهم .

(١) وذهب قوم في تفسير هذه الآية إلى غير هذا القائلوا :
« إلا أن يشاء الله » فهرم عليها بأثر ملاب من السماء مثلا
يترصدهم من فوقهم أو تست لرجلهم أن لم يؤمنوا ، فيؤمنوا
إذ شاء . لكن حملهم على الإيمان واليهدم إليه بهذه الطريقة
لا يردده الله ، ولم يجعله سنة من سنته الكونية في سياسة الخلق
واستصلاح أمر البشر ، لحكم وأمرار يملأها تعالى . وإنما اختاروا
هذا المعنى في تفسير الآية هربا من مفيدة الجبر للمفوعة
وحفظا لكلام الله من التناقض ، وصونا لأوامره تعالى من التعارض ،
وتلا يكون للناس على الله حجة - ليدعوا العمل ، ويضلسوا
الحجة . المؤلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْمُصَنِّتِ عَصْفًا ۝

تقدم ذكر السبب الذي من أجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن أساليب القسم المختلفة في القرآن هذا الأسلوب الذي افتتحت به هذه السورة .

ويشبهه القسم الذي افتتحت به سورة التازعات **مَاذَا قَالَ تَعَالَى : ()** والتازعات فرقاً . والتأنيطات نشاطاً . والسابحات سبحاً . فالسابتات سبقاً . فالمدبرات أمراً . أقسم تعالى بالكواكب تسرع في سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج إلى برج ، وتسبح في الأجواء سبحاً حثيثاً . ومنها كواكب تسبق غيرها بالأم دورتها : كالقمر والأرض ، وهذه السابحات تكون من أثرها تدبير بعض الأمور السكونية كمعرفة الحساب والفضول .

ويشبهه أيضاً القسم الذي افتتحت به سورة الصاديات **مَاذَا قَالَ تَعَالَى : ()** والصاديات ضيحا . فالواريات قدحا . فالغيرات صبحاً . فآثرن به نقما . فوسطن به جمعا . أقسم بغيل الجهاد تعدو ليسمع لنفسها زفير ، وتفتح الحصا بحوافرها وهي عادية فيطأير منها الشر ، ثم تشر على العدو . وقت الصباح فتفرز إذ ذاك الغبار بشدة عدوها . وحينئذ نقما جمع العدو وتوسطه لتفرقه شرا ملر .

وقد أراد ابن جرير أن يشبه بالقرآن في قسمه بالغيل في مقصوده المشهورة ، فاقسم أولاً بالتساق تحمل الحجاج إلى بلد الله الحرام فقال :

البلد بالجماعات يرمى بها النجاء بين أجواز الللا وبعد أن وصلها ووصفهم أقسم بالغيل تحمل الأبطال إلى ساحات القتال فقال :

بلدك أم بالغيل تعدو المرطى فأسرة أكبادها قب السكلى يحملن كل شمرى بأسسل فشم الجنان خائفن غمر الوشى

أقسم الله بالكواكب في سورة التازعات تنبها إلى ما في حركاتها ونظام سيرها في مداراتها من المنافع والمصالح ، وأنها إنما خلقت لأجل هذا ، ولم تخلق لتكون آلهة تنصرف في الأكوان كما يرمم عبدها

من الصلابة وغيرهم ، مشيراً إلى ذلك بما وصفها به من الأوصاف التي لا تجتمع قط مع أوصاف الألوحة .

وأقسم بالغيل في سورة الصاديات تنبها إلى فائدتها وما لها من حسن الأثر في خدمة البشر ، معظما شأنها في ذلك من حيث يبعث على اقتنائها ، والعناية بتربيتها ، وتكثر نسلها .

أما ما أقسم به في فاتحة هذه السورة - سورة المرسلات - فهو الرياح . إذ ليست الكواكب ، ولا الخيل السلاهب - بإمداد آثراً ، وأطيب ثمراً - منها في خدمة الخلق ، وتوفير مصالحهم ، وتيسير أسباب معاشهم .

علي أن التسمية المذكورة - الغيل والرياح والكواكب - أخوات متحالات ، في الحركة والنشاط وقطع المسافات : الغيل على سطح القبراء ، والكواكب في فسيح الخضراء ، والرياح ما ينفثها في أجواز الفضاء .

وليس المراد بالرياح القسم بها مادة الهواء الجوي الذي يحيط بالكرة الأرضية . فإن توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه - ظاهر لا يحتاج إلى قسم ، ولا إلى تنويه بالذكر - وإنما موضع الخفاء في فائدة الهواء - إذا هو عصف ورموح واضطرب واندهق إلى مسافات بعيدة بحيث ينشأ من اندفاعه أحياء كثيرة تشرب وتغمر ، وباده مستطير - يجعل بعض السدج على سبيل الرياح ، واستنكار أمرها ، والتساؤل عن الحكمة في خلقها .

وإن في هذه الرياح واضطرابها ، واختلاف مهامها - ما لا يحصى من المنافع وتيسير المصالح : من ذلك تسير السفن في البحار ، وسوق السحب الحافلة بالأمطار ، وتلقيح النباتات والأشجار ، وحمل البذور وتوزيعها في الصحاري والقفار . وقد ورد في بعض الآثار أن أمه من الأمم تلمرت من الرياح وتناع هيوبها ، ورغبت إلى نبيها أن يدعو الله ألا يجعلها تهب على بلادهم ، فوعظهم نبيهم ، وخوفهم العاقبة ، ونههم إلى ما في الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالى لم يخلقها عبثاً ، ولم يوسلها سدى . . . فأيها الآلاء العدا ، فلما الله فسكنت الرياح تلك السنة ، فعمقت الزروع والنباتات في حقولهم : فلم تعقد ثمرها ، ولم تعطل عصولا سوى التبن ، حتى مادوا فانتبهوا من غفلتهم إلى سبوء فعلتهم ، وابتهلوا إلى الله في اغاثتهم ، وتفرج كريتهم . وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصبح قائما تفصح من مغزى صحيح في فائدة الرياح وتؤمنون النفع بها البشر .

قال تعالى : (والمرسلات عرفاً) أي والرياح التي أرسلت وأطلقت هابة بعد طول ركودها وسكونها . يقال : « أرسل الغيل في الفلاة » إذا سرحها وأطلق لها العنان .

وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرِكُ ۖ فَأَلْفَزْتِ نَشْرًا ۖ فَأَلْفَزْتِ

ذِكْرًا ۖ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۖ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَعٍ ۖ

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ وَإِذَا السَّمَاءُ فُوجَتْ ۖ

وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ أُقْتَتْ ۖ لِأَيِّ

يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۖ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمٌ

وقلما ذكر القرآن إطلاق الرياح الا عبر عنه بفعل
لرسول . ففي سورة فاطر : (والله الذي ارسل
الرياح) ، وفي الحجر : (وارسلنا الرياح لواقح) ،
وفي الاحزاب : (فارسلنا عليهم ريحا) ، وفي الاعراف
(وهو الذي يرسل الرياح) ، وفي الزمر : (ومن
آياته ان يرسل الرياح) ، وفي آيات اخرى غيرها .
نقوله تعالى هنا : (والرسلات) من هذا القبيل .

اما قوله : (مرقا) فهو مثل لتتابع الرياح
المرسلة ، وهبوب بعضها في الر بعض ، مأخوذة من
عرب الفرس ، وهو اسم للريح السابت في مجلب
رقيته . يقال : « امرورف القوس » اذا صار
ذا عريف ، « وامروروف البحر » تراكبت امواجه ،
نصارت كالعرف . و « امروروف النخل » كثف
والثف ، فاصبح كالعرف . و « جاء القوم الى فلان
مرقا واحدا » اذا توجهوا اليه توكبة واحدة .
و « اصبحوا عليه كعرف الفصح » اذا تالوا عليه .
وامراب (مرقا) على الحال من الرسلات : اي
اسم بالرياح حالة كونها متتابعة ينفو بعضها
اثر بعض في هبوبها .

وبعد ان يرسلها الله ، وبعثها من سكنوها - تأخذ
في العصف بشدة . و (العصف) شدة الهبوب ،
فالريح الواحدة عاصفة ، ولجميع عاصفات . وعصفها
يكون بعد اطلاقها واخلاء سبيلها من دون تراخ ،
ومن ثم مظهره بالفاء فقال : (**فالعاصفات عصفًا**) اي
التشديدات الهبوب ، السرعات الممر .

هذه الرياح اذا اطلقت ، وهبت على هذه الصورة -
اتشأت سحبًا كثيرة تراها مبسطة ومنشورة في
اتفاق السماء . والذي نشر هذه السحاب وبسطها
هنا وهناك في فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة .
وهذا هو معنى قوله تعالى في صفتها : (**والناشرات**
نشرًا) .

وبعد ان تنشر الرياح السحب على هذه الصورة
تأخذ في تفريقها وتوزيعها على البلاد ، فتحيى
مواتها ، وتخصب نباتها . والذي يفرقها ويوزعها
هنا وهناك هو تلك الرياح الرسلات العاصفات
الناشرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : (**فالفرقات**
فرقا) . و (الفرقات) اسم فاعل من فرق الاشياء

اذا فصل ابعاضها ، وفرق الشعر بالمشط اذا
سرحه . وفرق الثلاثي كفرق الرباعي .

وقيل : ان فرق فرقا للاصلاح ، (واذا فرقنا بكم
البصر فانجيناكم) ، وفرق تفرقا للافساد ،
(فيستعملون منهما ما يفرقهن به بين المرء وزوجه) .

وما وصف الله به الرياح في هذه الاقسام من
معاني الارسال والنشر والفرق - تضمنته آية سورة
الاعراف مد قال تعالى : (وهو الذي يرسل الرياح
بشرا بين يدي رحمة حتى اذا اقلت سحبًا متفالًا
سققناه لبلى ميت) . فقله هنا (الرسلات) من
(يرسل) في تلك الآية . وقوله (الناشرات) من
(نشرًا) على قراءة من قراه بالنون . ومعنى
(نشرًا) : متفرقة تعم جوانب الارض ، جميع نشور
كوسل في جميع رسول ، وقوله (الفرقات) من
(سققناه) . فان معنى (سققناه) يرجع الى معنى
(فرقناه) ، اي اخذنا به ذات اليمين وذات الشمال
لنحيي البلاد ، ونسقي العباد .

ان الاقطار التي تكثر فيها الانهار المتدفقة ،
والتساييع المتفجرة - قلما يفكر اهلها في امر
السحب والأمطار ، او يشعرون بحاجة اليها مادامت
أراضيهم مضمونة الري ، مكينة المؤونة . اما اهالي
البلاد الأخرى الذين حرما الانهار ومياه السبح ،
والذين يتوقف خصب نباتهم وري زراعتهم على ماء
المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سنة ، ويعلمون ان
قلة الأمطار وانحباسها عنهم يعرضهم للجذب والثلف
والهلاك - فهم لا ياكثرون بنظرون الى الرياح الرسلات
وتهب وتشر السحاب وبسطه في اطراف السموات :
حتى تهتز بالفرح قلوبهم ، وتلجج بالذكر السنتم .
والذي يلقي هذه الذكري والشرى على هؤلاء الناس
انما هو تلك الرسلات الموصوفة بما وصفها الله به
من جميل الصنع ، وعظيم النفع . وهذا معنى قوله
تعالى في ختام صفاتها : (**فالقويات ذكرا**) ، اي فهي
بعد ان تفرق السحاب ، وتوزعها هنا وهناك على
البلاد ، تلقى في قلوب سكانها او على استنهم ذكرا
لن ارسلها اليهم ، ومن بها عليهم .

والبشر - وان كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح
المواصف والسحب الحوافل - يختلف ذكرهم هذا
باختلاف ايمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم
بوحية ورسالاته : فمنهم قوم يكون ذكرهم (**عقلًا**)
لهم منذ ربه في نحو سمائهم ، والمعو من خطابهم ،
لانهم اذا ذكروا الله فزادوا ذكره بالشكر له على ما اولي
من الرحمة ، واسخ من النعمة . ومنهم آخرون
يكون ذكرهم (**نقلًا**) ، اي بمثابة الانذار والتخويف
لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر الدال على
كفرهم ، وفرط عنادهم ، اذ اتهم بنسبون حدوث
هذه الرياح المرسلة ، والسحب الهائلة - الى
اصنامهم وطواغيتهم تارة ، والى الاتواء وقرانات
الكواكب تارة اخرى ، ويفعلون عن الفاعل الحقيقي
وهو الله تعالى .

وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ، فاتهم كانوا اذا مطروا قالوا : « مطروا بنو كذا » ، فنهى الشارع عنه ، وتقدم بالوعيد فيه ، وبته في هذه الآية اليه مد قال : (فالملقيات ذكرا ملروا أو نلروا) .

و (ملروا) مصدر علو - الثلاثي - اذا محا الاسماء ، ورفع الووم والعتب . و (نلروا) اسم مصدر لاتلر الرباعي اذا حذر وخوف . وهذا في الاعراب يدل من (ذكرا) . والتقدير : ان تلك الرياح بانثائها السحب الثقيل تلتقي في نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر بينا يكون ملروا محاييا ذنوب المؤمنين الموقنين - يكون أحيانا كثيرة انلاروا للجاحدين المبطلين . وفي الآية تعرض بمشركي العرب ، وتقبيح لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والفتنة من الشكر له على الآلاء ونعمه ما نسبوها الى غيره .

اقسم تعالى بهذه الرياح على أى شيء ؟ على ان ما اوعد به المشركين امر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : (انما توعدون) به انما المكذبون من محيى يوم القيامة والثواب والعقاب - (لواقع) ، أى هو حق كائن لامحالة ، فلا تمترؤ ولا تشكؤ . فقلوه : (انما توعدون الخ) جواب القسم .

وكما اقسم الله بالرياح العاصفة في سورتنا هذه على ان ما اوعد به المكذبين واقع - اقسم ايضا بها نفسها في سورة الناريات بالاسلوب نفسه على ان ما اوعدهم به صادق ، فقال تعالى : (والناريات ذروا . فالعاصفات ورا . فالناريات يسرا . فالملقيات امرا . انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع) . والمعنى : اقسم بالرياح التي تلتو التراب ذروا ، لم لا تلبث ان ينشأ من هبوبها اثنان عظيما الفائدة للبشر : سحابات حاملات في مغان السماء من ماء المطر حملا قتيلا ، وسفان جاريات على سطح البحر جريا سهلا . وهذه السفان أو مجموع هذه السفان ، والسحابات في مجيئها وذهابها وغدوها ورواحها تقسم في اقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها - امرا عظيم الخطر ، عظيم الأثر في انتظام معاشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم . وإى شيء مما خلقه الله اتفق للبشر من الأمطار التي تحملها السحب فتستقي بها ذروعهم ، ومن غروب الأقوات والأرزاق التي تجرى بها السفن لم تقسمها بينهم ؟

قوله : (فلما النجوم الخ) بيان وتفصيل لما اجمله في قوله السابق : (انما توعدون) من هول يوم القيامة (لواقع) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والسماء تفرج الخ .

(وطوسى) النجوم : ذهاب ضوئها . والطموس اذا نسب الى ما له نور : كالشمس والقمر والنجوم - كان بالمعنى المذكور ، وإذا نسب الى الصبح كان معناه صمما وذهب قوتها الباصرة ، وإذا نسب الى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، وإذا نسب الى المنزل أو الدار كان معناه انحطاطها وذهاب أثرها . وهو لازم متعمد ، يقال : طمست أنا ، وطمس هو بنفسه ،

ووصف النجوم بذهاب ضوئها يوم القيامة لانفاق وصفها بالانكدار والانتثار في آيتي : (وإذا النجوم انكثرت) ، (وإذا الكواكب انتثرت) و (انكثرت) بمعنى (انتثرت) . يقال : انكثرت في سيرة « اذا أسرع وانقض » و « انكثرت القوم على فلان » جأوه متتبعين ، ثم انصبوا عليه ، وليس هو من لون الكثرة . فالنجوم يوم القيامة تنكدر وتنتثر ذاهبة الضوء ، فافسدة الآلاء والمعالم .

وفرج (السماء) كتابة من احداث التشق بين اجزائها المتلاحمة ، يقال : « فرج الباب » اذا فتحه ، و « فرج بين الشئين » أوسع بينهما ويعد . وهذا معنى ما جاء في آيتي : (اذا السماء انشقت) ، (وفتحت السماء فكانت ابوابا) .

اما (نصف الجبال) فقلعها من أصلها وتفریق اجزائها : من « نصف الحب بالنصف » اذا فلفه وذراه ، و « نصفت الريح التراب » : قلعت وفركته هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء في آيات (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، (ويست الجبال يسرا) ، (وكانت الجبال كثيبا مهيبا) . والمعنى في الكل ان الجبال ترحز بشدة من مقارها ، وتعود كالفتات الخناث ، والسمساف (١) التغاير .

وقد وصف الوحى في هذه الآيات ما يطرا على الصالح يوم خرابه : من اضطراب حله ، وانكثار قتله ، وتبديل نظلمه ، وزوال تماسكه وأحكامه . والله تعالى وحده يعلم بآية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم ان يؤمن به ، ويكل أمر كتبه وتفصيله الى ربه .

هذا مايكون من شأن السماء والأرض في ذلك اليوم الموعود ، أما ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فان الأمر أهم ، والخطب أهم ، والخوف أهم . ذلك انه لا يبقى فيه أحد من السؤال والحسب حتى الرسل أنفسهم عليهم السلام ، فانهم يشعرون ذلك الوقف الرهيب في وقت المعين الذي كانوا ينتظرونه فيشهدون على أمهم ، ويرنون أنفسهم من بجمة التفريط في تبليغهم ، والتقصير في إحاض النصح لهم ، وهذا معنى (وإذا الرسل اقتت) ، وأصله « وقتت » من الوقت ، واقت الضمير باعتبار الجملة ، أى جعل لجملة الرسل وقت معلوم لا تصدونه . والعرب تعاقب بين الواو والهمزة ، فيقولون : « وكذ الخبر واكده » ، و « وقت الصلاة وأقتها » . وفي الأسماء وشائج ، ودهاء وأهاء ، ووكاف واكاف ، ووسادة وأسادة .

وفي التأنيث معنى التأجيل ، بل يقولون أحيانا : « وقت الأمر يوم كذا » اذا أجله اليه . قلما قال ان الرسل اقتت لها ميقات تشهد في حينه ، حسن أن يقع السؤال من ذلك الميقات الذي اقتت ، والأجل الذي ضرب ، فقال تعالى : (لاى يوم اجت) تلك

(١) سلساف اللقيح ما ارتفع من هبلوه عند التخل ، وسفياف التراب ما رقى منه .

الفصل ١٥ **وَلَيْلِ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ**
الْأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نَبِّئْهُمْ الْآخِرِينَ ١٧ كَذَلِكَ نَقُصُّ
وَالْمُجْرِمِينَ ١٨ وَلَيْلِ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٩ أَلَمْ تَحْطَمْ
مِنْ مَلَأُوهُمُ ٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ٢١ إِلَى قَدِيرٍ
مَعْلُومٍ ٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ٢٣ وَلَيْلِ يَوْمِئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ٢٤ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحْيَاءَ

الرسول ؟ ، وفي العدول من « وقت » الى « اجلت »
 - وهما بمعنى واحد - فتن في الخطاب ، وطرفة
 للأسلوب ، كما ان في الاستفهام من ذلك اليوم
 الضروب موعدا بقيام الساعة - تفخيما لشأنه ،
 وتهويلا لأمره .

ثم اجاب عن هذا السؤال بان الرسول اجلت (يوم
 الفصل) ، أي يوم القضاء الفصل ، أو الحكم
 الفصل ، ومعنى كون الحكم في ذلك اليوم فصلا : أنه
 لا مغيب له ، ولا معاودة فيه ، بل تستقر النفوس
 عنده ، وتطمئن القلوب اليه ، وذلك مثل يتكشف
 منها الظلم ، تفرق الحقائق مبينا ، ويصبح ملها
 شروبا ، ويتحول جودها ايماناً .

ولم تكف بتفخيم شأن ذلك اليوم ، يوم الفصل
 بالاستفهام عنه ، بل عاد فنوه بشأنه ، ونبه الى
 عظم هوله بقوله : (وما احداك) ، أي ما املك - أيها
 الانسان - (ما يوم الفصل ؟) : ما كنته ؟ وأي يوم
 عظيم هو ؟ وصحيب منك أن تتفائل عنه ، وتلهو مع
 العمل له ، حتى كاتك من شدة تهاونك ، وفرط
 غفلتك - أصبحت على بينة من أمر النجاة فيه .
 كلا فان ذلك اليوم اعظم من أن يدري أمره انسان ،
 او يحيط به عقل أو جنان .

وجواب (فاذا التجرد الخ) محلول موكول فهمه
 الى فطاعة السامع - والحذف على هذه الصورة من
 اساليب الإيجاز التي امتاز بها القرآن .
 وهو إما أن يقدر بمعونة آية (أنما نعوذون لواقع)
 السابقة ، والمعنى : اذا طست التجرد وجرى كيت
 وكيت ، اذا ذلك تعلمون جملة الوحي الالهي ، وصدق
 ما وعدكم به من مجيء يوم القيامة ، فتؤخذون
 باجرائكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق ربوسكم :
(ويل يومئذ للمكذبين) ، أي هلاك عظيم ، وخسار
 كبير في ذلك اليوم لاولئك المكذبين بهذا اليوم
 الوعود . أو يقدر الجواب بمعونة آية : (ويل يومئذ
 للمكذبين) الآية . والمعنى : اذا طست التجرد

وجرى كذا وكذا ، فهناك تعلمون مبلغ صلاتكم من
 الحق ، واغرائكم في الجود ، واستحقاقكم الويل
 والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون في قوله
 تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) إشارة للحواب
 ودلالة عليه .

بعد ان اكد الخبر بيوم القيامة ، وأنه كائن لامحالة .
 وبعد ان خوف المكذبين من شدة هوله وفظاعة مايقع
 فيه - عاد موعدهم من بطش الله على اسلوب آخر
 فقال : (ألم نهلك) الأقوام (الأولين) الذين كانوا في
 ابد أزمنة التاريخ ، فكذبوا وحيا ، وعصوا رسل ؟
 (ثم) بعد ان اهلكناهم ، ألم (تنبئهم الآخرين) ؟ ،
 أي نجعل الأقوام المتأخرين عنهم في الزمن ممن كانوا
 مثلهم في التكذيب والمعصيان - تابين لهم في الهلاك ،
 فاصابهم ما اصابهم ؟ وكان الظاهر أن يقول : « اما
 اهلكنا ... ثم اثبتنا ... » ؟ ، لكنه عدل الى المضارع
 احضارا للحال الماضية في الدهن وتصويرا لها في
 انفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع
 الهالكين .

والمعنى انكم ايها المكذبون بالقرآن او بمحمد عليه
 الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم
 الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكفون
 من قرب عتادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة يفصله في كل أسمة
 تسلك مصالكتهم في الجود والعتاد والأعراس من
 الحق . فهو ثانوس عام يأخذ بالقر كل من قومه ،
 واعترض في سبيله . وهذا هو معنى قوله : (كذلك) ،
 أي مثل ذلك الفعل الذي فعلناه بالأولين والآخرين
(نعل بالمجرمين) من اخوانهم السابقين على مثل
 طريقتهم . وفيه تعريض بشركي قريش ، وايقاظ
 لهم من غفلتهم ، وتنبية الى أنهم ان بقوا في غشيمتهم
 فسوف ينزل بهم ما نزل بغيرهم .

وقوله : (ويل يومئذ للمكذبين) تهديد للمجرمين
 الذين لا يرجعون ولا يمشون الى لقاء الحق ، وتنبية
 الى أنه تعالى ان أراد انفاذ مشيئته فيهم كما انفذها
 فيمن قبلهم - فان الويل والهلاك الشديد يكون ممن
 نصيبهم جراء تكذيبهم ، فليشتبهوا للأمم ، وليسلخوا
 من الخطر قبل وقوعه .

وجملة (ويل يومئذ للمكذبين) قد تكررت في هذه
 السورة ، وفصلت آياتها عشر مرات ، كما كان في
 سورة الرحمن من تكرير آية (فبأي آلاء ربكما
 تكذبان) ، وقد ضمن التكرير في سورة الرحمن
 التقرير بالثمم المختلفة التي كان الوحي يبعدها
 واجاعة واحدة ، فكلما ذكر لمعة قرأ بها ، ووبخ على
 النفلة جنبها ، كما يقول الرجل لفربه : ألم أحسن
 اليك بأن منحتك الأموال ؟ ألم أحسن اليك بأن فعلت لأجلك كذا
 وكذا ؟ فيضمن منه التكرير لاختلاف مايقرب به .

وهذا التكرير في الحضي على شكر النعم في سورة
 الرحمن كالتكرير في سورتنا هذه : من حيث انها

ذكرهم بنعمة ، أو خوفهم من نقمة — أكد التذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك الملبأ للمكذبين الذين استخفوا بهذه النعمة ، أو تهاوتوا بتلك النعمة . فيكون ذلك رادعا للمخاطبين من الغفلة ، وذاجرا لهم من التمادي في التكذيب ، وركوب الراس في العناد . وتكرير جملة واحدة ، واعدتها مرارا في خلال الكلام الواحد — مألوف للعرب ، معهود في خطبهم وأشعارهم . فمهمل بن ربيعة رمل أخاه كليب يشمر قال فيه :

وهمام بن مرة قد تركنا

عليه القسمان من التسود

على أن ليس عدلا من كليب

إذا طرد التيسم من الجلود

لم كثر قوله (على أن ليس عدلا من كليب) زهاء عشر مرات .

ولما حمى الحرث بن مباد من بني مهمل وسفكه الدماء قال إبياته المشهورة التي يقول فيها : (قربا مريب النعامة مني) ، وكرر هذه الجملة عدة مرات . وفي هذا التكرير من هو السامع والتأثير في نفسه ، ما لا يخفى على المتأدب المتدقق من لغة العرب ، وما فيها من كل معنى مجب .

قوله : (ألم نخلقكم الخ) تذكير للمكذبين ، وتعجب من غفلتهم وذهولهم عن أن من خلقهم من ماله مهين بهذه الطريقة لا بد أن يكون قادرا على إعادة خلقهم للبعث والحساب . لا جرم أنه تعالى قادر ، وهو أيسر عليه ، وأن المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراد به (الماء) الوبسة التي يتكون منها الإنسان . و (مهين) على وزن فاعيل ، ومعناه حقير أو ضعيف أو قليل ، ولعله مهن فهو مهين .

و (القرار) الذي جعل الله فيه ذلك الماء المهين هو الرحم ، مصدرا قر بالكان قرارا إذا ثبت وسكن ، ثم شاع استعماله في نفس المكان الذي يكون فيه الثبات والاستقرار . يقال : صار الأمر إلى قراره ، أي إلى حيث تناهى وليت . وقال تعالى : (جعل لكم الأرض قرارا) ، أي موطئ قرار وليت . و (مكين) فاعيل من تمكن بالكان إذا رسخت قدمه فيه . وحق (مكين) أن يوصف بها الماء الذي جعل في القرار ، لأنه هو الذي تمكن من القرار ، لا القرار نفسه ، لكنه جعل من صفته على الجار والتوسع ، كما يقال « نهر جار » : جعلوا الجريان من صفة النهر ، والنهر الشق في الأرض ، وأما الجريان من صفة الماء . ومعنى كون الماء مكينا في الرحم أن يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من القساد والتفثر ، وبهيته قبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا . ويحتمل أن يكون (مكين) صفة القرار الذي قلنا أن المراد به الرحم . ومعنى كونه مكينا أنه وضع

من جوف المرأة ومطوى احشائها بحيث يكون صالحا لاستيعاد النطفة ، مصونا مما يفسد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والماء الذي جعل في الرحم يستمر بعد أن يستقر فيه (إلى قدر) ، أي إلى مقدار من الزمن (معلوم) ، أي معين محدد . وقالوا في تلك المدة أنها من ٢٧٢ يوم — وهي مبارزة من تسعة أشهر شمسية — إلى ٢٨٠ يوم ، وهي عشرة أشهر من الشهور القمرية ، أو أربعون أسبوعا .

لم أن هذا الترتيب في جعل الماء المهين في الرحم ، وضرب أجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وأنسانا مفكرا أحذيا (١) — دال على ما للخلاق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التي يستحق عليها سبحانه وتعالى اعظم مدح وأكرم ثناء . ومن لم قال تعالى : (فقدرنا) بالتخفيف ، وهو بمعنى « قدرنا » بالتشديد . وقرىء بالتشديد أيضا ، (فنعم القادرون) نحن ، أي القادرون . يقال « قدر الشيء » ، « وقدره » بمعنى واحد ، هو بهينة الشيء وخسسه أجزاءه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة تبلغ بذلك الشيء درجة كماله ، وإيفائه الوظيفة التي أوجد لأجلها . وهكذا الشأن في أمر التوليد والولادة وتكون الجنين في الرحم وتطوره في الأشكال المختلفة — كل ذلك بترييب عجيب ، وتدبير غريب ، يشهد بسمو الحكم الإلهية ، وجليل النعم الربانية ، التي يستحق مكذبها ، والمعارى فيها — الويل والخسران .

وجعل بعض المفسرين (قدرنا) بالتخفيف من القسورة لا من التقدير . والمعنى : أننا قدرنا على ما أردنا من جعل النطفة في قرار مكين إلى الانتهاء الوقت الذي تستوفي فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، (فنعم القادرون) : أي نعم أصحاب القدرة نحن ، الجديرون بالحمد والثناء ، المستحقون لجميع شروب العبادة والثناء . فالويل للمكذبين بقدرتنا ، الماديين بوهلنا ، ونحكم آياتنا .

قوله : (ألم نجعل ... الخ) تذكير بضرب آخر من ضروب نعم الله على الخلاق ، ومجيب ضمنه في تدبير شؤونهم ، وتيسير راحة الحياة بل الممات لهم ، بحيث يستحق المعرض عن ذلك ، والمكذب بما للرب فيه من المنة والفضل — الويل والخسران . من ذلك أنه تعالى جعل الأرض التي يحيى بها فيها البشر ويموتون صالحة لتلقيهم على ظهورها في حياتهم ، ولانماجهم في بطنها بعد مماتهم . فهي تكفئهم وتضمهم إليها أحياء منتشرين في أصفاءهم ومختلف أشغالهم ، كما تكفئهم وتضمهم إليها أمواتا لا روح فيهم ، فتحفظ عوارهم ، وتصون كرامتهم ، فلا يكون على ظهورها أشلاء مدبرة كيف الحيوان : تنقبض منها

(١) (أحذيا) أي حذقا ، مشمرا للأمر ، فأمر لها : يسولها أحسن سلق بحيث لا يشد عليه فيه منها .

وَأَمَّا ١٥ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْمًا شَهِدَتْ وَأَسْقَيْنَكُمْ
مَاءً فَرَأَيْنَا ١٦ وَيْلَ يَوْمٍ لِّلْمَكْدُونِ ١٧ أَتَطْلِقُوا إِلَيَّ
مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ ١٨ أَتَطْلِقُوا إِلَيَّ ذِي فُلْكِ
شُعْبٍ ١٩ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ ٢٠ إِنَّمَا تَرَى
بِشْرَ كَالْفَصْرِ ٢١ كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صِفْرٌ ٢٢ وَيْلَ يَوْمٍ

النفوس ، وتتناهبها الكلاب والوحوش . وقد جاء هذا
المعنى في آية : (لم آمناه قاتله) كأي أمات الله الإنسان
موتاً مبزلاً من موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك
بان جمل له من جوف الأرض قبراً يوارى فيه
تكرمة له : فلا تتناوشه السباع ، ولا يبقى نصب
أمين أهله وذويه ، فيسوء ميثمهم ، وتنفص حيالهم
كلما راوه مطروحاً أمامهم .

و (كفانا) مصدر كفت الشيء إلى نفسه شمه ، وهو
الذي نصب (أحياء وأمواتا) على المفوضية . أما
من جعل (كفانا) اسماً بمعنى الوضع الذي يكفت
فيه الشيء ويضم كالمراء والصوان ، فإن (كفانا)
حينئذ لا تنصب (أحياء وأمواتا) بل ناصبهما فعل
محدوف نكر عليه (كفانا) ، كأنه قال : كفت أحياء
وأمواتا . ولكن (أحياء وأمواتا) لتعظيم شأنهما ،
وأنهما جميعاً بلغوا في الكثرة مبلغاً لا يمدون معه
ولا يحصون .

ويصح أن تكون (أحياء وأمواتا) منصوبة على
الحال ، فإنه قال : تكفتكم حالة كونكم أحياء وأمواتا .
أما كون الأرض تضم الأموات إلى صمدتها ، وتكون
كفانا لهم - فأمره ظاهر ، ولكن ما معنى أنها تضم
الأحياء إليها ؟ وكيف تكون كفانا لهم وهم منتشرون
لوق ظهرها ، متفلتون إلى كل جانب من جوانبها ؟
لا حواجز تصدهم ، ولا سدود تقوم في وجوههم ؟
قيل في الجواب : أن المراد يكون الأرض كفانا للأحياء
أن مثاولها ومساكنها كفات لهم ، تضمهم بين جفرائها
للبتوة والراحة والسكنى ، كما أن المقابر كفانت :
للأموات تضمهم بين جوانبها .

وأي أن اكتشاف ناموس الجاذبية إمام الذي
بوجبه تجذب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر
والدواب وسائر الأحياء ، والذي تولد لطاؤوا
ويبدوا شلز ملر في الفضاء ، بسبب حركة الأرض
اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول
الشمس بسرعة فائقة الحد . هذا الاكتشاف يفسر
لنا معنى ما قرأه الكتاب الإلهي من أن الأرض كفانت
للأحياء مد يكونون على ظهرها ، فإنها تجلبهم إليها ،

وتضمهم إلى صمدتها كما تفعل الأم الجنون ، فلا
تسهم يتقنون وهم بذلك لا يشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التي ذكر الله بها المكذبين ،
وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها - الجبال ،
مد قال تعالى : (وجعلنا فيها) أي في الأرض جيلا
(رواسي) : نوابت رواسخ ، (شامخات) : باذخات ،
ذاهبات في السماء صعدا ، والنعمة في هذه الجبال
من حيث أنها كالآوند الأرض في حفظ موازنتها ، ورسو
جوانبها ، واعتدال أقطارها . فهي تغنيها الاضطراب
والجيشان والميدان ، كما تبقى أوتاد الخيمة الخيمة
من مثل ذلك . وقد كشف الوحي عن هذا المعنى
فقال في سورة التحل : (والقي في الأرض رواسي
أن تعمد بكم) . ولولا هذه الجبال الشامخة لكانت
الأرض بما في جوفها من الغلات الحنقنة ، والبخارات
المنضطة ، والمواد المتراكمة المشتعلة - دائمة
الاضطراب والخفقان .

وقد يقول أرباب العلم الطبيعي في بعض مذهبوا
اليه : أن هذه الجبال إنما نشأت من زلازل الأرض ،
وتكونت من اندفاع حميها وموادها السائلة من
باطنها إلى ظاهرها ، وكيف تكون سببا في ثباتها
وقرارها ؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ،
ونشوء الجبال عنها - لا كان سببا في تثبيت
الأرض وتثبيت زلازلها واضطرابها ، كانت الجبال
بهذا الاعتبار - لا باعتبار ذاتها وهي قائمة على وجه
الأرض - كالآوند في تثبيتها ، ومنع ميدانها . ولو
بقيت المواد التي تكونت منها الجبال مستكنة في
جوف الأرض ، ولم تثبت من باطنها ، وتزأب
جيلا على ظاهرها - لبقيت الأرض دائمة اهتزاز
والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان . فتشكون
الجيال أذن نعم المسكن لخفقان قلب الأرض ، المرصها
من قلق بالها ، وهزة زلازلها ، وعصبه انقالها .

على أن في خلق الجبال التواضع نعمة أخرى
هي نشوء السحب فوقها ، وهطول الثلوج والأمطار
عليها ، فتكون بسبب ذلك الأنهار والصدول
والينابيع ، ثم تتكثر الزروع والأشجار والرماس
وضروب النبات . فالجبال مخازن الثلوج والأمطار ،
ومستودعات علمة البركات والغسرات ، وكل بلاد
تقل فيها الجبال تقل فيها الأمطار ، فيقل الزرع
والخضيب ، وتكثر الصحارى الرملية ، وبمع الحب .
ونظر كيف أنه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال
الشامخات قال : (وأسقينكم ماء فراثا) ، أي علبا
بالغ المدوية - للاشارة إلى أن الحكمة في خلق الجبال
هي أن تكون مستودعات للبياس والأمطار ، ومادة
للبيون والجدول والأنهار التي نستقي منها .

وقلما ذكر القرآن الجبال إلا أمقيا بذكر الأنهار
والينابيع . وليس ذلك إلا إشارة لما قلنا : من أن
الجبال الشوامخ وسائل الهاء ، ومعسايد لبركات
السما .

واتصا قل : (وأسقينكم) ، ولم يقل :

« وسقيناكم » - لأن فصل « سقى » الثلاثي أكثر ما يستعمل في الله الذي يطعم الإنسان لشربه ، أما « أسقى » فأكثر ما يستعمل لما يطعمه لشربه ولشرب ما شربه وسقى زرافته . وهذه المياه التي جلت بها العناية الإلهية علينا بواسطة الجبال إنما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولانعامنا وزرعنا وسقينا ، ولنفصل أجسامنا وليبنا وسائر أمعتنا .

ووصف الماء بالبارق ، وهو الشديد العذوبة ، لأن المياه التي تتفجر من صخور الجبال تكون أهدب من المياه التي تتحلب في السهول والأحساء (١) .

قوله : (انطلقوا ان) خطاب للمكذبين المذكورين في قوله : (ويل يوشع للمكذبين) أي ان اويل يوم القيمة سيحيي باولئك المكذبين بآيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال في ذلك اليوم لهم - وقد أصبحت دار العذاب تحت مواقع ابصارهم - (انطلقوا) أي المكذبون (إلى ما) أي عذاب (كنتم به) في دار الدنيا (تكذبون) . وهذا العذاب الذي أمروا بالانطلاق إليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف في هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرا يدها من مظاهر وأحواله ... فقال لهم مكررا على أسماعهم الأمر الأول : (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) . سمي العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمكذبين ، وبدليل أنه وصفه بأوصاف لا تجتمع قط مع أوصاف الظل الذي يتفوقه الإنسان ، ويتشبهه مقبلا لراخته ودمته - هو كالظل الذي يهد به أهل اليقين ، وهم فريق الأبرار ، مد قال تعالى في سورة الواقعة : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) في سدر مخضود ، وطلع منضود ، وظل ممدود . وماء مسكوب . ومعنى كون الظل الذي يتفوقه هذا الفريق ممدودا أنه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من أطرافه ، ولا ينفذ إليه الحزود من أية جهنم جهاته . أما ظل فريق الضالين فهو ينس الظل . وقد وصفه أيضا في سورة الواقعة فقال تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) في سموم وحميم . وظل من يحوم . لا يبرد ولا كريم . فقوله : (ظل من يحوم) ، أي من دخان أسود قائم . ومن كانت نوقه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال أنه في هداه وراحة ؟ وكيف يصح أن يسمى مأوى فيه ظلا إلا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل الجحومي الذي ذكره ألوهي في سورة الواقعة ، والذي قال أنه من نصيب أصحاب الشمال - أعاد ذكره في سورتنا هذه - المرسلات - وقال أن المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق إليه . وأصفوا له بقوله : (ذي ثلاث شعب) ، يريد أن الجحوم من دخان جهنم الذي انعقد كالظلمة على رؤوس المكذبين لا ينسبط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينسبط الظل الممدود من فوق أصحاب اليمين ، بل يتفترق

(١) جميع حصى ، وهو سهل من الأرض تستنقع مياه الأمطار تحت وماله .

وينثلم ويتشعب إلى ثلاث شعب أو ثلاث ذوائب ... كما هو شأن الدخان المتكاثف إذا خلى ونفسه في الفضاء . ويذهب أنه إذ ذلك (لا) هو (ظليل) يظل من يكون تحته ، وبقية أوار الحر كما هي عادة الظلال كلها وخاصة الظل الممدود من فوق رؤوس السماء ، (ولا) هو أيضا (يقني) من الجهميين المستظلين به ويقبهم (من الله) ، أي السنة النار المندلعة بهم من كل جانب . فما هذا الظل الممدود ؟ وأنى يكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يستعمل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده ، وهي أنه ليس بظليل ، وأنه لا يقني من الله ، وأن ناره أو شعبه ترمي بشر كالقصر .

وفعل (يقني) هذا بمعنى قولهم « لا يقني منك فلان شيئا » أي لا يجدي ولا ينفع ولا يفيد ، وهو يتعدى بمن ، و (من) في الآية مقترنة مع مجزئها كما أشرنا . و (من الله) متعلق بمعنى لثمنه معنى الوقاية والحفظ كما أشرنا إليه أيضا .

وذهب قطرب إلى أن الله هنا بمعنى العرش لا بمعنى الشواظ الذي يطير النار ، يقال : لهب الرجل لهما ولهبنا إذا عطش فهو لهبان . والمعنى عليه : أن ذلك الظل لا يظل من وجه الحر ، ولا ينفع في تخفيف العطش كما هي مادة الظلال الباردة .

فهم المخاطب من أوصاف الظل في الآية السابقة أنه ظل جهنمي ، وأن المراد به الدخان المتفقد في سماء جهنم ، فلم يعد يتردد في كون ضمير (أنها ترمي) المؤنث - مثلها إلى جهنم أو دار العذاب - على أنه يصح أن يرجع الضمير المذكور إلى قوله (ثلاث شعب) التي قلنا أن المراد بها ذوائب الجحوم المتكاثف في سماء تلك الدار ، فهو دخان لا كالدواخن (١) المقودة ، وله صفات فريسة غير مهمودة . من ذلك (أنها) أي شعب الجحوم وذوائبه (ترمي) على المستظلين بهما من وقت إلى آخر (بشر) جمع شرارة ، وهي ما يطاير من النار أثناء تظلمها ، وكل واحدة من هذا الشرر (كالقصر) أي كالبيت المبني .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ، لأنه إنما يفهم من القصر - حسب المشهور في معناه - البناء العظيم الشرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة المتساقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر ؟ بل ربما ذهب خياله إلى قصور الملوك الباذخة ، ذات الشرف والقيم والإبراج الشامخة ، فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر . ولكن القصر ان كان يطلق في لغة العرب على هذا الضرب من المساكن الشامخة فإنه يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيرا لاطنا ، بل قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ان تشبيه الشرر

(١) يجمع دخان على دواخن كما يجمع حنن (أي فيلر) على حوائن ، وليس لهما نظير في هذا لجميع الشال .

لِّلْمَكْدِينِ ۖ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْقُطُونَ ۖ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فِيَعْتَدُونَ ۖ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمَكْدِينِ ۖ هَذَا يَوْمٌ
الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۖ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

بالقصور. وارد على ما هو المعتاد في بلاد العرب من
جعل قصورهم قصيرة السكك - أي قليلة الارتفاع -
جارية في هياكلها وشكلها مجرى الخيام اهـ . وقد
أصح أبو العلاء المسمى قول ابن عباس هذا فقال يصف
نارا عظيمة ويشبه شرورها بالخيام :

حمرها ساطعة الدواب في النجى

ترمى بكل شرارة كطراف (١)

وقد نسر بعضهم (القصر) التي شبهت به
الشرارة - يجوز الحطب ، أي بالفيلظ من أضاده .
وكان هذا التساؤل استبعد أن يكون المراد بالقصر
البيت الحجري لما ذكرنا آنفا ، مع أن تفسيره به من
أحسن التشابيه ، وأشدّها انطباقا على مكان ما لو
للرب في ذلك العهد . وكثيرا ما شبه شعراؤهم
النفاق بالقصور ، قال منيرة :

فوقفت فيها فأننى تكتأف

فدن (٢) لأقضى حاجة الملوم

وقال امرؤ القيس :

ولما إن جرى ممن عليها

كما طبت بالفسن السيلها (٣)

يريد أن ناقتة لما مسحت كان الهم متراكبا عليها
تراكب الطين على جنون القصر ،

وقال الأخطل :

كانها برج رومي يشيده

لر بعض وأجر وأحجار

وقالوا في وصف نياق أو الفراس : « إن وقفن
لمجادل ، أو مريد فاجادل » . والمجادل القصور ،
والمجادل القصور .

ثم ذكر الكتاب لشر جهنم تشبيها آخر غير
تشبيهه بالقصر فقال : (كأنه جمالات صفر) ، أي كان
شر جهنم المتطائر منها (جمالات) جميع جمل ،
وهو الحيوان المعروف ، أو هو جمع جمال كما قالوا
في رجل وجمال ثم رجالات ، ومن جموع جمل أيضا
جمالة ، وقرى به أيضا (كأنه جمالة صفر) .

شبه الشرارات بالجمالات في عظمتها ولونها ، ثم
في كثرتها وانتشارها هنا وهناك : في الرمي وفي تتابع

(١) (الطراف) : النجى من الجلد الدروع :

(٢) (الفسن) : يفتحان : القصر .

(٣) (السيلع) : الطين بالين .

بعضها أثر بعض وهي سائر في قطارها . وهكذا
الشرارات ، تنبت الشرارة أثر الشرارة أثناء تظلي
ناريها ، و (الصفر) ذات اللون الأصفر المعروف ، أو
المراد بالصفرة هنا السواد الضارب إلى صفرة ، فإن
هذا اللون هو اللون الغالب في الزان الإبل والعرب ،
والعرب يستعملون وصف (الأصفر) فيما كان لونه
كالحلب والزعفران ، وفيما كان لونه أسود كالغراب
والدخان فهو من أسماء أو صفات الأضداد ، حتى
فسر بعضهم قوله تعالى في وصف بقرة بني إسرائيل :
(صفراء فاقع لونها) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جعل بعض المفسرين (القصر) في الآية
بمعنى جذوع الحطب الضخمة لا البيوت المروقة ،
كذلك جعل بعضهم (الجمالات) جمع الجمل بمعنى
القلي لا الحيوان المعروف ، والقلي جبل السنية
الضخم ، وقال أن الكتاب يشبه الشرارة بتتابعه وتلاحقه
والتصاقل كل شرارة بابحها بجبال السفن الضخمة
الباقية الغاية في الشخافة والطول ، فشرارات نار دار
الملك ترى في ضخامتها وتماسكها ولونها الأصفر
الضارب إلى السواد - كالقوس ، أي جبال السفن
التي هذه صفتها .

والحاصل أن الوحي الإلهي شبه شر جهنم في
كبرها ولونها بالقصور والجبال ، أو بجذوع الحطب
والجبال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور المحمر
في الذكر ، ولا من الجمع بينهما في التشبيه . فإذ
نظرت إلى قرينة من قرى العرب وقصورها ، أي بيائها
الصغيرة الأطلية المحمرة أو الصفرة بلون طبيها أو
ترابها أو حجارها وهي منتشرة هنا وهناك في جنبات
السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح في كل جانب من
جوانبها نياق وجمال مصفرة اللون أو مسودته ترمي
وتتناول بمشافتها أوراق الشجر والقيصوم تارة هنا
وطورا هنالك - إذا وقع نظرك على ذلك لاحت من
بعد في آن واحد أجساما صغيرة حمر أو صفراء أو
سوداء تترامى لك من خلال الكلا والغيب الأخضر :
هذه البيوت هنا ، وهذه الجمال هناك في مشهد
واحد ، وإذ ذلك لاعود مستبعد تشبيه الشرارات
الجهنمية بتلك الأنياب والجمالات ، ولا تستغرب
قرنتها معا في الذكر ، بل تستحلي ذلك وتعجب به .

وأمر هذه التشابيه ، ووقعها في النفوس ، وقرنها
أو يصدنها من الأدواق - مرجعها ، الألفه والاعتقاد
وتمقدار ثامر الحواس والمشاها بها . وهذا منشأ خطأ
الكثيرين - لاسيما الذين يجهلون أحوال العرب
وأطوار معاشها ، وأساليب حياتها - في حكمهم على
القرآن وبلاغته بل يرونه يصف وصفا ، أو يطلق
قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكي قصة غير مألوفة
لنا اليوم ، ولا مما جزئنا عليه في أساليب كلامنا ، ولا
مما اعتدنا أن نشعر به في حياتنا وأطوار اجتماعنا .
ويكون السبب في قصور حكمهم مخالفة ما نص عليه
لما عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذي روي

في آياته واساليب خطابه ما اعتادوه وألفوه هم ، كما قال ابن عباس في تشبيه شر النار بالقصور : « انه وأورد على ما هو المعتاد في بلاد الصرب من جعل قصورهم قصرة السمك ، جارية في هيئتها وشكلها مجرى المياه » .

ولعل ابن عباس إنما قال هذا بعد أن رأى ماري من قصور الشام والعراق التي يستعمل شعراؤها أن يشبهوها - مذ يرونها مثبوة بين المروج - بالنار بين اليرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها
كالنار بين زبرجد مكتون

وجميع ما يقال في ملذات الجنة ، وهل هي من جنس ملذات الدنيا أو أنها غيرها وقد ضربت ملذات الدنيا لها مثلا - يقال في نار جهنم : وأسباب اللذات التي فيها : أهى تيران وأسباب من جنس نار الدنيا وأسباب التعذيب التي فيها ؟ أم أن تيران الدنيا وأسباب عللها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ - كل ذلك لانقطع القول فيه قطعا ، وإنما نؤمن به ، ونكل أمر الكنه والحققة فيه إلى الله تعالى . وهذا يكفي في سلامة عقيدة المسلم ما دامت عقيدته تسير به في طريق المخافة من تلك النار : فيمثل أمر الله ، ويسلمس الطامات ، وينتهي عما نهى الله عنه ، ويجتنب السيئات . أما إذا لم يفعل ذلك ، ولم تنته عقيدته من الفحشاء والمنكر - فانه لا يفيد ، بل لا ينجي اعتقاده في جنم مهما اعتقد فيها ، وفي نوع نارها ، وأنانين ملذاتها . إذ الصبرة في الاعتقادات الدينية كالنار المحلجلة في الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست الصبرة فيها لكلماها المرددة في الأنواء والرقومة في بطون الطروس .

(هذا) إشارة إلى أن ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمي (١) ، ووصف شره العظيم - واقع وكائن لا محالة يوم القيامة ، وهو (يوم لا ينطقون) أي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ، ولا يتكلمون كلاما يفهمهم ، أو يدلون بحجة تتقدمهم . فليس المراد نفي النطق منهم بجملته ، بل نفي النطق النافع المفيد . إذ أنهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، و (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ، و (ربنا أخرجنا منها) في نظير ذلك . وهذا كما يقول ابن تيمية : « إنك أن خالتيه وفعلت ما نهيتك عنه . . . فلا كلام ولا علم » ، تعنى لا شيء منهما بمسموع منك ولا بمقبول ، والا فقد ينكر ذلك المذنب وقتله من الشرع ، وأيراد المعللة بعد المعللة .

وكذلك هم يومئذ (لا يؤذن لهم) في أن يتكلموا أو يدلوا بحجة من أنفسهم . وما الفائدة في الآن لهم

(١) هذا على قراءة « يوم لا ينطقون » بنصب يوم ، أما على قراءة الرفع فالإشارة إلى وقت وقوع اللذات التي وصفه ، ليصح الإتيان منه بيوم . وما قاله المؤلف فليترك من الوجهين مع تقدير مختلف . المصحح .

بذلك إذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل ؟ ولكنهم من ذلك ومع عدم الإذن لهم بالاعتذار تراهم يتدفعون بسائق الطمع في الخلاص والحرص على السلامة ، ويمقتضى الجيلة البشرية إلى الاكثار من الكلام وسرد الحجج والمنازير من دون ما فائدة كما قلنا . فقلوه تعالى : (فيعتلون) معطوف على (يؤذن لهم) ، وفيه مسلط عليه . والمعنى لا يكون لهم إذن ، كما لا يكون منهم اعتذار . ونفي الاعتذار هنا كنفي النطق في (لا ينطقون) من حيث أن المراد فيهما كليهما نفي النطق السافع ، ونفي الاعتذار المفيد الناجح ، والألا فهم ينطقون ويعتلون ، كما يفعل مادة المذنبون المخصوصون .

وإنما لم يقل (فيعتلوا) بالنصب ويجعل الفاء للتسبيح ، لأن ذلك يومهم أنهم إنما لم يعتلوا لأجل أنهم لم يؤذن لهم في الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتلوا المذلل السموع . وهذا غير مراد ، وإنما المراد أنه لا علم لهم كما لا إذن لهم ، فالفاء ملحق بالمعطوف للتسبيح . وهذا مع ما في رفع (يعتلون) من رعاية الفاصلة وموافقة رؤوس الآي ، وهو غرض صحيح ، في تأليف أجزاء الكلام الفصح .

وذهب بعض المفسرين - وهو منقول عن ابن عباس أيضا - إلى أن للناس يوم القيامة مواطن ومواقيت : فقد يتكلمون ويختصمون في مواطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون في مواطن آخر ، وقد يؤذن لهم فيلقتون ما لديهم في وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتلدون في وقت آخر .

و (اليوم) في كلام العرب كثيرا ما يؤيد به مطلق الوقت ، لا يباين النهار بعينه بين الشروق والغروب ، وذلك إذا أضافوه إلى فعل لا استمرار له ، فيقولون مثلا : أوردك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدمه ولو كان قدمه في الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرجعنا من كان بفيطننا
واليوم تبع من كانوا لنسا تما

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالجملة فإن الخطاب يوم القيامة شديد ، وويل المكذبين محقق أكيد ، فيسأل الله السلامة من أن نقف موقف حسرة أو ندامة .

(هذا) أي ذلك الوقت الذي لا ينطق فيه المكذبون ولا يعتلدون هو (يوم الفصل) ، أي يوم الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فصلا أنه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقيب له . أو المعنى أنه يفصل فيه بالحق بين الخلاق ، فلا يمكن لواحد منهم أن يقول : أنه ظلم ، أو لحقه جيب أو يفس .

ثم زاد ذلك اليوم أيضا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : (جعناكم) فيه أيها الأقوام المتأخرون في الزمن لموعدكم الذي كنا وعدناكموه في دار الدنيا . (و) قد جعنا أيضا بمكم (الأولين) المتقدمين في

فَكِيدُونَهُ ۝ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلِّهِ وَيُجِيرُهُمْ ۝ وَقَوْمَهُ مِمَّا يَسْتَهْزِئُونَ ۝ كَلَّا
وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَّالِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ۝ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ كَلَّا وَكَمْ تَعْمَلُونَ
قَلِيلًا إِنَّا نَعْلَمُ عَمَلَكُمْ ۝ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝
وَإِنَّا قَلِيلٌ مِّمَّنْ أَرَكُمُوهُ لَآ يَرُكِعُونَ ۝ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَيَا أَيُّهَا حَبِيبُ بَعْدُ يَوْمُنَا ۝

الزمن عليكم من الأمم ، لنحكم بينكم جميعا . فهاتين
أولاه . فند . ولينا لكم بذلك (فان كان لكم كيد) وحيلة
تتوسلون بها إلى النجاة والخلاص من عقوبتنا التي
أودعناكم بها كما كنتم تزعجون في دار الدنيا ، وتعملون
به وقت أن كانت رسلنا واتيانا تخوفكم من هذا
اليوم وتعلمكم أمواله - (فكيديهم) أي فكيدوني ،
واحتالوا علي ، واعملوا علي الخلاص من يدينا قدرتم .
وهذا توبيخ لهم علي ما كان منهم في دار الدنيا من
الكيد للأنياب ، والكذب بالوحي ، وتسجيل عليهم
بأخرى المعص والاعتكاف ، و (السكيد) : السكر
والحيله . و (كاده) : مكر به ، واحتال عليه ، وحاربه ،
وأراد به بسوء . و (كاد الأمر) : احتسار له ، وحاول
الوصول إليه بمختلف الطرق والأسباب .

لا جرم أن حيلة هؤلاء الكاذبين تكون يومئذ
باطلة ، وعملهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين
للويل وأهلاكه ، جزاء تكذيبهم الوحي ، وعصيانهم
أمر الله .

قوله : (ان التقيين الخ) و ارد على عادة القرآن
في تصنيف المخاطبين ، والمآبة بين أحوالهم ومختلف
أطوارهم ، فلا يذكر حالا إلا أمتبه بصدده ، ولا يصف
ما يكون لفريق إلا أمتبه بذكر ما يكون لقسيمه . يكون
الخطاب في ذلك ، ويتفنن فيه ما شاء ، تطرئة للكلام
في الأسجاع ، ويلوفا إلى ما يريد من أحداث الرغبة أو
الرغبة في النفوس . فهو في هذه الآيات بعدد ما هياه
لأهل طاعته في دار الثواب من صنوف البهجة والخفض
والنعم ، بعد ما عهد ما يكون للمكذبين من غد ذلك .
فقد ذكر أولا أن المكذبين سيأورون إلى ظل لا كالظلال .
فهو لا يبق حرا ، ولا يدفع عطشا ، ولا يجام استظل
به مما يشتهي لراحته ودعته سوى شر النار الهائل
في شكله المصحب في أمره .

أما فريق (التقيين) الصادقين بالوحي : فهم علي
العكس (في ظلال) ممدودة عليهم ، يتقلبون تحنها في
صنوف الراحة والنفطة والجزل . وليست هي كالظلال
الجهنمية التي بأوى إليها فريق المكذبين . (و) كذلك
المتقونهم في (عيون) . ومعنى كونهم فيها أنهم قريبون
منها وعلي حافاتها ، بحيث لا يصر عليهم الشرب
والتناول منها أي وقت أرادوا به ، وليسوا هم كالفريق
المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلم إلا شدة العسر
وفرط العطش .

وذكر (العيون) هنا ربما أيد ما قاله « قطرب »
من أن المراد بالهيب في قوله السابق « ولا يفتني من
الهب » - العطش . ويقال : رجل لهيب أي عطشان ،
فيكون قوله هنا (في ظلال) مقابل لقوله ثمة (ظل
ذي ثلاث شعب لا ظليل) ، وقوله (وعيون) مقابل
قوله (ولا يفتني من الهب) أي العطش ، وقوله
(وفواكه مما يستهون) مقابل قوله : (أنها ترمي
بشر كالقصر) ، أي أن المكذبين أن كانوا لا يتساقط
علي رموسهم من جوانب ظلمهم وشعبه المنخرقة سوى
الشر المحرق والشواظ المومع ، فإن المتقين لهم في
ظلالهم الممدودة وفوقهم وفواكه ولما تساقط عليهم ،
ويتناولون من أتواها ومختلف أصنافها ما اشتوا
وأحبوا .

ويشبه أن يكون عطف قوله (وعيون وفواكه)
علي قوله (في ظلال) - من قبيل قول الشاعر :
« وزججن الحواجب والعيونا » ، فإن التزجيج أي
الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والأقسام
يعين أن يكون التقدير « وكحل العيون » ، وكذلك
هنا . فإن استقرار التقيين وفواكه إنما يكون في الظلال
المندودة من فوق رموسهم ، ولا يكون التهوؤ في العيون
الجارية ، ولا في الفواكه البائسة ، فيمتنع أن يكون
التقدير « أن التقيين يقيمون في ظلال ، ويشربون من
عيون ، ويأكلون من فواكه » ، وهذا الخلف من لطيف
ابجاز القرآن ، ومجيب اندماجه . أما علي التوجيه
الأول الذي جعل فيه متعلق الجار واحدا - فالتقدير
هكذا : أن التقيين يمزحون في صنوف من نعيم الجنة :
ظلال وعيون وفواكه . وربما كان هذا التوجيه في
تفسير الآية أعلق بالبالغة ، وأدنى إلى الصواب .

وقوله تعالى : (كَلَّا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا مَّا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ) فيه أيضا شيء من الإيجاز والاندماج . إذ
التقدير : أن التقيين مستقرون في تلك الظلال ، مقولا
لهم : (كَلَّا وَاشْرَبُوا : الخ) ، وليس المراد من ذلك
أمرهم بمجرد الأكل والشرب والاعتصار علي لدواهم .
لأن ما كانوا يعملون من الطاعات ، وما جاورهم من
في سبيل رضا الله - أكرم وأكبر من أن يكافئهم زعيم
عليه بالأكل والشرب وحدهما ، وإنما هناك ملذات
وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يترك
كنها كما في الحديث القديم « أعددت لعبادي
الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر
علي قلب بشر » . . يؤمر أولئك المتقون الصالحون في

الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوا منها ما شاءوا وأحبوا ، وهذا كما تقول لابنك المطيع وقد أصبحت إليه نعماً وأبادةى « ذهب يابنى ، كل واشرب وتمتع بهذه الدوى جزاء برك بى وطاعتك لى » . وانتريد أنظار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، وإعطاه الحق أن يكون حراً مطلق السراح بفعل ما يشاء ، بعد ذلك التصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الأكل والشرب هو كل همه ومتنته حظه من تلك النعم والأبادةى التى أسبقها عليه . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (كلاوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) فى سورة الحاقة - زيادة تفصيل وإيضاح لما قلنا هنا . فراجعه ثمة أن شئت (١) .

وقوله : (انا كذلك الخ) ، يريد : انا كما جرتنا المتقين بما ذكر من صفات الراحة ، وأنواع النعمة والتعظيم فى جنان العلة الآتية لهم على ما كان من طاعتهم لنا فى دار الدنيا - كذلك نجزي وتنبئ كل محسن متق مطيع على أحسنه وتقواه وطعنته : لا نضيع لعمال عملاً ، ولا نبغى لأحد حقاً . فالويل بعد هذا لن كلذب وحينا ، وخالف أمرنا ، وهضى رسولنا .

وقوله : (كلاوا وتمتعوا الخ) خطاب للمكذبين الذين أنلهم فى ختام الآية السابقة بالبوايل والهلاك أن هم أصروا على تكذيبهم . وليس المراد من (كلاوا وتمتعوا) حقيقة الأمر بالكل والتمتع ، وإنما المراد به التهديد والوعيد . فهو يقول لهم : (كلاوا) ، وأرضوا من حياتكم الدنيا بتناول الطعام والمشرب كما هو شأن البهائم التى همها علفها ، وملء كروشها ، وهى لأهية مما يراد بها ، (وتمتعوا) كيف شئتم باللذات ، وتقم الشهوات ، تمتعوا أو زمتا (قليلاً) ، وهو مدة أعماركم القصيرة فى دار الدنيا ، (انكم) أيها المكذبون (مجرمون) . وقد سن الله للمجرمين من قبلكم سنناً لا تتبدل ونواميس لا تتخلف . وهو تعالى أخذ بكم ماخذهم ، فيمهلكم فى غفلكم ، ويمدكم فى طغيانكم ، حتى إذا جاء موعدكم تكل بكم ، وأقر عين الصلح بالانتقام منكم .

فقلوه : (كلاوا وتمتعوا) يفيد التهديد والوعيد ، كما يفيد قوله الآخر - وقد نهيتهم من أمر فلم يبتئ به - : « افعل فاشاء ثم اتظر ما يحل بك » ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به أن أمر على المخالفة .

ويشبه أن يكون إراد فى قوله : (كلاوا وتمتعوا) التقرع والتعير الذى لواده الشاعر فى قوله :

انى رأيت من الكرم حبسبك
أن تلبسوا خز الثياب وثبىوا
وإذا تدوكورت الكرام مسرة
فى مجلس أتم به فتغنصوا
وربما أوهم مجيء قوله : (كلاوا وتمتعوا) فى خطاب المجرمين بعد قوله : (كلاوا واشربوا هنيئاً) فى خطاب

(١) فى نسخة ٢٦ من هذا الكتاب .

المتقين - أنه خطاب للمجرمين فى دار العذاب الأخرى ، كما أن خطاب المتقين يكون فى دار النعيم الأخرى . وليس الأمر كذلك ، فقلوه فى خطاب المجرمين (قليلاً) وزمتا قليلاً ، فيكون ظرفاً ، وعلى كلا الأمرين لا يناسب أن يقع هذا فى خطاب المجرمين وهم فى دار العذاب ، لأن كلامهم وتمتعهم إنما يوصف بالقتلة فى مقادير أو فى زمنه إذا لاحظناه واقعاً فى دار النيبسا الفانية ، لا فى دار الآخرة الخالدة ، التى باكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الفسطين نعمتا ويبيلا ، وزمتا طويلاً لا آخر لهما ، ولا ينتهيان عند حد .

(و) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ، ونزول العقوبة الإلهية بهم كما نزلت بالأمم قبلهم - أنهم (اذا قيل لهم ادعوا) أى ادعوا إلى الله تعالى ، وتواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والمعجب والاستكبار . (لا يركعون) ، ولا يتواضعون ولا يخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم . فالركوع هنا بهذا المعنى لا يعنى التحيية والاعتناء على الركبتين للصلاة . يقال : ركع إلى الله إذا اطمان إليه وخضع .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به ركوع الصلاة ، فالعنى : اذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا إلى الله مع جملة المسلمين ، وشاركوهم فى إخلاص العبادة له ، وأخلصوا الأصنام والطواغيت التى عبدونها - أبوا واستكبروا . وأبواهم الصلاة التى تعالى بعد أمر النبى لهم بذلك ما هو إلا تكذيب لنبيهم بما أبلغهم إياه من وجوب الركوع لله . على أن نبيهم صلى الله عليه وسلم ما كان يأمر بالصلاة من عند نفسه ، فاعتلمهم منها هو فى الغنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وقد أسلمت يوم فتح مكة : كيف تدين الإسلام يا هند ؟ قالت : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله : حسن أولاً ثلاث » . قال : وما هن ؟ قالت : « التحيية ، والخضار ، وركلى العبد الأسود على ظهر الكعبة » . والتحيية الركوع ، ويطلق على السجود أيضاً ، وتعنى بالعبد الأسود سيدنا بلالا رضى الله عنه لما يعلى الكعبة للأذان . فأجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : « أما التحيية فلا صلاة من دون ركوع ، وأما الخضار فهو أحسن ستر ، وأما الأسود فانه نعم العبد هو » .

وكان سادات قرشى يرون الركوع والسجود من أشد الأمور عليهم ، وذلك لفرط حبهم ونحوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد أبى الإسلام : « والله لا تعلمونى أسنى » . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر وقد تكيف بالصلاة ، فقالوا : « لانحنى » ، فانها سبة لئاه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا خير فى دين ليس فيه

ركوع ولا سجود» ، على أن الإسلام أتاه جاء لترويض النفوس المالية وتذليل انفتها .

لم أن هؤلاء المكلفين إذا لم يؤمنوا بهذا الوجه السماوي والحديث الإلهي خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم - (فيأى حديث محمد بن مؤمنون ؟) ، لا حديث ولا كتاب سماوى يبلغ ما بلغه القرآن من صدق : اللهجة ، ونصوح الحج ، ووضوح المحجة . فإذا كذبوا بالقرآن ، ورفسوا من هديه ، وزهدوا في وعظهم ونصحهم - كانوا من غيرهم أرغب ، وفي وعظه ونصحهم أزهى .

وهكذا يقف هؤلاء المجرمون أمامهم : لا ينتفعون بحكمة ، ولا يستقيثون بنود ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتهم اليقين ، وتنادى عليهم يومئذ (ويل يومئذ للمكلفين) .

وكان نساء الجاهلية يكثرن من التبرج وإبداء الزينة ، وقد امتدن ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند الزاهية باستعمال الخمار ، ووجوب ترك التبرج المعتاد لما فيه منستر المحاسن ، وكذلك استعظمت أن بطلا سيدنا بلال الكعبة بقدسه ، والعرب كانوا يجارونها كثيرا . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أشعل في الجواب إلى أن المؤمن الصالح كمثل بلال أفضل من الكعبة ، لاسيما إذا كان يدعو إلى الله ، وإلى عبادته الخالصة من شوائب الوثنية . وفي قوله هذا سد للريسة عبادة الكعبة التي ربما كانت تخالغ نفوس بعض العرب .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضا صبيحة يوم الجمعة الواقع في ٩ الحرام سنة ١٣٣٨ الموافق ليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٩١٩ في مدينة دمشق الشام ، وأنا بها نزيل ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

راجع التفسير الأستاذ الشيخ عطيه صقر من علماء المراقبة الصامة للثقافة بالأزهر ، وراجع آيات القرآن الكريمة على الرسم العثماني الأستاذ الشيخ عامر عثمان المدرس بمعهد القراءات وعضو لجنة مراجعة المصاحف ، وذلك تحت إشراف المراقبة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف

كتاب الشعب

القرآن الكريم

جزء ٢٩٥
عمر ٢٣

تفسير

الأستاذ الإمام محمد عبده

الطبعة الرابعة

حاج تيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا . واغفر لنا ، ربنا ، انك أنت العزيز الحكيم .

فتحت لي يارب أبواب فضلك ، وعرفتني ماشئت من أمرار قولك ،
فبأى لسان أحمدك ، وبأية جراحة أشكرك .

أسألك المعونة على بيان الحق ، لأرشاد المستمدين لقبوله من الخلق ،
وأن تجعل الكلمة العليا لكتابك المبين ، والسلطة العظمى لهدى خاتم
المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى جميع النبيين ، ومن تبعهم
على الصراط المستقيم ، واقتفى أثرهم في الصالحات والسير القويم .
وأرشد اللهم هذه الأمة العالمة الى ما فيه لها السلامة والعافية ، ولا تجعلها
حربا للهادين ، ولا فتنة للضالين المفضلين .

محمد عبده

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

سُورَةُ النَّبَاِ مَكِّيَّةٌ وَلَا يَاتُهَا اَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ
فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ۝ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

كان غير المؤمنين يسأل بعضهم بعضاً من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ،
ويسألون غيرهم فيقولون : هل هو رسول ؟ وما هذا الخبر الذي جاء به من دعوى أنه
مرسل من قبل الله يدعو الى توحيده والى الاعتقاد باليوم الآخر وهو يوم القيامة ، يوم
يُسْأَلُ كل عامل عما قِيلَ ؟ فَيُكْتَبُ لَهُمْ الله بقوله : من اى شيء يتساءلون ؟ ثم قال عن الخبر
العظيم الذى هم فيه مختلفون : بعضهم يُنْكِرُهُ ، وبعضهم يتردد فى صحته . ثم رد عليهم الانتكار
والتردد بقوله : **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** ، ثم **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** — اى ستكشف لهم الحقيقة ، ويرون
صحة الخبر ، وتنقطع التُّبَيُّهَةُ فيه يوم تقوم الساعة ويُفَصَّلُ بينهم . ثم ذَكَرَهُمْ بدلائل
قدرته وآيات رحمته فقال : **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا النَّحْ** ، اى اَنْ مَنْ يُنِمْ على الناس
هذه النعم العظيمة لا يُهْمِلُهُمْ من ارسل داعياً الى توحيده بعد ما قَبَّلُوا عنه ، وهادياً الى
طريقه المستقيم ، ومُذَكِّرٌ بيوم الحساب . وليس بعظيم على صاحب هذا الاحسان ان
يُرْسِلَ ذلك الرسول ، **وَلَا اَنْ يُحَقِّقَ مَا يَدْعُو الى الاعتقاد به من شئون اليوم الآخر** ،
وهى ما ذكر في قوله : **اِنْ يَوْمَ الْقَضَاِ النَّحْ** .

(**نَحْ**) اصله مما ، اى من اى شيء . والابهام للتعظيم . و (**النَّبَاِ**) الخبر الذى يهتم
له . و (**كَلَّا**) للردع ونفي الزعم الباطل . (**الْاَهَادِ**) الفرائض . وقد جعل الله الارض
موطناً للناس والدواب يقيمون عليها ، فهى فراش لهم . و (**الْاَوْتَادُ**) جمع وَتْدٌ ، بسكون التاء
وسمى بها وهو معروف . واما كانت الجبال اوتاداً لان بروزها فى الارض كبروز الاتواد
المُورُوزَةِ فيها ، ولانها فى تثبيت الارض ومنعها من الميدان والاضطراب كالاتواد فى حفظ
الخيشة من مثل ذلك ، كان اقطار الارض قد شُكِّلَتْ اليها ، ولولا الجبال لكانت الارض
دائمة الاضطراب بما فى جوها من المواد الدائمة الجِشَان . و (**اَزْوَاجًا**) ذَكَرْنَا وَأُنْثَى لِيُتِمَّ
الانثناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية . و (**النَّسَبَاتِ**)
بضم السين الموحدة ، والنسبوت الميتة ، من النسبوت وهو القطع . والنوم احد الوتين ،
ونعمة الله فيه كبيرة ، فان موت بضع ساعات فى اليوم يريح القوى من تعبها ، وَيُنَشِّطُهَا

سُبَاتًا ① وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ② وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا ③ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ④ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑤ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑥
لِنُخْرِجَ بِهِ مَحَبًّا وَنَبَاتًا ⑦ وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا ⑧ إِنَّ يَوْمَ
الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ⑨ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ

من كسلها ، ويُعِيدُ إليها ما قَدَّمَ منها . ولو لم يكن النوم موتا واليقظة بعثا لم يتم هذا
التجديد للقوى .

(لباس) الجسم ما يستتره . والليل شبهه باللباس لأنه يستتر الأشخاص بظلمته .
والناس في هذا التستر فوائد اللباس ، فكما أن اللباس يقي من الحر والبرد ويستتر
المورات من النظر ، كذلك الليل يستتر فيه الفار من العدو أو الحيوان المفترس المطارد
له ، ويختفي فيه الكامن للولوب على ما يريد التخلص منه والنجاة من شر مساوئره .
وكم لظلام الليل عندك من يد . فخير أن المساوية تكذب
(و العاش) الحياة ، فكما جعل النوم موتا جعل اليقظة حياة . والنهار زمن
هذه الحياة ، أي جعل النهار وقت معاش يستيقظون فيه ويتقلبون في حوالجهم
ومكاسبهم . و (السمع الشداد) الطرائق السبع ، وهي ما فيه الكواكب السبعة السيارة
المشهوره . وخصها بالذكر لظهورها ومعرفه العامة لها ، والإبقاء على ما هو أعظم منها
وهو ما وراءها من موالم السموات ووصفها بالشدة لأنها تحكمة متينة لا يؤثر فيها
مرور الزمان . و (الوهج) التلألؤ الوقاد ، والسراج الوهّاج هو الشمس . و (المعصرات)
السحاب والغيوم إذا أمصرت ، أي جاء وقت أن تمصر الماء فيسقط منها المطر .
و (التجّاج) المنصب بكثرة . و (الحب) يعني به ما يقتات به الناس من نحو الحنطة
والشعير . و (النبات) ما يقتات به الدواب من التبن والحشيش «كلوا وارعوا أتعامكم»
«متاماً لكم ولأعماكم» . و (الجنات) جمع جنة ، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر
أو النخل . و (الافاف) أي ملتفة الشجر لتقارب أغصانه وطول أفئانه . و (يوم الفصل)
هو يوم القيامة يظهر فيه الحق ، وتكشف الستار من القلوب ، والالتباس عن العيون
ليفصل بين الباطل والباطل . و (كان مِيقَاتًا) أي ينتهي إليه الناس فيجتمعون فيه ليرى
كل حاقبة عمله . وكان كذلك أي قضاء الله وقدره . (يوم ينفخ في الصور) بدل من
يوم الفصل ، أو عطف بيان له . والنفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة
بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . علينا أن نؤمن بما ورد من
النفخ في الصور وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور ، والبحث وراء هذا عبث
لايسوغ المسلم . و (الافواج) الأمم والطوائف ، أي تأتون أمما وطوائف مختلفة .
(وفتحت السماء) أي أنه يتغير في ذلك اليوم نظام الكون : فلا تبقى أرض على أنها تظل
ولا سماء على أنها تظل - بل تكون السماء بالنسبة إلى الأرواح مفتحة الأبواب ، بل
تكون أبوابا فلا يبقى علو ولا سفلى ، ولا يكون مانع يمنع الأرواح من السير حيث تشاء .

أَفْوَاجًا ❶ ۖ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ❷ ۖ وَسَيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ❸ ۖ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ❹ ۖ
لِلطَّيِّغِينَ مَتَابًا ❺ ۖ لَّيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ❻ ۖ لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ❼ ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ❽ ۖ جَزَاءً
وِفَاقًا ❾ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ❿ ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

والآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التي نحن فيها ، فنؤمن بما ورد بالخبر في وصفه ولا نجحت من حقائقه مادام الوارد غير محال . ولا شك أن امتناع السماء علبسا إنما هو لطبيعة أجسامنا في هذه الحياة الدنيا . أما النشأة الأخرى فقد تكون على غير ذلك ، فتكون السماء بالنسبة إلينا أبوابا ندخل من أيها شئنا باذن الله . وقد يكون معنى تفتح السماء ما عني بقوله : إذا السماء انشقت . . . إذا السماء انفطرت . . . يوم تشقق السماء بالغمام ، أي أنه يقع الاضطراب في نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء الأسمالك وأبواب لا يلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب الكون العلوي كما يغرب الكون السفلي .

(وسيرت الجبال) تمثيل لمر الأرض في ذلك اليوم ، وإن جبالها لا تكون على مسجها المعروف اليوم ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعيد ، فإذا لمسته لم يجد شيئا ، وذلك لتفرق أجزائها وتشتت جواهرها .

بعد أن عُد وجهه أحسنه ودلائل قدرته على إرسال رسوله وتأييده ، وذكر أن الفصل بين الرسول وبين معانديه سيكون يوم القيامة ، وذكر حوله وامتياز شؤنه من شئون أيام الدنيا - جاء إلى وعيد الكافرين وبيان ما يلاقونه ، وأخبر أن جهنم - وهي دار العذاب - قد قدرها الله مرصدا وحدا يرصدون فيه للعذاب ، وهي مرجعهم الذي ينتهون إليه ، وأنهم سيقومون فيها مددا طويلا ، مجدبين معذبين لا يجدون شيئا من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها روحا بنفس منهم حر النار ، ولا يذوقون من الشراب إلا الماء الحار والصديد الذي يمسيل من أبدانهم جزاء يوافق أعمالهم ، لأنهم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ولذلك افترقوا السيئات ، وأتوا خيالات الأعمال ، وكذبوا بالدلائل التي أقامها الله على صدق رسله تكذيبا أشد تكذيب . وقد أجصى الكل شيء في كتاب علمه ، فلم يغب عنه شيء مما صدر منهم ، وسبوا فيهم جزاء ما صنعوا ، وستكون كلمته العالمة أن يقول لهم ذوقوا فلن تزيدكم إلا عذابا .

(الباب) المرجع . (لآئين) مقيمين . (الاخطاب) جمع حطب بضمين ، قيل هو لما نبت سنة ، وقيل أكثر من ذلك . والمراد المدد المتطاولة ، ولا يكاد يستعمل الحطب والحطبية إلا حيث يراد تنابع الأزمنة وتواليها ، أي يلبثون فيها مددا إلى غير النهاية . (البرد) برد الهواء ، أو هو النوم ، ورد من بعض العرب « منع البرد البرد » . (الغسق) من فسق بفتح إذا نصب وسال ، وهو التبيح والصديد الدائم السيلان من أجساد أهل النار . (الوفاق) مصدر وافق ، وصف به الجزاء مبالغة . (كلانا) أي تكذبا .

كَيْدًا أَبَا ٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ٢٩ فَذُوقُوا فَلَنْ
تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَقَارًا ٣١
حَدَاقًا وَأَعْنَابًا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كَيْدًا ٣٥ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ
جَسَابًا ٣٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ
لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ
صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ٣٨

وهذه الصيغة فاشية في كلام فصحاء العرب في باب فعل ، فيقال فمر فسارا مثلا . (كتاب)
مصدر كتب ، وهو في موضع أحصاء ، كأنه قيل أحصيناه أحصاء ، أو أن أحصيناه في
معنى كتيبناه ، لأن الإحصاء بالكتابة ، أو الكتابة هنا على النحو الذي يليق ببنوة الله تعالى ،
وهو أعلى من كتابتنا التي نعرفها وأشد منها ضيضا ، لكنا لا تكلف بالبحث منها ، فذلك
مما تؤمن به وتكل علم حقيقته إلى الله . (أن للمتقين النج) . بعد ما بين حال المكذبين جاء
بما يناله المتقون ، وأنهم سيفوزون بالأجر العظيم في الجنان التي وصفها ووصف ما فيها ،
وأن ذلك عطاء لهم من مالك السموات والأرض ، عظيم الرحمة والانتعام الذي لا يملك أحد
من أهل السموات والأرض أن يخاطبه في شأن الثواب والعقاب ، بل هو التصرف فيه
وحده في ذلك اليوم الذي يقوم فيه الروح والخلق القدس من عالم الغيب والملائكة صفا ،
ولا يمكن لأحد أن يتكلم إلا من أذن له الرحمن ونطق بالصواب .

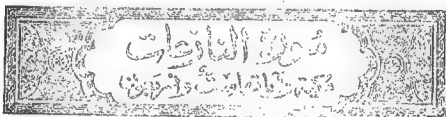
(الكافز) : الفوز بالنعيم والثواب أو مكان ذلك . (والحدائق) : البساتين فيها أنواع
الشجر الثمر . و (الأغاني) : معروفة ، جمع غنم ، خصها بالذكر لأهميتها . و (الكواعب)
البنات اللاتي استدارت لديهن . و (الأتراب) اللاتي من سن واحدة . والمتنم بهذه البنات
في الجنة مما يتمثله الإنسان في هذه الدنيا على نحو من اللذة ولكن لا تعلم حقيقته في الجنة .
وفاية ما يجب أن تصدق به أنه تمنع فائق اللذة على حسب ما يناسب ذلك العالم الأخرى .
(الكاس) أناء من بلور يشرب فيه . و (المعالي) الملوحة المترعة ، وادهم الخوض ملاء .
و (اللغو) ما لا يمتد به من الكلام . و (التكليب) كما سبق . واللغو والتكليب
مما تألم له أنفس الصادقين بل هو من أشد الأذى لقلوبهم ، فإراد الله إزاحة ذلك عنهم .
و (الحساب) الكافي . و (الروح والملائكة) من مخلوقات الله الغيبية منا التي لا تكلف
بالبحث عن حقائقها ، وقيامها وأسطفانها على النحو الذي يليق بها . والذي تفيد هذه
آية التكرية أنهم — مع قريهم من الله — لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو
يستمنح منحة إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيحجب ، وإنما يكون الكلام
غريبا من التكرير لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء ولا أثر له فيما أراد البتة .
(ذلك اليوم الحق) . بعد أن ذكر في قوله : أن يوم الفصل كان ميقاتا النج — أن
يوم القيامة موعد يفصل فيه بين الحق والباطل ، وترفع فيه ستر الشهية من القلوب ،

ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ قَدْ رُفِعَ آسَافُ بْنُ زُهَيْرٍ رَجُلًا مَسْنُونًا ⑤
 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي يَوْمٍ يُفْطِنُ الْأَعْمَى مَا قَدَّمَتْ
 سِدَاهُ وَيَسْئُلُ الْمَسْكِينُ فِي الْيَدَيْنِ نَدْمَةً مُسَرَّابًا ⑥

وبين كيف يتحول العالم فيه من حال إلى حال ، وكيف ينشر الرمي ويشترون . ثم ذكر أن دار العذاب حديثي إلى أهل الجحالة واليخود في ذلك اليوم الموعود ، وأن الفوز مومل لأهل الجنة وهم الناقون . وانتهى الكلام في تعداد ما أعد لهم بأن ذلك سيكون لهم في ذلك اليوم ، ووصفه بوصف آخر لم يسبق ، وهو أنه يقدم فيه ألوج واللائكة صفاء الخ . عقب ذلك كله بأكيد أن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، أنه يأتي ! محالة . فإذا كان هذا اليوم يوم الجزاء حقا لا ريب فيه ، ومرجحا لا مرق منه . والناس فيه فريقان : فريق بعيد عن الله مدحور مأية النار ، ودار العذاب ، وفريق مأية القرب من الله ومنازل الكرامة . فمن كانت له منجبة صادقة فليخذ مأيا إلى ربه ، فليعمل عملا صالحا يقربه منه ويطله محال كرامته .

ثم رجع إلى تهدئة المخاطبين من المعتدين وتحذيرهم بما أعد منادهم فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وهو ما وصفه فيما سبق وفريه لأهلهم لينتظروا منه عقب موتهم ، فإن الروح متى فارقت البدن انكشف لها ما ينتظرها ، ولا تزال في ألم منه إلى أن تلاقيه يوم ينظر المرء أعماله خائرة لديه معروضة عليه ، وعند ذلك يقول الكافر ، من شدة ما يلقي وهو ملأ يرى : يا ليتني كانت تروبا ، ويتمنى أن كان جسدا لم يسب حقا من الحياة .

(الانذار) الأخبار بالكره قبل وقومه . (والبراء) الإنسان ذكرا كان أو أنثى .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① ، وَالنَّاسِطَاتِ نَسْطًا ② ، وَالشَّيْخَتِ

(والنازعات الخ) جاء في الكتاب العزيز نزوب من القسم بالآمنة والأمنة والأشياء . والقسم إنما يكون بشيء يخفى القسم إذا حدث في حلقه به أن يقع تحت المؤاخلة . نعوذ بالله أن يتوهم شيء من هذا في جانب الله . وما كان الله جل شأنه ليحتاج في تأكيد أخباره إلى القسم بما هو صنع قدرته ، فليس شيء في الوجود قدر

سَبَّحَ لِلَّهِ الْمَلَأَتْ سَمَوَاتُهُ الْقُوَّةَ فَاتَّقَ الْكَافِرِينَ ۝ فَاتَّقِ اللَّهَ لَا تَعْلَمَ الْغُيُوبَ ۝ أَفَرَأَيْتَ إِنْ سَأَلْتَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنْ يَحْكُمُ فِي الْحَيَاةِ الْمَرْثِيَةِ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَذُو الْعَرْشِ الْمُبِينِ ۝

إذا نسب إلى قومه الذي لا يقدره القادرون ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده إلا لأنه التبسط عليه شعاع من أشعة ظنوره جل شأنه . ولهذا قد يسأل السائل عن هذا النوع من تأكيد الضمير الذي اختص به القرآن ، وكيف يوجد في كلام الله ، فيجيب بأنك إذا رجعت إلى جميع ما اتسم الله به وجدته أما شيئاً نكره بعض الناس واحتقره لتفقلته من فائدته ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعسى من حكمة الله في خلقه ، أو انعكس عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه ، فيقسم الله به أما لتقرير وجوده في عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه في نفس من يحقره ، أو تنبيه السمع إلى ما فيه عند من لا يذكره ، أو لقلب الاعتقاد في قلب من أسله الوهم أو خانه الفهم . فمعاً أقسم الله به يوم القيامة أو القرآن مثلاً ، ذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه ، وأن الثاني كلام الله الحق الذي لا ريب فيه ، ثم يكون في ذلك تعظيم كليهما : الأول لما يكون فيه من سعادة وشفاء ، والثاني لما فيمن الهداية والشفاء لم يرد النفوس من الأدواء . ومن ذلك النجوم : قوم يحقرونها لأنها من جملة عالم المادة ويغفلون عن حكمة الله فيها وما ناط بها من المصالح ، وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف في الأكوان السفلية تصرف الرب في المربوب ، فيقسم الله بها موصوفة بأوصاف تدل على أنها من المخلوقات التي تصرفها القدرة الإلهية وليس فيها شيء من صفات الألوهية ، كما تراه في مفتتح هذه السورة وفي سورة النجم كقوله ، ثم تشير إلى ما يلوها بها من المصالح كما سيرد عليك . وسترى فيما يساق إليك من هذا التفسير في السور الآتية ما يربطك إلى تفصيل ما أجملناه هنا .

وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن من الأدبان السابقة على دين الإسلام ما ظن أهله أن هذا الكون الجسماني وما فيه من نور وظلمة وأجرام وأعراف إنما هو كون مادي لم يشأ الله خلقه إلا ليكون حبساً للأنفس وفتنة للأرواح ، فمن طلب رضا الله فليعرض عنه ، وليبعد عن طغيانه ، وليأخذ بدنه بضروب الأعتات والتعصيب وأصناف الحرمان ، وليغمض عينيه من النظر إلى شيء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد في زعمه ، اللهم إلا على نية مقتنه والهروب منه . فاقسم الله بكثير من هذه الكائنات ليبين مقدار عنايته بها ، وأنه لا يفضيه من عباده أن يتمتعوا بما تمنعهم به منها متى ادركوا حكمة الله في ذلك المناع ووقفوا عند حدوده في الانتفاع .

وقد افتتح الله هذه السورة بأن أقسم ببعض مظلوفاته أظهاراً لعظم شأنها ، وإثبات نظامها ، وغزارة فوائدها ، وإثبات مسخرة له ، خاضعة لأمره ، ليقيم ما يوعده ، وما ذكر في السورة السابقة وما يذكر في هذه السورة ، في يوم تعظم فيه الأحوال ، وتضطرب فيه القلوب ، وتخشع الأبدان ، ويعجب فيه المبعوثون من مودعهم إلى حيلهم الأولى بعد أن كانوا عظاماً نخرة خالية تمر فيها الرياح ، ويتحققون حينئذ خسارهم بما اتكروا في هذه الدنيا مادهم ، فيجربون على تعجبهم هذا بأن لا تحسبوا تلك الكرة إلى الحياة صعبة على الله ، فما الأمر عنده إلا صيحة واحدة فإذا الناس أحياء طاهرون في أرض المعاد .

(التنازع) من نزاع من القوس رمي بها . وإل الفرق هو الإغراق في النزاع ، أي الإتيان على الغاية منه . والتنازعات غزواً هي الكواكب تنزع عن قسي دوارها مائراً شهباً ساقطة . و (التناشطات نشطاً) من نشط إذا خرج من بلد إلى بلد ،

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ① تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ② قُلُوبٌ
يَبْغِيْنَ وَاجِفَةً ③ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ④ يَمْوَلُونَ أَدْنَا
رُدُودُونَ ⑤ فِي الْحَافِرَةِ ⑥ أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا خَجَرَةً ⑦
قَالُوا يَلَكُ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑧ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ⑨
فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ⑩ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ⑪ إِذْ

وهي الكواكب تفارق مداراتها وتقلب من برج الى برج فتختلف أقاليمها . وهي
(السابغات سبها) . تتحرك في الهواء ، وتسير في الجواء سيرا سريعا ، وهي السيارات
من كواكب وأفمار . وهي (السابغات) في سبها ، فتتم دورتها حول مالدور عليه
في مدة أسرع مما يتم غيرها : كالقمر يتم دورته في شهر قمرى ، وكالأرض تتم دورتها
في سنة شمسية ونحو ذلك من السيارات . ومنها ما لا يتم دورته إلا في سنين ،
لكن السابغات هي التي انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي ، كما
قال (فالانبريات أمرا) ، وليس التدبير الا ظهور الأثر ، فسبق القمر علما حساب شهوره ،
وله من الأثر في السحاب والطر ، وفي البحر من المد والجزر ، ولضياؤه أيام امتلائه
من الفوائد في تصريف منافع الناس والحيوان ما لا يخفى على ذي بصيرة . وسبق
الشمس في أبراجها . على ما يرى الناظر — علما حساب شهورها ، وسبقها الى
تتميم دورتها السنوية علما حساب السنين من جهة ، وخالف بين فصول السنة من
جهة أخرى . واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، ونسبة التدبير
إليها لآثارها أسباب مانسفيده منها . والمدير الحكيم هو الله جل شأنه .

(الراجفة) الأرض بمن عليها و (الرادفة) السماء وما فيها ، تردفها أى تنبعاها
فتنشق وتنتشر كواكبها . (الواجفة) شديدة الاضطراب . (أبصارها خاشعة) أى
ذليلة ، وأضاف الإبصار الى ضمير القلوب لأنه أراد من وجيف القلوب شدة الخوف
الواقع بأربابها ، فهي كتابة عنهم . (الحافرة) الحالة الأولى ، أى الحياة بعد الموت ظنوها
حياتهم الأولى . يقال رجع فلان في حافرته أى في طريقه التى جاء فيها . و (النغرة)
البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح (الكرة) الواحدة من الكر ، أى الرجوع . و (الخاسرة)
التي يخسر أربابها ولا يربحون . و (الزجرة) الصيحة يراد بها النفخة الثانية يبعث
بها الأموات . و (الساهرة) الأرض البيضاء ، سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها ،
من قولهم عين ساهرة أى جارية الماء لا ينقطع جريانه منها .

(هل أتاك النخ) يريد الله أن يذكر نبية بدموة موسى لفرعون ، وأمر الله لثيبه
موسى بالتلطف في القول واللين في الدعوة الى الحق . موافاة الحكمة ، وإقامة الحجبة
في المومطة ، ثم بما كان من عاقبة الدعوة ، وعصيان فرعون ، واستكنافه من قبولها ،
وأخذ الله له ، وتكيله به في الدنيا والآخرة حيث أخفقه ، وفي الآخرة سيخفه . وفي
ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعد له بالفوز كما فاز موسى . وفيه وعيد شديد

نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑪ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ
إِنَّهُ طَغَى ⑫ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزْكَى ⑬ وَأَهْدِيكَ
إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ⑭ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ⑮ فَكَذَّبَ
وَعَصَى ⑯ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ⑰ فَحَشَرَ فَنَادَى ⑱ فَقَالَ
أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ⑲ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ⑳
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ㉑ ءَأَن تَمَّ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ

لاولئك الذين كانوا يكذبون ماجاء به من التوحيد ووجوب الايمان باليوم الآخر ، وانذار لهم بان من اهلك فرعون في عتوه وجبروته قادر على اهلاكهم . (الوادى المقدس) واد في اسفل جبل طور سيناء من برية الشام . و (طوى) اما اسم لذلك الوادى ، او هو بمعنى مرتين ، اى الوادى الذى قدس مرة بعد اخرى . و (طقى) جاوز الحد في العدوان على دينه من بنى اسرائيل ، وغلا في الكبر والمظلمة حتى ظن انه مظهر الالهية .

هل لك الى كذا ؟ اى : هل ترغب فيه ؟ ويقال : هل لك في كذا ؟ وهل لكالى كذا ؟ بمعنى : هل ترغب فيه وترغب اليه ؟ و (تزكى) اى تنزكى وتطهر من الشرك وما يتبعه من ردائل الاخلاق . وهو استفهام يقصد به العرض والطلب ، وهو افضل انواعه وارفقها باللفظ والادب . و (اهديك) اى : هل تحب ان ادلك على ربك فتؤمن به ؟ ومتى امنت خفته وخشيته ، فان خشية الله انما تكون من العلم . قال : **انما يخشى الله من عباده العلماء** . ومن خشى الله انقاه ، ومن انقاه امن مقابه . (**فأراه الآية الكبرى**) اى لما لم يقنع بالدليل القولى اظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كذب الداعى وعصى سلطان البرهان . (**ثم اذبر**) اى ترك موسى وانقلب (يسعى) في مكابדתه (**فحشر**) اى جمع سحرته واهوانه وقام فيهم يقول **انا ربكم الاعلى** ، فلا سلطان يعلو سلطاني .

ولم يزل في عتوه حتى تبع موسى وقومه الى البحر الاحمر عند خروجهم من مصر ، فافترقه الله في البحر هو وجنوده ، وهو معنى قوله (**فأخذه الله نكال الآخرة والاولى**) اى ان اخذ الله لم يكن قاصرا على الاغراق في البحر ، بل نكل به وعذبته عذاب الآخرة . وهى يوم القيامة ، والاولى : وهى هذه الدنيا . (**ان في ذلك لعبرة**) اى موعظة (**لمن يخشى**) اى يخاف ، اى لمن له عقل يتدبر به عواقب الامور ومصائرهما ، فينظر في حوادث الماضين واحوال الحاضرين ويتعظ بها .

(**عاقبتهم أشد خلقا**) عود الى خطاب اولئك المكذبين المفرورين لتقريعهم وتسفيه افعالهم في استبعاد ما يوعدون به من البعث وما يتبعه ، أو استبطاء اخذ الله لهم في هذه الدنيا ، مع انه هو الذى انشأهم وخلقهم اول مرة . فان كانوا قد غفلوا من انه هو خالقهم فيظنوا الى السماء وإلى الارض ، ليعلموا ان من خلقهما وانشأهما لا يصعب عليه

الْمَاءَ بَنَيْنَاهَا ١٣٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ١٣٨ وَأَعْطَشَ
 ثَلَاثَهَا وَأَحْرَجَ ضُكَّهَا ١٣٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ١٤٠
 أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ١٤١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ١٤٢ مَتَّعَا
 نَحْمَ وَلَا نَعْمَ ١٤٣ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ١٤٤ يَوْمَ
 يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ١٤٥ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ١٤٦
 فَأَمَّا مَنْ طَغَى ١٤٧ وَعَاشَرَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ١٤٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ

خلقتهم ، ولا يسعهم انكار ان خالق السماء والارض هو الله ، فكيف ينكرون انه خالقهم
 وانه القادر على اعدادهم كما يدهم ؟

(اشد خلقا) اصعب انشاء . (بنائها) بيان لكيفية خلقه السماء . والبناء ضم الاجزاء
 المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يسكنها حتى يكون عنها بنية واحدة . وهكذا
 صنع الله بالكواكب : وضع كلا منها على نسبة من الآخر مع مايسلك كلا في مداره حتى
 كان عنها عالم واحد في النظر سمي باسم واحد وهو السماء التي تملونا ، وهو معنى
 قوله (رفع سمكها فسواها) والسمك قامة كل شيء ، فقد رفع اجرامها فوق رؤوسنا
 (فسواها) مدلهها بوضع كل جرم في موضعه . (اغطش الليل) اظلمه . وغطش الليل اظلم
 ونسبة الليل الى السماء لانه يكون بغيب كواكبها . (فصعها) نورها وضوء شمسها . قال
 تعالى : والشمس وضحاها اي ضوؤها . وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع
 لحركة بعض السيارات بهيئة الارض للسكنى ، وهو معنى قوله : (والارض بعد ذلك)
 تسوية السماء على الوجه السابق وابراز الاضواء (دحاهها) اي مهدها وجعلها قابلة
 للسكنى ، وذلك بان (اخرج منها مائها) بتفجير البنايع والميون والانهار ، (ومرعاهها)
 اي رميها ، وهو النبات الذي ياكل منه الناس والدواب . وتثبيت الجبال وجعلها مانعة
 من اضطراب الارض من تمة التمهيد واعداد الارض لسكنى الاحياء ، وهو متأخر من
 الاستعداد الاول لانبات النبات وان كان يبرز الجبال سابقا على ذلك . وقد جعل الله
 ذلك كله ليتمتع به الناس والانعام ، افلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم ؟ افلا يكون
 خالقكم وواهبكم مائه تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، ومجهد الارض تحتكم ، قادرا على
 بئسكم ؟ وهل يليق به ان يترككم سدى بعد ان دبركم هذا التدبير ، ووفر لكم هذا الخير
 الكثير ؟

(فاذا جاءت النج) لما تبين انه القادر على نشر الاموات ، كما قدر على خلق الاكوان ،
 تبين صدق ماواحي به الى نبيه من ان ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين لايد
 منه . فاذا جاءت طامته الكبرى التي تفوق كل طامة ، ووقت مجيئها هو ذلك اليوم
 الذي تعرض فيه الاعمال على العالمين ، فيتذكر كل سعيه ومصله ، يوم ينظر الله فيه
 الجحيم ودار الملأب للعبان ، فتراها كل من له بصر . في ذلك اليوم يوزع الجزاء على
 الاعمال . (فاما من طغى) وجاوز حدود الله المضروبة في احكامه ، وفضل لئلا الحياة

هِيَ الْمَأْوَى ❸ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ
عَنِ الْهَوَى ❹ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ❺ يَسْأَلُونَكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا ❻ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ❼ إِلَى
رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ❽ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا ❾
كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَو ضُحَاهَا ❿

الدنيا على ثواب الآخرة ، فدار اللذات ماواه ومستقره . واما من عرف بسطة السلطان
الالهى ، فخاف ذلك الجلال الرفيع ، وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يعيل بها الى
اتباع الشهوات ، فالجنة ماواه . فعلى هذا يكون جواب اذا محذوقا للابجاز ، دل عليه
التسيم فى قوله فاما من طغى ، وتقديره وزع الجزاء على العمل ، فاما الخ .

(القلامة الكبرى) الداعية التى تطم على الدوامى ، أى تغلب وتصلو . (مقام ربه)
يراد منه جلاله وعظمته ، والا فهو منزله من المقام والقيام . (المأوى) فى الموضعين هو
المبتقر والمقام . والتعريف اشارة الى انه معارم لاشبهة فيه . (يسألونك عن الساعة الخ)
كان اهل العناد من قريش يفتنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسؤال عن وقت
الساعة ومنى يقبضها الله ، فكان النبي يردد فى نفسه مايقولون ويتمنى لو امكن الجواب
عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجاهد فى الإقناع . فنهاه الله عن تمنى
مالا يرجى ، وجاء بالنهى فى صورة الاستفهام التكرارى حيث قال : فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ؟
أى : ماهذه الذكرى الدائمة ؟ لست فى شيء منها ، أى لاجابة لك بها ، فان علم ذلك
ينتهى الى ربك . وانما شأنك أن تنل من يخافها ، فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما
يلقاه يومها . اما هؤلاء المعاندون فدمهم فانهم لا يعقلون ، ولا تستغل بالجواب عما يسألون .
فاذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من اذهاتهم ، سواء طال أو قصر ،
فحسبوا انهم لم يلبثوا من يوم خلقوا الى يوم يمضوا الا عشيّة أو ضحاها ، أى طرفا من
اطراف النهار ، لانهارا كاملا ، وذلك لمفاجأتها لهم على غير استعداد لتوقفها .

(الساعة) ساعة يبعث الناس ، وهى يوم القيامة . (ايان مرساها) أى متى ارساها
أى اقامتها ، ومتى حصولها . (فِيمَ أَنْتَ) أى : فى أى شيء انتمن مداومة تذكرها ؟ او :
فى أى شيء انت من ذكرها لهم واخبرهم بوقتها ؟ أى : لست فى شيء من هذا . أى ليس من
شأنك أن تذكر لهم من خبرها شيئا سوى أنك تنل من يخافها . و (العشيّة) طرف
النهار من آخره ، و (الضحى) طرفه من اوله . وازضافة الضحى الى ضمير العشيّة
اشارة الى أن العشيّة والضحى من يوم واحد . فهم يحسبون انهم لم يلبثوا الا بعض
يوم واحد ، كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار . واللبث الإقامة .

مسؤولا علمي مكية وآياتها اشنان وارن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ
يُرْسِي ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۝

نزلت هذه السورة في ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها . قيل اسمه عمرو بن قيس ، وقيل عبد الله بن عمرو ، وقيل عبد الله بن شريح بن مالك . والاول أشهر ، كما جاء في جامع الأصول . وأم مكتوم لقب أمه ، واسمها عائكة بنت عبد الله المخزومية .

وكان أمي . قيل ولد كذلك ، وقيل عمي بعد بصر . وهو من المهاجرين الاولين ، واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلي بالناس مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال . أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة يمشونهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم فيهم ، فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله . وكرر ذلك وهو لا يعلم بشاغل صلى الله عليه وسلم بالقوم ، فكره الرسول قطعه لكلامه ، فظهرت الكراهة في وجهه فعبس وأمرض عنه ، فنزلت الآيات .

يلكر الله نبيه ، في صورة عتاب ، بأن ضعف ذلك الأعمى وأقره ليصبح إن يكون حاملا على كراهة كلامه والأمراض عنه ، فإنه حي القلب ذكي الفؤاد ، إذا سمع الحكمة وعامها ، فيظهر بها من أوضار الأنام وتصفو بها نفسه من كدر الوسوس ، أو يذثر بها ويتعظ فتنبه العقل في مستقبل أمره ، فلا يقع في ماثم . أما أولئك الأغنياء الأقوياء فأكثرهم الجحدة الأفياء ، فلا ينبغي الانصراف إليهم ، والتصدى لهم لجرد الطمع في اقبالهم على الأمر يرجون فيه فيشبعهم غيرهم ، فإن مودة الإنسان في حياة قلبه وذكاؤه ، والأدمان للحق إذا ظهر ، والانتقيد للدليل إذا بهر . أما المال والنسب والمصيبة والنسب والحشم والإعوان والاكائيل والتيجان فهي عواري تغدو وترحل ، وتقر حيناً ثم تنتقل ، فكانه يقول : يا أيها النبي ، ان اقبلت فاقبل على العقل الذكي ، والقلب النقي . وبالل ان تنصرف منه إلى ذى الجاه القوى والمكان العلى : فذلك انسان بنفسه ، حي بطيئه ، وهذا غائب عن حسه ، معدم بلغاته ، موجود بجسمه . وفي ذلك من تأديب الله لامة محمد صلى الله عليه وسلم ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم - هداهم الله .

(الميوس) معروف المعنى . (وتولى) أعرض (ان جاءه) أى لاجل ان جاءه ، أى كان ميوهه واعراضه لاجل ان الأعمى جاءه وقطع كلامه . (وما يدريك) أى وى شيء يملك بحال هذا الأعمى ، وأنه مستعد لأن يظهر بما تعلمه من احكام الله (او يدرك) منها ماقل عنه ، فيتعظ بوعظك (فتنبه) هذه (الذكرى) وتلك الموعظة ؟

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ① وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ② وَأَمَّا مَنْ
جَاءَكَ يَسْعَى ③ وَهُوَ يَخْشَى ④ فَأَنْتَ عَمْدُهُ كَأَمْ يَدَى ⑤
كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑥ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ⑦ فِي صُحُفٍ مُنْقِشَةٍ
مُكْرَمَةٍ ⑧ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ⑨ بِأَيْدِي ⑩ رُسُلٍ ⑪ تَهْتَفُونَ ⑫

وذكر خبر العيوس والتولي بالحكمة من الغائب ليفته الى النظر في العمل في ذاته
صادرا من أى شخص نسب اليه ، ثم أقبل عليه بالخطاب بعد هذا الاستدعاء تشديدا في
الكتاب .

ثم بعد ذلك حصر شأنه في تلك الجادة في امرين ذكرهما بقوله (أَلَّا يَرْكَبَ) (أَلَّا) من الاستفهام (يَرْكَبُ)
أى ان ماصدر منك كان هكذا على التفصيل الذى سيذكر (أَلَّا) مع (يَرْكَبُ) أى لا وتوكله
من سماع القرآن (فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) أى تترس بالاقبال عليه ، مع اننا : رسول وما : بابا ،
الا البلاغ . فان كان المفعول قد ظن في ماله غنى عن هداية الله ، ورش لنفسه ان
يوقى في دنس الكفر ، فما عليك عيب في بقائه كذلك ، والا يتطهر من دين القسور
ويخاف من القواية ، وما دفعه اليك الا حبه لان يتطهر من الجبل ، ويستقيى بفساء
العلم ، وخوفه ان الوقوع في ظلمات الضلالة . فانت تلهى عنه وتتغافل عن اجابته الى طلبته .
ثم اراد ان يبين ان الهداية التى يسوقها الله الى البشر على السن الرسل ليست مما
يحتال لتقريبه في النفوس وابعاده في القلوب ، وانما هي تذكرة تبه الغافل الى مفرز
الله في فطرته من الخير ، وأودعه غريزته من وجدان معرفة الخالق في الخافة . فمن
صد منها فاتها هو معاند مقاوم لا يعود الى سره ، وتنزع به اليه نفسه . فما عليك الا
ان تبلغ ماضرت عن ربك لتذكر به الناس وتبه الغافل . أما ان تعالج القوى المعاند
ظنا منك ان مداجاته ترده عن عناده ، فذلك ليس من عملك ، فذكر ان نفقت الذرى .
(كَلَّا) حرف ردع للرجوع عن التصدى للمستغنى والتلوى عن المستهدى . وعلل
الرجوع بقوله (أَمَّا) أى الهداية المودعة في الكتب الالهية واجلها القرآن ، والشعر في
(مَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) يعود الى الله تعالى ، لان أعظم الهداية ان يذكر وحده لا شريك له ، ولقوله
الدليل وشعور الوجدان لا يتوقف ذكره ومعرفته سبحانه الا على مشيئة الذاكر بعد
التذكر ، فمتى وردت التذكرة نهت وجدانه ، ولا يمنعه عن الاهتمام الا علم المشيئة
بالعناد . ثم قال تلك الهداية (في صحف مسكونة) ، وهى صحف الكتب الالهية .
(مَرْفُوعَةٍ) أى عالية شريفة (مُطَهَّرَةٍ) من النقص والضلالة (بِأَيْدِي رُسُلٍ) جمع سافر ،
وهو من يسفر بين الناس بالصلح والسلام ، وهم الملائكة او الانبياء عليهم الصلوات والسلام .
ومعنى كون الكتب بأيدى الملائكة ، ان الملائكة هم الواسطة في حملها الى الانبياء . ومعنى
كونها بأيدى الانبياء ، انها تنزل بالوحي عليهم وهم يلقونها للناس ، وكل من الملائكة
والانبياء يصح اطلاق اسم السفر عليه ، كما صح اطلاق اسم الرسول على كل منهما .
و (الْبُرُودِ) جمع بار ، وهو صانع البر والخير .

ثم اراد ان يزيدنا بيانا ، ويوضح لنا ان معرفة الله وتوحيده ليسا من العقائد التى
يلزم ان تنشأ في القلوب ، بل هما مركزتان في الجبل ولا تحتاجان الا الى التذكير . فانما

كَرَاهِيَةٍ سِرَرَةٍ ١٧ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ١٨ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٩ مِنْ نَفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ٢٠ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِيرُهُ ٢١ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ٢٢ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ٢٣ كَلَّا

ذَكَرَتِ النَّفْسُ ذِكْرَتْ ، وَلَا يَنْتَعِمُهَا مِنَ الْإِعْتِرَافِ وَالْإِفْرَارِ إِلَّا مُتَازِعَةُ الْهَوَى . فَإِذَا خَالَفتْ سُلْطَانَهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِفْرَارِ إِلَّا أَنْ تَشَاءَ فَقَالَ (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ) دَعَامَلَى الْإِنْسَانُ بِأَسْتَحْبِ دَعَاؤُهُمْ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لِسَانِهِمْ وَهُوَ كِتَابِيَّةٌ مِنْ قَبِجِ حَالِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَبْلَغًا لَا يَسْتَحِقُّ مَعَهُ أَنْ يَبْقَى حَيًّا . وَمِنْهَا الشَّامَةُ وَمَنَاطُهَا نَسِيَانُهُ لَا يَتَقَلَّبُ فِيهِ مِنَ النِّسَمِ ، وَذَهْوُهُ عَنْ مَسْلَبِهَا حَتَّى إِذَا ذَكَرَ بِهِ فَهُوَ يَعْزِضُ مِنَ الذِّكْرِ . فَمَا أَشَدَّ كَرَاهِيَتُهَا بِإِحْسَانٍ مِنْ نَعْمَةٍ فِي نَعْمَتِهِ مِنْ مَبْلَغٍ إِجَادَهُ إِلَى سَاعَةِ مَعَادِهِ ! أَنْظِرْ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (مِنْ نَفْثَةٍ) أَيِ مَاءِ لَحْيَةٍ فَهُوَ (فَقَدَرَهُ) فَقَدْ أَنْشَأَ بَدَنَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَائِطِ أَطْوَارَ مُخْتَلِفَةٍ ، كَمَا يَبِينُ فِي آيَاتٍ أُخْرَى ، وَقَدَرَهُ بِمَقْدَارِهِ ، فَالْمُ خَلَقَهُ بِأَعْضَاءٍ مُتَنَاسِبَةٍ تَلَاكُمُ حَاجَاتُهُ مَدَّةً بِقَاتِلِهِ ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْقُوَى مَا يُمْكِنُ مِنْ اسْتِعْمَالِ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ وَتَحْرِيفِهَا بِمَا خَلَقَتْ لَهُ ، وَجَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ بِمَقْدَارٍ مَحْدُودٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ كَمَالُ نَوْعِهِ . لَمْ يَدَعْ أَنْ يَنْفَرِ هَذَا التَّقْدِيرَ ، وَاكْمَلَ بَدَنَهُ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ الْخَاصِّ بِنَوْعِهِ ، وَهِيَ الْعَقْلُ الَّذِي يَقُودُ تِلْكَ الْقُوَى عِنْدَ تَحْرِيفِهَا لِلْأَعْضَاءِ ، وَبِالْعَقْلِ قَدْ يَسِرُهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ ، وَأَوْضَحَ لَهُ جَادَةَ الرِّشَادِ (ثُمَّ أَمَاتَهُ) فَلَمْ يَتْرَكْهُ كَمَا يَبْعِثُ سَائِرَ الْحَيَوَانَ ، لَكِنَّهُ قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ (فَأَقْبَرَهُ) أَيِ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا يُورِي فِيهِ تَكْرَمًا لَهُ ، وَلَمْ يَجْعَلْ فِي غُرْبَةٍ الْإِنْسَانَ أَنْ يَتْرَكَ مَيِّتَهُ مَطْرُوحًا عَلَى الْأَرْضِ جُزْأًا لِلسَّبَاعِ .

هَذَا مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَعْمِ رَبِّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ . وَلَا رَبِّبَ أَنْ سَلِمَ الْفُطْرَةَ لَا يَحْتَاجُ فِي الْإِنْعَانِ بِهِ إِلَّا إِلَى مُجَرَّدِ التَّذَكُّرِ . ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَتْبَعَ هَذِهِ النِّعَمَ الْمُرْتَبِيَّةَ الدَّلَالَةَ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ وَالنَّشُورِ ، وَجَاءَ بِهِ كَأَنَّهُ مِنَ الشُّهُودَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْسِبَ بِهَا لَيْسِيرَ إِلَى أَنْ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ مِمَّا رَكَزَ الشُّعُورُ بِهِ فِي الطَّبَاعِ كَذَلِكَ ، وَأَنْ لَمْ يَدْرِكْ كُنْهَهُ وَلَمْ يَوْفِقْ عَلَى تَفْصِيلِ حَقِيقَتِهِ . وَقَوْلُهُ (إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ) أَيِ أَنَّهُ يَنْشُرُهُ وَيَبْعِثُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَقْبَلَرِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَبْعِثَهُ فِيهِ .

ثُمَّ أَخَذَ يُؤَكِّدُ مَادِلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ) فَقَالَ (كَلَّا) أَيِ حَقًّا أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ بَلَغَ فِي كَرَاهِيَتِهِ بِالنِّعْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مَبْلَغًا يَقْضِي بِالْمَجْبُوبِ ، فَاتَّهَمَ بِمَا رَأَى فِي نَفْسِهِ مِمَّا عُدْنَاهُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ، وَبَعْدَ أَنْ مَضَى عَلَى نَوْعِهِ تِلْكَ السَّنُونَ الطَّوَالَ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي أَدْوَارٍ وَأَطْوَارٍ يَشَاهِدُ فِيهَا مِنْ جَلَائِلِ الْإِنَارِ مَا يَحْرُكُ الْإِنْفَارَ ، وَيَسِيرُ بِهَا إِلَى الصُّوَابِ مِنَ الْإِرَاءِ وَالصَّحِيحِ مِنَ الْإِفْكَارِ - بَعْدَ هَذَا كَلَّا يَزَالُ إِذَا ذَكَرَ لَا يَذْكُرُ ، وَإِذَا انْتَعِمَ عَلَيْهِ لَا يَشْكُرُ ، فَهُوَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَقْضِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ : سِوَاكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالْإِلَهَامِ وَهُدَايَةِ الْفَطْرِ بِمَا أَشْهَدَهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ وَعِلَامَاتِ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ ، أَوْ كَانَ بِالْوَحْيِ عَلَى السَّنَةِ الْإِنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدَعْ الْإِنْسَانَ مِنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ سَدَى ، وَلَمْ يَهْمَلْ مِنْ أَوْسَالِ الْهُدَاةِ أَمْرَ الْهُدَاةِ . غَيْرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ - فِي ضَلَالِهِ وَاتِّقِيادِهِ لَلْأَهْوَاءِ الْفَاسِدَةِ - لَمْ يَقْضِ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ . وَكَيْفَ يَكُونُ قَدْ قَضَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ ، يَدْعُو مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَيَشْرِكُ فِي الْإِسْتِعَانَةِ سِوَاهُ ، وَيَأْتِي مِنَ فُتَاتِ الْأَعْمَالِ مَا لَا يَرْضَاهُ ؟ فَاِنْ زَعَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ خَلْقَ نَفْسِهِ ، وَرَمَى عَيْنِيهِ بِالْعَمَلِ عَمَّا فِي بَدَنِهِ ، وَعَقَلَهُ

لَعَلَّاهُمْ يَفْقَهُونَ مَا أَسْرَرُوا ۚ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ
 أَنَّا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ
 فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَيْنًا وَقَصَبًا ۚ وَزَيَّنَّاهَا غُلًّا ۚ
 وَحَدَّادِي غُلْبًا ۚ وَفَكَهْمَةً وَأَبًّا ۚ مَتَّعَّا لَكُمْ

بالقبوة مما في ذاته ، ومما كان من أمرها في بدايتها ونهايتها ، وعمل هواء في الفوية بأن
 شيئا مما في خلقه لا يقوم دليلا على وحدانية خالقه وانفراده بالإحسان إليه ، لأنه لم
 يشهد تلك النشأة - أن خطر ذلك ببال أحد من أفراد الإنسان (فلينظر) إلى ما بين يديه
 من أقرب الأنبياء إليه : (إلى طعمه) الذي يقيم بنينه ، ويجد لله ، ويحفظ به منته -
 ماذا صنعنا في أجدانه وتبنيته لأن يكون غذاء صالحا ؟ (أننا صببنا الماء) من المزن
 (صبا) شديدا ظاهرا ، (ثم) بعد أن كانت الأرض رقفا متماسكة الإجراء شققناها
 شقا مربعا مشهودا ، كما تراه في الأرض بعد الري ، أو شققناها بالكراب
 على البقر بأيدي الإنسان - والكراب قلب الأرض الحرث وشق الأرض سواء
 كان بالحرث أو بغيره ليدخل الهواء والفضاء في جوفها ، فيحلل أجزائها ويهيئها لتغذية
 النبات ، فينبث فيها . وقيل المراد شق الأرض بالنبات ، كأنه قال : ثم شققنا الأرض شقا
 بالنبات . ثم فصل النبات فقال (فأنبتنا فيها حبا الخ) ولا بأس به أيضا . ولما كان مرجع
 كل موجود إلى مصدر الوجود ، وهو الذي سبب الأسباب ، وقدر الأفعال ، وأقدر
 عليها ، كان اسناد الصب والنسق إليه صحيحا على كل حال كاسناد الإنابت . و (الحب)
 كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما (والقصب) الرطبة وهو ما أكل من
 النبات غضا . وسمى قصباً لأنه يقصب أى يقطع مرة بعد أخرى . (والزيتون والنخل)
 معروفان لكل عربى . (والحدائق) جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة
 عليها حوائذ لحيد بها و (غُلْبًا) جمع غلباء بالذات ضخمه عظيمة . وعظم الحدائق
 بكثرة أشجارها وانفادها . وقد يكون العظم في نفس الأشجار بأن تكون كل شجرة
 غليظة عظيمة . وذكر الحدائق بوصفها ذلك لبيان أن النعمة فيما تشتمل عليه الحدائق
 برمتها . فالنعمة في الانبجار بحملتها لأن ثمرها خاصة . فمن اخشابها ما ينفع للحرق
 في تدبير الطعام ، ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات . ومن النعمة في الحدائق أنواع
 في تدبير ما يأكله الناس وترعاه الماشية . وإنما تدخل ثمار الانبجار في الفاكهة بما ، ثم
 خصص الفاكهة بالذكر بعد ذلك لأنها مما يتمتع به الإنسان خاصة فقال (وفاكهة) ثم
 ذكر الاب لأنه مما ينفع الحيوان خاصة بقوله (وأبًا) . والاب المرعى لأنه يؤب أى يؤم
 ويستجمع .

روى ابن أبي نرر الصديق رضى الله عنه سئل عن الاب فقال : « أى سماء تظلني ،
 وأى أرض تظلى إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لى به » . وعن عمر رضى الله عنه أنه
 قرأ هذه الآية فقال : « كل هذا قد عرفنا فما الاب ؟ » ثم رفض مصصا كات يديه
 - أى كسرهما غضبا على نفسه - وقال : « هذا لعمر الله التكلف . وما عليك يا ابن
 أم عمر أن لا تدرى ما الاب » . ثم قال : « اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا
 فذهوه » .

وَلَا نَعْمِيكُمْ ﴿١٦﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَفِرُّ

إذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكنه يريد أن يعلمك أن الذي عليك من حيث أنت مؤمن إنما هو فهم جملة المعنى . فال المطلوب منك في هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسداها إليك في نفسك ، وتقويم حياتك ، وجعلها متاعا لك ولا تعلمك . فإذا جاء في سردها لفظ لم تفهمه لم يكن من جيد المؤمن أن يتقطع لطلب هذا المعنى بصد فهم المراد من ذكره ، بل الواجب على أهل الجهد والعزيمة أن يعتبروا بتعداد النعم ، وأن يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل .

هكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم ، لم خلف من بعدهم خلف وقفوا عند الالفاظ وجعلوها شغلا شاعلا لا يهتمهم إلا التسلق بتصرفها وتأويلها وتحليلها مالا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والدكر ، وأعضاءهم معطلة من العمل الصالح والشكر .

(متاعا لكم) : أما مفعول له ، أى فصل ذلك تمتيعا لكم ، أو مستند حذف فعله وجرد من الزوائد ، أى تتمتع بذلك متاعا . والمعنى على كل حال أن فيما عده ما ياكله وينتفع به الإنسان ، ومنه ما ياكله الحيوان . والأتمام : الماشية ، وكل ما ينتفع به الإنسان من الحيوان .

(الصنخ) : الضرب بالحديد على الحديد ، والعصا الصلبة على شيء مهصت . وصنخ الصخرة وصنخها صوتها إذا ضربتها بحجر أو غيره . والصنخة هينسا - كالتقارعة في سورتها - هي الحادثة العظمى التي عبر عنها بالطامة الكبرى ، يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجزائه على بعض . ولكون هذه الحادثة تأتي بذلك الصوت المفرع سميت صاخة وقارعة ، أو أنها سميت صاخة لأنها بما تاتي به من ذلك الصوت تصنخ الأذن أى تصمها . يقال صنخ الصوت الأذن يصنخها صخا فلا تسمع النفوس شيئا في ذلك الوقت إلا ما تنادى به ، وتلجى إلى الحياة والنشور .

وهذه الأسماء كلها أسماء للقيامة العظمى ، يوم يتكشف للأرواح مشهد الجبروت الأعظم ، فيشغل كل نفس ما يصيبها من هيبة الجلال الإلهي ، وتود لو نجت بنفسها ، فهي تفر من كل من تتوهم أنه يتعلق بها ويطلب موئنتها على ما هو فيه ، فيتوارى كل امرئ من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من صاحبته التي هي الصق الناس به ، وقد يبدل في الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ، ويفر من يسيه وكان في الدنيا يقدحهم بماله وروحه - ذلك كله لأن لكل واحد مما يجد من الرب ، وما يربح من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب شللا يفتنيه ، أى يثقله لصرف جميع قواه ، فليس عنده فضل فكر وقوة بعد بها غيره .

وجواب إذا في قوله (فإذا جاءت الصاخة) محذوف ، ليذهب الفكر فيه لمذاهبه ويستود منه على النفس شرابه . كأنه يقول : قتل الإنسان ما أكفره بنعمة ربه : هذه نفسه لم يشرق عليها نور الوجود إلا من فيض الجود ، وهذا طعامه وما يقيم حياته إلى الأجل المحذود ، أما يساق إليه بتدبير الشكور الودود . ومع ذلك فقد ضربت الفلة بينه وبين ربه حجابا ، فهو إذا ذكر لا يتذكر ، وإذا مرض عليه الدليل لا يفكر ، وربما جهل قدره فشمخ واستكبر ، وظن أنه القوى فلا يفلح ، والعزير فلا

الْمَرْءَ مِنْ أَخِيهِ ٦٦ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٦٧ وَنَحْبِهِ وَوَلَدِهِ ٦٨
لِكُلِّ آخِرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٦٩ وَجُودُهُ
يَوْمٌ مُسْفِرٌ ٧٠ ضَاكِكٌ مُسْتَبْشِرٌ ٧١ وَوَجْهُهُ يَوْمٌ عَلِيٌّ
عَبْرَةٌ ٧٢ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٧٣ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ٧٤

يقهر . فإذا ذهبت هذه الحياة الدنيا ، وجاءت الظلمة الكبرى في ذلك اليوم العظيم ، فماذا يكون شأن ذلك الإنسان ؟ هل يبقى في غفلته ، وهل يجد في نفسه شيئا من عظمتة ؟ أو فما اعظم أسفه ، وما أشد ندمه ، أو انجلت أوهامه ، وبطلت ظنونه ، أو ما يشبه ذلك مما فيه تهويل عليه أو تفرغ له .

(الوجوه المسفرة) الضئيلة المتلهة ، الضاحكة (المستبشرة) التي يظهر عليها الفرح والسرور لما تجد من برد اليقين بأنها ستوفى ما وعدت به جزاء إيمانها ، وما قدمت من صالح أعمال وشكر الآء ونعم - تلك الوجوه هي وجوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات . أما الوجوه الأخر - وهي التي (عليها غيرة) أي يملوها الغبار و (ترهقها قترة) أي يفسحها سواد ، وقد يكون الغبار والسواد على حقيقتهما تمييزا لهم بأردا الحالات ، وقد يكون الغبار قبل الدل ، والسواد سواد الغم والحزن ، وهو ما يقابل الأسفار والاستبشار - تلك الوجوه هي وجوه (الكفرة) الذين لا يؤمنون بالله وبما جاء به أنبياءه . (الفجرة) الذين قد خرجوا من حدود شرائعه واقتروا السيئات في حياتهم الدنيا .

نسال الله أن يماننا بلطفه ورحمته ، ويجنبنا التعرض لفضبه ونقمته .
وقوله **وجوه يومئذ** الخ ابتداء كلام لبيان حال الناس يوم يأتي الله بذلك الحادث العظيم ، حادث الانقلاب في نظام الكون الصام أو نظام الحياة الإنسانية فبنشأ الناس نشأة أخرى ينكشف لهم فيها ما كان قد انهم عليهم في حياتهم الأولى ، ويتبين لهم من الأمر ما كانوا فيه يختصمون ، ويأتهم اليقين بما كانوا فيه يعثرون . فمن كان في هذه الحياة الدنيا طلابا للحق ، نظرارا في الدليل ، لاتبجبه من الاعتبار فغلة ، ولا تأخذه من الحق إذا ذكر به أنه ، ولا تنفره منه عادة ، ولا تبامده عنه ألفة - فهو لا يعقد لنفسه مقيدة إلا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ، ليس فيها رأى فلان ، أو قيل سابق في زمان ، إلا قول رسول كريم قامت على مصمته براهين يقبلها العقل السليم ، ويؤيدها الذكر الحكيم . ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يظن مقبده ، فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق .

من كان هذا شأنه في حياته هذه فما الذي يلاقه إذا جاءت الصاخة ، يوم ينكشف الحجاب ويوزل الأرياب ؟ . . ما كان قد أيقن به في حياته الدنيا يشهد بالبيان أنه هو ، فيطمئن إلى ما عرف ، وتسكن نفسه إلى ما ألف ، وما كان لا يزال في طلبه والبحث في الأدلة للوقوف عليه وأدركه الموت قبل الوصول إليه ، ظهر ما كان يطلب منه حاضرا بين يديه فيفرج به فرج المحب يلقى محبوبه ، والراقب الحريص يصادف مرغوبه . وفي الحالين يتהל وجهه ويسفر ويضحك ويستبشر .
وأما من احتقر عقله ، ورضى جهله ، وصرفه من الدليل ما أخذه من آياله وتلقاه

عن سلفه ورؤسائه ، وشغل نفسه بالجنال والمراء في تصحيح الأهواء والتعاسس الحيل لتقرير الباطل وترويع الفاسد ، كما كان يفعل أمداء الأنبياء ، ولا يزال يأتيه السفهاء لينصروا به أهواء الأغبياء ، ثم يتبع ذلك بأعمال تطابق ما يهوى وتخالف ما يرمع : يزعم الفجرة على الدين ولا تجد عملاً من أعماله ينطبق على أصل قرره الدين .
الدين ينهى عن الفواحش وهو يقتصر فيها . الدين يأمر بصيانة مصالح العامة وهو يفتك بها . الدين يطالب أهله ببسل المال في سبيل الخير وهو يسلب المال ليكتزّه ، فان اتفق منه شيئاً صرفه في سبيل الشر . الدين يأمر بالعدل وهو ظلم الظالمين . الدين يأمر بالصدق وهو يكذب ويحب الكاذبين .

من كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ، ويرتفع الستار ؟
يجد كل شيء على خلاف ما كان يعرفه . يجد الحق غير ما كان يعتقد . يجد ان الباطل هو ما كان يعتمد ، يتحقق ان ما كان يظنه من العمل خيراً لنفسه صار وبلاً عليها . يرى الخبيث حشو أعماله ، والخبيث حلف آماله ، فيملك الهم نفسه لشر ما يتوقع . ويظهر اثر ذلك على وجهه ، فتعلوه الغبرة ، وتمشاه القفرة ، لانه من الكفرة الفجرة .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا
الْجِبَالُ سِيرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ

ابتدا سبحانه يذكر يوم القيامة بما يكون فيه من الحوادث ، ليعظم شأنه ، ويفخم هوله ، ويقول في ذلك اليوم تعلم كل نفس ما احضرته من أعمالها ، اى يتبين لها ماكان منها من خير او شر ، ويلهب الانبياس الذي كان يفر الغرورين ، وينكشف الفطشاء عن تلبيس المرائين ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .
والحوادث التى تقع من اول يوم القيامة الى ساعة الحساب - على ما هو مذكور في هذه السورة - هى : **اولا** ، **تكوير الشمس** . وتكويرها دهورتها وسقوطها ، وذلك عند خراب العالم الذى يعيش فيه الى حياته الدنيا ، فان عالمه الآخر الذى ينتقل اليه لا يبقى فيه شيء من هذه الأجرام . فالشمس تسقط ويمحي ضوءها . وثانيا : **انكدار النجوم** ، وهو تناثرها وانقراضها حتى تذهب ويمحي لآلؤها . يقال انكدر عليهم القوم اذا جاموا ارسالا حتى ينصبوا عليهم .

وتسليم الجبال : يكون عند الرجفة التى تزلزل الارض ، فتقطع او اسالها ، وتفصل منها اجبالها ، ففسر مقلوبة في الفضاء ، وقد تمر على الرعوس من السحاب . وهذه الحوادث تقع متى جاء الاجل ، واقتضت الحكمة الالهية ان تخرّب الارض وينبدل نظام

حُشِرَتْ ⑥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ① وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦

هذا الكون الحاضر بالنظام الذي يستقر عليه أمره بعد ذلك الاضطراب .
ولا ريب في أنه اذا كورت الشمس وتناثرت الكواكب وارتجفت الأرض حتى انفصلت
عنها جبالها كان الخوف عظيما والرعب مميما .

فمن كان حيا اذ ذلك غشيته من أمر نفسه ما يذهله من أفضل ماله لديه ، فتعطل
(العشار) وهي جمع عشاء يضم العين وفتح السين ، وهي النياق اذا مضى على حملها
عشرة أشهر حتى تلد ، وهي أكرم مال كان عند المخاطبين ، فيحملونها ويدومونها تذهب
حيث شامت ، لمظم الهول وشدة الكرب . قيل ان تعطيل العشار حقيقي ، لانه حكاية
الحال في بداية الخراب . والناس والحيوان لا يزالون أحياء فيصيبهم ما يصيبهم
لم يهلكون .

ويدل عليه قوله بعد ذلك (وإذا الوحوش حُشِرَتْ) وحشر الوحوش اما جميعها
لاستيلاء الرب عليها وخروجها من أبحارها وأوكارها ونسيانها ما كانت تخافه ، ونفى
منه فتحشر هائلة لا يخشى بعضها بعضا ، ولا يخشى جميعها سطوة الانسان . وقبل
حشر الوحوش موتها وهلاكها . يقال : اذا أجهضت السنة بالقطع والجذب واشت
بالناس ، حشرتهم السنة ، أى أهلكتهم . وهلاكها من هول ذلك الحادث الأعظم .

وقال القرطبي : ان تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب ، والا فلا عشار ولا
تعطيل . كانه قال بعد ذكر ما سبق من تكوير الشمس وتكثيف النجوم وتسيير الجبال :
« وكان من هول هذه الحوادث ما يصرف حاضرها من أكرم الأشياء عليه ، حتى لو كان
عنده عشار لمطلها وأهلها » .

وقد قيل في حشر الوحوش انه جميعها يوم القيامة للحساب - وهو ضعيف
بعيد ، لان الكلام الآن في حوادث التخريب قبل البعث بالفعل . واول الكلام في البعث
قوله : **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** . اما تسجير البحار فهو ان يفجر الزلازل ما بينها حتى
تختلط وتمود بحرا واحدا ، وهو بمعنى المله ، فان كل واحد منها يمتلئ حتى يفيض
ويختلط بالآخر . وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال
الأرض وانفصال الجبال . ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى في سورة
الانفطار **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** . وقد يكون تسجيرها اضرامها نارا ، فان ماقى بطن الأرض
من النار يظهر اذ ذلك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا . اما الماء فيذهب عند ذلك بخارا
ولا يبقى في البحار الا النار . اما كون بطن الأرض يحتوى على نار فقد ورد به بعض
الاخبار . ورد أن البحر غطاء جهنم ، وان لم يعرف في صحيحها ، ولكن البحث العلمى
اثبت ذلك ، ويشهد عليه غليان البراكين - وهى جبال النار - كما تشهد عليه الزلازل
الشديدة التى تشقى الأرض والجبال في بعض الاطراف كما وقع في « جاوا » من مدة
سنوات ، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيها ظهورا لا شبهة نظرا على
الدهر بعده .

وبعد ان صدد ما يبحث من مقدمات الفناء ، ويطلان الحياة في الأرض ، وامتناع
المعيشة فيها ، أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور ، وما ياتي بعده فقال
(**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**) ، أى زوجت الأرواح بنديانها ، وهى النشأة الآخرة . وفي الآية
ما يشمر بأن النفوس كانت باقية من يوم الموت امتداد الى يوم الماد ، وانما تزوج بالبدن
بعد ان كانت منفردة منه . وبعد البعث يكون الشروع في الحساب . ومنه

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ⑤ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑥ وَإِذَا
النَّصْرُ خُصِفَ نُفِّرَتْ ⑦ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑧ وَإِذَا الْجَبَلُ
سُحِرَتْ ⑨ وَإِذَا الْبُنَىٰ أُرْلِفَتْ ⑩ عِلَّةً، نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ⑪

ان يؤتى بالموءودة فتسال بين بدى والدمع عن السبب الذى قتلت لاجله ليكون
الجواب أشد وقعا على الوائد ، فأنها سنجيب انها قتلت بلا ذنب جنته . وذلك ان
الواد هو دفن الميت في صفرها حية . وكان عادة من اشنع العوائد فاشية في العرب
ايام الجاهلية . وكان لهم في ذلك تفنن . فممن من كان اذا ولدت له بنت واراد ان
يستحبها ولا يقتلها امسكها مهانة الى ان تقدر على الرعى ثم البسها جبة من صوف
أو شعر وارسلها في البادية ترمى له ابله . وان اراد ان يقتلها نركها حتى اذا كانت
سداسية قال لامها طيبها وزينها حتى اذهب بها الى احمائها ، وقد حفر لها بئرا في
الصحراء ، مبلّغ بها الشر فيقول لها انظري فيها ، ثم يدفنها من خلفها ويهيل عليها
التراب حتى تسوى البئر بالأرض . وعند بعضهم كانت الوالدة اذا جاءها المخاض حفرت
حفرة فتمخضت على رأس الحفرة . فاذا ولدت بنتا رمت بها فيها ، وان ولدت ابنا
حسنته . فانظر الى هذه القسوة ، وفظاظة القلب ، وقتل النكات البريئات بفسر ذنب
سوى خوف الفقر او العار — كيف استبدلت بالرحمة والرافة بعد ان خالط الاسلام
فلوب العرب . فما اعظم نعمة الاسلام على الانسانية باسرها بمحوه هذه العادة
القيحة !

الصصف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صصف الاعمال . والذي يجب
علينا اعتقاده ان اعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء . ومبهر
عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صصف الاعمال ، اما كون الصصف على مثال
الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى
استعماله للكتابة عليه ، فذلك مما لم يصل علمنا اليه ، ولن يصل اليه بمجرد العقل ،
ولم يرو عن المصوم صلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع . (وكشف الغم) ازانها
كما يكشف الجلد من اللبحة ، اى واذا السماء كشفت وطويت ولم يبق هناك شيء
يسمى سماء أو غطاء . وهذا اذا يكون بخلو ذلك الصالم الجديد من الكواكب ، بل
بخلوه مما يطلق عليه في الدنيا اسم الاعلى والاسفل . (وذاك جهنم) جهنم التي بمقاب
بالعذاب فيها اهل الكفر والطغيان . وتسميها ابتقادا ايقادا شديدا . والواجب على
الؤمن ان يعلم ان هناك نارا للعذاب اسمها جهنم ، وانها تسمر وتوقد على المعنى الذي
يريد الله ، اى ان المم من قضى عليه بالدخول فيها من أشد الآلام التي تحدث من
امساس النيران للأجسام الحية . اما كون الايقاد بالحطب أو الفحم الحجرى أو الخشبى
او ما اشبه ذلك مما هو معروف عننا في حياتنا هذه : فذلك غير واجب ان يعتقد به .
(والآلاف البعثة) ادناؤها وتقريبها من المتقين ، كقوله تعالى : **وَأُزْلِفَتْ لِقَائِنَا الْمُتَّقِينَ** غير
بعيد . والجنة دار النواجب كما هو معروف .

وقوله (**علمت نفسي ما احضرت**) جواب لجميع ما سبق من الشروط . والقصد ،
كما قلنا ، ان ذلك يكون يوم القيامة ، وهو ممتد من تكوير الشمس وما بعده الى ان
يرى اهل الجنة الجنة ، واهل النار النار . وليس يلزم من ذلك ان علم النفس بما

فَلَا أُقْسِمُ بِآيَاتِ الْمُنْتَهَى (١) وَالْأَسْفَلِ إِذَا

جاءت به من أعمالها بينديء من أول جزء منه ، بل إنما يكون بعد البعث ونشر الصحف . وقد أورد الجواب على هذا الأسلوب يوم يأتيها فضل نبيها العظيم ، قوله تعالى : **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ شَرِّهَا مَخْرُجًا** . وإن كان المضي موصلا لصد ما أراده من وجه البليغ على ما جرت به عادتهم في الخطاب عند إرادة التزويل ، فإن التقليل في مقام التزويل إنما يؤتى به للمبالغة في التكثير ، كما في قوله تعالى : **وَيَا يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَو كَانُوا مُسْلِمِينَ** . ومعناه المقصود : كم يود . وكما يقول فائد إن سألته : كم عندكم من الفرسان ؟ رب فارس عندي . أو : لا أعدم عندي فارسا . وهو يريد أن ما عنده من الفرسان كثير لا يحصى ، ولا يريد أن يتزبد به .

فإن قال قائل : لم جيء بذكر كسحط السماء بعد ذكر البعث ونشر الصحف وشيء من الحساب ، وقيل ذكر كسحط الجحيم وإزلاف الجنة - وكان من حق كسحط السماء أن يذكر في حوادث التخريب بعد اكتمال النجوم ؟ قلنا : هذا يدل على أن كسحط السماء ههنا لا يقصد منه تخريب العالم العلوي كما قال (يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب) فإن هذا قد تقدم في تكوير الشمس وانكدار النجوم ، وإنما يقصد الفناء والحجاب الذي يعلو فلا تبصر ما وراءه .

وقد فصل في هذه السورة ما أجمله في سورة (الق) عند بيان ما يسبق الحساب ، فقد قال هناك : (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ**) . وقال هنا (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**) إلى آخر قوله : (**وَالَّذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**) . وفصل هناك في بيان الحساب ما أجمله في هذه السورة ، فإنه اكتفى منه هنا بذكر سؤال الموعودة ونشر الصحف وكسحط السماء ، وقال هناك : **وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَرُؤُوسُهُمْ لَهَا فُجُورَةٌ وَنُفُورَةٌ** . فالتفت في ذلك من هنا فكشفنا عنك فطاعتك فيسرك أنيوم خفيده . وثلاث فريضة (**لَا تَأْتِي عَتِيدًا**) . فالتفت في جهنم كل كفار عتيد . وهو في مقابلة قوله هنا : (**وَإِذَا الْجَبَابِرِينَ دَعَرْتُمْ**) ، ثم ذكر ست آيات فيما يتعلق بأهل جهنم ، وقال بسماها : **وَنَزَّلْنَاهُ نَارًا كَلَمًا سُمِرَ بَعِيدٌ** . والبسم ذلك بوصف حال أهل الجنة في آيات كثيرة أيضا - فهذا يدل على أن كشف الفناء هناك هو كسحط السماء هنا ، وكل من السورتين نفس الأخرى . ما أجمل هناك فصل هنا ، وما أجمل هنا فصل هناك . وأنه يكشف الدماء أو كسحط السماء يظهر لكل نفس عملها ، وتقوم عليها شجيرتها ، فتبصر ما لم تكن تبصره من قبل ، ثم ترى ما أهد لها من جنة أو نار . فسيبغان من أودع في كتابه ما يهدينا إلى لبابه .

(**فَلَا اقْسِمُ**) عبارة من عبارات العرب في القسم يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه في مبهمة وظهوره لاحتجاج إلى قسم . ويقال أنه يؤتى بها في القسم إذا أريد تعظيم المقسم به . كان القائل يقول : **إِنِّي لَأَمْلِكُهُ بِالْقَسَمِ** ، لأنه منظم في نفسه . والمعنى في كل حال على القسم . وقال تعالى : **فَلَا اقْسِمُ بِمَوَاقِدِ الشُّجُورِ وَهُوَ لَأَقْدَمُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ، وأنه لقرآن كريم الخ . و (**الْفُتُوشُ**) جمع خاتمة : من خنس إذا رجع . و (**الْكُنُسُ**) جمع كائنة ، من كنس الشيء إذا استتر في كئناسه ، وهو موضع في الشجر يباوئ إليه من شدة الحر أو غيرها . و (**الْجَوَارِي**) : جمع جارية من الجري . (**الْخُنُسُ**) : (**الجَوَارِي الْكُنُسُ**) . قيل هي الدراري الخمسة وهي : عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، وذلك لأنها تجري مع الشمس ، ثم ترى راجعة حتى تختفي في ضوء الشمس . فرجوعها في رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كنوسها . وقيل هي الأرواك

عَسَّسَ ١٧ وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٌ ثَمَّ
أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَحَابُهُمْ يَنْشُدُونَ ٢٢ وَكَسَدَ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ

جميعها ، فانها لاتزال جارية راجعة علينا بعلومها ، غالبتنا بعد طلوعها (وعسس)
الليل ادبر . قال الصجاج :

حتى اذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها لياما وعسسا
وتنفس الصبح ببلج وامتد حتى صار نهرا بينا . وافسم بهذه الدرارى او الكواكب
جميعها لينوء بشأنها من جهة ما في حرركاتها من الدلائل على تدبر محرفها ومقدورها :
وارشاد تلك الحركات الى ما في كونها ، من تدبير الصنع واحكام النظام ، مع انسابها في القسم
بما يبعدها من مراتب الانوذية من المتوس والكنوس تقريبا لمن خصها بالعبادة وانخلها
من دونه اربابا . وفي الليل اذا ادبر زوال تلك الضمة التي تنمر الاحياء بانسداد الظلمة
بعد ما استعادت الابدان نشاها ، وانمشت من فتورها . وفي الصبح اذا تنفس بشرى
الانفس بالحياة الجديدة في النهار الجديد ، تنطلق فيه الارادات الى تحصيل الرغبات ،
وسد الحاجات ، واستدراك ما فات ، والاستعداد لما هو آت .

وقوله (انه لقول رسول كريم) جواب القسم ، وهو القسم عليه المراد توكيده .
وقرن لا اقسام بالفناء حيث قال : (فلا اقسام) - وهي تدل على تعلق ما بعدها بما
قبلها - بدلتنا على ان الضمير في انه لذلك الخبر المتقدم ، وهو (اذا الشمس كورت) الخ ،
وينفهم منه القران ضمنا كانه يقول : اذا وقفت هذه الامور كلها كان ما ذكرت ، وذلك
خبر لا رية فيه ، فاني اقسام الخ . وهذا اظهر من اعادة الضمير على القران بجملته ،
لانه لم يتقدم له ذكر حتى يقرن القسم على انه كذلك بالفناء . و (الرسول الكريم)
هو جبريل . وانما كان قوله لانه هو حامله الى النبي صلى الله عليه وسلم . وقد
وصفه بانه (ذو قوة) ، كما وصفه في سورة اخرى بانه شاعيد القوي ، ذو قوة - وهي
الحصافة في العقل والراي ، والمناة فيهما . ومكين عند ذي العرش ، اي صاحب مكانة
وشرف لديه سبحانه . وصاحب العرش هو الله . ومن معاني العرش الملك . وهو
مطاع في الا الاعلى امين فيه . و (ثم) بمعنى هناك ، اي في العالم الالهي . وهو عالم
لا يعلم حقيقته الا الله وهو علام الغيوب .

(وما صاهبكم بمعجون) صاحبهم هو نبينا صلى الله عليه وسلم . وفي عنه وصف
الجنون لان بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه غريب الخبر عن اليوم
الاخر وغيره من مواضع الصبر ، مما لم يكن معروفا لهم ولا مألوا امقولهم . والتعبير
عنه بصاحبهم ابلغ في الاستدلال عليهم ، فانه صلى الله عليه وسلم معهم من ميسره
الى كبره ، وما عرفوا منه الا كمال السئل والتبريز في الفضل ، فكيف يوصف بالجنون
متلما يدعى الرسالة من ربه ، ولم شيء من غيبه بالذنه ؟ (ولقد رآه) اي ان محمدا
صلى الله عليه وسلم قد رآى جبريل بالايق الاعلى الواضح المظهر لما يرى فيه من جهة
المشرق او المغرب ، او عند سكرة المنتهى ، فذلك مما لا يفهم من هذه الآية . وهذه الرزية
بتمثل جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم في مثال بصر ، فهو تدظهر له وتجلي
لعينه على انه جبريل فمره . (وما هو على الشيب بضئ) قرىء بالفاء وبالضاد .

الْعَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا نُوْعِلَى الْغَيْبِ بِشَيْءٍ ﴿٢٧﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
 شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ تَذْهَبُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٣١﴾ وَمَا
 تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾

والمعنى على القراءة الأولى : وما محمد صلى الله عليه وسلم بمتهم على الغيب ، أى أنه صادق في أخباره من اليوم وحوادثه والوحي وما يجيء به . وكما أنه لم يعرف منه الكذب في ماضى حياته فهو غير متهم فيما يحكيه من رؤية جبريل . وعلى الثانية يكون المعنى أنه لا يخل بما يأتيه من الوحي ولا يقصر في تبليغه . وسمى الوحي غيباً لأنه لا يعرفه ولا يفهم حقيقته من البشر إلا الذى يوحى إليه . (وما هو بقول شيطان رجيم) أى لما كان صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدث به من خبر الآخرة والجنة والنار والشرائع والأحكام قول شيطان رجيم ، تظنون أنه قد تبعه وخالف عقله . (فإن تذهبون) أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، واحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ؟ ما هذا الذى يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم (إلا ذكر للعالمين) موعظة يتذكرون بها ماغرز الله في طباعهم من الميل إلى الخير ، وإنما اتسامهم ذكره مطرا على طباعهم من ملكات السوء التى تحدثها أمراض الاجتماع . (وقوله لمن شاء الخ) بدل من العالمين ، أى أنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته لأن يستقيم على الجادة الواضحة ، جادة الحق والعدل . أما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد إلا الأعوجاج والانحراف عن طريق الحق والصواب ، فذلك الذكر لا يؤثر فيه ولا يخرجه من غفلته . فعلى مشيئة المكلف تتوقف الهداية . ولأربب في أن كل مكلف قد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفر (١) مزمره إلى الخير ليكتسبه .

ولما كان ترتيب الذكر والانتفاع به على مشيئة العبد أن يستقيم ربما يوهم أن الإنسان مستقل باختيائه ، سلطان لنفسه ، وحاكم لأمره ، متقطع العلاقة في إرادته من سلطان الله - استترك لدفع هذا الوهم بقوله (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ، أى أن إرادتكم إنما هي له مغلوقة ، وهو الذى أودعها فيكم ، ولو شاء لسلبكم إياها ، وجعلكم من الحيوانات التى ليس لها إرادة العاقل أو أخط من ذلك بحيث لا تكون لكم إرادة بالرة . واتى بالوصف لبيان الملة في الحكم حيث قال (رب العالمين) ، أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين ، وهو مآتهم كل مايتعمنون به من القوى : إرادة أو غيرها ، وهو مع ذلك صاحب السلطان الأعلى عليهم - كانت إرادتكم مستندة في الحقيقة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يحولها إلى وجهه غير الذى اتجهت إليه لتحولت ، ولو شاء محوها بالرة لمحيث .

له الأمر وهو على كل شيء قدير .

(١) يحفر : من باب ضرب ، أى يسوق مزمره ويدلعه كما في القاموس

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝

عود الى التذكير باليوم الآخر ، وبأن النفوس تشهد مآصلها في الدنيا ، لا يغيب عنها منه شيء في ذلك اليوم ، فتتجلى لها أعمالها في حقيقتها : لا ترى خيرا في صورة شر ، ولا تشيخا في مثال خير كما يقع في الدنيا لأغلب النفوس ، لأن الذي يعول بين الناس وبين فعل الخير إنما هو تفضيل ما ليس بخير عليه ، ولا يفضل الشخص شيئا على شيء الا إذا ظنه خيرا له . ففضد الخير يتمثل للشرار في صورة الخير فيعملونه ، والخير يظهر لنفوسهم على أنه غير خير فيتركونه . ولكن عندما تتجلى الأفعال كما هي في ذلك اليوم ، وينكشف الظلام عن البصائر ، يعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا فهم مقصرون ، فيأسفون على ما تركوا ، ويستبشرون بثواب ما عملوا ، وبعض أهل السوء على أيديهم من الندم ، وبوقوتهم بسوء المنقلب ، ويتمنون لو كانوا توابا .

ذكر الله اليوم الآخر ببعض ما يحدث فيه من عظام الأمور ، كما من علينا بمثل هذا التذكير في السورة السابقة فقال (**إذا السماء انفطرت**) أى انشقت . وجاء في سورة الفرقان (**ويوم تشقق السماء بالغمام**) . وانشقاق السماء انصداع نظامها، فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما تراه اليوم ، فيخرب العالم بأسره . ولذلك عقب انشقاق السماء بما هو من لوازمه حيث قال (**وإذا الكواكب انتثرت**) أى سقطت فبادت . ماذا كان ذلك، اضطربت الأرض أيضا ، وزالزلت زلازلا شديدا ، ووقع الخلل في جميع أجزائها. فتفجر البحار ، وتزول الحواجز بينها ، فيختلط عليها بما لحاها ، بل تفيض على الأرض حتى يصير سطح الأرض ماء لمسطحات من الزمان . وذلك قوله في مسورة التكوين (**وإذا البحار سجرت**) ، أى ملئت وفاض منها الماء على التاويل الأول. وقد يصح إجراء ما هنا على التاويل الثاني ، وذلك أنه بعد أن تفجر البحار وفيض ماؤها تظهر النار وتأخذ مكان الماء بعد أن يتحول إلى بخار ، كما أشير إليه في السورة السابقة . وإذا وقع ذلك انقلب بطن الأرض إلى ظاهرها ، فلا ريب في أن تبعثر القيور (أى يظهر ما كان قد خفي فيها من بقايا أجساد الموتى) ، وبعد ذلك يكون يمث الأموات وأحيائهم في النشأة الآخرة ، ثم تنشر الصحف وينكشف الظلام ، فتعلم كل نفس ما قدمت من أعمال الخير وما أخرت منها بالكسل والأعمال والتسويف من يوم إلى آخر ، حتى حلت الأجل . وقد يكون المعنى ما قلعت من خير أو شر وما تركت منهما .

جرت العادة بأن كرم السيد يدفع العبيد : فإذا أمر تهاونوا في الإجابة إلى أمره ، وإذا نهى تفاطلوا عن نهيه ، وتماذوا في لزوم ما نهى عنه ، والوقوف فيما حذر منه .

وَإِذَا الْجِبَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ

ويرى من على كرم الله وجهه أنه صاح بفلام له كرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب ، فقال له : مالك لم تجئني ؟ فقال : لثقتى بملكك ، وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه واعتقه . وقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه .

وعلى هذه العادة انكا بعض من ضرب بينه وبين معنى الخطاب بحجاب ، أى حجاب ، حيث قال ان الله جل شأنه قد ألهم المخاطب الجواب فلعبسده ان يجيبه بقوله : فرئى كرمك .

ولا يخفى ان هذا تلاعب بالتأويل وتضليل للنظر في كتاب الله اى تضليل : كيف يخطر ببال عاقل ان يقول ذلك في معنى ابلاغ الكلام ، وهو صادر في مقام التهويل والارهاب والتخويف من الحساب وشدة العقاب ، وسد السبل واغلاق الابواب على اولئك الجاحدين الذين قرعوا بهذا الخطاب ؟

ولكن اسمع ما يليق بالمقام الكريم : وصف الكريم ليس خاصا بمعنى الرحيم والواسع العطاء ، المحسن الفافر للذنب ، بل قد جاء في القرآن وصفا للرزق وللكتاب وللرسول وللعرش والمقام وللمدخل وللقول وللأجر . ولا ريب أنه في كل مقام يفيد المعنى الذي يناسبه . والأصل في معنى الكرم الكمال في الوصف والبعد عن النقص . ولقد فسروا الكريم بالعظيم في قوله تعالى « رب العرش الكريم » في سورة المؤمنين ، وهو الانسب بمقام الخطاب في سورتنا هذه . فكانه يقول لمفرك بربك العلى العظيم الذى قد علا في ذاته وصفائه عن كل مايوهم نقصا او عيبا . فهل يمكن للرب العلى البالغ الغاية في الكمال ان يترك عبده سدى ، وان يهمل فعالهم فلا يعاقب شريرا ولا يثيب خيرا ، ولا يعد لهم ما يرددهم من القبيح ولا ما يهزمهم الى الحسن ؟ كلا ، ان اللائق بعلوه وسموه وكرم مقامه العلى ، ان يفيض نعمه على اهل الصالحات ، ويصب نقمه على مجترحي السيئات : تفضلا منه على الاولين ، وحكمة فائقة في التنكيل بالآخرين .

ولئن سلم ان معنى الكريم ، الجواد الواسع العطاء فيأض النعم ، فلا يصح ان يدخل فيه معنى العفو والمغفرة ، والخطاب خطاب تفرع . ولكن فيه اشارة الى معنى رفيع يليق بكتاب الله ، ذلك أنه خاطب « يا ايها الانسان » ، ولم يقل ايها المخلوق او العبد . وفى الانسان معنى الماقل المتفكر ، الذى اوتى من قوة العقل وبسطة القدرة في العمل مالا حد له ينتهى اليه ، حتى صار بذلك افضل المخلوقات واكملها ، ونال بفضل ما اوتيه قوة السلطان عليها ، ولم يكن ذلك كله الا منحة من ربه الكريم الذى احسن كل شيء خلقه .

وهذا الكريم اما يليق به ان يوفى كل مرتبة من الوجود حقها . فلانسان الذى خص بهذه المنزلة من الكرم الالهى لا ينبغي ان يعيش كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار اللر ، وانما يتساوى مع بعضها في الحياة الاولى من حيث قصر المدة وسرعة الفناء ، ولكن الذى يليق بمقله وقوة نفسه الناطقة ان تكون له حياة ابدية لاحد لها ولا فناء يأتى عليها . ولا ريب في أنه اذا روى في الكرم الالهى ان لا يدع مستعدا الا منحه ملاستعد له ، ولا

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ❶ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ❷
 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ❸ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ
 بِالَّذِينَ ❹ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ❺ كِرَامًا كَاتِبِينَ ❻
 يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ❼ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ❽

يحرم قبلنا مما امد لان يقبله ، وهو الذى ينبغي ان يراهى فيه . . . فقد ارتفع القنود ،
 وارتفعت الخديعة ، وحق اليقين بانه لا بد من حياة اخرى بعد هذه الحياة يولى فيها كل
 ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله ، لان ذلك من تمام معنى الكرم الذى ميز الانسان
 على غيره من انواع الحيوان . انما تمام تمييزه بان يجعل له حياة باقية تناسب ما وهبه
 من العقل والقدرة .

ويؤكد هذا المعنى - او حمل الكريم عليه - تعقيبه وصف الكريم بقوله (الذى خلقتك
 فسواء) اى اكمل لك قواك ، (فعديك) اى جعلك معتدلا ، متناسبا للخلق ، معتدلا القامة
 لا كسائر البهائم . وفى قراءة عديك بالتخفيف ، ومعناه صرفك من خلقة غيرك ، لخلقتك
 خلقة حسنة مفارقة لساير الخلق ، ثم اجمل ذلك فى قوله (فى اى صورة ما شاء ركبك)
 اى ركبك فى صورة هى من اعجب الصور واتقنها واحكمها وادلها على بقاءك الابدى فى
 نشأة اخرى بعد هذه النشأة الاولى . وكلمة ما هى التى يسمونها زائدة ، ولكنها تدل
 على تفخيم ما اتصلت به ، فزيادتها زيادة اعراب وان لم تكن خالية عن المعنى .
 ويرشد الى ان المعنى هو ما قلنا ، فوله بعد ذلك (كلاب تكتبون بالدين الخ) . كلا ،
 اى لاشئ يفرك ويضمدك ، بل ان سمة عطاء ربك وحكمته فى كرمه تدلك وتوحى الى
 نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر ثواب او عقاب . وانما الذى يقع منك ايها الانسان هو
 العناد والتكذيب بالدين ، اى الجزاء ، اى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو اليه الشعور
 الاول ، ومن الدليل الذى تقيمه الرسل والحجة التى يأتى بها الانبياء ، مع ان الله
 لم ينرك عملا من اعمالك الا حفظه واحصاء عليك حتى يوفيك جزاءه .

ومن الغيب الذى يجب علينا الايمان به ما أتينا به فى كتابه من ان علينا حفظه يكتبون
 اعمالنا حسنات وسيئات ، ولكن ليس علينا ان نبعث من حقيقة هؤلاء ، ومن اى شئ
 خلقوا ، وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم : هل عندهم اوراق واقلام ومداد كالمهود
 عندنا سوو ما يبيد فهمه او هناك الواح ترسم فيها الاعمال ؟ وهل الحروف والصور
 التى ترسم هى على سحر ماتهم ، او انما هى ارواح تتجلى لها الاعمال فتبقى فيها بقاء
 المداد فى القراطس الى ان يبعث الله الناس ؟ كل ذلك لا تكلف العلم به ، وانما تكلف الايمان
 بصدق الخبر ، وتقويض الامر فى معناه الى الله . والذى يجب علينا اعتقاده من جهة
 ما يدخل فى عملنا هو ان اعمالنا تحفظ وتصى ، لا يضيع منها نقيس ولا قطمير .
 و (كراما كاتبين) اى مطهرين عن الفرض والنسيان .

ثم بعد ان ذكر ما يدل على ان النقلة عن اليوم الآخر لا موجب لها الا التكذيب والعناد ،
 اخذ يؤكد الامر ويخبر به على القطع الذى لا يدخله الريب ، فقال (ان الابرار لفي نعيم
 وان العفار لفي جحيم) . يريد انه لاشئ فى جانب العلى الاعلى يسوغ لاحد من البشر ان

وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١١﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٤﴾ ثُمَّ

يفتر به وأن ينخدع فيه ، بل لابد من يوم يكون فيه الثواب والعقاب . ولابد أن يكون أهل الثواب في دار النعيم ، وأهل النعمة وموضع الغضب الإلهي يكونون في الجحيم ، وهي دار العذاب . والأولون هم الأبرار . و (الأبرار) : جمع بر بفتح الباء وهو الموصوف بالبر بكسرها . قال بعضهم البر بالكسر الصدق ، وقال آخر هو التقوى ، وهو أجمال قد بينه الكتاب العزيز والسنة النبوية . ولا يكون الصدق ولا التقوى برا حتى يكون فيه حسن المعاملة ، وإفراغ الوسع في إيصال الخير إلى الناس . فإذا خلا الوصف من ذلك لم يكن برا ، ولم يكن صاحبه داخلا في هذا الوعد الكريم .

قال الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر واللائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه سدوا القريب واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والوفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين الباس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون) . فجعل البر منحصر في الإيمان بما يجب الإيمان به ، ثم في بذل المال في وجهه ، وفي الصلاة ، ثم عاد إلى بذل المال بذكر الزكاة ، وبعد هذا ذكر الوفاء بالعهود سوهيلاك لكثير من الفضائل واثبته بالصبر على الرض والفقر ، وكل ما يجرح في عيش أو يؤذي في نفس أو بدن ، والصبر في حالة الحرب الدفاع عن الحق . ثم قال « أولئك الذين صدقوا » ليشير إلى أن الصدق الذي يؤخذ في معنى البر لا يكون برا ولا صدقا إلا إذا جمع هذه الأوصاف والأفعال المتقدمة . وكذلك قوله « وأولئك هم المتقون » يفيد أن التقوى هي ما جمع ذلك .

وقال في سورة آل عمران : « لن تتأوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . فلا يعد الشخص برا ولا بارا حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب ، فلا يفتر أولئك الكسالى الخاملون الذين يظنون أنهم يبركون مقام الأبرار ببركات من الخشية خاليات ، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات ، وصيحات غير لاقت باهل المروءات من المؤمنين والمؤمنات ، ثم يصوم أيام معدودات لا يجتنب فيها إبداء كثير من المخلوقات ، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشان الدين : قام أم سقط ، ارتفع أو انحط ، ومع حرصه وطعمه وتطلعه لما في أبدى الناس ، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم لالشيء سوى أنهم عاملون في كسب المال وهو غير عامل ، وهم يجرون على سنة الحق وهو متمسك بسنة الباطل ، وهم متجملون بحلية العمل وهو منها عاطل — فهؤلاء ليسوا من الأبرار ، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار و (الفجار) جمع فاجر . والفاجر : من يفجر أمر الله ، أى يميل عنه ويتركه (١) . والفجور كالفسق في أنه خروج من الحد الذي وضعه الله في شرعه . وأوامر الله قد عرفت في البر ، فمن لم

(١) قال التيسار :

قطعت فنى لا يفجر الله عمدا ولا يجتريه جاهل حين يفعل
أى لا يفجر أمر الله ولا يميل منه « لسان العرب » .

مَا أَدْرَبَكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

يستجمعها فقد فجر . (يصلونها) أى يقامون حر الجحيم . (يوم الدين) أى يوم الجزاء . ثم أكد أن هذا العذاب حتم وأنه لا نجاة لهم منه بقوله (وما هم عنها بقائين) ، أى أنهم ملامزون لتلك النار ، دار العذاب والعار .

وبعد أن أكد خبر اليوم الآخر أشد التأكيد ، وبين مايلقاه فيه المفلتون على التأنيب ، عاد يفخم أمر ذلك اليوم ويعظم شأنه فقال : (وما أدراك ما يوم الدين) ، أى : من الذى أعلمك أنها الإنسان كنه ذلك اليوم ؟ أى عجيب منك ثم عجيب أن تتهاون ببشئه كأنك قد أدركت كنهه ، ووزنته فعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه ! كلا ، أنك لم تدرك من كنهه شيئا ، وكل ماصورت فيه من الهول فحقيقته فوق كل ماصورته ، فإنه ذلك اليوم الذى لا محابة فيه لا مواساة ، ولا يجد المرء ما يمول عليه سوى ماقدمت يده : يحفره الأولياء ، ويخذله الشفعاء ، ويتبرأ منه الأقرباء . (يوم تترك نفسك لنفس شيئا) فلا تحمل منها دنيا ، ولا تدفع عنها عتبا . (والأمر يومئذ لله) وحده ، فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ، ولا مشير . وهو الذى وعد وأوعد على لسان رسله ، وهو اصدق قائل فى قوله ، وأعمل فاعل فى فعله . فلا مهرب لعاقل من جزاء عمله حيث قد استأثر الله بالأمر كله .

نسال الله العونة فى دنيانا لننال الأمن من عقابه فى آخرتنا .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

سورة المطففين قيل مكية كما ذكر ، وقيل مدنية . نزلت فى حال أهل المدينة حين قُبِىَها النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا أخبث الناس كلا كما رواه البيهقى وغيره عن ابن عباس . (والمطففون) قد بينهم الله فى قوله (الذين إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) ، أى إذا كان لهم عند الناس حق فى شيء يكال أو يوزن ، وإرادوا أخذه منهم لا يأخذونه إلا تماما كاملا . ولهذا عدى (اكْتَالُوا) يعلى ، فقال اكْتَالُوا عليهم ولم يقل منهم لأن ماأخذونه حق على الناس يستوفونه منهم . (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ، أى إذا كان للناس حق عندهم فى مكيل أو موزون

يَسْتَوْفُونَ ① وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ②
 أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ③ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ④
 يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑤ فَلَا إِنَّ كَيْدَ سَاطِنٍ

اعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسار . ولا كان المعنى على الاعطاء ، عدى (كال)
 الى الضمير بدون حرف . وقد يكون على حذف الجار والابصال كما في قوله :

وقد جنيتك اكثوا وصاقلوا . والاكثو : جمع كماء ، وهى ما يعرف عند العامة
 اى جنيت لك ، والاصل كالوا لهم . والساقل ضرب منه ابيض ، وقيل لونه بين اليباس والحمرة .
 الان يبيض الغراب . والمساقل ضرب منه ابيض ، واما سعى من يبيض الكحل في حال
 ويملؤه او يزيد عليه في حال مطففا ، لانه يبلغ في كيله طغاف الكيل كسحاب
 اى ما يقرب من ملته ولا يملأه في الحالة الاولى . ويبلغ الطغاف او الطغاف بالضم - وهى
 ما فوق الكيال - في الحالة الثانية . ولانه يطلب الفنى بشئ طفيف ، وهو ما يأخذه من
 البخس اذا اكثال منك ، ومن الزيادة اذا اكثال عليك .

قد ذكر الله في هذه السورة تفصيلا لما اجمله في السورة السابقة ، فقد جاء بنوع
 من انواع الفجور ، وهو التطفيف في الكيال . ثم جاء بنوع آخر وهو التكذيب يوم
 الدين ، وبمنشأ ذلك التكذيب وهو الاعتداء وملامزة الآتام . وانبج ذلك بانى من
 اكثال التكذيب وهو دعوى ان آيات الله في كتابه هى اساطير الاولين ... كل هذا بيان
 للفجور المؤدى بصاحبه الى الجحيم . ثم زاد ما يلاقونه في الآخرة تفصيلا من حيث
 ذكر أين يكون كتابهم ، وذكر حبيبهم من ربهم ، وما يقال لهم من قوارع التكبى .
 وكذلك فصل في نعيم الارباب ما اجمله في السورة المتقدمة كما ترى .

بعد ان قال : (ويل للمطففين) ، اى هلاك لهم عظيم وتكال ينتظرهم ، قال : (الا
 يظن اولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) ، اى ان تطفيف الكيل واختلاس مال الناس
 بوسيلة هذا العمل مما لا يصبر الا عن شخص لا يظن انه يبعث يوم القيامة ،
 ويحاسب على عمله . ولو ظن البعث والحساب لما طغف الكيل ولا بنس الميزان .
 ولهذا تنزل حالة الطفف منزلة حال من يجهل ظنه بالحياة الآخرة ، ففسلا من
 اعتقاده فيها ، فيستفهم عنه ، كما قال : الا يظن اولئك أنهم مبعوثون لذلك اليوم
 العظيم ، اى فيه ؟ (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ، اى يقفون للعرض عليه ، ويطول
 بهم الوقف اعظاما لجلاله واجلالا لمقامه جل شانه .

واعتبار الطفف كانه لا يظن انه سيبعث للقيام بين يدي ربه ، وتزليه منزلة المنكر
 للبعث ، اعتبار حق لا يجادل فيه الا مفور بالله ، او جاهل بدينه ، بل منكر لحقيقته .
 وكيف يصير على ابداء الناس والنقض من حقهم من يظن بعض الظن انه سيقوم بين
 يدي رب العالمين ، وخالق الخلق اجمعين ، القاسم الجبار ، ليحاسب على التقدير
 والقطمير والحببة واللرة ؟ .

(كلا) لا يقيم على ذلك الا منكر لما أوعد به ، او تناول فيما يدفع عنه العقاب
 وينتجبه من الحساب ، لا يبعد به تأوله عن منزلة المنكر ، بل يسقطه مع صاحبه في
 النار ويثنس القرار .

الْقُدِّيسُ بَارَكْلَيْمُ صَيِّمِينَ وَمَا أَدْرَبَكَ مَا سَجِينٌ ۝ كَتَبَ

هذا ما ينذر الله به اللطفين الراغبين بالقليل من السُّعْتِ ، فما ظنك بأولئك الذين
ياكلون أموال الناس بلا كبل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويقلبونهم على قمار
أعمالهم ، فيحرمونهم حق التمتع بها اعتمادا على قوة الملك أو نقوذ السلطان ، أو
باستعمال طرق الحيلة ؟

فهل بعد هؤلاء من الشاكين في يوم البعث ، فضلا من الظالمين أو المؤمنين ؟ لأريب
إن هؤلاء لا يُسَجِّبُونَ إلا في عسائد الجاحدين المتكررين ، وإن زعموا بلسانهم أنهم من
الموحدين المؤمنين .

بروي أن أعرابيا قال لعبد الملك ابن مروان : « سمعت ما قال الله في اللطفين » .
أراد بذلك أن قد حق الوعيد على اللطف على النحو الذي سمعت من التحويل والتعظيم ،
فما ظنك بنفسك وأنت تنهب وتسلب وتنتزع الأموال من أيدي أربابها بالقوة والقهر
لا بالحيلة والخدعة ، استعظما لقوتك ، وغفلة من جيروت الله ، وتكبيرا على الناس ،
ولا تتكنى من ذلك بالقليل كما هو شأن اللطف ، ولا ترضى بما دون استئصال الأموال
ومسح ما يبقى من غبارها بأيدي أهلها ؟ قالوا كل الويل لك (يوم يقوم الناس لرب
العالَمين) . مرى (يوم يقوم) بالفتح وبالجر . وعلى الثاني هو بلد من يوم مظيم . وعلى
الأول يكون طرفا لـ (مبعوثون) ، أو منصوبا على الاختصاص ، وهو ما نختاره لأن
المقام له .

كلما ردع لهم عن التطفيف الذي يقترونه لففتهم عن يوم الحساب ، وضعف
اعتقادهم به ، فإن ذلك فرور منهم لا يرجعون فيه إلى سند . وذلك أنهم يعملهم هذا
بعدم من الفجار . والفجار يحاسبون على أعمالهم لا بفعل منها شيء ، فإن لهم كتابا
تحصى فيه أعمالهم : خفيها وجليها ، حقيها وعظميها . وذلك الكتاب يسمى بسجِين
وهو « مؤتمم » ، أي قد أثبت فيه العلامات الدالة على الأعمال .

وينهم من استعمال اللفظ في اللغة ، ومن مقابلته بكتاب الأبرار الذي في طين ، أن
فيه معنى التسفل ، كما أن في مقابلة معنى التعلل . وقد رأيت في بعض كتب أهل
البحث في اللغات أن الوُحْلَ يسمى في اللغة الألبوية سجنون (بالجمع المعجمة مع
إمالة في حركة الواو) ، ولا يخفى ما في معنى الوحل من التسفل . وقد يكون هذا
اللفظ من استعمال حرب اليمن ، فإن فيها كثيرا من الألفاظ الألبوية لكثرة المخالطة
بينهم وبين أهل الحبشة . استعملوه فيما يقارب الوحل ، فلا يبعد أن يقال أن الكتاب
فيه أي أنه مكتوب به ، أو على التصوير والتخييل ، أي أن الأعمال - لخبيثها - تصور
وتمثل كأنها مكتوبة به ويكون معنى كون الوحل وما يقاربه كتابا مرقوما ، أن الأعمال
بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتابا مرقوما .

وعلى أن سَجِينًا اسم لما تحصى فيه الأعمال يجوز أن يكون لفظ (كتاب) الأول
مصدرا ، أي أن كتبهم وأثبات اسمائهم وأعمالهم هو في ذلك الكتاب الذي هو كالسجل
لنلك الأسماء والأعمال . ويقال كتب الله فلانا في الأشقياء أو في السعداء ، أي أدرج
اسمه بين اسمائهم فيما قدر لهم . فكذلك يقال كتب الفجار في سجين ، أي أودع
اسمائهم فيه مقرونة إلى أعمالهم .

ويجوز أن يكون كتاب بمعنى المكتوب . ومعنى كونه في سجين أن سَجِينًا هو سجل

مَرْشُومٌ ۝ وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ ۝ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ
بِيَوْمِ الْآزِينِ ۝ وَمَا يَكْتِئُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا

عام يحتوي على صحائف كثيرة : لكل فاجر صحيفة . والمجموع هو ذلك السجل العام المسمى بسجّين .

(ويل يومئذ للمكذبين) إعادة للوعيد الأول في قوله (ويل للمطففين) ، بمباراة اذل على عظم الجرم وأعم تشمل تلك الجريمة وغيرها . وذلك أنه قال في المطففين : (لا بطن أولئك آثم ميمونون ليوم عظيم) ليبين أن الإصرار على ذلك العمل القبيح يدل على ارتفاع الظن بالبيت ، ثم أعاد الوعيد بلفظ المكذبين الذي يشمل أولئك المطففين وغيرهم ، وهم الذين يكذبون بيوم الدين ، أي يوم الجزاء ، سواء كان التكذيب بجحد الخبر به مباشرة أو كان يعلم البهالة بما يكون فيه من مقاب وعذاب . وعدم البهالة هو التكذيب المستطاب في النفس الذي تجرى عليه في أفعالها ، وإن كانت لا تظهره في أقوالها . وأعظم دليل على عدم البهالة هو الإصرار على الجرائم ، والمداومة على اقتراء السيئات . ولهذا جعل الاعتداء والآثم مناط التكذيب في قوله : (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) ، فإن من كان ميلا إلى العدل في خلقة وأفعاله ، واقفا عندما حدد الله لمياده في شرائعه وسننه ، لا يعتدي حدود النصفة ، فابسرؤه عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو آمون له على ما مال إليه . أما من اعتدى الحق ، ودعى من الانصاف ، واعتاد ارتكاب الآثام وإتيان ما فيه الفس من حقوق الناس والأضرار بهم والاخلال بنظامهم فذلك الذي يصعب ، بل يكاد يمتنع عليه الإذعان بأخبار الآخرة ، لأنه يابى النظر في أدلتها وتدبر البينات القائمة على صدقها ، لأن في ذلك قضاء على نفسه بالسفس ، وحكما عليها بالظلم — ذلك فيما مضى لها — ثم فيسه تخويف لها من ارتكاب مثل عملها فيما يستقبل ، وهي جامحة طامحة . فهو لا يريد إلا أن يطلها بالانكار ، ويهون عليها الأمر بالتغافل أو التعلق بالأمانى ، من نصره الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

فلذلك إذا بليت عليه الآيات المنزلة الناطقة بأصدق الخبر عما يكون في ذلك اليوم مما لا مفر منه (قال أساطير الأولين) . والأساطير أحاديث لا نظام لها ، أي ذلك كلام مكرر الحكاية ، ياتر الآخر من الأول ، والخلف من السلف ، ولكنه ما لا ينطبق على الواقع ، فهو مما تصودت النفوس سماعه وتعودت ألا تتأثر منه ولا تحلى منه بطائل . فلا يستحق النظر فيه .

هكذا حال القوم : يتلى عليهم كتاب الله ، وفيه ما ينعي عليهم حالهم ، ويكشف لهم ما لبسوا على أنفسهم ، ويبين لهم سيئات أفعالهم ، فيقولون هذا مفهوم ولكن من ذا الذي يعمل به لا ولم لم يعمل فلان وفلان حتى كنا نسلك مسلكهم ، ونستقيم على طريقهم ؟

فيؤاذا واصفون لكتاب الله بأنه أساطير الأولين ، وإن لم ينطقوا باللفظ الدال على الوصف ليطأوا أنفسهم بأنهم مسلمون ، وأنهم مع فجورهم ناجون . (كلا) إن هذه الآيات ليست بأساطير تُسْطَر ، واقاصيص تُحكى ، وتؤثر وتُعاد

بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ
عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا
الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا عِلِّيُّونَ ﴿٢٠﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢١﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٢﴾

وتكرر بدون حقيقة ولا اثر ، بل هي الحق الذي لا مرء فيه ، عرفه منها أهل العدل
المتعرضون للرحمة والفضل ، وإنما الذي غطى قلوب المكذبين ، وحجبها عن فهم ما جاءت
به الآيات ، تلك الملكات الرديئة ، والمعادات السيئة والأعمال الخبيثة التي كانوا يكسبونها .
ورأى على قلبه : أي ركبته وقطاعه . ومعنى رين الذنب وركوبه القلب حتى يحجبه
من الفهم هو ما ذكرناه لك من أن المسوء الذي ضربت نفسه بالقبيح يسمى جهمه
في البعد عن كل ما يكره صفوه ، فهو يعرف عن كل ما يجد فيه تهجيناً لعمله ، أو
بخوفاً من ماقبة فعله .

وهل يفهمهم هذا المعنى من الحق شيئاً ؟ (كلاً) انهم سيكونون يوم القيامة في
الكان الدون ، وموقف البؤس ، و (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . ولا يحجب عن
الرب الكريم إلا المخلول المزدول ، الدليل المهيئ (ثم انهم) — بعد أن يطردها عن
ابواب الكرامة — يقذف بهم حيث لا يلقون إلا الأسف والندامة ، يقذف بهم في الجحيم
يصلونها ويقاسون حرها ، (ثم يقال) لهم (ههنا) هو المذاب (الذي كنتم به
تكلبون) ، بكيتنا لهم ، وزيادة في التنكيل بهم ، فإن أشد شيء على الإنسان إذا أصابه
مكره أن يذكر — وهو يتالم له — بأن وسائل النجاة من مصابه كانت حين يديه فأهملها ،
وأسباب التفحص عنه كانت في مكنته فأغفلها .

(كلاً) ردع عن التكذيب المذكور في قوله : هذا الذي كنتم به تكلبون ، وإنما يجب
تجنبه طلب الكرامة في ملازمة التصديق الذي هو غده ، فإن كتاب الأبرار في عليين الخ .
وقد بينا في السورة السابقة معنى (الأبرار) ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات
الفصلة في السور والآيات ، فهؤلاء لا يضيع عمل عامل منهم ، بل كل ما عمله فقد
أحصاه الله في كتاب مرقوم ، اسمه عليون .

والكلام على لفظ كتاب الأول كالكلام عليه فيما سبق . وقد رأيت من بعض
الباحثين في اللغات الشرقية أن لفظ علوا في اللغة الأتوبية (الحبشية القديمة) معناه
التنقى باللون الأحمر . فإن لم يكن اليليون من العلو فمن الجائر أن اللفظ دخل في
لغة أهل اليمن وصرب الجنوب على معنى الزينة ، ثم أطلق على كل مزين لطيف .
وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن مع ما هو من معنى العلو . وهذه الكتب التي
تكتب فيها أعمال الجرمين أو أعمال الأبرار مما استأثر الله بعلم حقيقته . فسجين
وعليون موجودان ، أودعهما الله أعمال الخاسرين والناجين ، وليس علينا أن نعرف أنها

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ
مَخْتُومٍ ﴿١٦﴾ خِتَمُهُمْ مِنْ مَسْكٍ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

من أوراق أو أخشاب أو معادن آخر ، أو من أرواح غير أجسام - كل ذلك مما لا حاجة إلى البحث فيه لاستكمال الإيمان ، وقد يكشفه الله المصطفين من عباده .
ولهذا قال (يشهد القريبون) . وجاء بهذه الصفة ليدل بها على أنه امر محقق الثبوت ، حتى أن القريب ليشهده شهود العيان إذا وصل من القرب إلى الحد الذي يكشف له فيه ذلك الكتاب وأمثاله .

ولما كان المقصود من شهود القريبين هو ما ذكرنا والله أعلم ، ظهر وجه ذكر هذه الصفة في جانب كتاب الأبرار ، وعدم ذكر مثلها في جانب كتاب الفجار ، لأن الفجار لا يشهدهم الله كتبهم ولا كتب غيرهم لتسفل أرواحهم وتدنسها بأوضاع الفجور ، فأنى يكون لها الإطلاع إلى غيب لا يدنو منه إلا النفوس العالية ، والمقول الصافية .
وقيل المراد بالقريبين الملائكة ، وعليه لا يظهر تخصيص كتاب الأبرار بذلك ، فان كتاب الفجار مشهود لهم كذلك .

بعد أن أكد الخبر بإحصاء أعمال الأبرار ، وإن إحصاءها في كتاب رفيع مكرم جليل ، أخذ يفصل ما يتلوه من الجزء على البر والإحسان فقال: (إن الأبرار لفي نعيم) . والنعيم والنمى والنعماء والنعمة كله الخفض والعة ، وما فيه للذة وراحة وليس فيه ألم ومنا ، وهو ضد البأساء والبؤسى . و (الأرائك) هي الأبرّة في الجبال . والجبال جمع جِبلَة مثل القبة . وحجلة العروس بيت ساء خيمة -يزين بالثياب والاسرة والستور . وقولنا (ينظرون) أى يمدون أعينهم إلى ماشاوا ، لانبض الخزي من أبصارهم . و (نضرة النعيم) بهجته ومآذ ورونته . و (الرحيق) الشراب الخالص الذي لاغش فيه ، وهو قول الزجاج ، وقيل هو أعتق الخمر وأفضلها ، وقيل هو صهرتها - وهي معان كلها متقاربة . و (مختوم) ختمت أوانيه وسدّت ، وكان ختامها المسك مكان الطينة . وقيل المراد من (ختامه) ، مقطعه بعد الشرب ، أى أن الشارب يجد منه رائحة المسك بعد أن يشربه ، ولا يجد تلك الرائحة الخبيثة التي يجدها شارب الخمر . (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) ، أى في ذلك النعيم وما تلاه يرغب الراغبون ، ويسبق بعضهم بعضا إليه بالإعمال التي تقرب منه .

وهذه الجملة معترضة ذكرها عقب أنواع النعيم المتقدمة قبل أن يأتى على بقية أوصاف الرحيق ، أسراها اليك بالترقيب إلى التسابق إلى مآد من أنواع السعادة . وقد يعود اسم الإشارة في ذلك إلى الرحيق المختوم ، تمييزا له من بين أنواع النعيم السابقة بالترقيب فيه . والجملة اعتراض على كل حال . وكل نوعين اختلافا فاحدهما مزج صاحبه ومزاجه .

فبعد أن قال : (يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك) بين ما يمزج بذلك الرحيق إذا رغب راغب أن يمزجه بشيء ، ودل على أن مزاجه يكون من التسنيم : وهو ماء يأتي

الْمُتَّقِينَ ١١) وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ١٢) عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ١٣) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ١٤) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ١٥)

من الامالى واسمه التسنيم ، ليطابق الاسم مسماه ، ثم زاده بياناً بقوله : (عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) . فَعَيْنًا منصوب على الاختصاص بالدهج ، وفيه من البيان مالا يخفى .
(يشرب بها القريبون) أى يشربون بها الرحيق مزاجاً له اذا ارادوا . و (القريبون) هم
الابرار بعينهم ، ذكرهم بهذا الوصف زيادةً في تكميلهم .

كل هذه الاتواع من النعيم التى ذكرت فى الآيات مما يرغب فيه الانفس ، وتتسابق
اليه الهمم ، لهذا حفر الله بها عزائم المحسنين ليزدادوا احساناً ، وليطمع فيها الواقف
على اول الطريق ، فيلزم الجادة الواضحة ، ويدع المغرّة الملتبسة ، ويسلك سبيل
السابقين ، وليرد بها من جار على النهج ويقيم على الصراط المستقيم .

هذا المفهوم منها ما يشبه ماتحن فيه ، فما ظنك بها لو كانت ارقم ، واكمل ، واعلى
وافضل ، وانه لا يدانيها شيء مما نهمده فى الدنيا الا فى الاسم ، او ضرب من الشبه البعيد،
كما هو حقيقة امرها والحق فى شأنها !

بعد ان ذكر ما اوعده به (الفصل) وهم اهل الجرائم ومقترو السبيلات ، وما
وعده به (التقوى) وهم اهل البر والاحسان ، وما سيلقيه كل من الفريقين فى الدار
الآخرة جزاء على صمله - اخذ يذكر ما كان لاحد الفريقين الى الآخر فى الدنيا ،
وما سيكون من شأن الآخر مع الفريق الاول فى الآخرة ، فقال : (ان
الذين اجرموا) وهم المعتدون الائمة ، الذين شرب نفوسهم فى الشر ، وصمت آذانهم
عن سماع دعوة الحق ، هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ، ذلك لانهم رحم الله
هذا العالم ببعثه النبي صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على راي
الدهماء وفى ضلال العامة ، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها الا صوته عليه
السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه ويوجب دعوته من الضعفاء الذين لم تعلمس
اهولهم سبيل الحق الى قلوبهم ، فُسِّرَ بها الى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها
لن بخافه .

ومن شأن القوى المستمر بالقدره والكثرة ان يضحك ممن يخالفه فى الإسراع ،
ويدعو الى غير ما يعرفه وهو اضعف منه قوة واقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة
من قريش - كابي جهل والوليد بن المغيرة والعامر بن وائل واشياهم - وهكذا يكون
شأن امثالهم فى كل زمان متى صمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وخفى طريق الحق بين
طرق الباطل ، وجهل معنى الدين ، وانزهت روحه من عباراته واساليبه ، ولم يبق
الا ظواهر لاطايقها البواطن ، وحركت اركان لاشياهم السرائر ، وتحكمت الشهوات
فلم تبق رغبة تحدو بالناس الى العمل الا ماتلق بالطعام والشراب والزينة والرياض
والمناصب والالقب ، وثبتت الهمم بالجد الكاذب ، واحب كل واحد ان يحمد بما
لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل مانقص منه بتفقيص الكمال ، واستوى فى ذلك
الكبير والصغير ، والامير والمأمور ، والجاهل والمقلب بلقب العالم - اذا صار الناس

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ
 قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٢٣﴾
 فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
 يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ ثُبُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾

الى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم بالداعي اليه ، وانطبق عليهم نص الآية الكريمة (**واذا مروا**) بأحد من أهل الحق يغمز بعضهم بعضا هزوا به .
 وإذا انقلب هؤلاء الضالون الى أهلهم ، ورجعوا الى بيوتهم ، رجعوا اليهم فكهين ملتدين بحكاية ما يسيبون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل ، كان يقولوا : عجبا ! هذا فلان يقول لاندعوا الا اليها واحدا ، ولا تتوجهوا بالطلب فيما ينفوق طافتكم الا الى الله وحده خالق السموات والأرض ، فابن الأولياء والتشفعاء ! وكم فعلوا وتركوا ، وضرروا ونفعوا .. وهو ينكر جميع ذلك ، كان الناس جميعا في ضلال وهو وحده يعرف الحق ! .. ونحو ذلك مما يفعلونه فكاهة يتلذذون بحكايته .

وإذا راوا المؤمنين قالوا : ان هؤلاء لضالون ، لانهم طرحوا ما عليه السادة وذهبوا بعبوديتهم الفاعلة والأعمال المتوارثة من الآباء والأجداد . (**وما أرسلوا**) ، أى لم يرسل المؤمنين الصادقون الداعون الى الحق لأن يكونوا (**حافظين**) عليهم ، أى على الكافرين والمتبعين المجرمين ، أى لم يمنحهم الله تلك الغزوة : وهى أن يكونوا رقباء عليهم ، يعظونهم ويوعظونهم الى الخير وهجر الشر ، فليسوا ملزمين بسماع دعوتهم والإصاخة لأدلتهم . فجملة (**وما أرسلوا**) هى من كلام الذين اجروا ، جدا لحق المؤمنين في عظيمهم وارشادهم .

ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين في الدنيا : يهزمونهم ، ويضحكون منهم ، ويجعلونهم احاديث لهو ولفو — فانظر ماتكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة . (**فاليوم**) أى يوم الدين والجزاء (**الذين آمنوا من الكفار يضحكون**) ، لاضحك الجاهل المفلور ، بل ضحك الموقن السرور ... ضحك من وصل به يقينه الى مشاهدة الحق قسراً به .
 انكشف لهم بالبيان ما كانوا يرجونه من اكرام الله لهم ، وخللائه لامدائهم ، قسروا بذلك وفرحوا وضحكوا من أولئك المفلورين الصاعدة الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفة عقولهم وفساد أفعالهم ، فنكست أمتانهم لخزيهم وذلمهم ، فما أعظم مجد المؤمنين في ذلك اليوم ! (**على الأرائك ينظرون**) الى صنع الله بأعدائهم ، وتدليله . إن كان يفضيهم عليهم ، وتكيله بمن كان يهزا بهم جزاء وفاقا !
 فجملة (**هل ثوب**) متعلقة بينظرون ، ليتحققوا : هل جزوى الكفار بما كانوا يفعلونه بهم في الدنيا ؟

(**وثوب**) — مثل آثاب — بمعنى جزاى . يقع في الخير وفي الشر ، وإن كان قد غلب الثواب في الخير . أى : هل جزوى الكفار الخ . ويجوز أن يكون استثناء واستغناء تقريرا ، كأنه خطاب للمؤمنين ، أى : هل رأيتم كيف جزاى الله الكافرين بأعمالهم ؟ أى انه فعل وجزاهاهم شر الجزاء واتم عملهم ذلك . والأول اظهر كما لا يخفى .

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

مَكِّيَّةٌ وَأَدَاتُهَا تَمْسِيرٌ وَتَشْدِيدٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُشَّتْ ② وَذَا
الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ

انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسره في سورة (إذا السماء انشقت) ، وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه . وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم ، كان يمر كوكب في سيرة بالقرب من آخر فينجاذباً فيتصادماً فيضطرب نظام الشمس بأسره ، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام ، يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع ، فتكون السماء قد تشققت بالغماء ، واختل نظامها حال ظهوره . (وأذنت لربها) أى استمعت لأمر ربها ، وفعلت . حين أراد انشقاقها . فعل المطواع الذي إذا أورد عليه الأمر من جهة أمره انصبت له وأذعن ، فكانه قال امتثلت له . (وحشت) أى حق لها أن تمثّل ، أى يجدر بها ذلك . وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع لأنها مخلوقة له وهى فى قبضته ، وهو الذى يمسكها أن تزول . فإذا أراد تبديد نظامها ببدّه ، وما يكون لها أن تعمى أرادته .

ومنى فسد نظام السماء ، فتساقط من كواكبها بمضاهل بعض ، أصاب الأرض من ذلك اند ما يصيبها من الاضطراب . فتدك جبالها ، وتقطع أوصالها ، وتفقد السماك بينها فلا يبقى لها هذا الاندماج الذى هى عليه الآن ، فتكسد ممدّ الأديم المكافى كما روى عن ابن عباس ، ولا تكون الا كتلة مائرة تتساوى أماليها وأسافلها ، وعظمت بهذا الانتفاش ، وزادت أقطار حجمها ، فهذا قوله تعالى (وإذا الأرض مدت) . ولا ريب أن هذا المد يتبعه أن جميع مائى جوف الأرض يتقلد إلى خارج ، وربما قدفنه الحركة العنيفة إلى ما بعد من سطحها فتخلو الأرض منه حتى لا يبقى له أثر فى باطنها ، وهذا هو قوله تعالى (وألقت ما فيها وتخلت)

وهى فى ذلك كله تحت سلطان الجلال الإلهى وقهره ، خاضعة لأوامره ، متفاداة لنيبته كما قال (وألذنت لربها وحشت) .

ولا يخفى أن الاستماع والطاعة من السماء والأرض تمثيل لكونهما فى قبضة القدرة الإلهية تصرفهما فى الفناء كما نصرت فيهما بالابتداء ، كما قال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً فلأتتا آتيتا طائمتين) ، أى أنه خلقهما على الوجه الذى أراد دون أن يكون منه جهد أوكد ، أو يسيبه عناء أو نصب ، كما يتوهم ضغفاء القول إذا سمعوا بأن واحداً وحده يخلق هذا الخلق العظيم ، أو يدمر هذا الكون الجسيم . وكما زعم اليهود أن الله ابتداء الخلق يوم الأحد ، واستراح يوم السبت / واستلقى على العرش .

لَقَدْ سَأَلْتُمُونِي ۖ أَتَأْتِيكُمْ بِبُرْهَانٍ وَإِنِّي لَأَكْتُبُ الْإِنشَاءَ
كَمَا تَهْتَفُوعُونَ ۖ كَذَٰلِكَ مِنْ أَوَّلِنَا كِتَابٌ بَرِيدٌ ۖ
فَعَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ مَكْشُوفَةً ۖ فَاسْتَخَرْنَا رَءِيسَ الْأَنْبِيَاءِ ۖ وَنُصِيبُ إِلَيْكَ

قال الله في آية أخرى لإفاده المعنى على الحقيقة دون تمثيل : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما حسرتنا من ذنوب » .

وكل قول أو فعل ينسب إلى من لا يصدر عنه في السرف ، فنسبته إليه على طريق التمثيل ، إلا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة في عرف الخطاب .

جاء في هذه السورة بشرطين : أحدهما يتعلق بالسماء ، والآخر يتعلق بالأرض ، وفي ضمن كل منهما ما هو من لوازمه . ولم تأت بجواب للبشرطين ، بل أعقب قوله : (وإذا الأرض مدت) التي بقوله (يا أيها الإنسان أنك كاذب إلى ربك كذبا فلابد فيه) .

وهو من عجائب إيجاز القرآن : حيث يثان لزوم الانطباع فبأنى الإيجاز بما لا يأتي به الانطباع . فإن الله تعالى قد بين في سور آخر كثيرا مما يكون يوم القيامة من الأحوال والشعائد ، وحضور الأعمال ، وشهود الجزاء ، والوديع في روضة الحساب ، وما يأتي بعد ذلك من شقاء ونعيم . . . فذكر الله بداية ذلك اليوم في هذين الشرطين : انشقاق السماء ، وتصدع الأرض وانتفاخها ودفنها لما في جوفها . وترك الجواب بذهب فيه السامع ما شاء من اللذائب ، حتى يمر بذهنه جميع ماورد من حوادث ذلك اليوم . وفي هذا من التحويل ما ربما لا يفيد التحويل .

وقد يقال إن الجواب مطلوب يدل عليه مايفهم من قوله يا أيها الإنسان أنك كاذب الخ . كانه قال : أنا للهواه تشبهت الخ وإذا الأرض مدت الخ - لافى الإنسان ربه فوقاه حسابه .

(كاذب) من الكدح ، وهو العمل والسعي والكسب والخدش . والكدح عمل الإنسان انفسه من غير أو شر . ووصل الوصف بالي إذ قال تَدْرِيخُ إِلَى رَبِّكَ ولم يقل لربك ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سر وانتهاء ، كانه يقول - والله أعلم - يا أيها الإنسان السادر في غاياته ، الصادر في عمله عن أهوائه ، الغافل عن مصيره ، الجائر من جادة الحق في مسيره . . لا تظن أنك خالد ، وأنت مقيم فيما آتت له جاهد ، وأنت - إن أذيت الخلق ، وأزدريت الحق ، وانخررت بالحول والقوة ، وسلمت عنائك الشهوة - فسمت لنفسك التمتع بما تنكب ، والبقاء فيما فيه تمنع وتنصب . كلا . أنك مُجِدٌّ في السير إلى ربك وإن كنت لاتشعر بربك ، أو أن شعرت به كُفِّرَتْ عنه . وكل خطوة في مملكته هي في الحقيقة خطوة إلى أجلك . فكل جهد وتعب يحدث في القوى اثر ضعف ، ولا يزال الضعف يتبع بعضه بعضا حتى ينتهي إلى الموت الذي لا مُعِيدَ منه . وهناك لقاء الله ، فإن الموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ، ويطلو لها وجه الحق ، فتصرف من الله ماكانت تنكره ، فقد لقيته كما يلقى القائل من يقدم هو عليه . وما بعد الموت من رجعة إلا يوم البعث ، يوم يصوم الناس العرش على ملك يوم الدين . كما قال : يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . وهناك يرتفع الانبياس ، ويعرف كل عامل ماجر إليه عمله : (فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) والذين يؤتون كتبهم بيمينهم هم الصالحون ، أهل البر

أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ① وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ وَرَاءَهُ

وفعله الخير ممن ذكر الله أو مسافهم وأعمالهم في الآيات الأخر . (وَيُنْظِرُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) ، أي يرجع إلى من هم من قبيلة المؤمنين الصادقين المأمنين مسرورا بما لا قام من سهولة الحساب والنجاة من العقاب . إنما أُلْقِيَ يُؤْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَهُ ظَهَرَهُ فسوف يدعوا ثبورا ، أي يقول : وا نبوراه ! أي وا هلاكاه ! فهو يضمن أن يهلك بان يموت ويفقد الثمور بما يلقاه كقوله يا ليتني كنت ترابا ، (وَيُصَلِّي سَسْمِي) يقاسي حر نار شديدة اللدغ والإحراق . (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ) وقبيلة من أممالة (مَسْرُورًا) بما كان فيه من الترف والتعيم ومُعاقره الذات ومداغية الشهوات . فالיום يتمكس عليه حالة ، ويسوء ماله ، ويجد حزنا يدل سرور ، والمسا مكان لذة .

والحساب اليسير السهل أن تعرض عليه أعماله فيعرف منها مايسر نسبته إليه ، وما قد يؤاخذ عليه ، ثم لا يناقش ولا يعترض بما يسوءه وينسق عليه .

أما الكلام في إنشاء الكتاب باليمين أو وراء الظهر فاليك مايلقي منه بكتاب الله وحكمته الباهرة : اليمين تذكر في كتاب الله عبارة عن القوة أو اليقين والخير . قال الله تعالى في سورة الصافات : **وَأَقِمْ وَفِيهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَامَتُونَ . قَالُوا قَدْ كُنْتُمْ تَتُونَنا عَنِ اليمين . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .**

قال صاحب الكشف ، بعد أن ذكر شرف اليمين وما يُلْبِطُ بها من الأعمال . واستعرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل أتاه عن اليمين - أي من قبل الخير وناحيته - ففسده فنه وأخله . وقال البيضاوي : من أقوى الوجوه وإيمانها ، أو من الدين أو الخير . وجاء في الكشف أيضا : وجاء في بعض التفاسير : من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فليست عليه الحق . ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات . ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقسمات وبالذنوب والعقاب . ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يتغلب معه فلم يصل رجما ولم يؤد زكاة . وقال في سورة الحاقة : **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلِيشًا بَدْمِهِ الْأَفَاوِيلَ لَخَفْنَا مِنْهُ بِاليمين .** أي لو ادعى علينا شيئا لم نقله لفتنناه صبرا . قال البيضاوي : وهو تصوير لاهلاكه بافطع مايفعله الملوكة بمن يفضيرون عليه ، وقيل اليمين بمعنى القوة . وقال البيضاوي في تفسير قوله **فَرَأَى عَلَيْهِمْ هَمِيزًا بِاليمين** : تقييد باليمين للدلالة على قوته ، لأن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل . فالذا استنمات اليمين لتمثيل القوة قابلتها اليسار أو الشمال في تصوير الضعف ، وكذلك يقال في الخير أو الشر وما يقابلهما .

ثم مما لا يحتاج إلى بيان أن اليمين هنا آلة الأخذ لا آلة الإعطاء ، لأنها مضافة إلى نعيم العبد ، فيكون المعنى : فاما من أوتر كتابه فأخذه أو تساوله بيمينه ، فكانه يقول : فاما من عرض عليه كتابه ، وقدم إليه سجل أعماله ، فتساوله بيمينه فأمزه كيئت وكيت . ومن يتناول شيئا بيمينه يكون قد توجه إليه بيمينه ، وأندفع نحوه بقوة نفسه بخلاف ما يُعطاه ويُأخذه بيساره ، فإن مد اليسار إليه دليل كراهته له . وأظهر في الدلالة على الكراهة والتفور مما يعرض عليه أن يستبد به ويعرض عنه فيكون وراء ظهره .

فمعنى آية الحافة والآية التي نحن بصددنا : فاما من عرض عليه كتابه ، وقدم إليه ليأخذه ، فاندفع اليه بزيمة نفسه لثموره بأنه مستودع الصالحات

ظَهَرِهِ ﴿١٥﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٦﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٨﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٩﴾

وسجل البر والمكرات ، فنتاته كلها . وأما من قدم إليه كتابه ، وعرض عليه فعله ، فخرت نفسه ، وخارت عزيمته ، فعد إليه بساره لعله لا يستطيع ضبطه فيسقط منه فلا يرى ما فيه أو يعرض عنه فيؤليه ظهره لشغوره بأنه ديوان السيئات وسجين المخاري ، فأمره كبت وكبت . ويرشد إلى ذلك ماورد من التفصيل في سورة الحاقة فإنه قال : فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرأوا كتابه أتى غلظت أتى ملائ حسليه . ودعوة الناس إلى القراءة دليل الفرح والنشاط وقوة العزيمة . وأما من أوتي كتابه بشماله ، فيقول يا ليتني لم أوت كتابه ، ولم أجد ما حسائيته . باليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليتها . هلك عنى سلطانيتها . وهذا قول المحدثون الكاره لما عرض عليه .

فإنشاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم : فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتجع واستبشر - وهو التناول باليمين . ومنهم من إذا تكشفت له مساوئ أعماله عبس وبسر ، وأعرض عنها وأدبر ، وتعنى لو لم تكشف له - وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر . وبهذا اتفق المعينان في الآيتين ، ولم يبق حاجة إلى الجمع بين التسماع ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين .

(أنه ظن أن لن يحور) ، أي رجح في حكمه أنه لن يرجع إلى ربه فيحاسبه على مايقترف من ذنبه ، أو يشبه على الأفضل من كسبه . وفي الآية شهادة بأن المسخرين لشهواتهم وأهوائهم في أعمالهم لا يمكن أن يكونوا ظانين ، فضلا عن كونهم موقنين بأنهم يرجعون إلى الله ليحاسبهم ، بل الراجح عندهم أنهم لا يحاسبون ، أو أن الله مخلف وعده ، وهذا هو الذي ينسبهم ذكره منذ كل جرم يجرمون ، فهم - وإن كانوا يرجعون الإيمان بالله وبوعده ووعيدته - يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ويبتلون دائما بسوء الخاتمة والعياذ بالله . (بلى) إيجاب لما بعد النفي في لن يحور ، أي بلى ليحورن وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبن على عمله ، فيجزي عليه : الخير بالخير ، والشر بالشر .

لم علل ذلك بقوله : (أن ربه كان به بصيرا) . والبصر بالشيء تمام العلم به نشاء وغاية . والذي يخلق الإنسان مستعدا لما لا يتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذي لا يقف متسدد في العلم ، وأرسال أشعة العلم إلى أسرار الكائنات ودقائق الوجودات ، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية مسائر الحيوان ، ممن لم يعط استمداده ، ولم يمد أمداده ، بل تقضى حكمته في هذا الخلق العظيم أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة ، يستثمر فيها أعماله ، ويواقي فيها كماله .

ولو أنه استدنى إلى الإنسان من المواهب ما استدنى ، ثم تركه بعد ذلك سدنى ، لم يكن ذلك إلا من عمل الجراف ، الخالي من البصر والحكمة بل من العذل والاتصاف . وهذا الذي فسرنا به هو الأليق ينسق الكلام ، دون الذي سبقنا إليه بعض قُصار الأنفسام .

ولتأكيد ذلك أقسم الله بآيات له في الكائنات ، ظاهرات باهرات ، ليلل على عظم شأنه في وضع الكون عليها . وقد تقدم أن (لا أقسم) عبارة من عبارات القسم . والشق

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفقِ ﴿١٦﴾
وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبَنَّ
طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾

النهار في راي الزجاج ، وبقية فسوه الشمس والحمرة من غروب الشمس الى وقت
المساء الآخرة مند غيره . والنهار زمان يسمى فيه الكاسيون لتحصيل ارزاقهم ،
والايراب يشغلونه باصلاح احوالهم واحوال غيرهم ، وتكميل عقولهم واخلاصهم . ففيه
الشفق ، وهو الخوف من الاخفاق ، فيجدر ان يسمى شفا ، وما يبقى في الأفق من الحمرة
وقليل من البياض ينلرك بليل لاتدرى ما يكون فيه ، فله من مسمى الشفق - وهو
الخوف - نصيب .

و (وسق) ، أى ضم وجمع . ولا يخفى عليك ان ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل حتى
ان جناحيك الذين تمدهما الى العمل بياض النهار تضمهما الى جنبتيك للراحة سواد
الليل . والفادون في النهار يروحون بالليل . والليل يضم الامهات الى افراخها ، ويرد
السلامات الى مناخها ، وبالجمله كل ماشره النهار بالحركة يضمه الليل وجمعه
بالسكون . وجعل الليل سكنا .

واتساق القمر تسامه واجتماع نوره ليلة اربع عشرة او ليلة ثلاث عشرة واربع
عشرة وخمسة عشرة .

ولا يخفى ما للناس من النافع في هذه الامور الثلاثة التي اقسام الله بها ، وما فيها من
الآيات الناطقة بحكمته واضع نظامها ، فهي جديرة ان يقسم الله بها لنيه الفاعلين الى
ما اودع فيها . (لتركين) قرىء بفتح الباء خطاب للانسان ، وبضمها خطاب للناس ،
(والطق) مند ابن الاعرابي الحال على اختلافها . وقال الزجاج في معنى الآية : لتركين
حالا بعد حال حتى تصيروا الى الله . والاحوال هي : الاحياء الاول ، ثم الامانة ، ثم
البعث . وقد قارب الزجاج في تفسيره . واصل المادة ططق فيها المطابقة والمساواة .
والعنى الذي يعول عليه لتركين حالة بعد حالة . على ان الحالة الثانية تطابق الحالة
الاولى ، اى لتكون في حياة اخرى تماثل هذه الحياة التى اتتم فيها وتطابقها في حيث
الحس والادراك والالم واللذة على الاطلاق ، اى انها حياة حقيقية وان خالفت في بعض
تشوئها هذه الحياة الاولى (١)

فاذا كان الله قد خلق الانسان على ان تكون له حياتان - وقد افاد الدليل على ذلك
من طريقة تكوينه ، ثم اقسام عليه في صادق كلامه - (فما لهم لا يؤمنون وانما قرىء
عليهم القرآن) وهو المنبه لسماع حديث الفطرة ، الصارف الى داهى الفريضة
(لا يسجدون) لا يستكبتون ولا يخفسون . لانتظ ان قرع القرآن لم يكر اخلاق
قلوبهم ، ولم يبلغ صوته اعماق ضمائرهم : بل قد بلغ ، واقتنع فيما بلغ ، ولكن العناد
هو الذى يمنعه من الايمان ، ويصدمه عن الاذعان ، فليس منشأ التكذيب قصور
الدليل ، وانما هو تقصير المستنل وامراضه عن هدايته .

(١) لما دخل على قوله تعالى : فما لهم لا يؤمنون . وهو بمنزلة التفسير لعنى الله .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٣٧﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣٩﴾

فلا ضرب في قوله (بل الذين كفروا يكذبون) يرمى الى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق . (والله اعلم بما يوعون) أى بما يجمعون في صدورهم من الاعراض والوجود والحسد والبغى . (فبشرهم بعذاب اليم) جزاء لهم على اعراضهم عن الادلة القائمة لهم من انفسهم ومن بين ايديهم ، واصرارهم على سبىء العمل وفساد الاعتقاد . اما الذين اصلحوا اعتقادهم بالايمان الصادق القائم على الدليل الصحيح الستمد من الوجدان الفطرى ، واستقاموا في عملهم على النهج الواضح في العمل الصالح ، فلم اجر لا ينقطع . فالاستثناء في (الا الذين آمنوا) متقطع ، كانه قال لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر الخ . ولهذا جاء قوله : (لهم اجر) بغير فاء . و (غير ممنون) أى غير مقطوع . والله اعلم .

سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا اثْنَانِ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ

(البروج) جمع برج ، يطلق في اللغة على الحصن ، وعلى القصر ، وعلى البرج الاننى عشر التي ترى صورها في الاشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤبة . وهي ستة في شمال خط الاستواء وستة اخرى في جنوبه . فاما التي في شماله فهي : الحمل والثور والجوزاء ، وهذه الثلاثة تقطعها الشمس في ثلاثة اشهر ، وهي فصل الربيع : اوله عند ما تكون الشمس في الحمل في ٢٠ مارث او ٢١ مارث او ١٢ برمهاث او ١٣ برمهاث ، وتنتهى عند ما تكون في آخر الجوزاء في ٢٠ او ٢١ يونيصة و١٤ بؤنة ، ثم تبتدىء اثنى عشر الصيف من ٢١ او ٢٢ يونيه منلما تدخل الشمس في برج السرطان ، ثم تنتقل الى الاسد ، ومن الاسد الى السنبلة ، وتكون في نهاية هذا البرج في ٢٢ سبتمبر وهو آخر فصل الصيف ، وبالسنبلة تتم السنة الشمالية . واول السنة الجنوبية برج الميزان ، ويدخل الشمس فيه يبتدىء الخريف في ٢٣ او ٢٤ سبتمبر و١٤ توت ، ثم تنتقل منه الى العقرب ، ومن العقرب الى القوس ، وفي نهايته ينتهى الخريف . ويبتدىء الشتاء عند حلول الشمس في برج الجدى في ٢٢ او ٢٣ ديسمبر و١٣ او ١٤ كيهك ، ثم

وَمَشْهُودٍ ۝ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝ النَّارِذَاتِ

تصعد منه إلى الندى ومن الندى إلى الحوت ، وهو آخر البروج الجنوبية ، وفي نهايته ينتهي الشتاء . ويتبدى الربيع الثاني عند حلول الشمس في الحقل مسرة نائية وهكذا .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم ، وبالبروج المذكورة ، وبالتصوير على التشبيه . ولا ريب في أن النجوم أبنية فخيمة عظيمة ، فيصح إطلاق البروج عليها تشبيها لها بما يبني من الحصون والتصور في الأرض . (واليوم الموعود) هو يوم القيامة لأن الله وعد به ولا نصل إليه . (والشاهد والمشهود) كل ماله حس يشهد به ، وكل محس يشهد بالحس ، كما هو حقيقة معنى اللفظ .

أقسم سبحانه أولا بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج : فإن كواكبها مشهود نورها ، مرئي ضوؤها ، معروفة حركاتها في طلوعها وغروبها بحس البصر . (والسماء) ماعلاك مما تسميه بهذا الاسم ، وفيه البروج تساعدها ، ولكن فيها غيب لا يعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب ، وما أودع الله فيها من التسوى ، وما أسكنها من الملك أو غيره — كل ذلك غيب لا تدركه حواسنا ، وإن وصل إلى الاعتقاد بشيء منه عقلنا .

ثم أقسم — جل شأنه — بما هو غيب صرف ، وهو اليوم الموعود . لأنه أخبرنا بأنه سيكون ، وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والمقالب والثواب ، ولكن دينا من ذلك لا يمكن أن نشهده في حياتنا هذه .

وبعد ذلك أقسم بما هو شهادة صرفة ، وهو الشاهد : أى صاحب الحس ، فإنه مرئي ، والمشهود وهو ما وقع عليه الحس . فكانه — جل شأنه — أقسم بالعالم كلها — مع هذا التقسيم البديع — ليلفك إلى ما فيها من العظم والفخامة لتعتبر بما حضرك ، وتبطل الوسع في دوك ما استتر عنك ، وتستعد لما يستقبلك !

روى عن الحسن في تفسير قوله (وشاهد ومشهود) ، أنه قال « ما من يوم إلا وينادي : انى يوم جديد ، وإنى على ما يعمل في شهيد . فافتنمى ، فلو غابت شمسى لم تدرتنى إلى يوم القيامة » .

أما القسم عليه فمحذوف دل عليه ما ذكره في قوله (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ) وحذفه لظوله مع تبادلته للذهن عند أهل اللسان ، فكانه قال : أقسم بهذا الكون العظيم ، وبذلك اليوم الذى يهلك فيه ما يهلك ويقوم الناس لرب العالمين — لقد ابتلى من قبلكم من المؤمنين الموحدين ببطش أعدائهم ، واشتدادهم في أيدائهم ، حتى خدوا لهم الأخاديد ، وملأوها بالنيران ، وقذفوهم فيها ، ولم تأخذهم بهم رافة ، بل كانوا يتشغون برؤية ما يحل بالؤمنين . وأنتم : لقد صبروا ، ولقد انتقم الله ممن أوقع بهم ، وأخذ بهذب أخذ العزيز القتل . ولئن صبرتم ليوفيتكم أجركم ، ولباخذن الله أمدادكم ، ولينزلن بهم من بطشه مالا قبل لهم به — فهذا كله قد فهم من الآيات الآية جوابا للقسم . وقد أقام مقام الجواب حكاية مثل المؤمنين ، ووعده للكافرين ، ووعده للصالحين ، وما بعد ذلك تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وحملهم على الصبر والمجاهدة في سبيله . (الأخدود) : الحفرة في الأرض ، وهو التقي . وقيل أصحابه : أى أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم تكال الدنيا وعلاب الآخرة .

وأصحاب الأخدود ، قوم كافرون ، ذوو بأس وقوة ، أصابوا قوما مؤمنين ظاههم

الْوُقُودِ ❶ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ❷ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ❸ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ❹ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ❺ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ❻ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ كَفَرُوا فَهُمْ أَعْدَابُ جَهَنَّمَ
وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ❼ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

إيمانهم ، فحملوهم على الكفر ، واکرموهم أن يرتدوا اليه ، فابوا فشقوا لهم شقاً في الأرض ، وحشوه بالنار ، وجاءوا بالمؤمنين واحداً واحداً والقوهم في النار ، وهؤلاء النساء قعود على جوانب الشق حول النار يشاهدون احتراق الأجساد الحية وما تفعل بها النيران . فقلوه (النار) بدل من الأخدود : أي أن أصحاب الأخدود ، هم أصحاب النار ذات الوقود ، أي الشديدة لها من العطب الكثير ما يشتد به لبيها . (والقتود) جمع قاعد : أي قاعدون حولها ينظرون إلى ما يصلاهُ المؤمنون ، لا ينفصسون جفناً ولا يصرفون نظراً ، حتى كأنهم يريدون أن يستثبتوا في أذهانهم أطوار العذاب ووقائمه ليؤدوا به شهادة ، وذلك منتهى القسوة (وما نَقَمُوا مِنْهُمْ) : أي ما عابوا عليهم ، ولا كان للمؤمنين ذنب اليهم سوى أنهم آمنوا بالله (العزيز) ، الذي لا تغلب قوته ، ولا تقبلت أحد من قدرته (الحميد) ، الذي يُحمد على كل حال ، وكل فصاله حسان ، حتى لو أصابك - وأنت مؤمن به - ما ظاهرهُ النقمة ، فهو : أما تهذيب لك ليريبك بالصبر ، أو ابتلاء لقلبك ليعظم لك فيه الأجر .

أما تعيين أصحاب الأخدود ، وأنى كانوا ، ومن هم أولئك المؤمنون ، وأين كان منزلهم من الأرض ؟ فقد كثرت فيه الروايات . والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى تَجْران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة . وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يمدون من هؤلاء في حقيقة الوثنية . غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وأشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم والجهة - وخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء - حتى يطير وراء القصص المشحونة بالبالغات ، والأساطير الحشونة بالخرافات . وإنما الذي عليه : هو أن يصرّف من القصة ما ذكرناه أولاً . ولو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضل علينا به .

وقال (الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ليدل على أنه لا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه . وقوله (والله على كل شيء شهيد) ليقر أنه عليم بكل ما يكون من خلقه . فلا تخفى عليه خافية من أفعاله ، وهو مجازيهم عليها . (قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ) أي يُلَوِّهْم بالاذى ، وامتنحوهم بالتعذيب ليردوهم عن دينهم . (ولهم عذاب الحريق) معطوف على قوله : (فلهم عذاب جهنم) عطف التفسير والتوضيح مع التأكيد وزيادة التهويل كما تقول - لمن قرف ذنباً - سَتَلَمِي ما يستحقه جُرمك ، وسَتَلَمِي حبساً في السجن وغلاً بالحديد : فالعذاب الذي أهد لهم في جهنم هو عذاب الحريق .

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١٦﴾
 إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٧﴾ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ ﴿١٨﴾
 وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٩﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿٢٠﴾ فَعَالِمٌ
 يُرِيدُ ﴿٢١﴾ هَلْ أُنْكِحْتَ الْجَنُودَ ﴿٢٢﴾ فَرَعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿٢٣﴾
 بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٥﴾

والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يكفوا عن إبدائهم ، ولبتوا صلى كفرهم
 وعنادهم ، حتى أخذهم الموت ، وأوعدهم الله أن يعذبهم في جهنم بالحريق : هم
 الضالون من كل قوم ، الذين يؤذون أهل الحق والعمامة إليه من كل أمة ، حرصا على
 ما لقوا من الباطل ، وتشبيها للذي وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين على غير
 بصيرة ولا استشارة للعقل الصحيح . (البطش) : الأخذ بالعنف . وقوله : (أن
 بطش ربك) الخ ، تعظيم لأمر الله ، جيل ذكره ، بما فيه وعيد لأعدائه وتمزية
 لأوليائه . فلذكر شدة بطشه ليرهب قريشا ومن معها ويعزى النبي صلى الله عليه
 وسلم ومن معه ، ويبرهن على سمة القدرة بقوله أنه هو الذي بدأ الخلق ، وهو الذي
 يعيده ، وهو في كل يوم يبدى خلقا من نبات وحيوان وغيرهما ، ثم إذا هلك أماد الله
 خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذي يعلمه ، ثم هو
 الغفور لمن يرجع إليه بالتوبة . وهو الودود لمن خلصت نفسه له بالمحبة . و (ذو العرش)
 أى صاحب المظلة والسلطان . و (المجيد) السامى الرفيع . وأصل الجيد فى كلام
 العرب : الشرف الواسع . (فعال) خبر مبتدأ محذوف ، وهو من صيغ المباعدة أى
 أنه كثير الفعل لما يريد ، فلا يريد شيئا إلا فعله طبق إرادته . فإذا أراد إهلاك
 الجاحدين الماحكين ، ونصر أهل الحق الصادقين ، لم يمجزه ذلك . وأين هؤلاء
 ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم ، وأشد قوة . (هل أنكح الجنود) ؟ أى هل
 بلغك قصص أولئك الجنود ، وأولى البأس من الأشداء الأقوياء ، مثل فرعون وقومه
 وثمود وأبطالها ؟ فقد كانوا أشد بأسا وأعظم قوة من قومك ، ومع ذلك فقد أخذهم
 الله بملئهم — وهكذا كل من تعلق بالباطل سقط به الباطل فى الدمار .
 و **ثمود** قبيلة عظيمة من بادية العرب لا يعرف من أخبارها — على الحقيقة — إلا
 ما قص الله علينا منها . وقد أرسل الله إليها نبيه صالحا فكفرت به ، واستمرت فى
 تمردها على الحق والعدل حتى أهلكها الله بظلمها . فقلوه : **هل أنكح حديث الجنود**
 استئناف قول في ذكر عير ماضية لو نظر فيها العاقل لاهتدى الى سبب الله فى خلقه .
 فهل نظر متروك أمره عليه الصلاة والسلام فى سببهم من قبلهم ، والتفتوا ببصائرهم
 الى حال من تقدمهم ، ثم أقبلوا على ما يذكركم به ، فان وجدوا خيرا فقلوه وأن وجدوا
 شرا نبذوه ؟ لا . لم يكن منهم شيء من ذلك ، بل انصرف أمر أولئك الذين كفروا
 فى التكذيب ، أى أنهم فرقوا فى شهوة التكذيب ففهمهم التكذيب والوئوع به حتى لم
 يدع لعقلهم مجالاً للنظر ، أو متسعا للتفكير ، ولا يزالون فى تلك القفرة حتى يؤخذوا
 على غرة . (والله من وراءهم محيط) تمثيل لحالهم مع القهر الإلهي ، وأنهم فى قبضة

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝

المرّة لا يفتنون منها ولا يفوتون الله ولا يعجزونه ، كما لا يذرت الثور ما يحيط به . (بل هو قرآن مجيد) : أي شريف ، رفعه على غيره علم أساويه ، وجلوس ما فيه للحق الذي لا يشوبه باطل .

وإنيانه بالحيلة مصحوبة بحرف الاضراب يشير الى ما اشهر به استغراقهم في التكذيب من التماسهم العذر في عدم الإيمان به من أنه أساطير الأولين ، وإن ما جاء به بدعة في الدين لم يعرفها آبائهم السابقون . فدفع ذلك بقوله : بل هو ، الخ .
واللوح المحفوظ : شيء أخبر الله به ، وأنه أودعه كتابه ولم يبرمنا حقيقته . فعلمنا إن نؤمن بأنه شيء موجود ، وإن الله قد حفظ فيه كتابه إيماناً بالتيب . ولما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة ، ووصفه بما جاء في روايات مختلفة : فهو مما لم يثبت من المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغي أن يدخل في عقائد أهل اليقين من المؤمنين . وما أجدرنا — لو أردنا التأويل — بأن نأخذ بما قيل من أن اللوح المحفوظ ، هو لوح الوجود الحق ، ومعاني القرآن وقضاياه السريفة : لا كانت لاياتها الباطل ولا يدايتها الخطأ ، كانت ثابتة في لوح الواقع المحفوظ الذي لا ما واقعه ، ولا باطل إلا ما خالفه ، ولا باقى إلا ما رسم فيه . ولا ضائع إلا ما لم ينطق عليه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② ۝
النَّجْمِ الثَّاقِبِ ③ ۝ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④ ۝

(والسماء والطارق . وما ادراك ما الطارق . النجم الثاقب) . ينقسم سبحانه بالسماء — وقد قلنا انها كل ما علانا — فهو قسم بالعالم العلوي وما فيه . ثم خصص بعض ما في ذلك العالم السماوي واقسم بالطارق . والطارق عندهم : كل ما تارك ليلا . ولما كان اللفظ عاما ، وللقسم به كائن معين ، وشيء خاص مما يصدق عليه الطارق — أراد أن يبين ما قصد منه بما يدل على تعظيم امره ، وتعظيم شأنه . فقال (وما ادراك ما الطارق) ؟ وهو استفهام يقصد به — في عرف خطايهم — تعظيم المستفهم عنه ، كانه — في فخامة شأنه — مما لا يمكن احاطة الادراك به . فيقال وما الذي يدريك ما هو كذا ؟ (والنجم الثاقب) : جنس النجم الذي ينقب ضوءه الظلماء ، كان الظلام جلداسود

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ خَلْقَهُ ۖ فَخُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ إِنَّهُ وَعَلَىٰ رَجْعِهِ ۚ

والنجم ينقبه ، وإنما عظم الله أمره لما فيه من الهداية الحسية والعنوية والشئون الأخرى التي يعلمها الله ، وينبأها الراسخون في علوم أسرارهِ في خليقته . وإنما سُمِّيَ النجم الثاقب بالطارق ، لأنه لا يظهر إلا ليلاً ، وشيخ الشمس في النهار يخفيه (إن كل نفس لها عالمها خاص) فرى (لما) بالشديد و (لما) بالتحفيف . والشددة بمعنى الإكراه و (إن) معها تون نافية . والخففة مركبة من اللام وما الزائدة في الإعراب ، و « أن » كانت بمعنى التأكيد ، وتكون « أن » مخففة من إن . وعلى كلتا القراءتين فالعنى أن كل نفس عليها حافظ . ورؤسها راقبها في جميع أطوار وجودها حتى تنتهي إلى أجلها ، وذلك الحافظ الربيب هو الله . وهذا هو المقسم عليه .

قاله جل شأنه يقسم لنا أن كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، وليس في النفوس نفس أهملت من رعاية ذلك الرقيب السدير لشئونها . فإذا ارتاب مراتب في ذلك (فلينظر الإنسان يوم يُنْفَخُ) فقلوه : فلينظر الإنسان ، بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها زياده في التأكيد .

ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذي لا تصوير فيه ولا تقدير لآلات التي يظهر فيها عمل الحياه والأعضاء ونحوها . ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالإنسان ، معلوماً بالحياه والعقل والادراك ، نادوا على القيام بخلافته في الأرض .

فهذا التصوير والتقدير ، وإنشاء الأعضاء والآلات البنئية ، وإبداع كل مضمون القوة مابه يتمكن من تاديبه عمله في البدن ، ثم منح قوة الإدراك والعقل — كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حاضِر يراقب ذلك كله ويديره ، وهو الله جل شأنه .

ويجوز أن يكون قوله فلينظر الإنسان يوم يُنْفَخُ من خلق — من قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى . كانه يقول فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الإنسان أن لا يهمل نفسه ، وأن يفكر في خلقه ، وكيف كان ابتداء نشوئه ليصل بذلك إلى أن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده ، فيأخذ نفسه بصالح الأعمال والأخلاق ، ويُعَلِّمَ بها من سبل الترتيب ، فإن صيغ الرقيب لا تفعل منها في حال من الأحوال .

و (الصُّلْب) هو كل عظم من الظاهر فيه فقر . ويعبر عنه في كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل . و (التَّرَائِبِ) موضع القلادة من الصدر ، وكُنِيَ بالصُّلْبِ من الرجل ، وبالتالي من المرأة . أي أن ذلك الماء الدافق إنما يكون مادةً لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ، ووقع في الحبل الذي جرت عادة الله أن يخلق فيه ، وهو رَجِمُ المرأة . فقلوه (يخرج من بين الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ) وصف لابد من ذكره لبيان أن الإنسان إنما خلق من الماء الدافق المستوفي لشرائط صحة الخلق منه .

بعد ما خلق الإنسان ووجه نظره إلى بدء نشأته ليعلم أنه في أطوار خلقته ومدة بقائه في قبضة مديّر حفيظ عليه — ساقفه إلى نتيجة أخرى لذلك النظر يسهل الوصول إليها بعد أحكامه ، وهي أن الذي قدر على خلقه من الماء الدافق الذي لا صورة

لَقَادِرٌ ❶ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ❷ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ
وَلَا نَاصِرٍ ❸ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ❹ وَالْأَرْضَ ذَاتِ
الْصَدْعِ ❺ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ❻ وَمَاهُوَا لِهَزْلٍ ❼
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ❽ وَأَكِيدُ كَيْدًا ❾

فيه ولا تقدير ولا مثال فيه للشخص المخلوق ، قادر على أن يرجع هذا الشخص
بعد موته ، بل هذا أسهل وأيسر لسبق مثال الشخص وتقديم صورته في الخلق
الاول ، فقال سبحانه (انه على رجهه لقادر يوم تبلى السرائر) فهذه الآية استئناف
كلام لبيان نتيجة من نتائج النظر السابق ، اى اعلم — بعد ما حكمت نظرك — ان
الله قادر على ارجعتك واعادتك الى الحياة في ذلك اليوم يوم القيامة . وهو اليوم الذى
تُبلى فيه السرائر ، وتتصنع الضمائر ، ويظهر الطيب والخبيث ، فلا يبقى في سريرة
سر ، بل تنقلب كل خفية الى الجهر ، فلا يكون جدال ولا حجاج ، ولا يستطيع المسوء
ان يقول قد كنت محسبنا ، ولا يبقى لذوى الاعمال الا انتظار الجزاء على ما قدموا :
فاما حلول عقاب ، واما مصر الى حصن ثواب ، ولا تكون لاحد قوة على الافلات مما
قدر له جزاء عمله ان كان مسيئا ، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم عليه ان يقع
فيه . وهذا هو معنى ترتيب قوله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) على قوله (يَوْمَ تَبْلَى
السَّرَائِرُ) .

بعد ان اكد سبحانه بالقسم الاول ان على النفس رقبيا ، واستدل عليه ، وذلك
اثباتا للالوهية ، وتقرير لاحاطة علم الله وقدرته بالانفس في جميع اطوارها وهو
الركن الاول من اركان عقائد الدين . وبعد ان بين قدرته على اعادة الانسان بعد
موته ، وهو ايات اليوم الآخر الذى هو الركن الثانى — جاء بنا الى الركن الثالث من
اركان عقائد الدين ، وهو رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتدأ الكلام
فيه بقسم ايضا لشدة نزاع الجاحدين فيها حيث قال (**وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ الْخ**) .
ان الله يقسم بالامر له مزية يعرفها المخاطب اعظاما لتلك المزية . لهذا قال :
(**وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ**) . الرجوع في لسان العرب هو الماء . وامتنع شئ ينتظره
المحاطبون من السماء هو الماء ، ماء المطر . ومن فسر الرجوع بالمطر لم يبعد عن المعنى ،
(**وَالصَّدْعِ**) الثبات ، لانه يصدع الارض ، اى يشققها ، وأفضل ما يعيل اليه الانفس
من الارض نباتها .

انقسم بالسماء التى تقبض عليكم بمائها ، والارض التى تقيم معاشكم
بنباتها ، ان هذا القول الذى جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول فصل ، اى حق
واضح لامجال للريب فيه ، فلا تشكك فيه الظنون ، ولا تتلاحم الادهام ، ولا يبعد اليه
نقض ، وهو ذلك جد البتة فلا يكون هزلا .

بعد ان بين الاركان الثلاثة لعقائد الدين : وهى الالوهية والمعاد والرسالة — اخذ
يذكرنا بحال الجاحدين للحق المحاربين له بقوله (**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا**) . الكيد : المكر ، فاذا
استند الى الله للمشاكلة — كما في هذه الآية — اريد منه لازمه ، وهو الوصول بالمعامل
الى عاقبة عمله من حيث لا يشعر بها . وقد يكون المكر والكيد ابتغاء المكره على غرة ،

فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُونِيَا ①

وأخذ المكور به من حيث لا يعلم كيف أخذ ، فيكون استعماله في جانب الحق على الحقيقة لأن الله يمهّل الحائدين عن أمره الصادقين عن سبيله ، ثم يأخذهم وهم نائمون على فراش الأمن ، وهذا هو ما يعبر عنه في اللغة بالكر . وإن كان في جانب المخلوق يحتاج إلى حيلة لأنه لا قوة له على مثل هذا إلا بالحيلة ، وفي جانب الخالق يتبرا من الحيلة لأنه - جل شأنه - له الحول كله والقوة جميعها .

يقول - والله أعلم - أن الذين يحرمون على ما كانوا عليه ، ولا يستمعون قولك فيما تنصرونهم إليه ، ويزنون للناس مشايعتهم على أهوائهم ، ويموهون الإباطيل ليخضعوا بها عقولهم - أولئك قوم ماكرون خادعون لا يريدون بك ولا يمن ينخدع لهم إلا السوء . غير أني قد قضيت بأن لا مفر لهم من عاقبة أمرهم ، ولا محيد لهم عما تؤدي إليه سيئات أعمالهم ، فيصيبهم العقاب من حيث لا يشعرون . فلا يحزنك ما ترى منهم ، ولا تستبطئ من حلول النكال بهم ، بل مهلمهم . أي لا تستعجل عقابهم . واهلمهم ، بمعنى مهلمهم ، فهو بدل منه للتأكيد ، أو تكرير بلفظ آخر للتأكيد كذلك . و (رونيَا) أي قليلا . وفي ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب ، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل لكل داع إلى الحق الذي جاء به ، أنه سيبليج من النجاح ما يستحقه عمله ، وإن المناوئين له هم الخاسرون .

سُورَةُ الْأَعْلَى مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سِتْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ②

(سبِّح اسم ربك الأعلى) . اسم الله في مثل هذه الآية هو ما يعرف به ، والله أتم ما يعرف لنا بصفاته ، فلا تعرفه أذهاننا إلا بأنه العالم القادر الحكيم إلى آخر ما دللنا عليه النظر في خلقه ، وهدانا إليه الوجدان السليم في وصفه . وهذا هو الاسم الذي يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام في قراءة من قرأ في سورة الرحمن « تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام » . والاسم بهذا المعنى (ما يعرف به المسمى) هو الوجه في قوله تعالى « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فإن الوجه يعرف به صاحبه ، بل لا يكاد يعرف صاحب الوجه إلا بوجهه . والاسم بهذا المعنى هو المذكور في قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » أي رسوم الأشياء وما تعرف الأشياء به . فاسم الله هو ما يمكن لأذهاننا أن تتوجه إليه به . والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم ، أي

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى ۝

تنزيهه عن أن يكون فيه مالا يليق به من شبه المخلوقات ، أو ظهوره في واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكا أو ولدا أو ما ينحو هذا النحو ، فلا توجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق كل شيء ، المحيط علمه بدقائق الوجودات .

كما قال (الذي خلق فسوَّى) فعملين أن نعرفه بأنه خلق الكائنات وأوجدها وسواها ، أي وضع خلقها على نظام كامل لا تغاوت فيه ولا اضطراب ، كما تراه فيما يظهر لك من خلق السموات والأرض . وأنه (الذي قدر فهدي) ، أي قدر لكل حي ما يصلحه مدقة بقائه وهداه إليه ، وهزجه وجه الانتفاع بما فيه منفعة له ووجه الهرب مما يشقى فائتته . وأنه (الذي أخرج المرعى) ، أي أنبت النبات جميعه . وامن نبت ينبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان ما من الأجناس الحية . ثم بعد أن أنبت النبات (جعله غثاء أحوى) والغثاء هو الهشيم ، أو الهالك البالي ، والأحوى الذي يميل لونه إلى السواد .

ذكر بعد الخلق التسوية ، وبعد تقدير المصالح وتحديد الهداية ، والتسوية والهداية كمالان للخلق والتقدير . وأتبع إخراج الرعى بجعله غثاء أحوى . وجعله غثاء ، إنما هو النفاذ وإماتته وإزالة الحياة عنه .

وكان يلوح للذهن أن يعقب إخراج النبات بذكر كمال من كمالات وجوده : كالخضرة والخضرة والترعرع وما أشبه ذلك . . . جاء الأسلوب على هذا الوجه لأن الخلق الأول عام في الأجسام القانية وفي العوالم الباقية : كعوالم ما وراء هذه الخليقة الدنيا ، فكل من خلقه ، وكله قد سواء ووضع على أكمل نظام في الدنيا وفيما وراءها . والتقدير لمصالح الأحياء عام شامل لما للانسان - بل ولما لغيره - من عالم الملك ونحوه . فتلذك العوالم الروحية حياة ، ولحياتها شئون مقدره قدرها مبيها . وهداية الانسان إنما هي لروحها الباقية التي لا تفنى ، وكذلك هداية الأرواح المالية من سكان تلك العوالم التي لا تعرف منها إلا ما هدانا إليه الوحي وقليل ما لرشدنا إليه العقل ، هداية باقية إلى شئون باقية إلى أن يشاء الله فحق أن يتبع الخلق بالتسوية التي لا تغارقه ولا نهاية لها ، وتقدير المصالح لكل حي بالهداية التي منها مالا نهاية له كهداية الانسان وما يشبهه . أما النبات فأنما يعقب نموه وبلوغه الغاية منه اليسى والجفاف وصيرورته هشيمًا باليا . وهو في هذه الحالة لا يخلو من المنفعة فإنه قد يكون طعاما لكثير من أنواع الحيوان ، وهو هشيم متميز اللون ، فكانه قال الذي أحكم كل شيء صنعه : ما يبقى وما يفنى .

فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه التقادر العالم الحكيم الذي شهدته بصفاته هذه آثاره في خلقه التي ذكرها في وصف نفسه في قوله (الذي خلق فسوَّى) ، وان لا ندخل في هذه الصفات معنى مما لا يليق به كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء له أو عرفوه بما يشبهه به خلقه . وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ليرشدنا إلى أن مبلغ جهتنا ومنتهى ما اتصل إليه عقولنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها . أما الذات فهي أعلى وأرفع من أن تتوجه عقولنا إليها إلا بما نلاحظ من هذه الصفات التي تقوم عليها الدلائل ، وترشد إليها الآيات ، لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفا لنا بما يسمه طرقنا . والله أعلم .

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ وَيُذَكِّرُ
الْيُسْرَى ۝ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝ سَيِّدُكُمْ مَنْ

بعد ان امر الله نبيه بتسبيح اسمه ، وعلم امته الامورة بأمر الله له كيف يمكنها ان تعرف الاسم الذي تسبحه - على نحو ما ذكرنا - وعلم نبيه على الله عليه وسلم بأنه سيقترنه من كتابه ما فيه تنزيه الله وتبيين ما لوجب أن يعرف من صفاته وما فيه تشريع لأحكامه ، ووعده بأن ما يقترنه إياه لا ينساه فقال (سنقرئك فلا تنسى) أي سنزل عليك كتابا تقرأه ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك . ولما كان الوعد على وجه التأكيد والازدوم ربما يؤهم أن قدرته الله لا تسع تغيير ، وأن ذلك خارج عن ارادته جل شأنه ، جاء بالاستثناء في قوله : (إلا ما شاء الله) . فانه اذا أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو الى نفي النسيان رأسا . وقالوا ان ذلك - كما يقول الرجل لصاحبه « أنت سهى فيما أملك إلا ما شاء الله » - لا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة في معنى النفي . وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود (وإما الذين ساءوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرضى إلا ما شاء ربك عطاء غير مبذور) ، أي غير مقطوع .

فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأكيد والتخليد بكرم من الله وسعة جود لا يتعجم عليه وإيجابه ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنع من ذلك مانع . وما ورد من انه صلى الله عليه وسلم نسي شيئا كان يذكره ، فذلك - ان صح - فهو في غير ما نزل الله عليه من الكتاب والأحكام التي أمر بتليفيها . وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدحلات اللحنين التي جازت على عقول المغفلين فلولوا بها ما ظنوه الله ، فلا يليق بمن يعترف قدر صاحب التسمية صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن بكتاب الله ، أن يتعلق بشيء من ذلك . وقوله (أنه يعلم الجهر وما يخفى) تأكيد للوعد مع الاستثناء : أي أن الذي وعدك بأنه سيقترئك وأنه سيحفظك ما قترأ فلا تنساه ، عالم بالجهر والسر فلا يفوته شيء مما يكون في نفسك ، وهو مالك قلبك وعقلك وخافى سررك ، وفي قدرته أن يحفظ عليك ما وهبك وأن كان ذلك من خفيات روحك ، ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه لانك لا تستطيع ان تخفى عنه شيئا .

ولما كان في الوعد بالاقراء الوعد بتشريع الاحكام كما ذكرنا ، وقد يكون في الاحكام ما يصعب على المخاطبين احتماله - أردف ذلك الوعد بما يزيد حلاوة في ذوق النفس فقال (ونيسرك اليسرى) : أي نوفرئك للشرعة السمحة التي يسهل على النفوس قبولها ولا يصعب على العقول فهمها .

بعدما وعده بذلك الفصل العظيم ، اخذ يأمره بتذكير عباده وتبهيهم من غفلاتهم ، ولوجيهم الى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامتنال أوامره والالتزام بأحكامه ، فقال (فاذكر ان نفعك الذكري) وأشار بقوله (ان نفعك الذكري) الى ما عليه حال اهل الباطل القائلين على ما أورثوا من آباءهم ، والى جودهم وسلاية جهلهم ، وأن الذكري ربما لا تتجفع فيهم .

قالوا « ذلك كما تقول لواعظ عظم الكاسين ان سمعوا منك » . وليس الشرط قيده في الأمر ، فقد أحجم اهل الدين - سلفهم وخلفهم - على أن الامر بالتذكير عام ، فنصت

يَخْشَى ❶ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْئَى ❷ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ
الْكُبْرَى ❸ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ❹ قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ تَرَكَّى ❺ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ❻ بَلْ تُؤْثِرُونَ

الدكرى ام لم تنفع . وعمله على الله عليه وسلم شاهد على ذلك . ولذلك اردف هذا الامر بقوله (سيدكرى من يخشى) فالذكرى نائمة حتما في فريق من الناس ، وهو الذى يخشى الله ، وبخشي مآبىة الجحود والعدا مع ظهور الدليل ووضوح وجه الحق . وانما يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها الاشقى الذى غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان باعراسه من النور الساطع والبرهان القاطع . وهذا الفريق — الذى لا يخلو منه زمن — ساقى من الله جزاءه ، كما قال (الذى يصلى النار الكبرى) وصف النار بالكبرى لانها نار تلك الدار الآخرة ، وهى اشد ابلا من يعلدون بها من هذه النسل التى نعرفها ، فبالكـ
اكر من هذه .

ثم ان من شقى ولقى عذابه بتلك النار يخلد فيها ، لا ينقطع عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية . فهو لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة طيبة فيسعد ، فثقى الحياة لا ينافى نفى الموت ، لأن الحياة النقية هى الحياة التى يرغب فيها وينبغى صاحبها ان تدوم . وحياة الملأ بتلك النار الكبرى موقوفة عند صاحبها بمعنى لو نقدها في كل لحظة تمر عليه ، فكانها ليست بحياة .

اباك ان تتخذ بما يقوله أولئك الذين يلبسون لباس العلماء ، ويزعمون مزاعم السفهاء من انه لا يجب عليهم الذكرى ولا التصح المام لعامة المسلمين ، لان التذكير لا ينفع ، والتصح لا ينجع ، ويحتجون بقوله تعالى : (فذكرى ان نفعت الذكرى) فقيده الامر بالنفع — فان ذلك منهم ضلال وتضليل ، لان الشرط انما ذكر لما ييناه . ولو صدق قولهم لما وجب التذكير في وقت من الأوقات ، لانه لا يخلو زمان من معاندين ، ولا يسلم قائل من جاحدين . وقد يعرف بعضهم انه انما ينطق من هوى ، ولكنه يدافع عن جهله ، ويحتج لكسبه وجنبه ، ويحب ان يزين نفسه في أعين الناس ، وان اوقعه فى مسخ الله .

بعد ان وصل وعيد الاشقياء بذكرهم عاد الى وعد اهل الخشية بالفلاح ، فقال (قد افلح من تركى) . وتركى : تطهر من دنس الرذائل ، وراسها جحود الحق ، وقسوة القلب . والفلاح الفوز بالمعاده في الدارين . وانما يتألمن طهرت نفسه ، وزكا سره ، ووسمها قلبه . (وذكر اسم ربه فصلى) أى لاحظ بسره ما يعرف من ربه بان يحضر في قلبه صفاته العلية فيخشع ، فصلى هنا بمعنى خشع ولجا الى الله ، فهو كقوله تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » . وقد يكون مع الخشوع صلاة — الصلوات المكتوبة أو جميعها ، وانما عبر عن الخشوع بالصلاة لانه لها والتقصد منها . وهى يدونه شبح بلا روح .

يقول السامعون لهذا الوعد الكريم — ممن قست قلوبهم ، ولم ياخلوا من العبادات الا بصورها ، وظنوا ان ذلك غاية ما يطالب الله به عباداه — نحن المتطهرون ، ونحن المالكرون ، ونحن المصلون ، فنحن المفلحون . . فبىد الله قولهم وينبغى زعمهم بالبات انهم كاذبون وفي زعمهم واهمون ، ويحتج عليهم بقوله : (بل تؤثرون الحياة الدنيا) . ولو صح

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ❶ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ❷ إِنَّ هَذَا لَفِي الصَّحُفِ الْأُولَى ❸ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ❹

قولكم لأنكرم الآخرة ، وهي خير وأبقى . وإبشار الحياة الدنيا بتقديم ملاذها والاستغفال بها والاتفاق فيها مع الانصراف عما يعد للسعادة في النار الآخرة .

أراد الله أن يؤيد الحق الذي يوحيه إلى نبيه بالآيات أنه هو بعينه الحق الذي ذكر في صحف إبراهيم وموسى : قديين الله واحد ، وأمره واحد ، ووعدته ووحيده واحد ، وإنما تختلف مسوره ، وتتمدد مظاهره . فإذا كان المخلصون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فليعلم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت إلا بما جاءه في صحفهم ، وإنما هو مذكور أو محي لا ملأ من شرعهم . والاشارة في هذا إلى ما تضمنته قوله : قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى .

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سِتُّ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ❶ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ❷
عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ❸ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ❹ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ

الغاشية : هي الداهية التي تفتش الناس يشدائدتها وتفرمهم أحوالها . والمراد هنا هنا يوم القيامة ، أي هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيه ؟ وهو استفهام لتعظيم الأمر مع تقريره . (وجوه يومئذ خاشعة) أي يظهر عليها اللل والخرى النازل بأصحابها وهكذا يقال فيما بعد . أو عبر بالوجه عن الأشخاص ، فالل لهم . أي إناس - يوم تفتش الغاشية - الآلاء . (عاملة ناصبة) وقع منها عمل في الدنيا وأصابها فيه نصب أي نصب ، ولم تستفد من عملها سوى نصبها . فآثر الخيبة وحيوط العمل ظاهر عليها ، ولا حاجة للقول بأنها عاملة ناصبة في ذلك اليوم نفسه ، فإن عاملة ناصبة بمنزلة قوله حابطة أعمالها ، أو جعلت أعمالها هباء منثورا ، وهذا هو الذي يقع يومئذ . وإنما يجب اختيار هذا المعنى لانفاذه مع بقية الآيات في غير هذه السورة ، ولأن هذه الآية تقابل قوله في أهل الجنة لسمعيها وأصفيها . وذلك السمي هو الذي كان في الدنيا . (تصلى نارا حامية) صلى النار : فاسى حرها . وهذه الوجوه تملأ بتلك النار لأن أعمالها في

عَاقِبَتُهُ ١) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن صَعْرِيجٍ ٢) لَا يُسْمِنُ ٣)
وَلَا يُسْقَنُ دُونَ جُمُوحٍ ٤) نُحُورُهُ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٥) لِسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ٦) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٧) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ٨)

الدنيا كانت خاسره غلب عليها الشر ، وجانبها أو قل فيها الخير . وتلك النار الحامية الجارة لا تصرف كثرتها ولا كيفية إيقادها ، ولكننا نؤمن بها ، وبأن عمال السوء وخلفاء الباطل يصارونها . (العين) ينبوع الماء (والآية) الشديدة الحرارة : من أتى الماء يأتي إذا سخن وبلغ في المعارف غايتها . فإذا علق أهل النار عطشهم الخاص بهم في تلك النار ، وطلبوا ما يطفئ لهيب ظمئهم حتى لهم بهاء من ينبوع بلغ مأواه من الحرارة غايتها ، فهو لا يطفئ ، لئلا ، ولا ينبوع غلته ، فإذا خوت بطونهم ، وأحسوا من الجوع ما يدفعهم إلى طلب الطعام فـ لا ليس لهم طعام إلا من صعريج . قال الفراء : الصريع هو نبت يقال له التسبرق ، وأهل الجحاز يسمونه الصريع إذا يسي .

قالوا : وهو مرغى سوء لا تعتقد عليه السائمة شجما ولا لحما ، وإن لم تفرقه إلى غيره سابت حالها . والصريع أيضا القشر الذي على السلم تحت اللحم ، وقيل هو جلد على الفلج ، وعلى كل حال فهو طعام ردى (لا يسمن ولا يفتنى من جوع) : أى إذا طلب أهل النار الطعام ليدفئوا به ما يصيبهم من ألم الجوع الذى يلازم عالمهم الأخرى وحياهم في تلك النار الباقية ، قدم إليهم من الطعام مالا يدفع جوعا ولا يفيد سمنا ، أى ما ليس له أثر من آثار الطعام .

وسمى الله ذلك الطعام بالصريع تشبيها له به ، والأمر كذلك العالم عالم الآخرة ليس فيه نمو إبدان ، ولا تظلم مواد على نحو ما يكون للأحياء في هذه الحياة الدنيا ، بل ذلك عالم خلود وبقاء ، والدائد فيه للدائد سعادة ، والالام فيه الالام شقاء . فكل ما يقع في ذلك العالم فانما يشه ويبن ما يقع في عالنا وجوه مشابهة لا وحدة مجانية .

وقد جاء في الكتاب الكريم في العاقد « ولا طعام إلا من عيسلين » . والعيسلين ما يشانه ان يفسل من الابيان كالنبيج والصديد ونحوهما . وفي سورة الواقعة « ثم انكم ايها الفضالون الكاذبون لانتم من شجر من زقوم » الى آخر الايات . وفي الدخان « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم » . وفي الصفات « انك خير نزالام شجرة الزقوم ، انا جعلناها فتنسة المتقين . انما شجرة تخرج في اصل الجحيم عليها كانه رؤوس الشياطين فانهم لا تاكلون منها ولا يتنون منها العيون » .

فهذا كله يدل على أن طعام أهل النار شيء يوافق النشأة الآخرة . وقد هرب الله عنه بالمعابر المختلفة ، وكلها معا يصور في ذهانتنا بشاعته وخيئه لتنفّر منه نفوسنا . وتطالب كل وسيلة للفرار منه ، فتبذ بذلك من العقائد الفاسدة والأعمال الخاسرة .

ولما وفي المكذبين حقهم من الوصف ، أقبل على أهل الاخلاص والصدق بقى عينهم بما سيلاقون ذلك اليوم من فضله . (ناعمة) ذات بهجة وحسن . كما قال « تعرف في وجوههم نظرة النعيم » . ولا تكون كذلك الا اذا كانت متعصبة فرحة بما لاقت من جزاء سعيها في الدنيا ، فهي لسعيها واضية على ضد ما عليها تلك العاملة الناسية .

و (البقعة) هي دار النعيم في الآخرة ، وسميت بهذا الاسم من الاجتنان ، وهو الستر

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٧ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ١٨ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ١٩ وَنَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ٢٠ وَزَرَاجِيْتُ مَبْتُوثَةٌ ٢١ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ٢٢

لتكاف اشجارها وتظليلها بالتفاف اغصانها ، ووصفها بالمالو لان خير الاماكن ماكان ريفيا .
او هي عالية رفيعة في اوصافها ومزاياها كما سيذكر ذلك في قوله (تقسم في ريفية كثيرة) ،
اي لا تسمع تلك الوجوه ، اي اولئك المخلصون الذين عبر عنهم بالوجوه ، او لا تسمع
انت - ايها المخاطب في تلك الجنة - لغوا ، اي كلاما لا يعتد به ، ولا شتما ، ولا سبا ،
ولا فحشا ، ولا باطلا لكل ذلك مما يصح ان يطلق عليه اسم اللغو لانه قول لا فائدة فيه .

وانما عجل بهذا الوصف الشريف عقب ذكر الجنة قبل ذكر بقية انواع النعيم لدفع
ما يسبق الى الاذهان عند ذكر الجنة ونعيمها من احوال اهل الترف والمولمين بالسهو ،
من تمضية الاوقات في اللغو ، والقول اللغو ، والطلاق اللسن عن قيد الادب ، فيجعلون
من متمات النعيم قذائف الهجر والفحش . . . فقد سارع الى تنزيه نعيم اهل الجنة عما
هو من لوازم نعيم غيرهم في الدنيا ، وفي ذلك تنبيه المؤمنين الى انه لا يليق بهم ان يكونوا
من اهل اللغو مهما فاض عليهم النعيم ، وانصرفت لهم النعمة . بل ذلك مما يتزهون عنه
حتى اذا رفعت عنهم التكاليف ، ووصلوا الى فضاء الرحمة الذي لا سقف فيه ولا نقمة .
فنعيمهم ينبغي ان يكون نعيم اهل الفضل والجد ، لا نعيم اهل الجهل والحمق .

فاعتبر بهذه الحكمة ، ثم انظر كيف قدم من الاوصاف للجنة وضروب نعيمها ما هو
روحاني يليق برباب النفوس العالية والمقامات الرفيعة العرفان وكمال الوجدان - نذكر
الرفق بالسمي ، ولذته فوق اللذائد ، فانه لا لذة تفوق عند المامل لذة سروره بعمله .
ثم اتبعه بالتنزه من اللغو ومالا فائدة فيه ، وهو اسمى ما يطلب الكامل ان يحيا به . ثم
جاء بعد ذلك بما له شبه باللذائد الجسمانية المعودة لنا في هذه الحياة فقال :
(فيها عين جارية) ، اي ينبوع ماء جار ، والماء الجاري - اذا كان من الينابيع - يكون
في المادة باردا صافيا ، لهذا وصف العين بالجارية ، ثم في منظر الماء الجاري من مسرة
النفس ما هو معلوم .

و (السرر) : جمع سرير ، وهو معروف ، ما يجلس او يتأمله عليه . وفضل السرر ما كان
مرغبا عن الارض كما هو معروف . فكان تلك السرر توضع لاهل النعيم على مقربة من
العين الجارية فيجلسون عليها ويحاط بهم (اكواب موضوعة) على جانب العين ، فاذا ارادوا
التمتع بلذبة الشراب تناولوا بها من الماء . والاكواب : جمع كوب ، وهو الكؤز الذي
لا مروة له « ما يعرف في لسان العامة بالكيابة » . ثم في الجنة - غير السرر التي يوضع
على جوانب العيون - (نمارق مصفوفة) . والنمارق : جمع نمرقة - بضم النون
وكسرها - وهي الوشادة المسماة في عرف العامة مستلما ومخددة « وسواء كانت هذه
النمارق مصفوفة فوق الاسرة او في جوانب المسكن . (ووزابي مبثوثة) الزرابي المبثوثة ،
وقيل البسط التي فيها خمل .

وروي عن المؤرج انه قال في هذه الآية « او زرابي التبت اذا اصفر واحمر ، وفيه
خضرة وقد ازرب » ، فلما رآوا الالوان في البسط والقرش شبهوها بزرابي التبت .

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ

ومبشوة: أى مبسوبة أو مفرقة هنا وهناك ، كما تراه في بيوت أهل النعمة — كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهة واللذة ، والا فنعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم .

فهل آن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله ووعده ووعيده أن يعتبروا بها .
الترتيب الإلهي ، وإن يقدموا الإحسان في العمل حتى يبلغوا فيه غاية يرشون سعيهم عندها ، وإن يبدأوا بتزويده أنوالهم من اللغو ، وأنفسهم من اللغو بما للهو به الحيوانات من طعام وشراب . . . ثم بعد أن يلبسوا من الفضائل أفضل حالها ، يتناولون من نعمة الله ما يرفههم ، ويطيب عيشهم ، ويتمتعون بذلك المتاع الحسن . هل آن لهم أن يتدبروا كتابهم ، وإن يرجعوا إلى سيرة نبيهم ، فينهضوا إلى طلب ما أعد الله لهم ، ولا يرتكسوا فيما أركس الله فيه الأمم قبلهم ؟

عرفت أن الكلام مسوق من أوله لتقرير أمور الآخرة ، وما يكون من شأن الناس يوم القيامة ، وفي الخاطئين منكرين جاحدون ، أو مقسرون غافلون لا ينظرون في عملهم إلى ما هم عليه عاجزون — فأراد الله إقامة الحجّة على أولئك ، وتنبية هؤلاء بتوجيه نظرهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت بصرهم من الخلق ، فقال (أفلا ينظرون إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وإنما خص الأبل لأنها أفضل دواب العرب ، وأعمها نفعا . ولأنها على الحقيقة ، خلق عجيب ، فاتها — على شدتها وعظم قوتها — تنقاد للضعيف ، ولا تمانع الصغير . ثم في تركيبها ما أعد لها لحمل الأثقال ونقلها إلى البلاد الشاسطة . ثم هي تبرك لتحمل من قرب ويسر . ثم تنهض بما تحمل ، مع صبر على السير والمطش والجوع ، واكتفائها من المرعى بما لا يكاد يرماء سائر البهائم . وفيها غير ذلك من المزايا التي لا يماثلها فيها حيوان آخر ، وليس اختصاص الأبل لعظم جنتها حتى يرد الفيل . والفيل — وإن كان فيه بعض مزايا الأبل — فهو لا يدر اللبن ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يسهل قياده سهولة قيادة الأبل .

ورفع السماء: أمساك ما فوقك من شمس وأقمار ونجوم ، كل منها في مداره ، لا يختل سيره ، ولا يفسد نظامه . **ونصب الجبال:** أقامتها علما للسائر وملجا لمن الجبائي . وهي : في الأفق ، نزعة للنظر . **وسطح الأرض:** تمهيدا وتوطئتها ليتيسر للناس أن يقيموا عليها ويمشوا في منابها .

وإنما أحسن ذكر الجمال مع السماء والجبال والأرض لأن هذه الجملة من المخلوقات هي ما يقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبواديهم ، فحسن أن ينتظمها الذكر كما انتظمها النظر . فلو نظر الجاحدون والغافلون فيما تحت نظرهم من هذه الأشياء ، وكيف قامت — كل على حاله — التي هو عليها — لعلوا أنها صنعة لا توجد ولا تحفظ إلا بوجود لها وحافظ ، وهو الله جل شأنه ، وأن القادر على خلق هذه الكائنات وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة ، قادر على أن يرجع الناس إلى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله .

وكما أن الله خلق ذلك كله ، والناس لا يعملون طريقة خلقه ، وإنما يعرفون منه

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٦١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّطٍ ﴿٦٢﴾ إِلَّا
مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٦٣﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٦٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٦٦﴾

ماشاهدوه ، كذلك ينشئ الله ما ينشئ في ذلك اليوم ، وهم لا يعرفون طريقة اتشائه ،
وانما يرون ما يرون فيه كما يرون اليوم ما يرون في هذه المخلوقات ، فإذا كان الأمر
ظاهرا جليا ، وما هي الا نظرة فتتهم عليهم العبرة (فلذلك انما أنت مذكر) . ان
الفطرة ساقطة بنفسها الى الاعتقاد بصانع قادر ، وهي ميسرة بذاتها الى الاعلان بأنه
قادر على انشائها في خلق آخر ترى فيه شقاء أو نعيم . وانما قد تتحكم الغفلات ،
وتغلب الأهواء ، فتحتاج النفوس الى مذكر يردها الى مكان عصاه تتساق اليه
غرائزها ، لهذا سمي الله هذا النوع من الاستدلال تذكيرا . وقوله : انما أنت مذكر ،
تحديد للأمر الذي يمت الله لاجله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو تذكير الناس بما
نسوه من أمر ربهم . وليس في سلطانه ، عليه السلام ، ان يخلق الاعتقاد فيهم ، ولا
من المفروض عليه ان يقوم رقيباً على قلوبهم . كما قال (لست عليهم بمصيطر) .
وقال : وما أنت عليهم بجبار . والمسيطر : التسلط . قال بعض المؤلفين بالنسخ
والتفسير ان هذه الآية نسخت بآيات الجهاد ، كان الجهاد شرع في الإسلام لتهدم
النفوس على الاعتقاد . وخفى على القائل ان القهر لا يحدث إيمانا ، وإن الاكراه لا اثر
له في الدين ، وإن الجهاد ينقطع وجوبه متى خضع المحارب لآداء الجزية مع بقاءه على
دينه . ان كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا - في رأى الأكثر . ومن البديهي انه
لا حاجة الى القول بالنسخ ، فإن النبي عليه السلام ليس بمسيطر على قلوب الناس
سواء كان محاربا لهم أو مسالما .

وقد يشمر نفى السيطرة بان الناس جميعا مختارون ، وهم سواء فيما هم به
مجزيون ، فحبل كل على غاربه يذهب الى حيث شاء من المذاهب ، ومع ما شاء من
الأهواء . فقال الله رفعا لمخاطر السوء : (**الآن تولى الخ**) . أى انك وإن كنت داعيا
وليس لك سلطان على ماتعقد قلوبهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان
على سرائرهم . . فمن تولى منهم ، وأعرض عن الذكرى الموقفة اليه (وكفى) : أى
جحد الحق المروض عليه ، فالله تعالى يعلمه المذاب الأكبر في الآخرة ، وقد يفسم
الى مذاب الآخرة مذاب الدنيا . فكلمة (**الآن**) بمعنى لكن وفيها الاستثناء من عموم
الأحوال التى أفادها نفى السيطرة . ثم أكد ذلك الحكم - وهو تعذيب الله لمن تولى
وكفر - بقوله : (**إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم**) . أى لا مفر للمرضين ولا
خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ، فاتهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منافي
عقابهم ، فنحن نحاسبهم على ما كسبت قلوبهم . والآيات : الرجوع - كما رأيت -
والله أعلم .

سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَفْجَرِ ۝ وَكَيَالٍ عَشِيرِ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝

كثر خلاف المفسرين والرواة في معنى كل من **الفجر** و**ليال** عشر الى آخر ما اقسام به . وقد يفسر الواحد منهم **الفجر** بمعنى ، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه . وغالب ذلك يجري على خلاف ما عودنا الله في نسق كتابه الكريم ، وقد جرت سنة الكتاب بأنه اذا اريد تعيين يوم أو وقت ذكره بعينه : كيوم القيامة في لا اقسام **يوم القيامة** ، وكاليوم الموعود في سورة **والسماء ذات البروج** ، وكليلة القدر في سورتها . فاذا اطلق الزمن ولم يقيد ، كان المراد ما يعمله معنى الاسم ، كما سبق في قوله : **والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس** . فالفجر هنا - على هذا - هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الاسود ، وينبت الضياء لها مردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح ، وهو مهود في كل يوم فصح ان يعرف بالالف واللام .

والمراد - والله اعلم - من ليال عشر ليال يتشابه حالها مع حال **الفجر** ، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطردا لظلام الليل الى ان تغلب النلعة . فكانه ونسج التناسل على شيء من التقابل ، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ، ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء الى الليل . وضوء الالهة في عشر ليال من اول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام بغلبة الى ان يقبله فيسدل على الكون حجبته .

ولما كانت هذه الليالي العشر غير متعينة في كل شهر ذكرها منكراً ، وذلك ان ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب اول الظلمة في اول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئلاً يغيب ضوءه في الشفق فلا يعد شيئاً . فالليالي العشر بتبدى تارة من اول ليلة وأخرى من الليلة الثانية ، لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر . (**والشفع والوتر**) : أي الزوج والفرد من هذه الليالي أيضاً . فهو يقسم بها على الجملة ، ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد .

ثم بعد ان اقسام بضروب من اوقات الضياء ، اقسام بالليل مراداً منه الظلمة ، وكثيراً ما يطلق اسم الليل وتراد ظلمته . وسريان الظلمة ودخولها على البصرات حتى تسترها امر معروف عند المخاطبين . ولما كان ظلام الليل واختلاط قطعة عظيمة منه بضوء القمر في الليلة الواحدة مقصوداً الى تخفيف امره بالقسام ، خص الليالي التي يظهر فيها ضوء القمر مع تغلب الظلام فيها بمصر فقط ، والا فقد يكون ظلام في اكثر من عشر من الشهر لكن زمنه قليل لا يليق ذكره بمقام التفتيم . وفي **الفجر** وتفرجه كربة الليل من جهة وتنبية العامل الى استقبال عمله بالنهار من جهة اخرى . وفي ليالي القمر واستماتها الانفس للسمر ، وتيسير السير في السفر

وَأَنبَلِ إِذَا نَسِرَ ❶ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ❷ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ❸ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ❹ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ❺ وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا

— خصوصاً أيام الحر ، وهى أغلب أيام الحياة في بلاد العرب — ثم في قصر مدة بقاء القمر ، وانتظار هجوم الظلمة ، وانتهاء النعمة مع الاستعداد للسكون عندما يرمى الغلام ستاره — في كل ذلك رغبات للانفس ورغبات ، وللهواجس غدوات. وروحان وللأمانى فيها ديبوب وولبات ، فهو جدير أن يقسم به . كما قال (هل في ذلك قسم لذي حجر) . الحجر ، بكسر الحاء ، العقيل ، والاستقسام للتقرير وتفضيحه أمر القسم به .

وليس في هذه السورة قسم بالضوء الخالص كيباض النهار ، وما يكون في ليالي القمر عند امتلانه ، بل ذلك سيجيء في قوله : (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها) فليتنبه الى هذه الدقائق حتى لا يفوت العقل ما فيها من الحقائق . وقد وقع هذا القسم في هذه السورة ، بعد قوله في آخر السورة السابقة (إِنَّ لِيْنَا أَيَّامَهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَائِلُنَا حِسَابُهُمْ) وقبل قوله في هذه السورة : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) . فكان جوابه مفهوماً لا يحتاج الى ذكر ، وفي تركه إرسال لنفس القارئ في تأمل ماضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما فيتمكن المعنى منه فضل تمكن ، والجواب ان ناصية الكذابين لبيدي ، ولئن أمهلهم فإن أمهلهم ولاخذهم اخذى الأمم قبلهم .

(عاد) جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون انه من ولد عوص بن إرم ابن سام بن نوح عليه السلام ، وسواء صح النسب ام لم يصح ، فقد كان ذلك الجيل معروفاً باسم عاد ، ويلقب أبشاً بإرم ، وبقي مشهوراً عند العرب بذلك . و (ذات العمد) وصف لإرم التي من قبيلة عاد نفسها . ومعنى ذات العمد : سكان الخيام جلا وارتمالا ، أو ذات العمد الرفيعة والقوة المنية . عبر بالعمد عن الصلو والشرف والقوة . وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضرموت . وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل اليه سواها في عهدنا ولذلك قال : (التي لم يخلف مثالا في البلاد) . والاستعظام في ألم تر كيف فعل ربك بعاد للتذكير والتقريب . وقد بين الله كيف فعل بهم في سور أخرى من القرآن ، فقد جاء في سورة العنابة « **وَأَمَّا عَادُ فَفُلَانُوا بَرِيعَ صَرْصَ عَاتِيَةٍ سَحَرْتَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفُتَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** » والصرص : الباردة . والعاتية : التندبة الهبوب ، لبركة فيها . والحسوم المتعلمات الشائيم .

وقد يروى المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات العمد كان يجب ان ينزه منها كتاب الله ، فاذا وقع اليك شيء من كتبهم ، ونظرت في هذا الموضع منها ، فخطب بيسرك ما تحده في وصف إرم ، وأياك ان تنظر فيه .

وتمود قبيلة من العرب البائدة كذلك ، من ولد كافر « وهو المسمى في التوراة جابر » ابن إرم بن سام . وإرم هو المعروف في التوراة بإرام ، هكذا يذكر النسابون ، وسواء صح النسب ام لم يصح ، فتمود معروفة عند العرب باسمها ، ومنزلها بالجيش بين الشام والحجاز . (الذين جابوا الصخر بالواد) : أى قطعوا الصخر ونحوه ، كما قال تعالى : **وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ** . فقد انعم الله عليهم بالصخرة والعقل

الصَّخْرَ بِالْوَادِ ❶ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ❷ الَّذِينَ
طَحَوْا فِي الْبِلَادِ ❸ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ❹ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ❺ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصِرٍ ❻

حتى صنعوا لأنفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادي الذي كانوا يقيمون فيه . وقد
يصح ما قال بعضهم أن معنى **جاءوا الصخر بالواد** ، أنهم قطعوا الصخر ، واتخذوا
منه واديا يخزنون فيه الماء لأنفسهم . ولا يفعل ذلك إلا أهل القوة والفهم من الأمم .
(**وفرعون**) هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام . وللمفسرين في
الأوتاد اختلاف كبير ، وأظهر أقوالهم ملازمة الحقيقة أن الأوتاد المباني العظيمة
الثابتة . وما أجمل التعبير عما ترك الصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ! فإنها هي
الأهرام ، ومنظرها في عين الرائي منظر الوتد الضخم المغروز في الأرض ، بل إن شكل
هياكلهم العظيمة في أقسامها شكل الأوتاد المقلوبة : بتدريج القسم عريضا ، وينتهي بادق
مما ابتدأ . وهذه هي الأوتاد التي يصح نسبتها إلى فرعون على أنها مهودة للمخطئين .
(**الذين طحوا في البلاد**) : صفة للمذكورين جميعا من عاد وما بعدها . ومعنى طغيانهم
في البلاد أن كل قوم من هذه الأقوام طحوا في بلدهم . والطفبان تجاوز القدر المعروف
في العمل أو غيره ، وهو هنا سوء استعمال السلطان والقوة ، والخروج بهما من حد
القدر والعدالة ، والإسراف في هضم الحقوق اغترارا بمعظم القدرة .

من أوتي القوة فسخرها لسلطان الشهوة فتناول ما ليس له ، ومنع الحق أهله ، فقد
عمل على تدمير نظام الجماعة ، وتقطيع روابط الألفة بينهم ، وحبل كل نفس على اتخاذ
الآثرة قاعدة عملها ، ومصلو سريها في سعيها ، فيكثر الفساد ، إذ لا معنى للفساد في شيء
إلا اختلال نظامه وهلاك قوامه . ومتى تحكمت الآثرة في أنفس قوم ، وغفل كل واحد
منهم عن ارتباط وجوده بوجود الآخر ، عمل بعضهم لإهلاك بعض ، وانتهى الأمر بهم إلى
الإنحواء من سجل الأمم القائمة . . . لهذا قال : **(فأكثروا فيها الفساد)** بعد أن قال : **الذين
طحوا في البلاد** . ثم جاء بعد ذكر كثرة الفساد بماقيتها التي لا مفر للأمم منها فقال :
(**فصب عليهم ربك سوط عذاب**) . والسوط لفظ شاع استعماله في الجلد المضفور
الذي يضرب به ، وإن كان في الأصل اسما للخلط والمزج . وقد شبه الله ما يصبه عليهم
من ضرر العذاب التي ذكرها في كتابه في مواضع آخر بالسوط لأن السوط يضرب به
في العقوبات . والله تعالى إنما ينزل العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يفرط منها . وسب
السوط : أنزاله بشدة مع توالي ضرباته بلا انقطاع .

(**المرصاد**) : المكان الذي يقوم به الرصد ، وهو القوم الذين يرصدون ، أي يربقون
بالغير أو الشر . والكلام على التمثيل : أي أن ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده
لا يفرقه من شئونهم شيء ، ثم هو مجازي كل عامل بعمله فلا يفلته أحد . فلا يظن
أهل الطفبان الذين يكثرون في الأرض الفساد أن يفتلتوا من الله وعقابه . والجملة تأكيد
لنحو القسم المفهوم من سابق الكلام ولاحقه . على ما سبق تقديره . أو هي تعليق
لهذا شأن ربك لا يفرقه من شئون عباده تقرر ولا قطمير ، ولا يهمل أمة تصمت في أعمالها
حدود شرائع القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر . كما أن الراصد القائم

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ۖ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ

على الطريق لياخذ من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رصد له . فإذا أردت أن تعرف شأن الإنسان وفقلته وسوء ظنه بربه ، فهو مايتلى عليك ، وبهذا البيان تعرف موقع الفاء في قوله (**فَأَمَّا الْإِنْسَانُ**) الخ ، كأنه قال هذا شأن ربك ، وسيتلى عليك شأن الإنسان عقب ماثلوت من شأن ربك . الابتلاء : الاختبار . ويقال بلاء يبلوه وابتلاء يبتليه بالخير والشر ليظهر مآلديه من شكر وكفر . وقوله (**فأكرمه ونعمه**) بيان لآثر الابتلاء ، كما أن قوله فيما بعد (**فقدّر عليه رزقه**) : أى ضيقه عليه ، بيان لآثر الابتلاء في الآية الآتية وبقية الالفاظ مفهومة المعنى .

وحاصل ماذكر الله من شأن الإنسان في هاتين الآيتين : أنه — إذا أتم الله عليه وأوسع له في الرزق — ظن أن الله قد اصطفاه لذلك ورفعه على من سواه وجنبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواه فيفعل مايشتهى ، ولا يبالي أكان مايصنع خيرا أم شرا فيظنّ ويسعد في الأرض . وقد مر من هذا الظن القاسد والغرور المهلك بقوله (**فيقول ربى أكرمن**) . أى أن الله أكرمنى بنعمته ، ومن بكرمه الله لا يؤاخذ به عمل يعمله . وإذا امتحنه الله بالفقر فضيّق عليه الرزق ، وربما كان ذلك من الله لا من أهاته له ولا إرادة لإزاله ، بل ليحصّ قلبه بالإخلاص له ، وليظهر قوة صبره ، بل لتزهر تلك القوى الجليلة التى قد تكون كامنة فيه ، كما تظهر آياتك ذلك في كثير من أرباب المزامم وذوى الأعمال العظامه ، فان الفقر لايزيدهم إلا شكرا ، ولا ترداد قواهم به إلا شجلا . فإذا امتحن الله الأغلب من البشر بالفقر ، لم يستعمل صحيح الفكر ، ولم يمتصم بالصبر ، بل ذهب يقول أن ربى قد أهاننى . ومن أهاته الله ، وصغرت قيمته عنده ، لم تكن له منية بعمله ، فكيف يؤاخذ به بصلر منه من شر أو يكافئه على مايصنع من خير ؟ فلاشكره كىكافأه بحسانه ولا كفره يجازى بمقوبة ، فينتقل لذلك يكسب عيشه بأية وسيلة هنت له ، لا يتقف عند حد ، ولا تحجزه شريعة فيلتقى مع الجبارين في سبيل واحدة : سبيل الفجور وبخس الحقوق وإفساد نظام العامة .

وانت ترى أن أحوال الناس الى اليوم لا تزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة . فان أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله ، ولا يعرفون شيئا من شرعه يمتنعهم عملا مما تسوق إليه شهواتهم . وانما يذكرون الله بالسنتهم ، ولا يعرفون له سلطانا على قلوبهم . والفقراد الأذلاء قد صغرت نفوسهم عند انفسهم ، فهم لايبالون بما يفعلون ، وأذا ذكروا الله فانما هى حروف وأصوات لايمتثل في منفعتها من أصوات بقية الأصحاوات .

للك حالة الإنسان الذى لم يمتعه الله بمقتل سليم ودين صحيح . أما الذين أتم الله عليهم بنعمة العقل والدين ، فاولئك الذين ترتقى الى مثل جالهم مرتبة الإنسان ، فيغارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ، ويعلمون الى المقام الذى لا تلهيهم فيه القوة ، ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم . ومعنى هذه الآية ينيل الى قوله تعالى (**إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا للصلين**) .

تعلم أن الخاطئين بهذه الآية كانوا يزعمون أنهم على شوء من دين إبراهيم . أو أنهم

رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ ۝ كَلَّا بَلْ لَا تَتَكْفُرُونَ
 الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْضُونَهُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتِيمِ ۝ وَمَا كُؤُنَ
 التَّرَاثِ أَكْلًا لِّمَّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّا إِذَا

كانوا يَدْعُونَ ان لهم دنيا يامرهم وينهاهم ويقربهم الى الله زلفى . فاذا سمعوا هذا التهديد
 وذلك الوعيد ، وراوا في الخطاب ماينمى عليهم فساد غرائزهم ، همت نموسهم بمداغمة
 مايفسدهم من ذلك ، واخذت تومسوس لهم بان هذا الكلام انما منطبق على اناس ممن
 سواهم ، اما هم فهم لم يزلوا من الشاكرين للذكارين غير الفاعلين - فانه يرد عليهم زعمهم
 وينفيهم لهم دليلا واضحا على كذب ماحدثهم به انفسهم . ويقول (كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ)
 الخ ، اى لو كان غنيكم لم يُعْجِه الطغيان ، وفخركم لم يطغس بسيرة الزوان ، وكنتم
 لاتزالون على الحال التى يرتقى اليها الانسان اسمرت نموسكم بما عسى يتبع فيه اليتم ،
 فعنيتم باكرامه ، فان الذى يقفد اباه معرض اسماء طيبته اذا اهملت تربيته ، ولم
 يُعامل بما فيه اكرامه وما فيه رفع نفسه عن دنيا الامور وسفاسفها ، ولو كنتم على
 ما تحدثكم به انفسكم من الصلاح لوجدتم النسيئة تحرك قلوبكم الى التعاون على طعام
 المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع المعز عن تخصيصه .

والتحاض: تغافل من الحُض ، وهو الحث والترغيب ، وربما بسطنا القول
 فى حكمة الله جل شانهِ فى العناية بشأن اليتيم والاكثر فى كتابه الكريم من ذكره
 والحث على اصلاح امره فى محل آخر ان شاء الله .
 واذا لم تكرموا اليتيم ، ولم يؤنس بعضكم بعضا بطعام المسكين ، فقد كُلبت
 مزاميمكم فى انكم من قوم صالحين . وانما ذكر التحاض على اللسان ، ولم يكتف
 بالاطعام ، فيقول ولم تطعموا المسكين ، ليعرج لك بالبيان الجلى ان افراد الامة
 متكافون ، وانه يجب ان يكون لبعضهم على بعض عطف بالامر بالمعروف والنهي
 عن المنكر مع التزام كل لا يامر به وابتعاده عما ينهى عنه .

لم ان اهتمكم امر اليتيم ، وخاف قلوبكم من الرحمة للمسكين ، لم يكن عن زهد
 فى لذائذ الحياة الدنيا ، كما هو شأن بعض من بسام المياسة ولا يكون له هم الا
 التخلص من متاعها فيعكف على شان نفسه ، وينخزل من العالم ، ولا يهتم بشئونهم ،
 بل انكم مع ذلك (تاكلون الترات اكلًا) . والتراث : الميراث . والام : السديد كما
 ذهب اليه جمهور اللغويين . ولا حاجة الى تفسيره بمعنى الجمع ، ثم اركب
 التاويل ، اى انكم تاكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم ، وتشتدون فى اكله حتى
 تحرموا صاحب الحق من حقه . (وتعبون المال) مطلقا سرانا او غيره (حيا جها)
 اى كثيرا . ولو كنتم ممن لم يبال بالدنيا واهلها لتركتم ما يترك الاموات لاتباعهم
 وفقراد اهلهم ، ولما شاركتموهم فى شئ لا كتب لكم فيه ولا دخل لاعاملكم فى
 تحصيله ، ولما ازداد حُكم فى المال الى الحد الذى اتم عليه . فشرهكم الى المال ،
 وقرمكم الى اللذات ، وانصرفت انفسكم الى التمتع بها ، وشغروكم بفقدار الحاجة
 الى المال فى تقويم شئونكم ، ثم قسوة قلوبكم ، وشلل وجدانكم الى حد لا يالم لحال
 المسكين ، ولا ينظر الى ما تضر اليه الاستهانة بشئون اليتامى من فساد اخلاقهم
 وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم الى معاصريهم وما يصيب الامة من ذلك -
 كل هذا منكم ذليل على ان ما تزعمونه من اعتقادكم بالله يامركم وينهاكم ، وان

دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّاءً ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ
وَجِئْتُكُمْ يَوْمَ الْبَيْتَةِ لِمَا تَدْعُوا النَّاسَ وَأَنَا لَهُ
الذَّكْرُ ۖ يَقُولُ الْمُنَافِقُ قَدْ دَمَتْ لِحَيَاتِي ۖ فَيَوْمَئِذٍ

لكم ديننا بمنظكم - زعم باطل . وإذا غششتكم أنفسكم بدعوى اكم تذكرون الزواجر وتراهمون الاوامر مع بقائكم على ما وصف من حاكم ، فانما ذلك منكم مقال لا تصدقه فعلم .

(الملك) الهدم ، وكسر الحائط والجيل . و « دكا دكا » : اى دكا متتابعا ، و (صفا صفا) اى سفروفا ممتدده (وحيى يومئذ بجهنم) هو تقوله تعالى « وبرزت الجحيم لمن يورى » . اى كشفت جهنم للناظرين بعد ان كانت غائبة عنهم ، فكانها كانت بعيدة وجاءت اليهم . اما استناد المجيء الى الله فى قوله : (وجاء ربك والملك) ، ففيه رأى السلف رضى الله عنهم ، وهو ان ذلك مجيء يؤمن به ولا تطلب معناه ، ولكنه يمثل لنا الهيبة والمظمة وظهور السلطان الالهى فى ذلك اليوم ، وهو الافضل . وفيه مذهب الخلف . وهو انه على تقدير ، وجاء امر ربك ، او انه من قبيل التمثيل لتحلى السطوة الالهية على القلوب كما تتحلى آبهة الملك للأعين اذا جاء فى بيوتهم ومواكبهم - وهه المثل الاعلى - والتذكر : استحضار ماكان منسيا . والذكرى تطيق ويراد منها العظة والعبرة ، قال الله تعالى « ان فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد » ولا يلزم من حضور ما كان منسيا ان تحصل العبرة ، فان العبرة انما تكون حيث ينفع الاعتبار ، فلذلك قال : (يومئذ يتذكر الانسان) ، اى عند ذلك تذهب الغفلة ويذكر الانسان النافل ما كان منه ايام غفلته ، ولكن لا تكون له ذكرى اى عظة فينفع بها . و (قلعت لحياتي) اى قدمت عملا ينفعنى فى حياتى الحقيقية وهى الحياة الآخرة .

قرىء يعذب ويوتق منيا السجود : اى يومئذ لا يصاب احد بعلاب مثل العذاب الذى يصيب ذلك الانسان الذى ابطره الفنى وافسده الفقر ، ولا يحبس احد حبسه ، فان الوثاق معناه الشد والربط كما يكون بالسلاسل والاغلال . وقرىء الفعلان بالبناء للفاعل ، اى لا يقع من المملكين وصانئى العذاب مثل العذاب الذى يقع على ذلك الانسان ، فالعنى واحد فى الوجهين .

ومعنى الآيات الكريمة ان ما يزعمه الاغنياء الجبارون والقراء الخاسرون من انهم ليرهب ذاكرون - مع فراغ قلوبهم من الرافة بالضعفاء ، وامتلأها بحب المال ، وفيضاتها بالليل الى الشهوات - زعم لا حقيقة له ، وانما يتذكرون ربهم على الحقيقة فى ذلك اليوم العظيم عند ما يشهدون الهول ، ويموزهم الحول ، ويظهر لهم مكانهم من العذاب والتكال . ولكن ليس فى هذا التذكر موعظة تحمل على العمل النافع . فان تلك الدار دار جزاء لا دار اعمال ، وانما يبقى لأولئك الخاسرين الصرور والندامة ، ويقول قائلهم : (يا ليتني قدمت انبيسائي) . وتكرر ذكر اليوم فى قوله اول (اذا دكت الارض) وقوله (وحيى يومئذ بجهنم) وقوله (يومئذ يتذكر الانسان) وقوله (فيومئذ لا يعذب الله) . . . ليقوى عنده استحضار ذلك الارض ، وظهور الجلال الالهى . ثم ان التنوين فى يومئذ الاولى نائب عن دكت الارض ومجيء ربك والملك ، وفى يومئذ يتذكر نائب عن ذلك وعن مجيء جهنم ، وفى يومئذ الثالثة (فيومئذ لا يعذب الله) بنوب

لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُؤْتِيُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۖ
يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَرْضِيَّةً ۖ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ۖ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ۖ

التنوير مما تقدم وما تضمنه قوله : يقول يا ليتني قدمت لحياتي .
فكانه قال : وحيه يوم تلك الأرض وحيه ربك والملك صفا صفا بهنم يوم
تلك الأرض ويأتي ربك ويحيا بهنم يتذكر الإنسان الخ . فيوم تهدم الأرض ، ويأتي
ربك ، ويحيا بهنم ، ويتذكر الإنسان ، ويقول (يا ليتني قدمت لحياتي - لا يعذب عذابه
أحد الخ) . ولا يخفى مافى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر .
بعد أن ذكر حال الإنسان وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه ، واستولت عليه
رغبات جسمه ، وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه ، ثم ذكر هاقبته وما يصير
اليه في الحياة الأخرى - انتقل بنا الى ذكر الإنسان اذا ارتقى عن ذلك الطبع ، وترفع
عن مراعات الحيوانية ، واستعمل برغائيه الى المطامع الروحانية ، فكان في الفنى شاكرا :
لا يتناول الا الحق ، ولا يمنح صاحب الحق حقا ، ويعنى بحال اليتيم ، ويطعم المسكين ،
ويجعل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولن حوله ، وكان في الفقر صابرا : لا يمسد
يده الى ما ليس من حقه ، ولا يأتي الدنية ، ولا يطلب لغيره الرزية ، ولا يفغل - مع
فقره - شأن اليتيم ، ولا يفغل عما يالغ له المسكين . فاذا لم تمكنه المونة بالمال
أمكنه المساعدة بالقول . وبهذا يستحق وصف المطمن - فانه راكن الى ربه في جميع
أمره ، واقف عند شرعه ، ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك في سبيله : لا تزعجه
الشهوات ، ولا تضطرب به الرغبات ، ويستحق ان يضابط باسم النفس التي هي
روح تنزع الى ما يليق بالروح ، ولا ينادى باسم الإنسان الذي يشير الى ما في تكوينه
من النزعة الحيوانية ، لانه لم يسلطها عليه ، بل استخضعها لتكميل نفسه وارجاعها
الى مذهبها القدس ، فكانت جذيرة بجوار ربها ، وهي راضية بعبادتها في الدنيا
وبمخرجها في الآخرة ، لانه لم تكن قط ساخطة : لا هي تسخط عملها في غناها ،
ولا تسخط مخالفا في فقرها ، ولا تسخط صنيع ربها بها . وهي مرضية لان من
كانوا معها في الدنيا راضون عنها لحسن صنعها ، والله راض عنها لصلاح عملها -
فقال سبحانه : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) . ومفاجأة السامع بهذا النداء ضرب من
ضروب ايجاز القرآن التي لا تغفل ليشير على بال ، فان التقى الخائف الذي يخاف
مقام ربه - اذا سمع ذلك الوعيد المتقدم - أخذت الرهبة نفسه ، وانعمت القضية
قلبه . فبينما هو كذلك اذ ينقله هذا النداء ، ويصعد به الى اكرم لقاء ، ويصفه
بالمطمئن . ليذهب منه الخوف ، وبالأرضى المرضي ليهبط عنه خشية الغضب . اما
الشقى فقد بلو بأنه ليس وحده في الشقاء ، بل الناس في كل ما يوعده به سواء ،
فينجسه لئلا الأبرار بأوصاف الخيار الى قرب الجوار . فثبته الدهشة وتفرده
الوحشية .
الرجوع الى الله تمثل للكرامة عنده ، والا فله معنى حيث كنا . والدخول
في عبادته ان تكون منهم . والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به ، هم العباد
الكرمون . والجنة معروفة .

سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدِ
وَمَا وَلَدٍ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ

(لا القسم) عبارة من عبارات القسم والتأكيد في لسان العرب ، كما تقدم ذكره في تفسير قوله تعالى : **فلا أقسم بالخنس** في سورة كورت ، و (**البلد**) المشار اليه هو مكة لان السورة مكية ، ولا يدل عليه قوله : (**وأنت حل بهذا البلد**) . والحل : هو الحلال . والخطاب للنبي عليه السلام ، ومعنى كونه حلا ، انه قد استحل لاهل مكة : استحلوا إبلهه وأغنامه ومطاردته ، واستباحوا منه حرمة الامن في ذلك البلد الامين حتى اضطره الى الهجرة . (**ووالد وما ولد**) عطف على هذا البلد داخل في القسم به . والمراد منه : اى والد وای مولود من الانسان والحيوان والنبات ، كما يرشد اليه التنكير ، وكما هو مختار ابن جرير وجميع من المحققين : (**لقد خلقنا الانسان في كبد**) هذا هو الخبر المقصود تأكيده بالقسم المتقدم ، والكبد : المشقة والتعب . قال لبيد :

باعين هل بكيت اريد اذ قمنا وقام الخصوم في كبد

اى في شدة الامر وعظم الخطب . ومنه المكابدة لقامبة الشلائد .

اقسم بمكة لتفخيم شأنها ، وصرح بذكرها — على طريق الاشارة اليها مرتين — لزيادة التفخيم ، واى . بجمله (**وأنت حل بهذا البلد**) واعترض بها بين الماطف والمغطوف ليفيد ان مكة عظيم شأنها جليل قدرها في جميع الاحوال ، حتى في هذه الحالة التى لم يرع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها . وفى هذا من تنبيههم وإيقاظهم من غفلتهم ، وتقرعهم على ما حطوا : من منزلة بلدهم ما فيه .

ثم اقسام بوالد ما وما ولد ليفتح نظرا الى رفعة قدر هذا الطور من اطوار الوجود ، وهو طور التوالد — واى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، واى ما به من الوالد والمولود في ابداء النشء وتكميل النشء وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

لذا تصورت في النبات كم تعانى البررة في اطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر الى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد الى أن تلد بزررة أو يروبا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها — اذا أحضرت ذلك في ذهنك ، والتفت الى ما فوق النبات من الحيوان والانسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو اعظم ، ووجلت من المكابدة

أَنْ لَّنْ يَتَّقِدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ ۝

والمنشاء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ماهو أشد وأجسم .

انظر كيف أشار سبحانه في القسم الى التمهيد الى المقسم عليه ، فكان القسم توكيدا للخبر بصيغته ، وتاكيدا له وبرهانا عليه بأشروته . فان الانسان نوع من أنواع الوالد والموالد ، فحق له ان يخلق في كبد وكبد ونصب . . . لانفعل من موضع قوله : **وَأَنْتَ حَلْ بِهَذَا الْبَلَدِ** . فانه - مع ما فيه من تقريب المستعجلين لحرمة صلى الله عليه وسلم - يشتمل على بيان أن ما يصيبه من ذلك فهو من شأن الانسان ، وقد قدر على كل مولود منه . وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم عن ذلك الإيذاء ماهو ظاهر . ثم أنه جمع بين البلد العظيم والوالد والولد - مع الاعتراض بتلك الجملة - ليشير الى أن مكة على ما بها من عمل أهلها مستند من الأمر العظيم ما يكون أكليلا لجحد النوع الانساني ، وهو دين الاسلام الذي جاء به عليه الصلاة والسلام ، وأن العناية الذي يلاقيه من اختصاصه الله بوجبه إنما هو العناية الذي يصيب الوالد في تربية ولده ، والموالد في بلوغ الغاية من سير نموه . وفيه من الوعد بإتمام نوره ما فيه .

ربما تقول : ان كون الانسان مخلوقا في كبد وتصباها مشهود وفي معروف معهود ، فما الحاجة الى تأكيدا لأخبار به ؟ فنقول لك في الجواب : ان هذا الخبر إنما وردت تسليته الناصب وحمله على الصبر - كما يدل عليه قوله بعد ذلك : **وَلَوْ رَأَوْا بِالْأَبْصَارِ** - وتنبه المفرور الجاهل .

إما الأول ، فانه اذا غلبه التعب ، وقهرته المشقة في القصد الذي وجه عزمته اليه ، احاطت به الآلام فيتمثل له بين عينيه شخص من شقائه بخيل له - وهو في حمى الضجر - أن هذا العدو يطارد وحده ، فيتمنى ان يكون له حظ غيره ممن سبقه أو ممن هم معه . فهو - على هذه الحالة - في أشد الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان في أي فرد من أفراد خلق في كبد . وإنما يتفاوت الناس فيما ينصبون له .

وطعم الموت في شيء حقير كطعم الموت في شيء عظيم وما الثاني ، فهو الذي يشعر بقوة في بدنه يستطیع ان يصارع بها الأقران ، ويقارع بها الانداد ، أو يحس بعزة في سلطانه ورفعة في مكانه ويسئلة في جاهه ، أو ينظر الى ماله من وفره المال وفرارة الفنى ، فيشبع بانفه ، ويظن أنه واحد في صنفه ، وأن الناس من دونه ليسوا منه الا كما يكون العابد من معبوده : فكثيرهم يجب منده ان يستل ، وصغيرهم يستعبد ويستزذل . وبجمل له - في حاله هذه - أنه اعلى من ان تتناوله يد القدر ، أو تدنو منه هادبة الدهر .

فهذا المفتون بقوته ، أو السكران بسلطانه ، أو المأخوذ بشروته ، في أشد ما يكون من الحاجة الى تأكيد الخبر بأن الانسان خلق في كبد . فاذا رجع الى نفسه ورأى أنه في عناء من بصريف قواه في عمله ، بل وفي أكله وشربه وحماية اهله في سريه ، تثلث له الحقيقة من ضعفه ، ورجع الى الحق اذا ذكر به من أهله .

ولما كان هذا القسم الأخير - وهو قسم المفتونين بما أصابوا من النعم - هو الاجدر بأن يقصد بالطعاب ، ويعنى بالتذكير ، قال الله عقب الخبر : **(اِيْحَسِبْ اَنْ اَنْ يَنْقُذَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)** ، أي ايلن - مع ماهو فيه من العناية من ميلاده الى ساعة عناده - أنه قد

أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۖ أَلَمْ يَعْمَلْ لَهُ شَيْئَيْنِ ۝
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَهُ النُّجْدَيْنِ ۝ فَلَا اقْتَحَمَ
الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكَّ رَقَبَةً ۝ أَوْ

بلغ من القوة أو العزة أو النعمة إلى حيث لا تقدر عليه . فالضمير في (أَيْحَسِبُ) مآجله على الإنسان باعتبار تحققه في بعض أفراد من هذا الصنف الذي ذكرناه . مآجله لو ظن ذلك ! فإن الذي نسا في وجوده ضعيفا ، يحتاج في أصغر أمره إلى المعين ، وتلك ناصيته تلك اليد التي أنشأته ، وتأخذ تلك القدرة التي أبنته . (يقول :) أي الإنسان (اهلكت) أي انفتت (مالا ليدا) : أي كثيرا . أعاد الضمير على الإنسان باعتبار صنف آخر من أفراد ، وهم أولئك الأغنياء البخلاء المراءون الذين يكتزون أموالهم ولا ينفقونها إلا على شهواتهم وفي توفير لذاتهم ، ثم إذا حملوا على عمل من أعمال الخير قالوا أننا ننفق كثيرا من أموالنا في أعمال غير التي تدعوننا إليها . فيحسب هؤلاء الأغنياء أن لم يرهم أحد ، وأن سرائرهم تخفى على المسرف في ضمائرهم ! (ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر فأنما يبصر بنعمتنا عليه فيها (ولسانا وشفتين) فهو إذا تكلم فأنما يتكلم بما وهبناه من لسان حتى قوله الذي يرأى فيه إذ يقول اهلكت مالا ليدا . (وهديناه النجدين) . النجد مشهور في الطريق المرتفعة . والمراد بهما هنا طريقا الخير والشر . وإنما سماهما نجلدين ليشير إلى أن في كل منهما وعودة وصعوبة مسلك - فلبس الشر بأهون من الخير كما يظن - وإلى أنها وأصحاح طليان لا يحصى واحد منهما على سالك ، أي أودعنا في فطرته التمييز بين الخير والشر ، وأقمنا له من وجدانه ومقله أملا ما تدله عليهما ، ثم وهبناه الاختيار . . فإليه أن يختار أي الطريقين شاء .

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى ما ترمى إليه هذه الآية من أن الله تعالى لم يجعل الشر أحب إلى أنفسنا من الخير - كما يزعمه بعض أهل النظر في الأخلاق الإنسانية - فالذي وهب الإنسان هذه الآلات ، وأودع بطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفلت من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريره .

اقتحم الأمر : دخل فيه بشدة . والعقبة : الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها : لكن الله تعالى فسر لنا المسراد بالعقبة هنا حيث قال : (وما أدراك ما العقبة) فك رقبة الخ) فأراد منها الطريق التي يصعب سلوكها إلى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وإنما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ، ومغالبة الشهوة لساكنها . وفك الرقبة : متعفا ، أو المعاونة عليه . وقد ورد في فضل العتق ما يبلغ معناه حد التواتر ، فضلا عما ورد في الكتاب ، وهو يرشد إلى ميل الإسلام إلى الحرية وجوهته للأسر والعبودية . والسفينة : المجاعة ، والسفب : هو الجوع . وفسره أبوحيان بالجوع العام . والثرية : القرابة في النسب . يقال هو ذو قرأبى وذو مقربى ، بمعنى أن نسبى يتصل بنسبه . والسكين ذو الثرية : هو الفقر الشديد الفقرا اللاصق بالثراب . يقال : ترب ، أي اختقر ، ويقال : فقر مدقع أو فقير مدقع ، بمعنى لاصق بالدقعا ، وهي الثراب . والذين اتوصوا بالصبر ، هم الصابرون على ما يصيبهم وعما يفوتهم في سبيل الله ،

إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ

الذين - مع صبرهم - يتصحب بعضهم بعضا بالترام الصبر ، فهم صابرون واعوان
لاخوانهم على الصبر . **والرحمة** : وجدان الرحمة بالناس مع ظهور اثر ذلك في مسامحتهم
وفي معاونة المحتاجين منهم .

بعد ان اخبر الله جل شانه بان الانسان قد خلق في كبد ، لام الجاهل المفسرور
على استغراقه في ضروره حتى كأنه يظن ان لن يقدر عليه أحد ، مع ان ماهو فيه من
المكابدة كان كافيا لايقاظه من غفلته واعترافه بجزئه . وبعد ان وبع المرائين الذين
يتفوقون اموالهم طلبا للسمرة وحبيا في الاحدوة ، وقرعهم على افتخارهم بما يستعون
مع خلق بواطنهم من حسن التية - أراد ان يبين لهؤلاء وأولئك انه سبحانه مصدر
لأفضل مايتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنعف والشر ،
فهو مهدي ذلك اليهم ، وهو القادر على سلبه منهم . وما أعجز من يفقد بصره
ونطقه وعقله !

ثم ان واجب هذه القوى لا يخفى عليه اعمالها ، وهو الحافظ لكونها . فمحاوله الظهور
بخلاف مآلكنه السرائي ضرب من الغفلة والعبث بالنفس على الحقيقة . ثم هو فد
الدرج في ذلك البيان وجه المنة بهذه النعمة . وكان على الانسان - بعد ماوجب التمييز
بين الحسن والقبح والخير والشر ، وبعد مامنح من تلك القوى التي سبق ذكرها -
ان يشكر تلك النعم ، ويختار طريق الخير ، ويرجع سبيل السعادة ، فيصمد فيها الى
حيث يلقى غايتها . وكان عليه ان يندفع في تلك السبيل ، ويهجم عليها بكل قوته ،
وذلك بان يفيض على الناس بشيء مما آفاض الله عليه . وأفضل ذلك ان يعين على
تحرير الارقاء من البشر ، او يواسي الأيتام من اغاربه في أيام العوز وعزة الطعام ، او
يطعم المساكين الذين لاوسيلة لهم الى كسب مايتقن بهم به حياتهم من الضمفاء
والعجزة ، او لبيان انواع الخير . والقصد انما هو الى التحلي بالخلق الذي يصدر
عنه احد هذه الافعال . ثم مع ذلك يكون صحيح الايمان صادق السر مع ربه ، صبوراً
على اذى الناس وما يصيبه من المكروه في سبيل الدعوة الى الحق او اتحافظة عليه ،
رحيماً بمباد الله ، مواسياً لهم ، مسامحاً لهم عند نزول التذائد بهم ، ثم يكون مع
هذا حريصاً على ان يكونوا مثله في الصبر والرحمة فيحملهم على ذلك بقوله وبعله .

هذه هي الطريقة التي كان من حق العقل ان يرشد اليها ، لكن الانسان قد جلدعه
غروره ، فلم يتقنم هذه العقبة ، كما قال سبحانه : **فلا اتقنم العقبة الخ** ، بل
اتقنم تلك العقبة الاخرى : عقبة الحرص على المال ، والتكبر بالقوة والثروة . وهي
عند اهل الحق اومر المقيتين ، فهي مثار الحسد ومزدهم الحسام مع مقاومة
العقل الصحيح والدوق السليم . غير ان الحيوانية وحضور لذاتها هي التي تسهل
سلوكها مع ما فيها من الهلكة .

قال المفسرون ان قوله تعالى (**ايحسب ان لن يقدر عليه احد**) نزل في ابي الاشد
اسيد بن كلفة الجمحي ، وكان مفترا بقوته البدنية . كما يقولون ان قوله (**يقول**
اهلكت مالا ليلدا) جاء في الحارث بن نوفل ، وكان يقول : اهلكت مالا ليلدا في الكفارات
منذ اطلعت محمداً .

وقد يجوز ان يكون في الايات اشارة الى تلك الحوادث الحاضرة وقت النزول غير
ان معناها على الحقيقة عام كما رايت .

مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِم نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

أما ما قيل من أن (لا) إذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ولم تكرر في الآية ، فذلك لا يلتفت إليه ، لأن الكتاب نفسه حجة في الفصاحة . وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها . وقال أبو مسلم — للخصم من مخالفة القاعدة في تكرار لا — : أن (لا) في الآية مخفف إلا التي للخصم ، كأنه قيل فهلا اقتحم العقبة ، ولكن ورد عليه أنه لم يعرف تخفيف إلا التحفيفية أيضا . فالحق الرجوع إلى ما قلنا .

وأما التعبير بالماضي في القنهم وفي ثم كان ، فلأن الكلام فيما وقع من نوع الإنسان منذ نشأته ، وأن الحيوانية غلبته فصرفته إلى سبيل غير التي كان يقوده إليها عقله ، إلا من هدى الله ، وهم الذين ذكرهم بقوله : (ثم كان من الذين آمنوا الخ) . أي أن الإنسان — في ذلك الصنف الأغلب من أفراده — لم يكن من الذين آمنوا وتوأسوا بالصبر وتوأسوا بالرحمة . (أولئك أصحاب الميمنة) الإشارة في أولئك إلى الذين آمنوا وتوأسوا الخ . ومعنى أصحاب الميمنة أنهم من أهل اليمين . وأهل اليمين — في لسان الدين الإسلامي — عنوان السعداء .

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) الذين تمر عليهم آيات الله — سواء كانت كونية : كالآيات التي ذكرت في هذه السورة من خلقه الإنسان في كبد ، ومن نعمته بقواه الظاهرة والباطنة ، أو سائر الآيات الأخر في خلق الإنسان وما بين يديه من سائر الموجودات ، ولا يمتنعون بها ، أم كانت آيات قولية واردة على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام : كالقرآن الذي هو آية الآيات للدين الإسلامي — تمر عليهم هذه الآيات ولا يرتقون من النظر فيها إلى معرفة الصراط الذي يجب أن يستقيموا عليه في الاعتقاد والعمل . . . هؤلاء أصحاب المشأمة : أي من أهل الشمال ، وأهل الشمال — في لسان الدين — هم الأشقياء .

فكانه قال : والذين كفروا بآياتنا هم الأشقياء . وقد تكون الميمنة والمشأمة من اليمين والشؤم ، فأولئك ميأمن على أنفسهم ، وهؤلاء مشألم .

(عليهم نار مؤصدة) : أي مغلقة عليهم ، من أصدت الباب إذا أغلقته في لفة فريش . وقرأ بعض السبعة موصدة بدون همز ، من أوصدته . وأغلق النار عليهم مبرة من تخليدهم فيها ، وسد سبيل الخلاص منها . . . وهؤلاء الذين وجه إليهم حلما الوعيد هم الذين ذكر حالتهم في قوله : فلا اقتحم العقبة الخ ، فإن ما نسب إليهم في تلك الآيات السابقة إنما هو عارض يلحق الكفر بآيات الله الباهرة وآية من آياته (١)

(١) آية من آياته : أي علامة من علامات الكفر .

سورة الشمس مكية وآياتها خمس عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝
وَأَنقَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝
وَالنَّهَارُ إِذَا
جَلَّهَا ۝
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝
وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝

(والشمس وضحاها) . ضعى الشمس : ضوؤها . يقسم بالشمس نفسها ، سواء ظهرت أو غابت ، لأنها خلق عظيم ، ويقسم بضمونها لأنه مبعث الحياة ، ومجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا ، أو هل كنت تجد نفسك لولا ضياء الشمس جل مبعدة ؟ (**وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا**) يقسم بالقمر إذا تلا الشمس ، وذلك في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه ، أو قربه من الامتلاء ، إذ يضيء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره ، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

وقال الحسن والقراء : تلاها تبعها في كل وقت ، لأنه يستضيء منها ، فهو يتلوها لذلك . ولكن التقييد بقوله : (**إِذَا تَلَّهَا**) ، يدل على أن القسم متعلق بالقمر وهو في حالة خاصة ، فهو مقسم به على طور خاص ، وهو ما ذكرناه . ثم عاد إلى القسم بالضياء تحت عنوان آخر فقال : (**وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا**) . أى والنهار إذا جلى الشمس ، أى أظهرها . ولا يخفى أن النهار هو وقت انتشار ضوء الشمس من وقت شروقها أو تسريته إلى وقت غروبها . . . كل ذلك للاشارة إلى تعظيم أمر الضياء وأعظام قدر النعمة فيه ، والفات اذهانتنا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وقوله : (**إِذَا جَلَّهَا**) بيان للحالة التى ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة ، والآية الناهرة ، وهى حالة الصبح .

أما يوم القيم الذى لا تظهر فيه الشمس ، فحالها معك أشبه بحال الليل الذى يقسم به في قوله : (**وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا**) .

بعد أن أقسم بالضياء تحت أسماء مختلفة ، أقسم بالليل في حالة واحدة ، وهى حالة ما يضيء الشمس ، أى يعرض دون ضونها فيحجبها عن الإبصار ، وذلك في ليالي الظلمة الحالكة التى لا أثر لضوء الشمس فيها : لا مباشرة كما في النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المسفاد منها . وهذه الليالي هى قليلة كما لا يخفى ، فإن أغلب ليالي الشهر لا تلتصق من ضوء القمر في أول الليل أو في آخره أو في جميعه وهو ضوء مستفاد من الشمس ، وإنما هى ليلة أو ليلتان وبعض ليال آخر . وقللة أوقات الظلمة عبر في جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متخرا مما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلى الشمس دائما من أوله إلى آخره ، وذلك شأن له في ذاته ، ولا ينفك

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ① وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ② فَأَلْهَمَهَا

منه إلا لعارض كالنفس أو الكسوف قليل العروض ، ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله بدون أفادة أنه مما ينفك عنه .

وأقسم بالظلمة هنا - كما أقسم بها في سورة والفجر - لأنه أمر بهوك وبدخل عليك فيه من انقباض النفس عن الحركة ، واضطرارها للوقوف عن العمل ، وركونها الى السكون ، مما تجد عنه مفرا . فهذا سلطان من الخوف مبهم لاحتياط بأسبابه ولا بتفصيل أطواره ، فهو أشبه بالجلال الإلهي يا خلك من جميع أطرافك وأنت لا تدري من أين أخذك ! وهو مظهر من مظاهره . ثم في هذا السكون من راحة الجسم والعقل وتمويس ما فقداه بالتمب بياض النهار مما لا تحصى فوائده ، فلذلك أقسم الله به ليوجه نظرنا الى ما فيه من ذلك كله .

(**والسما والسماء وما بناها**) . السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك . وأنت انمسا تصور - عند سماعك لفظ السماء - هذا الكون الذي فوقك : فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها وتتحرك في مداراتها ، هذا هو السماء . وقد بناه الله : أي رفعه ، وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك ، وشهد هذه الكواكب بعضها الى بعض برباط الجاذبية العامة ، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تماسك به .

والذي بنى السماء هو الله جل شأنه . غير أنه لما كان الخطاب موجها الى قوم لا يعرفون الله بصفاته الجليلة ، وكان مرمى الخطاب أن ينظروا في هذا الكون العظيم نظرة من يطلب للأثر مؤثرا ما ، وللمسبب سببا ما ، لينتقلوا من ذلك الى معرفة الله تعالى - مير من نفسه ، جل شأنه ، بما التي هي القاية في الإبهام . على أن من وما بالنسبة الى الله سواء ، لأن من الماقل الذي يعرفه المخاطبون ، وما لغير الماقل كذلك . والله جل شأنه لا يطلق عليه الماقل ولا غير الماقل بذلك المعنى ، وإنما هو عالم يملو تصوره على مثال القول ، فيصير عنه بكل لفظ يفيد اللات الموجودة مع مناعة التنزيه . (**وطحا الأرض**) : وطاها وجعلها فراشا ، كما قال : **الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء** . وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . والذي طحاها هو الله .

بعد أن أقسم الله بالضياء والظلمة ، أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب جملة ، وبالذي بناها وجعلها مصدرا للضياء لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب من أجزاء ذلك البناء ، وبالأرض والذي جعلها لنا فراشا وجعلها مصدرا للظلمة ، فانها هي التي يحجب بعض اجزائها ضوء الشمس من البعض الآخر فيظلم الظلام في هذا الآخر . ولم لم يذكر في جانب السماء سوى البناء - وهو ربط بعض أجزائها ببعض - ولم يذكر إيجاد كل جرم ، لأن هذا البناء الظاهر هو الذي تفهمه عقول المخاطبين ، وفيه متافهم من انتشار الضياء وقيام أصلام الهداية - اقتصر في جانب الأرض بلذكر الطوح ، وهو التمهيد وفيه منافع الناس من سكنى الأرض والانتفاع بما يوجد على ظهرها من نبات وحيوان !

بعد هذا أقسم بالنفس الإنسانية والذي (**سواها**) : أي عدلها بأن ركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، ومحدد لكل قوة وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذي تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى ، لهذا فرع على التسوية قوله

فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ

(فإلهيها فجورها وتقواها) . فان تمام التسوية أن وهبها العقل الذي يميز بين الخير والشر . والفجور : إتيان ما ينتهي بالنفس إلى الضرر والهلكة . والتقوى : إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة .

والأعمال التي بها تشقى النفوس معروفة لدى العقول كالاعمال التي بها تسعد . فهذه الآية في معناها كآية **وهديناه النجدين** . فقد منح الله النفوس قوة التمييز ، كما وهبها قوة الاختيار : فمن رجع طريق الخير أفلح ، ومن رجع طريق الشر خاب . ولهذا استعطر عقب ذكر الإلهام بقوله : (**قد أفلح من زكَّاهَا**) : أي قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأملأها حتى بلغ بها ما هي مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية ، واتمرت بذلك ثمراتها الطيبة له وأن حوله من الناس . (**وقد خاب من دسَّاهَا**) . التدسية : التقص والأخفاء . ومن سلك مسيل الشر ، وطواع دامي الشهوة البهيمية ، فقد فعل ما يفعل سائر البهائم ، فلم يظهر عمل القوة العاقلة التي خص بها الإنسان ، فاندرج صاحب تلك النفس في عداد سائر الحيوان دون الإنسان ، وبذلك يخفى من بين العقلاء ، ويلهب امتيازه الذي كرم الله به نوعه . وهل تكور خيبة أعظم ، وخسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص على نفسه يسوء عمله ؟ فما أجمل هذا التعبير ! وما أحواء المعاني الرفيعة ! ثم هل التفت إلى مآل التزكية مما يناسب النور والسماء ؟ ! وما في التدسية مما يلائم الظلمة والأرض ؟ ! وجواب القسم محذوف - مثله في سورة البروج - وأقام الدليل عليه بما جاء في قوله : (**كذبت ثمود بطغواها**) . وهذا من ضروب الإيجاز التي اختص بها القرآن دون سائر الكلام . وسنذكر ذلك الجواب بعد تفسير الدليل عليه .

ثمود قوم من العرب البائدة ، بعث الله إليهم نبيا اسمه صالح عليه السلام ، ولما سأله قومه آية على صدقه جعل الله آيته في ناقته . وقد جاء في كتابنا العزيز أن هذه الآية هي أن جعل لها شربا تختص به ، ولهم شرب يختصون به في يوم معلوم ، وأن تأكل في أرض الله ولا يمسا أحد يسوء ، فإذا مسوها يسوء ، أخذهم العذاب . فالآية - في الحقيقة - هي أخذهم بالعذاب إذا مسوها بالسوء .

قال في سورة هود (**ويقوم هذه ناقه الله لكم آية فليروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فليأخذكم عذاب قريب**) . وقال في سورة الشعراء : (**قال هذه ناقه لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها يسوء فليأخذكم عذاب يوم عظيم**) . وكان على القوم جميعا أن يرعوا أمر الله في هذه الناقة فلا يمسوها أحدا يصيبها بالأذى . ولكنهم طغوا وخرجوا عما يرشد إليه العقل الصحيح ، فكلبوا صالحا عليه السلام . فهذا قوله : (**كذبت ثمود بطغواها**) : أي كذبت بنبينا بسبب طغيانها وبنينا ، ثم اتبع واحد من هذه القبيلة - سماه المفسرون ، ولا حاجة بنا إلى تسميته لأنه يجب علينا أن نقف منكمنا وقف هنده الكتاب - وكان ذلك المنيب أشقى القبيلة لأنه تحرش للشر من دونهم ، وانطلق بنجر الناقة . فهذا قوله تعالى (**أذ اتبعنا أشقاها**) . أي أن التكذيب كان عند ذلك ، أي كان ذلك علامة للتكذيب الظاهرة ، فإنه كذب صالحا

أَشَقْنَهَا ❶ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقْيَاهَا ❷ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ❸ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ❹

في وعيده بالعداب ، وانبعث يهلك الناقة . ولا سكت القوم وتركوه يفعل ، كانوا
مكذبين مثله (فقال لهم رسول الله) صالح : احلروا وانقوا (ناقة الله) التي جعلها
آية نبيه . (وسقياها) : اى شربها الذي اختصها الله به في يومها ، فلا تؤذوا الناقة ،
ولا تتعدوا عليها في شربها ويوم شربها (فكلبوه) فيما جاء به ، ولم يسمع ذلك التلقى
ذلك التحذير ، ولم يصغ الى الانذار (فعقروها) . العاقر لها ذلك المعنى الذي
لقبه بأشقاه . ولكنهم لما سكتوا عنه ، ولم يمنوه ، ورضوا بفعله ، سب العقر انهم
جميعا ، فلذلك عنتهم النعمة (فعدم عليهم ربهم بذنوبهم) : اى اطبق عليهم العذاب .
وقال بعضهم : اللعنة ، اهلاك في استئصال . وقيل : اللعنة التدمير . (فسواها)
اى سوى القبيلة - وهى نعوذ - فى العقوبة ، فلم يفلت منها احد . او المعنى سواها
بالأرض ، اى دمر مساكنها على ساكنيها . (ولا يخاف عقباها) اى ان الله في عزه
وجبروته اهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عاقبة اهلاكهم لانه لا هو ظالم فيخفيه الحق ،
ولا هو ضعيف فيتناوله المكروه - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

في هذا الذى سمعته في خبر نعوذ مايدلك على جواب القسم ، كانه قال (والشمس
وضحاها) الخ : لينزل بالكذبين منكم مثل منازل يشود ، اذ كذبت بيها فاهابها
العذاب ، فليست بأشد بأسا منها ، ولا شقيكم أشد بطشا من شقيها .
ولقد صدق الله وعده فاهلك من اهلك منهم في واقعة بدر بأيدى المؤمنين ، ثم لم
يزل العذاب والخزى ينزل بالكذبين من اهل مكة ومن حولهم ، بالقتل تارة ، والابعاد
اخرى ، حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب . ولو استمرت الدعوة على ماكانت
عليه من نشائها ابام الصحابة رضى الله عنهم ، لم يبق في الأرض مكذب - والله اعلم .

سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا أَرْبَعَةٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ❶ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ❷ وَمَا خَلَقَ

(واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) يبتدئ في هذه السورة بأن يقسم بالليل ، وهو الظلمة ، لانه

الذَكَرُ وَالْأُنْثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى

الانسب بما ختمت به السورة السابقة من اللعنة وإطباق المذاب ، ولأنها أليق بما عليه سعى أغلب الناس الذى سيدكر فى قوله : **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** . والتعبير فى الفشيان بالضرع لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذى هو أكمل مظاهر الوجود ، حتى عبر به عن الوجود نفسه . أما (**تَجَلَّى النُّورُ**) فهو لازم له ، لهذا عبر عنه بالماضى ، كما سبق بيانه . (**وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى**) . الذى خلق الذكر والأنثى هو الله سبحانه ، وعبر عنه بما القانا لنظر المخاطبين اليه من حيث هو سبب موجود فقط ، حتى لا يبادر منكر الألوهية الى الانصراف عن الخطاب بمجرد الشعور بان التكلم يذكر له من صفات الله العلية مالا يفتقده - كما أشرنا اليه فى تفسير السورة السابقة - وإنما اقسام بلدانه بهذا العنوان لما فيه من الاشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والاشارة الى الإبداع فى الصنع . اذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لاشعور لها بما تفعل كما يزعم بعض الجاحدين ، فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة الى كون الذكر أو كون الأنثى . فتكوين الولد من عناصر واحدة - تارة ذكراً وتارة أنثى - دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع !

(**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**) . هذا هو جواب القسم . يؤكد بالقسم السابق ماضمناه هذا الخبر من أن سعى الناس مختلف مفترق فى صفته ونوعه . فمنه الحسن ، ومنه التبيح ، ومنه المفيد ، ومنه الضار ، ومنه ماينقيه الإخلاص ، ومنه مايعكره الرياء وطلب الكفاة عليه من الناس ولو بحسن الثناء على فعله ، ومنه الإعطاء ، ومنه المنع ، ومنه التكذيب بالحق ، ومنه التصديق بها ، ومنه التقوى ، ومنه الفجور . ومفترق فى عاقبته : فمنه مايشقى به السامى ، ومنه مايسعد به . ثم فصل ذلك التفريق فى النوع والعاقبة بقوله : (**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى**) .

فان خطر لك سؤال : كيف تقسم سبحانه على أن سعى الناس شتى مختلف ، مع أن هذه القضية بديهية ، لأن جميع من يفهم الخطاب يعلم أن مسامى الناس وأعمالهم مختلفة متنوعة الى هذه الأنواع التى ذكرت ، ومثل هذا الجبر البديى لا يحتاج الى تأكيد ، بل الإخبار به غير مفيد لـ . . فأتى اجيبك أولاً بأن المقسم عليه هو الإجمال والتفصيل مما . ولاشك فى أن الوعد على الإعطاء والتقوى والتصديق بالحقنى بالتمسك اليسرى ، والوعيد على البخل والاستغناء والتكذيب بالحقنى باليسرى - يحتاج الى تأكيد ، فيكون التأكيد لجموع الأخبار لا لأول منها فقط . وثانياً بما أشرنا اليه فى بيان معنى شتى من أن الافتراء واقع فى أنواع الأفعال وصفاتها ، وواقع فى عاقبتها وما يعود منها على فاعلها .

ولما كان لفعل الشر إنما اختاروا طريقه لامتدادهم ان إبتائه افضل عائدة عليهم من تجنبه ، وأنه لايفضى بهم الى ماكرهون ، كانوا كأنهم اعتقدوا بوحدة العاقبة فى سعيهم وسعى مخالفيهم من أهل الخير ، فاحتاج الأمر الى أن يؤكد لهم الخبر بأن السعى مختلف فى الغاية والعاقبة كما هو مختلف فى الصفة والنوع . وهذا هو الذى يشعر به وصل التفصيل بالغاء ، فان التفصيل سيق لبيان عاقبة كل قبيل من السعى ، فوصله بالغاء يفيد أنه كان شيئاً داخلاً فيما سبقه .

ثم كيف تزعم ببلادة الخير باختلاف الأعمال فى الصفة ، مع أن البخيل

وَأَتَقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّسِرُهُ وَلِيَّسِرَى ۝

مثلا انما يمسك الفضل من ماله ولا ينقصه في أعمال البر ، وهو يعتقد أنه لم يمنع حقا ، وأنه وفي حق الحق ، لأن في توفير المال صون النفس من الحاجة وتمتعها بالكرامة وعلو المنزلة ، وهو أمر مطلوب لأهل العقل ، فهو - باعتقاده هذا - قد أدخل عمله في جنس أعمال المقتصدین وأهل الوار والكرامة لا . . وكذلك الحاسد مثلا يرى ما يصنع في طلب الوسائل لازالة نعمة محسوده من باب السعي في ازالة المنكر والدفاع عن حق للنفس أو للعامة . وهو بهذه العقيدة يدرج عمله في أعمال المجاهدين في اتكار المنكر وحمل الناس على المعروف .

وهكذا يمكنك ان تخلص بنظرك في باطن كل مقترف لرديلة فتجده يمثلها بمشال الفضيلة ، فقد اختلط عليه وصف مساهي بوصف مساهي غيره . وأنت ترى أغلب الناس على هذه الحال ، فكثروا في اشد الحاجة الى تأكيد الخبر بان الأعمال والمسامي شتى مختلفة كل الاختلاف ، أو منزلين منزلة من يحتاج الى ذلك لتليسمهم على انفسهم .

(فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) . أعطى المال لسد حاجة المسكين ، أو اغانة المدم الكرم ، أو للإعانة على النفع العميم . (واتقى) أي خاف من الشر وإيصال الأذى الى الناس ، فحصى نفسه من ذلك ، أو كره الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فوفى نفسه من ارتكاب شيء منها . (وصدق بالحسنى) : أي بالفضلة التي هي أحسن من غيرها . أي صدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، وبالفارق بين الفضيلة والرديلة وبين العمل الطيب والخبيث ، واعتقد بأن هناك خيرا وشرا ، وإن من مزايا الانسان أن يفعل الخير ويتجنب الشر . فان التصديق بذلك هو مصدر الصالحات بلا ريب ، وهو مقدم في الترتيب الوجودي على بلل المال في سبيل الحق والرحمة وعلى اتقاء المفسد والخطايا ، ولكنه قدم هذين في الذكر عليه للاهتمام بهما ، ولأنهما الدليلان على تحققه حقيقة ، ولأنهما ثمرته الدائبة .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر ، وأن الخير أولى بالانسان . ولكن هذا التصديق قد يكون سرايا في النفس خيله الوهم وصوره التقليد الأعمى ، ثم لا يصبر منه الآخر الذي يليق به ، بل تجد صاحبه وديء الملكة ، قسى القلب ، بعيدا من الحق ، قريبا من الباطل ، بخيلا في الخير ، مسرفا في الشر . ولا تجد له مع ذلك كلاما الا في الفضيلة وجنس جزائها والرديلة وسوء عاقبتها . فهو - كما يقول بعض الأدباء - يحسن وصف الفضيلة وحروفها ثم ينظر الى الله ، ولا يجد كرمه بالحمد عليه الا اذا صبر عنه أثره الذي لايفك عنه : وهو بلل المال واتقاء مفسد الأعمال . ومن فعل ذلك يسره الله اليسرى : أي يسهل لتوفر الدوامي اليها وكثرة البوائك عليها ، فان هذه الخلطة هي اليسرى والأسهل لتوفر الدوامي اليها وكثرة البوائك عليها ، فان الانسان انما يمتثل عن غيره من سائر الحيوان الأصم بالتفكير في الأعمال - وتقدير ثمراتها ، ووزن نتائجها .

وحاجة كل انسان الى ان يعينه غيره ظاهرة كذلك بسداجة الفطرة ، فاحساسه بحاجة غيره وإنذامه الى سدها ، مما تنبه اليه الفطرة ، فأولى ان تنبهه الفطرة الى

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٥٥﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٥٦﴾

ان لا يلحق الاذى بمن لم يؤذ ، وان لا يأتى من القايح شيئا لظهور شررها بالناس . . فهو مدقوع الى ذلك كله باصل فطرته الانسانية ، لكنه يحتاج - في الاستقامة على هذه الطريقة - الى صحة عقل ينظر بنفسه فيما يختار ، ويميز نظره فيما يسمع بين ما ينبغي ان يتبع وما يجب ان يدفع . فاذا حصل الشخص ذلك وظهرت آثاره في اعماله ، سهل الله له ما هو مسوق اليه باصل فطرته ، وهو تكميل نفسه لتسعد بجزاياها في الدنيا والاخرة ، وذلك لجرى سنة الله في خلقه بان كل عمل من اعمال العاقل يفتح له باب بصيرة في نوع ذلك العمل ، ويكون مبدأ مادة للنفس تانس بملابستها . فغالل الخير للخير ليدوق لذته ، ويجد حلاوته ، فتزيد فيه رغبته وتشتد اليه مربيته ، وهذا هو التيسير الالهى !

(وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فستيسره للعسرى) . أى ان من أمسك ماله او اتفقه في شهوانه ولذاته ولم يتفقه في الطرق التى ينهاها ، فانه يعد باخلا . . على خلاف ما يعتد كثير من الناس من أن البخيل هو الذى لا يتمتع بماله فى التلذذ بما كاله ومشربه وملبسه ، فهنا بمجرد له لا يعد بخلا : لا شرعا ولا فى اصطلاح علماء تهذيب الاخلاق . وانما البخيل هو الذى لا يبذل ماله فى سبيل الخير - خصت او عمت - وان اتفق جميع امواله فى لذاته ولذات امثاله ، او هو الذى لا يعطى الحق فيما يطلبه به الحق . ومنفعة العامة ، والرحمة الخاصة من اعظم انواع الحق (واستغنى) أى عد نفسه غنيا من الناس بما لديه من المال ، فلا يرى له حاجة اليهم ، فلذلك لا يجد الرحمة فى قلبه لضعفائهم فيبذل ماله لدفع ضرورتهم ، ولا يحس بأنه عضو من جماعتهم فيبتغى من ماله فيما يعود بالنفعة عليهم ، ولا يبالى بما يصيبهم من فساد او سلامة فهو لا يتنقى شرا بفعله فيهم ، فيكون شريرا فاحشا . فمعنى استغنى يقابل معنى اتقى فى جميع مشتملاته .

وامثال هؤلاء المستغنيين - الذين لا يحسون بوجود الناس الا عند حاجتهم اليهم - كثيرون فيما بيننا ، بل هم الأكثر ، بل لا تكاد تجد بين المسلمين نواهم . فان الكلمة العامة فى افواه جميعهم « نحن مالنا » و « انا مالى » و « دى الحلق للخالق » ونحو ذلك مما يطول سرده . (وكذب بالحسنى) أى كذب بتيوت الفضيلة ، وبأنا اصل من اصول الانسانية ، وركن من أركان وجودها ، فلا يعرف الا ما يله له ويمتصه فى حاضره ، ولا يسالى بما عدا ذلك ضر غيرة او نفعة . وهذا التكلذب هو الاصل فى البخل والاستعانة بغيرهما السابق ، لان من صدق بالحسنى - ذلك الضرب من التصديق الذى سبق بيانه - لا يمكن ان يبخل ولا ان يستغنى بالمعنى الذى سبق ذكره .

ويدخل فى المكذبين بالحسنى اولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ولكن لا يظهر اثرها فى اعمالهم ، فهم مكذبون رغم اتوفاهم ، والله يعلمهم مكذبين مهما لبسوا على انفسهم . وهذا هو السر فى تقديم ذكر البخل والاستغناء على التكلذب بالحسنى ، لانهما اقربا ومترابعا ، فاذا ظهرا فى عمل الانسان ثبت تقليد به بالحسنى . ومن كانت حاله هذه فقد مرتت نفسه على الشر ، وتعودت على الخيثة ، واستشترى فيها الفساد ، فيسهل الله له - على حسب ما جرت به سنته سبحانه - تلك الخطوة العسرى . وهى الخطوة التى يحط فيها الانسان من نفسه ، ويفض من حقها ، وينزل بها الى حضيض البهيمة ، ويفسدها فى احوال الخطيئة . وهى اسر الخطئين على الانسان لانه لا يجد

فَسَنِّي سِرَّهُ وَالْعُسْرَى ١١ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ١٢
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ١٣ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ١٤
فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ١٥ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ١٦ الَّذِي

معينا عليها لا من فطرته ولا من الناس .

ولو اتفق أن جماعة أو قوما فسدت أخلاقهم جميعا ، ووجد كل منهم فيهم حولهم يعينه على الشر ، سلب الله عليهم من غيرهم من ينزل العقاب بهم جميعا ، فيسلمهم ما آتاهم الله من نعمة ، وبضمهم تحت نير المذلة ، كما تشاهده ويقع تحت نظرنا كل يوم . فلا ريب أن هذه الخطبة هي أعسر الخطبتين ، ولكن كاسب الشر معان عليها تعود نفسه على مقارفة ما هو منها بسبيل .

(وما يغني عنه ماله إذا تردى) . ما استفهامية : أى وماذا يفيد ماله إذا تردى وهلك ، سواء كان بالوت الذي يدركه عند أجله فهو يقبل على عذاب ألم ، أو تردى فى مغبات بخله وسيئات أعماله بأن حل الانتقام به فى الحياة الدنيا ، فانه لا يجد من الناس منجدا ولا من رحمة الله مغيا . . فماذا يفيد ماله ؟

ولما كان هنا موضع أن يقول قائل : كيف يخلق الله الناس ويكلفهم إلى أهوالهم ، ثم يصاحبهم على ما جرهم إليه ؟ أو أن يقول إذا كان الله هو واهب تلك القوى والآلات البدنية فكل ما كان من متناولها وناسأت إليه فهي مسيرة إليه بمقتضى غريزتها ، فكيف يؤاخذ الله على فعل فاعل أطلق الله له الإرادة فعمله وأعطاه القدرة عليه . . . لا كان ذلك مما يقال فى جميع الأزمان ، قال الله : (أن علينا للهدي) . أى أننا خلقنا الإنسان وجعلنا من جوهر إنسانيته العقل والاختيار ، والهمناء التمييز بالعقل بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له من كلمة أفراد الأنبياء ، وشرعنا لهم الأحكام ، وبينا لهم العقائد تعليمها له وإرشادنا . فهذا هو ما يقتضيه خلق الإنسان من حيث هو إنسان . ثم بعد ذلك هو مختار : فإما أن يسلك مسلك الخير فيسلم ويبعد ، وإما أن يذهب مذهب الشر فيعطب ويشتقى .

ومن هنا نفهم معنى علينا ، فليس فيه أن ذلك واجب عليه كما يظنه بعض السفهاء ، بل معناه أننا حيث أردنا أن نخلق الإنسان نوعا ممتازا عن سائر أنواع الحيوان ، كان لابد في إرادتنا هذه أن نضع في جوهره ما يميزه وهو العقل ، وأن نضع له شريعة تعليمية حتى يبعد بذلك نوعا ممتازا عن غيره من الأنواع .

(وإن لنا للآخرة والأولى) : أى نحن المالكون للحياة الدنيا ، وهى الأولى ، والحياة الآخرة . وإنما قدم الآخرة فى الذكر - مع أنها الآخرة فى الوجود - ليلبذر إلى تأكيد وجودها .

وإذا كان ملك الحيوان لله كان هاديه هو الذى يجب اتبعه فيها ، لأن المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه . فما ممكن منه بهداه ، وأرشدك إليه من ذلك فلا تصد عنه . ولهذا المعنى تراه رتب على القسيتين (أن علينا للهدي) (وإن لنا للآخرة والأولى) قوله (فأتاكم نارا تالظي) : أى لرحمتنا بكم ، وعلينا الكامل بمصالحكم ، أشدنا اليكم الهدى ، فأنذرناكم نارا تلتهم . وتلك النار أعدت فى الآخرة لمن سيذكره الله بعد ، وهى نار يجب علينا الإيمان بها ، ولكن لا ينبغي لنا البحث فى حقيقتها لأنها من أمور الآخرة

كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝ وَصَيَّبَتْهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي

التي استأثر الله بعلم حقايقها . واتما هي عذاب اليم لمن يصلها . (لا يصلها الا الاشقي الذي كذب وتولى) . يصلها : يعذب فيها . والاشقي : من هو أشد شقاء من غيره . ومن كذب : من وقع منه تكذيب ما . وتولى : اعرض عن وجهة الحق وانصرف ولم يعد اليها بالتوبة والتندم . (وصيبتها الاتقى) : أى ان أشد الناس تقوى هو الذي لا يدخل هذه النار بالمرّة ، ولا يمسسه لهيبها .

واعلم ان الناس اقسام منهم الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما بعد بهم من الفواحش ظاهرها وباطنها ، ودفعهم الى محاسن الأعمال جليلها وصغيرها ، فلم يمارفوا خطيئة ، ولم يقصروا في خير .

ومنهم الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيقعون في الذنب ، أو يقصرون في الواجب ، ثم يثوب اليهم رشدهم فيتوبون ويندمون . وهذا القسمان يدخلون في الاتقى ، وهم الذين ذكرهم الله في سورة آل عمران في قوله : « وسارعوا الى مغفرة » الخ .

ومنهم من يخطئ بين الخير والشر فيعتقد بالله مثلا ويترف بعض السيئات لكنه يصر عليها ولا يتوب عنها ، فهذا الاصرار منه يدل على أنه غير مصدق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد كما يرشد اليه العقل . لان البدية تباي ان يصدق الشخص بسوء عاقبة امر تمام التصديق ثم يصر على اثباته دون اسف ولا ندم ، وكما تدل عليه السنة ، فقد ورد في الصحيح : لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن . ومعناه ان صورة الوعيد ، وصورة الامر الالهي تذهب من ذهن المخالف ، ويوجد عنده شروب أخرى من الصور تقاوم اثر هذه في النفس وتغلب عليها . فهذا الفاسق المصّر يدخل في الاشقي ، وهو صنف من اصنافه ، لانه كذب ضربا ما من التكذيب وتولى فلم يرجع بالتوبة .

ومنهم الكافرون الجاحدون ، وهم صنف آخر من الاشقي .

فالنار التي وصفها الله بدخلها الفاسقون من المؤمنين تحت عنوان مكذبين متولين ضربا من التكذيب والتولي ، تغليظا عليهم ، ولكنهم لا يدخلون فيها . ويدخلها الكافرون الجاحدون وهم فيها خالدون ، وينجو منها الاتقى بصنفيه : الأبرار والخالطين التائبين ، وانما صرح دخول المصّر في الاشقي لان الخالط التائب له شقاء ، وكفى بالنادم ومحاسبة النفس شقاء عظيما لمن يعرف قدره . وصح دخول الخالطين التائبين في قسم الاتقى لانهم اعظم تقوى من المصيرين . وفي المصيرين على بعض السيئات شيء من التقوى يصدهم عن بعضها كما هو ظاهر . فالخالط التائب والمؤمن المصّر على خطيئة - اذا لم تحط به خطيئته - كل منهما يشارك صاحبه ويفترقه ، وبذلك اكسب كل صاحبه وصفه والخالط التائب له شقاء بالنادم والاسف فيشارك المصّر في ضرب من الشقاء ، ويكون المصّر اشقى منه . والمصّر فيه شيء من التقوى بالايمان فيشارك التائب في التقوى ، ولكن التائب انقى منه .

وما اجمل مقاله الامام الغزالي في مثل هذا ! واتا تأتي بعبارة قال : « كل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي من عهده مالم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرب الذنوب انما اريد ليكون باعثا على تركها . فمن لم يتركها فهو فاقد لهبذا الجزء من الايمان . وهو المراد بقوله عليه السلام : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن .

مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٥﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٦﴾

« وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع الى علوم الكاشفة : كالملم بالله ووحدياته وصفاته وكتبه ورسله ، فان ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي . وانما أراد به نفي الإيمان بكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت. كما اذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله . فاذا تناوله ، يقال تناوله وهو غير مؤمن ، لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيا وغير مصدق به ، بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك . فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا .

« فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان ، وليس الإيمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا : أعلاها شهادة أن لا اله الا الله ، وأدناها إمطة الأذى من الطريق . ومثاله قول القائل : الإنسان ليس موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا : أعلاها القلب والروح ، وأدناها إمطة الأذى من البشارة بان يكون مقصوص الشارب ، مقوم الأظفار ، نقي البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأروانها ، المستكرهة الصور بطول مخاليتها وأظلافها .

« وهذا مثال مطابق . فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكليّة ، كفقد الروح . والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة ، هو ككسبان مقطوع الأطراف ، مغفوق العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل للروح . وكما ان من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تملأها وتقويها ، فكذلك من ليس له الا أصل الإيمان ، وهو مقصر في الأعمال ، قريب من أن تقنع شجرة إيمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده . فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ، ولم تنتشر في الأعمال فرومه لم يثبت على حواصل الأحوال عند ظهور ناصبة ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة » ا هـ .

أفلا يجبر بمثل هذا أن يدخل في الأشقي الذي كلب وتولى هذا النوع من التكليب والتولي ؟

ثم ذكر الآتي بأفضل مواياه فقال : (الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) الآتي بقسميه - سواء كان محسنا بئرا ، أو كان ظالما لنفسه تائبا - يعطي من ماله في سبيل الله ومرحمة الفقراء لا لفرض آخر مسوى انه يريد أن يتزكى ، وان تنمو نفسه وتتدرج في قوتها الروحية حتى تبلغ أشدها في الحياة الروحية ، فتستوى على عرش الانسانية تستخدم قواها الجسدانية فيما خلقت لاجله . فهو لا ينفق شيئا من ماله رياء الناس يطلب به مدحتهم - اللهم الا أن تكون هفوة من غير الإبرار - وينفق من ماله وليس لأحد عنده يد سابقة يحب أن يجازيه بها ، أي ينفق من ماله على شخص ، وليس لذلك الشخص عنده نعمة يريد مكافأته عليها .

أما إعطاء المال على وجه الكفاية ، فهو ضرب من المعاملة والتجارة الدنيوية لا يتفاضل به الناس في الخير ، وانما يريد المحسن والمخالط بما ينفق وجه ربه الأعلى . أي يرغب مرضاته .

والعبارة معروفة في تخاطب العرب ، يقال : فعلت كذا ابتنى وجه فلان ، أي لم يحملني على الفعل الا اجلاله وقصد مرضاته وخيفة الوقوع فيما يفضيه ، ولذلك

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝

أبج الآية بقوله : (ولسوف يرضى) . أى سوف يرضى الله عن ذلك الاتقى الطالب بصنعه ورضاه .

يجوز للتقى أن يعطى من ماله كمكافأة نعمة عليه لأحد من الناس ، لكن ذلك لا يكون إلا من آثار التقوى . بل الذى يعد من آثار التقوى ، هو بلل المال في سبيل الخير ، كما قلنا .

وقد يمرض لبعض الأفراد من قسم الاتقى أن يرأى في اتفاق ماينفق من ماله . لكنه يرجع فيندم ويتوب ، والتوبة تعود على العمل بالإخلاص ، وتبعت على العود إلى الاتفاق مع خلوص النية فيه لله تعالى ، فيصدق عليه أنه يؤتى ماله بتزكى الخ . والاستثناء في قوله **إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى** ، منقطع كما ترى . والتعبير بسوف لفائدة أن الرضا يحتاج إلى بلل كثير ، ولا يكفى القليل من المال لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهي .

ويفسر الاتقى والأشقى على النحو الذى سمعته تبطل تلك الإشكالات التى أوردها المفسرون في العصر . وما أشكل عليهم إلا تنقيدهم بالمادة في استعمال الفاظ كذب وتولى ، وتحكيمهم مبادئهم وأصطلاحاتهم التى وضعوها من عند أنفسهم لأنفسهم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . ثم أنهم يوردون هنا أسبابا للنزول ، وأن الآيات نزلت في سينما أبى بكر الصديق رضى الله عنه لأنه اشترى من أرقام المسلمين ضعفاء واعتقهم من ماله لا يبتغى في ذلك إلا وجه الله . ورووا غير ذلك وقالوا أن الأشقى هو أمية بن خلف . وقيل غير ذلك ، ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم نمنعنا من التصديق به مانع ، ولكن معنى الآيات لا يزال عاما — كما رأيت — والله أعلم .

سُورَةُ الضَّحَى مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَحَدُ عَشَرَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا

(**والضحى**) الضحى هو ضوء الشمس في شياخ النهار . (**والليل إذا سجد**) أى سكن وسكون الليل هو مانجده من سكن أهله ، وانقطاع الأحياء عن الحركة فيه . ولما كان السج أو السج من لوازم الظلمة جاء فيه بالماضى ، كأنجل في النهار بخلاف الفشيان في الليل ، فإنه مما يعرض له في الأوقات القليلة يشفى فيها الضياء

قَالَ ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝ وَلَسَوْفَ

كما سبق . اما الضياء فيملك اغلب اجزاء الزمن . (ماودعك ربك وما قل) اي ما ترك ربك وما ابغضك . وقرىء ودعك بالتخفيف ، وهي كذلك بمعنى تركك . يقال فلاة بقله ، وفلاة بقله ، كرماء يرميه اي كرهه وابغضه . (والآخرة خير لك من الاولى) اي ولنهاية امرك خير لك من بدايته . (ولسوف يعطيك ربك) من توارد الوحي عليك بما فيه ارشاد لك وتقومك ، ومن ظهور دينك ، وعلو كلمتك ، واسعاد قومك بما تشرع لهم ، واعلائك واعلانهم على الامم في الدنيا والآخرة . (فترضى) بما تراه حسن لك النعم التي ليس وراءها مطلب لطالب .

انفتحت الروايات على ان سبب نزول هذه السورة هو حصول فترة في توالي الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فظن او توهم او قيل ان الله قد تركه فلاة ، ثم اختلفت فيمن ظن او توهم او قال . ولا حاجة لنا بذكر ما اختلف فيه . فان من المحقق - وهو الذي يرشد اليه اسلوب السورة الشريفة - ان الله اراد ان يلقي الطمانينة في نفسه عليه السلام بتأكيد تلك الاخبار التي ذكرها واحدا بعد الآخر ، وان يستدل له على ان هذه الاخبار لا ريب فيها بما سبق من فضل الله عليه . فالذي يعطف عليه بمنابته فيما سبق لا يزال يؤيده بتلك العناية فيما يلحق . ثم انه رتب على سيوغ تلك النعم امره لشخصه الكريم بتلك الاوامر التي جاءت في قوله : (فاما اليتيم) الخ .

وليس في نسق السورة ما يشير الى ان المشركين او غيرهم يفرحون من الخطاب . ومن اين كان المشركين ان يعلموا فترة الوحي فيقولوا او يطعنوا ، ولكن ذلك كان شوق النبي صلى الله عليه وسلم الى مثل ما رأى وما فهم من الله ، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه . وكل شوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف . وهو صلى الله عليه وسلم بشر يعلم به من البشر الوحي وحده كما ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من الكتاب نحو قوله : (قل انما بشر مثكم نوحى الي) الخ .

وقد جاء في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم حزن لفترة الوحي حزنا غدا منه مرارا كي يتردد من رؤوس شواهد الجبال ، ولكن كان يمنعه تمثيل الملك له واخباره بأنه رسول الله حقا كما ياتي ذكره في سورة « اقرا باسم ربك » فذلك هو القلق والفرع الذي يحتاج الى ما به تكون الطمانينة ، فاتاه الله ما كان في شوق اليه ، وتبته بالوحي ، وبكثرة ان تلك الفترة لم تكن عن ترك ولا من قلبي ، واقسم له على ذلك ، واشار في القسم الى ان ما كان من سطوع الوحي على قلبه اول مرة بمنزلة الضحك ، تقوى به الحياة وتتمو به التاميات ، ومعرضي بعد ذلك فهو بمنزلة الليل اذا سكن لتستريح فيه القوى وتستمد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل .

ومن المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم لاقى من الوحي شدة في اول امره حتى جاء الى خديجة رضى الله عنها ترجف بواذنه كما هو معروف في حديث الصحيحين وغيره ، فكانت فترة الوحي لتثبته عليه السلام وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى منه حتى تتم به حكمة الله تعالى في ارسائه الى الخلق . ولهذا قال له : (والآخرة خير لك من الاولى) ، اي ان كرة الوحي ثالثة سيكمل بها الدين ، وتتم بها نعمة الله على اهله . وابن بداية الوحي من نهايته ؟ وابن الاجمال الذي جاء في قوله « اقرا باسم ربك الذي خلق » الخ ، من تفصيل العقائد والاحكام الذي جاء في مثاني القرآن ؟ لا زاد الامر

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝ وَوَجَدَكَ

تأكدوا بقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) على ما بيناه ، كانه عليه السلام كان يجد في نفسه ان الامر تنمة لم تات بعد . وكان في الفترة ابطاء بتلك التنمة ، وهو ضَعْفٌ بحصولها ، فلم تكن نفسه راغبة دون ان يبلغ ماعده له من اكمال دينه ، فاكد له الوعد بانه سيُعْطيه مما تتطلع نفسه اليه ، ولا يزال يُعْطيه حتى يرضى . ويعين عباده المؤمنين بقوله تعالى («الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا») . وقد كان ذلك في اكثر من عشرين سنة ، فاستعمل حرف التسوييف لذلك .

والعنفري هنا كلام في الشفاعة وفي تكريم آل بيت النبوة حشروه في التفسير حشرا ، واكثره بعد من روح الدين الذي جاء به القرآن ، والاليق به كتب المذاهب التي ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم .

(الم يجدك يتيما فآوى) التعبير بلم يجدك ووجدك على متعارف الخطاب في لسان العرب : أى لم تكن كذلك وكنت كذلك . وأصل المعنى في وجدة ، فلانا كريما مثلا اننى لم اكن اعرف منه الكرم فعرفته . وذلك لا يكون في جانب الله تعالى لكنه استعمل في الاخبار بالكرم ونحوه . او المعنى الم يعلم يُفَكُّ وضلالك الخ . والاستفهام على كل حال للتقرير ، أى انك كنت كذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم يتيما لان والده تُوُفِّي في المدينة وهو حمل في بطن امه ، فلما وضعت عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب وقلب مريم حليمة على يتيمه ، وكفله جده خير كفالة ، ثم مات جده وهو في سن ثمانى سنين فكفله عمه أبو طالب بوصية من ابيه عبد المطلب . وكان شديد العناية به في صغره ، عظيم المحبة له في كبره ، ومازال يحبيه وينصره بعد ان اكرمه الله بالنبوة حتى قُبِسَ . وتجرأت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه حتى اضطرت له الى الهجرة الى المدينة ، فذلك ايواء الله لنبيه وهو يتيما .

(ووجدك ضالا فهدى) نشأ صلى الله عليه وسلم موحدا لم يسجد لصنم ، وطاهر الخلق لم يقترب فاحشة حتى عُرف بين قومه بالامين . فضلال الشرك وضلال الهوى في العمل كانا بعديين عن ذاته الكريمة ، يهربان اللغو من نفسه القويمة . نَزَّهَهُ اللهُ عَنْهُمَا من اول امره ليُعْلَى منزلته عند من يُرْسَل اليهم ، فيسمعوا قوله ، ويهتدوا بهديه . ولكن للضلال انواع اُخر : منها اشتباه المآخذ على النفس حتى تأخذها الحيرة فيمسا ينبى ان تختار .

وقد عُرف صلى الله عليه وسلم فساد دين قومه من مشركى العرب ، ولكن كان بين يديه دين التصريعية على ما كان عليه اهلها ، ودين اليهودية . وكلاهما دين توحيد ، وفي كليهما شريعة لنبي . فهل في اختيار احد الدينين مصلحة له وقومه ؟ وهل في الدعوة الى ما يختار منهما فلاح لنفسه ولشعبه وهو عليه السلام أم لا يقرأ الكتب ، ولا يعرف ما حوَّته تلك الاديان من الاحكام والشرائع ؟ كيف كان يصلح ذلك واهل كل من الدينين لم يكونوا في حالهم ارشد من قومه ؟ فكان شيء من الشرك يشوب عقائدهم ، وكثير من السيئات والجرائم تُدنس اسمعالمهم . وحجتهم على الاقامة عليها ما ينسبونه

عَايِلًا فَأَعْتَى ❷ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ❸ وَأَمَّا

الْيَتِيمَ مِنْ نَفْسٍ أَوْ تُكْوِلَ .

وأعظم أنواع الضلال كانت الحيرة في أمر العرب أنفسهم ، يراهم صلى الله عليه وسلم في سخافة عقائدهم وضعف بمسائرهم باستيلاء الأوهام عليهم ، وفساد أعمالهم ، وشؤم تلك الأعمال في أحوالهم ، وتفرق كلمتهم ، وتفانيهم بتسافك الدماء ، وإشرافهم على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم ، وتحكم الأجانب فيهم . الحشنة ثم الفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر . ثم هم في غفلة عن مصيرهم ، يتفرون من الليل ويمدون أيديهم إلى أسبابه ، ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه .

فما العمل في تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم ؟ وإى طريق ينبغي أن تسلك في إيقاظهم من سباتهم ؟ ومن أى الأبواب يمكن أن يدخل إلى قلوبهم ؟ ما أشدها حيرة على الصديقين ! وما أعظمها ظلمة تفتى السالكين من أهل الصدق واليقين ، إلى أن يكشفها الله بالنور البين ! وهى حيرة لم يكمل الحظ من شرفها إلا للنبين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

فهذا هو الذى عناه الله بالضلال في هذه الآية الكريمة . وما أعظم الهداية في ذلك الضلال ! وما أجدره بالكمل من الرجال !

وبعد هذا وهذا من اهتدى إلى الله وعرف أنه خالق الخلق كلهم ، وآتاه وحده المستحق للعبادة دون أحد منهم . هل يدرى بنفسه بغير وحى الهى كيف يعيده ؟ وبأى وصف يصفه ويمجده ؟ والناس من حوله قد شبهوه بخلقهم ، وقاسوه على ما يعرفون من صنعه . أفلا يحار الواحد كيف يصف ربه ، وبأى الوسائل يطلب قرينه ؟ كل هذه الغروب من الحيرة كانت من حظها عليه الصلاة والسلام قبل أن تطلع عليه شمس النبوة . وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويتلمس هداية ربه في جوانب قلبه إلى أن سطع عليه نور الوحى فانتشله من هذا كله ، واختار له دينا قويا ، وعلمه كيف يرشد قومه ، وسر له الطريق في تخليصهم وتخليص العالم معا . كان فيه من فساد العقل وسوء العمل ، وهذاه إلى وصف ذاته بما يليق بدلته . وإى ثمرة اكبر وأجل من هذه الثمرة ؟

هذا هو معنى قوله (**ووجدك ضالا فهدى**) ، وهو معنى قوله في سورة الشورى « **وكنك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تعلمى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا واذك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور** » .

وليس في وصف النبى عليه السلام بالضلال على هذا المعنى كسب له أو خط من شأنه ، بل هذا هو فخره عليه السلام واكليل مجده : لم يكن مائلا فطمعه الله ، ولم يكن مظلما الى الغيب فاطلمه الله . وبهذا التفسير تستفتى عن خلط المغررين في التأويل .

(**ووجدك عائلا فاغنى**) العائل الفقير . وقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا لم يترك له والده من الميراث الا ناقة وجارية ، فآفاه الله بما ركبه في التجارة ، وبما وجبه خديجة من مالها . فمن آواك في بيتك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك . لا يتركك في مستقبل امرك . من ذاق مرارة الضيق في نفسه فاجبر به ان يستثمرها في غيره فيمنحه ما كان

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٦﴾

هو يصدد أن يستمنحه . كان صلى الله عليه وسلم يتيمًا فباعده الله عنه كُلَّ الْيَتِيمِ وآواه . فما أجده عليه السلام بأن يكرم كل يتيم شكرًا لله على نعمته !

لهذا قال الله (**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**) أى فلا تذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ، وحذبه بمكارم الأخلاق ليكون عضواً في جماعتك بنفعها وتنفع به ، ولا يُفْسِدُهُ التذليل والهوان فيكون جُرُومة فساد يتعدى إذاها إلى كل من يخالفها من امتك .

ولو علم الناس ما في أعمال تربية الأيتام من الفساد في الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم في كتابه فُدِّرها ، ولَبَّدُوا من سعيهم ومن ماله في إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا . ولو أَحَسَّ كل واحد بأن الموت قريب منه ، وأنه هدف ليله لا يدرى متى يأخذه من ولده فيتركه : أَمَا فَنِيَا يَأْكُلْ مَالَهُ الْأَوْصِيَاءُ ، أو فقيراً يستبدله الأديان - لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم .

كان صلى الله عليه وسلم حيران فأنقذه الله من حَيْرَتِهِ . فمن حق رعاية هذه النعمة أن يُرَوِّفَ بالحاترين . لهذا قال الله له (**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ**) . والسائل هو المستفهم عما لا يعلم ، وليس هو طالب الصدقة (١) ، فإن هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنواناً للفقير والسكين ، بل جرت سنة الكتاب المبين على ذكرهما بوصفهما . ثم أنه لا معنى لِحَثْلِهِ مقابل لقوله (**وَوَجَدَكَ ضَالًّا**) بل كان من حقّه أن يكون مقابلاً لقوله (**وَوَجَدَكَ عَائِلًا**) على أنه لا يصح أن يكون مقابلاً لهذا لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن سائلاً قط . ومعنى **لَا تَنْهَرْ** لا تزجر ، أى لا تزجر سائلاً مستفهماً مسترشداً ، وإن صَمَّفَ عقله وعَمَلَّمْ جَهْلُهُ ، فقد ذُفَّتْ من أَلَمِ الْيَجْرِ ما يَعْطِفُكَ على التحيرين ، طَلَبَ الإرشاد في العلم والدين . وقد اخترعوا أحاديث في السائل لا أصل لها وبنتزه صلى الله عليه وسلم من أن تنسب إليه .

من عادة البخلاء أن يكتسبوا ماله من تقصير لهم الحجة في قبض أيديهم من البذل ، فلا تجدهم إلا ساكنين من القِلِّ . أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لكأ أنقاض عليهم من رزقه . فلهذا صَحَّ أن يجعل التحديث بالنعمة كناية من البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين .

لهذا هو قوله (**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**) أى أنك لما عرفت بنفسك ما يسكون فيه الفقير فإوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفخفة التي ينتزه عنها النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يُعَرَفْ منه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ، ولكن الذي شَرَّفَ عنه أنه كان يُنْفِقُ ما وَهَدَهُ وَيُبَيِّتُ طَوِيًّا .

وقد يقال إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (**وَوَجَدَكَ عَائِلًا**) ، فتكون النعمة بمعنى الفقر ، ولو كانت بمعنى النبوة لكانت مقابلة لقوله (**وَوَجَدَكَ ضَالًّا**) ، وقد علمت الحق في مقابلة . والله أعلم .

(١) علمنا أن الاستاذ الإمام رجع لعلم من رآه هنا في تفسير معنى (السائل) د

سورة الشرح مكية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ

(الم نشرح لك صدرك) . الشرح التوسعة والبسط وعظم الصدر من الجسم ، كان عند العرب دليل القوة وعظم الإثنية ، وكثيرا ما يفتخر مفتخرهم بعظم صدره ، ولهم الحق لانه يعطى الاحشاء فسحة للنمو مع الراحة . والقوى قاهر لا يتناهب ، فهو في مسرة وحضور راي دائما ، لا يضيق ذمعه بأمر . ولذلك كتوا بشرح الصدر من الميرة واتسلط النفس الى الفعل والقول .

وقد شرح الله صدر نبيه باخراجه من تلك الحيرة التي كان يضيق لها صدره بما كان يلاقيه في سبيله من جمود قومه وعنادهم ، فكان يلتمس الطريق لهدايتهم ، فعلمه الله كيف يسلك الى نفوسهم ، وهداه بالوحي الى الدين الذي يخلصهم به من الهلكة التي كانوا اشرفوا عليها .

وقد كان ما بهم من أمرهم حثلا ثقيلا عليه ، فوضع الله عنه ، واراحه من ثقله بقيادة الله له في سبيل نجاتهم ، وتمهده بالوحي كلما التبس عليه أمر أو ضاق عليه مذهب .

فبهذه الهداية التي تكفل له بها قد وضع عنه ذلك اليأس الثقيل كما قال (ووضعتنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك) والوزر هو الحمل . وانقاض الظهر إن يحدث فيه صوت الانتقاض والانفكاك . ونقيض الظهر الصوت الذي يحدث فيه لتقل الحمل وهو معروف . والكلام على التمثيل ، فان ما كان يعمل على السلام من نقل الاهتمام بشأن قومه ، وشيق المذاهب بين يديه قيل نواتر الوحي عليه بالارشاد ، لم يكن ثقلًا حثيًّا ينقض منه الظهر ، ولكنه كان كَمَا نفسيا يفوق المسك ألم ذلك النقل الحثي المثل به . فصير من الهم الذي تبخع به النفوس بالحمل الذي تقصم له الظهور .

هداه الله الى اتقاده — بل أهم كثيرة — من رقى الأوهام وفساد الإحلام ، ورجع بهم الى الفطرة السليمة : حرية العقل والإرادة والإصابة في معرفة الحق ومعرفة من يقصده بالعبادة ، فأتحدت كلمتهم في الاعتقاد بالله الواحد ، فاستخلصوا حياة كانت في مخالب الموت كما قال (وكنتم على شفا حفرة من النار فقلدكم منها) . فمن كان هذا عمله فأى ذكر أرفع من ذكره ؟ وأي شأن أعلى من شأنه ؟ هذا الى ما فرض الله من الاقرار بنبوته والامتراف برسالته بعد بلوغ دموه وجمالها شرطا في دخول جنته . فهذا هو قوله تعالى : (ورفعتنا لك ذكرك) . والايان بالجار والمجرور ، لك وعنك و تقدبمه

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾

على المفعول في الآيات الثلاث لزيادة التقرير والإسراع بالتبشير .

هذا الذي منحناه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر - بعد ضيق الأمر واستحكام حلقت الكرب في أول السير - كان على ما جرت به سنتنا في هذا النوع من خليقتنا ، وهو أن مع العسر يسرا . ولهذا وصل العبارة بالغاء التي لبيان السبب في قوله : (فإن مع العسر يسرا) . الب في العسر للاستغراق ، ولكنه استغراق المجهود عند المخاطبين من أفراد أو أنواعه . فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل إلى المطلوب ونحو ذلك مما هو مجهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن بعد ذلك في معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الحيرة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصلصة الأولى - فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى أتاه الله ما هو أكبر من ذلك ، وهو الوحي والنبوّة . ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئا من عزيمته ، بل مازال يلتمس الضيق في الفقر ، والقلة في الضعف ، حتى أوتي من ذلك ما عجز أركان الأكاسرة والقيصرة ، وترك منه لأمته ما نصفت به أمصارا طوالا . وما كان أحقها بأن تتمتع بهذا الميراث الكريم لو بقيت أمة له حقيفة كما هي أمة له أسما ؛ ولكنها قطعت النسب بينها وبين مؤثرها فسلبها الله مآثرها لها من ميراث وأعطاه أعداؤها : شأن الله مع من لا يشعر بشرف بيته ومكانه من حبيب ، وإنما بقيت لها القباب وأسماء كما يبقى للسفهاء من آياتهم الأتقياء .

وكان في هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكان عليها أن تعرف أن مع العسر يسرا ، وأن وعد الله في ذلك حق ، وأن تقتدى بنبيها في طلب الوسائل للخلاص مما هي فيه وعندنا كتاب الله وحده هداية للمهتدي وقُدوة للمقتدي .

ولما كانت القضية موضعا للريب - خصوصا عند من أخذ الضيق بخفافه - أكدت بأن . ولما كان الشك برداد - بل قد ينتهي إلى الابتكار في بعض أنواع العسر - استأنف القضية نفسها ، وأعادها بلفظها فقال : (أن مع العسر يسرا) ولكن على أن يكون معناها أهم من معنى سابقتها .

قد تمتع أم أو أشخاص في ضرب من ضروب العسر من نوع ماسيق ، ثم يجدون الضعف من همهم من الخلاص مما اطبق عليهم منه ، فيدوم لهم العسر ، وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم . فإن اليسر الذي يصحب العسر عند هؤلاء ؟

ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه من المجهود ، كالمرض الطويل المفضي إلى الموت ، وكالزمانة التي تصحب الزمن من أول حياته إلى مماته ، فأي يسر جاء مع عسرها ؟

فجابت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الاشتباه في عموم السُّنة الإلهية . وذلك أن أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخلاص مما ينزل بهم - إذا كان مما يمكن كشفه - لا ريب في كشف العسر عنهم بنوع من أنواع اليسر ، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فَإِذَا قَرَعْتَ قَانَصَبٍ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝

أما الآخرون الذين لا بصيرة عندهم في تعريف تلك المواهب الإلهية ، بل يطلبون أن ينتهوا إلى الغايات بغير بدايات ، وأن يصلوا إلى المقصد بغير وسيلة ، فلا يستعملون عقولهم ولا عزائهم في دفع ما يحل بهم ، وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليه — هؤلاء يحسون بالآلم حيناً ، ثم تخفى نفوسهم وتقع في جحر من الاستكانة ، وتستقر فيها طمأنينة الرضى بما غمرها من القدر فتسلب الاحساس به . ثم إذا طال بها الزمن فيه تحول الآلم إلى لذة بالمعتاد . ولا عجب من تحول الآلم إلى لذة ، فانك تراه في شارب الدخان مثلاً يالم لأول مرة ، بل قد يأخذه الدوار وأشد الآلم الصداع ، ثم لا يلبث أن يكون عادة مرغوبة يالم أشد الآلم لتكررها .

ومن هذا تجد الأم التي تمودت على عسر الاستيداد والظلم قد الفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل فيه ، ولا تزال تخرج إليه . وكلما طلب إبعادها عنه اندفعت بالأقبال عليه . فهذا نوع من اليسر وإن كان أشام من العسر ، ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة إليه ؟

أما المرض الطويل الممتد إلى الموت ، والزمانة مما لا يمكن كشفه ، فكأن تقول أنه لا بدخل في أنواع العسر التي شملها استغراق المهمل . فان الاستغراق للعسر والضيق الممهدين وهما ما يمر بالخاطر إذا وقع الحديث على العسر أو الضيق ، وذلك هو الأنواع التي ذكرناها في تفسير الآية السابقة (فان مع العسر يسرا) .

وبالجملة فالعسر الداخل في الاستغراق ، هو كل ما تجد النفس ألم الوقوع فيه ، وتزعم إلى طلب الخلاص منه بالوسائل التي سكتها الله لذلك الخلاص . ولا ريب في أن كل عسر من هذا القبيل فمه يسر يسوقه الله إلى العامل الإمل العاقل جزاء عمله لتحقيق أمله واستعماله لو هبة عقله .

أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان في نحو قوله : (فإذا جاء أجلكم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وكذلك يقال في عارض يعرض للامة إذا حتم هلاكها كزلزال ونحوه ، والله اعلم .

وتكرير اليسر لأن الذي يأتي بعد العسر أي نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين — والتدبير بالمروية لتوثيق الإمل بأنه لا بد منه كأنه معه .

إذا علمت أن مع العسر يسرا ، فاعلم أن مع التعب في العمل النافع راحة (فإذا فرغت) من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك (فانصَب) أي خلد في عمل آخر وأصب فيه ، فانك تجد لذة الراحة عقب النَّصَب بما تجنيه من ثمرة العمل (وإلى ربك فارغب) . أي لا ترغب إلى أحد في استثمار أعمالك إلا إلى الله وحده .

والسورة مكية عند الجمهور ، بل زعم بعضهم أنها تنتم لسورة الضحى . وعلى هذا تكون الآية بشرح الصدر مبنية على عود الوحى ، والتبشير بما جاء في سورة الضحى .

وقال البقاعي أنها مدنية بناء على ما يفهم من التقرير بشرح الصدر وما بعده . وهذا إنما كان بعد ظهور القوة ، وبعد أن فتح الله على المسلمين ما فتح عليهم ، وأكمل لهم النعمة بطلبه حتمهم على باطل عدوهم ، والله اعلم .

سورة التين مكية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ

(هذا البلد الامين) هو مكة المشرفة ، ولقبه بالامين لان الله حرم فيه القتل والاعدام ، حتى للاشجار والنبات ماعدا بعض انواع منه استثنيت لحاجة الناس اليها ، فهو بلد مأمون الفائلة لا يضافه من يحمله . والقسم به للتنبؤ به بقدره خصوصا وهو مبث نور الاسلام .

(وطور سينين) هو الجبل الذي كلم الله موسى صلى الله عليه وسلم عليه . ويقال له طور سيناء بفتح السين وكسرها ، وقرئ سينين بفتح السين ، وهي لغة بكر وتميم . ويقال ان سينين والياسين والفلسطين وامثال هذا الوزن من لغة اهل اليمن وعرب الجنوب .

وسينين قيل اسم البقعة التي بجوار الجبل ، وقال الاخفش سينين جمع بمعنى شجر واحدته سينة ، وقيل غير ذلك . والقسم به لرفع ذكره والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التي ظهرت لموسى ولقومه ، وما كان بعد ذلك من سن الشريعة المؤسوسة وانزال التوراة .

(والتين) قيل جبل : دمشق ، ويسمى طور تينا ، لانه منبت التين . وقيل ان التين هو مسجد دمشق . وقيل هو مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي . وقيل هو موضع الكوفة لانه كان منزلا لنسوح عليه السلام . وقيل جبل ما بين حلوان وهمدان . والقسم به للتذكير بامر نوح وما اهله ، الله به اهل العجور والفساد واتجى الله المؤمنين الصالحين . واما على انه جبل في دمشق او مسجدها فلا نفهم للاقسام به حكمة ، بل يكون مما لا يعلمه الا الله .

(والزيتون) قيل هو طور زيتا ، وهو جبل ببيت المقدس . وقيل هو بيت المقدس نفسه ، وسماهم بالزيتون لكثرة شجر الزيتون فيما حوله . وبالجملة فعلى هذه الأقوال يكون التين والزيتون كناية عن مواضع ، وليس المقصود هو الاقسام بالاشجار نفسها ، وانما كثر بها من مفارستها .

وقال قليل من المفسرين ان الاقسام هو بالتوحيين لادانتهما التين والزيتون . قالوا لكثرة فوائدهما . ولكن دعى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الامين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد غير مفهومة . ولهذا رجح انهما موضعان ، وقد يرجح انهما النوعان من الشجر . ولكن لا لعوائدهما كما ذكرنا ، بل لما يذكرا به من الحوادث المظلمة التي لها الآثار الباقية في اسواق البشر .

قال صاحب هذا القول : ان الله تعالى اراد ان يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل ، من اول نشأته الى يوم يمته النبي صلى الله عليه وسلم . فالتين

الْأَمِينِ ① لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ②

إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإنه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين . وعند ما بليت له وزوجته سواهما طلقاً يخصصان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام ولورثته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر ، واهلك الله من أهلك منه بالطوفان ، ونجى نوحاً في سفينته ، واستقرت السفينة - نظر نوح إلى ماحوله فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض ، فأرسل بعض الطيور لعله يأتي إليه بخبر اكتشاف الماء من بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه بحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسر وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد اذن للأرض أن تعمر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد التبرؤات البشرية العظيمة في الأرض التي مكى عمرانها بالطوفان ... فعبر عن ذلك الزمن بزم الزيتون . والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة ، وهي من أكبر ما يذكر به من الحوادث .

وطور سينين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تمنتس جوانب الأرض بالوثنية . وقد استمر الأنبياء بعد موسى يمدون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع .

ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين وحجب نوره بالبدع ، وإخفاء معناه بالتأويل ، وأحداث ما ليس منه بسبيل . فكم الله على البكر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سببق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة ، وإليه أشل بذكر البلد الأمين .

وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يناسب التسمي والمتهيم عليه كما سترى .
(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) . التقويم : التعديل ، وكثيراً ما يطلق المصدر ويراد منه الزم ، أي في أحسن امتدال وأفضل قوام .

فيقسم جل شأنه أنه قوم الإنسان أفضل تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، واكد ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل ، كاتهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع المجمات : يفعلون كما تفعل ، لا يمنعونهم حياء ، ولا تردهم بحشمة ، خصوصاً وقد قال بعضهم : أن الإنبريان خلق ميلاً إلى الشر . فيقول الله سبحانه - يبيننا لفساد هذه المزاعم - أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفساً وبكناً ، وكرمه بالعقل الذي ساد به على العوالم الأرضية ، وأطلع به على ماشاء الله من العوالم السماوية .

وقد كان الإنسان في سلاجه بعيداً عن الأثرة ، حي القلب بالترحم - كما تراه في حال الاطفال - فعاش سعيداً ، وعاش أفراداً في نعيم الطمأنينة ... كان ذلك زمناً ما - وهو العهد الأول - وما أشبهه بشمرة التين تؤكل كلها ، ولا يرمى منها شيء .

والإنسان كان صلاحاً كله ، لم يشذ عن الجماعة منه فرد . تلك كانت أيام التناغم بما يسر من العيش ، وشدة الأحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر في تحصيله وفي دفع العوادي من النفس .

تنبهت الشهوات بعد ذلك ، وتخالفت الرغبات ، غثبت الحسد والوجد ، وبكمت التقاطع والتقاتل ، واستشرى الفساد بالأنفس حتى صارت الأمانة مند بعض الحيوان أفضل منها عند الإنسان ، فاتحطت بذلك نفسه من مقامها الذي كان لها بمقتضى

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝

الفطرة . وقد كان ذلك - ولا يزال - حال أكثر الناس .
فهذا قوله : (ثم رددناه أسفل سافلين) . أى سائرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المقترب مثلا إنما يصدر فى عمله من بظروته التى فطر عليها : لم ينزل من مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود . أما الإنسان فإنه بأعماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ، يتقلب ارتدلا من سائر أنواع الحي . وكثير ما قلت « إذا فسد الإنسان فلا تسلم مما يصدر منه من هذيان أو عدوان » .

ثم إن الذين ارتدوا إلى أسفل سافلين ، منهم من هلك فى زمن نوح أو فى أزمان آخر ، ومنهم من سيئلك - وهم فى تلك المنزل من الخيبة - فتسودم لهم كذلك فى الحياة الأخرى . وللسافلين فيها منازل العذاب والجزي والهون .
(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات ، وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر ، ويميز بينهما ، وأنه يجزى القائم على الشريعة بآيات الخير وتجنب الشر بالسعادة ، فلذلك يذلون على إيمانهم بالأعمال الصالحة - وهى معروفة عند عامة البشر - وجماعهم من العدل والاحسان . . . فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الانسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الامتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة فى الدنيا ، فإذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم إلى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع .

هؤلاء المؤمنون هم الأنبياء وأتباع الأنبياء ، ومن هدهم الله إلى دين الحق من كل أمة ، وهم الذين أكرم الله بهم النوع البشرى ، واستبقى بهم منزلته السامية فى عالمه ، وما تراه من الأمم من آثار باقية فأنما هو من آثارهم .
فإذا كنت ترى ذلك أبها الإنسان (فما يكذبك بعد بالدين) ؟ الذين ههنا هو خلوص السريرة للحق ، وقيام النفس بصلاح العمل . وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وبأئله إخوانه الأنبياء ، وهو استفهام إنكارى أى لا يوجد سبب يحتمل على التكذيب بالدين بعد أن هرب أن الإنسان قد خلق كريما ، وأن الذى يحفظ كرامته إنما هم المؤمنون الصالحون وهم أهل الدين الصحيح .

(أليس الله بأحكم الحاكمين) . أى هل تنكر أن الله أحكم من حكم وزير ؟ وهو استفهام إنكارى ماله أن الله أعلى المبررين حكمة . ولهذا وضع الدين لهذا النوع الإنسانى ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعطها الله له بأصل خلقته ، ثم هو ينحدر منها إلى المنازل السفلى بهجه وسوء تصرفه لهواه ، لذلك أرسل الأنبياء عليهم السلام من نوح ومن بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم . . . وبهذا يكون التفريع بالقاء ظاهرة .
وقد غير الدين بالجواز يوم القيامة ، وبينوا معنى الفاء بأنه إذا كان الله خلق الإنسان ، وأبتدأ خلقه بلا مثال ، أفلا يقدر على إعادته . . . وأنت تراه بعيدا من المعنى بعيدا محقيقا .
وأصول السورة ظاهر فى المعنى الذى بيناه - والله أعلم .

سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا تِسْعٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ ۝ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝

صح في الاخبار ان النبي صلى الله عليه وسلم اول ما مثل له الملك الذي يتلقى منه الوحي قال له الملك : اقرا . قال رسول الله : فقلت : ما انا بقارىء ! فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : اقرا . فقلت : ما انا بقارىء ! فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال : اقرا . فقلت : ما انا بقارىء ! فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، فقال (اقرا باسم ربك الذي خلق) حتى بلغ (ما لم يعلم) . قال الراوى : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . والحديث طويل ، وفيه ان الوحي قد فتر فترة بعد ذلك حزن لها النبي صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا منه مرارا حتى يتردى من رؤوس شواهد الجبال . ولكن كان يمنعه تمثل الملك له واخبره بانه رسول الله حقا . وفي هذا دلالة على ان (اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق) . اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) هو اول خطاب الهى وجهه الى النبي صلى الله عليه وسلم .

اما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعا ، وما فيه من ذكر احوال المكلفين يدل على انه انما نزل بعد شيوخه البعثة ، وظهور امر النبوة وتحرش قريش لابلائه عليه السلام . ثم هذا لا ينافي ان اول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي ام الكتاب كما بيناه في تفسيرها . ترى من سياق القصة التي قلعتها ان المتبادر من معنى الآية الاولى - كن قارئاً باسم الله - من قبيل الامر التكويني . فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولذلك كرر القول مراراً « ما انا بقارىء » ! وبعد ذلك جاء الامر الالهى بان يكون قارئاً ، وان لم يكن كاتباً ، فانه سينزل عليه كتاب يقرؤه وان كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، اى الذى اوجد الكائنات . فالتصنف بالصفات التى يظهر اثر للتصنف بها في ابداع الكائنات التى لا يحيط بها الوصف ، قادر ان يوجد فيك القراءة ، وان لم يسبق لك تعلمها ، لانك لم تكن تدرى ما الكتاب ، فكان الله يقول : كن قارئاً بقدرتى وبارادتى . وانما عبر بالاسم لانه - كما سبق في سورة مريم - دال على ما تعرف به الذات .

ولذلك وصف الله بلفظك الى الذات وصفاتها جميعاً ، لان القراءة علم في نفس حية ، فهى تخطف ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وارادته .
اما اذا حملنا الامر على التكليف ، وقلنا ان المعنى انك مأمور - اذا قرأت ان تقرا باسم

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٢﴾

الله ، وهو خلاف المتبادر - فيكون معنى ذلك هو ماينهاه في معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » في تفسير الفاتحة ، أى اذا قرأت فاتحاً دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه الله لا لغيره ، فلو فرض أنه قرأ وجعل قراءته لله لا لأحد سواه ، ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله . وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير في بداية كل عمل الى أن يرجع الى الله في ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . **والعلق :** الدم الجامد ، وهى حالة الجنين في الأيام الأولى لخلقه . ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد انساناً - وهو الحى الناطق الذى يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته - يقدر أن يجعل من الانسان الكامل - مثل النبى صلى الله عليه وسلم - قارئاً وان لم يسبق له تعلم القراءة .

جاء بهذه الآية بعد سابقتها ليزيد المعنى تأكيداً ، كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : ابقن أنك قد عرفت قارئاً بلذن ربك الذى اوجد الكائنات - وما القراءة الا واحدة منها - والذى انشا الانسان خلقاً كاملاً (١) من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الانسان الكامل فهى أولى بسهولة الإيجاد .

ولما كانت القراءة من الملكات التى لا تكتسبها النفس الا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة في الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهي عن تكرار المقروء في تصهيرها ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلهذا كرر الأمر بقوله : **(اقرأ وربك الأكرم)** . وجملة وربك النع ، استثنائية لبيان أن الله أكرم من كل من يُرتجى منه الإعطاء ، فيسّر عليهم ان يفرض عليك هذه النعمة - نعمة القراءة - من يحر كرمه .

ثم أراد أن يزيد اطمئناناً بهذه الموجبة الجديدة فوصف مانحها بأنه **(الذى علم بالقلم)** أى أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلم آلة جامدة لآلية فيها ولا من شأنها في ذاتها الأفهام . فالذى جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، الأ يجعل منك قارئاً مبيناً ، وتالياً معلماً ، وأنت انسان كامل ؟

ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه ، ويُبعد عنه استغراب أن يقرأ - ولم يكن قارئاً فقال : **(علم الانسان ما لم يعلم)** . أى أن الذى صوّب أمره بأن تكون قارئاً وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسبّغك فيها مبلغاً لم يبلغه سواك ، هو الذى علم الانسان جميع ما هو ممنوع به من العلم ، وكان في يده خلقه ليعلم شيئاً . فهل يستغرب من هذا العلم الذى ابتدأ العلم للانسان - ولم يكن سبق له علم بالمرء - أن يعلم القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ، وتفلسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟

ثم انه لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل اقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وإبتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات . فان لم يرتب المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى كُتبت عن ابصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤسائهم وحسبهم بها في ظلمات من الجهل . وان لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ... فلا أرسلهم الله ابداً ! هذه الآيات دلت على أن الله خلق العالم ، وعلى أن لا ينسب الخلق الى غيره - كما

(١) والذى انشا النع معطوف على الذى توجد الكائنات .

أَن رَّاهُ اسْتَغْفَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَىٰ الْهَدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ

ترشد إليه الآية الأولى - وأنه خلق الإنسان الحي الناطق معاً لحياته فيه ولا نطق ولا شكل ولا صورة ، وعلمه أفضل علم ، وهو الكتابة ، ووجه العلم ولم يكن يعلم شيئاً . فكل شيء للإنسان فهو منه ومن هبائه . فما أصبح ما يكون من الإنسان بعد ذلك من غفلته عن ذلك كله لمجرد أن يحس من نفسه اليقظة عن غيره !

ولهذا ناسب أن يؤتى بعد تلك الآيات المتقدمة بما نزل بعدها بسنتين كثيرة من قوله (كلا إن الإنسان ليطغى) . كلا كلمة زجر تنفيدي في الأغلب أن ما بعدها مخالف لآخر ما قبلها . أي ما أسخف عقل الإنسان ! فإنه مع ظهور أمره ، وشدة فقره في نفسه ، وظهور أن الله مالك كل شيء عنده ، يظنى ويخرج من الحد الذي يجب عليه أن يقف عنده ، فيستكبر عن الخشوع لربه ، ويتناول بالأذى على خلقه ، وذلك (أن رأاه استغنى) أي متى أحس من نفسه قدرة ولزوة بعد نفسه بهما فوق من دونه من الناس ، فلا يرى أنه معهم أعضاء جماعة واحدة ، يحتاج كل إلى الآخر في استدامة الأمن واستكمال السعادة . والاستغناء بهذا المعنى ، هو الرذيلة . وهو المذكور في قوله « وأما من بغل واستغنى » في سورة الليل .

أما اليقظة والقوة في إبدى الاتقياء فهما أعظم وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية . ولكن الاتقياء يرشدهم في تصرف ثروتهم وقوتهم العلم والدين الصحيحان ، والأغلب من عامة الناس يصرّفهم الهوى والشهوة ، لهذا أطلق الإنسان باعتبار الأغلب من أفرادهم وهم الذين يستغنون بالمعنى السابق .

ولما كان المفروض يظن أنه في سوء عمله إنما يصنع ما هو من حقه ، ضاعف له التأكيد ، فقال (إنه ليطغى) : أي أنه باستغنتائه يخرج عن حده قطعاً . ثم بين أنه واهم في طبيعته كاذب في زعمه إنه مالك ناصية القوة والقدرة لأن مافي يده عارية ، وليست نفسه بباقية ، ولا لها من الله واقية - فقال : (أن إلى ذلك الرجعى) أي المرجع . أي أن المرجع إلى الله وحده دون غيره ، فهو مالكك ومالكك ما تملكه ، وهو الذي ينتزع روحك فتخرج من هذه الحياة الدنيا إلى حياة يتكشف عنك فيها غطاء القنوط ، وتظهر في مظهر ذلك ، وتغاسب على ما أتيته أيام عزك .

بعد ذلك جاء الله لنا بمثل من أمثلة الطغيان ، وذكره على طريقة الاستغراب والتشجيع . ثم أعقب ذكره بالوعيد والتهديد ، فقال : (لرايت الذي ينهى عبداً أن صلى) . كلمة لرايت صارت تستعمل في معنى أخبرني . على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقي ، ولكن يقصد بها إتيان الحالة المستخبر عنها وتقييمها ، كما في قوله : لرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم الخ . فكانه يقول ما أسخف عقل هذا الذي يظنى به الكثير فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو في حالة أدائها . أما قوله : (أرايت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى) . فمعناه أخبرني عن حاله أن

كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٧﴾ كَلَّا
لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٨﴾ نَاصِيَةٍ
كَذِيبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٩﴾ فَلَيَدْعُنَا دِيعَهُ ﴿٢٠﴾ سَنَدْعُ

كان ذلك الطاغى على الهدى وعلى صراط الحق ، أو امر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة :
أفما كان ذلك خيرا له وأفضل ؟ !

وقوله : (أرايت ان كذب وتولى) . أى نبئني من حاله ان كذب وتولى . أى كذب
بما جاء به النبىون ، أو كذب بشيوت التفضيلة وأصل الفرق بين الخير والشر والصالح
والطالح . (وتولى) : أى امرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارة ،
ويصفيه من مذهب الله مالا قبل له باحتماله ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت
فى تفسير المعنى ، وهو من الإيجاز المحمود بعد ما دل على المحذوف بقوله : (ألم يعلم بأن
الله يرى) ؟ . أى أجول أن الله يطالع على أمره : فان كان تقيا على الهدى أحسن جزاءه
وأن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ؟

ثم ان ما يطيل به المفسرون فى القول الثانى لفعل أرايت الأولى ومفعولها فى الثالثة
والثالثة ، فهو مما لا معنى له ، لأن القرآن قدوة فى التعبير ، وقد استعملها بمفعول
واحد وبلا مفعول أصلا بمعنى أخبرني . والجملة المستكبر عن مضمونها تسد مسد
المفاعيل .

(كلاً لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) كلمة كلاً صدع بالزجر جديد ، أى لا يستمر به
غروده وجهله وطغيانه . فإني أقسم لئن لم ينته من هذا الطغيان ، وإن لم يكف عن نهى
المصلين من صلاته (لنسفعا بناصرته) : أى لتأخذ بها . والناصية شعر الجبهة ، أو
الجبهة نفسها . قال المبرد : السفع الجلب بشدة ، وسفع بناصرية فرسه : جلبه .
قال عمرو بن معدى كرب :

قوم اذا كثر الصباح رأيتهم مابين ملجم مفره أو سافح

والأخذ بالناصية هنا مثل فى القهروالاذلال والتعذيب والكنال . (ناصية كاذبة خاطئة)
إعاد الناصية على طريق البذل مع وصفها بالوصفين التابعين لها لزيادة التشنيع بها ،
وهى كاذبة لغروها بقوتها مع انها فى قبضة خالقها فهى تزعم مالا حقيقة له ، وخاطئة
لأنها طفت من حدها ، وعنت عن امر ربها ، وأسابت الى الصالحين من قومها . ونسبة
الكلب والخطيئة الى الناصية ، مع ان الكاذب والمخطيء صاحبها ، لأن الناصية مظهر
الغرور والكبرياء كما هو معروف . (فليدع ناديه) النادى : المجلس الذى يجتمع فيه
القوم ، ويطلق على القوم أنفسهم . أى فليجمع أمثاله ممن ينتدئ معهم ليمنع المصلين
المخلصين ، ويؤذى أهل الحق الصادقين ، فان فعل فقد تعرض لقهرنا وتسكيننا :
(سندع الزبانية) الزبانية فى أصل اللغة : الشرط وأعوان الولاة . قيل أنه جمع لاواحد
لوا . وقال أبو عبيدة : واحده زبينة بكسر فسكون كمغفرة . وقال الكسائي : واحده
زبني بالكسر كاتسي . وقال عيسى بن عمر : واحده زابن . وقد تطلق العرب هذا الاسم
على من اشتد بطشه ، وإن لم يكن من أعوان الولاة . قال :

مطاعم فى القصوى مطاعين فى الوغى زبانية غلب مقام طومها

أى سندعوا له من جنودنا القوى المتين الذى لاؤيل له بمغالته فيهلكه فى الدنيا

الزَّبَانِيَّةُ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

أو يُرَدِّدُهُ فِي النَّارِ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ صَافِرٌ . (كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) كَلَّا ، زَجْرٌ عَنِ الْإِسْفَافِ قَوْلُ الطَّاغِي ، فَلَا تَطْعَمُ الطَّاغِي إِذَا نَهَاكَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّكَ ، وَاسْجُدْ لَهُ وَاقْتَرِبْ : أَيِ تَقَرَّبْ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ ، وَلَا تَبْعِدْ عَنْهُ بِتَرْكِهَا .
ذَكَرَ الصَّلَاةَ فِي السُّورَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَقِيَّتَهَا نَزَلَ بَعْدَ فَرَضِ الصَّلَاةِ . فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ صَلَاةً قَبْلَ أَنْ تَفْرُضَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسَ الْمَعْرُوفَةَ . جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ : لَمَّا رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّيُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأُطَانُ عَلَى عُنُقِهِ . فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ مِنَ الْإِلَاقَةِ . وَفِيهِ نَزَلَتِ الْآيَاتُ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْآيَاتِ إِشَارَةٌ إِلَيْهِ وَلَكِنَّا عَامَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنٍ كَمَا تَرَى . وَالْخَطَابُ فِيهَا مُوجَّهٌ إِلَى مَنْ يَخَاطَبُ لَا إِلَى شَخْصٍ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

سُورَةُ الْقَدَرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَفْتَتِحِ سُورَةِ الدُّخَانِ ، وَهِيَ سُورَةٌ فَصَدَّ فِي مَفْتَتِحِهَا إِلَى ذِكْرِ الزَّمَنِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ كَهَذِهِ السُّورَةِ : « حَمِّ وَالْكِتَابِ الْبَيِّنِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ هُنْدًا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الْيَقِينُ » . وَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُكًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .
هَذِهِ هِيَ الْمَوَاضِعُ مِنْ ذِكْرِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الَّتِي جِيءَ فِيهَا بِالْإِشَارَةِ إِلَى زَمَنِ نَزُولِهِ .
قَالَ الشَّعْبِيُّ : الْمُرَادُ مِنْ نَحْوِ أَنْزَلْنَاهُ وَأُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْإِبْتِدَاءُ بِأَنْوَالِهِ ، خُصُوصًا وَالْقُرْآنُ كُلَّهُ ، وَالْجُمْلَةُ مِنْهُ وَأَنْ قُصِّرَتْ ، كُلُّ ذَلِكَ يُسَمَّى قُرْآنًا وَيُسَمَّى كِتَابًا . فَالضَّمِيرُ فِي أَنْزَلْنَاهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَالِدٌ إِلَى الْقُرْآنِ كَالضَّمِيرِ فِي أَنْزَلْنَاهُ الْعَالِدُ إِلَى الْكِتَابِ الْبَيِّنِ فِي آيَةِ الدُّخَانِ الْمُنْتَمِدَةِ . وَالْمُرَادُ بِأَنْوَالِهِ الْإِبْتِدَاءُ بِأَنْوَالِ شَيْءٍ مِنْهُ . وَهُوَ الْعَنِي مِنْ قَوْلِهِ « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » أَيِ ابْتَدِءَ فِيهِ أَنْوَالَهُ ، أَيِ أَنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ نَزَلَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَقَدْ جَاءَ فِي آيَةِ الدُّخَانِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ « سُورَةُ الْقَدَرِ » أَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْقُرْآنَ لَيْسَلًا لَا نَهَارًا، وَأَنَّهُ سُمِّيَ هُنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ ، وَوَصَفَهَا آيَةُ الدُّخَانِ بِالْمَبَارَكَةِ . وَقَدْ بَيَّنَّ سَبَبَ الْإِنْوَالِ فِي آيَةِ الدُّخَانِ بِقَوْلِهِ « إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » . أَيِ إِنَّا إِذْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

الْقَدَرُ ① لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ②

نوعاً ممتازاً بطبيعته، يفارق سائر الحيوان بفطرته، محتاجاً إلى التلميح والإرشاد بفريزته - قد كتبنا على أنفسنا أن نتعده بالإنذار على الرِّقَّةِ الرِّسْلِ، فانزلنا القرآن لأنذار الناس بما سيلاقون جزاء لأعمالهم، ولما تمعد عليه قلوبهم - توأبا أو عقاباً - في حياة أخرى بعد هذه الحياة . ثم بين بركة الليلة بقوله : « **فِيهَا يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** » . أي يُفَصِّلُ فيها كُلُّ حُكْمٍ من أحكام الدين ، ولا يقرر فيها من الأحكام إلا ما كان حكيماً يقف بك عند الحق ، ويبعد بك عن الباطل ، وينصرف بك عما فيه شقاؤك وفناؤك إلى ما فيه سعادتك وبقاؤك . ثم حقق له الصفة بقوله « **أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** » .

إذا كان الأمر من عند الحكيم العليم الذي من شأنه إرسال الرسل رحمة بعباده - وقد سمع توسل نبيه إليه في هدايتهم - فلا ريب تكون الحكمة أوله وآخره وباطنه وظاهره . ولا شك أن ابتداء نزول القرآن كان فرقاً بين الحق والباطل ، وكل ماجاء منه كان كذلك . ثم تَوَالَّى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع منازل فيها ، كما قال : **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** . فصيح إن ينسب إليها أنه يُفَرِّقُ فيها كل أمر حكيم ، لأن كل ماجاء فيها كان أمراً حكيماً فَرَّقَ به بين الحق والباطل ، وبدأ به لما يكون بعده من مثله ، كما صدق قوله : « **شَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ** » مع أنه لا يكون بينة وفارقاً بين الحق والباطل إلا ماظهر للناس منه ، وهو منازل وبلغ إليهم بالفعل ، أو كان بسبيل أن يُبَيِّنَ . فليس الأمر الحكيم الذي يُفَرِّقُ في الليلة المباركة إلا أمر الدين والأحكام الذي ساء في « **الْبُشْرَةِ** » « **هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ** » .

وهذه الليلة المباركة هي بعينها ليلة القدر ، فهي ليلة من شهر رمضان بلا شك ، كما يصرح به نص آية البقرة مع ما ينضم إليه من هذه الآيات . وكل تأويل يخرج عن ذلك فهو بعيد عن معنى النص ، بل لا يقبله إلا من يقول : أن الالفاظ العربية لا تدل على معانيها . . ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنها في شهر رمضان ولا نعينها من بين لياليه ، فقد اختلفت فيها الروايات اختلافاً عظيماً ، وكتاب الله لم يبيِّنْها ، وما ورد في الأحاديث من ذكرها إنما قُصِدَ به حث المؤمنين على أحيائها بالعبادة شكرًا لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضة فيهم في إثنائها ، ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات : فمن رَجَعَ عنده خبر في ليلة أحيائها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادة في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تعيينها ، وتشير إليه آية البقرة ، فاتها بجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ليذكر المؤمنين نعمة الله عليهم فيه .

فهي ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين فلا تكون ليلة زهو ولؤل وتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء يتسابق إليها المنافقون ، ويحلت أنفسهم بالبعد عنها المخلصون ، كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام - فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه ، ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل إن أصفوا إليه فاتما يصفون لنعمة نالته ، ثم يسمعون من الأقوال مالم يصح خبره ولم يحكم في الآخرين ولا الأولين

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ

أثره . ولهم خيالات في ليلة القدر لاتيقي بمقول الأطفال فضلا من الراشدين من الرجال .

ثم سُمِّيَتْ ليلة القدر : إما بمعنى ليلة التقدير لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ، وإما بمعنى العظمة والشرف من قولهم : فلان له قدر ، أى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة . وقد جاء بما فيه الإشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جليلة بجلالة ما وقع فيها من انزال القرآن ، فقال : (وما أدراك ما ليلة القدر) . أى وما الذى يُعَلِّمُكُم مِبلغ شأنها ونباهة أمرها ؟ (ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر) تكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أبى بالاستفهام الدال على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة المسلم به . ثم قال أنها خير من ألف شهر ، لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يتخبطون في ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفصيل عند النص ، وتفوّض الأمر في تحديد ما فضلت عليه الليلة بألف شهر إلى الله تعالى ، فهو الذى يعلم سبب ذلك ، ولم يبينه لنا . ولك أن تجرى الكلام على عاداتهم في التخاطب ، وذلك في الكتاب كثير ، ومنه الاستفهام الواقع في هذه السورة (وما أدراك ما ليلة القدر) ؟ فإنه جار على عاداتهم في الخطاب . والا فالعيسى الخبير لا يتع منه أن يستفهم من شيء فيكون التحديد بالألف لا مفهوم له ، بل الفرض منه الكثير ، وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر .

ثم أن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة ، فإذا قلت إخفاء الصدقة خير من اظهارها لم تعين درجة الأفضلية ، وهى درجات فوق درجات . وقد جاء في الكتاب في واقعة واحدة - هى واقعة بدر - أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة أو بشلالة الآلاف أو بخمسة آلاف كما تراه في الأنفال وآل عمران . فالعدد هناك لا مفهوم له كما هو ظاهر فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله .

ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال : (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا) . يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة ، كان في تلك الليلة : تَنَزَّلَتْ من عالمها الروحاني الذى لا يحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبعده صلى الله عليه وسلم .

والروح هو الذى يتمثل له مَلَفًا للوحى ، وهو الذى سُجِّيَ في القرآن بجبريل . وأما تظهر الملائكة والروح (بالذن ربهم) أى إنما تتجلى للملائكة على تلك النفس الكاملة بعد أن هيأها الله لقبول تجليها ، وليست تتجلى للملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم فذلك فضل الله يختص به من يشاء واختصاصه هو أذنه ومشيئته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام لأن الله يجلى الملائكة على النفوس لإحياء ما يريد منها ، ولهذا قال : (من كل أمر) أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده فيكون الإذن مبتدئا من الأمر على هذا المعنى . والأمر هنا هو الأمرى قوله : فيها ينزل من كل أمر حكيم أمرا من عندنا أنا نوصىك به . فالكلام في الرسالة والأوامر والإحكام

أَمْرٌ ۝ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝

لا في شيء آخر سواها ، ولهذا قال بعضهم : ان « هن » ههنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر ، ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عثر بالمضارع في قوله : **تَتَوَلَّى اللَّائِكَ** ، وقوله : **فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ، مع ان المعنى ماضى « لان الحديث من مبدأ نزول القرآن » لوجحين : الاول لاستحضار الماضى لمظلمته على نحو ما في قوله « **وَنَزَّلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ** » فان المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً . قال تايب شرا :

بما لاقيت عند رحي بطن (١)	الا من مبلغ فتبين فهم
بسهب كالصحيفة مسحوحان	وانى قد لقيت الفول تهوى
أخو سفر فخلى لى مكاتى	فقلت لها : كلانا نضو أين
لها كفى بمصقول يملئ	فشدت شدة تحوى فاهوى
صريما للبدلين والجران	فاضربها بلا دهش فخرت

والشاهد في قوله : فاهوى وقوله فاضربها في حكاية الماضى . والثاني لان مبدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب ، وما فيه من تفصيل الاوامر والاحكام ، كان فيما بعد . فكانه يشير الى ان ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين .

(**سلام هي حتى مطلع الفجر**) : أى انها كانت ليلة سائلة من كل شر واذى . والاختبار عنها بالسلام نفسه — وهو الأمن والسلامة — للمبالغة في أنه لم يشبها كدر ، بل فرج الله فيها من نبيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية والارشاد فاناله بذلك ما كان يتطلع اليه الأيام والشهور الطوال .

اما ما يقوله الكثير من الناس من ان الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان ، وان الأمور التى تفرق فيها هي الأرزاق والأصهار . وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر — فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا ان نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد به خير متواتر من المصوم صلى الله عليه وسلم . ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العزة ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة ، فانه لا يجوز ان يدخل في عقائد الدين لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في مقيدة مثل هذه والاكتنا من الدين « **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ** » . نموذ بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة : مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله وبعد من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر ان تقع فيها مثلهم — والله اعلم .

(١) رحي بطن : محل بالبادية . والسهب : الغلة . والمسحوحان : المستوى من الأرض . ونضو أين : أى مهزول من الأبياء والنسب . والأبيات من أكاليب العرب المروغة في الحكاية من القول ووصف ما يكون منها .

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

مَلَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا شَمَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ

هذه السورة مدنية على أرجح الأقوال .

كان الكثير الأغلب من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمشرىكين من العرب في ظلام من الجهل بما يجب الاعتقاد به والعمل عليه من شرائع انبيائهم وسلفهم ، وذلك لاعتمادهم — فيما يقتدون وما يعملون — على تقليد آباءهم .

وقد كان ليمن تقدم منهم من ادخل على الشرائع كثيرا بما ليس منها : إما بسوء الفهم ، وإما للعناد لإفحام الخصم ، وإما باستحسان عقولهم ضروبا من البدع يتوهمونها مؤيدة للدين مخففة لأمره ، وهى من أشد الاشياء ضررا بالدين . ثم جاء من بعدهم يزيد على ما وضعوه الى أن خفى الحق في ظلام الباطل ، ولم يزالوا كذلك الى أن جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فاخذت صيحته تشق تلك القبور ، ويده الكريمة ترفع تلك السطور ، فيسرى شماع من ضوء الحق الذي جاء به من خلال تلك الحجب الى ما وراءها من أعماق الضمائر ، فإذا أحسوا ببصيصه فرح به طلاب الحقائق في تلك الظلم ، وأراحوا عن أبصارهم غطاء التبهة ، ومثلوا بين يدى الداعى صلى الله عليه وسلم ملتبين دعوته طالبين هدايته .

أما أهل السناد منهم فيقع الزوال في اعتقادهم ، ويضعف جبل تقليدهم ، ولكنهم يشبثون في ضلالهم ، ويقولون لأنفسهم ولاخوانهم : هذا الذى يقوله الداعى ليس بالشىء الجديد ، ولم يترك الاول شيئا للآخر . وجميع ما يدعوننا اليه كان معروفا لنا ، مذكورا في كتبنا ، واردا في قول أسلافنا ، ولو لم يأت به لمرغناه واهتدنا اليه مما عندنا . ولكن مانحن فيه خير مما يدعو اليه . وينسجون من أوهامهم ما يبيعونه على الجهال ، كما هى عادة أمثالهم في كل زمان .

ففى الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الجاحدين الذين يجدون لاجع الحق فيعرفونه ، ثم يفيضون ميونهم من النظر اليه — نزلت هذه السورة ، فيقول الله : (لم يكن الذين كفروا) وجحدوا نبوتك بمناذهم . بعد ما يبينوا الحق منها . (من أهل الكتاب) اليهود والنصارى والصابئين الذين عرفوك وسمعوا أدلتك وشهدوا آياتك — لم يكونوا هم (والمشرىكين) أى وثنيين العرب ، (منفكين) من فغلهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عند ما قبلوا فيه آباءهم ، لا يعرفون من الحق شيئا (حتى تأتيهم البينة) : أى الحجة القاطعة

يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ وَمَاتَرَفَقَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ

الْمُنَجَّةُ الْمُنْعَى ، وهى هنا النبى صلى الله عليه وسلم . فمجيئه هو الذى أحدث هذه
الرَّجَّةَ فيما رُسِخَ من عقائدهم ، وتمكَّن من مواليدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم
ومُتَنَازَكَتِهِمْ بأنه كان شيئاً معروفاً لهم يصلون اليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق
أن يُبْعَثَ ، فإن ما هم فيه أجمل وأبدع ، ومتابعة الآباء فيه أشبهت إلى النفوس وأمتع .
تلك البَيِّنَةُ التى تُعَرِّفُهُمْ وجه الحق هى (رسول من الله) محمد صلى الله عليه
وسلم (يتلو صحفاً مطهرة) هى صحف القرآن وهى مطهرة من الخلط وَحَشَرُ الْمَلَائِكِينَ ،
فلهذا تمتعت منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معاً . وتلاوها : تلاوة ما فيها .
تقول حِفْظُ الصَّحِيفَةِ أو حِفْظُ الْمَصْحَفِ ، والمعنى حِفْظُ مَا فِيهِ . والنبى صلى الله
عليه وسلم - وإن كان أُتِيَ - فقد كان يتلو الكلام المكتوب فى تلك الصحف ، هذه الصحف
(فيها كُتِبَ قِيمَةٌ) . القِيمَةُ المستقيمة التى لا عوج فيها . واستقامة الكتب : اشتغالها على
الحق الذى لا يبطل إلى باطل « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » تَزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ » .

والكتب التى فى صحف القرآن ومصاحفه اما ان تكون هى ماصح من كتب الاولين :
كوسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاها الله فى كتابه عنهم ، فانه لم يات منها الا بما هو قويم
سليم . وقد ترك كتابة ما ليس فيه المَلَكُوتُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُ لِبَيَانِ بَطْلَانِهِ ، ولهذا
لم يجد الجاحدون لرسائله عليه السلام من اهل الكتاب سبيلا إلى انكار الحق ، وانما
فضلوا عليه سواء - او هى سُورُ الْقُرْآنِ ، فإن كل سُورَةٍ مِنْ سُورَةِ كِتَابٍ قويم . فصَحَفُ
الْقُرْآنِ او صحائفه وأوراق مصحفه تحتوى على سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ هى كُتِبَ قِيمَةٌ .
ولما كان لسائل ان يسأل : اذا كان هؤلاء الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين قد
انفكوا من ذلك الظلام المظلم ، وبُكِّلَ لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالهم
لم يؤمنوا بهذا الحق الذى جاءهم ؟ أجاب الحق بأن اهل الكتاب قد جاءتهم البَيِّنَةُ
والحجة القاطعة على الحق الذى لا يختلف وجهه بما أوحى الله به الى انبيائهم ، وكان من
حَقِّهم أن يسترشدوا بِكُتُبِهِمْ فى معرفة سبيله حتى لا ينصرفوا عنه ، فاذا عَرَضَ لاحدٍ
شُبُهَةٌ رجع فى كشفها إلى المعارف بمعنى الكتب ، ثم كان عليهم ان يحرصوا على تعلم
معانيها وفهم أساليبها ، وبعبارة أخرى لا يفضلهم فيها مفضل .. لكن هذه البينة
لم تُفِدْهم شيئاً ، فانهم اخلفوا فى التأويل ، وتفرقوا فى المذهب ، حتى صار اهل كل
مذهب يبطل مذهب اهل المذهب الآخر ، وكان ذلك بَقِيَّةً مِنْهُمْ ، واستمراراً فى الزلل ،
وامراراً على ما قاد اليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى : (وما تفرق الذين اوتوا الكتاب
إلا من بعد ما جاءتهم الْبَيِّنَةُ) على الْبَيِّنَةِ انبيائهم .

فيكون كان شأنهم فى النبى صلى الله عليه وسلم : جحدوا بَيِّنَتَهُ - كما جحدوا بينة
انبيائهم - بتفرقهم فيها ، وبُيْضِهِمْ بالتفرق عن حقيقتها . فان كان هذا شأن اهل الكتاب
فى بيئتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم امرقون بالجهالة ، وأسلم قبيدا للهوى منهم ؟
يقول الله من اهل الكتاب : (وما أُشْرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) . الواو فى قوله : وما أمروا أن

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ

الحال ومعنى (أمروا) : أى بلغت إليهم أوامر ، ووضعت لهم شرائع وأحكام .
والدين هو اذعان النفس لإلهها مع الخضوع له وامتنال أوامره فيما يطلب منها ،
واخلاص الدين لله تنقيته من أن يشركه فيه شيء بلا واسطة ، ولا مال ، ولا كرامة ،
ولا جاه . والحنفاء : جمع حنيف ، وهو من يتبع إبراهيم عليه السلام أو من يكون
على مثاله . والاصل في معنى الحنيف المائل المنحرف .
ولما كان الناس في زمن إبراهيم على وثنية واحدة ، وفارقم إبراهيم إلى التوحيد
وَحَدَهُ يُبَيِّنُ فِيهِ : حنيف ، أى مائل من الناس كافة .
ولما كان العرب قبل النبوة يزعمون أنهم على دين إبراهيم لِقِيَا بالحنفاه ، مع
ماخلطوا في دينهم ، وادخلوا عليه من عقائد الوثنية وعوائدها ، وخفى هذا على كثير من
الناس فظنوا أن الحنيف معناه الوثني ، وليس الأمر كما يظنون .
واقامة الصلاة : الايمان بها لاحضار القلب هيبه المبود وترويضه بالخشوع ، لا أن
نكون مجرد حركات ظاهرة ، فان ذلك ليس من الصلاة في شيء البتة . وابتداء الزكاة .
صرفها في مصارفها التي مَنَّها الله . وهذا هو دين الكُتُب القَيِّمَة ، أو دين الامة القَيِّمَة
المستقيمة .

ومعنى الآية إن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعننا كل فرقة اختبا ، وكان افتراقهم
في العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا
لأجل أن يعبدوا الله ، ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم ، فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة
لا يقلدون فيها أباً ولا رجلاً ، وإنما يحصلون من العلم ما يؤهلهم لنهجها ، مانلي في ذلك
عما عليه أهل الضلال من الأمم الأخرى ، وأن يخشعوا لله في صلاتهم ، وأن يصلوا مباد
الله بركاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر ، فما كان عليهم الآن
بجعلوه نُصَبَ أعينهم ، فرددوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ، ويحلوا به كل ما يعرض
أمامهم من المشاكل . ومتى تحكّم الإخلاص في الأنفس تسلط الانصاف عليها فسادت
فيها الوحدة ، ولم تطرق طوائفها الفرقة .

هذا معناه الله من حال أهل الكتاب . فما نقول في حالنا ؟ أحمنا بنباه كتابنا الشاهد
عينا بسوء أعمالنا في افتراقنا في الدين ، وأن صرنا فيه شيعا ، وملأنا محدثات وبدعنا
بهذا الذي تقدم هرفت أن الدين كفروا هم الذين اتكروا رسالة النبي صلى الله عليه
وسلم عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به ، وأن (من) في قوله : (من أهل الكتاب) للتبعيض ،
وأن معنى لم يكونوا مُتَّفِقِينَ ، أى لم يكن وجه الحق ليكشف لهم فيقع الزلل في
عقائدهم ، فينفكوا عن الفللة المحضة التي كانوا فيها حتى نالهم البيئة .
ويجوز أن يكون المراد من الذين كفروا - وأه اطم - أولئك الذين جعلوا شيئا من
دين الله تعالى عند ما جاءهم ، ولم ينظروا في دليله ، أو أضرخوا عنه - بعد ما صرنا
دليله - سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب ، وأن آمنوا بذلك وصدقوا .

فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ
الْبَرِيَّةِ ⑤ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑥ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ
عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

فإراد الله أن يذكر مبتدئاً على من آمن من هؤلاء ، فبين أن الذين كفروا — أي جحدوا
ما أوجب الله على عباده أن يمتدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي
العرب — لم يكونوا براجمين عن كفرهم وجحودهم هذا حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم
بطلان ما كانوا عليه من الكفر فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم في إرسال رسوله إليهم !
وهذا وجه آخر غير الذي قدمناه في معنى الذين كفروا وأنفكاهم . وبذلك أو هذا
ظهر معنى حتى ، وبطل جميع ما بهلدى به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن
الرائي السديد ، فصموا من القرآن سهلة ، وخرموا من فهم أهلها .

(نار جهنم) : هي دار العذاب في الآخرة ، وهي نار يجب علينا الإيمان بها ، والتصديق
بأن العذاب فيها أشد من العذاب في نار الدنيا ، كما يجب علينا أن لا نبث في حقيقتها ،
ولا يمتنع ، ولا أين يكون موضعها ، فذلك مما لا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، وليس
بمحال عقلي حتى نحتاج فيه إلى تأويل . (خالدين فيها) : أي لا يخرجون منها أبداً .
(أولئك) هؤلاء الذين كفروا وجحدوا الحق ، بعد ما عرضت عليهم حجتهم ، وظهرت لهم
حقيقته (هم شر البرية) : أي شر الخليقة . أي هم أفع وأساو ما خلق الله حالا لان
منكر الحق بعد معرفته ، وقيام الدليل عليه ، منكر في الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك
لروحهم ، جالب الهلاك إلى غيره . (الذين آمنوا) هم الذين سطع لهم نور الدليل ،
فاهتدوا به ، واذعنوا لما دل عليه ، فصدقوا من جاء به ، وهو النبي صلى الله عليه
وسلم (وعملوا الصالحات) لأن أذاعتهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ملكت
الحق قيادهم لعملا الأعمال الصالحة : من بدل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل
المال في أعمال البر مع القيام بفرائض العبادات ، والاخلاص في سائر شروب المعاملات .
(أولئك هم خير البرية) : أي هؤلاء المؤمنون الصالحون المحسنون هم أفضل الخليقة ،
لأنهم بمتابعة الحق — عند معرفته بالدليل القائم عليه — قد حققوا لأنفسهم معنى
الإنسانية التي شرعها الله بها ، وبالعامل الصالح قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله
قوام الوجود الإنساني ، وهادوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هادوا إليه من الخير
والسعادة ، فمن يكون أفضل منهم ؟

(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار) : الجنات هي مقارن الأشجار النضرة .
والعدن : الإقلمة ، والأنهار : جمع نهر ، وهو جدول الماء العظيم .

والمراد منها ههنا دار النعيم في الحياة الآخرة ، وهي كذلك مما يجب علينا الاعتقاد
به ، وأن النعيم واللذة فيها أكمل وأوفر من جميع لذات الدنيا ، وأنها دار خلد : أي أن
من دخلها من أهلها لا يخرج منها أبداً . وهو معنى (خالدين فيها أبداً) . ولا يجوز
لنا البحث في حقيقتها ولا أين موضعها ، ولا كيفية التمتع فيها ، فإن ذلك لا يعلمه إلا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٥﴾

الله (رضي الله عنهم) لانهم لم يخرجوا عن حدود شريعته ، ولم يهملوا العمل بسنته .
ورضا الله : تفضله واحسانه . (ورضوا عنه) لانهم يحمدون صنيعه فيهم ، واحسانه
اليهم بمساعدة الدارين . فانهم - بحسن يقينهم - يرتاحون الى امتثال ما يامر به في
الدنيا ، فهم راضون منه . ثم اذا ذهبوا الى نعيم الآخرة وجدوا من فضل الله مالا محل
للسخط معه ، فهم راضون عن الله في كل حال . (ذلك لمن خشي ربه) : أي هذا الجزاء
الحسن ، وهذا الرضا ، اما هو لمن كان قلبه بينا لخشية ربه والخوف منه .

أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ، ولا يزال يقع ،
فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك - وهو ان مجرد الاعتقاد بالوراة ، وتقليد
الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات كحركات الصلاة ، وامساك
الصوم ... مجرد هذا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
وان كانت قلوبهم حشوها حسداً والجهد والكبرياء والرياء ، وأفواهم يلوها الكذب
والنميمة والافتراء ، وتهم أعطانهم رياح الشجب والكيلاء ، وسراهم مسكن العبودية
والرق للأمراء - بل ولن دون الأمراء - خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب
الأرض والسماء ! كلا . . . لا يتناول حسن الجزاء . فان خشية ربهم لم تجعل قلوبهم ،
ولهذا لم تهلب من نفوسهم ، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشي ربه ، واشعر خوفه
قلبه . . . والله اعلم .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا شَامِنٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

(سورة الزلزلة) من السور المدنية . وهي سورة ارهاب وترغيب . قيل : أنها
نزلت لازالة ما وقع في نفوس كثير من المؤمنين من ان الخير القليل لا ينظر الله اليه ،
ولا يجازي عليه . وكذلك الصفائر من الذنوب ليست بشيء يلام عليه : كالكذبة والنظرة
ونحو ذلك . فإزال شبهتهم ، وكشف عنهم وهمهم ، وعرفهم أن لأشء من عمل الإنسان
يقوته : فالخير يجازي بالخير مهما صغر ، والشر يلقي جزاءه من الشر مهما نزر .

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) : أي أصاب الأرض ذلك الزوال الشديد والأهتزاز
الرائع المدهش . وهو قوله : ((يا أيها الناس اتقوا ربكم أن نزلة الساعة شيء عظيم)) .
(وأخرجت الأرض أثقالها) : أي أنها - لشدة الزوال والاضطراب - تشقت وثارت

أَشْتَاتَهَا ① وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ② يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا ③ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ④ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
الْأَنَاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ ⑤ فَهَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

باطنها ، فقلدت بما في جوفها من الانتقال : من كنوز ودقائق وأموات وغير ذلك مما
يكون في باطن الأرض .
ومثاله المشهور ما يرى الآن في الأراضي التي فيها البراكين « جبال النار » . فان
الزلازل يحدث والأرض تنشق وتنفذ بما فيها من نيران ومعادن ومياه ونحو ذلك ،
وهو قوله تعالى « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » .
(وقال الإنسان ما لها) ؟ من يكون من الإنسان شاهدا لهذا الزلازل يُجَدُّه مخالفا في
الشدة لجميع ماسبقه من أمثاله ، ولا يجد من عقله ما يهديه الى معرفة سببه وبُصْبِ
الدَّهْشِ . . فيقول : ما لهذه الأرض ؟ وما الذي وقع لها فوق ما جرت به العادة ؟
(يومئذ تحدث أخبارها) . يومئذ بلل من إذا . أى في ذلك الوقت - وقت الزلازل -
تحدثك الأرض أحاديثها . وتحديث الأرض تمثيل ، كما قال الطبري وجماعة غيره ،
أى إن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ، وما لم يُفَكِّد من الخراب يعلم السائل ويفهمه
الخير ، وإن ما يراه لم يكن - لسبب من الأسباب التي وضعتها الشَّيْءُ الإلهية - حال
استقرار نظام الكون ، بل ذلك (بد) سبب (أن ذلك أَوْحَى لها) . يقال : أَوْحَى له
واليه وَوَحَى له واليه ، والمعنى واحد .
أى إن ما يكون للأرض يومئذ إنما هو يأمر الله خاص . . قال لها : كوني خرابا ، كما
قال لها - عند إيجادها - كوني أرضا . فهذا أمر من الأوامر التكوينية التي هي كُنْ ،
فيكون ماصداً به أمر كُنْ .

والأوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها . وكثيرا ما تكون
الأوامر الإلهية التكوينية بأسباب تكوين الإنسان والحيوان والنبات ، فان كل كائن
منها إنما كان بتكوين الله . وقوله له : كُنْ ، فيكون . ولكنه وضع لذلك أسبابا من
التناسل والتوالد ، ولأمانع من أن يكون خراب الأرض في آخر عمرها بسبب من
الأسباب التي تهدم بناءها وتجعلها هباء منثورا . ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم
الوحي ، لأنها تأتي على خلاف ما عهد من أول نشأة الأرض .

(يومئذ يصدُرُ الناسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ) . يوم يقع ذلك الخراب العظيم لهذا
العالم الأرضي ، وتبدل الأرض غير الأرض - كما جاء في الآية الأخرى - يظهر ذلك
الكون الجديد : كون ذلك اليوم الآخر والحياة الأخرى ، فيصنُرُ الناسُ - بعد بعثهم -
أشْتَاتًا متفرقين مختلفين . يقال : صَنَرَ عن المدينة ، أى سافر منها . أى يذهب
الناس على اختلافهم : قَبَائِلُهُمْ ومَعْبَدُهُمْ ، مَحْسِنُهُمْ وَسُئِلُهُمْ ، لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ .
يروا - بضم الياء - أى ليرىهم الله جزاء أَعْمَالِهِمْ . يقال : عاش فلان حتى رأى عمله ،
أى جَبَى ثَمَرَةَ مَا فَعَلَ . وفي قراءة لروا - بفتح الياء - أى لِيُبْصِرُوا بأنفسهم أَعْمَالَهُمْ ،
أى مَا لَعَلَّ لَهُمْ جَزَاءُ عَمَلِهِمْ . (فَهَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا) . الذرة : النملة الصغيرة ،
وهي مثل في الصَّغَر . وقيل : اللر هو الهباء الذي يرى في ضوء الشمس إذا دخلت
من نافذة ، ومثقال الذرة وزنها ، أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه

خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝

ويجد جزاءه : لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم الى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا . أي أن عملاً من أعمالهم لا يُنَجِّيه من عذاب الكفر وأن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم على بقية السيئات الأخرى . أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء ، كيف لا ؟ والله جل شأنه يقول : « وَنُفَعُ الْوَازِنِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً . وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . نقوله : فلا تُظْلَمُ نفس شيئاً ، اصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء ، وأن كلا يؤقُّ يوم القيامة جزاءه .

وقد ورد أن حاتمًا يُخَفَّف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يُخَفَّف عنه لسورده بولادة النبي صلى الله عليه وسلم . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ، ولا يخفف منه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم .

علي أن كلمة الإجماع كثيراً مايتخلها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وجرراً يَلْقَوْنَهُ أنواء المتكلمين ، وهم لا يعرفون للإجماع الذي تقوم به الحجة معنى . فنبس مايصنعون ! (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر . فالأمتون يرون جزاء ماعملوا من شر إذا لم يكونوا تابوا عنه ، وليس الجزاء منحصرًا في العقاب في دار العذاب : فمنه ما يكون كذلك ، وهو الجزاء على الكبائر وترك الفرائض إذا لم تكنها التوبة الصحيحة ، ومنه ما يكون بنقص في درجة الكرامة : كجزاء الصغائر ، فانها — وإن لم تُدْخِل النار — ولكنها تترك منزلتك أحط من منزلة من تنزه عنها . وهذا شر تراه نقابل الشر الذي صنعتته — والله اعلم .

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا أَحَدِي عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝

(**والعاديَات ضُبحًا**) . العاديَات : جمع عادية ، من العَدُو ، وهو الجَرِي . والضُّبح : صوت اتفاس الخيل عند جريها . **فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا** ، وهي من شدة الجَرِي تُضْبَح ضُبحًا ، ويسمع لها زفير شديد .

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ

(فالغويرات صبحاً) . الموريات : جمع مورية من الإبراء ، وهو اخراج النار بنحو الزناد . والنقح : هو الضرب لاجراج النار ، كضرب الزناد بالحجر .

يذكر سبحانه وصفا من أوصاف الخيل العاديات يحصل لها عند العدو ، وذلك ربه بالفاء . وهو ما يكون من اخراجها النار بحوافرها أثناء الجري . أى يقسم بالعاديات التي يتطاير الشرر من حوافرها عند عُدوها وهي تقذف بحوافرها الأرض قدحا .

(فالغيرات صبحاً) . المغيرات : جمع مغيرة . من اغار على العدو إذا هجم عليه ليقته أو بأسره أو يستلب ماله . وهو وصف عرض اللخيل من الغابة التي اجريت لها ، أى أنها تقذف ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها لتهمج على العدو وقت الصباح — وهو وقت المفاجأة — لاخذ العدو وهو على غير أهبة .

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) . الأثر : التهييج وتحريك القبار . والنقم : القبار . والفعل معطوف على وصف المغيرات ، لأنه في معنى الفعل . كأنه قال فاللآلى اقرن صبحا فأثرن في وقت الصبح غبارا لشدة عُدوهم .

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) . أى فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ففرقته وشتتته .

اقسم بالخيل متصفة بصفاتها التي ذكرها ، آتية بالأعمال التي سبدها ، لينسوه بشاتها ويغلب من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ليؤمنوا بيقينها وتدريبها على الكر والفر ، ولتحملهم انفسهم على العناية بالفروسية والتدريب على ركوب الخيل والافارة بها ليكون كل واحد منهم مستعداً في أى وقت كان لأن يكون جزءا من قوة الأمة اذا اضطرت الى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته .

وكان في هذه الآيات القارعات ، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله : « **وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** » ، وفيما ورد من الأحاديث التي لا تكاد تحصى — ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل ، ويبحث القادريين منهم على قبضة الخيل على التنافس في مقاتلها ، وإن يكون من السباق عندهم يسبق بقية الفئوس اتقاناً . أغليس من أعجب العجب أن ترى أمثالها كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية الى أن صار يشار الى رآكها بينهم بالهزؤ والسخرية ، واخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد أخرى ؟ !

ليس من اقرب ما يستغرب أن اناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم ، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم من صفات الرجولة ، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشائهم اليهم بالبنان — عندما كنت اكلّمه في منافع بعض العلوم وفوائدها في علم الدين — أن قال : « اذا كان كل ما يفيد في الدين نعلّمه لطلبة العلم كان علينا إذن أن نعلّمهم ركوب الخيل » ؟ !

يقول ذلك ليفيجني ، وتقوم له الحجة على ، كان تعليم ركوب الخيل مما لا يلبق ، ولا ينبغي لطلبة العلم . وهم يقولون أن العلماء ورقة الانبياء . فهل هذه الأعمال وهذه

ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ

المقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب ؟ أنصف ثم أحكم .

يقسم الله بالخيال صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله : (ان الإنسان لربه لكنود) الكنود : هو الكفور . يقال : كند النعمة ، كفرها ولم يشكرها . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « الكنود الذي يأكل وحده ويضرب عبده ويمنع رفقده » . كأنه بذلك لا يعطي مما أنعم الله به عليه ، ولا يراف بعباد الله كما راف الله به ، فهو كافر بنعمة ربه .

غير أن الآية عامة ، والوارد منها ذكر حالة من حالات الإنسان التي تلازمه في أغلب أفرادها ، إلا الذين يروّضون أنفسهم على الفضائل . وهي حقيقة لا ريب فيها لأن في طبع الإنسان أن يستغرق فيما حضره فيصعب عليه أن يجعل نصب عينيه شيئاً من ماضيه ، أو مما عساه يستقبله ، فتحيط به الغفلة . فهو إذا غمرته من الله نعمته فغمرته بها غفلة ، وأدخلت إلى قلبه ضربة من قسوة ، وأحدثت في طبعه شوباً من جفوة .

وأكد الله هذا الخبر لزعم كثير من أهل الكنود أنهم شاكرون ، فأكد لهم الخبير ليرجعوا إلى أنفسهم ، ويمتنحوا أعمالهم ليتبين لهم أن القرور هو الذي فشهم في معرفة حالهم ، فيفزعوا إلى الله بالشكر ، ولا يكون الشكر إلا بالليل في الحق الذي يبقى أثره ، ويجعل عند العقلاء ذكره . ثم يزيد الأمر تأكيداً بقوله : (وإنه على ذلك لشهيد) ؛ أي وأن الإنسان لشهيد على كنوده وكفره لنعمة ربه ، لأنه بغفر بالقسوة على من دونه وبثوة الحيلة على من فوقه ، وبكثرة ما في يده من المال مع الحلق في توفيره ، ولما يفتخر بالرحمة وكثرة البذل والحيلى في اختيار المواضع — اللهم إلا أن يرد غشياً للسامع — وفي ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ، لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر النعمة — بل من آيات كفرها .

(وإنه لحب الخير لشديد) الخير : هو المال مثله في قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ » . وزعم وكثرة أن الخير — حيث وقع في القرآن — هو المال . وليس يصح في بعض المواضع . والشديد : القوي . ويقال : هو شديد لهذا الأمر ، وقوى له ، إذا كان معطيماً له قادراً على ضبطه . قال ذلك الزحطري وأطلق الحب ، وأراد به الكسب ، لأن كسب شيء والسعى في تحصيله إنما يكون كما ينشئ إذا كان منشؤه حبه . فقوة الإنسان واقتداره على تحصيل المال وتوفره إنما جاءت له من شدة محبته له ، لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال ، وهي في الحقيقة لكسبه . . لكن إذا عرض له سبيل لفعل ما هو خير على الحقيقة ، والنهوض بأمر مما طلبه الله منه ، تراه يصف وتضائل قوته حتى لا يستطيع أن يحطو خطوة في ذلك السبيل إلا من رجح ريقه . وقد فر الشديد بالخيال . والمعنى على ذلك : وأنه ليجل شحج بسبب حبه للمال .

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) . بعثرة ما في القبور : اخراج موتاهم منها . وتحصيل ما في الصدور : إظهاره وإبرازه ، بحيث لا يبقى سبيل إلى إخفائه . ومفعول يعلم محذوف ، حذف لتجول الفكرة في استحضاره ، ولو ذكر

مَا فِي الصَّدُورِ ❶ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ❷

فَرَبُّمَا مَرَّ عَلَى اللِّسَانِ دُونَ الْاَلْفَاتِ اِلَيْهِ . أَمَّا وَقَدْ حُرِفَ فَلَا تَجِدُ النَّفْسَ مُحِصَا
عَنِ الْبَحْثِ عَنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْكَلَامُ وَيُفْهَمَ . وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ بِعَثْرَةِ مَا فِي الْقُبُورِ وَتَحْصِيلِ مَا فِي
الصَّدُورِ . أَيْ أَفَلَا يَعْلَمُ الْكُنُودُ الْحَرِصُ مَا يَكُونُ حَالُهُ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى يَوْمَ تَكْشَفُ
السَّرَائِرُ ؟ أَفَلَا يَعْلَمُ ظُهُورَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْ قِسْوَةٍ وَتَحِيلٍ ؟ أَفَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ
عَلَيْهِ ؟ أَفَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُؤْتَى جَزَاءً مَا كَفَرَ نِعْمَةً رَبِّهِ ؟ !

(أَنْ رُبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) . اِنْ اَللّٰهُ خَبِيرٌ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ - وَفِي هَذَا الْيَوْمِ كَذَاكَ - وَلَكِنَّهُ
كُنِيَ عَنْ مَجَازَاتِهِمْ عَلَى مَا كَسَبُوا بِالْخَبْرَةِ بِهِمْ . كَمَا تَقُولُ فِي تَهْدِيدِ شَخْصٍ أَوْ وَعِيدِهِ
سَاعَرَفَ لَكَ عَمَلُكَ هَذَا مَعَ اَنْكَ تَعْرِفُهُ الْآنَ قَطْعًا . وَإِنَّمَا عَرَفَاتِهِ الْآتَى هُوَ ظُهُورُ السَّرِّ
الْمَعْرُفَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى « سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا » . مَعَ اِنْ الْكُتُبَ حَاصِلٌ مِنْهُ الْآنَ ،
وَاللّٰهُ أَعْلَمُ .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا أَحَدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ❶ مَا الْقَارِعَةُ ❷ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ❸
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ❹ وَتَكُونُ الْجِبَالُ

(الْقَارِعَةُ) اِسْمٌ مِنْ اَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ : كَالْحَافَةِ وَالصَّاخَةِ وَالطَّامَةِ وَالْفَاضِيَةِ . وَهِيَ
قَارِعَةٌ لِأَنَّهُ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِهَوْلِهَا . (مَا الْقَارِعَةُ) ؟ اسْتِفْهَامٌ عَنْ حَقِيقَتِهَا قَصِيدٌ بِهِ تَهْوِيلُ
أَمْرِهَا ، كَانْهَا - لَشِدَّةٍ مَا يَكُونُ فِيهَا ، مِمَّا تَفْرَعُ لَهُ النَّفُوسُ ، وَتَدْعُو لَهُ الْعُقُولُ -
بِمُغْثٍ تَصَوَّرُهَا . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) ؟ أَيْ : أَيْ شَيْءٍ يَمُرُّ بِكَ بِهَا لَا زِيَادَةَ فِي تَعْظِيمِ تِلْكَ
الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ ، كَانَ لِأَشْيَءٍ يَحِيطُ بِهَا وَيَفِيْلُكَ بِرِسْمِهَا . ثُمَّ أَخَذَ يَعْرِفُهَا بِزَمَانِهَا
وَمَا يَحْدِثُ لِلنَّاسِ فِيهِ ، فَقَالَ : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) الْفَرَاشُ : هُوَ ذَلِكَ
الطَّيْرِ الَّذِي تَرَاهُ يَتَرَامَى عَلَى ضَوْءِ السَّرَاجِ لَيْلًا . وَهُوَ مُثَلٌّ فِي الْخَيْرَةِ وَالْجَهْلِ بِالْعَاقِبَةِ .
وَالنَّاسُ مِنْ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُونَ مُنْتَشِرِينَ حَيْثُ هَلُمِنَ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْعَوْنَ ،
وَلَا مَا يَصْنَعُ بِهِمْ . وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى « كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .
(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) الْيَهْنُ : هُوَ الصَّوْفُ . وَالْمَنْفُوشُ : الَّذِي نَفَشْتَهُ
بِيَدِكَ أَوْ بِأَلَةٍ أُخْرَى فَفُرِّقَتْ شَعْرَاتُهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، فَهُوَ عَلَى حَالَةٍ طَيَّرَ مَعَ أَعْضَمِّ

كَالْعَيْنِ الْمَفْشُوشِ ④ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ① فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑤ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ②

ريح . والجبال لتفتتها وتفرق اجزائها ، لم تبق لها الا صورة الصوف المنفوش لابلت
ان تتطاير وتذهب .

ومن المعلوم ان ذلك هو اليوم الذي بتدبى فيه الحياة الآخرة وفيها تعرف مقادير
الأعمال وما تستحقه من الجزاء (فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) .
ثقل ميزانك : أى كان لك قدر وقيمة ، كانك اذا وُضعت في كفة ميزان كان لها بك
رجحان .

در وانما يكون المقدار والقيمة لاهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجحة ، فهو لاء
يجزون بالنعيم الدائم . ولا ريب في ان ميسرتهم فيه تكون معيشة تمتع ولذة وهى
التي تسمى العيشة الراضية الهنيئة .

(واما من خفت موازينه فامه هاوية) . خف ميزانك : سقطت قيمتك ، فكانك
لست بشيء حتى لو وُضعت في كفة ميزان لم ترجح بك عن اختها .

ومن كان في هذه الحياة الدنيا كثير الشر قليل الخير ، لم يبلغ بنفسه منازل الاخلاص
له في القول والعمل ، ولم يرتفع بها من دنيا الأمور وسفاسفها ، ولم ينزل عقله عن
الاشراك ، ولم يظهّر قلبه عن ردائل الاخلاق . . . فذلك كان في الناس اخلاصا والفاء !
فماذا يكون في الآخرة ؟ لا ريب انه لا يكون شيئا . فلا وزن له ، ولا ترجح به كفة ميزان
لو وضع فيها . وهذا المعنى قد صرح به في القرآن في قوله تعالى في سورة الكهف :
« فَصَبَّحُوا بِأَعْيُنِهِمْ فَلَنَدِينَهُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ وَزْنَا » . وبهذا صح تسمية النفل والخفة الى
الموازنين بأجمعها .

اما لو كان المعنى على ماقلوه فهو مالا تدل عليه العبارة ، وكان من حق التعبير :
من رجحت كفة أعماله ، وخفت كفة أعماله . فاذا ارادوا ارجاع لفظ الآية الى ما فهموه
احتاجوا الى تاويل كثير كما هو ظاهر . وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء في ذلك
اليوم ، انما يكون على حسب ما تعلم لا على طريقة ما تعلم . فعلى ان نفوض الأمر فيه
اليه سبحانه مع الإيمان به .

ومن عجيب ماقله بعض المفسرين « انه ميزان بلسان وكفتين كطابق السموات
والارض ، ولا يعلم ماهيته الا الله » ! فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى
يفوض العلم فيه الى الله ؟ والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن
المصوم . ولم يرد في الكتاب الا كلمة الميزان . وقد عرفت مايمكننا ان نفهم منها
لننتفع بما نعتقد ، وما عدا ذلك فويله الى الله سبحانه .

وقد قالوا : ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكثر ، خصوصا اذا كان القائل به
يحدد له لسانا وكفتين ! مع ان البشر قد اخترعوا من الموازين ماهو اتقن من ذلك
واضبط واوفى ببيان الموزون . . . انما يحكى الحكيم الخبر لا استعمال ذلك الميزان
الخسيس الناقص الذى هذى العالم عقول البشر الى ماهو ادق منه ؟ ! انما يحكى عالم الغيب
والشهادة ان يستعمل في وزن المعاني والمقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض
البشر قبل ان يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة !

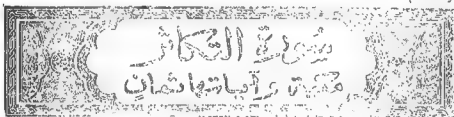
فَأَمَّا هُمَا وَتَوَاتُيَّةٌ ۝ وَمَا أَشْرَكَكَ هُمَا بِدِينِهِ ۝ فَارْسَامِيَّةٌ ۝

على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون - مهما دق ولفظ - إنما هو ميعار للانتقال الجسمانية والأوزان المصنوعة . وعلى أن يكون الإليق بالمقام الآلهي أن يكون ميزان المعاني المقولة لديه أشد وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم ؟

وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يعبروا على القول بوجود الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة ، هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تزل في مهد الانسانية الأولى : - ميزان خفيف العفول ، قصير الإنظار الذين لا يعرفون قيمة الإيمان بالغييب ولا تحياء الأهل من الله ، وأطرافه عن أن ينقل إلى منشأ من غيوب الله تعالى علمه وتعظيم قدره ؟

عليك أيها المؤمن النابض إلى ما يخبر الله به أن توفن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل ثقله . ولا تسئل كيف يزن ، ولا كيف يثقل ، فهو أعلم بغيبه . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

(فاهم فهاوية) : أي مرجسه الذي يأتى إليه ... كما يأتى البرد إلى ... هاوية : أي مهواة سحيقة تهوى فيها . ومثبت هاوية مع أنها تبرد ، فيها ، كما سميت العيشة راضية مع أنها تروى بها . (زينا لا ينفك تافيه) : أي ... الذي سبوك فما هي تلك الهاوية وأي شيء تكون ؟ ... هاوية : أي نار مانوبة تهوى فيها لعل جوار ماخذه من عمل . والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ

(الهائم التكاثر) . الهاء يألوه : أي شغله حتى صرف ذهنه عن سوى ما أتى به . وأنا أليست بشيء ، فانت به غافل عما سواه . والتكاثر : هو التباهي بالكثرة . يقول كل الآخر : أنا أكثر منك ولدا . أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك رجال حرب وضرب ، وما يشبه ذلك من شروب التفاخر .

يقول قد شغلكم التفاخر والتباهي بكثرة الاتصاف أو الأشياء ، وصرفكم ذلك من الجهد في العمل . فكنتم في لؤى بالقول عن الفعل ، وفي غفلة بالفرور والاعجاب بالأداء والأعوان من صرف القوى في القيام بما فُرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهلكم

تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ

ودينكم ، واستمر بكم ذلك (حتى زلزلتم الأرض) . أى حتى ملكتم وعمرتم من أهل القبور .. انتهىتم الى هذه الغاية وانتم تظنون انكم فائزون .

(كالا) ارتدعوا عن مثل هذا الدأب الباطل ، فإنه لا فوز بالتكابر ، وانما الفوز بحقيقة التناصر والتشافر على الحق ، و (سوف تعلمون) مصيركم اذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح ينفعكم فيما يطلبكم به المجد الصادق والأمر الالهي .

ولما كانت عواقب العيو اما تأتي بعد امهال من الله وطول مدة في الأغلب ، عسى سوف .. ولما كانت الفيلة شديدة ، وتمسك القهر في النفوس قد وُضع على القلوب حجابا كثيفا يحول دون البصائر والاصائر - اعاد النصير التاكيد بقوله : (ثم كالا سوف تعلمون) . واتى بحرف النطق (ل) - مع ان الهمزة المؤكدة توكّد بحروفه الصطف - ليفيدك انه خبر جديد بمنه جاء به بعد الخبر الاول لا مجرد اعادة لفظ .

وقد يكون معنى التكابر التناكب في الكثرة ، أى طلب كل واحد ان يكون أكثر من الآخر مالا أو رجلا ، والسمي الى ذلك لمجرد المنافسة لا يعني السامي في سعيه الا ان يكون ماله أكثر من مال الآخر ، وأن يكون عضده أقوى من عضده لينال بذلك للذة التعلل والظاهر بالقوة كما هو شأن الجمهور من طلاب الثروة والقوة . ولا ينظر الغالب منهم في عمله الى تلك الغاية الرفيعة : غاية البذل مما يكسب في سبيل الخير أو النهوض بالقوة الى نصره الحق وحمل الباطل على مفرقه والتوجه اليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه . وهو معنى مقبول ذهب اليه بعض المفسرين وهو يتفق كل الاتفاق مع مايفهم من لفظ (كالا) فان الذي يابى الناس عن الحق في كل حال ويصرف وجوههم عنه الى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم في أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ليعلو عليه ويستخدمه لسلطانه بقدر مايدخل في مكانه . أما التفاخر بالأقوال فنامسا ليهم في بعض الأحوال .

جرت سنة الفاعلين اذا تهاوا والناهلين اذا ذكروا يسراقب ماهم فيه ان يحدروا انفسهم بانهم يعلمون ذلك ، وانهم يفعلون مايفعلون عن يقظة وارشاد بصيرة ، وانهم محيطنون بما ينشأ عن فعاليم ، ويستألون انفسهم بذلك ليستمروا في أبوهم - فحارب الله هذه الهواجس ، وقائل هذه الخواطر بقوله (كالا) تعلمون عاصم اليقين) أى ارتدعوا عن تفريركم بانفسكم بدعوى انكم تعلمون عاقبة ماانتم فيسه من العيو بالتكابر . فان هذا الذي تسمونه علما ليس على الحقيقة بوعاء . وانما هو وهم وظن لا يلبث ان يفسر مهما استحكمت عقده من قلوبكم لانه لا يطابق واقعا .

والجدري بان يسمي علما هو علم اليقين ، أى العلم الذي هو من افراد اليقين . واليقين هو الاعتقاد الذي يطابق الواقع عن عيان او دليل صحيح مقدماته بدنية او منتهية الى البديهيات بحيث يستحيل تنزيهه . وانفس اذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو ارادتها وعاد الحرف لها في شئونها . فلو تعلمون هذا العلم لرفعكم عن هذا التكابر ، ودفعكم الى السعي فيما تصالح به ظواهركم ، وتخلص به عن سرائركم ، وتتجدد به في تأييد الحق هيكم لان التحقق من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يقضى اليها ، ويدفعها الى طلبها هو

تَعْلَمُونَ سِوَاَ الْيَقِينِ ۖ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ

أحسن منها . فجواب لو محذوف حذف ليطلبه العقل من الشرط وما سبقه ليستحكم فيه فضل استحكام .

ثم استأنف القول للذكر بعض ما ينتهى إليه هذا اللهو - وهو عذاب الآخرة بعد خزي الدنيا - ولو كان اليقين به حاصلًا ما أقدمت النفس الموقنة به على عمل أوعد الله بذلك العذاب عليه فقال (**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**) . أى أن دار العذاب التى لا ينعكم الآن تصورها من اللهو بالباطل مع أنها جزء من يلهو به عن الحق هي ثابتة لا ريب فيها ولترونها بأعينكم ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة في أذهانكم فتكون مُتَبَهِّةً لكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

ولما كان الكثير من الناس يظن أنه يعتقد بالآخرة وما فيها من عذاب ونكال ، ومع ذلك يرتكب السيئات ويقترب المنكرات ، وهو في ذلك يُعَمِّي نفسه بأنه ممن يعفو الله عنهم فيزحزحه عن النار بمجرد نسبته إلى دين وتجليبه بقلب من القابه : كان يَسْمِي نفسه مسلماً وهو يخالف أحكام القرآن ، أو ين أمّة محمد وهو يعمل أعمال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم . . . لما كانت هذه الفتنون مما يسرع إلى النفوس بإطلاقها الله بتأكيد الخبر وتكريره فقال (**ثُمَّ لَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ**) أى لترونها رؤية هي اليقين نفسه . وعلم العيان والمجاهدة من أفراد اليقين ، يَسْمِي عين اليقين لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية لأن العلم البرهاني أن لم ينته إلى علم ميالى لا يعد يقيناً .

فالعلماني هو ذات اليقين ، وبقية العلوم تضاف إليه متى استوفيت شرائطها . وكفى برؤية الجحيم من ذوق العذاب فيها ، وهي كناية شاملة في الكتاب العزيز .

فإذا كان الآلهون بالتفاخر لا بد أن يصلوا نار الجحيم - إلى أى دين أو إلى أى شخص كانت نسبتهم - فلم يبق عليهم إلا أن يتقوا الله في أنفسهم وينتهوا عما يُغذف بهم في ذلك العذاب الآليم ، وينظروا إلى ما هم فيه من نعمة فروعوا حق الله فيها ، ويستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ، ولا يكتفوا منها بالتمتع باللذات ثم التناخر بها . ولقد زاد الأمر عليهم تشديداً بقوله (**ثُمَّ لَتَسْتَأْنِفَنَّ عَنِ النَّعِيمِ**) . أى أن هذا النعيم الذى تنفخرون به وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضاً ، هو مما لا بد أن تسألوا عنه : ماذا صنعتم به ؟ هل أدبتم حق الله فيه ، وراعيتم حدود أحكامه في التمتع به ؟ فإن لم تكن الحقوق أدبّت ولم تكن الأحكام روعيت كان هذا النعيم غاية السقاء في دار البقاء . نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما نتم به علينا .

بقي أن يقال : أن هذا خطاب موجه إلى الأحياء ليعتبروا ، فكيف جرى فيه بصيغة الماضي في قوله : **ثُمَّ لَتَرَوُنَّ** . مع أن العلم يزورها بعد وهو ما حمل أباً مُسَلِّم على أن يقول : أن هذا خطاب من الله للناس في الآخرة للتقريع . . . مع أن قوله (**ثُمَّ لَتَسْتَأْنِفَنَّ**) بدافع هذا المعنى . وحمل غير أبى مُسَلِّم على الرجوع إلى أسباب ذكرها المفسرون وقالوا : أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا وتكاثروا بأحيائهم . فلما كثرت إحدى القبيلتين الأخرى لجأت الأخرى إلى الأموات وقالت : هلموا بنا إلى المقابر لنعُدَّ مَنْ كان من رجالنا وننشيء إلى قبورهم .

ولا يخفى أن التكاثر ليس خاصاً بالرجال ، بل يشمل المال . والخطب والخطاب عامان . ولا بد أن يكون المعنى على العموم ، وتلك الحرة التى حاروها لا داعى إليها . فقد جرت سنة الكتاب العزيز أن يخاطب الحاضر بما كان من الغائب متى كان

لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ لَتَسْلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٥١﴾

الحاضر بِحَيْثُ جَدُّ الْقَاتِبِ وكان الجميع جامعة تضمهم . والله يخاطبُ جمهورَ الْمُتَرَفِّعِينَ أو الْمُتَعَمِّينَ من الناس ويدكر عملَ مَنْ سَلَفَ منهم كما قال لبيّ اسرائيل يخاطبهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم « **وَأَذِّنْ لَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سَوْمَ الْعَذَابِ** » الى آخر الآيات وفيها « **ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ** » الخ ، مع ان الذي وقع له ومنه ما ذكر في الآيات اسلافهم . وذلك كما تقول لآعقاب الظالمين « **لَا تَزِلُّهُمْ تَطْلُمُونَ** الناس حتى اكلكم الفللم واهلككم فُجْبَتُهُم واراح الله الناس منكم » ، مع ان الذي هلك واستراحت الناس منه اسلافهم . وهو ضرب من التعبير يريد الله به ان يُحْمَلَ ثَمَرَةُ النَّاسِ بعضهم على بعض حتى لا يدع أحدهم اخاه بائى منكرا يفسد فيفسد به امرُ جماعتهم . والله اعلم .

سُورَةُ الْعَصْرِ مكية وآياتها ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِذَا الْإِنْسَانُ لَفِيْ خُسْرٍ ﴿٢﴾

(**العصر**) هو الزمان الذي تقع فيه حركات الناس وأعمالهم : اى الدهر كما قال ابن عباس . او هو الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر .
وكان من عادة العرب ان يجتمعوا وقت العصر ويتحداثوا ويتلىكروا في شئونهم ، وقد يكون في حديثهم مالا يليق أو ما يؤذى به بعضهم بعضا فيتوهم الناس ان الوقت مذموم ، فاقسم الله به لِيُنْجِيَكُمُ إِلَى ان الزمان في نفسه ليس مما يذم ويُسب كما اعتاد الناس ان يقولوا : زمان مشؤوم . ووقت نحس ، ودهر سوء وما يُشبه ذلك جبل هو عادي للحسنة كما هو عادي للسوء . وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق واعزاز واذلال وخفف ورفع فكيف يذم في ذاته . وانما قد يذم ما يقع فيه من الاعمال المقتوبة . يُقسَمُ الله بالزمان مطلقا أو بذلك الوقت المخصوص (**ان الانسان لفي خسر**) الى آخر السورة ليؤكد بالقسم تلك القضية : وهي ان جميع من يُطلق عليه اسمُ الانسان ممن هو معهود للمخاطبة - وهو الانسان العاقل البالغ - خاسر في اعماله ضرا من الخسران الامم يستشيه . فاعمال الانسان هي مصير شقائه لا الزمان ولا المكان . وتصوير الاستفراق بما قلتم لا ينافي الشمول والعموم كما رايت . . فان هذا هو الفرق بين الاستفراق بكل والاستفراق بال ، فالاستفراق بال انما هو لما عهد عند المخاطبين من الافراد يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقرونا بها . ولو قيل كل انسان في خسر الا الذين آمنوا لم يصح لان من

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ①

الإنسان الصبى الذى لا يميز وهو لاختران له ولا ربح . و (الذين آمنوا) هم الذين صدقوا بأصل الخير والشر - كما قال : **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى** - واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة ، وبأن لأنفسهم وللعالم حاكماً يرئى ويغضب ، ويثيب ويُعاقب ، وإن لهم جزاء على أعمالهم : الخير بالخير والشر بالشر . ثم كان تصديقهم هذا بالغاً من أنفسهم حد أن يملك إرادتهم فلا يعملون إلا ماوافق اعتقاداتهم ، فهم يعملون الصالحات : وهى الأعمال التى عُذِّدَت بالتفصيل فى القرآن . وجميعها أن تكون نافعا لنفسك ، ولأهلك ، ولقومك ، وللناس أجمعين ، بعيداً من أن تضر أحداً إلا لكف ضرر أعظم منه . ومن تلك الأعمال الدعوة الى الحق والوصية بالصبر ، لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر لأنهما يحفظ كل خير ، ورأس كل أمر .

و (الحق) : هو ماقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ، وهو مايرشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويُعَبِّدُوهُ من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه بأن يدعو كل صاحبه الى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التى لاينزع فيها العقل ، ولا يختلف فيها النقل ، وأن يعمدوا بأنفسهم وبغيرهم من الأوهام والخيالات التى لاقرارللنفس عليها ولا دليل يهتدى اليها ، ولا يكون ذلك إلا بأعمال الفكر واجادة النظر فى الآوان حتى تستطيع النفس دفع مايرد عليها من باطل الأوهام . وهذا اطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق فى النظر ، لا اللهاج مع الطيش والاختلاع للمادة والوهم .

ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يصرفه ، فهو من الخاسرين ، كما ترى فى الآية بالنص الصريح الذى لايقبل التأويل .

و (الصبر) : قوة للنفس على احتمال المسقة فى العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الجزمان من اللذة ، أن كان فى نيلها ما يخالف حقاً ، أو مالا تاذن به الشريعة الصحيحة التى لا اختلاف فيها ، واحتمال الآلام اذا عرَّضت المصائب بدون جسرَع ولا خسرَج فى دفعها من حدود الحق والشرع .

فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن تُوجِّهَ غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة التى هى أم الفضائل بأسرها . ولا يمكنك حملها على ذلك حتى تكون بنفسك متعلِّياً بها ، وألا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول ، فلم تكن ممن يعمل الصالحات .

ترى السورة قد شملت بحكمها جميع أفراد المكلفين : سواء بلفتهم دعوة نبي ، فأمن بها من آمن ، وعمل الصالح ، ووضَّعَ بالحق والصبر ، فتجاء ، وأعرض عنها من أعرض فخرس - أم لم يلفتهم دعوة : فمنهم من صدق بأصل الخير والشر كما قلنا ، وآثر الفضيلة على الرذيلة ففاز ، ومنهم من أساء العمل فخرس الخسران الذى يناسبه .

ثم تراها لم تدع شيئاً إلا أحرزته فى عبارتها الموجزة ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسَّعَتْهم . أو قال لو لم ينزلهم القرآن سواها لكفت الناس .

ولجلالة ما جمعت روي أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (والعصر) ثم يسلم أحدهما على الآخر . ذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه ، فإذا رأى منه شيئا ينبئ أن ينبيه إليه فعله أن يذكره له (١)

سورة الهمزة مكية وآياتها تسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا
وَعَدَدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ

(الهمزة اللمزة) : هو الذي يظعن في أراض الناس ، ويفض منهم ، ويجترس من أعمالهم وصفاتهم ، وينسب إليهم السيئات ، تلذذا بالحط منهم ، وإظهارا لترفعه عليهم . أصله من الهمز واللمز ، بمعنى الظعن والكسر ، ثم صار مرُفا لغويا فيما ذكرنا .

ويقال أن الهمز يكون بالعين والشدة واليد حركات تشير إلى التحقير والهزاء ، واللمز يكون باللسان . وبناء الصفة على فعلة بفيد كثرة وقوع الفعل وجريانه مجرى المادة ، وذلك هو حال (الذي جمع مالا وعدده) : أي أن الذي يحمله على الحط من أقدار الناس هو جمعه المال وتمديده ، أي عدّه مرة بعد أخرى شغفا به وتلذذا بأحصاله ، لأنه لا يرى عزّا ولا شرفا ولا مجدا في سواه ، فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذي فضل وعزّة دونه . فهو يهزأ به وبهمزه ويملّحه ثم لا يشعشع أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق الورش ، لأن غروره بالمال آتاه الموت ، وصرف عنه ذكرى المال فهو (يحسب أن ماله أخذه) : أي بظن أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التي هو فيها ، وأرضعها عليه ، فهو لا يفارها إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال .

(١) وقد كتبنا تفسيراً لهذه السورة الثرية نشر وحده بعد أن طبع في مطبعة جريدة النار ، وهو ما كنا القيناه درساً في مدينة الجزائر في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ هـ . وفيه تفصيل طويل لما اجتمعت في هذا التفسير المختصر . فمن أراد إيثاراً أوسع وتفصيلاً أبعد فليطلب ذلك التفسير ، فهو - فيما أعلم - غير مسروق ينظر .

فِي الْحُطْمَةِ ④ وَمَا آدَرَبَكَ مَا الْحُطْمَةُ ⑤ نَارُ
 اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ أَلَيْبَ تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعِدَةِ ⑦
 إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مَّمْدَدَةٍ ⑨

يُؤمّد الله من هذه صفاته بالوَيْل والهلاك والتكال في قوله (وَيَلْ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُزَّةٌ) الخ .
 لم يصرح بذلك وبفصله في دفع وَهْمِهِ أن المال يُغْنِي عنه من الله شيئاً ، وأنه يحفظ
 عليه ما هو فيه أبداً حيث يقول : (كَلَّا) . فليتردع عن هذا الظن (لينبئ في الحطمة) :
 أي ليلقين فيها محقراً مُّصَفَّراً . وكلمة التبد تفيده التحقير والتصغير .

(وما أدراك ما الحطمة) ؟ يُستفهم عنها لتعظيم أمرها وأكبر هَوْلِهَا ، كأنها مما
 لا يحيط به العرفان . فمن ذا الذي يُعَلِّمُك بِمقدار مآلها إلا الذي أوجدها وأعدّها
 لأهلها ؟ . هي (نار الله الموقدة) : أي النار التي لا تُسَبُّ إلا إليه سبحانه ، لأنه هو
 منشئها في عالم لا يعلمه سواه ، وهي ملتصقة النهايا لا يدرك كنهه غيره سبحانه ، ولا
 يمكننا الوقوف على حقيقة تلك النار ، وإنما الذي نعرفه أن للعذاب بها ألماً أشد من ألم
 الأحراق بنار الدنيا . ولذلك وصفها بوصف ليس من أوصاف نيران الدنيا ، فقال :
 (التي تطلع على الأفئدة) .

ولا يخفى عليك أن الفؤاد إنما يطلق على القلب إذا لوحظ أنه بمعنى موضع الوجدان
 والشعور ، فكانه قال التي تعلو مشاعرهم ومداركهم ومواطن الوجدان من نفوسهم ،
 أي أن سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التي هي مواطن النيات والمقاصد
 ومسكن القضايل والذائل .

وقد قيل : أن معنى الاطلاع هنا المعرفة والعلم ، أي أن هذه النار تعرف مافي
 الأفئدة فتأخذ من تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث .

والنار التي تعرف من يستحق العذاب بها لا تكون من النيران المعروفة لنا في الدنيا
 بالضرورة . وعلى كل لا يخلو الكلام — على هذا التأويل الثاني — من التمثيل والتجوز .

ثم قال : (إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ) : أي مُطَبَّقَةٌ ، لَمْ يَخْلُصْ لَهُمْ مِنْهَا . (في عَمَدٍ مَّمْدَدَةٍ) ،
 العَمَدُ جمع عمود ، وهو معروف . والمَمْدَدَةُ : المطولة ، أي أن أطباقها عليهم واغلقها
 في صَمَدٍ طويلة تمد على أبوابها بعد أن تُوصد . وهو تصوير لشدة الاطباق واحكامه ،
 وتأكيده للباس من الخلاص .

أما كون العَمَد كَمَمَدَيْنَا ، فذلك مما لا يمكن معرفته ، لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا
 — كما هو معلوم — فلا وجه للبحث فيه . وذلك يكون عند نزول العذاب . . . يجد
 المَعْلَبُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ : سواء خَلَصَ بعد ذلك أن كان من المؤمنين بالخاطئين ،
 أم لم يخلص أن كان من الذين احاطت بهم خطيئاتهم فكانوا من الهالكين . نسوّد بالله
 من غضبه ونسأله أن يحفظنا من نقمه .

سورة الفيل

مكية وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمْ تَرَكَيْتَ فَعَلَ رَبِّكَ بِأَمْرٍ حَبِيبٍ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ

(الم تر) : أى الم تنظر ، أو الم تعلم (كيف فعل ذلك) : أى الحالة التى وقع عليها
معمل الله الذى يتولى أمرك (بأصحاب الفيل) ؟ وهو الحيوان المعروف . وبين تلك
الحالة التى وقع عليها الفعل الإلهى بقوله : (الم يجعل كيدهم فى تضليل) ؟ التأكيد : هو
تدبير السوء . والتضليل : التضييع . والهمزة فى الم تر والم يجعل للتقرير . أى
أنك ترى ماكان عليه فعل الله بأولئك القوم ، وذلك أنه ضيّع تدبيرهم ، وخيّب
سمعهم ، (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) . الأبابيل : الفرق والجماعات يتبع بعضها
بعضة من طير أو خيل مثلا . والطير : هو مايطير فى الهواء ، سواء كان صغيرا أو
كبيرا ، وسواء كان مربيها لك أم غير مرئى . والسجيل : الطين المتحجر - وأصل
الكلمة فارسية دخلت فى العربية - أى حصاة من طين متحجرة . والمصيف : ورق
الزروع . والماكول : الذى أكله الدود أو السوس ، أو أكل الدواب بعضه ، وتناثر من
بين أسنانها بعضه .

السورة الكريمة تعلمنا أن الله سبحانه يريد أن يذكر نبيه ، ومن بلغه رسالته ،
بعمل عظيم من أعماله الدالة على عظم قدرته ، وأن كل قسرة دونها . فهى خاضعة
لسلطاتها ، وأنه القاهر فوق عباده لايمتنع منه مزة ، ولا تنصاع عليه منهم قوة . . .
ذلك العمل العظيم : هو أن قوما أرادوا أن يتمزروا بفيلهم ليفلبوا بعض عباده على
أمرهم ، ويصلوا إليهم بشرى وأذى ، فاهلكهم الله ، وردّ كيدهم ، وأبطل تدبيرهم بعد
أن كانوا فى ثقة بمذبحهم ومذبحهم ، فلم يفلحهم ذلك شيئا .

وكان يمكننا أن نكتفى بذلك المعنى من الآيات ، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل . وهو
كاف فى الاعتبار والعظة ، كما اكتفينا بذلك فى أصحاب الأخدود . . . لكن فى هذه
السورة يجوز لنا التفصيل ، لأن واقعة الفيل فى ذاتها - كما ورد فى هذه الآيات -
معروفة متواترة الرواية ، حتى أنهم جعلوها مسدا تاريخ يحدّدون به أوقات
الحوادث . . . فيقولون : ولقد عام الفيل ، وحدث كذا لستين بعد عام الفيل .
ونحو ذلك .

وما تواتر من الواقعة ، هو أن قائلا حشيا - ممن كانوا قد غلبوا على اليمن -
أراد أن يعتدى على الكعبة المشرفة ويهلكها ليمنع العرب من الحج إليها ، أو ليقتربهم

بِحَجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ① فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ②

وإليهم ، فتوجه بجيش جرأو الى مكة لذلك ، واستصحب معه قبلاً أو قبيلة كثيرة زبادة في الازهاب وحسّر الخوف الى القلوب . ولم يزل يثأروا يفلب من يلاقه حتى وصل الى المعس بالقرب من مكة ، ثم أرسل الى اهل مكة يخبرهم انه لم يأت لحرهم ، وانما اتى لهدم البيت . ففرغوا منه ، وانطلقوا الى شُغف الجبال ينتظرون ما هو فاعل . وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشي داء الجذري والحصبة . . . قال عكرمة : وهو أول جذري ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : ان أول ما رؤيت الحصبة والجذري ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل ذلك الوباء باجسامهم ما يثكر وقوع مثله ، فكان كشمهم يتناثر وتساقط . فلجأ الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، وأصيب الصبي ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأثمة أثمة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

هذا ما انفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة ان ذلك الجذري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة باسقة سقطت على افراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك ان تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض ، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات ، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فاثار فيه تلك القروح التي تنتهي بانفساد الجسم وتساقط لحمه . وان كثيرا من هذه الطيور الضعيفة بعد من أعظم جنود الله في اهلاك من يريد اهلاكه من البئر ، وان هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالكروب - لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يوصي مددا الا بارئها . . ولا يتوقف ظهور اثر قدرة الله تعالى في قهر الطافين ، على ان يكون الطير في ضخامة دعوس الجبال ، ولا على ان يكون من نوع متفاه مغرب ، ولا على ان يكون له الوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . . . فله جند من كل شيء .

وفي كل شيء له آية تدل على انه الواحد

وليس في الكون قوة الا وهي خاضعة لقوته . فهذا الطافية الذي اراد ان يهدم البيت ، أرسل الله عليه من الطير ما وصل اليه مادة الجذري أو الحصبة ، فاهلكته واهلكت قومه قبل ان يدخل مكة . وهي نعمة من الله غمر بها اهل حرمه - مبلى ولبيته - حفظا لبيته حتى يرسل من يحمي بقوة دينه - صلى الله عليه وسلم . . . وان كانت نعمة من الله حلت بأعدائه اصحاب القيل الذين ارادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ولا ذنب اقترقه .

هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله الا بتأويل ، ان صحَّت روايته . . . ومما تعظم به القدرة ان يؤخذ من استمع بالليل - وهو اصخم حيوان من ذوات الاربع حشما - ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، ولا يترك بالمر ، حيث ساقه القدر . لا ريب من هذا العاقل ان هذا اكبر واعجب وابهر !!

سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا أَرْبَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ ① إِيْلَهُمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ
وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③

(قريش) اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، كما قال القرطبي وعليه الفقهاء . أو من ولد فُهْرُ بن مالك بن النضر بن كنانة ، على ما قال الوبير بن بكار أنه قول جميع النسايب .
والإبلان : من معنى الألفة والائتلاف . وفيه معنى أَيْسَى شَيْءٍ إلى آخر ، وتعلقه به . وسلامته من التلفور منه .

وكانت لقريش رحلتان : أحدهما إلى اليمن زمن الشتاء ، والآخرى إلى الشام في فصل الصيف . . يذهب التجار فيهما للكسب ، واجتلاب الربح ، والاستئثار من الرزق . وكانت توافل قريش معروفة عند العرب ، محترمة في نفوسهم ، لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله ، فكانوا يذهبون آمنين ويعودون سالمين ، لا يمسُّهم السوء ، على كثرة ما كان بين العرب من النهب والنَّلب .

فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التي كانت تحتمى بها قريش في أسفار أرباب التجارة منها . . ولهذا ألفت نفوسهم تلك الأسفار ، ولعلقت بالرحيل لاستمرار مادة الرزق .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمة عندهم ، واستطالت الأيدي بالتعدى على سفاريهم - لتفروا من تلك الرحلات ، وكرهتها نفوسهم ، نقلت وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها فياتونهم - وهم في فقر ديارهم - ليأخذوا منها . . . فكانت تضيق عليهم مساكن الأرزاق ، وتنقطع عنهم بناييع الخير .

وهذا الإجلال - الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام - إنما هو من تسخير رب البيت بسبحانه . وقد حفيظ حرمة يَرْكُ الحبيشة الذين أرادوا هتكهم وعللهم قبل أن ينقضوا منه حجرا ، بل قبل أن يدنوا منه ، بل زاد ذلك في إجلاله لتدوم أقدارهم للأشغال والترحل في الصيف والشتاء .

فليعلم أن (يعبدوا رب هذا البيت) الذي حماه ، ومكن منزلته من النفوس . وقد (أطعمهم) بذلك ، وأوسع لهم من الرزق . . ولولا ذلك لكانوا في جوع وصكك عيش . (وآمنهم) من التعدى وتطاول الأيدي إلى أموالهم وأرواحهم . . . ولولا ذلك لأخدهم الخوف من كل مكان . فإذا كانوا يعرفون أن هذا كله إنما هو فضل رب هذا البيت ،

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝

فلم يتوسلون اليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ، مع أنه لأفضل لآحد ممن يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها : نعمة الأمن — وهي أكبر نعمة — ونعمة الرزق وكفاية الحاجة ؟ من الحق أن يفردوه بالتعظيم ، ويخصّوه بالاخلاص .

لهذا المعنى الذي بيناه ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه السورة متعلقة بالتي قبلها ، وأن اللام في قوله : لا يبالف قریش ، متعلقة بقوله : فجعلهم كمصف ماكول . أي أنه أرسل الجماعات من الطير على أصحاب الفيل ترميهم بالحجارة حتى أصيبوا بمرض الجعري أو الحصية وهلكوا به . . فعل ذلك كله لا يبالف قریش رحلة الشتاء .

وهو وجه ولا يتأنى الفصل بالسملة ، وكونها سورة مستقلة ، لأنه لا مانع من أن تكون سورة مستقلة متعلقة بأخرى . والفصل إنما هو لظاهر العنابة بما احتوت عليه كل من السورتين ، حتى أن كل جملة مما خوتا يصح أن تقصد لذاتها .

وما تضمنته سورة قریش جذير بالعنابة ، لأن الخطاب والتذكير كان لهم ، وهم قومه صلى الله عليه وسلم ، والسامعون للموعدة . . فحق أن يفصل ما يختص بهم عما قبله بفصل يلفت اللحن إليه ، وأن كان مرتبطا به .

ويعضهم يقول : أن اللام متعلقة بمحذوف . أي أصيبوا لا يبالف قریش وما فيه من عظم النعمة ، وهو من اجلال العرب للبيت ، وذلك من فضل ربه . . ومع ذلك يعظمون غيره ويتوسلون اليه بسواه ، فإن لم تكن هناك نعمة سبقت هذه النعمة فليعبدوه ويخلصوا له لأجلها .

وهذا خلاف لا يهتم طالب العظة والاعتبار . فوجه التذكير ظاهر : إيلانهم رحلة الشتاء بدل من إيلاف قریش . وأفراد الرحلة مع اضافتها إلى متعدد مما يعرف مثله في كلام العرب . قال شاعرهم : « حمانة بطن الواديين كرتومي » . ولم يقل بطني الواديين . وقال آخر :

كلا في بعض بطونكم تغفوا فان زماكم زمن خيمص
ولم يقل في أبعاض بطونكم . وبقيّة المعنى ظاهر مما سبق بيانه ، والله اعلم .

سُورَةُ الْمَاعُونِ مَكِّيَّةٌ مَدْنِيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ

(أوايت) ههنا بمعنى : هل عرفته وعلمت من هو على التحقيق ؟ . والدين هو

الْيَتِيمَ ① وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ② فَوَيْلٌ

ما وراء المحسوس من الشؤون الالهية التي لا تحيط بها النفس الا من وجه معرفتها
في التكون المشهود، ومنها ارسال الرسل المؤيدين بالأدلة القاطعة الدالة على انهم يملكون
عن مدبر الكون ما يصلح به شئون عبادته، وان الناس حياة اخرى يجازي فيها كل
بعمله. وكثير من الناس - بل الأغلب فيهم - يقولون انهم يعتقدون بالدين وصدقون
بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة، وينتقلون لانفسهم المزايا على غيرهم، ويظنون
انهم المصطفون، وان من يخالفهم قد حُتَّ عليه كلمة الشقاء، ويكتفون في الدلالة على
هذه الدعوى ببعض اعمال رسما الدين - وإن لم يكن لها اثر في قلوبهم - كالصلاة
وما يشابهها مما لا يتقصص مالا ولا يُحَسِّمُ مَشَقَّةً.

والجمهور الأعظم من النصارى واليهود والمشرِكين - ممن كان في زمنه صلى الله
عليه وسلم - كانوا يظنون انهم يصدقون بالدين ولا يكذبون به، وغرَّتهم صلاتهم
وصيامهم، مع انهم كانوا في ابعد طريق عن حقيقة دينهم... يشهد بذلك ماكان بينهم
من التنافس في الباطل، واستعباد قلوبهم لضغيفهم، وبخل فئتهم بالعرف يُغِيضُ به
على فقرهم. ومع ذلك كان كل فريق منهم يُدْعِ نفسَه صاحب الخطوة عند الله،
ويحسب كل من خالفه في مسقط النعمة.

فأراد الله - جل شأنه - ان يُعلمنا من هو المكذب بالدين، ومن تعريف المكذب به
بِعَرَفِ الصَّدَقِ به على الحقيقة... فبدأ الكلام بقوله: (لَوَايْتُ الَّذِي يَكْتَبُ بِالْدينِ) ؟
على طريقة الاستفهام لينبِّه السامع الى ان الأمر خفى على المحجوب عن نفسه، الغرور
بأوامره. والخطاب لكل من يفهم الخطاب، أي هل تبينت من هو المكذب بالدين ؟
ان لم تكن تبينه (فذلك الذي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) وهذا هو
المكذب بالدين... فالفاء واقعة في جواب الشرط الذي دل عليه الكلام. (وَيَدْعُ الْيَتِيمَ) :
أي يدفعه ويرجره زجرا عنيفا اذا جاء يطلب منه حاجة، احتقارا له، وتكبُّرا عليه
لقبحه النصور وخطوئه من الخير. واليتيم مظهر الضعف وممثل الحاجة، فالستهين
به مستهين بكل ضعيف، محقر لكل محتاج.

فالمتى ان المكذب بالدين هو الذي يَغْفُلُ حق غيره بعززا بقوته... فكل ظالم منتهك
لحرمان الحقوق مكذب بالدين، متى كان ذلك له دَيْنًا، وسواء كان ظلمه لتليل من
الناس أو كثير.

والْحَضُّ على طعام المسكين: الْحَثُّ عليه، ودعوة الناس اليه. والذي لا يحض على
اطعام المساكين لا يُعْلِمُهُمْ في العادة... فقوله: (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ) كناية
عن الذي لا يوجد بشيء من ماله على الفقير المحتاج الى القوت الذي لا يستطيع له كسب.
وليس المسكين هو الذي يطلب منك ان تعطيه وهو قادر على قوت يومه، بل هذا
هو الملهف الذي يجوز الاعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب.

وانما جاء بالكناية ليفيدك انه اذا عَرَضَتْ حاجة المسكين ولم تجد مانع عليه، فعليك
ان تطلب من الناس ان يُعْطَوْه. وفيه حَثٌّ للمصدقين بالدين على اغالة الفقراء ولو
يجمع المال من غيرهم. وهى طريقة الجمعيات الخيرية، فاصلها ثابت في الكتاب بهذه
الآية، وينحو قوله في سورة الفجر ((كَلَّا بَلْ لَأَكْثَرُ مِنَ الْيَتِيمِ وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ)). ونعمت الطريقة هي لاعانة الفقراء وسد شيء من حاجات المساكين.

لِّلْمَصْلِيْنَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

فالكلب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء، وكثيراً وتوَّأ، والذي يبخل بماله على الفقراء، ويبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقلهم من الضرورة، ويقوم لهم بالكفاية من العيش.

وسواء كان المحتقر لحقوق البخل بالمال والسعي مصلياً أم غير مصلي، فصلاته لا تنفعه، ولا تخرجه من صف المكذبين بالدين، لأن المصدق بشيء لا يتطوعه نفسه بالخروج عن حد ماصدق به.. فلو صدق بالدين لعرف أن صلاته إنما هي عنوان الخضوع للقاهر الذي لا يجوز لأحد أن يشاركه في عظمته، الذي خلق الخلق، وحدد حدود الحق، وفرض على الأقوياء الرحمة والمعدل في الضعفاء... فمن لم تذكره صلاته بهذا الذي فرض عليه فهو كاذب في قوله، مُرَّاء في ظاهر عمله..

ولهذا جاء سبحانه بالتفريع على تعريف الكذب بالدين في قوله (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون): أي إذا عرفت أن الكلب هو الذي أقفر قلبه من الرحمة، واجتنب من العدل والمكرمة. فويل لأولئك الذين يصلُّون، ويؤدون ما يسمي صلاة في عرفهم من الأقوال والأفعال، وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم، أي غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون.. فهو يركع في ذهول عن ركوعه، ويسجد في لهو عن سجوده، وأما هي حركات تشبه الخطوات التي يخطوها في الطريق: ينقل قدمه من خطوة إلى أخرى، ولا يلاحظ في كل خطوة ذلك التقيد الذي قصده يخطيه.

فهو يدخل في الصلاة يتوَّأ أنها مطلوبة منه، ثم يمضي فيها بلا شعور بالقصد مما يفعل، وأما تجرى الأقوال، وتتابع الحركات على حسب العادة، بلا استحضار للمعاني في القلوب.

ثم هم ساهون عن حقيقة الصلاة والحكمة التي فرضها الله لها وهي اخضاع القوى لواهب القوى.. وهل يجتمع الخضوع له والخروج عن أوامره فينا فرض أن يرامى من حقوق عباده؟ ولذلك قال في وصفهم: (الذين هم يرايون). أي يفعلون ما يرى للناس فقط، ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره.

ثم اماد ذكر الوصف الذي يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال: (ويمنعون الماعون). والماعون: كل ما يستعان به.. فاولئك الذين يصلُّون ولا ياتون من الأعمال إلا ما يرى للناس، مما لا يكلفهم بذل شيء من ماله، ولا يخشون منه ضرراً بلحق بإبدانهم أو نقصاً لهم بجاههم، ثم يمنعون الناس معونتهم، ولا ينهضون ببأس الرحمة إلى سد حاجتهم، وتوفير ما يكفل راحهم وأمنهم وطمانينتهم. أولئك لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين: لافرق في ذلك بين من يسميوا أنفسهم بيسة الإسلام أو غيره.. فإن حكم الله واحد لا محابة فيه للاسماء المنحلة التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطقية على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع.

فخاصة المصدق بالدين - التي تميزه عن سواه من المكذبين - هي العدل والرحمة وبليل العروف للناس. وخاصة الكلب - التي يمتاز بها عن المصدقين - هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلة الاهتمام بمن تلهمهم الآم الحاجة، وحجب الآخرة بالمال، والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عن يستحقه من الناس.

الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿١﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٢﴾

فهل تجد نصا اصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين ، وبيان الصفات التي يعرف بها ، وفي شرح التكذيب بالدين وتفصيل لوازمه وما يتميز به عن التصديق ؟ ..
فهل للمسلمين - اى الذين يزعمون انهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به - ان يقيسوا احوالهم ، وما يجدونه من انفسهم بما يتلونه في هذه السورة الشريفة ؟ ليصرفوا هل هم من قسم المكذبين او المصدقين ، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذي لا اثر له الا في ظواهر اعضائهم ، وبهذا الجوع الذي يسمنونه صياما ، ولا اثر له الا في عبوس وجوههم وبداءة السيئتهم وصياح أوقاتهم في اللهو والبطالة .
وليرجعوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويحبوا صورتها بالخشوع وتطامن القوى الانسانية لرقوة العنق الاعلى . فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون انهم عبيد لله يلتزمون رضاه في رعاية حقوق برائيه . . . ويجعلوا من الصوم مؤذبا للشهوة ، ومهذبا للرغبة ، ورادعا للنفس عن الآثمة : فلا يكون في صومهم الا الخير لانفسهم ولقومهم ، ثم يؤدوا الزكاة المفروضة ، ولا يبخلوا بالعملة فيما ينفع الخاصة والعامة ؟
أفلا يتدبرون القرآن ثم على قلوب افقائها ؟ .. أفلا ينظرون الى منازل بهم من الضعف والبلالة ، وتسلط الأيم عليهم ، وانتقايها ارضهم من كل جانب . . . فيعملوا ان هذا هو عقاب الله للمكذبين ، فيطلبوا النجاة من هذا كله باخذ سبيل المصدقين ، وينزعوا عن الانخداع بما سؤننه لهم اوهام بمض من يدعى الهام منهم ؟ .. فان البيان قد كلمهم واطهر ان سنة الله في الخلق لا تتبدل ، وان صورة الانتساب الى دين لا تفتى من اتباع هديه الصحيح الذي يدل عليه النص بعد التواتر في النقل واجادة التدبر من العقل .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ

كان المستهلون من قريش - كالعاص بن وائل ، وعتبة بن ابي معيط ، وابي لهب وامثالهم - اذا راوا ابناء النبي صلى الله عليه وسلم يموتون يقولون : بئس محمد . اى لم يبق له ذكر في اولاده من بعده ، ويموتون ذلك عيبا يلغزون به ، وينفرون به الناس من اتباعه . وكانوا اذا راوا ضعف المسلمين وفقيرهم ولقيتهم يستخفون بهم ، ويهزون امرهم ، ويموتون ذلك مقمرا في الدين ، ويأخذون القلة والضعف دليلا على ان الدين ليس

بحق ، ولو كان حقا لنشا مع الفتنى والقوة ... شان السفهاء مع الحق في كل زمان
أو مكان غلب فيه الجهل .

وكان المنافقون اذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمتنون أنفسهم بغلبة
اخوانهم القدماء من الجاحدين ، وينظرون السوء بالمسلمين قللة عديدهم وخلا ايديهم
من المال . وكان الضعفاء - من حديثى العهد بالاسلام من المؤمنين - تمر بنفوسهم
خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الشقي ...

فأراد الله سبحانه أن يمتحن من نفوس هؤلاء ويكتب الاخرين ، فأكد الخبر ليشير
ان ما يخيله النظر القصير قليلا هو الكثير البالغ الغاية في الكثرة ليؤكد له الوعد بأنه هو
الفائز ، وأن متبعة هو الظاهر ، وأن عدوة هو الخائب الاثر الذي يمتحن زكوه ، ويقف
أثره - فقال : (انا اعطيناك الكوثر) . الكوثر : صيغة مبالغة من الكثرة . ومعناه الشيء
البالغ من الكثرة حد الافراط .

قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم رجع ابنك ؟ قالت : بكوثر . وقال الكميت :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثر

وقد اختلف في معنى الكوثر اختلافا كثيرا . ولكن تعريف اللفظ يدل على ان المقصود
به كان امرا معهودا للمسلمين تذهب اذهانهم اليه عند سماعه - وان كانوا لم يعمدوا
وصفه بأنه أكثر الكثير - وهو الذى كان يستقله اعداؤه .

والذى أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم - وكان معروفا لسامعى الكتاب - هو
النوبة ، والدين الحق والهدى ، وما فيه سعادة الدارين الدنيا والآخرة . ولهذا ما نى اذكر
لك ما قاله جمع من الأئمة .

فقال أبو بكر بن ميثاق ويمان بن وثاب : الكوثر هم اصحابه واشياعه صلى الله عليه
وسلم الى يوم القيامة .

وقال الصينى بن الفضل : هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع . وقيل : هو الاسلام .
وقال هلال : هو التوحيد . وقال عكرمة : هو النوبة . وقال جعفر الصادق : هو نور
قلبه صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو العلم والحكمة . وقال ابن كيسان : هو الايثار
« أى ايثاره عليه السلام غيره بالنعمة على نفسه » . وقيل : هو الفضائل الكثيرة التى
وهبه الله اياها .

وذهب جماعة من الأئمة الى أنه الخير الكثير ، والنعم الدنيوية والاخرية من فضائل
وفواضل . وهو مارواه ابن جرير وابن عساکر من مجاهد ، وهو المشهور عن ابن عباس .
وأخرج البخارى وابن جرير والمحاكم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنه
انه قال : الكوثر الخير الذى أعطاه الله تعالى اياه . قال أبو بشر . قلت لسعيد فان ناسا
يزعمون انه نهر في الجنة قال : النهر الذى في الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل اياه عليه
الصلاة والسلام . ويروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه ايضا .

فإذا جرينا على ان الكوثر هو النوبة أو العلم والحكمة ، أو نور القلب - وهو الهدى
والرشاد - كان المعنى ان الذى أعطيتك من هذه المواهب هو الكثير الذى لا يكثره شيء ،
وان استقله الضعفاء ، أو استخف به الأعداء . وإى كثير بعد كثيرا بالنسبة الى الهدى
والرشاد ومعركة طريق السعادة ؟

اليس الهدى منبع القوة والمنة ، وهو الذى يحفظهما بعد حصولهما ؟ إذ القوة والمال
- اذا لم تكن معها الهداية التى تقيم صاحبها على الطريق المستقيم - لأبقاه لهما ،
ومصرهما الى الزوال ، ومصر كثيرتهما الى قلة . كما قال سيدنا على رضى الله عنه :
« العلم يحفظك وانت تحفظ المال » . ولا سبيل الى حفظ المال الا بالعلم . والجهل
والضلال مضيق كل شيء من جاء أو مال .

وَأَنْحَرْ ۖ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۖ

وعلى ان الكوثر هو الخير الدنيوي والاخرى يكون المراد : ان هؤلاء المستعجلين بالسبيطة يظنون انك في غلٍّ وضَعْفٍ ، وان اغنياءهم واغنياءهم في عز ونعمة ، ولا يعلمون اننا قد اعطيناك من الخير الذي يعظم في نفوسهم مما يعرفون ، ومن الخير المُنْخَرُ لك في الغيب مما لا يدركون ، شيئاً كثيراً لا تعدد كثرته .

واما ان هناك نهراً في الجنة اسمه الكوثر ، وان الله اعطاه نبيه . . فلا يفهم من معنى الآية ، بل الذي يدل عليه سياق السورة وموضع نزولها ، هو الذي بيناه من احد القولين . والاول - وهو النبوة وما في معناها - ارجح .

اما الاعتقاد بوجود هذا النهر في الجنة ، فموقوف على تواتر الاخبار التي وردت به . وقد ذهب جماعة الى انها متواترة المعنى ، فيجب الاعتقاد بوجود النهر على وجه عام دون تفصيل واصافه لكثرة الخلاف فيها .

ولكن التواتر لا يصح ان يكون برأي جماعة او برأي آخرين . فحدّ التواتر هو مآثره في القرآن : تعرفه طبقة عن طبقة يؤمن تواطؤ كل منها على الكذب الى ان وصل اليك لانتكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة - فهذا التواتر هو الذي يوجب اليقين . وليس الامر كذلك في احاديث النهر ، فانها - وان كثرت طرقها - لم تبلغ هذا المبلغ ، فلا يصدق عليها اسم التواتر . . خصوصاً وانه يظن بالرواية سهولة التصديق في مثل هذا الخبر لما فيه من غرابة الكرامة وجمال الوصف ، فيسهل على كل راوٍ الميل الى تصديق مايقال له . وهذا يُخِلُّ بشرط التواتر ، لان اول شرط فيه ان لا يكون في الطبقات رائحة التشيع للخرق .

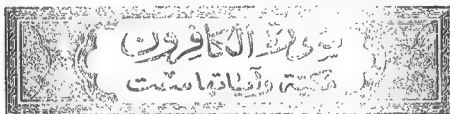
وبالجملة فخير وجود النهر من الاخبار الغيبية لايحوز الاعتقاد به الا بعد التيقن انه ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم . فاذا وصلت فيه الى اليقين الذي لا يحوز عندك تبذله ، وكان علمك بصدوره عنه - عليه السلام - كعلمك بوجود مكة او المدينة قبل ان تراهما ، فاعتقد به ، والا ففوّض الامر الى الله ، وقل لا اعلم . والله اعلم . ودر بعد ان أكد الله انبياءه الخير بان الذي اعطاه هو الكوثر الذي لا يستقل عدده ولا ينتقص قدره ، وان ما يمدونه كثيراً وعظيماً فهو بالنسبة اليه قليل وحقيق - طالبه بالشكر على ذلك . وافضل الشكر الاخلاص لله في العبادة لا يشرك في التوسل اليه ولا في الخضوع القلبي له احدا سواه ، ثم يدل المال للفقراء والمساكين . ولهذا قرع على الخير قوله : (فصل لربك وانحر) : اي فاجعل صلاتك لربك رجده ، وانحر ذبيحتك مما هو نسكك لك الله رجده ، فانه هو مربك ومُشِيع النعم عليك دون سواه ، كما قال تعالى « قل ان صلاتي ونسبي ومحبي وممالي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك امرت ، واتا اول المسلمين » .

وقد الله بقدر ما اعطاه ثم امره بالشكر عليه . وبعد ذلك استأنف الكلمة للدكر حال اعدائه ومُخِيفيه ووعيدهم بما سيصيبهم في انفسهم واموالهم فقال : (ان شانئك هو الابتر) . الشانئ ومعناه المُخِيف . والابتر : هو المقطوع الذي لا يبقى اثره ، ولا يحسن من بعده ذكره . كتبت بقاء الذكر الحسن ، واستمرار الامر الجميل بدت الحيران لانه يتبعه . وهو زينة له . وكشيت الحرمان من ذلك بتر الدلب وقطعه ، لان البتر شاع في هذا المعنى وان كان اصله القطع مطلقاً .

وشانئته صلى الله عليه وسلم لم يكن يستنوه لشخصه ، لان شخصه كان محبباً الى

النفس - قبا يدل عليه قوله في حل التوسل - وانما كان الشاكرون يشنون ويعتقون مجاهدة من الدين - فبذلك هم الخادون في السلال - الضابطون في ظلام الجهل ، فلا ريب في غلبه أسرهم ، وانقضاء أرواحهم - وذلك - بحق الله بهذا الوعيد في شأنيته في زمنه - على أمة طهه وسلم - من السرب وتبرهم - فقد جرحهم الخذلان الى غاية الضرر - وان بقي لهم الا سورة الذكر لمصيرهم - والنسيان التام لبعيتهم .. بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ، وتبين اعتدلي بديده ، فان ذكرهم لا يزال رفيعا ، وأثرهم لا يزال باقيا في قلوب المسلمين .

ومع ينشأ ما جاء به من الله عليه وسلم ، ويدخل فيما ينشأ معنى الأثر ، أولئك الذين يتركون كتاب الله عز وجل ، وينسكون بالظنون وأقوال غير المعصومين دون نظر الى ما تجر اليه من الاضرار من سبل بيلة الدين القويم ، ويجعلون الدين شيئا وقرآنا بعد ان صرح الانبياء بوله : لا اقول انتم بتركتي فبيدت ، ولا اقول انتم لمستم منه في شيء . ثم يعملون على خروج ما اكتسبوا او التمسوا اسلامهم والدين من البدع ، وبيع العبادات ، واتخاذ المساكين والتسليم ، مما رعى بهم الى ما وراء الصراط المستقيم . فاذا ذكروا بالقرآن ، أووا الى الله ، أووا رؤوسهم ، وذكروا لك من فصول التالين ما يصلحون به كتاب الله ، ويأتون انهم به يؤمنون . - فلا تحب ان ترى النفس الآتية يتبعهم في كل مكان ، وفي قدس من ذلة الى مسكنة ، ومن تنقلب الى محبة ، وهم لا يشعرون ، بل ينظرون الى ما يجر بهم وهم فاحشون لاعون ساحرون . نموذج الله من الخذلان ، ونستعين به في تحرير الاسفل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝

(الكافر) : هو المانح الواحد الذي اذا رأى شيئا الحق انقضض عينه ، واذا سمع الحرف من كلمته سكت أذنه . ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ، ولا يكتفي بحجة اذا اخبرته فزاده ، بل يدفع جميع ذلك حثا فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله ، واستند في التمسك به الى تقليد من سلفه . فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه : (ان شر الناس الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحقون) . ولا يؤمن الله فيهم خيرا لا سمعهم ولا رؤيتهم . وهم كفرون .

بعض هذا الصنف - بل الغالب من أفراد - يقول للداعي الى الحق ، او يحث نفسه ليلجأ من فهمه لئلا يدعونا الى الله ؟ فنحن نعتقد به . آلي توحيد ؟ فنحن نوحده . وغاية ما الامر نتخذ شفعا اليه نسأله بحقهم عنده ، او بمكانتهم لديه .

سورة النصر مدنية وآياتها ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

الخطاب الذي يرد في كتاب الله مفردا ، نارة يكون للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة
قوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُعَذِّبُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْصَادَ أُنَاجِيكَ » ، وقد يكون لكل
من يفهم الخطاب قوله : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُنْهَى عَمَّا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى
أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى » وكثر له : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ » . وقد يكون خطابا له عليه
السلام مقصودا به نفسه الشريف متع من معه من أصحابه والمخلصين مِنْ أُمَّةٍ . ومن
هذا الأخير ما جاء من الخطاب في سورة النصر .

كان المؤمنون أيام رزقهم وفقرهم وكثرة عدوهم وقوتهم واستعدادهم عليهم
ومضايقتهم لهم ، يَمُزُّ الضَّجْرَ بنفوسهم ، وبأخذ الحزن منها ماخذَه . وكان صلى الله
عليه وسلم يحزن ويضيّق صِلَته لما يكذب قومه - والحق يشطع نوره وهم يعمون
عنه - حتى قال الله له : « فَادْعُ أَتْلُوهُ بِعُضَى مَآوِي حَى إِلَيْكَ وَفَسَاقٍ بِهِ صَاحِبُهُ أَنْ يَقُولُوا
لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » . (سورة
هود) . وقال له : « قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ
بِآيَاتِ اللَّهِ يُجْحَدُونَ » . وقال بعد ذلك « وَإِنْ كَانَ كِبَارُكَ إِعْرَاضَهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ
أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِبَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

وجاء في غير ذلك من آيات الكتاب ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه
كانوا يُضْجَرُونَ وَيُقْلَقُونَ لِشِدَّةِ مَا كَانُوا يَلْقَوْنَ . وَلَا يَخْفَى مَا فِي الْقَلْبِ وَالضَّجْرُ من
استبطاء نصر الله للحق الذي بعث به نبيه ، بل فيه شيء من السَّهْوِ من وعد الله بتأييد
دينه . وليس ذلك من النقص الذي يُعَاب به صلى الله عليه وسلم ، فإن كل مخلوق
لا يعلم من غيب الله ما سَلَّمَ الله ، لا بد أن يَمَسَّه هذا الضجر ، ويصيب هذا القلق ،
ويأخذه الشدة بهذا التسيان ، حتى يكون الكمال لله وحده . قال : « وَذَلَّلُوا حَتَّى
يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ » .

ولكن الله جلَّ شأنه قد يعوده على أقرب المقربين إليه ، كما قالوا حسنت الأبرار
سبيلت المقربين . وقد يراه النبي صلى الله عليه وسلم - إذا رجع إلى نفسه ، وخرج
من غمرة الشدة - ذنباً يتوب إلى الله ويستغفره منه . ولهذا ورد له الأمر الإلهي

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝

بالاستغفار مما كان منه من حُزْنٍ وَحُزْنٍ في أوقات الشدة ... ورد له ذلك الأمر في صورة البشارة بقرب مجيء الفتح والنصر حيث قال : (اِنَّا جَاءُ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ) . فعبر باذا المفيدة لتحقيق وقوع ما يضاف اليه ، أي عند ما ترى نصر الله لدينه الحق على الباطل ، ويفتح الله بينك وبين قومك ، فيجعل لك القلبة عليهم ، ويضعف أمرهم في التمسك بمعتقدهم الباطلة (ورأيت الناس) عند ذلك (يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ) وهو دينك الذي جنتهم به لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه (أفواجا) : أي طوائف وجماعات لا أحادا كما كان ذلك في بدء الأمر أيام الشدة .

إذا حصل ذلك كله - وهو لأرب حاصل - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) : أي فَنَزِّهْ رَبَّكَ عن أن يَهْمَلَ الحق ويَدْعُ الباطل يأكله ، وعن أن يَخْلِفَ وعده في تأييده ، ولكن هذا التنزيه بواسطة حمده والنناء عليه بأنه القادر الذي لا يُقْلِبُهُ غَالِبٌ ، والحكيم الذي إذا أَهْمَلَ الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ، ولا يضيع عمل المفسدين ، والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين (وَاسْتَغْفِرْهُ) : أي اسأله أن يفرغ لك ولاصحابك مكان من القلق والفجر والحزن لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تحدثها الشكائد . وهو - وإن كان مما يشق على نفوس البشر - ولكن الله عليم أن نفس نبيه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال ، فلذلك أمره به ، وكذلك تغاربه قلوب الكمل من اصحابه واتباعه عليه السلام ، والله يتقبل ذلك منهم . (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) أي أنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة لأنه ربُّ رُبِّىُّ النفوس بالحق ، فإذا وجدت الضعف انهضها إلى طلب القوة ، وشدد وميها بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال ، وهي في كل منزلة تتوب من التي قبلها ، وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم .

وكان الله يقول إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف ، وزال موجب الحزن . فلم يبق إلا تسبيح الله وشكوه ، والنزوع إليه مما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الأثر قد تم ، ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه فقال - فيما روى عنه - « أنه قد توبت إليه نفسه » والله أعلم .

سُورَةُ الْمَسَدِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ

(أبو لهب) : هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان من أشد الناس عداوة له . وصح في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى : (وَأَنْزِلُ عَشِيرَتَكَ الْأَثَرِينَ) صدق النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى بطون قريش ، فاجتمع من جميع القبائل خلق كثير ، حتى جمل الرجل ، اذا لم يذهب ، يُرسل رسولا لينظر ما الخبر . وكان في المجتمعين أبو لهب - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اوابتم لو اخبرتم ان خبيثا بالوادى تريد ان تفسد عليكم اكنتم مصدقي؟ قالوا : نعم ، ماجزينا عليك الا سيذا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : « تَبَّ لَكَ سائر الأيام ! إلهنا جمعتنا ؟ » . وكان أبو لهب يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض قَدَرَاتِهِ إلى القبائل يدعوها إلى الله ، فاذا قال رسول الله : « اني رسول الله اليكم » يكذبه عنه ويُنهي الناس عن تصديقه ، وكانت امراته - ام جميل بنت حرب اخت ابي سفيان ، وعة معاوية رضي الله عنه - تسمى عند القوم بالنميمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة . والساعي بالنميمة يُلقب بحامل الحطب ، كما قال الراجز :

ان بني الادم حمائل الحطب هم الوشاة في الرضاء والغضب

وفي كلامهم كثير من الشواهد على ذلك .
ولقب عبد العزى بابي لهب تلحظ وجنتيه واشراقهما ، كما زعموا . وقد انزل الله فيه وفي زوجته هذه السورة ليكون مثلاً بغير به من يقاوي ما انزل الله على نبي مطاوعة لهواه ، وابتارا لما آتاه من العقائد والموائد والأعمال ، واقتدارا بما عنده من الاموال وبخاله من الضوالة أو من المنزلة في قلوب الرجال . قال تعالى : (تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) . تبَّتْ يدا فلان : اى خَيْرٌ اَوْ هَلَكٌ . والجملة الاولى (تَبَّتْ يدا أبي لهب) دعاء عليه بأن يضرر أو يهلك .

ولما كانت اليد هي آلة العمل والبطش ، فاذا هلكت وانقطعت او خسرت ، كان الشخص كانه معدوم هالك - كذا العرب خسرتها كتابة عن خسران الشخص نفسه ، وهلاكها كتابة عن هلاكه . فاذا دُعِيَ عليه بخسران يديه فقد دُعِيَ عليه بخسائه . ولذلك قال بعد الجملة الدمائية : (وَتَبَّ) اى وَهَلَكْ اَوْ خَيْرٌ هو اى أبو لهب ، اى ان ما دُعِيَ به عليه لم يكن لمجرد تكابته واطهار مقته وشدة الغضب عليه - كما جرت به سنة العرب في كلامهم - بل هذا دعاء فيه مآثره العرب ، وفيه - مع ذلك - انه

وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

بأس واقع ، فإنَّ أبالهب قد هلك أو خسر بالفعل . والواو في قوله : (وَتَبَّ) للاستئناف
أى وهو قد تَبَّ .

ثم استأنف الكلام بغير حرف لبيان أن ما كان يتعزز به من المال والجاه لم يكن مما
يغديه ، ويخلصه من الخسران . . فقال . (مَا أَفْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) : أى لم يفده
ماله ولا عمله الذى كان ياتيه في معصاة النبى صلى الله عليه وسلم طلبا للملو
والظهور (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) . لهب النار : هو ما يسطع منها عند اشتعالها
وتوقدها . أراد بوصفها هذا أنها نار شديدة الحرارة . والمراد من هذه النار نار الآخرة
التي لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وسيعذب فيها أبو لهب جزاء ما كان يأتيه من الفساد
والمخاطرة ، وسيسلاهما معه امرأته أم جميل ، كما قال الله (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ) ،
فامرأته معطوفة على ضمير أبى لهب . (وَحَمَّالَةَ الْخَطْبِ) ، نصب على فعل محذوف
قصيد به التخصيص بالدم : أى وامرأته - تلك النعامة الواشقة التي توجب الترابين الناس
بنعيمتهما كأنها تحمل الخطب لتعرق ما ينهم من الصلوات .

وإزيادة التبشيع في التصوير قال : (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) : أى في عنقها حبل
من الليف ، أى أنها - في تكليف نفسها المشقة الفادحة للفساد بين الناس ، وفارث
نيران العداوة بينهم - بمنزلة حامل الخطب الذى في عنقه حبل خشن يشد به ماحملاً
إلى عنقه حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الخطب ، وفي عنقها
حبل من الليف تشد به الخطب إلى كاهلها حتى تكاد تختنق به .

وقد علمت مما أشرنا إليه سابقاً أن الله لم يعن بسبِّ أبى لهب بلقيه المعروف به هند
قومه لمجرد عداوته للنبى صلى الله عليه وسلم . ولو كان كذلك لذكر الكتاب مشل
عقبة بن أبى معيط ، والمعاص بن وائل وغيرهم من أكابر أعدائه - ممن كثر عنهم أحيانا
بأوصافهم ، ولم يذكرهم - وإنما خصَّ أبى لهب بالذكر لانه قد اشتهر بالكذب وتائر
النبى في حر كانه ليحبط مسايحه ، ويضدَّ الناس عن الاقبال عليه . فكانه بذلك صار
مُثَلاً للصادق من الحق ، المنفّر للناس من فهم ما اتزل الله على نبيه ، المحوّل لهم عن
الاصفاء إلى الكفر الطيّب وتناول ماضئته من الهدى والدلالة على نهج النجاة .

فما تضمنه الدعاء من النكابة ، وما جاء به الوعيد من سوء العاقبة ، يلائم كل منحول
لناس عن تدبّر كتاب الله وفهم ما جاء فيه من صبر واحكام . فجميع أولئك الذين
يقولون لك أنك مهما بلغت من العلم لا يمكنك أن تعرف من الله من كتابه ولا من كلام
نبيه شيئاً من الاحكام والعقائد ، ولا يجوز لك أن تستند في تقرير حكم إلى آيات الكتاب ،
ولا إلى الصحيح من السنة ، وإنما الواجب عليك أن ترجع إلى قول فلان وبإى فلان ،
وإن وصلت من معرفة لغة الكتاب والسنة إلى أعلى غاية . . . أولئك هم آباء لهب
لا تفتى منهم إمامهم ولا أعمالهم شيئاً ، وسيسكون ما يشاء . وكل امرأة تسم بين
الناس لتفرق كلمتهم ، وتذهب بهم مذاهب السوء ، فهي ممثلة في هذا الإنثال ، نازل
بها ذلك النكال - نسأل الله العاقبة ، ونحمده على هدايته الواقية .

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ

(سورة الإخلاص) . وهي سورة (قل هو الله احد) تشتمل على أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي ثلاثة : الأول توحيد الله وتنزيهه . والثاني تقرير الحدود العامة للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها ، وذلك هو الشريعة . والثالث أحوال النفس بعد الموت من البعث ومُلاقاة الجزاء من ثواب ومقاب .

وأول هذه الأركان هو التوحيد والتنزيه لاختراق الصرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، وهو ركن الأركان ، وأول ما مور به من أصول الإيمان .. فيصح أن يكون الأمر بتبليغ ماني هذه السورة صادرا من الحق جل شأنه تحقيقا لأمر رسالته صلى الله عليه وسلم ، ولإرشاد الناس إلى ما يجب أن يعتقدوه في جانب الله ،

ولا حاجة إلى أن يسأل بعض العرب النبي صلى الله عليه وسلم : ما هو نسب الله ؟ حتى تنزل السورة جوابا لهذا السؤال . وإنما حاجة القوم - بل العالم الانساني - كانت ماثلة إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب في سورة واحدة وهم يفهم بالله في أوجز عبارة وأجزلها .

ولما يَتَسَاءَلُ لِيَسْتَفْرَبَ ماورد في الخبر من أنها تعدل ثلث القرآن ، لأن من عرف معناها حق المعرفة ، وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة - لم يكن بقية مجاهد في التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلا لما عِلِمَ ، وشرحا لما حصل .

(قل هو) : أي الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه . وهو مايمس عنده التحويين بالقبضة أو الحديث (الله احد) . الأحد : هو الواحد الذي لاكثر في ذاته فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ، فليس بمركب ، ولا هو من أصول متعددة غير مادية ، كما يزعم بعض أرباب الأديان - من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحدا وهي متعددة - سواء عَقِلَ ذلك أم لم يُعَقَل .. فان الله برئ منه ، لأن العقلاء أجمعتم على أن موجد العالم - وهو الله - واجب الوجود . ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات ، لأن التعدد في الذات مستلزم لانفكاك المجموع إلى الأجزاء ، فلا يكون المجموع - المسمى بالله أو موجد العالم - واجب الوجود .

وكذلك الأفراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بتمييزه ، وذلك التمييز غير مايشتركان فيه من الوجود ، فيكون كل منهما مركبا ،

وَلَمْ يُولَدْ ⑤ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ⑥

والرَّكِبُ غير واجب كما ذكرنا . فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً — فانه أحد .

ثم أن جميع ما يصل اليه عقلنا وحواسنا من هذا العالم يدخل في نظام واحد يرتبط ببعضه ببعض تمام الارتباط ، وهو يدل على أن موجدَه واحد ، وتعدد الأصول فيه من مخترعات الأوهام ، فيجب أن يخلص العقل منها .

ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد لا بأنه لا واحد سواه . فان الوحدة تكون لكل واحد ، تقول : لا أحد في النار بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التمسك في ذاته ، فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقده به أهل الأصول من المجوس ، وما يعتقده القائلون بالثلاثة منهم ومن غيرهم . (الله الصمد) . الصمد : هو السيد الذي يصمد اليه ويقصد في الخواص . . قال الشاعر :

لقد بكر النمامي بخير بنى أسمد يعمرون مسعود وبالسيد الصمد
وهذه القضية (الله الصمد) من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس مما تُفسيده بها دون جهد ولا تعب . . لان تعريف الصمد — مع العلم بأن لفظ الجلالة معرفة — صير الجملة معرفة الطرفين . وهي تفيد الحصر ، كما تقول : زيد العزم — اذا كان مخاطبك يعتقد أن غيره يشتركه في العزم — فتدفع ظنه بذلك ، تريد أنه لأعالم سواه .
فهذه الآية تقول لك : ان حاجة ما في الوجود لاتوجه الى غيره ، وان محتاجا لايجوز له ان يتوجه في طلب حاجته الى سواه . فقد افادتنا ان جميع المسببات تنتهي اليه ، وجميع مايسرى فيها من الوجود فهو من ايجاده ، وان صاحب الاختيار ، كالانسان ، اذا أراد ان يحصل مسبباً من سبب ، فطيه ان يبحث عن طريقة ارتباطه به — على حسب ما امره الله بالبحث والنظر والتدبر في مخلوقاته — ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب الى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يستندها الى مبدئها ، وهو الأمر الإلهي .

هذا فيما يظهر فيه السبب والسبب ، ويظهر فيه اثر الكسب وعمل الارادة والقوى الممنوحة البشرية . أما ما هو وراء ذلك مما لادخل للارادة فيه ، فعلى صاحب الحاجة ان لاتوجه في المونة عليها — بعد الاخذ بالاسباب — الا الى الله وحده ، فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملاً .

وقوله : الصمد يشعر بأنه الذي ينتهي اليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو في ذلك يدعو الى ما يخالف عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء . وكثير من أهل الأديان الآخر يعتقدون بان لرؤسائهم منزلة عند الله يتألون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغياتهم ، فيلجأون اليهم احياء أو أمواتاً ، ويقومون بين ايديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يشعشون لله بل أشد خشية .

ثم هو الصمد في تحديد الحدود العامة للأعمال ، ووضع أصول الشرائع . فلا بد ان يرد الى ما أنزل جميع ما يقع الاختلاف فيه ، وليس من المباح ان يرجع الى قول غيره متى نطق صريح كتابه بخلافه ،

وعلى الناس كافة أن يرجعوا الى الكتاب ، فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا الى العارف وطلبوه بالدليل منه . وعليهم ان يهتموا بان يعرفوا منه اسول ما يصدقون وما يعملون ، فان لم يفعلوا اختلفت الآراء ، وتحتجبت المذاهب كتاب الله ، ففُرس معناه ، وذهبت الحكمة عن انزاله عينا لتعلق الناس بقول غير المعصوم ، وضامه عن هدي المعصوم ، فكانوا بمنزلة من لم تاتهم رسالة ، وانما يعملون بما يقول لهم زعمائهم الذين لا يجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة ، فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطانا فيسقطون في مهاوى الشقاء الدنيوي والاخرى .

(لم يلد ولم يولد) ينزه الله عن أن يلد أحدا ، ويُشير الى فساد رأى القائلين بان له ابنا أو بنتا . وهم مشركو العرب والهند والنصارى وغيرهم — ويبين لهم ان الابنية مستلزم الولادة — والتعبير بالابناتق ونحوه لا يغير المعنى — والولادة انما تكون من الهى الذى له مزاج ، وماله مزاج فهو مركب ونهايته الى انحلال وفناء . وهو — جل شأنه — منزّه عن ذلك .

وقوله : (لم يولد) يُصرّح بطلان ما يزعمه بعض ارباب الاديان من ان ابنا لله يكون آله ويُعبد عبادة الآله ، ويُقصد فيما يُقصد فيه الآله .. بل لا يستحق الفألون منهم ، ان يعجزوا عن والدته « بأن الله القادرة » . فان المولود حادث ، ولا يكون الا بمزاج ، وهو لا يستلزم من عاقبة الفناء . ودعوى انه أنزل مع ابيه مما لا يمكن تعقله ولا يُفهم من حقيقة الامر شيئا .

فإذا اراد أحد من هؤلاء ان يدعى التنزيه ، فما عليه الا ان يقلع عن هذه الافلاط والنسب ويقول كما نقول : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد (ولم يكن له كفوا أحد) الكفو : معناه المكافئ والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفى لما يعتقد بعض المبطلين من ان لله ولدا في افعاله بماكسه في افعاله ، على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين في الشيطان مثلا .. فقد نفى بهذه السورة جميع انواع الاشراك ، وقرر جميع اصول التوحيد والتنزيه .

وأصل تركيب الآية ولم يكن أحد كفواً له . ولكن قدّم المجرور لان الحديث عن الله ، واشد الاهتمام انما هو بتنزيهه ، فقدّم ضميره مع الجار في جبر الكون النفي ، ثم قدّم المنفى نفسه — وهو الكفو — لان العناية موجهة الى نفيه ، وآخر من سلبت عنه الكفاية لانه لم يؤت به في الكلام الا لقصد تميم النفي فقط .. والا فقد كان يكفي ان يقال وليس له كفؤ . ولكن العبارة على ماى الآية ابيّن راجعاً .. والله اعلم وقد قال الله في تفصيل ما اجملته هذه السورة : « وقالوا اتخذه الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً أن يدعوا للرحمن ولداً وما ينفي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والارض إلا آت الرحمن عبداً . لقد احصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » . وقال : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقال : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لم يخشون سبحان الله عما يصفون » .

سُورَةُ الْفَالِقِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾

(الْفَلَقُ) . قيل : هو الصبح . وَرَبُّهُ : هو الله الذي وضع نظام الكواكب على أن يكون في الأرض ليل يغمر الأرض بظلمته ، ثم يكون صبح فيخلق هذا الظلام ويترج كركبه عن الأنام .

وقال جَمْعُ من المفسرين : أن الْفَلَقَ هو الوجود الممكن كله . وَرَبُّهُ هو خالقُه الذي شَقَّ ظِلْمَةَ الْمَكِّمِ عنه . ومن كان رب الوجود كله ، أو رب الصبح ، ولا يمكن أن يأتى بالصبح سواه - فهو جدير بأن يتعوذ به وَلِيًّا إِلَهٍ وحده دون سواه (من شر ما خلق) : أي من كل شر وأذى يصيبك من أي شيء خلقه .

إن الله خلق الخلق لما لا تعلمه من الحكمة ، وقد يقفنا على حكمته في بعض خلقه . وقد خلق كل مخلوق ليصيب من الوجود الحظ الذي قدره له ، ووهبه كل ما يتم به ذلك الحظ المقتدر . فكل مخلوق في فهو خير في نفسه لأنه أخذ مكانه من الوجود ، وهو الحق الذي لا يمكن أن يزحزح عنه . وإنما الشرور التي تعرض أمورٌ يَسِيئَةُ ، فما هو شر بالنسبة اليك خير لكائن آخر .

بِأَكْثَرِ السَّيِّئِ فتألم وتعوذ ، ويحزن لك الأقراب والأصدقاء ، ويحرم سعيك الأولاد والفقراء - فكل ذلك أذى وشرٌ بالنسبة اليك واليه ، ولكنه خيرٌ بالنسبة إلى السعي ، وتكمل لحظه . ولهذا أضاف الشر إلى ما خلق لأن الشر إنما يأتي بمראה تلك الإضافات .

أما أفعال الله في نفسها فكل منها خيرٌ في نفسه ، كما بينا . وهذا هو الذي يصح الاستعاذة بالله منه ، والاستعانة به على أن يحملك من أذاه . فانت لتجأ إلى الله أن يريك الوقوع في نسبة مع مخلوق آخر يصيبك أذى في تلك النسبة ، كأن لا يظلي بينك وبين الأسد ، أو لا يذبحه بنته اليك ، أو يقتلك على كذبه . . وهكذا .

ثم خصص بعض ما خلق لكثرة ما يقع الشر فيه مع قلة الضعف عن دفعه ، فقال :

(ومن شر غاسق إذا وقب) . أصل المعنى في مادة غسق السيلان والانصباب ، وأصل الوقب التفرقة في الجبل ونحوه . ووقب بمعنى دخل دخولا لم يترك شيئا الأمر به . والمراد من الغاسق هنا الليل ، ووقب أي دخل وغمر كل شيء ، كأنما انصب عليه ، واشتدت ظلمته . فإنه في هذه الحالة مخوف موضع لأن يدهمك وأنت لا تدري كيف تخلص منه : فإن كنت بصدد سفر ضللت الطريق ولا تدري كيف تهتدي ، وإن كنت في خصام مع عدو فقد يكون الظلام أشد أمواته عليك . ولا حاجة

وَمِنْ شَرِّ عَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ

لتعليق مآل الفلح من أطوار الشر ، فذلك مما لا يكاد يخفى على أحد من الكبار . فكان جديرة أن يخفى بالاستعاذة من شره بربه سبحانه ، فهو القادر على الكفابة منه .

ثم خص مخلوقات آخر لظهور ضررها وشر الاحتياط منه ، فلأبد من الفروع إلى الله ، والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال : (ومن شر النفاثات في العقد) . (العقد) : ما عرفه في الشيط والحبل ، جمع عقدة ، ثم تستعمل العقدة في كل ما ربط وأحكم ربطه . ولذلك سمي الله الأرباط الشرعي بين الزوجين عقدة النكاح ، وسمى الأيحاب والتبول في البيع ونحوه عقداً ، ونسبه عقدة أيضاً .

(والنَّفَثَاتُ) : النفخ الخفيف أو النفخ مع شيء من الريق . والنفالة من صبيح المبالغة ، كالملامة والقبالة . وتستعمل كذلك للذكر والأنثى . (والنَّفَاثَاتُ) جمعه . والمراد بهم هنسا النمامون ، المظنون لروابط الآفة ، المحرّفون لها بما يُفنون عليها من غرام نملهم . وإنما جاءت العبارة كما في الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحطوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه - مثلاً فيما يؤمنون به - عمدوا عقدة ، ثم نفثوا فيها وحطوها ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين .

والنميمة تشبه أن تكون غريباً من السحرة ، لأنها تحسّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاللثة . والنميمة فضلك وجدان الصديقين كما يفسل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الفاسق إذا وَقَبَ . ولا يسهل على أحد أن يحتاط ليتحفظ من النمام ، فإنه يذكر عنك ما يدرك لصاحبك وأنت لاتعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول . وإذا جاءك فزكماً دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلأبد لك من قوة أعظم من قولك تستعين بها عليه ، وهي قوة الله .

وقد رواها ههنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحرة كُتِبَ بين الأصم وأثر سحره فيه حتى كان يُخَيَّلُ له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله ابتاه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بشر وعوى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام ، حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، ليس من كِبيل تأثير الأمراض في الأبدان ، ولا من قَبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية ، بل هو ما يشاء بالقل ، أخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه : « أَنْ تَسْمُونَ إِلَّا رَجُلًا فَسَّخُورًا » . وليس المسحور منهم إلا من خولط في عقله ، وخيّل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيُخَيَّلُ إليه أنه يوحى إليه ولا يوحى إليه .

وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يقولون ماهي النبوة ولا ما يجب لها : إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المتبذمين لأنه ضرب من أنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر . فانظر كيف يتقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح في نظر المقلد بقعة ! نموذ بالله ! يحضج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه صلى

فِي الْعَقْدِ ① وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ②

الله عليه وسلم وعنده من افتراء المشركين عليه ، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك ، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر ، لانهم كانوا يقولون : ان الشيطان يلبسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب من شروبه . وهو بعينه أثر السحر الذي كتب الى كُتَيْب ، فانه قد خالف عقله وادراكه في زعمهم .

والذي يجب اعتقاده ان القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر من المصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما بينه وعدم الاعتقاد بما بينه . وقد جاء بنقي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول بآيات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ، ويخصهم على زعمهم هذا . فاذن هو ليس بمسحور قطعا .

وأما الحديث - على فرض صحته - فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد . وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها منه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون .

على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده . أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة . وعلى أي حال قلنا ، بل علينا ، أن نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل . فانه إذا خالف النبي في عقله - كما زعموا - جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا وهو لم يبلغه ، أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه . والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان . . . ثم إن نفي السحر عنه لا يستلزم نفي السحر مطلقا . فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه لأن الله حصصه منه .

ما أمر المحب الجاهل ! وما أصب خطره على من يظن أنه يبيحه ! نموذج بالله من الخذلان . على أن نافي السحر بالرة لا يجوز أن يمد مبتدعا لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله : « آمَنَ الرَّسُولُ بِالرَّأْيِ » ، وفي غيرها من الآيات . ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ، ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بشيئونه أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ريلة . بل الذي ورد في الصحيح ، هو أن تعلم السحر كقول : فقد طلب منا إن لا ننظر بالرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ونسئ باسمه .

وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان . فان السحر في اللغة معناه صرف الشيء عن حقيقته . قال الفراء في قوله تعالى « فَاتَى تَسْحُرُونَ » : أي أتى تؤفكون وتصرفون . سحره وأفكته بمعنى واحد .

وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه ، تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التي تصرف الزوج من زوجته والزوجة من زوجها ؟ وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الأساتذة ، ونحن نرى أن كذا ألفت ودروسا تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة في بعض الحكومات ؟

وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل ، واطلع الأمر في اقبح صورة : أي بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد ، أن يتمكنوا به من التفريق

بين المرء وزوجه . وسباق الآية لآيابه ، وذكر الشياطين لابتعادنا من ذلك بعد أن سَمَّى الله خبثاء الإنس والجنَّ يُوحي بعضهم إلى بعض « . وقال : « شياطين الإنس والجنَّ يُوحي بعضهم إلى بعض » . وسحر سحره فرعون كان ضرباً من الحيلة ، ولذلك قال : « يُخِيلُ إِلَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تُنْفِقُ » وما قال أنها تنفق يسحرهم . قال يونس : تقول العرب ماسحرك عن وجه كذا ، أي ماصرك عنه ؟ ولو كان هؤلاء يفتكرون الكتاب قلده ، ويعرفون من اللغة ما يكفي لعاقب أن يتكلم ، ما هلنوا هذا الهنر ، ولا وصعوا الإسلام بهذه الوصفة . . وكيف يصح أن تكون هذه السورة نزلت في سحر النبي صلى الله عليه وسلم مع أنها مكية - في قول معطاء والحسن وجابر وفي رواية ابن كريب من ابن عباس - وما يزعمونه من الشرح إنما وقع في المدينة لكن من تعود القول بالحال لا يمكن الكلام معه بحال . . نعوذ بالله من الخيال . (وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِلَّا حَسِدًا) الحاسد الذي يفتني زوال نعمته محسوده ، ولا يرضى أن تتجدد له نعمة . وهو - إذا حسد ، أي أنفذ حسده وحققه باليسمى واليد - في إزالة النعمة من يحسده - من أشد خلق الله الذي ، ومن أخفاهم حيلة ، وأدفعهم وسيلة . وليس في طاقة محسوده إرضاءه بوجه من الوجوه ، ولا في استطاعته الوقوف على ما يندبزه من المكابد . فلانجأ منه إلا إلى الله وحده ، فهو القادر على تفاداه ، وإحباط سعيه . وقانا الله كثر الحاسدين ، وكف عنا كيد الكاذبين . والله اعلم .

سُورَةُ النَّاسِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاهَا سِتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهَ

هذه السورة مكية - كالسورة التي قبلها في قول من ذكرنا - ولا علاقة لها بسحر . ولا بما هو من ناحيته . وإنما هي أمر الله بالاستعاذة بالله والاتجاه إليه والاستعانة به على دفع شر عظيم يشبه الشرور التي ذكرت في الآية المتقدمة ، ولكنه شر قد يسبو عنه الناس فلا يبالون به لأنه يأتيهم من ناحية شهواتهم ، وتلكيس به قواهم من حيث لا يشعرون ، فيقومون به في سيئات الأعمال ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولما كان من الخفاء بحيث تضعف قوة الإنسان عن دفعه بسهولة احتاج إلى الاستعاذة عليه بالله والبالذبحوازمه ، وذلك الشر هو شر الوسواس ، قال : (قل أعوذ برب الناس) أي ألجأ إليه واستعين به . ورب الناس الذي يربيهم بالنعم ويؤدبهم بالنقم . (مَلِكِ النَّاسِ) الذي يحكمهم ويضبط أعمالهم ، ويبدئ قواهم ، ويضع لهم الشرائع ، ويحدد لهم الحدود العامة التي لا يباح لهم الخروج عنها . (إِلَهَ النَّاسِ) المستولي على قلوبهم بعظمته فلا يحيطون بشئ سلطته ، وإنما يخشعون لها : يحيط بنواحي قلوبهم ولا يدرون

النَّاسِ ٥ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٦ الَّذِي

من أي جانب باليهيم . فهو معبودهم الحق ، وملاذئهم إذا ضايق بهم الأمر .
وانما خصّ هذه الصفات ، صفات الأروحية ، بالإضافة الى الناس - مع أن الله رب كل شيء ومليك كل شيء والله كل شيء - لأن الناس هم الذين وهموا في صفاته وضلوا فيها عن حقيقة معانيها ، فجعلوا لهم أرباباً يَتَّبِعُونَ اليهم بعض النعم أو كلها ، ويلجأون اليهم في استدراجها ، ولقبوهم بالشفعاء . . وهم الذين تَخَلَّلُوا لهم حلوكا روحانيين يظنون أنهم هم الذين يَدَبِّرُونَ حركاتهم ، وهم الذين يرسمون لهم حدود أعمالهم بما يؤثرون عنهم من أفعالهم ، فيعرضون من كتاب الله الى كتبهم ، وربما ضيعوا الكتب الألهية مُعَيَّنِينَ أروها اكتفاء بما يبقى في أيديهم من مبتذعات أولئك الرؤساء .

لما أبهم لذلك يجدون في أنفسهم خشية لرؤسائهم هؤلاء ، ويخيلون لهم منها سلطة رُوحية فيخضعون لهم خضوعهم للسلطان الألهي ، ولذلك مُدَّوا آلهة لهم ، سواء لقبوهم بهذا القاب أم لم يلقبوهم به . فالتاس هم الذين اخترعوا بأوهامهم هؤلاء الأرباب والملوك والآلهة ، ولذلك خصَّهم بالذكر .

أما مايقال من الجح من أنهم فعلوا مثل الناس فذلك مما لا يظنر للناس ، ولهذا لم تعتبرهم ، وإنما كرر ذكر الناس باللفظ الظاهر دون الضمير لتقرير الأمر لفصل تقرير لشدة يعلق الجمهور الأعظم من الناس بخيال اليهم ، وتَمَسِّكُهم بأوهامهم ، وظنهم أنهم - لِكَيْتُهم ناسا أي بشرًا ، فعلا متفكرين - قد وصلوا فيما نقلوا به الى ما هو الصحيح المنطوق على الواقع . فإراد أن يَنْجُو - بلزُكُ اللفظ الدال عليهم بجانب كل صفة - الى أن الله هو ربهم ، وهم أناس متفكرون ، وتلكهم وهم كذلك ، واليهوم وهم كذلك . وباطل ما اخترعوا لأنفسهم يقولهم من حيث هم بشر .

فإذا لم يكن للإنسان رب ، ولا ملك ، ولا الله إلا الله ، فاستعد به وحده (من شر الوسواس) . أصل الوسوسة الصوت الخفي . وقد قيل لأصوات الجح عند الحركة وسوسة . والوسواس ههنا صفة كالثرثر ، أو اسم مصدر استعمل استعمال الصفة . والمراد منه الذي يلقى الحديث في النفس حديث السوء . (الخَنَّاس) : من خنس إذا رجع . وهذه الأحاديث النفسية إذا سُلط عليها نظر العقل في العوائب خفيت واصمحت ،

وسكن الوسوس من القاتلها . وحديث النفس بالقواحتس ، وضروب الآلى بالناس - إذا ذُكِرَ دين الله وأخبرت النفس مثال شره - ذهب ذلك الحديث هاء ، وخنس الوسوس . وكذلك إذا وسوس لك أحد من الناس ، ويعتك على فعل سوء ، وذكرت ذلك وذكرته به ، وأبته بخنس ويُسِك من القول الى أن يجد فرصة أخرى .

فالوسوس بالشهر كثير الخنوس لأنه من ناحية الباطل لا مَكْنَةُ له على مقاومة الحق إذا صَمَّه ، ولكنه يذهب بالنفس الى أسوأ المصائر إذا انجذرت مع الوسوسة ، وإنسافت بها الى تحقيق الخاطر بالफल . وإنما ذكر الله لنا هذا الوصف (الخَنَّاس) لينبها إلى مكان الوسوس من الضعف لتلتصم السبيل الى دفعه مع الاستعانة بالله عليه ، وليدنا على أن ما أصاب الناس من قِيلَ وإنما كان من ضعف عزائمهم وعكسا بصائرهم ، ولو استعملوا قواهم فيما جعلها الله له ماتجع الوسواس في نفوسهم ، ولا جبرهم الى سوء مصيرهم . وقد وصف الله الوسواس الخناس بقوله : (الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) . من الجِنَّة والناس بيان للذي يوسوس أو بيان للوسواس الخناس .

يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ① مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ②

فالموسوسون قسمان : قسم الجنّة ، وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثرًا يُنسب إليهم . ولكل واحد من الناس شيطان ، وهي قوة نازعة إلى الشر يَحْكُمُ منها في نفيه خواطرُ السوء . وإنما جعل الوسوسة في الصدور على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطرَ في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم . وكثيرا ما يقال : إِنَّ الشَّكَّ يَحْكُمُ فِي صَدْرِهِ ، وما الشك إلا في نفسه وعقله .

وأفاميل العقل في المخ وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم ، وضربات القلب ، ويحيي الصَّغَرُ أو انبساطه . وكل ما أوردوه في خرطوم الشيطان ، وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو القلب ونحو ذلك - فهو من التمثيل والتصوير . والا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثاني من الوسواس أو اليوسوسين - وهم الناس - فإن الله تَسَبَّحَ الوسوسة إليهم على السواء ، فقال : (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) فليكن للناس الذين يوسوسون في صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل في الصدور ويوضع على أذن القلب . فإذا ذَكَرَ اللهُ خَسَرَ الْخُرُطُومَ ، كما ذكروه في الجنّة ، ولكنهم يكثرُونَ الوصف ويخترعون ما يشاءون بأوهامهم فيما لا يراه الناس - وإن كانوا لا يبقولونه - ويجترون على الغيب فيذكرون من شئونه ما استأثر الله بعلمه ، ثم لا يكتفيهم ذلك حتى يخترعوا من الأحاديث ما يُشِيدُ أوهامهم ، وينسبون إلى السلف ما يظنون أنه يُقَوِّي مزاعمهم .

والله يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح برآء مما يُنسب إليهم من ذلك كله . وإنما هو من اختراع من لم يرض لنفسه أن يقترب جريمة واحدة : جريمة الجور أفعلى الغيب بوقبه ، حتى يضم إلى ذلك جريمة الكليب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة ... أولئك الذين إذا أُتِيَ الْقَوْلُ بهم إلى ما يعرفه الناس وَبَيَّنَّهِمْ أن يكذبوهم فيه سكتوا سكوت البُكْمِ ، ولجأوا إلى سلاحهم الذي يشرمونه في وجوهه الجنائز ، وقالوا : هكذا مذهب أهل السنة ، كَأَنَّ السُّنَّةَ عندهم مذهب جُسماني مُحَصَف لاشألية من الرُّوحانية فيه ، واغتروا على أهل السنة - وهم السلف - ما لا يعرفونه . وماذا عليهم لو أخذوا السنة والكتاب . ونظروا إلى الدين جملة ، وفسروا بعض نصوبه ببعض كما هو الواجب على المسلم الذي يؤمن بالكتاب كله ، وليس من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟ . نعوذ بالله من الوسواس الخناس الذي يُوسُوسُ في صدورِ النَّاسِ وَمِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . والله أعلم .

قال مؤلفه الإمام حفظه الله أنه فرغ منه منتصف الساعة السادسة بعد الظهر من يوم الأحد ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٠٣ في مدينة جنيف من بلاد سويسرا

فهرس

٥٥	مقدمة الكتاب
٥٦	سورة الفاتحة
٥٦	سورة النبأ
٦١	سورة النازعات
١١٥	سورة هب
٢١	سورة التكوير
٢٧	سورة الانفطار
٣١	سورة المطففين
٣٩	سورة الانشقاق
٤٤	سورة البروج
٤٨	سورة الطارق
٥١	سورة الأعلى
٥٥	سورة الفاصحة
٦٠	سورة الفجر
٦٧	سورة البلد
٧٢	سورة الشمس
٧٥	سورة الليل
٨٢	سورة الضحى
٨٧	سورة الشرح
٩٠	سورة التين
٩٣	سورة العلق
٩٧	سورة القدر
١٠١	سورة البينة
١٠٦	سورة الزلزلة
١١٦	سورة الماعديات
١٢٠	سورة القاسمة
١٢٦	سورة التكاثر
١٣٠	سورة العصر
١٣٦	سورة الهجره
١٤٠	سورة الفيل
١٤٤	سورة قريش
١٤٨	سورة الماعون
١٥٠	سورة الكوثر
١٥٤	سورة الكافرون
١٥٨	سورة النصر
١٦٢	سورة المسد
١٦٦	سورة الاخلاص
١٦٨	سورة الفلق
١٧٠	سورة الناس

راجعه على الرسم المثالي
الشيخ عامر السيد عثمان
عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف
تحت إشراف مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر

مطابع الشعب

